

المسيح يُصلب

من جديد

نيكوس كازانتزاكس

- Author : Nikos Kazantzakis
- Title: Christ Recrucified
- Translated by: Shawki Galal
- Afaq's First Edition: 2015
- Cover Design by: Amr El Kafrawy

♦ المؤلف: نيكوس كازانتزاكيس

♦ العنوان: المسيح يصلب من جديد

♦ المترجم: شوقي جلال

♦ طبعة آفاق الأولى 2015

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي



رقم الإيداع:

٢٠١٥ / ٥٤٥٠

الترقيم الدولي: ISBN

987-977-765-028-1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

4 Mohamed Mazloun st. - intersected with Houda Shaarawy - CAIRO – EGYPT

Tel: +202-2392-6114 Fax: 00202-2392-5917

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

٤ ش محمد مظلوم - تقاطع هدى شعراوي - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٣٩٢٦١١٤ فاكس: ٢٣٩٢٥٩١٧

نيكوس كازانتزاكس
المسيح يُصلب
من جرير

ترجمة : شوقي جلال

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

كازانتزاكس، نيكوس.

نيكوس كازانتزاكس : المسيح يُصلب من جديد

ط 1 القاهرة- دار آفاق للنشر والتوزيع - 2015

576 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 5450 / 2015

الترقيم الدولي 1 - 028 - 765 - 977 - 978

1 - الأدب

2 - جلال، شوقي (ترجمة)

تصدير

نيكوس كازانتزاكس، كاتب ومفكر يوناني عصري، وقمة شامخة بين كتاب الأدب العالميين إذ حقق شهرة منقطعة النظير كروائي. ولد في جزيرة كريت في الثامن من ديسمبر ١٨٨٥ ودرس القانون في جامعة أثينا ثم انتقل منها إلى باريس حيث درس الفلسفة. وعاد بعدها إلى أرض الوطن واعتزل عامين في دير للرهبان فوق جبل آتوس الذي يرد ذكره كثيرًا في رواياته. وكان اعتزاله فترة تأمل عميق اهتز معها كثير من أفكاره الموروثة وازدادت رؤاه وضوحًا وشمولًا. ثم خرج إلى الحياة ليكتب ويبدع في غير عزلة وانطواء. كان غزير الإنتاج في قوة وإبداع، مفتوح الفكر في حرية وحيوية. فقرأ كثيرًا وخلف آثارًا ودراسات عديدة متباينة. عاش حياة زاخرة بفكرها، غنية بإنتاجها. نشر مقالات في النقد والفلسفة وألف للمسرح التراجيدي، ومن مسرحياته «تسيوس» و«عطيل يعود» و«المسيح وبودا وبروميثيوس». وكتب في الأسفار «رحلات بين ربوع الصين واليابان». ونظم الشعر الغنائي والملحامي. ومن أشهر أعماله الشعرية ملحمة اسمها «الأوديسا» تتألف من ٣٣٣٣٣ شطرًا، وهي صورة ملحمة رائعة فذة للمسار الفكري لكازانتزاكس على طريق الحياة، وحاكى في نظمها ملحمة هوميروس شاعر اليونان القديم وصاحب الإلياذة والأوديسا. وعني بترجمة روائع الكلاسيكيات الأوروبية إلى اليونانية مثل «الكوميديا الإلهية» لدانتي «وفلوست»

لجيته و«هكذا تكلم زرادشت» لنيته. وتحول في مرحلة متقدمة من عمره إلى كتابة الرواية وأحرز شهرة عالمية. وتكشف رواياته عن قدرة إبداعية فذة، وتمكن في الأسلوب، وتأمل عميق للحياة. ومن أهم رواياته «زوربا اليوناني» و«المسيح يصلب من جديد» و«الإخوة الأعداء» و«الكابتن ميخائيل».

ويعد كازانتزاكس علامة هامة في تاريخ الأدب اليوناني إذ يمثل حلقة ضمن سلسلة متصلة من الأدباء اليونانيين - شعراء وروائيين - تمتد عبر قرن من الزمان أو يزيد قليلاً. وهذه هي مرحلة النهضة اليونانية أو صحة اليونان في العصر الحديث حين شرعت تبحث عن ذاتها في ماضيها وحاضرها وتصل بينهما في وشيجة قوية متينة يمتد أصلها إلى أعماق تاريخ اليونان أو الحضارة الهيلينية ابتغاء الحاضر والمستقبل بكل ما فيه من جدة وحادثة. فكانت هذه المرحلة ملحمة جديدة في تاريخ اليونان عمل فيها أدباؤها على خلق اليونان الجديدة لغة وأدباً حتى بلغوا شأواً بعيداً وأصبح لليونان أدب يضارع الآداب العالمية.

كانت اليونان قبل الاستعمار التركي وفي عصر الإمبراطورية البيزنطية تعاني من انفصال في لغتها، بين اللغة المكتوبة والمنطوقة. وكان لهذا الانفصال أثره على الحياة الأدبية إذ أدى إلى اضمحلال النشاط الأدبي. ثم جاء الاستعمار التركي فكاد يمحو كل ما بقي من آثار لهذا النشاط وأصيب الأدب بحالة كساح، وكان النفي مصير كل كاتب وأديب. ولم يبق لليونان سوى بعض الأشعار الشعبية وأغاني الحب والموت. ومع حركة التحرير بعثت الحركة الأدبية من مرقدها، وبدأت اليونان تبحث عن طريقها. ومن ثم اتجه المشتغلون بالأدب إثر التحرير إلى الغرب حيث استحوذ على إعجابهم مشاهير الأدباء الغربيين آنذاك مثل والتر سكوت وألكسندر دumas، وأقبلوا على ترجمة روائع الأدب العالمي. ومن خلال هذا التلاحم نما الأدب اليوناني الوليد واستوى على عوده، واستطاع على مدى قرن من الزمان أن يبدع شعراً ونثراً يضاهي الآداب الأوروبية الرفيعة. وتسمى هذه المرحلة باسم مرحلة التعبير الوطني، ذلك لأن الحركة الأدبية كانت تطمح إلى بناء الأمة الهيلينية والتغلب على آلام الماضي. فلم يشأ كتاب هذه المرحلة التخلي عن ماضيهم التليد ولا إغفال الحاضر لحساب الماضي. ورأوا أن للحاضر قيمته

في ذاته، وأن من الخير الربط بين الماضي والحاضر في تراث متصل. وآمن هؤلاء بأن لكل عصر مشاكله التي يعيها ويعيشها، ومن ثم فعلى كل جيل أن يعمل على علاج مشاكل عصره بكل ما تتوافر لديه في حاضره من إمكانيات بدلاً من الرجوع إلى الوراء والهروب من الواقع. فكان أدب تلك المرحلة أدب مواجهة... مواجهة الحاضر بكل ما فيه من جديد، وقبول للواقع ومشاكله وحلها وفقاً لمقتضيات العصر. فهي نظرة لا تغفل الماضي ولكن ترى الحياة ديمومة تحمل الماضي في أحشائها، بيد أنها تطور ارتقائي بحيث تتخذ مع كل عصر صورة وكيفية جديدتين. وهكذا بحث الأديب اليوناني المحدث عن صيغة جديدة تتفق مع احتياجات الفن والجمهور. استجاب الأدب اليوناني إلى التغييرات التي طرأت على الشكل في الأدب العالمي الحديث، خاصة في باريس ولكنه حافظ على الطابع القومي وعبر عن مثل وآمال الشعب اليوناني. ومن ثم كانت الحركة الأدبية بعثاً ونهضة جديدين يواكبان حركة التحرير ويكملانها.

وظهرت مع بداية هذه الحقبة مدرستان للشعر والنثر. إحداهما وهي الأولى نشأت في الجزر الأيونية وسميت بالمدرسة الأيونية (١٨٢٠ - ١٨٨٨) (١٨٨٨ - ١٩٢٠). واستطاع أدباء هذه المرحلة أن يجددوا اللغة اليونانية أو أن يلائموا بينها وبين العصر. إذ كانت اللغة اليونانية أصابها من الوهن ما أفقدها القدرة على مسابقة العصر فباتت مشكلة أو عائقاً في طريق الإبداع الأدبي يلزم تطويعها وتجديدها، حتى أن سولوموس كان يقول: «لا يشغل بالي سوى الحرية واللغة».

وكانت النهضة الأدبية الأولى نهضة شعرية، وهي النهضة التي بدأتها المدرسة الأيونية والتي كانت بمنأى عن السيطرة التركية. وعني الشعر في تلك الفترة بالتعبير عن آلام الشعب اليوناني وبطولاته وآماله. وعالج أيضاً مشاكل إنسانية الطابع: الحرية والمصير والموت والطبيعة. ثم كان النثر من بعد الشعر، على يد مدرسة أثينا. وعرف النثر انطلاقة كبرى إبان القرن العشرين. واستوحى الكتاب «جنودهم الحية» فاتخذوا من حضارتهم وتاريخهم أرضاً لها ومنطلقاً لإعادة صياغة اللغة. واستطاعت الرواية والقصة القصيرة أن تخلق من لغة اليونان الجديدة لغة أدب. وعرفت هذه الحقبة ألكسندر باباديامنتيس (١٨٥١ - ١٩١١) وأندريا

كاركافيتساس (١٨٦٦ - ١٩٢٣) وقسطنطين ثيوتوكيس (١٨٧٢ - ١٩٢٣).
وعلم طابع الرعاة على كتاباتهم إذ كانت القرية مصدر إلهامهم.
وعقب الحرب العالمية الأولى ظهر عدد من الكتاب الشباب، وكان هؤلاء رواد
مرحلة التجديد التكنيكي. ومهد هؤلاء الطريق لجيل جاء من بعدهم حمل شعلة
اليونان وواصل المسير، وهو جيل كتاب ما بعد ١٩٣٠. وقدم هذا الجيل أدباً
أكثر نضجاً تجاوز الطابع المحلي إلى العالمي. من هؤلاء سترافينيس ميريفليس،
ويورغوس ثيوتوكاس. وأصبح هذا الجيل قدوة لكتاب ما بعد الحرب العالمية
الثانية في الشعر والنثر. ومن بين هذا الجيل الأخير نيقوس كازانتزاس الذي
كشف في رواياته عن رؤية واسعة عميقة وقدرة خلاقة وتمكن في الأسلوب،
إذ استطاع أن يطوع اللغة اليونانية الجديدة ويخلق منها بمهارة وحذق أداة قوية
للتعبير.

ونلمس في كتاباته خطأ متصلًا لتأثيرات متباينة ابتداء من الأساطير والعقائد
الغيبية القديمة إلى الأفكار الواقعية في أحدث صورها. واستطاع كازانتزاس
بقدرته الفذة وعبقريته أن يربط بين هذه المؤثرات المتباينة في خيط واحد. ونلمس
في كتاباته أيضاً مسحة من التشاؤم تبرز على السطح حتى تبلغ أحياناً درجة العدمية
ويصبح الوجود عبثاً وباطلاً. وهو أيضاً إنساني النزعة بالمعنى التاريخي والفلسفي
لهذه العبارة. فعني بربط فكره بالتراث اليوناني وأصبح التراث القديم على يديه
تجربة حية ومعاناة. كما كان الإنسان، أو الوجود الذاتي الأصيل له، هو محور
أفكاره. فالإنسان هو القوة الفاعلة النشطة، وهو الوجود الحق القادر بفضل وعيه
على مواجهة المشاكل التي يفرضها عليه الوجود الخارجي والذاتي.

عبر كازانتزاس عن إنسان العصر بما يعتمل في داخله من قلق وصراع
وطموح وفشل وخير وشر، كما عبر عن الإنسان بما له من تاريخ طويل
وحضارات متعاقبة نرى فيه القديم والجديد والصراع بينهما. نراه حريصاً على أن
يربط بين الجديد والقديم، ويستخرج للجديد قيماً راسخة غير مبتورة الأصل بل
موصولة التاريخ، فهو كاتب يتحرك من خلال التراث ويعبر عن الجديد بمشاكله
العصرية.. هو يوناني، فشخصياته يونانية في طابعها وسماتها وأخلاقياتها، وهو

عالمي في معالجته لشخصياته والقضايا التي يطرحها في أعماله الأدبية. إن أدبه العالمي ومحلي في آن، فيه من العمق والشمول والأصالة ما يربط بين الماضي والحاضر، والمحلي والعالمي. إنه تجربة إنسانية بمعناها العميق الشامل بحيث يرى فيه الإنسان المعاصر، أيًا كان منبته، انعكاسًا لنفسه القلقة ولأوضاعه، فكأنما عمله الأدبي بؤرة ضوء تتجمع فيها شعاعات الشمس على مدى واسع النطاق يضم الكون كله لتتمركز في نقطة واحدة.

ورواية «المسيح يصلب من جديد» رواية من نوع القصص السيكولوجية الاجتماعية، وهي عمل فني فذ، سطرها قلم راسخ متمكن، فيها رقة فنية، وقوة حيوية نشطة، ولمسة شعرية في صوغها وتصويرها المرهف لآلام المسيح، وهي صورة ملحمية لصراع الإنسان على طول التاريخ من أجل حياة أسمى، وهي أمل إنساني قوي عارم يعتمل في صدر كل إنسان، ولكن... وهنا تتجلى مسحة التشاؤم إذ يختمها كازانتزاكس بقوله: «لا جدوى يا يسوع» فيصير الأمل سرًا كأنما نقبض الريح. ولكنه لا يترك الإنسان يتردى في وهدة اليأس المطبق الأسود القاتل، بل ثمة أمل على البعد، قد يكون عسيرًا بعيد المنال ولكنه قائم على أي حال، وعلى الإنسان أن يسعى أو على قوى الخير أن تتضافر ابتغاء هزيمة قوى الشر المتمكنة. الصليب عبء الحياة الذي يثقل كاهل الإنسان، يحمله ويرتقي الجبل الوعر سعيًا وراء الخلاص، إنه صخرة سيزيف، والصلب انتصار قوى الشر، وقيام المسيح هو الأمل.. قد يكون بعيدًا ودونه أهوال ولكنه قائم، وعلى المرء أن يحمل صليبه على كتفه، أن يعاني ويناضل، ويتخذ الطريق الوعر، الطريق الصاعد حيث يكون الخلاص. ولا خلاص بغير نضال، نضال الإنسان الحر المتمرد، حر إزاء نفسه وإزاء الوجود، متمرد على نفسه وعلى الوجود رغم العدم.

وكازانتزاكس رغم اتجاهه التشاؤمي العدمي إلا أن كتاباته كلها دعوة إلى الحياة، أن نهل منها ونقضي وطرنا، فالحياة لنا، ومن أجلها نعيش ونناضل. ويجب ألا ينصرف ذهننا هنا إلى متع الحياة بمعناها الساذج. إنه حقًا واقعي يؤمن بشهوات الحياة ويقرها، ولكن الجمال والحب أسماهما جميعًا وأرفعهما قدرًا. فهكذا كان زوربا الذي عاش حياة الواقع، أقدامه على الأرض، حياته تجربة حية

متجددة، وحين حضره الموت خطا نحو النافذة وفتح مصراعها، وبسط ذراعيه كأنما يستقبل الوجود بين أحضانه، وأطل بعينين نهمتين إلى جمال الطبيعة يرنو إلى الأفق البعيد يتمتع ناظره.. ولكن إلى الشمس الغاربة التي خضبت الأفق بحمرة الشفق. وكذلك كان الكاتبن فورتوناس في «المسيح يصلب من جديد» حين استرجع حياته وهو على فراش الموت، فلم تع ذاكرته سوى رفاق الأنس في روضة يانعة حيث الأزهار الجميلة العطرة الأريج، وألحان الماندولين، والسماء الصافية الأديم. وكأن كازانتزاكس يعزف على نفس القيثارة التي عزف عليها ديوثيسوس سولوموس رائد النهضة الأدبية الهيلينية الحديثة:

«الطبيعة سحر وحلم جمال ودلال،

تنبجس من ألف نبع، وتنادي بألف صوت،

حتى تستقر في نفس الإنسان.

إن من يمت اليوم فكأنما مات ألف مرة»

فالحياة عند كازانتزاكس ظفر بالموت، وانتصار على اليأس ونضال مستمر، وبهجة تراجيدية. إننا نقف على شفا هاوية سحيقة هي العدم ويكاد اليأس يمسك بنا ويموت الأمل. ولكن الخلاص في رأي كازانتزاكس أمل قائم فيما وراء اليأس، والنضال سبيلنا إلى التعالي أو تجاوز هذه الهوة السحيقة. والحب والعمل عدة النضال وزادنا في مسيرة الحياة، وسبيلنا إلى الانتصار على اليأس. والحب والعمل لا يكونان إلا للإنسان الحر الذي يختار حياته بكل معنى الاختيار الذي يرقى إلى مستوى الخلق. الإنسان الحر الذي يجرب حياته في كل لحظة من لحظاتها ولا يقنع بأفكار مسبقة موروثة أو قوالب محفوظة، وإنما تكون حياته معاشية فعالة نشطة خالقة، يرفض ويقبل، يهدم ويبني، والعزم والإصرار يملآن جوانحه، وقدماه ثابتتان على الأرض، غير محلق في أجواء الخيالات والأوهام، أو أسير قوالب فكرية جامدة سواء كانت تنتمي إلى الحاضر أم الماضي. يقول كازانتزاكس في رواية المسيح يصلب من جديد على لسان ياناكوس: «.. هكذا يكون الإنسان.. كائن حي يتكلم ويعترض ويسائل». فعلى هذا النحو يحقق الإنسان ذاته أو يمنحها الوجود الحق. إننا نفرض ذاتنا على الحياة، أو هكذا ينبغي أن يكون الإنسان.

وهكذا كان القسيس فوتيس في «المسيح يصلب من جديد» وهو نموذج الإنسان، ومسيرته هي مسيرة الإنسان على طريق الحياة: معاناة وجلد وتحرق وحب وعمل. يقول القسيس فوتيس: «الحياة يا إلهي عبء ثقيل، ولولاك لأمسك كل منا بيد الآخر، رجالاً ونساء، وذهبنا لنلقي بأنفسنا في هوة سحيقة ليس لها من قرار لتخلص من الحياة. ولكنك موجود، فأنت الفرحه والعزاء». ويقول لقومه بعد أن حلت بهم النوائب تطحنهم: «العمل والصبر والحب.. تلکم هي أسلحتنا». «تحررت الروح من البطون المتخمة وهي الآن قادرة على الطيران». «إن من يملك أرضاً وأشجاراً تصبح الأرض والأشجار هي ذاته، وتفقد روحه صفتها القدسية». ويسأله مانولي: «يا أبانا، ترى هل تستحق الحياة الدنيا كل هذا العناء والوقت؟» فيجيب عليه قائلاً: «نعم تستحق، وتستحق الكثير.. ولو وضعنا أيدينا إلى جنوبنا دون أن نبدي حراكاً فإننا نلقي بأنفسنا إلى التهلكة، هلاك على الأرض، وهلاك في السماء».. وهكذا فالحياة أمل عبر اليأس، ونضال حر على شفا العدم الذي يسري بين أوصال الوجود حتى يكاد يصدعه، واختيار قلق وخالق، وبهجة مأساوية، لا دعة وسكينة واستسلاماً، الحياة قلب عاشق للجمال يذوب حيناً، وابتسامة صافية لنفس نقية أسقطت عن كاهلها أهواءها وشواغلها الدنية.

عاش كازانتزاكس حياته لليونان يملأ قلبه حبها.. حب اليونان شعباً وتاريخاً وتراثاً مجيداً. عاش للإنسان للحب وللحياة وللطبيعة والجمال حتى وافته منيته يوم ١٨ من أكتوبر ١٩٥٧.. مات وبقيت آثاره منارة وضاءة في عالم الأدب والفكر تخاطب أعماقنا وتعزف على وتر الوجود الإنساني المشدود فوق حافة العدم.

وبعد، فتوخياً منا أن نقدم هذه الرواية في أكمل صورة وأصدقها رأيت ألا أقصر في نقلها إلى العربية على الترجمة الإنجليزية وحدها، بل أثرت أن أراجعتها على الترجمة الفرنسية أيضاً ضماناً للدقة ورغبة في أن تكون أقرب إلى التطابق مع النسخة الأصلية في لغتها اليونانية التي لا أعرفها. ويجدر بي هنا أن أنوه إلى ما لاحظته من اختلاف بين الترجمتين الإنجليزية والفرنسية. تبين أن كلا من الترجمتين أسقطت حيناً بعض جمل أو فقرات تصل حيناً إلى صفحة كاملة

في بعض المواضع، ولكنها قليلة جدًّا في الترجمة الفرنسية، ومسرفة إلى حد ما في الترجمة الإنجليزية. وإني إذ أقدم هذه الترجمة آمل أن أكون وفقت في نقلها بصورة أقرب إلى الصدق والكمال.

شوقي جلال

الْبَحْثُ عَنْ يَهُوذَا

جلس أغا ليكوفريس في شرفته المظلة على ميدان القرية، يدخن النارجيلة، ويحتسي العرقي، والرذاذ الدافئ يتساقط في حنّو. وعلقت بشاربه الكث قطرات من العرقي، لمعت فوق صبغته السوداء الفاحمة. وكان العرقي أشاع الدفء في جسد الأغا، فأخذ يلحق شاربه بلسانه مستمتعاً ببرودته. وعن يمينه وقف حسين، تابعه وحارسه الخاص، ممسكاً في يده بوقاً؛ وهو عملاق شرقي، خبيث كالقردة، وفي عينيه حول. وعن يسار الأغا تربع على حشية مكسوة بالقטיפ غلام تركي وسيم في خديه غمازتان، يمد يده بين الحين والحين ليشعل النارجيلة أو ليملاً كأس العرقي.

أغمض الأغا عينيه المثقلتين نصف إغماضة، مستشعراً لذة الحياة في هذا العالم الممتد تحت قدميه. وجال في نفسه خاطر يقول: «صنع الله كل شيء فأبدع صنعه، وأن الدنيا لفي غاية التمام والكمال. هل أنت جوعان؟ هاك الخبز واللحم المفروم بالصلصة وطاجن الأرز بالقرفة. هل أنت عطشان؟ هاك العرقي، إكسير الشباب. هل بك رغبة إلى النوم؟ الله خلق النوم، وليس كمثلته شيء حين يغالبك النعاس. وإذا كنت غاضباً فقد خلق الله السوط وأعجاز الرعايا. وإذا أصابك اكتئاب، فقد خلق لك أغاني آمان، آمان. فإذا شئت بعد ذلك أن تنسى أحزان هذه الدنيا وهمومها فقد خلق لك الله يوسوفاكي».

وتتمم الأغا في انفعال: «الله فنان مبدع! نعم، فنان مبدع حقًا، يعرف أسرار صنعته، وخياله عبقرى أيضًا، وإلا فكيف بحق الشيطان واتته - جلّت حكمته - فكرة خلق العرقي ويوسوفاكي؟».

واغرورقت عينا الأغا بالدموع، كان قد شرب كثيرًا من العرقي حتى غابت نفسه في خشوع رقيق. وأطل من شرفته يرقب رعاياه وهم يتجولون في الميدان، حليقي الذقون، وارتدوا أحسن ملابسهم. فسراويلهم بيضاء مغسولة في العشية، تلتف حولها أحزمة حمراء عريضة، وأحذيتهم ذات رقاب طويلة زرقاء. كان بعضهم يضع على رأسه طربوشًا، والبعض الآخر عمامة، وآخرون يضعون قلانس من فرو الخراف. وكان أكثرهم أناقة يضع خلف أذنه عود ريحان أو سيجارة.

كان ذلك في عيد القيامة، يوم الثلاثاء الكبير، بعد لحظات من انتهاء القداس. الطقس جميل رقيق، وشمس الربيع ساطعة، والمطر رذاذ، وتضوع الجو بعطر أزهار الليمون، وبرزت البراعم من فروع الشجر، وعادت الخضرة إلى أعشاب الأرض، كان المسيح يقوم في كل حفنة من التراب، والمسيحيون يروحون ويحيئون عبر الميدان، يتعانقون ويتبادلون تحية عيد القيامة: «المسيح قام» «بالحقيقة قام!» ثم يذهبون إلى مقهى قسطندي، أو يجلسون وسط الميدان تحت شجرة السنار الكبيرة، وهناك يطلبون النارجيلة والقهوة، وسرعان ما يبدأون ثرثرة لا تنتهي، تنتشر بينهم مثل رذاذ المطر.

وقال خرالامبوس خادم الكنيسة: «هكذا سيكون الفردوس شمس حانية، ومطرًا رقيقًا هادئًا وزهورًا متفتحة في أشجار الليمون، ونارجيلات وأحاديث ذات شجون إلى أبد الآبدين».

ورأى الأغا في الطرف الآخر من الميدان، خلف شجرة السنار، كنيسة القرية التي أعيد طلاؤها بالجير الأبيض، وفي طرفها يرتفع برج الجرس في رشاقة. اليوم عيد الصלב، وبوابة الكنيسة يغطيها بهذه المناسبة سعف النخيل وفروع الغار. وحول الكنيسة تكثر الدكاكين الصغيرة والحوانيت. ومن بينها دكان بانايوتي السروجي، هذا الجلف الغليظ الذي اشتهر باسم «آكل الجبس». أحضروا في القرية ذات يوم تمثالًا نصفيًا من الجبس لنابليون فأكله. وأحضروا مرة أخرى

تمثالاً لكمال باشا، فأكله أيضاً. وأخيراً أحضروا تمثالاً للزعيم الكريتي فينزيلوس فأكله بدوره.

أما الدكان المجاور فهو دكان أندونيس الحلاق، يحمل اسمه، وعلى بابه لافتة كتب عليها بحروف كبيرة حمراء فاقعة: «هنا نخلع الأسنان أيضاً».

وبعد ذلك يوجد محل جزارة ديمتري الأعرج، وعليه لافتة تقول: «بناء على طلب هيروديا من هيرودس نقدم رؤوس عجول طازجة» وفي كل سبت يذبح ديمتري عجلًا، بعد أن يطلي قرونيه بلون الذهب، ويصبغ جبهته، ويعقد حول رقبته شرائط حمراء، ثم يسوقه عبر حواري القرية وهو يعرج ويتغنى بمزياه.

وعند آخر الدكاكين يوجد مقهى قسطندي الشهير، وهو عبارة عن صالة ضيقة طويلة رطبة، معبقة برائحة القهوة والطباق دائماً، وبراءحة مشروب السحلب شتاء. وعلى جدران المقهى ثلاث صور معبرة مرسومة على الورق المقوى هي مفخرة القرية كلها. على اليسار صورة القديسة جنيفيف، نصف عارية وسط غابة استوائية، وعلى اليمين صورة فخمة للملكة فيكتوريا بعينيهما الزرقاوين وصدرها الممتلئ كصدور المرضعات، وفي الوسط تمامًا صورة كمال باشا بوجه قاسي الملامح وعينين عسليتين ثاقبتين، وعلى رأسه قلنسوة طويلة من الفرو.

إن كل أبناء القرية رجال أنقياء مجدون في أعمالهم، وآباء طييون. وأغا القرية أيضاً رجل نقي خصوصاً في حبه للعرقى والعطور النفاذة - كالمسك والبتشول - وفي حبه لغلامه الجميل الجالس إلى يساره على الحشية المكسوة بالقטיפه. إن الأغا يشعر بالمتعة وهو يحملق في المسيحيين كالراعي عندما يحملق في قطيعه، فتغمره النشوة.

وحدثته نفسه:

- إنهم ناس ممتازون. ملأوا مخزني هذا العام أيضاً بهدايا عيد القيامة، جبن، وفطير بالمسمم، وكعك، وبيض أحمر.... وأحضر أحدهم - حفظه الله وأبقاه - صندوقاً من لبان خيوس هدية لغلامي يوسف فاكى، يعضغه فيعطر فمه الصغير...». وشعر الأغا بالسعادة. وسرحت خواطره إلى مخزنه الممتلئ بأطياب الأشياء، بينما يتساقط المطر خفيفاً، وتصيح الديكة، ويقبع إلى جانبه يوسف فاكى عند

قدميه، يعض اللبانة، ويطرق بلسانه في لذة.
وفجأة شعر الأغا بأن قلبه يفيض نشوة. ومال بعنقه ليغني مقطعاً من أغاني
آمان، لكن المحاولة كانت أصعب مما يستطيع. فالتفت إلى حارسه الخاص
حسين وأشار إليه أن يطلق البوق ليسكت الرعية. ثم استدار نحو يوسفافي على
يساره قائلاً:

«يوسفافي، غن لي شيئاً، باركك الله. غن لي دنيا تاير روياتاير، آمان آمان،
غن لي وإلا زهقت روحي».
تمهل الغلام الجميل وهو يسحب اللبانة من فمه ويلصقها على ركبته العارية،
وأسند خده إلى راحة يده اليمنى يغني للأغا أغنيته المفضلة: «الدنيا والحلم شيء
واحد، آمان، آمان».

أخذ صوت الغلام الذي يشبه صوت الناي يعلو ويهبط في هديل كهديل
الحمام. وأغمض الأغا عينيه مسلوب اللب، وهو يسمع غناء الغلام، حتى لقد
نسي الشراب.

ونظر قسطندي ناحية الأغا، وقال هامساً وهو يقدم القهوة: «هذا يوم من أيامه
الجميلة. بارك الله في العرقي!» وأضاف ياناكوس بابتسامة خبيثة: «بل بارك الله
في يوسفافي!».. وياناكوس هذا بائع متجول وطواف ينقل الرسائل، له لحية
شهباء قصيرة كثة، وعينا طائر جارح.

وغمغم حاجي نيكولا شقيق القسيس:

– «بل لعنة الله على القدر الأعمى الذي جعله أغا وجعلنا رعايا».

إن حاجي نيكولا ناظر مدرسة القرية وهو رجل جاف العود يضع على عينيه
نظارة، وتبرز في عنقه تفاحة آدم كبيرة مدببة تعلو وتهبط عندما يتكلم.

اشتعل حماسه عندما عاودته ذكريات أجداده الغابرين، فتنهده وعاد يقول:

– «أتى حين من الدهر كان فيه أبناء شعبنا الإغريق سادة هذه الأراضي. ثم
دارت هذه العجلة وجاء أهل بيزنطة، وهم أيضاً إغريق ومسيحيون.. ثم دارت
العجلة مرة أخرى وأتى أبناء هاجر.. ولكن المسيح قام من جديد أيها الأصدقاء،
وبلادنا ستقوم أيضاً. هيا يا قسطندي قدم لنا الشراب مرة أخرى».

وانتهى الغناء فأعاد الغلام الجميل اللبانة إلى فمه وأخذ يلوكها ثم غاب في
النعاس مرة أخرى. وانطلق البوق ثانية. «الآن تستطيع الرعية أن تعود إلى الضحك
والصياح في حرية».

وظهر على باب المقهى كابتن فورتوناس، إنه واحد من الأعضاء الخمسة في
مجلس شيوخ القرية، طويل القامة، ضخم الجثة، وكان فيما مضى يملك مركبًا
قطع به كل أرجاء البحر الأسود خلال سنوات طويلة يحمل القمح الروسي، ولا
يتورع عن التهريب. وللكابتن وجه أُمرد وبشرة زيتونية وجلد مدبوغ وتجاعيد
غائرة وعينان ضيقتان براقتان فاحمتا السواد. تقدمت به السن، وكذلك هرم مركبه.
وفي إحدى الليالي تحطم المركب على صخور الشاطئ بالقرب من أسطنبول.
ومع حطام مركبه تحطمت آماله فعاد يائسًا إلى قريته، وصمم على أن يعب من
العرق قدر ما يستطيع، حتى تأتي ساعته فيدير رأسه إلى الحائط ويلفظ آخر
أنفاسه. شاهدت عيناه الكثير، وحسبه ما أصابه من الدنيا. لا، فالحق أنه لم يصب
كفائته، ولكن التعب أضناه وإن كان الخجل يمنعه من الاعتراف.

في ذلك اليوم انتعل القبطان حذاءه ذا الرقبة، ولف حول وسطه الحزام الأصفر،
ووضع على رأسه قلنسوة الأعيان المصنوعة من فرو الاستراكان الأصلي وأمسك
بيده عصا كبيرًا كعادة شيوخ القرية، ونهض بعض أبناء القرية واقفين في احترام
يدعونه لتناول كأس من العرق.

فأجاب:

- ليس عندي وقت يا أبنائي حتى للعرق. المسيح قام. وأنا ذاهب إلى منزل
القسيس فهناك سنعقد اجتماعًا لأعيان القرية. وهؤلاء الذين وجهت إليهم الدعوة
يجب أن يحضروا على هناك أيضًا في أقل من ساعة. هيا ارسموا علامة الصليب
وتعالوا. لا شك أنكم تعرفون ما هو عملنا اليوم. آه! ليذهب أحذكم ويحضر
باناوتي السروجي ذا اللحية الشيطانية فنحن في أشد الحاجة إليه».

وصمت لحظة، وغمز بعينه في خبث قائلاً:

- إذا لم يكن في بيته، سيكون عند الأرملة.

فانفجروا جميعًا ضاحكين.

ورد عليهم كريستوفيس المكارى العجوز، الذي تعلم في شبابه معنى الهوى،
ودفع من أجله ثمنًا غاليًا. صاح في حدة:

- ماذا يضحكمكم يا أصحاب العقول الصغيرة؟ بانايتي على حق. افعل أيها
الملعون ما يحلو لك ولا تنصت لأحد! الحياة قصيرة والموت طويل فامض في
سبيلك يا ولدي.

وهز ديمتري الجزار البدين، رأسه الحليق قائلاً:

- ليحفظ الله أرملةنا كاترينا. يعلم الشيطان كيف أنقذت رؤوسنا من القرون!.
قال الكابتن فورتوناس ضاحكًا:

- هيا يا أولاد لا تختلفوا! فكل قرية لا بد لها من امرأة شاذة تحمي حرائر
النساء من ازعاج الرجال. إنها أشبه بالنبع على قارعة الطريق يرده الظماء فيروون
ظمأهم. ولولا ذلك لقصدوا أبواب بيوتنا جميعًا يدقونها بابًا بعد آخر. وعندما
يطلب الماء من النساء...

والنفث فلمح ناظر المدرسة:

- أما تزال هنا يا حاجي نيكولا؟ أأنت مدعوًا لاجتماع مجلس الأعيان؛ حتى
المقهى حولتها إلى مدرسة؟ كفى دروسًا وتعال معي.

وهنا غمز كريستوفيس بعينه للصحاب وسأل:

- ألا تريدني أن أحضر أيضًا؟ أستطيع أن أقوم بدور يهوذا.

ولكن الكابتن فورتوناس كان قد مضى يصعد الطريق المنحدر متكئًا بكل
ثقله على عصاه. لم يكن في ذلك اليوم حسن المظهر. عادت آلام الروماتيزم
تعتصر جسده، ولم يغمض له جفن طوال الليل. وفي الصباح الباكر عب بعض
الزجاجات الكبيرة من العرقي علاجًا لآلامه، لكن الألم لم يزايله لحظة ينعم فيها
بالسكينة، وحتى العرقي لم يستطع أن يؤثر فيه.

وقال يحدث نفسه:

- لولا الخجل لانفجرت صارخًا. ربما كان في هذا ما يخفف بعض آلامي،
ولكن هذا الشيء اللعين الذي يسمى احترام النفس يمنعي، إذ يجب أن أمشي
أمام الناس بادي البشاشة. وإذا سقطت العصا من يدي يجب أن أنحني بنفسي

لألتقطها ولا أسمح لأحد أن يساعدني في ذلك... هيا يا كابتن فورتوناس. عض على شفتيك بشدة! انشر شراعي يا فتى، وامخر عباب الموج! ولا تفعل ما يملؤك بالخجل. فما الحياة والله إلا زوبعة وتمر!

وغمغم الكابتن وهو يسب ويلعن. كان يصعد الطريق وهو يترنح من جانب إلى آخر. وتوقف لحظة وجال بنظره فيما حوله. لم يكن هناك من يراه. وتنهد بصوت مرتفع، فخفف هذا من ألمه. ورفع بصره إلى الجانب المرتفع في طرف القرية فلمح بين الأشجار بيتاً أبيض ذا نوافذ زرقاء هو بيت القسيس. وغمغم الكابتن وهو يستأنف طريق الصعود.

- أي فكرة خطرت لهذا القسيس الشيطان عندما بنى منزله هناك بأعلى التل؟
لتنزل لعنته على رأسي!.

كان اثنان من الأعيان قد وصلا قبل الكابتن إلى منزل القسيس، وتربعا على الأريكة الكبيرة، ينتظران في صمت تقديم تحية الضيافة المعتادة. وذهب القسيس إلى المطبخ يعطي أوامره لابنته الوحيدة ماريوري، وهناك كانت الفتاة تضع على الصينية الأكواب والماء البارد والمربى.

وفي مكان الصدارة تربع إلى جانب النافذة كبير شيوخ قرية ليكوفريس وعمدتها. إنه جورج بطرياركاس، رجل مهيب المنظر، ضخمة الجثة. يلبس سروالاً من التيل الفاخر، وصدراً موشي بالذهب، وحول خنصره خاتم ذهبي كبير يستخدمه أيضاً كخاتم خاص يحمل الحرفين الأولين من اسمه، ج. ب. يده سميتان بضتان مثل يدي الأسقف، فهو لم يعمل بهما شيئاً طوال حياته لأن لديه رهطاً كاملاً من الخدم والحشم يكدون في خدمته. وهو مترهل الجسد، ضخمة الأرداف عريضها، متهدل الكرش وله لحية تنزل على ثلاث طبقات لتصل إلى صدره المكتنز ذي الشعر الكثيف. سقطت من ثناياه سنتان أو ثلاثة، وهذا هو العيب الوحيد في هذه اللوحة الرائعة. ولهذا كان يلثغ في كلامه ويتهته. ولكن حتى هذا العيب كان يزيد من مهابته، إذ كان يرغم مستمعه مهما كان أن ينحني نحوه لكي يتبين كلامه.

وفي أحد أركان الحجرة على يمينه كان لاداس العجوز، يجلس منكشاً على نفسه في مذلة وخنوع. هزيل الجسم، قدر المظهر، ناتئ عظام الوجه، أعشى العينين، له يدان ضخمتان يغطيهما جلد ميت. ولاداس هذا هو أغنى أهل القرية، قضى سبعين عاماً منكباً على الأرض، يفلحها. يبذر ويحصد، يزرع فيها أشجار الزيتون والكرم، يعتصرها ويمتص دمه. لم ينفذ عن نفسه ترابها ولو مرة واحدة منذ كان صبيّاً. انكب عليها بنهم لا يشبع، يريد أن يأخذ منها ألف ضعف لما يقدمه لها، دون أن يقول أبداً «شكراً لله!» بل هو دائماً ساخط متذمر. والآن وتقدمت به السن لم تعد الأرض تكفيه، كان يشعر باقتراب أجله، فيندفع في لهفة ليلتلع القرية كلها قبل أن تأتي ساعته. لهذا اشتغل بإقراض النقود بالربا الفاحش لأهل القرية. وكان هؤلاء الذين يخونهم الحظ يرهنون لديه كرومهم وحقولهم وبيوتهم، فإذا حل موعد السداد ولم يجدوا معهم ما يوفون به ديونهم يبيع ممتلكاتهم بالمزاد، ويبتلع لاداس العجوز كل شيء.

ومع ذلك تراه دائماً يئن بالشكوى، وهو لا يأكل من الطعام ما يسد رمقه، وزوجته بنيلوب تسير حافية القدمين. وحتى البنت الوحيدة التي أنجبها بعد سنوات طويلة تركها تموت لأنه رفض أن يستدعي لها طبيباً يوم غلبها المرض. كان يقول في ذلك الوقت:

- المدن الكبيرة نائية، والتكاليف باهظة! فكيف أستطيع أن أحضر لها طبيباً؟ فليذهب الأطباء إلى الشيطان! عندنا هنا القسيس، وهو يعرف الأدوية القديمة، ولن أدفع له على الأكثر سوى ثمن المرهم. ومع ذلك سوف تشفى ابنتي، ولن يكلفني ذلك كثيراً.

ولكن الأدوية المخلوطة التي قدمها القسيس لم تجد فتىلاً، والزيت المقدسة لم تفعل شيئاً، وماتت الصبية في السابعة عشر وبذلك أفلتت من أبيها. أما هو فاستطاع أن يفلت أيضاً من تكاليف زواجها. وفي أحد الأيام، بعد عدة شهور من وفاة ابنته، بدأ يقدر هذه التكاليف:

«مهر: كذا وكذا تقريباً، ثياب الزفاف والموائد والمقاعد تكلفني كذا. ثم لا بد من دعوة الأقارب يوم الزفاف، ويجب أن أقدم لهم قائمة طعام تملأ بطونهم

الشرهة، ولنحسب مثلاً اللحم والخبز والنبذ: كذا.. وحسب حاصل الجمع فكان رقمًا كبيرًا، فابنته كانت ستفقد كل ما يملك. «ثم ما وجه الخطورة في أن تموت؟ فكل نفس ذائقة الموت.. وفضلاً عن ذلك فقد تخلصت من هموم الدنيا: الزوج والأطفال والأمراض وأعمال البيت.. في الحقيقة أنها كانت محظوظة، ليتغمدها الله برحمته.

دخلت ماريوري تحمل الصينية وحيث الأعيان. وعندما وقفت أمام عمدة القرية خفضت عينيهما. كانت شاحبة الوجه، ذات عينيْن واسعتين وحاجبين مرسومين بدقة، تجدل شعرها الكستنائي في ضفيرتين طويلتين تلتفان كالتاج حول رأسها. وتناول العمدة الشيخ ملعقة ممثلة من مربى الكريز، ورفع الكوب إلى فمه وهو ينظر إلى الفتاة قائلاً:

- نخب زفافكما يا صغيرتي ماريوري! ابني لم يعد يطيق صبرًا.
فابنة القسيس هي خطيبة ابنه الوحيد ميشيل. وكان القسيس يفخر بهذا القران ويحلم بأن يحصل منه في أقرب وقت على أحفاد صغار.
وأضاف الشيخ ضاحكاً وهو يغمز بعينه أمام الفتاة:
- أستطيع الآن أن أفهم لماذا يفقد هذا الجرو الصغير صبره؟ يقول إنه لم يعد يحتمل...

واحمر وجه الفتاة حتى أذنيها، وانعقد لسانها فلم تجر جوابًا.
ودخل الأب جريجوريس بزجاجة نبذ من نوع المسكات وهو يقول:
- أدام الله علينا الفرح! ليباركهما المسيح والعذراء البتول!
والقسيس رجل خشن المظهر، ممتلئ الجسم موفور الصحة له لحية شديدة البياض ذات شعبتين. وكانت تفوح منه رائحة البخور. لاحظ القسيس ارتباك ابنته فقال متسائلاً ليغير موضوع الحديث:

- متى يأذن الله ستزوج ابنتك بالتبني لينيو؟
ولينيو هذه ابنة غير شرعية من كثيرات أنجبهن الشيخ من خادماته. وكان خطبها إلى راعيه المخلص الوديع مانولي. ومهرها مهرًا سخياً، قطيعاً من الخراف يرعاه مانولي على جبل العذراء المواجه للقرية.

وأجاب:

- قريباً جداً بإذن الله. لينيو متعجلة. أراها متلهفة، هذه الفتاة المحظوظة. وأحسب أن ثدييها امتلاً وأصبحت بحاجة إلى طفل يرضعهما. منذ أيام قالت لي اقترب شهر مايو يا سيدي وأزف الوقت.

وانطلق الشيخ يقهقه من قلبه، ولحيته الكثيفة المثلثة تهتز. وعاد يقول:
- الحمير هي التي تتزوج في شهر مايو. ولينيو على حق في قولها إن الوقت أزف. وهؤلاء الناس رغم أنهم خدم، إلا أنهم بشر أيضاً.
وقال القسيس:

- مانولي ولد طيب، وسيعيشان في سعادة.
وأمن العمدة الشيخ على ذلك قائلاً:

- هذا صحيح، وأنا أحبه تماماً كابني. رأيته لأول مرة عندما ذهبت إلى دير القديس بانتيليمون. لا بد أن عمره آنذاك كان خمسة عشر عاماً. قدم لي تحية الضيافة. إنه ملاك حقيقي، لا ينقصه سوى الجناحين. وشعرت بالشفقة نحوه وقلت لنفسني: «خسارة أن يذبل مثل هذا الغلام الوسيم داخل الدير كالخصيان». وذهبت إلى صومعة سيده الأب ماناس، وكان رجلاً مشلولاً منذ سنوات. فقلت له يا أبانا، أود أن أطلب منك خدمة. وإذا وافقت عليها سأهدي الدير مصباحاً من الفضة. وأجاب الراهب: «لك ما تشاء يا شيخ عدا مانولي».
- إنه هو بالضبط عين ما أريد. أود أن ألحقه بخدمتي.

وتنهَّد الراهب العجوز قائلاً:

- أحبه كابني، بل هو ابني فعلاً، لم يرتكب معي خطأ، وأنا رجل عاجز مقطوع عن الدنيا وليس لي من رفيق سواه. طوال الليالي أحدثه عن النساء والقديسين، وهكذا يتعلم هو وأشغل أنا وقتي.
وأجبت قائلاً:

- أتركه يا أبانا ينزل إلى الدنيا: ينجب أطفالاً ويعيش، وبعد أن ينال من الحياة غايته يستطيع أن يصبح راهباً. وبعد إلحاح شديد استطعت أن أصحب الغلام معي. وما أنذا أعطيه اليوم لينيو. إنني لأدعو لهما بالحظ السعيد».

وتضحك لاداس العجوز في خبث قائلاً:

- سوف تحصل منه أيضاً على ذرية جديدة.. وتناول على طرف ملعته حبة كرز واحدة وأخذ يمضغها، وشرب جرعة من نبيذ المسكات. وقال في ابتهاج:
- جزانا الله ثواب عملنا، ووقانا شر الموت جوعاً! فبساتين الكرم والمحاصيل ليست على ما يرام هذا العام. وهذه مصيبة!.
وقاطعه القسيس بصوته الأجش:

- الله هو الرزاق أيها العجوز لاداس! تشجع! شد الحزام على بطنك، ولا تبذر، فالإفراط في الأكل مفسدة. لا تكن كثير السخاء، ولا تضيع أموالك على الفقراء كما اعتدت أن تفعل.

وانفجر الشيخ بطريار كاس مقهقهة حتى اهترت جدران البيت.
مد يده الغليظة كأنما يتسول وقال بصوت يتصنع البكاء:
- قدموا الصدقات أيها المسيحيون، فالأب لاداس يموت جوعاً.
وتردد وقع أقدام ثقيلة صاعدة كانت درجات السلم تتر تحت ثقلها. ونهض القسيس ليفتح الباب قائلاً:

- ها هو الكابتن فورتوناس، ذئب البحار العجوز. انتظري يا ماريوري ولا تنصرفي. فلنقدم له شيئاً يشربه.. سأذهب لأحضر له كوباً كبيراً وزجاجة عرقي. فإنه يشم من بعيد رائحة الخمر.

وتوقف الكابتن لحظة أمام الباب يلتقط أنفاسه. ثم دخل وهو يبتسم، لكن العرق كان يتصبب من جبينه. وظهر خلفه مباشرة ناظر المدرسة. فكان قد جرى طويلاً ليلحق به حتى تقطعت أنفاسه. وخلع قبعته يروح بها. وفي تلك اللحظة عاد القسيس بزجاجة العرقي. وقال الكابتن للأعيان الثلاثة:

- المسيح قام يا أحبائي!
وجلس على الأريكة الكبيرة بأقصى ما يستطيع من خفة، وهو يعض على النواجذ من الألم. ثم التفت نحو الفتاة وقال:

- يا صغيرتي ماريوري، لست أريد مربى ولا قهوة. فهما مناسبان تماماً لعجائز النساء. حسبي هذا الكوب الصغير الذي يسميه الناس كأساً.

وأفرغ الكوب في جوفه دفعة واحدة، وأضاف:
- نخب زفافكما.

وارتشف ناظر المدرسة رشفة من فنجان القهوة الصغير ثم قال:
- اليوم يوم عظيم. لن يمضي وقت طويل حتى يحضر الناس. يجب أن نشرع إذن في اتخاذ قرارنا.

وخرجت ماريوري تحمل الصينية. وأغلق القسيس الباب بالمزلاج. وفجأة اكتسى وجهه الذي لوحته الشمس بسيماء القداسة، وأبرقت عيناه تحت حاجبين كثيفين. هذا القسيس أكل شريب خمر، عنيف الكلمات إذا انفعل، ماهر في استخدام قبضة يده إذا غضب. حتى في هذه السن المتقدمة لا تزال الدماء تثور في عروقه كلما نظر إلى النساء. فالأهواء البشرية تملأ رأسه وصدره وبطنه. ولكنه لا يكاد يبدأ القداس أو يمد يده ليبارك أحدًا، أو يستنزل اللعنة عليه، حتى تهب عليه ريح عاتية ويصبح شيئًا آخر فإذا بالأب جريجوريس الشره، السكير، الشهواني يتحول إلى نبي.

وبدأ الحديث بصوت وقور قائلاً:

- إخواني أعضاء المجلس. هذا يوم مهيب. الله يرانا ويسمعنا. اذكروا جيدًا أن كل كلمة تقال هنا سوف يسجلها الله في اللوح المحفوظ، المسيح قام، ولكنه لا يزال مصلوبًا داخل أجسادنا. فلنجعله يا إخواني يقوم فينا أيضًا. أيها الشيخ بطرياركاس انس في هذه اللحظة أمور الدنيا. حصلت على كسب وفير في حياتك أنت وأهلك. أكلت وشربت ومتعت جسدك أكثر مما يفعل الناس. ارتفع بروحك الآن فوق هذه الملذات جميعًا وساعدنا على اتخاذ القرار. وأنت يا لاداس العجوز انس في هذا اليوم الجليل ما تملك من زيت وخمر والجنيهات الذهبية التركية التي تكدها في خزانك. أما أنت يا أخي، ناظر المدرسة، فليس عندي شيء يقال لك، فروحك تسمو دائمًا فوق ملذات الطعام والنقود الذهبية والنساء وتتصل بالله وتنشدر رحمته. ولكنك أنت يا كابتن، أيها الآثم القديم، ملأت أرجاء البحر الأسود بمظالمك. فاتجه اليوم في خاتمة حياتك إلى التفكير في الله، وساعدنا بما تستطيع لتتخذ قرارًا عادلًا.

وصاح الكابتن في وجهه:

- دع الماضي يا أبانا! الله يحكم يوم الحساب! ولو أتيح لنا أن نتكلم بحرية
مثلك فأعتقد أننا سنجد أشياء كثيرة تقال عن قداستكم.

وأضاف العمدة حانقاً هو أيضاً:

- تكلم يا أبانا، ولكن تدبر جيداً كلماتك فأنت تخاطب الأعيان.

وزمجر القسيس غاضباً:

- أنا أخاطب مجموعة من الديدان، وأنا أيضاً لست سوى دودة مثلكم..
فلا تقاطعوني. ضيوفنا سيحضرون بين لحظة وأخرى، ولا بد وأن نكون اتخذنا
قرارنا. أنصتوا إذن: هذا تقليد عريق توارثته الأجيال في بلدتنا. اعتدنا أن نختار
من أهل القرية كل سبع سنوات خمسة أو ستة لنبعث في أشخاصهم آلام المسيح
عندما يحل الأسبوع المقدس. مضت ست سنوات وحل العام السابع. يجب علينا
إذن نحن أعيان القرية أن نختار اليوم من أهل بلدتنا هؤلاء الجديرين بأن يجسدوا
في أشخاصهم الرسل الثلاثة الكبار بطرس ويعقوب ويوحنا، وهذا الذي يتجسد
فيه يهوذا الأسخريوطي، وتلك التي تتجسد فيها مريم المجدلية العاهرة. ثم فوق
ذلك كله - وسامحني يا إلهي - هذا الذي يستطيع أن يحفظ طهارة قلبه طوال العام
ليمثل المسيح المصلوب.

وسكت القسيس لحظة ليلتقط أنفاسه. فانتبه ناظر المدرسة هذه الفرصة،
وبدأت تفاحة آدم تعلقو وتهبط في عنقه وهو يقول:

- كان القدماء يسمون ذلك «السر»، وتبدأ طقوسه يوم أحد السعف في الفناء
الخارجي للكنيسة. وتنتهي في منتصف ليلة سبت النور في حديقة الكنيسة بقيام
المسيح. الوثنيون كانت لديهم المسارح والملاعب، والمسيحيون لديهم أسرار
الكنيسة.....

ولكن الأب جريجوريس لم يعطه فرصة الانطلاق، فقاطعه قائلاً:

- حسن.. حسن، الجميع يعرفون هذا كله أيها الناظر المحترم! دعني أتم
حديثي. إن الكلمات تتحول إلى أجساد. وهكذا نرى بعيوننا ونلمس بأيدينا آلام
المسيح. ومن كل القرى المحيطة يتوافد الحجاج، ينصبون خيامهم حول الكنيسة،

ينتحبون ويلطمون الصدور طوال أيام أسبوع الآلام. ثم تنطلق صيحة «المسيح قام» فتبدأ مظاهر البهجة والرقص.... وأنتم تذكرون يا إخوتي المعجزات الكثيرة التي تحدث في تلك الأيام. وما أكثر الخطاة الذين يجهبون بالبكاء ويتوبون. وبعض الملاك الأثرياء يعترفون بالخطايا التي اقترفوها في جريهم وراء الثروة، فيهبون الكنيسة بستان كرم أو حقلاً ابتغاء خلاص نفوسهم. هل تسمعي يا أب لاداس؟

وانفجر لاداس العجوز يقول مغتاضاً:

- استمر، استمر يا أبانا ولا تقذفني بالحجارة. ثم اعلم أن هذه الحيل لا تجدي معي.

واستأنف القسيس حديثه:

- اجتمعنا اليوم إذن لكي نختار.. بإلهام من الله.. هؤلاء الذي نوكل إليهم الأدوار في هذا السر المقدس. فتكلموا بحرية، وليدل كل منكم برأيه! أيها الشيخ بطرياركاس، أنت رأس الأعيان، فتكلم أولاً، وما نحن ننصت لك. وتدخل الكابتن قائلاً في انفعال:

- عندنا يهوذا: بانايوتي أكل الجبس! لن نجد أحسن منه! شرس، وجهه مغطى بآثار الجدري، قرد حقيقي من نوع الغوريلا التي رأيتها في أوديسا! والشيء الأكثر أهمية هو أن شعره ولحيته مناسبان تماماً للدور، لونهما أحمر كلون الشيطان نفسه. وقال القسيس بلهجة قاسية:

- ليس هذا دورك في الكلام يا كابتن، لا تتعجل. فهناك من لهم أسبقية عليك. تفضل يا شيخ بطرياركاس.

وأجاب العمدة بطرياركاس:

- ماذا أقول لك يا أبانا؟ لست أريد سوى شيء واحد: أن تختاروا ابني ميشيل لدور المسيح.

وقاطعه القسيس قائلاً بلهجة جافة:

- مستحيل، ابنك شاب ثري، بدين سمين، أكل وشرب خمر، مرفه في حياته، أما المسيح فكان فقيراً نحيلًا. اسمح لي أن أقول إن هذا لا يوافق ذاك. ثم

هل ميشيل يستطيع أن يتحمل مشقة هذا الدور الصعب؟ إنه سيضرب بالسياط، ويوضع على رأسه إكليل من الشوك، ويوضع على الصليب. ميشيل لن يقوى على ذلك. هل تريد أن يسقط إعياء؟

وتدخل الكابتن قائلاً:

- الأهم من ذلك كله أن المسيح كان أشقر بينما شعر ميشيل وشاربه في لون الفحم الأسود.

وقال لاداس العجوز وهو يتضحك في خبث:

- بالنسبة لمريم المجدلية، عندنا الشخص المطلوب تماماً: كاترينا الأرملة. هذه الداعرة تتوافر فيها كل الصفات المطلوبة: العهر والجمال والشعر الأشقر الطويل. رأيتها ذات يوم في فناء منزلها تمشطه، كان ينسدل إلى ما تحت ركبتها. لعنة الله عليها! إنها تستطيع أن توقع رئيس الأساقفة في الخطيئة. وفتح الكابتن فمه ليضيف بعض الدعابات المبتذلة، ولكن القسيس نظر إليه نظرة عقدت لسانه.. وقال القسيس:

- العثور على الأشرار سهل. يهوذا ومريم المجدلية. لكن ماذا عن الأخيار؟ في هذا أنتظر منكم النصح. أين نجد- أستغفر الله- رجلاً يشبه المسيح؟ على الأقل يجب أن يشبهه إلى حد ما في هيئة جسمه. لا نريد أكثر من هذا. هذه الفكرة حاصرتني أياماً وأسابيع وحرمتني النوم عدة ليال. لكن أحسب أن الله من علي وأخذ بيدي، وأظن أنني عثرت على الشخص. وسأل العمدة العجوز كأنما أصيب بلدغة:

- من هو؟ أين؟

- بعد إذنك أيها العمدة، هو واحد من المشتغلين في خدمتك. وسيادتكم تكونون له الحب أيضاً: مانولي راعي غنمك. إنه وديع كالحمل، وهو يقرأ ويكتب ثم إنه كان في الدير. له عينا زرقاوان، ولحية قصيرة صفراء في لون عسل النحل. إنه صورة صادقة للمسيح كما تصوره الأيقونات. وفوق ذلك فهو شديد التقوى، ينزل من الجبل كل أحد يسمع القداس، وفي كل المرات التي أتى فيها إلى الكنيسة للمناولة أو الاعتراف لم أكتشف قط أنه ارتكب معصية صغيرة.

- واعترض لاداس العجوز بصوت كالصرير:
- إن به لوثة طفيفة، وتترأى له أشباح.
- وقال القسيس مؤكداً:
- لا ضير في ذلك، فالمهم أن تكون النفس طاهرة.
- وقال الناظر بكلمات بليغة:
- إنه قادر على احتمال ضربات الشياطين، ووخز إكليل الشوك وثقل الصليب.
- وفضلاً عن ذلك فهو راع. وهذه ميزة أخرى فيه. فالمسيح أيضاً راع لقطعان البشر.
- وقال الشيخ بطرياركاس بعد تأمل:
- أنا أوافق. لكن ماذا عن ابني في هذه الحالة؟
- وأجاب القسيس في حماسة:
- إنه يصلح أكثر من غيره لدور يوحنا الرسول. تتوافر فيه كل الصفات المطلوبة فهو من أسرة كريمة، ممتلئ الجسم، أسود الشعر، وعيناه عسلتان.
- وهكذا تماماً كان تلميذ المسيح المفضل.
- وتكلم ناظر المدرسة وهو يرقب أخاه القسيس في ارتباك:
- بالنسبة لدور الرسول يعقوب يبدو لي أننا لن نجد أصلح من قسطندي صاحب المقهى، فهو جاف العود، شرس المظهر، عنيد، ضيق الخلق. وبهذه الصفات يوصف يعقوب الرسول.
- وعاد الكابتن يتدخل في الحديث:
- إن له زوجة تربيه نجوم الظهر. ترى هل كان الرسول متزوجاً أيضاً؟ ما رأيك في ذلك يا أعلم العلماء؟
- وصاح القسيس غاضباً:
- لا تهزل في الأمور المقدسة أيها المجدف. لست الآن على ظهر مركبك تلقي البذات على بحارتك. نحن هنا نتكلم عن سر كنسي.
- وتشجع ناظر المدرسة فعاد يقول:
- يبدو لي أن البائع المتجول ياناكوس يمكن أن يصلح لدور بطرس الرسول، فجبته ضيقة، وشعره أشهب مجعد، وذقنه قصيرة. وهو يغضب سريعاً ويهدأ

سريعاً كأعواد الصوفان الريفية التي تشتعل بسهولة وتنطفئ بسهولة، ولكن قلبه طيب، ولست أرى في القرية أصلح منه لدور بطرس.

وقال الشيخ بطريار كاس:

- إنه يغش في البيع إلى درجة ما، ولكنه تاجر فماذا تنتظر منه غير ذلك؟ لا يهم هذا إذن.

وصر لاداس العجوز قائلاً من بين أسنانه:

- يقال إنه هو الذي قتل زوجته إذ دس لها السم.

وصاح القسيس:

- «افتراء! افتراء! يجب أن تسألني أنا عن ذلك. لقد أكلت زوجته في أحد الأيام بشرهة ملء قدر من الحمص الفج فأحست بعدها بعطش شديد لا يحتمل حتى إنها شربت جرة كاملة من الماء. فانتفخت وماتت. لا تستنزل اللعنة على رأسك بهذا الكلام يا لاداس».

وعلق الكاتب:

- «نالت ما تستحقه. هذه نتيجة شرب الماء، لو أنها شربت عرقي لما أصابها شيء».

وقال ناظر المدرسة:

- «لا نزال بحاجة إلى من يمثل دور بيلاطيس وقيافا. ولكن يبدو أن هذا شيء عسير».

وقال القسيس بطريقة معسولة:

- «لن نجد من يصلح لدور بيلاطس خير من سيادتكم يا عزيزي الشيخ بطريار كاس. لا تقطب جبينك، كان بيلاطس أيضاً أحد النبلاء العظام، مهيب المنظر، مكتنز الوجه، أتيق المظهر، له لحية تشبه لحيتك هذه تماماً. وهو رجل صالح أيضاً سعى جهده لينقذ المسيح. بل وأعلن في نهاية الأمر «أغسل يدي من دم هذا». وبذلك أبرأ نفسه من الخطيئة. لا ترفض هذا الرأي أيها الشيخ، فإنك تتيح لنا بذلك أن نجعل من هذا السر شيئاً كبيراً. تخيل المجد الذي سيعود على قريتنا والأفواج الغفيرة التي ستندفع إليها حين تعلم أن الشيخ بطريار كاس كبير

الأعيان سيقوم بدور بيلاطس».

وابتسم الشيخ في اعتزاز وأشعل غليونه دون أن ينبس بكلمة.
وتدخل الكابتن مرة أخرى قائلاً:

- «الأب لاداس خير من يمثل دور قيافا. لن نجد أحسن منه. أنت يا أبانا ترسم أيقونات، فقل لنا كيف ترسم صورة قيافا في الأيقونات؟»
وقال القسيس متردداً:

- «حسن، في الحقيقة.. إنه يشبه الأب لاداس إلى درجة كبيرة. فهو جلد على عظم، متسخ الجسد، غائر الخدين، أصفر الأنف ضيقه..»
وعاد الكابتن يسأل بكلمات لاذعة وهو يضحك:

- «وهل كان شاربه مغطى بالقشور أيضاً؟ وهل كان يرفض أن يتصدق بقطرة ماء حتى وإن كانت لملاكه الحارس؟ وهل كان يمشي وحذاءه في يده خشية أن يبلى؟».

وانتفض لاداس صائحاً:

- «سأنصرف. لماذا لا تأخذ دوراً أنت أيضاً أيها الكابتن؟ ماذا تنتظر؟ أستم بحاجة إلى ممثل ناعم البشرة يمثل دوراً أيا كان هذا الدور؟»
وأجاب الكابتن ضاحكاً وهو يحرك إصبعيه كأنما يفتل شاربه:

- «أنا احتياطي لكم، فمن يدري؟ نحن رجال تقدمت بنا السن، وربما يودعنا أحدكم خلال هذه السنة، أنت مثلاً يا لاداس يا صاحب الشارب الكث، أو ربما السيد بيلاطيس. وإذ ذاك أقوم أنا بذلك الدور حتى نقتد السر».
عوى العجوز البخيل قائلاً:

- «ابحثوا عن قيافا آخر. هذه كلمتي الأخيرة، وعلى كل حال يجب أن أذهب لأرعى شئوني. سأنصرف».

- «لن أكون قيافا. ابحثوا عن شخص آخر»، وهمّ بالذهاب، مد القسيس ذراعيه يعترض طريقه قائلاً:

- «أين تذهب؟ الناس في طريقهم إلينا. فلا يمكن أن تنصرف، ولا يرضيك أن نكون جميعاً سخرية القرية».

ثم أضاف بلهجة رقيقة:

- «يجب أن تضحي كالآخرين يا سيد لاداس. فكر في نار جهنم. سوف تغفر لك خطايا كثيرة إذا ساعدتنا في هذا العمل الجليل الذي نؤديه ابتغاء مرضاة الله. ولن نجد خيرًا منك لدور قيافا. فلا تترك بالرفض. سيكتب لك الله ذلك في اللوح المحفوظ».

وصرخ لاداس العجوز مذعورًا:

- «لن أكون قيافا. ابحثوا عن شخص آخر أما عن هذا اللوح المحفوظ....». ولم يستطع أن يكمل عبارته. فقد كان أهل القرية يصعدون السلم. ورفع القسيس مزلاج الباب.

واندفع إلى الداخل حوالي عشرة من أهالي القرية يحيون الأعيان ويرشمون الصليب. وقالوا:

- «المسيح قام أيها السادة الأعيان».

ثم اصطفوا لصق الحائط.

وأجاب الأعيان وهم يسترخون على الأريكة الكبيرة التي تربعوا فوقها:

- «بالحقيقة قام!».

ودار عليهم الشيخ بطريار كاس بكيس الطباقي. وأعلن القسيس:

- «اتخذنا قرارنا يا أبنائي. لقد حضرتم في الوقت المناسب تمامًا. فمرحبًا بكم».

وصفق بيديه فحضرت ماريوري.

- «قدمي يا ماريوري لهؤلاء الفتية شرابًا، وأحضري لكل منهم بيضة حمراء احتفالًا بقيام المسيح».

وشربوا، وأخذ كل منهم بيضة حمراء، وانتظروا.

وبدأ القسيس يتكلم وهو يتحسس لحيته المشعبة:

- «يا أبنائي، شرحت لكم بالأمس بعد القداس ما ننتظره منكم. سنحتفل في عيد القيامة القادم بسر كنسي عظيم. فيجب أن تساعدونا جميعًا، صغارًا وكبارًا.

أنتم تذكرون كيف كان الأسبوع المقدس في قريتنا منذ ست سنوات، كم من الدموع سكبت في الكنيسة، وكم من النحيب الذي يفتت الأكباد، ثم كيف كانت البهجة بعد ذلك يوم أحد القيامة. وكيف أضيئت الشموع وتعانق الناس، وكيف اندفعنا في حمية نرقص ونغني «المسيح قام من الأموات، قهر الموت بالموت». وأصبحنا جميعاً إخوة. في العام القادم يجب أن يكون احتفالنا بآلام المسيح جميلاً كما كان سابقه بل وأجمل منه. هل توافقونني أيها الإخوة؟».

وأجاب أهل القرية بصوت واحد:

– «موافقون يا أبانا. لتباركنا!».

ونفض القسيس وقال لهم:

– «ليبارككم الله! اخترنا نحن شيوخ القرية هؤلاء الذين سيمثلون الرسل وبيلاطس وقيافا والمسيح. تقدم يا قسطندي باسم الآب».

وأمسك قسطندي صاحب المقهى بطرف مريسته وثبته في حزامه الأحمر وتقدم.

– «اخترناك أنت يا قسطندي لتكون يعقوب الرسول، التلميذ الزاهد للمسيح. وهذه مهمة خطيرة وقدسية، فيجب أن تؤديها بإباء وشمم، حتى لا تلحق العار باسم الرسول، ومنذ اليوم يجب أن تتحول يا قسطندي إلى إنسان جديد. أنت رجل بار، ولكن يجب أن تكون أكثر برّاً، وأكثر استقامة وحلمًا، وأكثر انتظامًا في حضورك إلى الكنيسة. ويجب أيضًا أن تقلل من الشعير الذي تضيفه إلى البن، ولا تقسم قطع الحلوى لتبيع النصف بثمان القطعة الكاملة، وفوق ذلك كله احذر أن تضرب زوجك، فأنت منذ هذا اليوم لم تعد قسطندي فقط، بل أيضًا، وهذا هو الأهم، يعقوب الرسول. هل فهمت؟». وأجاب قسطندي وهو يتراجع نحو الحائط، وقد احمر وجهه خجلًا:

– «لقد فهمت».

وكاد يضيف «لست أنا الذي أضرب زوجي، بل هي التي تضربني»، لكنه سكت خجلًا.

وسأل القسيس:

- «أين ميشيل؟ نحن نحتاج إليه».

وأجاب ياناكوس:

- «توقف في المطبخ ليتحدث إلى ابنتك».

- «ليذهب أحدكم لاستدعائه. وتقدم أنت يا ياناكوس فهذا دورك».

وخطا البائع المتجول نحو القسيس، وقبل يده.

- «كان من نصيبك يا ياناكوس مهمة صعبة، هي تمثيل بطرس الرسول. فانتبه جيداً. انس ياناكوس القديم، فهذا تعميم من الكنيسة. أعمدك يا ياناكوس باسم الآب، فكن بطرس الرسول، خذ الإنجيل فأنت تستطيع أن تقرأ إلى حد ما، تدبر فيه صفات بطرس الرسول وأقواله وأفعاله. إن لك رأس خنزير، لكن قلبك طيب. اقطع علاقتك بالماضي، واسلك طريقاً جديداً، طريق الرب. لا تنقص الميزان، ولا تغش بضاعتك، ولا تنفض الرسائل لتختلس النظر إلى أسرار الناس. هل تسمع؟ قل «أسمع وأطيع».

واندفع ياناكوس يقول وتراجع بسرعة نحو الحائط خوفاً من أن يستمر هذا القسيس الشيطان في نشر حيله القذرة على الحاضرين.

- «سمعاً وطاعة يا أبانا».

وأشفق عليه الأب جريجوريس فسكت، واستعاد ياناكوس شجاعته فقال:

- «يا أبانا، أسألك مكرمة، أعتقد أنه يوجد في الإنجيل أيضاً حمار. أظن أن المسيح عندما دخل أورشليم يوم أحد السعف، كان يركب أتاناً. نحن نحتاج إذن إلى حمار. وأنا أسألك أن يقوم حماري بهذا الدور».

وأجاب القسيس وانفجر الجميع بالضحك:

- «لك ما طلبت يا بطرس، قبلنا أن يقوم حمارك بهذا الدور».

ودخل ميشيل في هذه اللحظة. سميئاً بديئاً، متورد الوجه، يضع خلف أذنه زهرة، وحول إصبعه خاتم الخطوبة الذهبي وهو يخب في الجوخ والحريز. وكان خداه ملتهبين، حيث أمسك بيد ماريوري في المطبخ وتأججت النار في عروقه.

وقال القسيس وهو يحملق باعتزاز في صهره المقبل:

- «مرحباً بك أيها الولد العزيز ميشيل. اخترناك بالإجماع لتمثل يوحنا،

أحب التلاميذ إلى نفس المسيح. إن هذا شرف كبير لك، وبهجة عظيمة يا صغيري ميشيل. فأنت الذي تميل على صدر المسيح تواسيه، وأنت الذي تتبعه حتى اللحظة الأخيرة على الصليب، بينما انفض عنه كل تلامذته، وأنت الذي يستودعك المسيح أمه».

وقال ميشيل في خجل وسرور:

- «بيركتك يا أبانا. أنا معجب بهذا الرسول منذ طفولتي حين كنت أراه في الأيقونات دائماً شاباً وسيماً حلواً، فأحبته. شكرًا يا أبانا. هل لديك نصيحة لي؟».

- «لا يا ميشيل، فإن لك نفساً في براءة الحمامة، وقلباً يفيض حباً، وأنت لن تلحق العار باسم الرسول، فإليك بركتي».

ثم قال وهو يتصفح وجوه أهل القرية واحد بعد آخر بعين طائر جارح:

- «الآن يجب أن نعثر على يهوذا الاسخريوطي».

وارتعد كل منهم وهو يشعر بوقع نظراته الحادة على وجهه. وتمتم كل منهم «ساعديني يا إلهي، لا أريد أن أكون يهوذا».

واستقرت عينا القسيس على لحية حمراء، لحية أكل الجبس. وارتفع صوته وهو يقول:

- «بانا يوتي. اقترب قليلاً. أريد أن أطلب منك خدمة».

وهز بانايوتي كتفيه الكبيرين، وعنقه الغليظ، كالشور حين يهز رأسه ليفلت من النير. وشعر في تلك اللحظة برغبة في أن يصرخ «لا، لا أريد». لكنه لم يجرؤ على أن يقول ذلك في حضرة الأعيان، فأجاب وهو يتقدم متثاقلاً كالدب:

- «تحت أمرك يا أبانا».

حاول القسيس أن يمهد للموضوع فقال:

- «الخدمة التي سنطلبها منك يا بانايوتي شاقة جداً، ولكنك لن تخذلنا. فإن لك قلباً رقيقاً رغم مظهرك الفظ الشرس. أنت تشبه حبة اللوز، قشرة صلبة كالحجر تخفي بداخلها ثمرة اللوز الحلوة... هل تسمع ما أقول يا بانايوتي؟».

وأجاب:

- «أسمع فلست أصم».

والتهب وجهه المغطى بآثار الجدري. كان يدرك ما يريدونه منه. ولكن الكلمات المعسولة المنافقة أثارت نفوره.

واستطرد القسيس:

- «لا صلب بدون يهوذا، ولا قيام بدون صلب، ومن ثم يلزم بالضرورة أن يضحى أحد أبناء القرية ليمثل دور يهوذا».

وقاطعه أكل الجبس بحدة وحسم:

- «يهوذا؟ أنا؟ مستحيل. لن أكون يهوذا!».

وشد على قبضته فانكسرت بيضته الحمراء، وسال صفارها من يده. وقفز كبير الأعيان يلوح بغليونه مهدداً ويصيح:

- «هذا آخر الزمان! لا يمكن أن يركب كل منكم رأسه هنا. هذا مجلس الأعيان وليس مقهى قسطندي. واتخذ الأعيان قراراً فأصبح نهائياً، وعلى الناس أن يطيعوا. هل تسمع يا أكل الجبس؟».

وأجاب بانايوتي:

- «أنا أحترم مجلس الأعيان. ولكن لا تطلبوا مني أن أخون المسيح. لن أفعل ذلك أبداً».

وأرغى العمدة وأزبد. وحاول أن يتكلم ولكنه اختنق بالغضب وانتهر الكابتن فرصة الضجيج والارتباك فملاً كأس العرقي مرة أخرى.

وتدخل القسيس وقال وهو يحاول جاهداً أن يكون حديثه بصوت رقيق:

- «أنت دائماً مخالف يا بانايوتي. تنظر إلى الأشياء من غير زاويتها الصحيحة.

أنت لن تخون المسيح، ولكنك ستنتظاهر بأنك تخون المسيح، وبذلك يمكن أن تصلبه ليقوم بعد ذلك مرة أخرى. أنت بطيء الفهم، ولكن انتبه جيداً وسوف تفهم. لكي نخلص العالم يجب أن يصلب المسيح، ولكي يصلب المسيح يجب أن يشي به أحد الناس. هكذا إذن ترى أن وجود يهوذا شيء ضروري ليتحقق خلاص العالم، بل أكثر ضرورة من وجود أي رسول آخر. وفي الحقيقة إن عدم وجود واحد من الرسل لا يغير من الأمر شيئاً، ولكن لولا وجود يهوذا لما تحقق شيء.. يهوذا هو الشخص الثاني في الأهمية بعد المسيح.. هل فهمت؟».

وعاد بانايوتي يكرر وهو يعجن في يده البيضة المكسورة:
- «لا يمكن أن أكون أنا يهوذا. أنت تريدني أن أكون يهوذا، وأنا لا أريد. هذا كل ما في الأمر!».

وقال ناظر المدرسة:
- «هيا أيها الرجل الطيب بانايوتي. افعل هذا من أجل خاطرنا. كن يهوذا فيصبح اسمك خالدًا».

وقال الكابتن وهو يمسخ شفتيه:
- «لاداس العجوز يرجوك أيضًا أن تفعل ذلك. وهو يقول إنه لن يضغط عليك في موضوع النقود التي تدين بها له، بل يقول أيضًا أنه سيتنازل لك عن الفوائد».
وعوى العجوز البخيل غاضبًا:

- «لا تتدخل في شئون الآخرين يا كابتن. أنا لم أقل شيئًا من هذا. افعل ما يلهمك به الله يا بانايوتي. وأنا لا أتنازل عن الفوائد لأي أحد».
وصمت الجميع. لم تكن تسمع في هذا الصمت سوى صوت أنفاس بانايوتي المتلاحقة، يلهث كأنه يتسلق جبلًا.

وقال الكابتن:
- «لا نريد أن نضيع وقتنا- لنترك هذا الشيطان التعس يقلب الأمر في رأسه ويهضمه. فمثل هذا الأمر ليس من اليسير البت فيه دون تدبر. أن تكون يهوذا ليس شيئًا هيئًا. إنه يحتاج إلى تفكير عميق وإلى عرقى. أين مانولي إذن حتى ننتهي منه؟».

وقال ياناكوس:
- «رأيناه مع لينيو يطارحها بعض كلمات الغزل، فمن المستحيل انتزاعه منها».

وقال مانولي وقد احمر وجهه:
- «ها أنذا! تحت أمركم يا عمدة ويا أعيان القرية».
كان قد انسل إلى الحجرة في هدوء فلم يلحظه أحد ووقف في الركن بعيدًا.
وقال القسيس بصوت يقطر حلاوة وعذوبة:

- «تعال يا مانولي. تعال أباركك».

وتقدم مانولي وقبل يد القسيس. كان شابًا صغيرًا، أشقر الشعر، خجولًا، فقير الملبس تفوح منه رائحة السعتر واللبن، وعيناه الزرقاوان تعبران بوضوح عن البراءة والصفاء.

وقال القسيس بلهجة وقورة:

- «في توزيع الأدوار فزت يا مانولي بالنمرة الرابعة. الرب اختارك أنت لتبعث بجسمك وصوتك ودموعك الآلام المقدسة. أنت الذي ستضع على رأسك إكليل الشوك. وأنت الذي ستجلد، وأنت الذي ستحمل الصليب المقدس وتصلب. يجب إذن ألا تفكر إلا في شيء واحد ابتداء من اليوم حتى الأسبوع المقدس في العام القادم- شيء واحد فقط: كيف تصبح جديرًا بأن تحمل هذا الثقل الرهيب، ثقل الصليب».

وتتمم مانولي وهو يرتعد:

- «لست جديرًا بذلك.....».

- «لا يوجد من هو جدير بذلك. لكن الله اصطفاك أنت».

وعاد مانولي يتمتم:

- «لست جديرًا بذلك. إن لي خطيئة. سبق لي أن لمست امرأة. فالخطيئة في نفسي. وبعد أيام سأتزوج.. كيف إذن أستطيع أن أحمل الثقل الرهيب لدور المسيح؟».

وأجاب القسيس بلهجة حادة:

- «لا تعارض مشيئة الرب. بالتأكيد أنت لست جديرًا، لكن العناية الإلهية تغفر وتصفح وتصفح. والعناية الإلهية اصطفتك أنت فاسكت».

وسكت مانولي، لكن قلبه أخذ يدق حتى كاد ينفجر فرحًا ورعبًا. ومد بصره عبر النافذة. كان الرذاذ توقف، والسهل المنبسط البعيد عاد أخضر نديًا شديد الصفاء. ورفع عينيه فأصابته رعدة مفاجئة. شاهد خلال السحب قوس قزح كبيرًا في لون الزمرد والياقوت والعسجد، يمتد ليربط السماء بالأرض، فوضع راحته على صدره وقال:

- «لتكن مشيئة الرب!».

وقال القسيس:

- «ليتقدم الرسل الثلاثة. وتقدم أنت يا مانولي! لا تخف فلن نأكلك. تعالوا أبارككم».

وتقدم الأربعة صفًا واحدًا يتوسطهم مانولي. ومد القسيس يديه وبسطهما فوق رؤوسهم وقال:

- «ليبارككم الله! لتشملكم روح الرب! لتتفتح قلوبكم حتى لو كانت جذوع شجر ميت كما تتفتح براعم الزهور في الربيع. ولتحققوا المعجزة التي يراها المؤمنون في الأسبوع المقدس فيقولون هل هذا هو ياناكوس؟ هل هذا قسطندي؟ وهل الآخر ميشيل؟ لا، لا، إنهم بطرس ويعقوب ويوحنا. وليأخذهم الرعب حين يرونك يا مانولي تصعد الجلجثة وعلى رأسك إكليل الشوك.. ولتزلزل الأرض مرة أخرى، ولتظلم الشمس، ولينشق حجاب الهيكل في قلوبهم! ولتنفض عيونهم بالدموع فطهرها ليكتشفوا فجأة أننا جميعًا إخوة، وليقم المسيح من جديد ليس فقط على درج الكنيسة، لكن في قلوبنا! آمين».

وغرق الرسل الثلاثة ومانولي في عرق بارد. وارتعدت مفاصل أرجلهم. وأصابهم الخوف كأن على رؤوسهم طيرًا كاسرًا ساكنًا يلقي على أرواحهم ظل جناحيه الكبيرين. وبلا شعور امتدت أياديهم تفتش عن بعضها لتتشابك. وتكونت منهم سلسلة متماسكة الحلقات لمواجهة الخطر. أما بانايوتي فأغلق قبضته، ورفض وحده أن يمسك بيد الآخرين، وظل يحملقي في الباب متلهفًا للخروج.

وقال القسيس:

- «والآن امضوا إلى حال سبيلكم تصحبكم بركة الرب. أمامكم طريق جديدة، طريق شاقة. اصبروا وصابروا وطهروا قلوبكم وليعنكم الرب».

وتراجعوا واحدًا إثر الآخر يركعون أمام القسيس ويحيون الأعيان. وانسلوا من الباب في سكون. ثم نهض الأعيان وأخذوا يتمطعون.

وقال العمدة:

- «شكرًا لله. تم كل شيء على ما يرام. أحسنت التصرف يا أبانا».

ولم يكد الأعيان يجتازون الباب حتى انفجر الكابتن فورتوناس يقهقه ويضرب على فخذه:

- «آه، اسمعوا، نسينا أن نبلغهم اسم مريم المجدلية».

وقال العمدة وهو يزدرد لعبه:

- «اطمن يا كابتن. سأستدعيها إلى بيتي وأكلمها..» ثم أضاف بابتسامة:

- «وأنا واثق أنني سأنجح في إقناعها..».

وقال القسيس مقطبًا:

- «إذا كان لا بد وأن تزني بها فافعل ذلك قبل أن تكلمها، فأنت تعلم أنه بمجرد

أن تتحول الأرملة إلى مريم المجدلية ستصبح الخطيئة معها كبيرة جدًا».

وأجاب العمدة وهو يلتقط أنفاسه كما لو كان أفلت لتوه من خطر بالغ:

- «أحسنت صنعًا أيها القسيس بإفادتي عن هذه المسألة.

أخذ الكابتن فورتوناس يهبط المنحدر ويتكى بثقله على عصاه بعد أن ترك زملاءه. وقال لنفسه:

- «لتنزل لعنة السماء على رؤوسنا جميعًا. مثل هذه الأمور تحتاج يا رجل إلى

قلب طاهر. لكن قلوبنا نحن مثل أهل سادوم وعامورة. القسيس جوفه يبتلع كل

شيء! افتتح حانوت عقاقير وسماه «كنيسة» يبيع فيها المسيح بالدانق والدرهم.

وهذا المشعوذ يزعم أنه يشفي كل الأمراض. «ماذا يتعبك؟ - أنا كذبت - خذ

جرامًا من المسيح. يكلفك كذا قرشًا. وأنت؟ - أنا سرقت - لك أربع جرائم

من المسيح تساوي كذا. وأنت؟ - أنا قتلت - آه أيها التعس، داؤك خطير. عليك

أن تتناول هذا المساء قبل النوم خمسة عشر جرامًا من المسيح. سيكلفك هذا

كثيرًا، مبلغًا وقدره كذا. ألا تجري لي تخفيضًا يا أبانا؟ - لا، السعر محدد. ادفع

وإلا سيلقى بك في الدرك الأسفل من الجحيم. ويظهره على الصور التي يحفظها

في حانوته، فيرى الجحيم تتصاعد منه ألسنة اللهب، والزبانية يحملون المناخس

المدببة، ويرتعد الزبون هلعًا فيفرغ ما في جيبه..».

«والشيخ بطريار كاس؟ خنزير يمشي على قدمين. ليس سوى كرش من رأسه

إلى أخص قدميه، وحتى رأسه لا يوجد بداخله سوى أمعاء. إذا أخذت كل ما ابتلعه في حياته ووضعتة في جانب، ووضعت في الجانب الآخر كل ما أخرجه من أعلى ومن أسفل، لوجدت أمامك جبلين هائلين من القاذورات النتنة. وهكذا سيقف أمام الله يوم الحساب بين هذين الجبلين، واحد عن يمينه والآخر عن يساره».

«حاجي نيكولا ناظر المدرسة؟ هذا البائس الضعيف ليس سوى نصف إنسان، مسكين، قبيح الوجه، رعديد، يضع على عينيه نظارة حقيرة ومع ذلك يتصور نفسه الإسكندر الأكبر، يضع على رأسه خوذة من الورق المقوى، ويتوج رؤوس تلاميذه بمثل هذه الخوذات القديمة. ولكن ما الغريب في ذلك؟ أليس ناظر مدرسة؟».

«لاداس العجوز؟ بخيل جشع، القمل يملأ جسمه، مجرد من المشاعر، يموت جوعاً وهو جالس فوق ما يملك من براميل النبيذ، وقدر الزيت، وأجولة الدقيق. فهو الذي قال لزوجته عندما زاره بعض الضيوف ذات مساء: «أذهبي يا امرأة واسلقي لنا بيضة، فسوف يتناول العشاء الليلة عندنا أربعة من الضيوف». لا يأكل ولا يشرب يسير دائماً حافي القدمين، عاري الدبر - ولماذا؟ ليموت ثرياً! يا للأسى! ليأخذه الشيطان».

«وأنا؟ هل لي أن أعترف؟ نهّاب يأكل حقوق الناس. تستخدم ملقظاً إذا أردت أن تلمسني دون أن تتسخ يداك! كم تمتلئ حياتي بالشراسة في الطعام وفي الشراب، بالسرقات، بجرائم القتل، بالخانات الزوجية، يا إلهي كيف وجدت الوقت لأمارس كل هذه الأفعال القذرة؟ المجد ليدي وقدمي وفمي وفخذي! أديتم يا أصدقائي عملكم على خير وجه، فأنتم تستحقون بركتي».

هكذا كان الكابتن فورتوناس يحدث نفسه بينما يدق بعصاه الطريق الحجري. حتى وصل إلى أسفل المنحدر. فخلع قلنسوته وأمسكها بيده يروح بها عن نفسه. ونظر إلى الشمس. كان الوقت بعد الظهرية. وأسرع الخطى، فالأغا دعاه صباح اليوم لتناول العشاء معه، سيملاً الاثنان كرشيهما ويسكران. وغمغم قائلاً لنفسه:

«هيا بسرعة، الحياة حلوة، فلتنهل منها قدر ما نستطيع».

ووقف أمام منزل الأغا وبصق. اعتاد أن ينفس عن غضبه بهذه الطريقة - كان

يخيل إليه أنه إنما يبصق على تركيا كلها، ويتخيل أنه يرفع راية صغيرة جداً من رايات الحرية، ويتحرر ولو للحظة واحدة.

بصق مرة أخرى وارتاح صدره، ثم دق على الباب. وسرى في لعبه طعم لذيذ، فهو الآن سيأكل ويشرب ما طاب له ذلك. فالأغا رجل طيب سخي - وإذن فسوف يعقد كل منهما حول رأسه منديلاً كبيراً مبللاً ليمنع آلام الصداع الشديد، ويشربان العرقي بعد ذلك في أقداح كبيرة.

وترددت في فناء المنزل قرعات قبقاب، وخطوات قصيرة. ثم انفتح الباب. وظهرت خادمة الأغا العجوز مارثا، وهي امرأة حذباء. استقبلت الكابتن في ضيق قائلة:

- إن كنت تؤمن بالمسيح يا كابتن فلا تشرب إلى درجة السكر كما تفعل دائماً. ضقت ذرعاً ولم أعد أحتمل المزيد.

وضحك الكابتن وربت بيده على حذبتها وقال:

- اطمئني يا عزيزتي مارثا، فلن نسكر، وإذا سكرنا فلن نقيء. أما إذا قئنا فسوف تحضرين الطشت حتى لا تتسخ الأرض. أنا أعدك بذلك.
قال كلمته هذه ودلف إلى الداخل بكبرياء وشمم.

طَارِدَةُ اللّٰخَوَةِ

سار مانولي والرسل الثلاثة قبيل المساء في الطريق إلى بحيرة فويداماتا الصغيرة، وهي غير بعيدة عن القرية. وأخذوا يثرثرون بما يسري عن أنفسهم. كان كل منهم يشعر برعدة خفية تسري في جسده كما لو كان انتهى لتوه من المناولة. توقف الرذاذ، ولمعت الأشجار والحجارة، وتضوعت الأرض بعطر جميل. وأطلق طائر الوقواق صيحات فرحة ساخرة. وخفت حرارة الشمس، فأخذت تربت على الأرض في حنان كأنها نبيل عظيم، ورقت الدنيا وسادها سكون حالم. كانت قطرات المطر لا تزال تترقرق على أوراق الشجر. وفي هذا الجو الندي ساعة الأصيل، كان الوجود يضحك ويبكي معًا.

سار الرفاق الأربعة يلفهم الصمت فترة طويلة. ووصلوا إلى أحد الممرات المعشبة الرطبة وسط البساتين. كانت أزهار الليمون تلمع في بياض ناصع بين الأوراق الداكنة الخضرة. والأرض محملة بالزهور الباكية كأن المسيح لم يقم بعد. وسرت ريح دافئة أنعشت العصارة في الفروع الوليدة، فبعثت الحياة في كل النباتات.

وبدأ قسطندي الكلام قائلاً بصوت خافت:

- ما أثقل الحمل الذي ألقاه القسيس على كاهلنا. فليساعدنا الله على أن نحمله حتى النهاية! هل تذكرون المرة السابقة؟ قام بدور المسيح إذ ذاك السيد خرا لامب الرجل ذو الأملاك سليل أسرة كريمة. ومع ذلك بذل أقصى جهد ليقتفي آثار المسيح. كافح طوال العام ليكون أهلاً لحمل الصليب حتى انتهى به

الأمر إلى أن فقد رشده. وفي يوم الجمعة الحزينة وضع على رأسه إكليل الشوك، وحمل الصليب على كتفه، ثم ترك الدنيا زاهداً إلى دير القديس جورج في سوميلا بالقرب من تريبيزون وأصبح راهباً. وحل الخراب بأسرته، وماتت زوجته، وهام أولاده في الطرقات يتسولون.. هل تذكر يا مانولي السيد خرالامب؟

ظل مانولي صامتاً. كان ينصت إلى كلمات قسطندي بأذن غير واعية، فروحه غارقة في تأمل عميق، وفي حلقه غصة، فلا يستطيع الكلام. كان هناك شيء يحلم به منذ صباه، ويتمناه طوال الليالي وهو جالس عند قدمي معلمه الأب ماناس في الدير، ينصت إلى حكاياته عن حياة القديسين ومعجزاتهم. وفجأة يحقق الرب أمنيته: أن يقتني آثار الشهداء والقديسين، وأن ينسلخ عن جسده، ويلاقي الموت من أجل إيمانه بيسوع المسيح، وأن يدخل الفردوس يحمل عدة الشهادة: إكليل الشوك والصليب والمسامير الخمسة.

وسأل ميشيل وعلى فمه ابتسامة ساخرة تخفي قلقاً غامضاً يحاصره في أعماقه:
- هل تعتقدون أننا نحن أيضاً سنصاب بلوثة؟ ألا ترون أننا نتصور أنفسنا رسلاً حقاً؟ يا إلهي احفظنا!

وأجاب ياناكوس وهو يهز رأسه الذي لوحته الشمس:
- من يدري؟ فالإنسان جهاز دقيق يصيبه الخل بسهولة. يكفي أن ترفع السدادة فإذا بالحياة...

توقف الرفاق عند بحيرة فويداماتا. مياه داكنة الخضرة، وأعشاب كثيفة طويلة، وبط بري. وحلق طائران من طيور اللقلق وحوما فوق رؤوسهم في أناة ولا مبالاة. كانت الشمس على وشك المغيب.

وفي غيبة عن العالم حلق كل منهم في البحيرة التي توارت خلف الظلال دون أن يراها بعين واعية: هامت أرواحهم تطاردها هموم غريبة ولنهم الصمت إلى حين. وأخيراً تكلم ياناكوس:

- حقاً يا قسطندي إن المهمة شاقة وعسيرة للغاية. تمرست على عادات سيئة.. فليغفر لي الله. أم كيف السبيل إلى البراءة منها؟ قال لي: «لا تنقص الميزان ولا تفض رسائل الناس.. إن أبانا يتوهم أن ذلك أمر هين.. إذا لم تنقص الميزان فما

سبيلك إلى الثروة، وكيف تجعل من نفسك في يوم من الأيام إنساناً ذا شأن؟ وإذا لم تقرأ رسائل الآخرين.. لا شيء سوى الاطلاع عليها، فكيف تسري عن نفسك؟ تمرست على هذه العادة بعد أن رحلت عني زوجتي رحمها الله. لم أكن أقصد من وراء ذلك إيذاء أحد - وليحفظني الله - ولكن كم كنت أعاني السأم.. وتلك كانت تسليتي الوحيدة.. أعود إلى بيتي بعد تطوافي وأحكم رتاج باب الكوخ، وأغلي قليلاً من الماء، وأعرض الرسائل للبخار ثم أفضها.. أقرأها وأعرف أخبار هذا وذاك، ثم ألصقها ثانية، وأطوف بها في صباح اليوم التالي. ولكن ها أنت ذا تسمع ما يقوله القسيس لي.. ولعلك تعرف يا صديقي أن ليس هيناً على الذئب أن يتحول إلى حمل وديع.. غفرانك ربي!

وابتسم ميشيل وهو يتحسس شاربه الأسود. كان راضياً عن نفسه.. فهو لم يغش، ولم يقرأ رسائل الآخرين، حتى إن الأب جريجوريس لم يجد ما يأخذه عليه، وهو فخور بذلك. وأخرج كيس التبغ وناولوه لرفاقه. فلف كل منهم لنفسه سيجارة، وأشعلها وملاً رثته بدخانها مستشعراً معه بمزيد من الارتياح.

لم يطق ميشيل كتمان إحساسه بالزهو فقال:

- قال لي القسيس إنني لست بحاجة إلى أن أغير شيئاً من عاداتي؛ ومن ثم فإنني بوضعي هذا لن ألحق عاراً بالرسول.

ولم يكذب ينطق كلماته هذه حتى علت وجهه حمرة الخجل. ولكن هيهات له أن يستردها ثانية.

والتفت إليه مانولي وحده بنظرة قاسية. وظن أول الأمر أن ليس من حقه أن يلومه على شيء. أليس ميشيل ابن سيده؟ بيد أنه تذكر أنه من الآن فصاعداً ليس مانولي المعهود، وإنما أصبح شيئاً آخر أسمى وأشرف. وواتاه إحساس بالجرأة حينذاك. فقال له:

- بل الأمر سواء. فمن يدري يا سيدي إذ ربما وجب على معاليكم أن تغيروا أيضاً بعض ما بنفسكم. أن تقلل من الطعام، وتفكر في الجوعى من أهل القرية. وألا تختال بما ترفل فيه من نعيم زائد.. صديريات من الجوخ الناعم، وسترات موشاة، ونعال جديدة لامعة.. وتفكر في أولئك الذين يرتجفون من زمهرير الشتاء،

لأنهم لا يملكون ما يسترون به أجسادهم.. وربما كان عليكم أن تفتحوا خزائنكم بين الحين والآخر لتصدقوا منها بالقليل على الفقراء.. فأنت تملك ما يفرض كثيرًا عن حاجتك، ولله الحمد على نعمائه».

وقال ميشيل في ارتياح:

- وماذا لو ارتاب الشيخ في أنني أقدم الصدقات؟

ورد عليه مانولي:

- إنك لم تعد طفلًا، فقد ناهزت الخامسة والعشرين من عمرك، وأصبحت رجلًا ناضجًا. ثم هناك بعد ذلك كله المسيح وله الكلمة العليا. إنه الأب الحقيقي وله وحده الأمر من قبل ومن بعد.

وقف ميشيل أمام خادمه حائرًا وارتج عليه. فهذه أول مرة يتحدث إليه بمثل هذه الجراءة. وقال لنفسه:

- أحسب أن رأسه بدأ يدور بعد أن اصطفوه لدور المسيح. سأنبئ أبي بذلك حتى يلزمه حدوده.

وألقي بسيجارته بعيدًا في عصبية ولكنه لم ينس بيت شفة.

وقال قسطندي:

- يجب أن أشتري الإنجيل. هذا ما يشغل فكري الآن، فهو الذي سيهديننا إلى الطريق الذي ينبغي أن نسلكه.

ورد عليه ميشيل:

- في بيتنا إنجيل لأبي، وهو إنجيل كبير ضخم مثبت على لوح من الخشب ومغلف بغلاف مصنوع من جلد الخنزير. وله دفتان كأنهما بوابة قلعة. وله أيضًا قفل ومفتاح ضخم. وإذا ما فتحته خلت أنك داخل إلى مدينة أثرية. والأمر سهل للغاية- إذ يمكن أن نلتقي بمنزلنا كل يوم من أيام الأحد ونقرأ فيه سويًا.

وقال مانولي:

- يجب أن أحتفظ بإنجيل معي أيضًا فوق الجبل. كنت أضيق بالوحدة. ومن ثم اعتدت أن أجمع قطعًا من الخشب أحفر فيها وأشكل منها أي شيء يطرأ على خاطري: ملاعق وعصي وصناديق للنشوق وقديسين وماعز.. كان وقتي ضائعًا.

أما الآن....

ولاذ بالصمت، وغرق في تأمل عميق.

وقال ياناكوس:

- أما أنا.. فلا خير إن احتفظت بإنجيل صغير - فبعد أن أنتهي من تطوافي أنا وحماري أستظل لفترة تحت شجرة سنار أروح عن نفسي قليلاً، وأقرأ فيه.. ستقول لي أنني لن أعي منه الكثير، ولكن لا بأس من ذلك ما دمت سأخرج منه ببعض الفائدة.

وتدافعت الكلمات على لسان قسطندي:

- أنا أحوجكم إليه. عندما يعلو صوت زوجتي بالصراخ وتثور ثائرتي فإني ألوذ به ليهدي من روعي. وهنا سأحدث نفسي قائلاً: «صبراً جميلاً فليس كل هذا إلا بعض ما أقدمه على طريق الشهادة، وما عساه يكون بالقياس إلى آلام المسيح؟ بل.. لا تلمني يا ياناكوس، هي أختك لكنها لا تطاق أبداً. ذات مرة انقضت عليّ وأمسكت بشوكة في يدها وحاولت أن تفقأ بها عيني. بل إنها أول أمس رفعت من فوق النار القدر الذي كانت تطهو فيه فولاً مجروشاً وأمسكت به وأخذت تطاردني وتسد عليّ الطريق، محاولة أن تضربني به على رأسي، حتى قلت لنفسي: «أنت اليوم قاتل أو مقتول». أما الآن فإني سألوذ بالإنجيل أطالع فيه، ولتصرخ هي ما شاء لها الصراخ.

ضحك ياناكوس وقال مواسياً:

- مسكين أنت يا قسطندي. يعلم الله حقيقة شعوري نحوك. ولكن صبراً: فإنما هو مقدور أن لكل رجل زوجاً، فادفع أنت بالتي هي أحسن ولا تقل شيئاً. وأضاف قسطندي:

- مشكلتي أنني لا أجيد القراءة، إذ تتشابه الحروف وتختلط علي.
قال له مانولي مطمئناً:

- لا عليك من ذلك. إن هذا أعظم ثواباً. ويكفي أن تقرأ مقطعاً من الكلمة لتفهم المقصود منها. فضلاً عن أن الرسل لم يكونوا أهل علم بل ناساً بسطاء مثلنا، إذ كان أكثرهم صيادين.

وسال ياناكوس في قلق:

- هل كان بطرس الرسول يجيد القراءة؟

فرد عليه مانولي:

- لا أعلم لي يا ياناكوس. سنسأل القسيس في ذلك.

وتمتم ياناكوس:

- من الأفضل أن تسأله أيضًا هل كان بطرس الرسول يبيع ما يصطاد من سمك،

أم كان يتصدق به على الفقراء؟ فأنا على يقين من أنه لم يكن ينقص الميزان، ولكن هل كان يبيعه؟ هذا هو السؤال. هل كان يبيع أم يتصدق؟

وعرض ميشيل اقتراحًا خطر له:

- حري بنا أن نقرأ أيضًا حياة القديسين.

واعترض عليه مانولي بقوله:

- لا، لا. فنحن أناس بسطاء، وإلا فسيلتبس علينا الأمر. إذا اعتدت أن أقرأ عنها

حين كنت أعيش مع الرهبان، ولكني كدت أفقد صوابي، قفار وليوث وأمراض مروعة وجذام بوجه خاص.. أبدانهم تغطيها الدمامل، وتأكل فيها الديدان أو تستحيل إلى ما يشبه ذيل السلحفاة.. ثم تقبل الغواية في شكل امرأة فاتنة.. لا، لا، الإنجيل وحده يكفي.

ساروا الهويني على طول البحيرة وسط عتمة الليل الزاحفة. وكانت هذه أول مرة يدور فيها بينهم مثل هذا الحديث الغريب. فأحس كل منهم وكأن نبع ماء منعش مجدد للحياة انبثق داخله يبحث عن مخرج يفيض منه، ويريد أن يكسر القشرة القديمة الصلبة ليتدفق ماؤه إلى السطح.. وأخذوا يقلبون في رؤوسهم كلمات القسيس جريجوريس التي لم يفهموها جيدًا: «لعل الله ينث فيكم من روحه..» ينث؟ ترى ما عساها تكون روح الله هذه؟ أهى نسيم؟.. نسيم يحيي العصاراة في النباتات، كذلك النسيم الندي الدافئ يهب ساعة الغسق فتخرج البراعم من أكمائها على فروع الشجر؟ الروح.. هل يمكن أن يكون مثل هذا النسيم؟ هل يمكن أن ينث في روحنا؟

وتفكر الرفاق الأربعة وتساءلوا فيما بينهم وبين أنفسهم وحاولوا أن يفهموا.

بيد أن أيًا منهم لم تطاوعه نفسه أن يسأل جاره، فضلًا عن أنه كان يحس في سريره ببهجة فريدة أن يعتصره مثل هذا القلق.

لذلك ران عليهم صمت طويل يرقبون في سكون هبوط الليل. نجم المساء في الأفق البعيد. وعلا نقيق الضفادع عند حافة البحيرة.

يسارهم وقف جبل العذراء شامخًا غارقًا في الظلام تكسوه خضرة يانعة، وعلى سفحه مربى الأغنام التي يرعاها مانولي لحساب سيده. يمينهم جبل ساراكيئا، قفرًا موحشًا يتبدل لونه البنفسجي وتغطيه عتمة الليل بلون أزرق، والكهوف المتناثرة على سفحه تفغر أفواهها السوداء. ولكن كنيسة النبي إيليا تطالعك فوق قمته بيضاء ناصعة البياض، بعد طلائها أخيرًا، دقيقة كأنها بيضة تعلو وتحف بها صخور ضخمة....

وتحت أقدامهم تمتد أرض طرية ينمو فوقها نبات السمار. وتبرق هنا وهناك بين عيدان النبات دودة سراج الليل يشع ضوءها في وداعة وأناة، مفعمة بالحب والأمل.

وقال ميشيل:

- أقبل الليل. فهي بنا نعود إلى بيوتنا.

بيد أن ياناكوس الذي كان يسير في المقدمة توقف فجأة، ومد يده حول أذنه وتسمع. ثمة وقع أقدام بعيدة كأنها مسيرة جمع غفير من الناس، وهمهمات خافتة ولكنها تملأ سكون الليل كأنها طنين أسراب من النحل، وبين الحين والآخر تسمع صوتًا قويًا عميقًا تخال أنه يلقي ببعض الأوامر.

وصاح ياناكوس:

- انظروا أنتم أيضًا، انظروا.. ما هذا الجيش الجرار من النمل الخارج من بطن السهل؟ يتراءى كأنه موكب طويل.

ودققوا النظر عسى أن يميزوا شيئًا في غبش الظلام، وأرهفوا السمع.

ترأى لهم حشد طويل من الرجال والنساء، يشق طريقه عدوًا وسط حقول القمح وأشجار الكرم. لا ريب في أنهم أبصروا القرية فأسرعوا الخطو نحوها.

وقال ميشيل:

- أنصتوا، ألا تسمعونهم يترنمون ببعض المزامير؟
ورد عليه مانولي:

- إن صوتهم أشبه بالبكاء، فإنني أسمع نحيبًا.

- لا، لا، إنهم يترنمون. احبس أنفاسك واراهف السمع.

وجمدوا في مكانهم يتسمعون. وأخيرًا ترامت إلى سمعهم وسط سكون الليل
ترنمة بيزنطة القديمة جليلة مظفرة:

«إلهي، إلهي، خلص شعبك...».

وصاح مانولي:

- إنهم إخوة لنا، مسيحيون. هيا بنا إليهم، نرحب بهم.

وبدأ الأربعة يسرعون الخطى. كانت طلائع الركب بلغت مشارف القرية.
وأخذت الكلاب تعدو في الطريق وهي تنبح في جنون. وفتحت الأبواب، وأطلت
النساء من فوق عتبات بيوتهن، وخرج الرجال يركضون والطعام يملأ أفواههم.
كانت هذه ساعة العشاء عند أهل ليكوفريس يتربعون فيها أمام الطبالي لتناول
طعامهم. ولكنهم هبوا جميعًا عند سماعهم ترانيم المزامير والبكاء وجلبة وقع
الأقدام. ولحق بهم مانولي والرسل الثلاثة.

كان آخر شعاع للشمس لا يزال يلقي بضوئه على بيوت القرية وحواريها.
واقترب الركب وظهر عند مقدمته قسيس نحيل، أسمر الوجه، عيناه سوداوان،
يشع منهما بريق، ويعلوهما حاجبان كثيفان، وله لحية شعشاء مدببة غلب عليها
المشيب، وبين ذراعيه يحتضن إنجيلًا ضخماً له غلاف ثقيل موشى بالفضة،
وهو يرتدي البطرشيل. وعن يمينه عملاق له شارب أسود متهدل، ممسك في
يده علم الكنيسة القديم مرسومًا عليه بخيوط من الذهب صورة القديس جورج
بقوامه الفارع. ومن خلفهما سار خمسة شيوخ ضامرين يحملون أيقونات ضخمة
صفت على استقامة واحدة فلا ترى فيها عوجًا. وتبعهم جمع من النساء والرجال
يصحبهم أطفالهم في بكاء ونحيب. أما الرجال فيحملون صررًا وأدوات، مجارف
وفؤوس ومعاول ومناجل، وتحمل النساء مهودًا للأطفال وصحافًا وكراسي.
تفرق الجمع في ميدان القرية، وتقدم ياناكوس ناحية القسيس، انحنى أمامه

وهو يسأله بصوت عال:

- من أنتم أيها المسيحيون؟ من أين جئتم؟ وما هي قبلتكم؟

ورد عليه الشيخ بصوت أجش:

- أين الأب جريجوريس؟ أين أعيان القرية؟

والتفت إلى أهل القرية وقد نزاحموا حوله في دهشة وقلق وقال لهم:

- نحن مسيحيون يا إخواني فلا تخشوا شيئاً، إننا مسيحيون ويونانيون، مطرودون من ديارنا. ادعوا رؤساء القرية فإني في أمس الحاجة إلى التحدث معهم.. دقوا الأجراس.

خرت النسوة إلى الأرض من فرط الإنهاك. وحط الرجال أحمالهم، ومسحوا العرق من على جبينهم، وتطلعوا إلى قسيسهم في صمت.

وقف مانولي قبالة الشيخ الذي حنته السنون وما زال يحمل على ظهره جوالاً ينوء تحت ثقله وسأله مانولي:

- قل يا جدي بحق الله عليك: من أين جئتم؟

وأجاب الشيخ:

- لا تتعجل يا بني فإن الأب فوتيس سينبئكم بالخبر.

- ماذا تحمل في الجوال يا جدي؟

- لا شيء يا بني. أشياء تخصني.. قالها الشيخ وهو يحط الجوال في رفق وعناية على الأرض.

ظل القسيس واقفاً محتضناً الإنجيل بين ذراعيه. وأسرع أحد الفتية ناحية برج الكنيسة وشد إليه جبل الجرس وأخذ يدقه دقات قوية عنيفة. وفزعت بومتان وطارتا من فوق شجرة السنار واختفتا في الظلام.

خرج الأغاثملاً للغاية، فترأى له الميدان غاصاً بحشد غريب ليس من رعيته. وبدأ الطنين يملأ أذنيه. وخيل إليه أن ثمة شخصاً ما يصرخ أو يبكي، وربما يغني - إنه لا يدري ولا يستطيع أن يتبين شيئاً مما يدور حوله. وما هذا الشيء الذي يحدث صريراً كصرير الجحيم؟ ربما كان.. آه الجرس.

ورجع ثانية وهو يقول:

- تعال يا كابتن جرينهورن. أعني على استجلاء هذا السر الغامض. ما هذا القطيع الذي يملأ الميدان؟ ما هذا الصرير؟ وما هذه الأجراس؟ هل أنا في حلم؟ خرج الكابتن فورتوناس مسرعًا إلى الشرفة. كان قد لف حول رأسه فوطة بيضاء حتى لا يتصدع. فهذه هي عادته دائمًا كلما قضى ليلة ينادم فيها الأغا ويشاركه شراب العرقي، ظنًا منه أن العرقي قد يفتت رأسه ويتناثر إلى ألف قطعة. وبين حين وآخر يفك الرباط ويغمسه في وعاء به ماء بارد، ثم يلفه ثانية حول رأسه التي تأججت فيها نيران العرقي.

ومال الكابتن فوق حافة الشرفة، ودقق النظر، وظن أنه عرف جلية الأمر. ثمة رجال ونساء وعلم حول شجرة السنار....

وعاود الأغا سؤاله:

ما هذا يا كابتن جرينهورن. هل تفهم شيئًا مما يدور هنالك؟

ورد عليه الكابتن:

- إنهم أناس. يبدو لي ذلك. وأنت يا أغا ماذا تظن؟

- يخيل إليّ أيضًا أنهم أناس.. ولكن من أين جاءوا؟ ماذا يريدون؟ هل أتركهم وشأنهم؟ أم أركلهم بقدمي وأطردهم؟ أم أنزل إليهم بسوطي؟ ماذا ترى؟

- لا عليك يا أغا. ما جدوى الصراخ أو النزول إليهم بالسوط، أو الثورة والغضب؟ دعهم وشأنهم ولتله نحن قليلًا. هل لنا أن نشرب كأسًا أخرى؟

ونادى الأغا:

- يوسوفاكي. آتني يا كنزي الثمين الحشايا والأقداح ودمجانة العرقي. تعال والق نظرة بنفسك يا عزيزي.. إنهم روميون. هل تراهم؟ يونانيون. لن يمضي وقت طويل حتى يتضاربوا.

وسأل الأب فوتيس ثانية:

- أين الأب جريجوريس؟ أين الأعيان؟ أليس هناك مسيحي يذهب إليهم ويستدعيهم؟

ورد مانولي:

- سأذهب أنا. صبرًا قليلًا يا أبانا. ثم استدار ناحية ميشيل وقال له:

- ميشيل، هل تذهب إلى أبيك لتنبيهه؟ قل له إن بعض المسيحيين وفدوا إلى القرية. مسيحيون أخرجوا من ديارهم يجثون عند قدميه يستجيرون به. إنه عمدة القرية وهذا واجبه. وسأقصد أنا بيت الأب جريجوريس. أما أنت يا قسطندي فأسرع إلى بيت الشيخ لاداس. قل له إن ثمة أناسًا من قرية أخرى وفدوا إلينا، يتضورون جوعًا، لذلك فإنهم يبيعون متاعهم مقابل كسرة خبز. قل له هذا دون أن تخرم منه حرفًا وإلا فإنه لن يأتي. وأنت يا ياناكوس، شق طريقك إلى كوخ الكابتن، قل له إن ثمة أناسًا وفدوا إلينا من البحر الأسود بعد أن تحطمت سفينتهم وقصدوا قريتنا لأنهم سمعوا عن اسمه الكثير. واعرج في طريقك على بيت ناظر المدرسة واستدعه. قل له إنهم يونانيون يعانون الفاقة والعوز.

وصاح صبي خبيث:

- الكابتن يقضي أمسية أنس مع الأغا. ها هو ذا يطل من الشرفة.. هل تسمعونني. لف عصابة حول رأسه. ومعنى هذا أن الخمر لعبت برأسه. وسمعوا وراءهم صوتًا طروبًا يقول:

- عمدة القرية يغط في نوم عميق ولن يوقظه شيء حتى ولو كان دوي طلقات مدفع.

وتلفت الجمع وراءه. كانت كاترينا الأرملة لحقت بهم لاهثة الأنفاس. وكاترينا غانية لعوب، لها شفتان مكتنزتان. تزينت بوشاح جديد محلى بورود حمراء كبيرة فوق أرضية خضراء. وهي متوردة الوجنت كأنما بخديها جمرات متقدة. وأسنانها كلؤلؤ منضود تلمع من أثر غسيلها بأوراق شجر الجوز. رمت كاترينا مانولي بنظرة ماجنة، وعادت تقول:

- إنه في سابع نومة. يهنا بالسعادة ويغط في نوم عميق.

ثم أردفت تقول ضاحكة:

- إنكم تضيعون وقتكم سدى يا مانولي بإيفاد الرسل إليه.

ونظر إليها مانولي ثم غض طرفه وجلا. وقال لنفسه:

- إنها امرأة نمرة.. نمرة تفترس الرجال.. إليك عني أيها الشيطان.

ودنت الأرملة منه وهي تتكلف الابتسام. تضوعت منها رائحة المسك، وبدت

وكأنها وحش مفترس حقاً استبد به الشبق. وسمعت وراءها صوتاً كالخوار، فاستدارت. رأت بانايوتي يحدجها بنظرات مغيظة حانقة. لا بد وأنه كان يجري هو الآخر، إذ أنه كان يلهث واستحال لون وجهه المجدور إلى لون قرمزي. وقال مانولي في لهفة:

- هيا بنا.. هيا بنا.

وانطق ثلاثتهم عدواً يشقون طريقهم إلى أعلى التل، واختفوا بين الدروب المظلمة.

وخطا بانايوتي خطوة إلى الأمام وهو يتميز من الغيظ ويعض على أسنانه. ثم خطا خطوة أخرى وأصبح إلى جانب كاترينا. ومال برأسه على كتفها وقال لها:

- ماذا كنت تفعلين هناك عند عمدة القرية يا عاهرة؟ لماذا ذهبت إلى داره..

هه؟ سأكل لحملك يا فاجرة نيئاً.

وقالت الأرملة في سخرية:

- لست مصنوعة من الجبس.

وانسلت بين صفوف الجمع، واحتمت بالعملاق حامل العلم.

كان القسيس يروح ويحيى بين رعيته ويصيح فيهم قائلاً:

- تشجعوا يا أطفال. تشجعوا. سيصل الأعيان توأ، وسيأتي قداسة الأب جريجوريس وسيضعون حدًا لما نعانیه من عذاب. أفلتنا بعون الله من برائن الموت. سنغرس جذوراً جديدة لنا في الأرض، ولن تختفي سلالتنا من الوجود. لا لن تختفي أبداً يا أبنائي لأنها سلالة خالدة.

وحدثت جلبة كأنها طنين في خلية نحل، ثم خيم الصمت. وفتحت نساء كثيرات صديرياتهن وأخرجن أئداءهن فألقمنها أطفالهن ليسكتنهم. وحط العملاق علمه وركزه في الأرض. وأراح الشيخ ذو المائة عام يده المعروقة الجافة على الجوال، والابتسامة تعلو شفقيه.

وتمتم الشيخ المعمر قائلاً:

- الحمد لله. ها نحن ذا سنضرب بجذورنا في الأرض من جديد. ورشم علامة الصليب.

ظل أهل القرية طوال هذا الوقت يفدون كسيل لا ينقطع لاهثي الأنفاس.
وتعبت الكلاب من كثرة النباح، وأخذت تتشمم هؤلاء الوافدين الغرباء. ولا زال
الفتى الذي تعلق بالجبل يدق الجرس ليوظ القرية.

كان الليل ساجيًا. وامتدت صفحة السماء اللانهائية فوق رؤوسهم كأنها لوحة
نسيجها من المخمل وازينت بنجمين كبيرين. ورفع اللاجئون عيونهم، وتعلقت
أبصارهم بالسماء. وانتظروا، والثقة تملأ نفوسهم، وصول الأعيان ليقرروا
مصيرهم. وخيم الصمت على الجميع. وللحظة قصيرة تنأى إلى سمعهم خرير
جدول ينساب ماؤه بين الحصي كترنيمة ترتل.

وسمع الأغا صوت تدفق الماء فقال:

- تعال أيها الكابتن الشيطان. صب لنا الشراب. إنه حلم. وهذا الجدول لنا،
ماؤه عذب. املاؤنا الكأس حتى لا نفيق. ولكن كن يقظًا، فإذا ما تقاتل الروميون
فأنبئني بذلك حتى أنزل إليهم بسوطي.

- لا عليك يا أغا، فكلي عيون يقظة. سأنبئك بأمرهم. وها أنا أرقبهم.
- ادع حسينًا وليأت معه بالنفير. ربما أحتاج إليه. وأنت يا يوسف اكي أشعل لي
الغليون. وأشعل الغلام الوسيم الغليون الطويل ذا الجفنة المصنوعة من الكهرمان.
وجلس الأغا على حشيته، يوسف اكي عن يمينه، ودمجانة العرقي عن يساره، وهام
في ملكوت أحس معه أنه دخل الفردوس.

وعاد مانولي مقطوع الأنفاس، باسطًا ذراعيه إلى الأمام، صارخًا بأعلى صوته:

- أفسحوا الطريق.. أفسحوا الطريق يا إخوتي. القسيس قادم.

وهب الرجال واقفين. ورفعت النسوة رؤوسهن وتنهدن. وتمایل القلم ثم
ارتفع سامقًا إلى جانب الأب فوتيس. وتصدر الشيوخ حاملو الأيقونات صفوف
الجمع. ورشم قسيسهم علامة الصليب.

وانتظر في مكانه بغير حراك وتمتم قائلاً:

- أعنا يا إلهي.

ووصل ميشيل أيضًا. اقترب من مانولي وهمس في أذنه قائلاً:

- إنه نائم. يغط في نوم عميق ومن المستحيل إيقافه. أفرط في الشراب كما

أفرط في الأكل. أخذت أهزه فلم يتحرك. ناديته فلم يسمعي. لذا تركته وقفلت عائداً.

ثم أتى قسطندي. وقال وقد تملكه الغيظ:

- هذا العجوز اللعين ثعلب ماكر حقاً. شم رائحة شرك ينصب له فتظاهر بأنه مشغول، وأن وقته لا يساعده على الحضور. يقول إذا كان هدفكم جمع صدقات فإنه لا يملك مليماً واحداً يتصدق به. دعهم لا يطرقون بابه فلن يفتح لهم. وفي هذه اللحظة وصل ياناكوس.

- ألفتيت ناظر المدرسة يطالع بعض الكتب. وسيأتي بعد أن يفرغ من قراءته. ويقول إن كل ما يقرره الأب جريجوريس هو عين الصواب. هذا ما قاله لي. وتمتم مانولي في حسرة:

- ها هم أعيان القرية. أحدهم يغط في نومه، والثاني ثمل من فرط الشراب، وثالث يطالع الكتب، وهذا العجوز البخيل يرقد على دراهمه عسى أن تفرخ. ولكنني أثق في الأب جريجوريس القادم إلينا في الطريق. فهو - إنه صوت الرب. وله الكلمة وحده.

وندت صرخة حادة من امرأة شابة علا الشحوب وجهها وسقط رأسها فوق صدرها. قضت ثلاثة أيام لم تدق فيها طعاماً. انهدت قواها بعد أن كانت تعيش حياة ميسورة، وها هي تعاني سكرات الموت. تجمعت حولها النسوة يروحن على وجهها.

- تشجعي يا دسبينيو الصغيرة، تشجعي. ها نحن ذا وصلنا إلى مكان وفير الخصب، وذهب أهله ليحضروا لنا طعاماً نسترد به قوتنا. تشجعي للحظة قصيرة ليس إلا.

ولكنها أمالت رأسها وأسبلت جفניה ثم غشي عليها. وفجأة تعالت صيحات الفرح، ودبت حركة وسط الجموع.

- إنه آت. إنه آت.

ورفع الأغا جفنين ثقلين وتساءل:

- هه يا ناعم الجلد، ماذا هناك؟

- لا زلت أقول لك يا أغادع عنك القلق.. أنت في الفردوس فلا تخرج منه.
وأنا أقف عند بابي حارسًا لا تغمض له عين. سأنبئك بتفاصيل كل شيء. أحسبه
جريجوريس القسيس وخرج على الناس.

انفجر الأغا ضاحكًا:

- وهل هذه العصابة من الوافدين الغرباء معها قسيسها أيضًا؟
- نعم.

قالها الكابتن وهو يملأ الكأس ثانية.

- حسن. سنرى بعد قليل ما تنسلي به. سيتضارب القسيسان. هؤلاء القساوسة
المباركون أشبه بالنساء، شعورهم طويلة، وإذا التقى اثنان أمسك كل منهما بضفائر
الآخر يشدها. أين حسين؟ لينزل إليهم ويطلب منهم أن يتحدثوا بصوت عال حتى
أسمع كلامهم.

وفي هذه الأثناء كان بانايوتي يتعقب الأرملة حتى وصل إلى حيث هي بجانب
حامل العلم.

ومال بوجهه على أذنيها وهمهم بصوت غاضب:

- سألتهمك الآن. ما الذي أتى بك إلى هنا وسط هذا الجمع من الرجال؟ عم
تبحثين؟ ارجعي إلى بيتك سريعًا. ابعدي عن هذا المكان وسألحق بك.

وانتفضت الأرملة، ونظرت إليه في شراسة وقالت له:

- هل أنت أيضًا ميت الإحساس لا قلب لك؟ ألا ترى ما يقاسيه أبناء المسيح
من عذاب؟ ألا تشعر بشيء من الرثاء نحو هذا الشعب الذي يقتله الجوع؟
ولاذت بالصمت لحظة. ثم أدارت له ظهرها. وفجأة أحست بأنها عاجزة عن
أن تتمالك نفسها أكثر من ذلك، فثمة كلمة قاسية تغص بها. واستدارت إليه ثانية
وصرخت في وجهه:

- «يهوذا؟!».

قاتلها وعلى الفور أفلتت هاربة من أمامه لتختفي بين صفوف اللاجئين.
وأحس بانايوتي بالأرض تميد تحت قدميه. شعر بدوار في رأسه، وكأن خنجرًا
استقر في قلبه. أمسك بسارية العلم حتى يحمي نفسه من السقوط، والتوى حول

نفسه، وظل في مكانه هكذا فاغراً فاه.

وتعالص صيحات هنا وهناك:

- «ها هو... ها هو ذا الأب جريجوريس».

واشأأت الأعناق لتبصره. وقف القسيس جريجوريس ممثل الرب في قرية ليكوفريسي أمام الحشد الذي يتضور جوعاً. فارع القائمة، شامخاً في جلال مهيب، يرتدي بطرشيلا من الساتان البنفسجي الداكن. يلتف حوله حزام أسود عريض. ويستقر فوق كرشه صليب فضي ثقيل.

وخر الرجال والنساء ركعاً. وتقدم قسيسهم الضامر خطوات ناحية القسيس البدين، خادم الرب وراعي الكنيسة في القرية، وفتح ذراعيه ليعانقه ويقبله فوق كتفيه على عادة الرهبان. وإذا بالأب جريجوريس، وقد تجهم وجهه، يرفع يده البضة اللحيمة يستوقفه في مكانه. وألقى حوله بنظرة وحشية ضارية، ووقع بصره على أناس يرتدون خرقة بالية، يقتلهم الجوع، ويلاحقهم الموت. واشمأزت نفسه، وضاق بهم صدره، وارتفع صوته مدوياً:

- «من أنتم؟ لماذا تركتم دياركم؟ ماذا تريدون منا؟».

وارتجفت النسوة عند سماعهن صوته، وهول الأطفال ليلوذوا بأمهاتهم وتعلقوا بشيا بهن. وعاددت الكلاب النباح. وتنبه الكابتن في شرفته وأصاخ السمع. وأجاب قسيس اللاجئ في هدوء وحسم:

- «يا أبانا. أنا القسيس فوتيس راعي قرية بعيدة هي قرية القديس جورج. وهذه هي الأرواح التي ائتمني الرب عليها. أأرق الأتراك قريتنا، وأخرجونا من ديارنا، وقتلوا كل من وصلت إليه أيديهم، واستطعنا نحن الهرب، فرحلنا بقلوب مكلومة أثقلها الحزن. المسيح يتقدمنا ونحن نقتفي أثره. إننا نبأ عن أرض جديدة نتأخذها وطناً لنا. هذه هي قصتنا».

وسكت هنيهة، وجف للعباب في فمه، كما جفت الكلمات في حلقة.

ثم أردف يقول:

- «إننا مسيحيون، من سلالة الإغريق، نسل سلالة عظيمة يجب أن يكتب لها

الخلود فلا تفنى أبداً».

أطل الكابتن من الشرفة والطين يملأ رأسه، وأنصت إلى صوت القسيس الغاضب، وهو يتحدث بكلمات حاسمة مفعمة بالكبرياء. وبدأت أبخرة العرقي تتبدد رويداً رويداً، وهو يفيق بعض الشيء.

وقال لنفسه:

- «يا لها من سلالة شيطانية. هكذا هي دائماً. عجباً للتعصب، إنها في كل مكان ذريعة لاستنفار الهمم! إنها كالأخطبوط، تبتز إحدى زوائده فلا تلبث أن تنمو زوائد أخرى غيرها... ثم سرعان ما تتولد أجيال جديدة!».

وفك العصابة من حول رأسه. كانت رأسه تغلي حتى أن العصابة كان يتصاعد منها البخار. وعلى مقربة منه كان وعاء الماء البارد. فغمس فيه العصابة ثم لفها حول رأسه ثانية وأحس بالانتعاش.

وصاح الأب فوتيس:

- «لن نبید أبداً. بقينا على قيد الحياة آلافاً من الأعوام، وسنظل على قيد الحياة آلافاً أخرى من الأعوام... بوركت ساعة لقائنا بك يا أب جريجوريس».

وقال الكابتن فورتوناس لنفسه:

- «إن هذا القسيس له صفات الكابتن الأصيل. عجباً لهذه الحمية والقوة والجسارة التي يتحلى بها هذا المخلوق. قسماً بالبحر إنه على صواب فيما يبدو لي. فنحن معشر الإغريق جنس خالد حقاً. حاولوا جهدهم أن يستأصلوا شأفتنا، وأن يحرقونا ويقطعوا رقابنا ولكن عبثاً فقد ذهبت جهودهم سدى.. هيهات لهم أن ننكس العلم. إننا نحمل الأيقونات والصحاف ومهود الأطفال والإنجيل ونسرع الخطى. نرحل إلى مكان قصي ونضرب خيامنا».

وظفرت الدموع في عينيه، ومال بجسده على حافة الشرفة وصاح بأعلى صوته:

- «برافو أيها القسيس الكابتن. برافو أيها الصديق العجوز».

وارتفعت الرؤوس، وشخصت الأبصار ناحية الشرفة، ولكن الصيحة ذابت وسط الجلبة التي أثارها كلمات القسيس. تذكرت النسوة بيوتهن، وغمغن بصرخات مبحوحة، وتذكر الأطفال اللعب، وانخرطوا في البكاء.

ثم خفتت الجلبة فجأة. فرفع القسيس جريجوريس يده الرخصة وبدأ يتكلم.

قال بصوت جهوري:

- ما من شيء يحدث على هذه الأرض إلا بمشيئة الله. إنه في سماواته العلى مطلع على كل شيء، يزن أفعالنا، حسناتنا وسيئاتنا، ويقدر سبحانه أن تنعم ليكوفريسي بخيراتنا، وأن تبلى قريتكم بالأحزان المفجعات، وهو العليم بكل ما اقترفتم من خطايا.

وسكت هنيهة حتى يستوعب الجمع كلماته الخطيرة. ثم رفع يده ثانية وصاح بنبرة كلها لوم وتأنيب:

- قل الحق أيها القسيس. اعترف بما قدمت يداك حتى حق عليك العذاب من الرب.

ورد عليه الأب فوتيس محاولاً أن يكظم غيظه الذي بدأ يعتمل في صدره: - يا أب جريجوريس. أنا مثلك خادم لله سبحانه وتعالى. وأدرس مثلك أيضاً الكتب المقدسة. وأحمل بين يدي مثلك أيضاً كأس القداس، فيه دم المسيح وجسده. نحن سواء شئت ذلك أم أبيت. ربما تكون غنياً وأنا فقير. ربما تملك حقولاً خصبة وفيرة تسوق إليها قطعانك للرعي بينما أنا، كما ترى، لا أجد مكاناً أتوسده. ومع هذا كله فنحن سواء أمام الله. بل وربما كنت أنا أقرب إلى الله منك لأنني جائع. واخفض من صوتك إن شئت أن أجيب عليك.

وأصابت الأب جريجوريس غصة. وأحس هو الآخر بالغضب يضطرم في صدره. ولكنه تمالك نفسه. إذ تبين له أنه يتصرف على نحو خاطئ، وأدرك أن أهل القرية جميعاً يقفون شهوداً، ولا ريب في أنهم بذلك سيقرون هذا القسيس الشرس المهلهل.

فقال بصوت خفيض:

- تكلم ، تكلم يا أبانا. الرب يسمع كلامنا كما يسمعه الناس أيضاً، وكلنا مسيحيون يونانيون. سنبدل كل ما في طاقتنا، بل وما هو أكثر، لننقذ هذه الأرواح المعلقة برقبتك.

- يا أب جريجوريس، ذاع اسمك وملاً الأسماع هناك في قريتنا. وها نحن نراك الآن بشحمك ولحمك وننصت لكلماتك. سألتني كيف حلت النوائب

بقربتنا، وها أنذا أجيب على سؤالك. فاستمع إلي يا أب جريجوريس، واسمعوا أيها الأعيان رغم أنكم ترفعتم عن المجيء إلينا لتلتقوا بنا. اسمعوا أنتم جميعاً أيها المسيحيون أهل ليكوفريسي.

كان قلب مانولي يدق في عنف. والتفت إلى رفاقه الثلاثة وهمس إليهم قائلاً:

- هيا نقرب منه. لنقرب منه حتى نسمع ونرى بوضوح.

وقال قسطندي:

- يا مانولي، إني أرى فيه صورة يعقوب الرسول كما تخيلتها.

وقال ياناكوس:

- وأنا أرى فيه بطرس الرسول.

وتدافعت الكلمات على لسان القسيس سريعة عنيفة وكأنه يهرب من الذكرى، ويخشى أن ينكأ الجروح. وانطلقت كلماته تستثير الذكريات هنا وهناك، وتتشعر معها الأبدان.

- ذات يوم تناهت إلى سمعنا أصوات من فوق سطوح بيوت القرية نصيح قائلة: «الجيش اليوناني! الجيش اليوناني! إننا نرى ملابس أهل الجبل فوق قمم التلال». وسرعان ما أصدرت أمري: «لتدق الأجراس لحن عيد القيامة. ليتجمع الناس فإني أريد أن أتحدث إليهم». بيد أن الناس جميعهم تدافعوا ناحية المقابر وشرعوا ينبشون القبور وكل يبكي على أبيه «لقد جاءوا يا أبت! لقد جاءوا يا أبت». وأضاءوا مصابيح الزيت عند مفترق الطرق، وأراقوا الخمر ليعثوا الموتى إلى الحياة. وبعد أن فرغوا من شئونهم مع الموتى، توافد الناس إلى الكنيسة. واعتليت المنبر وخطبت فيهم قائلاً: «يا إخوتي، يا أطفال، أيها المؤمنون جميعاً لقد جاء اليونانيون والتقت السماء بالأرض. أيها الرجال والنساء. ليحمل كل منكم سلاحه، وليتعب الأتراك حتى أبواب الجحيم».

وهمس ياناكوس في أذن القسيس:

- اخفض من صوتك يا أبانا. لا تتحدث بصوت عال.. الأغا في شرفته ينصت

لحديثك.

في هذه اللحظة عينها هب الأغا واقفاً. كان قد غلبه النعاس، بيد أن أذنه التقطت

بعض كلمات تدعو إلى التمرد.

- هه.. أنت يا كابتن جرينهورن. ثمة أشياء تحدث لا أقبلها على الإطلاق.
التقطت أذني..

- قلت لك يا أغا لا تعبأ بشيء وخذ الأمور مأخذًا سهلاً. نم. وها أنا أذني
واعية تتسمع كل شيء.

- حقًا يا كابتن إن بي حاجة إلى لنوم.. ولكن إذا ألفت القسيسين يتبادلان
الشتائم ويمزق كل منهما شعر الآخر هزني وأيقظني، وسوف أنزل إليهما بسوطي
لأعيد النظام.

واستدار ناحية يوسوفاكي وقال وهو يغمض جفنيه الثقيلين:

- تعال يا يوسوفاكي. ذلك لي ساقّي حتى يغلبني النعاس.

وخفض الأب فوتيس من صوته:

- أخرجنا السلاح من مخبئه. وتطوقت بجراب الخرطوش، وحملت صليبي،
واستعرضت أهل القرية في الميدان وقلت لهم: «يا أطفال، هيا ننشد معًا النشيد
الوطني قبل أن ننطلق في طريقنا. آه، ما أبدع الأصوات. كان بعثًا حقيقيًا للمسيح.
اهتزت الأرض حين أنشدنا جميعًا بصوت واحد النشيد الوطني...

ونسي الأب فوتيس نفسه وبدأ ينشد بصوت عال:

«بعث الحرية من بين عظام الإغريق المقدسة...»

وهمس ياناكوس في أذنه ثانية:

- أخفض من صوتك يا أبانا، لا ترفع صوتك هكذا.

وفي نفس هذه اللحظة، وكأنما نسمع رجع الصدى. علا صوت في الشرفة
يكمل النشيد الوطني اليوناني. كان صوت الكابتن الأجش:

- لأكن مغوارًا دائمًا.. سلامًا، سلامًا، أيتها الحرية.

وتملل الأغا لحظة كأن برغوثًا لدغه، ثم غلبه النوم ثانية.

وثب كل من في الميدان. شخصوا بأبصارهم ناحية الشرفة، ولكن الكابتن كان
قد جلس ثانية فوق حشيته وعاد يملأ كأسه بالعرق.

وغمغم وهو ينتحب:

- هيا، في صحة اليونان المقدسة التي ستكون لها السيادة على العالم.
وقال قسطندي:
- الكابتن فورتوناس سكران. شعشع كأنه مئذنة في ليلة من ليالي عيد الأضحى. أسأل الله أن يلهمه الصواب فلا تمتد يده إلى مسدس الأعما المعلق بحزامه ويطلقه على رأسه. وإلا سيكون في هذا هلاكنا.
- وقال ميشيل وقد التهبت مشاعره حماساً:
- ليكن ما يكون، ولنهلك جميعاً، فإن هذا القسيس يهزني من أعماقي.
- وقال مانولي الذي تعلقت عيناه بشفتي القسيس:
- اهدأوا يا إختوتي، اهدأوا دعونا نسمع ما يقول.
- تملك الغضب الأب جريجوريس. وأخذ ينفخ بكل ما أوتي من قوة. وقال لنفسه: هذا القسيس المهلهل يحاول أن يبدل عواطفهم ويقلبها رأساً على عقب. يا له من عمل شرير. يجب أن أبحث عن وسيلة أخرجه بها من قريتي.
- وقال وكأنه يداري موقفه:
- تكلم. تكلم يا أبانا. لماذا توقفت عن الكلام؟ ها نحن نصت لك.
- وتنهذ الأب فوتيس. وقال بصوت فيه رنة أنين:
- لا ترغمني يا أبانا على أن أقص ما حدث لنا بعد ذلك. فإن صدري يا أبانا يضم بين جوانحه قلباً وليس قطعة صخر، وقلبي يكاد ينفطر.
- وبدا يبكي. واختنق صوته.
- ومال الكابتن على الشرفة ثانية ومسح عينيه بعصابته المبتلة. وغمغم.
- ليأخذني الشيطان. لقد عدت طفلاً صغيراً.
- وقال الأب جريجوريس:
- هذه إرادة الله. والشكوى خطيئة كبرى.
- وانفجر الأب فوتيس قائلاً بعد أن استعاد صوته:
- لست أشكو، فأنا لا أخاف. إننا شعب خالد. انظر لقد عادت السكينة إلى قلبي. سأقص عليكم. تمزقت جيوش الإغريق وأرغمت على التراجع. وبقينا نحن. بقينا وعاد الأتراك. وحين أقول عاد الأتراك فإن هذه العبارة تغني عن كل

شيء. أحرقوا، ونهبوا، وأثخنوا الجراح.. ولم لا.. إنهم أترك في نهاية الأمر. وسرت على رأس كل هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة. ها أنت ذا تراهم جاثين أمامك، إنهم مسيحيون. عدد من الرجال، ومثلهم من النساء أو يزيد قليلاً، وعدد غفير من الأطفال.. أنقذنا الأيقونات والإنجيل وعلم القديس جورج. حملنا معنا كل ما استطعنا حمله. سرت في طليعتهم، وهكذا بدأت مسيرة الخروج.... مطاردة ومجاعة وأمراض. مضت أشهر ثلاثة ونحن نواصل المسير، ولقي كثيرون حتفهم على قارعة الطريق.. واريناهم التراب، وواصلنا المسير، نحن من بقينا على قيد الحياة. مع المساء نحط الرحال، وأضنانا التعب. كنت أمسك بقلبي بين جوانحي، أستجمع همتي، وأقف بينهم، أقرأ عليهم الإنجيل، وأتحدث إليهم عن الرب واليونان. ومتى مضى الليل نكون استعدنا بعض قوانا، وفي الصباح نبدأ المسير من جديد.... وعلمنا أن وراء جبل العذراء تقع قرية ليكوفريسي، وهي قرية خصبة غنية، أهلها أناس بررة. وقلنا لأنفسنا: إنهم مسيحيون ويونانيون. خزانهم ملأى، وأراضيهم واسعة، ولن يسلمونا ليد المنون. وها نحن ذا أتينا إليكم. فسلاماً عليكم أيها الإخوة المسيحيون أهل ليكوفريسي. وشكراً لله.

ومسح الأب فوتيس حبات العرق التي لمعت فوق حاجبيه، ورشم علامة الصليب، وانحنى فوق الإنجيل وقبّله.

ثم قال وهو يلوح بإنجيله الضخم عاليًا:

«ليس لنا أمل سواه، ولا عزاء لنا في غيره».

وفاضت العيون بالدموع. واقشعرت أبدان الجمع فزعًا. واتكأ مانولي على ذراع ياناكوس حتى لا يسقط على الأرض. وحبس ميشيل دموعه، وأخذ يلوي شاربته في حركة عصبية. وحتى بانايوتي أغرورقت عيناه بالدموع. الآن فقط أبصر الجميع الدنيا من حولهم بعين كلها حنو وشفافية.. وانخرطت الأرملة أيضًا في نحيب، كانت تبكي أبناء المسيح واليونان، تبكي الرجال والنساء الذين التفوا حولها، وتبكي نفسها وخطيئتها وعارها.... وهناك في الشرفة المطلة عليهم أخذ الكابتن فورتوناس يضغط بيده على شفتيه ليحبس نشيجه حتى لا يوقظ الأغا الذي يغط في نومه..

اثنان فقط لم يكيّا: القسيسان.. أما أحدهما فلأنه عاش كل هذه المآسي وبكاها من قبل. والثاني لأنه غارق في التفكير، واستبد به الهم؛ بحثاً عن وسيلة يتخلص بها من هذه العصبة الجائعة وقائدها الشرس العنيد الذي يفسد عليه نفوس رعاياه. واستطرد الأب فوتيس في حديثه، ولكن بنبرة أقل حدة هذه المرة:

- وجد بعضنا فسحة من الوقت للذهاب إلى المقابر، وأخرجوا عظام أجدادهم، وحملوها معهم لتتخذ منها أساساً نبني عليه قريتنا الجديدة. انظر إلى هذا الشيخ المعمر الذي بلغ عامه المائة، حملها على ظهره طوال الشهور الثلاثة. أحس الأب جريجوريس بأن أعصابه لن تحتمل المزيد. وقال:

- كل هذا جميل يا أبانا. ولكن ماذا تنتظر منا؟

وأجاب الأب فوتيس:

- أرضاً نتخذها مستقرًا لنا، نضرب فيها بجذورنا من جديد. قيل لنا إنكم تملكون أرضاً بورًا، لا تستفيدون منها بشيء. امنحها لنا ولنقتسم حصيلتها، نبذرها حبًا، ونحصد غلتها نصنع منها خبزًا نطعمه هذا الشعب من الجوعى. هذا هو ما نطلبه يا أبانا.

وزمجر الأب جريجوريس كأنه كلب حراسة. ماذا؟ هل سيتنزع منه هؤلاء المتسولون بعض أملاكه؟ وتحسس لحيته، وغرق في التفكير وتعلقت أبصار الرجال والنساء بشفتيه. وخيم صمت ثقيل.

وهب الأغا من نومه قلقًا:

- لماذا سكتوا؟ ألم أمرهم بالصياح؟

وقال الكابتن:

- نم يا أغا. نم. لم يبدأ العراك بعد.

- ماذا بك. إنك تتحدث بصوت متهدج - لماذا؟ هل أنت سكران؟ وتتمم

الكابتن وهو يمسح دموعه:

- آه، إنه العرقي، وما أدراك ما العرقي، إنه ليس بماء.. أخرجني هذا اللعين

عن صوابي.

ضاق نفس مانولي ولم يعد يطيق صبرًا. ولكن أنى له الشجاعة، وهو الخادم،

ليدفع بنفسه إلى مقدمة الحشد ويتكلم أمام القرية جميعها.

وصاح:

- يا أبانا، أيها القسيس جريجوريس. استمع إلى صوتهم. المسيح جائع. إنه يسأل الناس الصدقات.

واستدار الأب جريجوريس ناحيته وقد جن جنونه:

- اخرس أنت.

وخيم الصمت ثانية، وكان لا يزال صمماً ثقیلاً. واقترب قسطندي وياناكوس ووقفنا بجوال مانولي كأنما يريدان حمايته. أما ميشيل فاستبدت به الحيرة، وتقدم بخطوات مترددة ناحية مانولي.

وقال له مانولي:

- اذهب أنت لتوقظ أباك. عجل، إنه إنسان ذو قلب ومروءة، ربما يرق لحالهم.

ألا ترثي لحالهم يا سيدي؟

- إنني أرثي.. أرثي لحالهم.. بيد أنني أخشى أن أوقظه.

وقال مانولي:

- الله أحق أن تخشاه يا ميشيل، الله وحده وليس البشر.

واحمر وجه ميشيل. كيف جرؤ خادمه على أن يتحدث إليه بهذه اللهجة؟ ما صفة هذا الذي يحدثه؟ ما شأنه هو حتى يصدر الأوامر؟ وتجهم وجهه ولكنه لم يبد حراكاً ينم عن رغبة في الذهاب ليقظ أباه.

الأب جريجوريس ما زال صامئاً يتفكر طوال هذه الفترة. يقلب الرأي فيما بينه وبين نفسه، يفتش في ذهنه عما عساه أن يقول، وما عساه أن يفعل، ليخرج هذه الذئاب الجائعة من أرضه. وأحس بأن كل من حوله من رعيته بدأوا يتململون، وهم على وشك أن يفلت زمامهم من بين يديه.. ما العمل؟ هل يدعو الأغا؟ ولكن ماذا يقول أهل القرية عنه لو لجأ إلى تركي ليحكمه بينه وبين هذا الشعب الذي أخرج من دياره، لا لشيء إلا لأنه حارب الأتراك؟ هل يستدعي الأعيان؟ إنه لا يثق إلا في واحد منهم فقط وهو الشيخ لاداس. أما عمدة القرية، هذا العجوز المخرف، فإنه سرعان ما يطفر الدمع في عينيه. إنه سيلبي طلبهم. وثانيهم الكابتن،

هذا الشخص القذر المقيت، فمن المؤكد أنه سيقول نعم.. إذ ماذا سيخسر هو؟ ومثلهما ناظر المدرسة، هذا الثرثار الواهم، يضع على عينيه نظارة ويحلم بأفكار عظيمة، ولا يعرف كيف يقسم الشعر بين حمارين..

وقال القسيس فوتيس وقد بدأ ينفد صبره:

- يبدو يا أبانا أن الله يحتاج إلى وقت طويل حتى ينير بصيرتك.

واثارت نائرة القسيس جريجوريس، وأراد أن يدفع الحجة بحجة مثلها فقال:

- نعم، إنه يحتاج إلى وقت طويل، لأن ثمة أرواحاً معلقة برقبتي أنا أيضاً، وأنا مسئول عنها أمام الله يوم الحساب.

ولكن الأب فوتيس أسقط حجته حين قال له:

- كلنا راع، وكل مسئول عن أرواح البشر جميعاً. فلا وجه للتمايز يا أبانا بين من هم «رعيتك» ومن هم «رعيتي».

وتمنى الأب جريجوريس لو كانا وحدهما إذن لانقض عليه وأحكم قبضته حول رقبتة وقتله خنقاً. ولكن ما الحيلة، والأمر على غير ما يهوى؟ وكظم غيظه. وعلى أي حال لا بد له أن يتكلم، فليس بوسعه أن يظل صامتاً. فالعيون كلها معلقة به. وفتح فمه:

- اسمعني يا أبانا..

- ها أنذا أستمع إليك.

قالها الأب فوتيس وتشبثت يداها بالإنجيل الضخم وكأنه يتمنى لو استطاع أن يرميه به على أم رأسه.

لم يكن الأب جريجوريس اهتدى بعد إلى ما عساه أن يقول. وحدثت المعجزة التي يتمناها في اللحظة المناسبة. إذ دوت صرخة عاتية سقطت على أثرها دسبينيو، التي هدها الهزال، جثة هامدة. وتدافع نحوها رفاق الطريق لانتشالها ولكنهم تراجعوا في فزع.. علت وجهها صفرة شاحبة، وتورمت قدمها، وانتفخ بطنها كرق مشدود، وازرقت شفتاها.

ورفع القسيس جريجوريس يديه إلى السماء مبتهلاً إلى الله، وصاح بأعلى صوته، وهو يحاول جاهداً أن يوازي فرحته:

- يا أبنائي في هذه اللحظة المروعة تولى الرب بنفسه عنا الإجابة. انظروا إلى تلك المرأة، اقتربوا منها ودققوا النظر، بطن منتفخ، وقدمان متورمتان، ووجه علتة الزرقاء.. إنها الكوليرا.

وتراجع الجمع في فزع.

وصاح الأب جريجوريس مرة ثانية:

- إنها الكوليرا.. هؤلاء الغرباء وفدوا إلى القرية يحملون معهم قصاصًا مروعًا. الويل لنا، إنا هالكون. حذار أن تأخذكم بهم رافة. تفكروا في أمر أطفالكم ونسائكم وقربتكم. الأمر هنا لله وحده وليس لي. ثم أشار إلى جثة المرأة الملقاة وسط الميدان وقال:

- سألني القسيس ردًا، وهاكم الرد.

ضم الأب فوتيس الإنجيل إلى صدره ويداه ترتجفان. ووثب ناحية الأب جريجوريس، وحاول أن يتكلم فلم يستطع؛ احتبس الكلام في حلقة. ومن فوقهم نهض الكابتن في الشرفة مترنحًا. وغمس عصابته ثانية في الماء البارد، كان الدم يتدافع حارًا إلى رأسه. وربط العصابة من جديد، وأفاق لنفسه. كان الماء يترقق فوق وجنتيه الشاحبتين وذقنه الأمرد وصدره الأجرد الذي دبغه ملح البحر.

وغمغم الكابتن وعقد السكر بعض لسانه، فخرجت الكلمات من فيه متعثرة:

- هذا التيس البدين المبطن انتصر على قسيس اللاجئين المسكين. يقول الكوليرا.. آه ما أقبحه هذا العجوز المفترس. ولكن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد.. أبدًا. سأنزل إليهم وأصرخ فيهم قائلاً: «كاذب كاذب. أنا أيضًا واحد من أعيان هذه القرية ولي الحق في أن أدير دفة الأمور فيها، ولي مثله الكلمة وسوف أتحدث إليكم».

ونهض من مكانه، وسار مترنحًا يمينه ويسرة حتى بلغ الباب ورفسه بقدمه وفتحه. ووقف هنيهة عند أول الدرج، كان كل ما حوله يدور ويتمايل: المصباح المضيء، والسيوف المعلقة على الجدران، وحسين الذي تكور حول نفسه وهو نائم، والبنادق والطرايش الحمراء. أحس وكأن البيت كله يميل تحت قدميه.

فأمسك بالدرابزين وامتدت ساقه إلى الأمام، وخيل إليه وكأن أجنحة ركبته له. وأخذ الدرج يعلو ويهبط كأنه موج البحر.. وارتكز بقدمه على الفراغ، فسقط على أم رأسه وتدحرج فوق الدرج. وصحا الأغا فزعاً على صوت الجلبة التي أحدثها سقوطه. وصرخ:

- آه يا كابتن من الذي جدع أنف الآخر؟

وبسط ذراعيه وسط الظلام يتحسس ما حواليه داخل الشرفة فلم تقع يده على أحد. وتحامل على نفسه ليقف، ولكنه سقط ثانية في مكانه فوق الحشية بجوار يوسوفاكي الذي راح في سبات عميق واللبانة في فمه. وتحسس الأغا بقدمه الجسد الدافئ العطر وابتسم.

وقال بصوت حنون:

- حبيبي يوسوفاكي، أنت نائم يا كنزي....

وأسند رأسه إلى الصدر الغض، وأغمض عينيه ونسي كل شيء وهام في بحر من السعادة.

وترددت أصداء صوت الأب جريجوريس، ولكنه هذه المرة صوت هادئ يذوب رقة:

- سمعنا منك يا أخي حديثك عن آلامكم، وانفطرت قلوبنا لما سمعناه. وها أنت ذا رأيت عيوننا تذرف الدمع سفاحاً. وفتحنا لكم ذراعينا لنستقبلكم. وفي نفس هذه اللحظة أشفق علينا الرب وأرسل إلينا تحذيره المروع. إنكم يا إخوتي تحملون معكم موتاً زوْماً. اذهبوا عنا وليشملكم الرب بعنايته ولا تلحقوا الخراب بقربتنا.

وعلت صيحات التأوه والأنين بين صفوف اللاجئين عند سماعهم لهذه الكلمات. وشرعت النسوة تولول وتلطم الصدور. ونظر الرجال بعيون زائغة إلى قسيسهم. واستبد الفرع بأهل ليكوفريسي، ونظروا في هلع إلى الجثة المسجاة المتصلبة وسدوا أنوفهم.

وارتفعت الصيحات من كل جانب:

- ارحلوا عنا.. ارحلوا عنا.

وقال شيخ بصوت كأنه النهيق:

- أحضروا جيرًا وألقوا به على المرأة الموبوءة بالكوليرا حتى لا يفسد الهواء بجراثيمها.

وصاح الأب فوتيس:

- لا تخشوا شيئًا يا إخوتي. هذا غير صحيح، لا تصدقوه. إننا لا نحمل وباء وإنما نحن جوعى، هذا كل ما في الأمر. أقسم لكم أن هذه المرأة أماتها الجوع. والتفت ناحية الأب جريجوريس وزأر:

- أيها القسيس المبطن، أيها القسيس ذو اللحية المزدوجة. أسأل الله العلي القدير، السميع العليم، أن يصفح عنك. أما أنا فلا أملك الصفح. أسأل الله أن تقع عاقبة وزرك على رأسك أنت وحدك.

وصاح عجوز من أهل ليكوفريسي:

- أستحلفكم بفضل الله ونعمته أن ترحلوا. إن لي أطفالًا وأحفادًا فلا تكونوا سبب خرابنا.

واستبد الهلع بأهل القرية. وقست قلوبهم فهي كالحجارة. ولوحوا بأيديهم وهم يصرخون:

- اذهبوا. اذهبوا.

وضم الأب جريجوريس ذراعيه إلى صدره وقال بصوت جهوري:

- صوت الشعب من صوت الله. اذهبوا. كان الله معكم.

وصاح الأب فوتيس ثانية:

- أسأل الله أن تقع عاقبة وزرك على رأسك أنت وحدك.. إننا راحلون. انهضوا يا أطفالى.. تشجعوا. إنهم لا يريدوننا ونحن أيضًا لا نريدهم. لنواصل مسيرتنا فأرض الله واسعة.

وقفت النسوة وهن يترنحن. ورفعن أحمالهن. ورفع الرجال الصرر والأدوات. وتقدم حامل العلم وتصدر الجمع. وانخرط مانولي في البكاء. وانحنى ليأخذ بيد الشيخ المعمر، يعينه على النهوض، ووضع على ظهره جوال العظام. وقال له:

- ثق بالله يا جدي ولا تيأس.. ثق بالله.

والتفت إليه المعمر بوجه صارم وقال:

- بمن غيره نثق فيما تظن؟ في الناس؟ أما رأيت ما فعلوه الآن؟ آه... أف منهم.
ولم يكد الجمع يتأهب للرحيل حتى توقف الأب فوتيس فجأة. تطلع إلى
شعبه.. هياكل عظمية خائرة القوى. فانقبض قلبه. وصاح قائلاً:

- إخواني أهل ليكوفريسي. لو كنت وحدي.. لو كنت مسئولاً أمام الله عن
نفسي فقط، ما رضيت لنفسي ذل السؤال فأمد إليكم يدي كشحاذ. لو كنت كذلك
لأثرت الموت جوعاً. بيد أنني أشفق على النساء والأطفال، فلم تعد قواهم تعينهم
على الوقوف ثانية. سيسقطون جميعاً صرعى الجوع في الطريق. ومن أجلهم
فقط أغض الطرف عن العزة وكرامة النفس، وأمد إليكم يدي أسألكم صدقة أيها
المسيحيون. سنسبسط لكم أغطيتنا وألقوا فيها بما تجود به نفوسكم - كسرة خبز،
أو زجاجة لبن نرضعها الأطفال، أو حفنة زيتون.. فإننا جوعى.

وبسط رجلان بطانية وسارا بها عند أول الركب.

وقال القسيس وهو يرسم علامة الصليب:

- باسم يسوع المسيح نبدأ مسيرتنا ثانية. هيا يا أبنائي. تشجعوا لتتجرع هذه
الكأس أيضاً. حمداً لله. سنسير بين دروب القرية نظرق الأبواب. آه وأأسفاه...
ألهذا أتينا.. سننادي: صدقة. صدقة. تصدقوا علينا ببعض ما يفيض عن حاجتكم،
بعض ما تلقونه للكلاب، عضوا على النواجذ يا أبنائي واكظموا أحزانكم.
تشجعوا. الغلبة للمسيح.

ثم توجه بالحديث إلى الأب جريجوريس:

- إلى لقائنا الثاني يا أب جريجوريس. إلى اللقاء يوم الحساب. سنقف جميعاً
بين يدي الله، نحن وأنتم، وسيحكم بيننا.

كانت الأرملة كاترينا هي أول من اندفعت إلى الأمام بين صفوف القوم تقدم
صدقتها. فكت وشاحها الجديد، الوشاح الأخضر المحلى بورود حمراء كبيرة،
ووضعت داخل البطانية. ومدت يدها إلى صدرها تبحث عن شيء، ووجدت امرأة
صغيرة وزجاجة عطر، وألقت بهما أيضاً في البطانية وقالت وهي تبكي:

- لا أملك غير هذه الأشياء يا أخواتي. لا أملك شيئاً آخر. أسألكم الصفح....

وتردد قسطندي لحظة، ثم تذكر أنه أخذ على عاتقه حملاً ثقيلاً، أن يقوم بدور رسول، فهب يعدو، وفتح حانوته، وأخذ كيس سكر وعلبة بن وزجاجة براندي، وبعض الأقداح، وقطعة صابون، ووضعها جميعاً في البطانية.

وقال: إنها مقدمة صغيرة، ولكنها تكفي تعبيراً عن المودة. كان الله معكم. وطفقوا الأبواب جميعها باباً بعد آخر. امتدت يد خلصة وعلى عجل، ألقت ببعض الطعام والملابس في البطانية، ثم أغلقت الباب بقوة حتى لا تتسرب إليها الكوليرا.

وبلغ القوم بيت الشيخ لاداس، وطفقوا بابه. ظل الباب موصداً. وانطفأ المصباح الذي كان نوره بادياً من النافذة. ولكن ياناكوس، الذي صاحب القوم هو والرسول الثلاثة، طرق الباب بقوة وصاح:

- يا أب لاداس. إنهم مسيحيون. إنهم جوعى. كل منا يتصدق عليهم بكسرة خبز، فتصدق عليهم أنت أيضاً.

وسمعوا صوت العجوز لاداس غاضباً، يقول لهم من داخل البيت:

- ما يحتاجه بيتك فهو حرام على الجامع.

وضم ياناكوس قبضتيه وقال متوعداً:

- سأصفي حسابي معك يوماً ما يا عدو المسيح.

وصاح ميشيل:

- هيا بنا يا أصدقائي إلى بيت العمدة الشيخ بطريار كاس.

ثم التفت إلى رفاقه الثلاثة وقال:

- هيا أسرعوا. لننتهز فرصة نومه، ندخل مخزن المؤن، ونستولي على كل ما

تصل إليه أيدينا.

وسأله مانولي ساخراً:

- وماذا لو ضاق الشيخ بفعلتنا هذه؟

ورد عليه ميشيل:

- ليس عليه إلا أن يشرب بعض النبيذ، فيذهب عنه الهم. هيا عجلوا.

انطلقوا في طريقهم عدواً، فرحين كأنهم ذاهبون لنهب بلدة معادية.

في هذه الأثناء كانت الأرملة في طريقها إلى بيتها. كتفاها ترتجفان إذ كانت مقرورة، ولكنها كانت تبسم راضية مبهجة. تقول لنفسها:

- وما قيمة هذا كله. إن امرأة أخرى قد تتدثر بوشاحي فلا تحس بلسعة البرد. وفي هذه اللحظة تردد وراءها صدى صوت أجش. وأحست بأنفاس دافئة حول رقبتها، ويدين غليظتين تطبقان عليها.

- يا عاهرة. اشتريت لك هذا الوشاح بدم قلبي.. ثم تتصدقين به؟ سأخنتك حتى أرديك قتيلة.

كان الطريق قفراً. وتملك الأرملة الخوف. وأحست بدوار من أثر الأنفاس التي تفوح منها رائحة النبيذ، وألفت عينين متضرعتين تحدقان فيها وهمست قائلة:

- بانايوتي. أنت وحش كاسر، بيد أنك طيب القلب. ارحمني فلن أعود إلى ذلك ثانية.

- لماذا ناديتني يهوذا.. هه؟ لقد طعنتني بخنجر في قلبي. تسأليني الرحمة ولم تأخذك الرحمة بي؟ هل لن تدعوني معك إلى البيت هذه الليلة؟

وخيم صمت مطبق. ثم قال في ذلة:

- ادعني إلى بيتك. ليس لي من عزاء في هذه الدنيا سواك أنت يا كاترينا. أحست الأرملة برغبة الرجل الدافئة الملحة تحيط بها من كل جانب وهو غارق في العرق والدموع. وسرت في جسدها رجفة.

وقالت بصوت واهن:

- تعال.

وسارت في المقدمة وردفاها يترجرجان. واقتفى بانايوتي أثرها تحت جناح الظلام، مأخوذاً، لاهثاً، وسار محاذياً للجدار.

بلغ حشد اللاجئين بيت عمدة القرية. كان ينتظرهم عند باب الدار أربعة رجال، يحمل كل منهم سلة كبيرة ملئت عن آخرها.

وقال ياناكوس:

- يا إخوتي. لن تسع البطانية كل هذا. إذن ليحملها أربعة من الفتية الأشداء على ظهورهم.

وقال ميشيل :

- ليحفظكم الله ويرعاكم أيها الرفاق، ونسألكم الصفح والغفران. واصفحوا عن الشيخ بطريار كاس كذلك.

وردت عليه أصوات الرجال والنساء مفعمة بالفرح :

- مغفورة لكم خطاياكم.

ولم تكد أيديهم تمتد إلى سلة من السلال حتى بدأت أسنانهم تعمل في نهم.

وقال العملاق حامل العلم، وأمسك برغيف كامل :

- ماذا نحتاج يا أطفالى لنقهر الموت؟ ماذا نحتاج؟ كسرة خبز ليس إلا.

وقال ميشيل وهو خارج من الفناء :

- لا زال الشيخ يغط في نومه.

وقال ياناكوس :

- إنه يغط في النوم ويحلم بأنه في الفردوس. تسير أمامه أربع سلال بدلاً من الملائكة يفسحون له الطريق.

وانفجروا ضاحكين، فقد خفت أحزانهم.

بلغ الرفاق أطراف القرية، وكان الليل قد أرخى سدوله، غلالات حانية زرقاء عطرة الأريج. وسكتت الكلاب إلا عن نباح قليل. وأخذوا طريقهم إلى بيوتهم، نفوسهم راضية إذ أدوا واجبهم. وفجأة طالع جبل سارا كينا الشعب المقهور: موحشاً وعراً مليئاً بالوهاد.

وقال مانولي لرفاقه:

- لنذهب إلى القسيس نحياه تحية الوداع. إنه ليس قسيساً بل هو موسى على رأس شعبه المقهور في الصحراء.

وأسرعوا الخطى.

أمسك مانولي بيد القسيس يقبلها. وقال له:

- يا أبانا. أعرف أن قريتنا اقترفت خطيئة في حقكم. أسألك أن تتشفع لنا عند الله كي يرفع عنا اللعنة التي تثقل كاهلنا.

وامتدت يد القسيس المعروقة الجافة لتستقر في حنو فوق الشعر الأشقر:

- ما اسمك يا طفلي؟
- مانولي.
- ليس في نفسي شيء ضد أهل القرية يا مانولي. فهم ناس بسطاء سذج. لا يملكون غير الطاعة لأولي الأمر منهم. وهذا حق. بيد أن ولي الأمر فيهم، وليغفر الله لي، ليس إلا شيطاناً في مسوح قسيس.
- وسرح بفكره لحظة. ثم أردف يقول:
- إن ما قلته الآن قول خطير. إنه ليس بشيطان بل فظ قاسي القلب، وستعلمه النوائب كيف يكون رحيماً.
- ثم تطلع إلى ميشيل الذي كان يمسك بيده وسأله:
- وأنت يا فتى - قل لي من أنت؟
ورد عليه مانولي:
- هذا ميشيل ابن عمدة القرية.
- قل لأبيك يا فتى إن الله سيذكر له هذه السلال الأربع في لوحه المحفوظ الذي يسجل فيه أفعال البشر. وسوف يجزيه الله عنها خير الجزاء، فإن الله يربي الصدقات ويجزي الحسنة بعشر أمثالها. إن السلال الأربع سيكون له مثلها في الآخرة أضعافاً مضاعفة مثلما كانت الأرغفة الخمسة.
- واقترب ياناكوس وقسطندي بدورهما.
- أنا ياناكوس بائع متجول وأثم اقترف الكثير من الكبائر. وهذا قسطندي صاحب المقهى. امنحنا بركاتك يا أبانا.
- مسح الأب فوتيس رؤوسهم بيده الجافة ومنحهم بركته. وقال لهم:
- والآن يا أبنائي عودوا إلى بيوتكم. بارككم الله.
- وتطلع القسيس حوله، الليل حالك الظلمة ساج. وأوراق الشجر جامدة بغير حراك. وعلى صفحة السماء جيش جرار من النجوم الساطعة. وفوق رؤوسهم يعلو جبل ساراكيثا شامخاً.
- وقال ياناكوس:
- هناك كهوف كثيرة يا أبانا. ويروى، فيما سمعت، أن المسيحيين الأول

سكنوا ذات يوم هذه الكهوف. وفي أحد الكهوف صخرة نقشت عليها صورة العذراء والصليب، لا تزال آثارها ظاهرة للعيان. لا بد وأنهم اتخذوا من هذا الكهف كنيسة لهم.

وأضاف قسطندي:

- ويوجد ماء أيضًا، تنساب قطراته من بين الصخر، صيفًا وشتاء. تسمع خريره بعد أن تتسلق الجبل لمسافة قصيرة. ويسكن الجبل كذلك طير الحجل. وتعلو قمة الجبل كنيسة النبي إيليا.

وقال مانولي:

- تستطيعون أن تناموا ليلتكم في المغارات. وبوسعكم أن تشعلوا النار وتعدوا طعامكم فالجبل مليء بالحطب. وإذا لاءمكم المكان فإنكم تستطيعون أن تتخذوا منه مستقرًا لكم وسكنًا إلى حين، تخلدون به إلى الراحة. إن النبي إيليا، حامي الجبل، يحب المقهورين.

ورفع الأب فوتيس بصره يتطلع إلى الجبل. وتأمله لفترة طويلة، بينما الرفاق الأربعة يرقبونه مأخوذين. وطافت برأسه سلسلة من الأفكار ارتسمت على وجهه المتعبد كأنها موجات تروح وتغدو، وتاهت عيناه في عماء اللانهاية.

وفجأة، وكأنه اتخذ لتوه قرارًا، رسم علامة الصليب، وقال:

- إن الله هو الذي يتكلم بلسانك يا مانولي. الناس يطاردوننا في كل مكان نحل به. إذن لنشارك الوحوش سكنى هذه الكهوف. كان الله في عوننا.

ورفع الإنجيل وبارك الجبل. وتمتم قائلًا:

- أيتها الصخرة السماء، يا ابنة الإله القوي القدير. أيتها المياه الجارية أبدًا، تتفجر من بين الصخر لتطفئ ظمأ الطير والجوارح. أيتها النار الكامنة في باطن الشجر تنتظر الإنسان حتى يوقظها من مكنمها فتكون له عونًا في حياته. بارك الله ساعة لقائنا بكم. أيتها الطيور والجوارح نسألكم أن تحسنوا لقاءنا. أتينا إلى هنا بعظام الأجداد، وعدة العمل، وبذرة الإنسان. أدعو باسم الرب أن تجد سلالتنا مستقرًا بين هذه الصخور القفار.

وتحسس بيديه في عتمة الليل حتى اهتدى إلى طريق يسلكه، ثم استدار ناحية

الجمع الذي كان ينتظره في وجوم، وصاح بهم:
- اتبعوني.

ثم قال مخاطبًا الصحاب الأربعة:

- المسيح قام. أسأل الله يا أبنائي أن ينعم عليكم بالصحة ويشرح صدوركم.
وأجابوا:
- بالحقيقة قام.

وتساندوا على بعضهم وهم يرقبون جموع اللاجئين يعتلون الجبل. سار في
طليعتهم القسيس، وحامل العلم، والشيخ حملة الأيقونات، والمعمر حامل
جوال العظام. ثم النسوة واحدة وراء الأخرى وهن يحتضن أطفالهن. والرجال
من ورائهن في مؤخرة الطابور.
وسرعان ما اختفوا عن الأنظار تحت جناح الظلام.

قَدْرِيسون والصوص

أضاءت آلام المسيح وقيامه المجيد حياة أهل القرية أسبوعًا كاملاً. امتلأت البيوت بكعك عيد القيامة والبيض الأحمر، وتتوجت الحدائق بالورود. ونعمت رؤوس كبار المزارعين بالراحة، إذ طردوا عنها إلى حين هموم مصالحهم الأنانية النكدة. وهكذا هنتت حياتهم التعسة أسبوعًا بالخلاص من نيرها. وها هي اليوم كحيوان ضخم يحرك رأسه الثقيل ومنخرية المزبدن ليسلم رقبتة لنير العمل اليومي من جديد.

وبانتهاء العيد، نهض ياناكوس مبكرًا في الصباح ودخل الحظيرة المعتمدة التي يسكنها حماره، أحب أصدقائه إلى نفسه، ينام فيها ويحلم. عبت الحظيرة برائحة الروث والأبخرة العطنة التي تشبه رائحة العالم في أقدم العصور، فلا ريب في أن هذه كانت رائحة العالم أيام الخلق الأولى.

فتح الرفيق الوفي في دعة عينيه الواسعتين بأهدابهما الطويلة. واستدار ناحية ياناكوس، وعرف فيه صاحبه، رفيق الطريق والشقاء، الذي اعتاد أن يضع على ظهره حملًا ثقیلاً ويطوف به بين القرى ثم يعود به إلى هذه الحظيرة الصغيرة حيث يقدم له الماء القراح ليشرّب، والتبن والشعير ليأكل. ورحب به على طريقته بأن هز له ذيله ونهق بكل قوته فرحًا.

اقترب منه ياناكوس وربت على كفله الأسود اللامع، وبطنه الأبيض الناعم، ورقبتة الدافئة. وقبض بيد على إحدى أذنيه الكبيرتين وأمسك بالأخرى خطم حيوانه الحبيب وبدأ يناجيه.

- حبيبي يوسف فاكى (وهذا هو اسم التدليل، سماه به سرًا ولا يعرفه الأغا). انتهت عطلة العيد يا يوسف فاكى الحبيب. المسيح قام! قضينا إجازة طيبة وليس لك أن تشكو الآن. أحضرت لك عليًا مضاعفًا. وجمعت لك عشبًا طازجًا يفتح شهيتك. وقدمت لك هدية عيد القيامة، طوقًا من الحجر الأزرق يقيك شر الحسد، تضعه حول رقبتك الرشيقة. وعلقت في الطوق فص ثوم كتعويذة، حتى تطمئن تمامًا على جمالك يا يوسف فاكى الحبيب. فالناس نفوسهم شريرة، وقد يحسدونك بدافع الغيرة والحقد. ماذا يكون مصيري بدونك؟ لا تنسى أننا وحدنا، نحن الاثنين. ليس لي سواك في هذا العالم. لم أنجب أطفالًا، وماتت زوجتي لنهمها في أكل الحمص. وأنت كل ما بقي لي في هذه الدنيا يا يوسف فاكى.

«واليوم أرف إليك خبرًا سيدخل السرور على نفسك. ستمثل القرية في عيد القيامة القادم آلام المسيح. لا بد وأنت سمعت بعض هذا الحديث. وهم بحاجة إلى حمار. توصلت إلى أعيان القرية أن يسدوا إليّ صنيعة جميلة بأن تمثل أنت يا يوسف فاكى دور هذا الحمار في الآلام المقدسة. سيدخل المسيح أورشليم محمولًا على ظهره فأى شرف سينالك. المجد لك وللرسول يا بني. ستمشي في طليعة الركب حاملًا الرب، ويفرشون لك الأرض بالغار وسعف النخيل، وسوف تنزل نعمة الرب على ظهره، ويلمع أهابك كأنه الحرير».

«وعندما أموت، إذا شئت إرادة الله أن تدخلني الجنة، أنا الأثم المسكين فسأقف عند بابها أقبل يد حارسها وأقول له: «أسألك يا بطرس الرسول أن تصنع لي معروفًا وتدخل حماري الجنة. أسألك أن ندخلها معًا وإلا فإنني لن أدخل. «وهنا سينفجر الرسول ضاحكًا ويضربك على كفلك ويقول: «لك ما طلبت، سأفعل هذا إرضاء لخاطرك يا ياناكوس. هات يوسف فاكى أركبه وادخلا معا فإن الرب يحب الحمير».

«وما أدراك بمدى الفرحة التي ستغمرك يا حبيبي يوسف فاكى. إنها فرحة خالدة. ستخفف هناك من هذا الخرج الثقيل، فلا أحمال ولا سروج، وتنزه وسط حقول يغطيها البرسيم الأخضر دائمًا أبدًا، يعلو بقدر قامتك ويكون في متناول خطمك فلا تتجشم عناء الانحناء. وفي السماء ستتهق كل صباح لتوقظ الملائكة،

وسيضحكون لسماعهم صوتك. وعندما يغيب ضوء النهار تخطر في مرح بين المروج الخضراء، حاملاً فوق ظهرك أطفالاً ملائكيين مختلفه ألوانهم بين الأزرق والأحمر والأرجواني.. مثل حمار رأيته ذات مرة في سوق حميرنا يحمل حملاً من زهور الزنبق والليلك ويتضوع بشذى عطر جميل...».

«سيأتي هذا اليوم يا يوسف اكي، إنه آت لا ريب فيه فلا تخف. أما الآن يا بني فعلينا أن نعمل حتى نتكسب لقمة العيش. تعال إليّ لأسرجك، تعال لأضع على ظهرك خرج البضائع. علينا أن نبدأ من جديد جولتنا في قرية نبيع بكرات الخيط والإبر والمشابك والأمشاط والبخور والمصوغات وتراجم القديسين. ساعدني يا يوسف اكي حتى نقوم بعملنا على الوجه الأكمل. نحن رفيقان، أليس كذلك؟ وشريكان. فنحن كما تعرف نققسم فيما بيننا بالعدل والقسطاس كل ما نتكسبه - القمح لي، والعلف لك. وكما قلت لك إذ ما أدينا عملنا على خير وجه سأشتري لك من بانايوتي سرجاً طرياً حتى لا تتألم، ولجأماً جديداً له شراية حمراء».

«هيا بنا الآن. أود أن أقول لك ارسم علامة الصليب. ولكنك لست مسيحياً وإنما أنت حمار. لذا تعال مدد جسمك وباعد ما بين ساقيك الخلفيتين وكن على راحتك لأضع حملك على ظهرك. تنفس الصباح وعلينا أن ننطلق يا يوسف اكي تحرسنا عناية الرب».

وضع ياناكوس الحمل فوق ظهر حماره، وأخذ عصاه، وبوقاً صغيراً ينادي به على زبائنه. فتح الباب ورسم الصليب وخرجا معاً الواحد إثر الآخر، كل منهما يشعر بالانتعاش والبهجة. وبدأ أولى جولاتهما بعد عيد القيامة.

تلاً ضوء النهار، يثب من السماء ليفترش السهول ويلف القرية بأسرها. وتبسمت الأحجار والأبواب والنوافذ. وأحس ياناكوس بشهية للأكل فمد يده داخل خرجه وأخذ كسرة كبيرة من الخبز، وحفنة زيتون، وبصلة، وبدأ يأكل في سعادة.

وقال لنفسه:

- ما أجمل العالم رغم كل ما فيه. يا إلهي إنه جميل مثل الخبز الطيب. وأبصر باب بيت جارته الأرملة مفتوحاً. كانت كاترينا تمسك بدلو تصب به

الماء على عتبة دارها لتغسلها، وقد فتحت صدرتها، وشمرت عن ساقها. كانت ساقها الممتلئتان في اكتناز، الناعمتان الجميلتان عاريتين حتى ركبتها، تضيء فيهما لمعة جميلة. وكشفت صدرتها عن ثدييها، طائران صغيران يفيضان حيوية، ويشبان في خفة استعداداً للهرب.

وقال ياناكوس لنفسه:

- لقاء سيئ مع باكورة النهار.

وضرب حماره على كفله يستحثه على الإسراع في السير. ولكن بصر المرأة وقع عليه فانتصبت واقفة وأسندت جسمها إلى قائمة الباب، وبدا وجهها نظراً ممتلئاً حيوية ونشاطاً.

نادته ضاحكة:

- سهل الله لك يا ياناكوس. هل تعرف يا جاري أني معجبة بك؟ فرغم إنك تعيش وحيداً مثل طائر الوقواق، إلا أنك دائماً تمضغ شيئاً، مرتاح البال. كيف يتيسر لك ذلك؟ أنا لا أستطيع أن أكون مثلك، لا أستطيع يا جاري المسكين، فإني أرى أحلاماً مزعجة.

وأراد ياناكوس أن يغير موضوع الحديث فسألها:

- أي طلبات لك يا كاترينا؟ امرأة جيب؟ زجاجة ماء اللافندر، ماذا تريدان؟ وظهرت نعجة الأرملة عند عتبة الباب تثغو في قلق. حول عنقها شريط أحمر، وضربها ممتلئ أثقله اللبن.

وتنهدت الأرملة وهي تقول:

- تريدني أن أحلبها. ضربها ممتلئ وهي تضيق به. آه إنها امرأة هي الأخرى هذه المسكينة.

انحنت، وربت عليها في رقة وهي تقول:

- سأتيك حالاً يا كنزي. صبراً يجب أن أفرغ أولاً من غسل مدخل البيت وأتخلص من آثار الأقدام الدنسة.

دفعت النعجة برفق إلى داخل البيت واستدارت ثانية ناحية ياناكوس. عاودت حديثها وهي تتنهّد:

- أرى أحلاماً مزعجة يا جاري. انظر.. في الليلة الماضية، عند الفجر، رأيت فيما يرى النائم مانولي. كان يقطع القمر شرائح صغيرة كأنها قطع من التفاح ويقدمها لي لأكلها.. أنت يا ياناكوس طفت ببلاد كثيرة حتى وصلت إلى سميرنا كما يقولون، ولا بد وأنت تعرف شيئاً عن الأحلام.
رد عليها ياناكوس قائلاً:

- كفى يا كاترينا. كوني رحيمة ولا تعذبي الناس. أظننني أنني لم ألمحك بالأمس وأنت تغمزين بعينك لمانولي؟ أتريدني يا فاجرة أن تلعب على هذا الفتى الوديع، ألا تشعرين بالشفقة عليه؟ إنه خاطب هذا المسكين فلا تعترضني طريقه. وهل تحسبن أن بانايوتي لن يجهز عليك إذا شم رائحة لذلك؟ اسلكي طريقاً آخر يا كاترينا واركزي قليلاً.. ألم يحدثك الشيخ بطرياركاس عن شيء؟ ألا تعرفين أن الأعيان قرروا اختيارك لتمثلي دور المجادلة في السر الذي ستمثله القرية في عيد القيامة المقبل.

قالت الأرملة وهي ترفع صدريتها لتتأكد من أنه رآها وهي تكشف عن صدرها:
- إنني المجادلة فعلاً يا ياناكوس العجوز، أنا المجادلة سواء مثلت دورها أو لا. لا حاجة بي إلى الشيخ ليلغني الرسالة.. آه أف من هذا الأثم العجوز. ليأخذه الشيطان. يقول ذلك لأن شعري أشقر.

وقال ياناكوس مقاطعاً:

- ليس هذا هو السبب يا كاترينا.. ليس هذا.. كيف أوضح لك الأمر إذا كنت أنا نفسي لا أفهمه بوضوح. اسمعي، ستقطعين علاقتك ببانايوتي منذ هذه اللحظة وترافقين المسيح. ستبعينه وحده دون سواه. ستغسلين قدميه القدستين بالعطر وتمسيحينهما بشعرك.. هل تفهميني؟

- «ولكنه نفس الشيء أيها الأبله. فالناس جميعاً، حتى بانايوتي نفسه، يمثلون الإله للحظة واحدة. إله حقيقي وليس مجرد كلام، ثم يعودون بعد ذلك إلى ما كانوا عليه ويصبحون ثانية ياناكوس أو بانايوتي أو عجوزاً مخرفاً مثل بطرياركاس. أفهمت؟».

- «ليأخذني الشيطان إن كنت فهمت شيئاً يا كاترينا.. إنها نهاية العالم كما

يقول الشيخ بطرياركاس».

ضاعت الأرملة بذلك، وأمسكت بدلوها ودهقت ماءه بقوة وعنف على عتبة الباب حتى تطاير الرذاذ إلى قدمي ياناكوس، وهز يوسفافي أذنيه فقد مسهما رذاذ الماء أيضًا.

وقالت كاترينا في سخرية:

- أف.. لست إلا رجلاً، رجلاً فقط. أيها المخلوق البائس كيف لك أن تفهم؟ مع السلامة... وأتمنى لك التوفيق في أعمالك فأنت تفهم هذا على الأقل. ولكز ياناكوس حماره لكزة خفيفة، ارتجف لها وركض على إثرها. وجرى صاحبه وراءه يصفر سعيداً لأنه أفلت من الأرملة.

- «سأقصد القسيس أولاً أسأله طلباته، فإنه يستشيط غضباً إن لم أبدأ به. يقول لي «بيتي أولاً ثم الأعيان. أنا ممثل الرب في ليكوفريسي». فلنقصد رأس الذئب أولاً تجنباً للمشاكل.

والنفث وراءه. أبصر كاترينا منهمكة في غسل عتبة الباب، ورداؤها مرفوع عن ساقها وهي تبدو نصف عارية. وتمتم قائلاً:

- المومس. ما أجمل الساقين اللتين منحهما لها الخالق المبدع، ما أجمل بطن ساقها.. وثدياها. آه منهما إنما خلقا لغواية الرجال.. الويل لك يا مانولي لو سقطت بين برائنها....

وبينما كان ياناكوس يناجي نفسه وهو سائر في طريقه أبصر الأب جريجوريس في رداءه الأرجواني، متمنقاً بحزام من القطيفة السوداء، حاسر الرأس، حافي القدمين، يسير جيئةً وزهاً في فناء منزله، يداعب بأصابعه حبات مسبحة طويلة من الكهرمان الأسود أهدها إليه الأسقف. كان الأب جريجوريس يلهث كالحداد أمام الكير.

أقبلت ماريوري في خضوع ووضعت تحت ظل تكعية الكرم صينية عليها طعام إفطاره: بسكويت وقطعة جبن - وهي عادة القسيس كل صباح لفتح شهيته. وبعد ساعة يتناول إفطاره اليومي بيضتين نصف مسلوقتين، وكوباً كبيراً من النبيذ

المعتق اختص به صديقه المفضل - هكذا اعتاد أن يسمي كرشه- ثم يحمد الله على عدله وفيض نعمائه الذي لا ينتهي.

بعد أن فرغت ماريوري من خدمته، ذهبت لتروي زهور الريحان والجيرانيوم والقطيفة. بدت اليوم شاحبة هزيلة. فقد أرقت ليلتها هذه. وظهرت حول عينيها اللوزيتين السوداوين دائرتان زرقاوان من السهاد، وفي شفيتها صفرة وجفاف. ماتت أمها بداء السل، وكانت لا تزال في ريعان شبابها. وكانت ماريوري صورة من أمها. يتطلع إليها أبوها من حين إلى آخر ويقول لنفسه في حسرة: «يجب أن أزوجه، يجب أن أعجل بزواجها حتى تنجب لي حفيداً، ثم ليفعل الله بعد ذلك ما يشاء. ميشيل فتى رقيق، صلب العود، قوي البنيان، سليل أسرة طيبة، وذو جاه، الذي سيخلدني في ذريتي ويخلف لها القوة والغنى».

سقت ماريوري الزهور، وتأهبت للانصراف، فازدرد القسيس على عجل آخر لقمة في فمه وقال لها في حدة:

- انتظري هنا. إلى أين؟ أريد أن أتحدث إليك.

لم يستطع أن يكظم غبطه، ولا بد أن ينفس عنه. أسندت ماريوري ظهرها إلى الباب، وعقدت ذراعيها إلى صدرها وانتظرت. وأحست برجفة، فقد أدركت موضوع حديثه، وعرفت ما سيقوله لها. إذ تركه بانايوتي تواء، ووصل إلى سمعها أثناء حديثهما معاً بضع كلمات أثارت قلقها. سمعت أباها يقول لأكل الجبس وهو يصحبه إلى الباب:

- أحسنت صنعاً أن قلت لي.. هذا واجبك.. سأعنفه على ذلك.

غضت ماريوري من طرفها وقالت:

- طوع أمرك يا أبت.

- هل سمعت ما قاله لي بانايوتي؟

- لا، كنت في المطبخ أعد لك القهوة.

- كان يحدثني عن خطيبك الهمام ميشيل.

زفر القسيس زفرة عميقة، ونفرت العروق في وجهه، وهم يواصل حديثه.. وفي هذه اللحظة سمعا طريقة على الباب. وثبت ماريوري من مكانها وأحست

- بالخلاص. رثي الرب لحالها وأزاح عنها الخطر. وانطلقت تعدو لتفتح الباب.
- سأل القسيس في غضب وهو يتجرع آخر ما بقي من القهوة دفعة واحدة:
- من هناك؟
- أنا ياناكوس يا أبانا. المسيح قام. سأبدأ جولتي، وأنتيك لتشملني ببركاتك..
- وإذا كانت لك طلبات أو رسالة.
- قاطعته القسيس، قائلاً:
- ادخل وأغلق الباب.
- وقال ياناكوس في نفسه:
- إنه اليوم منحرف المزاج. الشيطان هو الذي بعث بي إلى هنا.
- وانحنى على يد القسيس يقبلها.
- دعك من تقبيل الأيدي الآن أيها الشرير. لتحدث أولاً. سأسألك بعض الأسئلة وعليك أن تجيب. ما هذا الذي سمعته، هه؟ يبدو أنه كان لسيادتك يد فيه.
- بل لعلك أولهم وأخطرهم شأنًا. لماذا تقف هناك فاعراً فاك؟ لا أحسبك ستتظاهر بأنك لا تعرف شيئاً. أتاني شخص ما وأطلعني على كل شيء من الألف إلى الياء.
- أيها الصعاليك اللصوص متهكو الحرمات المقدسات.
- يا أبانا..
- الأب لن يمد لك يد العون. تسرق ممتلكاتي، وتنهب بيتي، ثم بعد أن تفعل كل هذا تستدير لتحاول أن تقبل يدي كأن لم يحدث شيء. أيها المارق. آسف أن اخترتك لتكون بطرس الرسول. يا لص. أهكذا تبدأ حياتك الرسولية؟
- أسقط في يد ياناكوس، وأخذ يتمتم:
- أنا؟.. أنا؟..
- أنت، أنت ومن معك من الطيور البريئة.. صديقاك قسطندي ومانولي.
- وغررتهم بميشيل حمل الرب الوديع. تعرفون أنه ذو قلب نقي وتحيتهم الفرصة، وأفرغتم منزله في السلال.. يا لصوص.. آه يا إلهي وقعت في خبيثة إذ اخترتكم لتكونوا رسلًا....
- تجاسر ياناكوس وقاطعه:

- ولكنها لم تكن خزائنك يا أبانا.

- خزائن من؟ أظنها خزائنكم أنتم؟ يا كوم القمل. إنها خزائني لأن ميشيل سيتزوج ماريوري وسيصبح البيتان بيتًا واحدًا. إذن فمن خزائني أخذتم الجبن والخبز والزيت والنبيد والزيتون والسكر وملأتم بها السلال؛ لكي توزعوها على من؟ على حملة الكوليرا!! إنه سيبدد كل ما يملك ويوجد به على الفقراء والمتمردين ويترك ابنتي معدمة، كل هذا بسبب أصدقاء رعاء مثلكم. والتفت إلى ابنته التي وقفت فزعة جامدة في مكانها بغير حراك لا تجرؤ على أن ترفع بصرها. وصرخ فيها قائلاً:

- هل تسمعين يا ماريوري؟ هل تسمعين العار الذي لحق ببيتنا؟ ما العمل وهذه هي حماقات رفيقك الهمام؟ علينا أن نتروي ونفكر مرتين قبل أن نحسم أمرنا.

واغرورقت عيناها بدموع حارقة لم تلبث أن انسابت فوق خديها الذابلين، ولكن ظل فمها مغلقاً.

وسألها القسيس ثانية:

- ماريوري.. أنتسمعين؟

وأطرقت الصبية برأسها في ذلة ومسكنة وكأنها تقول:

- أسمع وأطيع.

وبدأ الحمار الموثوق إلى حلقة الباب ينهق. وهنا قفز ياناكوس.

- «معذرة يا أبانا. يجب أن أنصرف. إذا كان من الخطأ أن نأخذ من الأغنياء

ونعطي الفقراء، إذن فليغفر لنا الرب».

شمخ القسيس برأسه وقال بصوت عال:

- الرب يتكلم على لساني أنا. أنت لا تملك أن تخاطبه مباشرة. فكلّمته سبحانه

وتعالى تأتيك من خلالي. أنتم لصوص، أنت وقسطندي ومانولي. سأدعو أعيان

القرية للاجتماع لنبحث معاً ما يجب أن نتخذه.. لم يكّد حملة الكوليرا يصلون

إلى هنا حتى تلوثت قرينتنا.

- بركاتك يا أبانا.

قالها ياناكوس واندفع كالسهم ناحية الباب.
واستشاط القسيس غضباً حتى احمر وجهه ولم يحرجواً، واستدار ناحية
ابنته وقال:

- آتني بحذائي ومغفرتي وعصاي. سأذهب لأقابل عمدة القرية والأعيان.
ودلف إلى داخل البيت. والتهم البيضتين على عجل، بينما جرت ماريوري
لتلحق بياناكوس الذي كان يفك رباط حماره. وأسرت إليه بكلمات خاطفة:
- من فضلك يا ياناكوس. اشتر لي شيئاً مما يضعه نساء المدينة على وجناتهن
ليكسبهنها لوناً وردياً. آتني بها سرّاً، أما عن الثمن..
ورد عليها ياناكوس:

- لا عليك يا ماريوري. أعرف ما تقصدين. سأتيك بشيء منه.
وسمع صوت القسيس وهو يصرخ بأعلى صوته:
- سنتحدث بما فيه الكفاية عن هذا أيها المتشرد.
وصفق ياناكوس الباب وهو يغتمغم:
- إنه الشيطان في مسوح قسيس ويزعم أنه ممثل الرب. نعم لو كان الرب
الرحيم على شاكلته لكان ذلك من سوء طالع البؤساء من بني البشر ولالتهمنا
جميعاً أحياء.

حك رأسه وكشر عن أنيابه وقال:
- إنه يقنع حتى الآن بالتهامنا بعد أن توافينا المنية. ولكن ربما تسير الأمور إلى
ما هو أسوأ.

لكز حماره برفق وقال له:
- هيا يا يوسفافي، أطلق ساقيك للريح، يا بني. أخرنا صاحب الرأس الشبيه
برأس العجل. هيا، لا تجزع يا ولدي. فهذا هو حال الدنيا. المهم أنك على
صواب. سنذهب إلى المقهى لنعرف طلبات الناس هناك ثم نطلق.. يقول إننا
لصوص.. ليذهب إلى الشيطان هذا العجوز الذي يأكل أموال الأنبياء.
كانت الحانة غاصة بمن فيها، تعج بالطنين كأنها خلية نحل هائجة. تجمع بها
كل أهل القرية يعلقون على الأحداث المفجعة التي رأوها البارحة رأي العين-

جموع اللاجئين، القسيس ذو البأس الشديد ومعه إنجيله، المرأة التي سقطت على الأرض جثة هامدة.. الجير الذي غطوا به جثتها حتى لا يتلوث الهواء بوباء الكوليرا.. المعمر وجوال العظام. أثنى البعض على الأب جريجوريس لأنه أنقذ القرية من الوباء، واعترف آخرون صراحة بأنهم يرثون لحال الرجال والنساء الذين يتضورون جوعاً. وقال فريق ثالث إنهم أنسوا ناراً فوق جبل ساراكيينا عند منتصف الليل.

ودخل بانايوتي مثل ثور يفتش حوله على الأرض بنظرات جسور، ثم انتحى ركنًا وجلس فيه. ونادى على صاحب المقهى وطلب منه بلهجة فظة:

– «قهوة سادة».

وقال له قسطندي:

– تبدو اليوم عبوسًا يا جاري. أظنك لم تر ليلة أسوأ من هذه في حياتك. أليس كذلك؟

قطب السروجي جبينه، وجمع ما بين حاجبيه الكثين، وأدار ظهره، وردد ما سبق له أن قاله:

– قهوة سادة.

وفي هذه اللحظة دخل الشيخ بطريار كاس وقد غطى رأسه بقبعته الفخمة، وأمسك بعصاه الطويلة، وحيا أهل القرية بيده كمن يتقيهم، ونهضوا جميعًا يردون تحيته ويتمنون له يومًا سعيدًا. لم يكن أفاق من نومه تمامًا، إذ كان صوته أجش، وعينه منتفختين، ولسانه ثقيلًا، مما جعله راغبًا تمامًا عن الكلام. أحضر له قسطندي قهوة (سكر زيادة)، وطبقًا من الحلوى التركية، وكوب ماء بارد، وحياه قائلاً:

– أسعد الله صباحك.

لم يرد عليه الشيخ تحيته. وازدرد الحلوى دفعة واحدة بعد أن أضاف إليها بعض الماء، وأتبعها بكوب الماء فشربه، ثم أخرج منديلًا كبيرًا دس فيه أنفه وتمخط بصوت عالٍ رن في جنبات القاعة. أحس بعدها براحة وبدأ يحتسي قهوته وهو يصعد زفرات ثقيلة. ارتاح جفناه، وزايلهم الانتفاخ، وأفاق قليلًا، واستعاد

صوته الطبيعي. ثم أحضرت له النارجيلة. فهذه هي عادة الشيخ أن يصحو تدريجياً شيئاً فشيئاً.

تلقت حوله وأبصر حاجي نيكولا ناظر المدرسة. واستدعاه بإشارة من يده. فاقترب منه ناظر المدرسة ونارجيلته في يده. تمنى له صباحاً طيباً، وجلس إلى مائدة العمدة.

وسأله الشيخ بطريار كاس:

- ما الأخبار يا حضرة الناظر؟ نمت البارحة نوماً ثقيلاً وخيل لي أثناء نومي أنني أسمع جلبة عالية، بيد أنني لم أستيقظ. ومنذ هنيهة وأنا في طريقي إلى هنا، سمعت عرضاً حديثاً عن قدوم بعض الغرباء إلى القرية، وامرأة أسلمت الروح، ومشادة بين قسيسين.. ما كل هذا؟ إنها نهاية العالم. هل لك أن توضح لي جليلة الأمر يا صديقي؟

وتنحني ناظر المدرسة، وأحس بالرضا. مال برأسه على الشيخ وبدأ يتحدث إليه بصوت خفيض وإيماءات كثيرة، فرحاً بأنه يقص قصة مروعة جعلته موضع رهبة للحظات قصار. وشد إليه انتباه الشيخ حتى بات ينصت إليه فاغراً فاه.

كان بانايوتي يرقبهما وهو يعرض في عصبية على أطراف شاربه. وأخذ يحملق بعينين واسعتين في وجه الشيخ بطريار كاس ذي اللغد الثقيل. وانتظر متوقفاً أن يرى الشيخ وقد فقد صوابه، وتدافع الدم إلى رأسه، وأمسك بعصاه، وهرب إلى منزله.

ولكن يا للشيطان. لم يشتعل محياه النبيل بالثورة. وزمجر آكل الجبس وتململ فوق كرسيه كأنه جالس فوق إبر.. وقال لنفسه: «إن هذا النتن المدعو بناظر المدرسة لن يجرؤ على أن يقص عليه كل شيء خشية أن يثير ثائرتة. سأقص أنا عليه كل شيء، لا بد من ذلك».

ونفض من مجلسه وحسم أمره، ودنا من السيدين وقال:

- عن إذنك يا عمدة. أحسب أن الأستاذ العلامة لم يقص عليك القصة بحذافيرها فهو لم يجسر على ذلك. أما أنا فلا أخشى شيئاً. سأقص عليك القصة كاملة عندما أنفرد بك، أنا وأنت.

وقال الشيخ:

- حاجي نيكولا.. اتر كنا لحظة من فضلك، حتى أرى ماذا يريد السروجي أن يقول لي.

ثم قال موجهًا الحديث إلى بانايوتي:

- تكلم وأوجز. حدثني ناظر المدرسة حديثًا فارغًا.

ورد عليه بانايوتي وساء هذا الكلام.

- أنا لا أطيل في الحديث وأنت تعرف عني ذلك. إليك القصة في كلمتين: غرر مانولي بابنك وسلبه عقله. أخذنا معهما قسطندي صاحب المقهى هذه، وكذلك ياناكوس البائع المتجول، ودخلوا مخزنك وملأوا أربع سلال وانسلوا بها وأعطوها إلى حملة الكوليرا. وكنت طوال هذا الوقت تغط في نومك. هذا كل ما أردت أن أقوله لك. وها أنا سأنصرف.

في هذه اللحظة تدافع الدم كالعاصفة إلى الرأس الثقيل. تورم جفنا الشيخ ثانية، وتحشرج صوته، وصرخ قائلاً:

- اذهب إلى الشيطان، أحرقت كبدي بحديثك معي هذا الصباح.

وألقي، بعنف، خرطوم النارجيلة وتلفت حوله. غامت عيناه فلم يعد يميز الناس من بعضهم. ودارت القهوة أمام ناظره كالدوامة. ونهض من مجلسه، وخطا خطوة إلى الأمام، وأتبعها بأخرى حتى اهتدى إلى الباب وخرج وقد أثقله الحزن وارتقى المنحدر قاصداً بيته.

وصاح بعض أهل القرية وهم يتنازعهم السرور والقلق:

- ما الذي وسوس به لك الشيطان يا بانايوتي وهمست به في أذنه حتى جن جنونه هكذا.. هه؟ ألا تخاف الله؟ إنه رجل مسن، بدين، إنه سيصاب بالسكتة.

ولكن بانايوتي كان قد خرج من المقهى واختفى عن الأنظار.

وسمع صوت بوق ياناكوس ساخرًا مرعًا.

وقف ياناكوس وسط الميدان كالديك حين ينفش ريش رقبتة وصاح:

- يا أهل القرية. سأبدأ جولاتي بين المدن والقرى. ليأتني كل من له حاجة. كل من لديه رسائل فليحضرها لي. ليتقدم كل من له أقارب أو أبناء أو أصدقاء أو

أعمال في القرى المحيطة. سألتقى طلباتكم وأرحل ثم أعود إليكم بإذن الله يوم الأحد وقد ليبت طلباتكم.

نهض كثيرون من أهل القرية وقصدوا ياناكوس. وأبلغوه بصوت خفيض كل طلباتهم ووقف ياناكوس متوكئاً على حماره يتلقى الطلبات ويسجلها مرتبة في رأسه.

كان قسطندي آخرهم. أتى إليه بعد أن انفض عنه الناس، وهمس في أذنه:
- إن كنت لا تبحث عن المشاكل فحذار أن تذهب إلى الشيخ بطريراكاس لتسأله عن طلباته. هذا الخنزير يهوذا قال له كلاماً أفقده صوابه، وانطلق على إثر ذلك إلى بيته وهو يهز عصاه في عصبية. من المؤكد أنه ذاهب ليجلد ابنه.
وسأله ياناكوس همساً:

- من أجل السلال؟

- السلال بالطبع. يبدو أن الأمر سييسوء. ستواجهنا مشاكل.
- «أعرف كل شيء، سمعت طرفاً منه تَوّاً. إذ فقد القسيس صوابه أيضاً. عنفني من أجل هذا.... بيد أنني لا أعبأ بذلك على الإطلاق. كلامهم يدخل من هذه الأذن ويخرج من تلك. لا تهتم ولتنزل عليهم النواذب. لقد أدينا واجبنا».
وقال قسطندي وهو يتنهد:

- ولا أنا.. عندي ما يكفي من المشاكل فلا خوف عليّ مما يجد منها. آه يا له من يوم لا ينسى. انقضت على أختك تحاول أن تفقأ عيني وأخذت تصرخ فيّ قائلة:

- «أحمق، مسرف، قاطع طريق. أعرف عنك كل شيء. خربت الدكان من أجل أولئك اللصوص حملة الكوليرا الذين سقطوا علينا ليسرقونا باسم الكنيسة. نحن جوعى وأطفالك ينحلهم العوز، وأنت تذهب أيها الآفاق لتتبرع باللبن والسكر والصابون».

وقال ياناكوس مأخوذاً:

- من الشيطان الذي أنبأها بذلك في أول الصباح؟
- «إنه الشيطان الأحمر، من غيره؟ تذكر أنه ظل يقتفي أثرنا طوال ليلة أمس.

وانتهز أول فرصة سنحت له ليقص الأمر على كل من صادفه - القسيس وزوجتي وأخيرًا الشيخ بطريار كاس. لقد جن جنونه حين اختاروه يهوذا واختارونا رسلًا». أسف ياناكوس لحال صاحب المقهى وما يعانيه من عذاب على يد أخته وقال له:

- صبرًا يا عزيزي قسطندي. صبرًا. تظاهر بالغباء. وفي يوم الأحد عندما أعود سنتحدث في هذا الموضوع ثانية. إلى اللقاء.
نخس ياناكوس حماره بطرف عصاه. ومضى صاعدًا الدرب حتى اختفى عن العيان.

تمتم قسطندي وهو يرقب ياناكوس:
- أنت إنسان محظوظ، بل أنت أسعدنا حظًا. الدنيا تبسم لك، لا أطفال ولا زوجة، لهذا تنعم بالسلام...
و ضرب ياناكوس رفيقه على كفله وتمتم قائلاً:

- «آه يا يوسف اكي. إننا نعيش حياة هائلة. نعيش كأخوين. هل حدث أن تنازعنا في يوم من الأيام؟ أبدًا والحمد لله. ذلك لأننا رفيقان طيبان - أو حماران طيبان إن شئت فالأمر سواء - ولا نؤذي أحداً. هيا اتجه يميناً سنغير طريقنا اليوم. ألم تسمع ما قاله قسطندي؟ لن نقصد عمدة القرية اليوم. اتجه رأساً إلى العجوز لاداس الذي يعجب بك كثيراً ويسيل لعبه حين يراك.. تعال لنصعد إليه ونفرغ من هذه المهمة. ثم نخرج بعدها من القرية، وبذلك نتخلص من الأعيان والقساوسة، عليهم اللعنة. سنكون وحدنا أخيراً».

اتجه يميناً قاصداً بيت الشيخ البخيل. وحدث نفسه قائلاً:
- لم يبق لي غير مانولي المسكين أود أن أراه قبل الرحيل لأتحدث إليه عن كاترينا. أود أن أنبهه ليأخذ حذره منها حتى لا يقع في شباكها. أليس هو الذي اختير ليمثل دور المسيح؟ عليه إذن أن يحذر النساء.

كان الشيخ لاداس جالساً وسط فناء داره، فوق مقعد من الحجر، مرتدياً ثياباً بالية، حافي القدمين، معتدل المزاج. وظهرت زوجه العجوز، الأم بنيلوب،

وأحضرت إليه إناء مشروحاً به قهوة الصباح المصنوعة من الشعير والحمص. ووضعت فوق المقعد أيضاً كسرة خبز من الشعير وطبق فنجان به زيتون. وبينما كان الشيخ لاداس يحتسي قهوته ويتناول طعامه أخذ في الحديث مع زوجته التي جلست قبلته على مقعد حجري واجمة، غير مكترثة، تغزل جورباً. كانت امرأة قدرة رثة الثياب كزوجها تماماً، حافية القدمين مثله، لها أنف طويل مدبب بدت معه أشبه بطائر اللقلق الشرس العجوز.

في الأيام الأولى من حياتهما الزوجية، يوم أن كانت في ريعان شبابها، اعتادت أن تعارض زوجها وتشتبك معه في مشاحنات عديدة. فهي سليلة عائلة ثرية من الأعيان وكانت تحرص على أناقة مظهرها وتحب البذخ. ولكن رويداً رويداً انثلم حد الموسي، وسئمت الروح، وذوى الجسد. وانزلت إلى مهاوي زوجها، ولم تعد تجديها الشكوى. وألفت وضعه. وبدأت الأم ينيلوب بأن أقلعت عن الكلام وقنعت بالصمت، وبأن تحاول أن تزجره من حين لآخر، ثم اعتادت أن تكبت في نفسها ولا تنبس ببنت شفة. وبعد أن ماتت ابنتها الوحيدة كفت حتى عن الإنصات إلى كلمات الأب لاداس التي تتدفق من فمه، وكفت عن الغضب، بل كفت عن الاعتراض تماماً. أصبحت امرأة ميتة، تمشي وتأكل وتنام ولكنها لا تعيش. وأصبح لها من صفات الموتى وقارهم وغبطتهم وخلو بالهم.

جلس الأب لاداس يرتشف عصير الشعير ويرقب زوجته وهي تخطط الجورب واجمة مستسلمة. ثم شرع يحدثها عن مشروع ضخّم أرقه طوال الليل حتى إنه قضى ليلته واقفاً على قدميه. مشروع يملأ به خزائنه بالأقراط والخواتم والقلائد وسبائك الذهب.

- «أعددت المشروع في رأسي وتدبرته من جميع نواحيه يا بنيلوب، ولم يبق غير التنفيذ. ولكنني لا أدري من الذي أأتمنه على السر. ذلك لأنه ليس أمراً هيناً، ويحتاج إلى اثنين. والعالم اليوم يا عزيزتي تسوده الكلاب، والناس أفسدهم النهم، وأصبحوا جميعاً من الحثالة التي ترتبص بك الدوائر. ترى من عساه أثق به؟ حاجي نيكولا.. أفاق يحاكي العظماء من أسلافه، ويكفي أنه ناظر مدرسة، فماذا تتوقعين منه؟ بل إننا نشكر الله على أنه لا يخرج إلى الناس يقذفهم بالحجارة كالمجنون.

وإذا كنت تفكرين في أخيه الأب جريجوريس فإنه إنسان متلاف، ينفق أمواله على الأكل والشراب، إنه داهية شيطان، ولكنه لا يفكر إلا في جيبه. وهو لا ينفعني كما ترين، ذلك لأنني أريد أن أخرج بنصيب الأسد.. تهزين رأسك يا بنيلوب، أظنك تعين الشيخ بطريار كاس. يا إلهي إنه أحق بأن يقتل شنقاً. إنه كرش وليس إنساناً. حقاً هو من عائلة ثرية أباً عن جد، ولكنه لم يفعل شيئاً في حياته. العرق؟ إنه لا يعرف له معنى. سمعت قصة تحكي عن نمل كبير يسمى بالنمل الملكي، يظل مستلقياً ليل نهار ولا يعمل شيئاً، وله جيش من العبيد يطعمه، وإذا لم يطعمه أحد مات جوعاً... وهو مثل هذا النمل. ليتليه الله بمصيبة هذه الأرضة البدينة. وهو لا ينفعني بدوره. أما عن رابع الأعيان، كابتن فورتوناس، فإنه ليس بإنسان بل زق خمر في حالة غليان دائم. لذلك قررت البحث عن شريك آخر. ولكن من يكون؟ ألم تفكري في أحداً يا بنيلوب؟».

ولكن بنيلوب التي كان يتحدث إليها لم تسمع من كلامه حرفاً... كانت غائبة عنه مع الجورب الذي تغزله، تأتأة في غبطة وخدر سماويين. رفعت عينيها لحظة، عينين كلبيتين لا تمنان عن حزن أو سعادة. يخيل إليك كأنها تشخص إلى الشيخ لاداس بنظرة ثابتة تنفذ من جلده وعظامه إلى ما وراءه حيث جدار البيت، وإلى ما وراء البيت حيث الطريق والقرية والحقول، ثم تمتد إلى ما هو أبعد، إلى جبل ساراكيينا وإلى ما وراء جبل ساراكيينا، بعيداً، بعيداً جداً، حيث البحر، ثم إلى ما وراء البحر، إلى شيء لا نهائي راكد أسود يثير الهلع.... لتستقرا على الجورب. وبدأت من جديد تغزله في عجل وسرعة متزايدتين لتفرغ منه في الوقت المحدد. وفجأة رن صوت بوق ياناكوس. وفي وثبة واحدة كان الشيخ لاداس واقفاً على قدميه، وعيناه الماكرتان تلمعان. وصرخ:

- إنها العناية الإلهية أرسلته إليّ. أليس كذلك يا بنيلوب؟ تتوافر فيه كل الصفات المطلوبة. حمال وطواف يتنقل بين القرى، نصف كاذب ونصف لص. ونحن بحاجة إلى صغار اللصوص ولا حاجة بنا إلى كبار المخادعين، عميل زهيد الثمن. هذا هو رجلي. سيحتجز لنفسه نزرًا يسيرًا وبعدها استحوذ أنا على الثروة كلها دفعة واحدة.

وفرك يديه اليابستين ببعضهما واستخفه الفرح. ووقف الحمار عند باب البيت. وهرول الشيخ لاداس ليفتح الباب. وصاح:
- تحياتي يا ياناكوس. أهلا بك ومرحبًا يا صديقي. إنها العناية الإلهية أرسلتك إليّ هذه الساعة. تعال. أسرع. اربط حمارك وادخل. لي كلمة معك.
وتساءل ياناكوس في نفسه:

- يا للشيطان، ماذا يضمّر الثعلب العجوز؟ الحذر، يا ياناكوس.

وعقل حماره ودخل.

- أغلق الباب جيدًا. أغلقه بالرتاج حتى لا يسمعنا أحد... عندي أسرار أريد أن أأتمنك عليها. اجلس. حظك من نار. ستكون من أهل الشراء. لن تمد يدك لأحد بعد الآن. لن تكون بحاجة بعد اليوم إلى الكد، تذرّع الطرقات كالسائل تحاول بيع بكرات الخيط... سأغرقك في الذهب. هل تسمعي يا صديقي؟ الذهب.

وصرخ ياناكوس في حيرة وذهول:

- لا تصدع رأسي المسكين أيها الأب لاداس. وضح. أي ذهب؟

- افتح أذنك واسمعي. هؤلاء الناس - حملة الطاعون الذين مروا بقربتنا - كانت لهم أملاك قبل أن يستولى الأتراك عليها. وهم الآن لا يملكون حتى ما يقيم أودهم. حسن، أنصت لما أقول: الشيء المؤكد أنهم أخفوا معهم كل ما كانوا يملكونه من جواهر وأقراط وقلائد، وخواتم الزفاف وسبائك الذهب.... هل فطنت إلى اللعبة يا ياناكوس؟

- ليس بعد... ليس بعد... فهمي ثقيل. وضح لي الأمر قليلًا.

- إن ما عرضه عليك يا ياناكوس عمل يستحق كل اهتمام. إنه إلهام من لدن الله. في الليلة الماضية أبصرت نارًا فوق جبل ساراكيئا. وهذا هو المكان الذي آووا إليه ليعيشوا فيه هناك بين الكهوف. حسن، خذ حمارك واقصد الجبل من فورك. انفخ في نفيرك وادعهم جميعًا رجالًا ونساء وأطفالًا. سيلتفون حولك. تحدث إليهم قائلاً: إخوتي، إنكم تتضورون جوعًا، ألا تأخذكم الشفقة بأطفالكم؟ فكرت فيكم طويلًا يا إخوتي حتى لم يغمض لي جفن طوال الليل، أقلب الفكر بحثًا عما أفعله لخلاصكم. أنار الله بصيرتي وهداني إلى الطريق.

أتوني بالجواهر التي حملتموها معكم، أعطيك في مقابلها كل ما يحتاج إليه الإنسان لكي يعيش - قمحًا وشعيرًا وزيتًا ونبيذًا. أنتم تعطوني ما لا يحتاج إليه الإنسان، قليلا من الحلي التي تملكونها يقينًا... وإذا عاد ذلك عليّ بالبوار فإنني لا أعبأ بشيء. أنتم يونانيون، مسيحيون، لذلك فإن الأمر غير ذي بال... الآن واضح ما أقول. هل تفهمني يا غبي؟

وأجاب ياناكوس في تردد:

- بدأت أفهم.. بدأت.

ولم يستطع ياناكوس أن يتبين إن كان الرب أم الشيطان هو الذي وسوس إلى لاداس العجوز بهذه الخطة.

- إنها كما أقول لك إلهام من عند الله. ولكن لا تبح بشيء. يجب ألا يشم إنسان رائحة هذا الموضوع... تعال يا صديقي، فكر، ستشرب وتسعد، حتى أنت أيها الشيطان التعس، إنسان مثلك - كم يحز في نفسي أن أراك تذرع الطرقات صيفًا وشتاء... تبلي شبابك... كم عمرك الآن؟

- خمسون.

قال ياناكوس ذلك وأسقط من عمره عامين.

- حسن. ها أنت ترى، زهرة عمر الإنسان. لا تضع حياتك هباء يا ياناكوس. بوسعك أنت أيضًا أن تبني لنفسك بيتًا جميلًا كأي إنسان يعيش حياته، وأن تتزوج أي امرأة تروقك في هذه القرية، وتنجب أطفالًا - لا أحسب أن ابنة القسيس تناسبك على الإطلاق... فضلًا عن أنه سيكون بوسعك أن تمد يد المساعدة لأصدقائك. ستصبح الجواد المحسن في هذه القرية، يقف لك الناس وينحنون عندما تمر بهم.. حياة جديدة يا ياناكوس، حياة عليّة القوم، وليست حياة المتسول. كم من الأعوام نقضيها على ظهر هذه الأرض؟ فلنحاول على الأقل أن نحيا عمرنا في راحة وهناء. ألا توافقني على ذلك؟ هيا تروى في أمرك. إني أتحدث إليك بما يعود عليك بالنفع. يجب ألا ندع غيرنا يجني الخير الذي تحت أقدامنا. إن أخوف من أخافه هو القسيس.

وقال ياناكوس بلهجة من لم يحسم أمره:

- إني أخشى الله. أخشى الله يا أب لاداس. هل من الصواب أن نسلب إخوة لنا مضطهدين؟

- نحن لا نسلبهم شيئاً أيها الأبله، بل نعيد لهم ما سلب منهم يا غبي. إننا ننقذهم من برائن الموت... إنهم يريدون أن يطعموا، هذه المخلوقات التعسة تريد الحياة، إنهم إخوة لنا. لي قلب مثلك وإني لحزين من أجلهم... إننا نقايضهم ولا نسلبهم... طبعاً نحن ننظر إلى مصلحتنا أيضاً قدر المستطاع، إننا نتاجر ولسنا بلهاء، ربح طفيف، أليس هذا أمراً مقبولاً... تعال اقترّب مني... خذ كسرة خبز.. إليك بعض حبات الزيتون... كل. سنكون من الآن شريكين وصديقين. لذلك يجب أن نقسم معاً كل شيء، ونقسم بالتساوي. أبقيت بعض القهوة أيضاً، اشربها.

ورد ياناكوس:

- لست جوعاً. أشعر بدوار. سأجلس هنيهة على المقعد وأهضم ما قلته لي... إنك تفتح أمامي طريقاً جديداً أيها الأب لاداس. دعني أستجمع ذكائي وأفكر ملياً في هذا العمل قبل أن أحسم أمري.

- المشكلة يا صديقي أن ليس لدينا متسع من الوقت... المسألة ملحة وعاجلة. لماذا الانتظار والتفكير؟ اذهب من فورك إلى ساراكيئا، ولا تضع الوقت هباء. إني أتوجس خيفة من القسيس كما أقول لك... القسيس هذا الطائر الجارح.

جلس ياناكوس ووضع رأسه بين راحتيه، وأسند مرفقيه إلى ركبتيه ولاذ بالصمت فترة طويلة. كان رأسه يغلي كالقدر، وصدغاه يختلجان. واختلط الأمر في رأسه، وتشابكت الموضوعات. الأقرات التي تحلت بها آلاف الآذان، والقلائد التي تزينت بها آلاف النحور، وخواتم الزفاف حول الأصابع، والعملات الذهبية... كل هذه يتزعم من أصحابه ليتجمع ويتكدس في الصندوق الكبير الذي تملؤه في كوخه الملابس البالية التي كانت تمتلكها زوجته المتوفاة... وشيئاً فشيئاً تراءى له بيت كبير يعلو شامخاً في الهواء... ليس بيتاً بل قصرًا منيفاً، به حدائق غناء، وفناء وشرفات وسرر ناعمة، وامرأة في ريعان الصبا فاتنة الجمال، يداعب شعرها... وانفتح الباب الكبير. وكان صباح يوم الأحد. الشمس ساطعة، وأعلن

جرس الكنيسة بدء القداس، وخرج ياناكوس في سروال من الكتان الفاخر، وفوق رأسه قلنسوة من تلك التي يلبسها الأعيان، يتوكأ على عصا طويلة من العاج، يتقدم صوب الكنيسة بخطوات كلها استعلاء، ويهب القرويون وقوفاً عندما يمر بهم، ويسرفون في انحناءاتهم تحية له... ثم رأى ياناكوس نفسه جالساً في الفناء، ووقف قسطندي قبالة في احترام شديد. وإذا به يخرج من جيب صدرته كيساً متخماً بالعملات الذهبية. تعال يا عزيزي قسطندي، خذ هذه النقود حتى أرى الابتسامة ترتسم على شفتيك. عشت أياماً عصيبة مع هذه القطة المسماة بشقيقتي. وإنك لتستحق ما هو أكثر من ذلك. ثم نادى مانولي تعال أنت أيضاً يا مانولي. اشتريت لك قطيعاً من الأغنام. خذه ولن تكون بعد اليوم خادماً لهذا الشيخ القعيد بطريار كاس.. شردت أفكار ياناكوس حيناً هنا وحيناً هناك، وتراءى له برج جرس كنيسة ليكوفريسي وعلته ساعة كبيرة، تشبه ساعة كان رآها في سميرنا. ونقشت حول واجهتها الكلمات التالية بحروف كبيرة من الذهب. «هدية من الوجيه ياناكوس بابا دوبلو المحسن الأعظم». وشردت أفكاره في طريق آخر، واختفت الساعة. ولمع في رأس ياناكوس سرج مطهم مغطى بالقطيفة، وموشي بالذهب. وأمسك به بين ذراعيه ودخل الحظيرة وهو يصيح: يوسوفاكي. اشتريت لك السرج الذي وعدتك به. انظر، ليس له نظير عند الملوك جميعاً. انتهت أيام الشقاء. لن تفعل شيئاً بعد الآن يا صغيري يوسوفاكي سوى أن تأكل وتشرب. تخرج كل أحد بعد القداس تخطر في الميدان مختلاً بسر جك الجديد تستعرض نفسك أيضاً، يا إمام الحمير. سيتراجع الناس أمامك إجلالاً، يحيونك كأنك إنسان.

وقهقهه ياناكوس عالياً، وهز رأساً تضخم كالقرع، وبدا كأنه يصحو من نومه. ونظر إلى المرأة العجوز فرأى أناملها تحوك دون توقف غارقة في غبطتها. ورأى الأب لاداس منتظراً وعينه ثابتان عليه.

وقال:

- مناصفة يا أب لاداس. هل توافق؟

ومد له الأب لاداس يده الطويلة كأنها المخلب:

- «يدك يا ياناكوس. موافق. مناصفة. هذا هو الشيء المعقول. في المساء تأتيني بحصاد يومك من الجواهر وأعطيك أنا القمح والزيت والنبذ حسب اتفاقك معهم. ثم نصفني حسابنا معاً بعد أن نكون انتزعنا كل ما يمكن انتزاعه. وكل ما عليك أن تفعله هو أن تسجل في كراستك ما أخذته وما أعطيته، حتى يكون كل شيء واضحاً لك، ولا تظن أنني سأبخسك حقك. وحتى تطمئن إلى ثقتي بك سأعطيك مقدماً ثلاثة جنيهاً تركية ذهباً تحت الحساب».

وأخرج من جيبه كيساً مربوطاً بحبل سميك. ودس يده في الكيس وأخرج على مهل ثلاثة جنيهاً عدها واحداً واحداً بيدتين ترتعشان. فانقض عليهم ياناكوس مسعوراً، وامتلاأت عيناه الزائغتان ببريق الذهب.

وقال العجوز لاداس:

- سأحرر إيصلاً توقع عليه عند عودتك. هل توافق على هذا؟ هل تثق بي الآن؟ إن ما قلته لك ليس مجرد كلام في الهواء بل ذهباً. اذهب حتى لا نخسر الوقت. مع سلامة الله.

ودفع ياناكوس، وفتح الباب. وصاح خلفه:

- رعاك الله. اذهب ومهد لنا الأرض.

وأغلق الباب وراءه سريعاً قبل أن يثوب شريكه في الجريمة إلى رشده.

ووضع إصبعه على شفتيه وقال مخاطباً زوجته:

- بنيلوب، ولا كلمة. هل رأيت كيف عالجت الموضوع؟ هل رأيت مدى دهائي؟ إن عقلي كحد الموسي. هل رأيت كيف اصطدته بسنارة الذهب؟ أخسر ثلاثة جنيهاً وأحصل على ألف في مقابلها... تعالي الآن أعدي الصندوق. عجلي يا عزيزتي.

بيد أنها ظلت جامدة فوق مقعدها. واستمرت تخطط دون انقطاع، عيناها مثبتتان على الإبر، تلتقي وتفترق لتلتقي ثانية دون أن تبين شيئاً، والجورب الذي تصنعه للأب لاداس يطول بين يديها. لم تكن ترى في الجورب ساق العجوز النحيل بل عظمة الساق نفسها طويلة جافة ينخرها الدود.

سار الحمار في طريقه وخلفه ياناكوس غارقاً في أحلامه. كان يحس بثقل

حزين في جانبه الأيسر يثقل قلبه، ولكن في جانبه الأيمن ثقل آخر حبيب إلى نفسه يثقل جيب سترته. وترنح في مشيته كأنه ثمل، حيناً يقفز من حجر إلى حجر، وحيناً يتوقف فجأة ويسبح في بحر تأملاته. واستدار الحمار الصغير ينظر إلى صاحبه دهشاً، ثم وقف جامداً في مكانه ينتظره.

وتمتم ياناكوس:

- ليت أني لا أرى أحداً ولا يراني أحد. سر يا يوسف اكي وأسرع. لم توقفت؟ اتجه إلى هذا الطريق. غيرنا طريقنا. حدث شيء كأنه هزيم الرعد يا عزيزي. وهز الحمار رأسه متحيراً، فهو لم يفهم شيئاً. إلى أين ينتهي بهما هذا الطريق؟ ترى ماذا حدث لسيدته؟ ما أغرب بني البشر - إنهم لا يعرفون أبداً ماذا يريدون. - ليتني لا أرى أحداً حتى ولو كان مانولي... لدي عمل أهم وأخطر الآن. ليذهب إلى الجحيم هو وكاترينا... تعال يا يوسف اكي. أسرع.

ولم يكذب بل بلغ أطراف القرية حيث لا يوجد بعدها غير الحقول حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام مانولي ورفيقين له، يحمل ثلاثهم الكابتن فورتوناس. كانوا يسيرون بخطى قصيرة وأطرقوا برؤوسهم. وسار في مقدمتهم حسين مرتدياً طربوشه الأحمر، وسيفه معلق بخصره.

وشد ياناكوس حماره جانباً ليفسح لهم طريقاً. وسار بمحاذاتهم ورأى الكابتن التعس فاقد الوعي، مشجوج الرأس، وربط بفوطة بيضاء مخضبة بالدم.. - إيه يا رفاق. ماذا أصاب قبطاننا؟ قل لي يا مانولي.

أجاب مانولي:

- سقط الرجل التعس فوق سلم الأغا وشجت رأسه... لو رأيت خالتي ماندالينا فقل لها أن تحضر لتغير له الضمادة... إنها تجيد هذا العمل. كانت قابلة قبل أن تشتغل بتكفين الموتى.

وتمتم ياناكوس:

- مسكين.. لا بد أنه كان مخموراً للغاية كعادته.

واستدار حسين وقهقهة لسماعه هذا الكلام. وقال:

- ألا تحزن لما أصابه أيها اليوناني القذر. شج رأسه، وسوف يبرأ ثانية.

اليونانيون يتميزون بقوة بنيانهم. بخاصة المرد منهم.

وقال ياناكوس:

- مانولي... عندي كلمة لا بد أن أقولها لك.

وأجاب مانولي:

- وأنا أيضًا. ولكن يجب أولاً أن نذهب بالقبطان إلى مخدعه. اتبعنا وانتظرني أمام الباب. سأعود إليك.

وساروا بخطوات متأنية، إذ كان الكابتن يثن ويتوجع مع كل حركة. وعندما وصلوا إلى بيته أدخلوه. وربط ياناكوس حماره تحت ظل شجرة زيتون، وانتظر. - حقًا كانت ليلتنا حبلًا بأحداث جسام. ترى ما الذي ستمخض عنه؟ ليحفظنا الله.

أخرج كيس التبغ، ولف سيجارة، واتكأ على جذع شجرة الزيتون، وبدأ يدخن ليزجي الوقت. كان آسفًا إذ تحدث إلى مانولي، ورأى في حديثه مضيعة للوقت. فالعمل الخطير الذي تعهد به يقتضي السرعة في إنجازه. وتحسس جيبه، وداعب العملات الذهبية بأصابعه وابتسم. وتمتم قائلاً:

- حمدًا لله. لم أكن أحلم. كم من مرة رأيت نفسي في أحلامي وأنا أقبض في يدي على عملات ذهبية... ثم أبحث عنها مع الصباح كالمعتوه تحت وسادتي. ولكن الحمد لله ها هي موجودة معي هذه المرة.

وظهر مانولي عند عتبة الباب. وقف يمسح جبهته، وأبصر ياناكوس تحت شجرة الزيتون واقترب منه.

- صديقنا في حالة خطرة. نال منا التعب.

وقال ياناكوس:

- إني في عجلة. أريد أن أحدثك في موضوعين ثم أنصرف. فعندي أعمال كثيرة اليوم... اسمع يا مانولي، أول شيء، نصيحتي لك ألا تطأ اليوم بيت سيدك. فهو يعرف موضوع السلال. واهتاج هياجًا شديدًا، وأخذ عصاه وخرج لينكل بابنه. لذلك ابق بعيدًا حتى تمر العاصفة.

- إذا كان الأمر كذلك إذن فلأذهب لأخذ نصيبي. فهي غلطتي أنا أيضًا.
- وهي غلطتي أنا أيضًا، ولكنني لن أذهب. قد تقول عار عليك هذا، بيد أنني
لن أبالي.. انتظر، لا تنصرف، فثمة موضوع آخر. كاترينا الأرملة تنصب شباكها
من حولك وتتمنى أن توقع بك. وقصت عليّ أنها تراك في أحلامها. وكانت
بالأمس تلقي إليك بنظراتها وأنت في الميدان، ولكنك لم تلحظ ذلك منها بطبيعة
الحال. خذ حذرك يا مانولي فإن كاترينا شيطان في زي امرأة. إنها قادرة على أن
تغوي الأساقفة... فكر قليلًا في عيد القيامة المقبل عندما تمثل دور المسيح... لا
تدنس نفسك.

أطرق مانولي رأسه، واحمر وجهه خجلًا. ذلك لأنه في الليلة الماضية رأى
الأرملة في منامه أيضًا. إنه لا يذكر كيف كان ذلك، ولكنه لاحظ بعد ما استيقظ
دوائر الأرق حول عينيه.
وتمتم قائلاً:

- سيعينني المسيح.
- إنه لا يستطيع أن يفعل كل شيء بنفسه يا مانولي. يجب أن تفعل أنت أيضًا
شيئًا من جانبك... اسمع أنا في عجلة من أمري. جاء دورك. أحسب أن لديك ما
تريد أن تقوله لي.
وتردد مانولي، فهو لا يدري كيف يعرض الأمر على صديقه دون أن يؤدي
مشاعر. وأخيرًا بدأ يتكلم.

- أسألك الصفح عما سأقوله لك. ولكننا نحن الأربعة لنا نفس الهدف، وهو
هدف شريف مقدس. من الآن كلنا شخص واحد... لو خطأ أحدنا خطوة خاطئة
فعلى الباقين أن يحولوا دونه وهذا الخطأ. إذ أن هلاك أحدنا يعني هلاكنا جميعًا.
ومن هذا الفهم استمد شجاعتي...

بدأ ياناكوس يفك وثاق حماره وهو يقول:
- تكلم يا مانولي. لا تتردد وادخل في الموضوع فإني متعجل كما قلت لك.
واصل مانولي كلامه في رقة، وأمسك بذراع ياناكوس:
- ها أنت ستعود إلى عملك... ستبدأ تطوافك من جديد... استحلفك باسم

المسيح ألا تنسى نصيحة القسيس لنا بالأمس ..

وصاح ياناكوس بصوت بدت فيه خشونة مباغته:

- أي نصيحة قالها لنا القسيس بالأمس؟

- أرجوك يا ياناكوس ألا تأخذ الأمر على محمل سيئ... لا تنقص الميزان على سبيل المثال، ولا....

أحس ياناكوس بالضيق يتسرب إلى نفسه. فك وثاق حماره بعنف، ولوى زمامه حول ذراعيه بحركة عصبية وقال:

- حسن، حسن.. إنه يظن الأمر سهلاً، وقداسته.. ماذا يقول القسيس لو نصحته أنا بأن يشد الحزام على بطنه ولا يتخم معدته، وأن يتصدق بما يفيض عن حاجته على الفقراء؟ وأن يكف عن مزج المراهم والدقيق والتوابل ثم طحنها جميعاً ليعطيها لك دواء لكل الأمراض... هذا الأفاق. ألم يحدث في العام الماضي أن هذا القسيس نفسه ترك العجوز مانتوديس ثلاثة أيام في العراء ميتاً دون أن يواريه التراب حتى فاحت منه الرائحة النتنة... كل هذا لأنه أصر على أن يدفع له الورثة حقه مقدماً؟ ومرة أخرى ألم يحدث أن باع في المزاد العلني بستان كرم كان يملكه برونيموس السروجي المسكين لأنه مدين له بمبلغ زهيد. وفي هذا العام نفسه على وجه التحديد- نعم وقبل الأسبوع المقدس بقليل - ألم يرفع أسعاره، تدفع كذا مقابل التعميد، وكذا أجرًا لمراسم الدفن، وأعلن أنه بدون هذا لن يعتمد ولن يقيم قداساً لزواج أو وفاة؟ ثم بعد ذلك لا يخجل، صاحب الكرش البدين، أن يسدي النصيح لي، أنا الذي لا أملك مليماً واحداً.

وقاطعه مانولي:

- لا تتحامل عليه هكذا، فكل نفس بما كسبت رهينة. وعليك بنفسك يا ياناكوس. يلزمنا هذا العام أن نكون أطهاراً لا تشوبنا شائبة. ولا تنس أنك ستكون بطرس الرسول... ماذا يفعل الإنسان قبل التناول؟ يصوم، ويمتنع عن أكل اللحم والمسلّي، ولا يقسم، ولا يغضب... ونحن الآن في مثل هذا الموقف يا ياناكوس...

ولكن ياناكوس أخذته الحمية. أحس أن مانولي على صواب، واهتاج لذلك

كثيرًا. وترك حديثه عن القسيس، وصب جام غضبه على رفيقه. وانفجر بصوت مولول:

- حسن، وأنت أيضًا يا مانولي، لا تنس أنك لن تمثل دور رسول من الرسل، بل دور المسيح ذاته. حسن إذن، هل يحق لك أن تمس امرأة؟ لا!! وها أنت تتهيا للزواج. ثم لماذا تثير كل هذه الجلبة؟ دعك من احمرار الوجه خجلًا... كلمة واحدة: نعم أم لا؟ لنذهب جميعًا إلى الشيطان. هذا هو قولي لك. القداسة ليست أمرًا هينًا...

أطرق مانولي برأسه ولاذ بالصمت.

عاود ياناكوس الحديث ومضى صوته يزداد ارتفاعًا:

- نعم أم لا؟ أنت لا يقع بصرك على لينيو حتى يسيل لعابك... ويظهرها لك الشيطان في أحلامك كما تهوى لها أن تكون، عارية تمامًا. كنت مثلك، وأنا في سنك، أحلب اللبن، وأنا أعرف كل حيل الشيطان... يأتيك بها وأنت نائم وترتكب معها الخطيئة وتقوم في الصباح وارتسمت حول عينيك دوائر من أثر السهاد... وعندما يحين الوقت لتمثل أمامنا دور المسيح المصلوب لن يكون مضى على زواجك وقت طويل. سيضعونك على الصليب، بيد أن هذا سيعني الكثير بالنسبة لك. ستعرف أن هذا كله ليس إلا لعبة تؤديها، وأن الذي صلب هو إنسان آخر سواك. وفي اللحظة التي تصبح فيها وأنت على الصليب: «إيلي، إيلي، لما شبقطني» ستقول لنفسك: «سأعود إلى البيت بعد قليل، عقب انتهاء الصلب، وستكون لينيو في انتظارك... أعدت لك الماء الدافئ لتغتسل به، وملابس نظيفة بدلًا من الملابس التي اتسخت، ثم تذهبان معًا إلى مخدعكما بعد الصلب... حري بك أن تصمت يا مانولي، واقلع عن تلقيني الدروس. فهذا لا يليق.

أسقط في يد مانولي وهو ينصت إليه ورأسه منكس فوق صدره، وقال لنفسه:

- إنه على حق... إنه على حق... نعم فأنا دعي، أنا دعي.

صاح ياناكوس وأخذته النشوة عندما رأى مانولي يرتجف:

- لماذا لا تنطق بكلمة؟ أليس حقًا ما أقول؟

وبدأ مانولي يتكلم:

- «ولكن بالأمس يا ياناكوس كنت لا تزال.....».

لم يممهله ياناكوس ليكمل حديثه، فقال له وهو يشد زمام حماره استعداداً للرحيل.

- بالأمس يا مانولي كان الأمر جد مختلف. بالأمس كانت عطلة عيد، أليس كذلك؟ كانت بطوننا ملاءى، والحمار في حظيرته، ورغباتنا نائمة... أما اليوم، انظر، الحمار يحمل أثقالاً، وبطوننا خاوية، وانتهى عيد القيامة. وبدأت التجارة من جديد... والتجارة يا فتى تعني أنك إذا أردت أن تأكل شيئاً فانتزعه، وإن كنت تريد أن تستحوذ على شيء فاختلسه. وإلا لكان أحرى بي أن أقصد جبل آتوس وأصبح راهباً بدلاً من أن أكون تاجرًا. هل تفهم ما أقول؟

وصمت هنيهة وأحس ببعض الراحة. واتجه صوب حماره يجذبه، وألقى نظرة إلى مانولي راضياً بأن أفضى إليه بكل مكنون نفسه.

- أتمنى لك حظاً سعيداً يا مانولي، وفكر ملياً فيما قلته لك. كان الله في عونك. بيد أن الغضب كان لا يزال يعتمل بداخله. فاستدار ناحية صديقه ثانية وقال له:
- على التاجر أن يسرق الناس يا مانولي. أما واجب القديس ألا يسرقهم. هل رأيت؟ يجب عليك ألا تخلط بين الأمرين. أتمنى لك زواجاً سعيداً يا مانولي... هيا بنا يا يوسف لكي.

بقي مانولي وحيداً. كانت الشمس علت أفق السماء. والناس والثيران والكلاب والحمير كلها مشدودة إلى وثاق عملها اليومي. ووضع الشيخ لاداس نظارته على عينيه، وبدأ بادي البشر، يخط في تأن وانتباه إيصال الجنيهات التركية الثلاثة. وفي اللحظة التي كان فيها القسيس نائراً يجد في البحث عن الشيخ بطريار كاس أتاه شخص يسأله أن يعد قداساً لميت. وهنا غير القسيس وجهته. أما الكابتن فورتوناس فقد كان طريح فراشه، يئن ويتوجع، ويصب اللعنت على الأم ماندالينيا وهي تغير له الضمادة لتربط رأسه المشجوج برباط جديد.

وكانت لينيو جالسة بجوار النافذة، تدندن وهي تخط آخر ملاءة من مفروشات الزفاف. كان قلبها يرقص بين جوانحها، يعلو إلى حلقها، ويهبط إلى بطنها، ويقفز من هذا الثدي إلى ذاك يدغدغها..

سمعت لينيو أصوات مشادة في حجرة سيدها بالدور العلوي، كان الأب

يصرخ والابن يرد عليه، يتحركان إلى أمام وإلى خلف كأنهما مشتبان في قتال، والسقف يهتز من تحتهما. بيد أن لينيو التي جلست متكئة على النافذة لم تعباً بشجارهما. بل إنها لم تعباً حتى بسماع صرخات سيدها. فهي ستتحرر قريباً من ربقة سلطانه عليها، والقيد على وشك أن ينكسر لترحل مع حبيبها مانولي، يعيشان معاً فوق الجبل بين الأغنام. لقيت الكثير على أيدي العجوز بطريار كاس رغم أنه يحبها كابنته تماماً، وبحث لها عن زوج، وأعطاه صداقاً سخياً. إلا أنها تشمئز منه، ولا تحب أن تراه ثانية.

وفي هذه اللحظة ازداد غف الشجار، وتردد رنين صراخ الشيخ عالياً واضحاً. وأعارته لينيو أذنها. كان يصرخ قائلاً:

- سأظل أنا وحدي ما حييت صاحب الكلمة لا أنت. إنها نهاية العالم.
اختنقت العبارات في حلقه، وأخذ يتهته، واختلط كلامه ببعضه ولم تعد لينيو قادرة على أن تتبين كلامه بوضوح. ولكنها سمعت بعد لحظة العبارة التالية.
- لا. لا. لا أريد منك أن تبسط في علاقتك مع مانولي أكثر مما يليق. لا تنس إنه خادم وأنت سيد. حافظ على وضعك ومركزك.
وغمغمت لينيو:

- هذا الشيخ القذر، الخنزير العجوز، إنه لا يحترم حتى شيبته. يأتي بهذه العاهرة كاترينا ويسيل لعابه من أجلها. وبعد هذا لا يريد مانولي حتى لا يفسد عليه ثراه.. أف له.. أريد أن أبعد عنه ولا أراه ثانية، ولا أسمع شيئاً عن هذا العجوز المقزز.

هبت فجأة واقفة، وأحست بأنها لم تعط تطبيق البقاء في الحجرة، وخرجت إلى الفناء لتنفس عن نفسها وهي لا تزال تغمغم:

- هذا الوحش العجوز، ليته يبتلى بمصيبة.
توسطت الفناء، وأخرجت من البئر قليلاً من الماء، غمست فيه رأسها، وأحست بعدها بشيء من الهدوء. كانت صغيرة السن، ممتلئة الجسم، مكتنزة الشفتين، بسامة اللحظ في حيوية، لها أنف أقني كأنف سيدها العجوز، سمراء شديدة السمرة، تفيض إغراء، وكانت تقف كل مساء عند عتبة الباب، حتى إذا مر بها رجل مالت بجيدها في دلال تستطلعه وتتملاه في حنان ورغبة، كقط

يخفي مخالفه، وتهيأ للوثب، ثم فجأة يشفق على فريسته ويخليها، وينظر بنهم إلى غيرها... يحدث دومًا هذا الطراد القاسي الصامت مع الغسق عند عتبة الباب. وبعد قليل، عندما يجن الليل، تكف لينيو عن عراكها، وتثوب إلى حجرتها ثانية منهكة القوى.

ولم يكد دلوها يظهر عند حافة البئر وتخرجه لتغمس فيه وجهها الملهب حتى انفتح باب الفناء ودخل مانولي:

هرولت الفتاة، مندفة نحوه بحركة تلقائية، ثم كبحت جماحها فجأة. وقالت له:

- مرحبًا بك يا مانولي.

وقفت أمامه تملأ عينيها منه بنظرات تتحرق رغبة فيه. وب نظرة سريعة كأنها ومض البرق، تطلعت إلى ذراعيه ورقبته وصدره وفخذه وركبته. وأخذت تقدر مدى عنفوانه وشدة تحمله وكأنها تتأهب لمصارعته.

لم ينبس مانولي ببنت شفة. واجتاز الفناء بخطى واسعة. أسند عصاه في أحد الأركان وشرع يصعد الدرج الحجري المؤدي إلى حجرة سيده. فقد سمع أثناء مروره صياحًا عاليًا، وتعجل نصيبه من المعركة بين السيد وابنه.

كان مانولي بادي الهم والتعب. وأسقط في يده حين أبصر لينيو، فهي الشخص الذي كان يود ألا تقع عينه عليه في هذه اللحظة. وحث الخطى قاصدًا الدرج، بيد أن لينيو لم تتبين شيئًا من سلوكه هذا.

ونادته:

- إيه، أنا هنا يا سيدي. ألم تلحظني؟

ورد عليها مانولي بصوت جميل:

- صباح الخير يا لينيو. معذرة فأني في عجلة. جئت لأرى السيد.

وردت عليه لينيو بصوت خفيض:

- دعه وشأنه. ماذا تريد من هذا المخلوق العجوز القذر؟ إنه في عراك مع ابنه ووريثه. دعهما يفتقأ كل منهما عين الآخر. تعال هنا واسمع...

وأمسكت بيده لتقوده إلى داخل البيت. وأخذت تتحسسه وتشمه بأنفها،

وتدور حوله، وتمسح به، ثم فجأة ارتدت إلى الوراء واحمر وجهها.
وقالت:

- متى ستتزوج يا مانولي؟ فقد مل الشيخ الانتظار.

وقال مانولي وهو يحاول الإفلات منها:

- وقتما يشاء الرب.

لفها حزن فجائي، وقالت:

- إنني أركع له سبحانه متضرعة إليه. ولكن سله أن يعجل بمشيئته. إن مايو على الأبواب، والناس لا تتزوج في هذا الشهر. هل يجب الانتظار حتى شهر يونيو؟ أو يوليو؟ كل هذا وقت ضائع.

- الوقت في صالحنا يا لينيو. لا تقلقي. لا داعي للعجلة فلن يتقدم بنا السن. وعندي عمل أريد أن أفرغ منه أولاً. وبعد ذلك إذا شاء الله..

استولت الدهشة على لينيو وقالت:

- أي عمل؟ أي عمل هذا؟ هل لديك عمل آخر غير الرعي؟

وقال مانولي وهو يقترب شيئاً فشيئاً من السلم الحجري:

- نعم، عندي عمل...

- أي عمل؟ مع من؟ لماذا لا تريد أن تخبرني؟ سأكون زوجك بعد قليل وينبغي أن أعرف.

- أريد أن أرى السيد أولاً، ثم أخبرك بعد ذلك... يجب أن أتحدث إليه أولاً يا لينيو... دعيني أذهب إليه.

- مانولي، ضع عينيك في عيني ولا تخفضهما. ماذا بك؟ ماذا أصابك؟ تغيرت

في يوم واحد يا حبيبي. ماذا فعلوا بك؟

نظرت إليه مغتمة حزينة، ثم استبد بها الضيق، وأخذت أنفاسها تتلاحق سريعاً.. وبكت.

- حسدك أحد الناس وسحر لك. لا بد وأن أحضر العمة ماندا لينيا. ستحضر

سعف الجمعة الحزينة وتحرقه بخوراً، وتردد التعاويذ لتطرد عنك عين الحسود يا مانولي... تعال إلي يا كنزي فعندي ما أريد أن أفضي به إليك...

أحس مانولي بأنفاس الفتاة حول رقبته. انبعثت رائحة نفاذة من جسده المغطى بالعرق. ورويداً رويداً اقترب منه ثدياها النافران الممتلئان وداعبا يده، وتدافع الدم حاراً في عروقه.

قالت له لينيو في حزم:

- لا تنصرف. سآتي بالأم ماندالينيا. فأنا لا أطيق أن أراك متجهماً هكذا. ودخلت لينيو إلى حجرتها. وسرعان ما ارتدت أحسن ثيابها، وعصبت شعرها بمنديل وملأت سلة ببعض البيض الأحمر، وقليل من البن والسكر وزجاجة نبيذ لتدفع كل هذا أجراً للعجوز ماندالينيا مقابل أتعابها. وعادت فرأت مانولي ارتقى السلم ووقف متردداً أمام باب سيده. وصاحت به:

- لا تنصرف. لا تنصرف... سأعود إليك.

خفتت أصوات الشجار. لا بد أن ميشيل غادر الحجرة. وكل ما وصل إلى آذان مانولي من خلال الباب وقع خطوات العجوز الذي يذرع الحجرة جيئةً وذهاباً، يغمغم بكلمات من بين شفتيه.

دفع الباب ودخل. ولم يكد يبصره العجوز حتى اندفع نحوه، وزأر بأعلى صوته رافعاً يده ليلطمه بها.

- إنها غلطتك. أنت الذي أدرت رأس ابني. أنت الذي أفسدته علي، فلم يعد به شيء من طباعي ودمي، أنت أيها المتشرد.

واسودت عروق صدغيه ورقبته ويديه. وفتح قميصه، وكان صدر العجوز يعلو ويهبط كأنه يؤذن بالانفجار. وسقط فوق حشية في ركن القاعة، وأسند رأسه بين راحتيه وأخذ يسعل ويخرج من حلقه حشرة مسموعة.

استند مانولي إلى الجدار يرقب السيد العجوز في صمته، وانتابه إحساس بالندم وقال في نفسه:

- ما أقسى قلب الإنسان. أي حيوان كاسر هو.. حتى أنت أيها المسيح تعجز عن أن تحيله إلى كائن مستأنس أليف.

وفجأة نهض الشيخ واقفاً، فاستعاد قوته، وأمسك بخناق مانولي.

صاح ثانية، واللعب يتناثر من فمه ليغرق وجه مانولي ورقبته:
- إنها غلطتك. غلطتك أنت. أتيت بك من أعلى الجبل لأزوجك بعزيتي
لينيو التي أحبها كابتي، وأبقيتك معنا طوال أيام العطلة. نسيت أنك خادمي،
وأجلستك إلى مائدتي يوم أحد السعف. والآن انظر إلى مدى عرفانك بجميلي يا
خائن. أفسدت البيت وبذرت فيه الشقاق. أدرت رأس ابني، وتسلفت إلى مخزني
وأنا نائم وسرقتني. يا لص. يا لص. ويبدو أنك لم تقنع بذلك، فهذا هو ميشيل
يعارضني لأول مرة في حياته. يقول لي: «أصبحت رجلاً الآن. سأفعل كل ما يحلو
لي». أسمع هذا؟ يا للوقاحة. يقول إنه سيفعل كل ما يحلو له. وعندما صحت
قائلاً: «ألا تخاف أباك؟» تواتيه الجرأة ليرد علي. يا للسفالة.. ويقول: «أنا أخشى
الله ولا أخشى سواه». لا. هل تسمع كلامي؟ لا أحد سواه. هذه كلها حيلك أنت
يا مانولي. لماذا لم تكسر ساقل يوم أن نزلت من الجبل لتشهد حفل عيد القيامة
عندي؟.. لماذا لا تنطق بكلمة؟ لماذا تنظر إلي بهاتين العينين الواسعتين؟ تكلم
انطق فأني أكاد أنفجر.

وفي هدوء قال مانولي:

- سيدي. أتيت أستاذك في العودة إلى الجبل.
فتح العجوز عينيه وحملق فيه وارتجفت شفاته وتهته قائلاً:
- ما هذا الذي تقوله؟ تعود إلى الجبل؟ أعد ما قلته على مسمعي ثانية إن كان
لك وجه لذلك.

- أتيت يا سيدي أستاذك في العودة إلى الجبل.
انتفخت أوداج العجوز ثانية وصاح يقول:
- وماذا عن الزفاف؟ متى سيتم عقد القران أيها الأحمق؟ في مايو؟ مايو هو
الشهر الذي تتزوج فيه الحمير. معنى هذا أنه سيعقد في أبريل. هل أتيت بك من
أجل هذا؟ أنا صاحب الأمر والنهي هنا.

- أمهلني قليلاً يا سيدي.

- لماذا؟ ماذا تريد؟ ماذا أصابك؟.

- لم أتعب بعد يا سيدي....

- لم تتعب بعد؟ ما معنى هذا؟.

- أنا نفسي لا أعرف يا سيدي.. انظر.. لست أدري كيف أعبّر عما في نفسي.
ولكنني أشعر أنني غير مستعد، روعي....
- أي روح؟ أظنك جنت؟.. اسمعوا ما يقول.. روحه.. أنت أيضًا لك روح؟
- ماذا عساي أن أقول يا سيدي؟ ثمة صوت بداخلي...
- اخرس.

مد مانولي ذراعه ليفتح الباب، فأمسك به العجوز.
- إلى أين أنت ذاهب؟ ابق هنا.
وبدأ يذرع الغرفة ذهابًا وجيئة، بطولها وعرضها، ويضرب المنضدة بجماع يده، ويعض على شفتيه.

- سأموت اليوم. ستقضيان علي أنتما الاثنان. هذه هي النتيجة بعد كل ما فعلت. ابني لا يخافني، ويقول إنه يخشى الله وحده.. وهذا- هذا الخادم القدر يحدثني عن روحه..
استدار للراعي وثارث ثائرته:

- اخرج. اذهب إلى الشيطان. اخرج. اغرب عن وجهي. إذالم يتم الزفاف هذا الشهر فلن تبقى في خدمتي بعد ذلك. سأطردك من بيتي. سأتي لعزيتي لينيو بزواج آخر خير منك.. غر... هل تظن ألا نظير لك.
فتح مانولي الباب، وقفز السلالم كل درجتين دفعة واحدة، وألقى نظرة في الفناء. لم تعد لينيو بعد. فحمل عصاه وأخذ طريقه عدوًا إلى الجبل.

توقف مانولي ليلتقط أنفاسه عند مشارف القرية، على مقربة من بئر القديس بازل. وهو بئر قديم مشهور، تحيط به أشجار البامبو السامقة، وله حافة من الرخام المصقول، حزت فيها الجبال التي تحمل الدلاء صعدًا وهبوطًا حتى تركت آثارًا عميقة زادت من عمقها القرون الطويلة. كانت الفتيات تقصدنه ساعة الغسق، يستخرجن منه الماء البارد. وقيل إنه بئر له معجزاته، ماؤه يشفي كثيرًا من الأمراض- أمراض المعدة والكبد والكليتين. واعتاد القسيس أن يأتيه مرة كل عام، في عيد الغطاس، يباركه عندما تعلن الساعة منتصف الليل. ويحكى أن القديس

بازل، قديس سيزاريا، الذي يحمل اللعب ويوزعها على الأطفال في جميع أنحاء الأرض، يمر بهذا البئر، على حد زعمهم، ويشرب من مائه قبل أن يبدأ جولته ليلة رأس السنة. ولهذا السبب سماه الناس بئر القديس بازل، ولهذا أيضًا اعتبروه بئرًا يحقق ماؤه المعجزات.

بلغت الشمس سمتها. وكانت أشعتها تسقط ثقيلة على الأرض، كأنها شلال ينهمر ماؤه دومًا. وارتفعت السنابل في الحقول ترتوي بأشعة الشمس وتمتص منها غذاءها. وأوراق شجر الزيتون يقطر منها الضوء. وعلى البعد يطالعك جبل ساراكيئا، تخال الدخان يتصاعد منه، وتلفه غلالة شفافة من الضوء في لون الذهب. ووسط هذا الذهب تظهر الكهوف فاغرة أفواهها السوداء. وعلى القمة تقف كنيسة القديس إيليا، وقد صهرها الضوء الذي يبهر الأبصار.

أمسك مانولي بالحبل وأخرج بعض الماء، وغمس وجهه في الدلو، وشرب منه. ثم فتح قميصه ومسح العرق من فوق صدره. واستقر بصره على جبل ساراكيئا. وطاف بخاطره وجه القسيس فوتيس الزاهد العاتي الذي يتأجج نارًا وضياء كالشمس ذاتها. حملق مانولي في الطيف الذي يترأى له، وهو لا يفكر في شيء، ولا يسأل نفسه شيئًا، وذاب هو الآخر مع تأملاته الوردية، كما ذابت كنيسة القديس إيليا، وسط الضوء الحارق.

ظل على حاله هذا وقتًا طويلًا غائبًا عن الوجدان. وفجأة أحس بوخز آلام مفزعة في يديه وقدميه وقلبه وكأنه صلب فوق الضوء... وبعد شهور مضت، طافت بخلده، على غير انتظار، لحظة الوجد هذه التي واته أمام حافة البئر، وأحس فجأة بأن هذه اللحظة كانت أعظم لحظات حياته بهجة. لا، إنها ليست بهجة، بل شيئًا آخر أعمق وأقسى، يتجاوز كل حدود البهجة والألم عند الإنسان.

وعندما مالت الشمس للمغيب، نهض مانولي ليرتقي جبل العذراء عائداً إلى كوخه حيث يرعى الأغنام.

وتمتم قائلاً:

- يجب أن أذهب لأنام، فقد اقترب المساء.

استوى واقفاً، وشد حزامه، والتقط عصاه. كان متلهفًا إلى اللحاق برفاق وحدته - الأغنام والكباش والكلاب. وأنس في نفسه شوقًا إلى رفيق الرعي

نيكوليو، هذا الصبي الصغير الشرس، الذي لوحته الشمس بشعره المموج.
ولم يكذباً مسيرته حتى سمع فجأة صوت حفيف عيدان البامبو. وسمع وراءه صوتاً صافياً يقول في ضراعة وإغواء:
- آه يا مانولي، هل تخافني إلى هذا الحد حتى تهرب عندما تراني؟ انتظر، لي كلمة معك.

واستدار، فرأى كاترينا الأرملة تخرج من بين نبات السمار، تحمل جرتها على كتفها. وطافت عيناه، في نظرات سريعة، فوق جيدها المرمرى اللامع، وذراعيها العاريتين الملفوفتين، وشفتيها الورديتين تعلوهما الابتسامة.
وغض من طرفه وسألها:

- ماذا تريد مني؟

أسندت الأرملة جرتها إلى حافة البئر، وقالت بصوت كله حنان وشجو:
- لماذا تلاحقني يا مانولي؟ أراك كل ليلة في أحلامي. لا يهنا لي نوم بسببك. رأيتك فجر اليوم في حلمي وأمسكت بالقمر تقطعه شرائح كما تقطع التفاحة وتقدمها لي لأكلها. ماذا بيني وبينك يا مانولي؟ لماذا تلاحقني؟ إن رؤيتي لك في أحلامي تعني أنك تفكر في.

ظل مانولي غاضباً طرفه. إنه يكاد يشعر بأنفاس الأرملة تحتويه، أنفاساً حارة حارقة. وبدأ صدغاه يختلجان بشدة. ولم يقل شيئاً.
وقالت الأرملة بصوت دافئ طروب فيه أثر بحة خفيفة:

- ها هو ذا وجهك يحمر. أنا على صواب يا عزيزي مانولي، وأنت تفكر في حقاً. وأنا أيضاً أفكر فيك.. وعندما تجول ذكراك بخاطري أحس بالخجل كأنني أقف عارية أمامك.. نعم كأنني عارية، وكأنك أخي وقد أبصرتني.
وأجاب مانولي دون أن يرفع بصره من على الأرض:

- أفكر فيك حقاً... أفكر فيك وإني آسف على حالك. لم تبرح صورتك مخيلتي طوال الأسبوع المقدس. أسألك الصفح.

جلست الأرملة فوق حافة البئر. وأحست بحلاوة وعدوبة، بيد أنها شعرت أيضاً بفتور لا يقاوم. لم تعد ساقاها تقويان على حملها. ولادت هي الأخرى

بالصمت. وانحنت فوق البئر، ورأت وجهها فوق صفحة الماء الخضراء الداكنة عند القاع. وفي ومضة خاطفة خطرت برأسها كل حياتها الماضية: فتاة يتيمة، ابنة لقسيس بلدة قاصية، التقت بزوجها في عيد العذراء. كان أكبر منها سنًا بكثير، وخط الشيب رأسه، بيد أنه ثري وصاحب أملاك، وهي فقيرة معدمة. اتخذ منها زوجًا له، أو اشتراها بعبارة أصح. وأتى بها إلى ليكوفريسي بعد الزفاف. كان يتمنى أن ينجب أطفالًا ولكن لم يكن ذلك في قدرته. ومات الزوج. وترملت كاترينا وهي في العشرين من عمرها. ولم يعد يطمئن بها فراش. وكذلك فتية القرية، فبعد وفاة زوجها لم يعد يغمض لهم جفن. كانوا كلما انتصف الليل يحومون حول بابها وتحت النوافذ وفي فناء الدار، يغنونها أغاني الغزل، ويتهدون كالعجول. وكانت هي الأخرى تتهد داخل بيتها. وواصلت استشهادها عامًا وعامين. وذات مساء، في يوم من أيام السبت، فاض بها الكيل ولم تعد تحتمل المزيد. في هذا اليوم غسلت شعرها، وضمخته بزيت شجر الغار. وتأملت جسدها، وأحست بالأسى من أجله. وفتحت بابها، ودخل فتى صغير، كان أول من تصادف وجوده ببابها. وفي ساعة السحر، وقبل أن يصحو أهل القرية من نومهم، خرج الفتى من بيتها. وشعرت الأرملة براحة غامرة. وأحست أيضًا بأن أيام الحياة معدودة، وأنها لخطيئة كبرى أن ندعها تغفل من بين أيدينا دون أن نستمتع بها. وعاودت فتح بابها في الأمسيات التالية كلما انتصف الليل.

ونفضت واقفة، واختفى وجهها من على صفحة الماء الأخضر الداكن.
سألت مانولي:

- لماذا أنت حزين من أجلي يا مانولي؟
- لا أعرف يا كاترينا. لا تسأليني. ولكنني أصدقك القول، إني حزين من أجلك كأنك أخت لي.
- هل أنت خجل مني؟
- لا أعرف، ولا تسأليني هذا السؤال. إني حزين من أجلك.
- ماذا تريد مني؟
- وصاح مانولي وتوجس خيفة وتهياً للهرب:
- لا شيء... لا أريد شيئًا.

وقالت بصوت يفيض فتنة:

- لا تنصرف. لا تنصرف.

توقف مانولي دون أن يلتفت إليها. وقفا صامتين مرة أخرى. وبعد لحظة عاودت الأرملة حديثها:

- أخالك يا مانولي وكأنك كبير الملائكة يريد أن يقبض روعي.

- دعيني أنصرف فأنا لا أبتغي منك شيئاً. أريد أن أنصرف.

قالت الأرملة وقد ضاقت به ذرعاً، وفي صوتها رنة سخرية من جديد:

- أنت في عجلة. تتلهف على الصعود إلى الجبل، تشرب اللبن، وتأكل اللحم ثم تقوم من نومك ثانية. ستتزوج قريباً يا مانولي ولينيو لا تحتمل الهذر.
- لن أتزوج.

قال مانولي ذلك بصوت عال ولكنه أحس بالخوف مما قال. فهذه أول مرة يفكر في شيء كهذا.

- لن أتزوج أبداً. أريد أن أموت.

أحس براحة غامرة بعد أن قال هذا. واستدار ونظر إلى الأرملة وجهاً لوجه هذه المرة، وكأنه لم يعد يخشاها. وشعر كأنه تخلص الآن من ثقل عظيم.
وقال في هدوء:

- وداعاً، إني راحل.

تتبعته المرأة بعينيها وهو يسير بعيداً عنها، وأحست بقلبها ينقبض.
وصاحت وفي صوتها رنة يأس:

- لا تفكر في ثانية يا مانولي. لا تقلق منامي بعد الآن. لقد سلكت الطريق السبيء فدعني وحدي.

- إني حزين من أجلك يا أختاه. إني حزين من أجلك. لا أريد أن تحق عليك اللعنة.

هذا هو ما دار بخلد مانولي ولكن دون أن يلتفت إليها أو يجيب عليها.
وكان قد خطا خطوات في الطريق إلى الجبل.

صَارَعَتَا مَعَ الْكَبِشِ

أشرفت الشمس، وألقت بضوئها على قمة جبل ساراكينا ولا مست أشعتها كنيسة القديس إيليا فكستها بلون وردي. وبدأت طيور الجبل تقاقي فوق المنحدرات. وزحف الضوء، فلف الجبل من جميع نواحيه. وظهرت أشجار متناثرة بين الصخور الوعرة. قليل من أشجار الخروب الجذع التي عاقتها الصخور عن النمو، وأشجار الكمثرى البرية التي غطاها الشوك، وأشجار السنديان التي عرتها الرياح.

لا بد أن أناسًا سكنوا هذا المكان في ماضي الزمان - فلا تزال العين تتبين أنقاض جدار، وبعض شظايا لأوان من الفخار، وقليلًا من أشجار استحالت ثانية إلى أشجار برية بعد أن رحل عنها من استأنسها. واختفت معالم الطرقات تحت أكوام الأعشاب والحجارة. وعادت البيوت إلى عناصرها الأولية، وأنبتت الأشجار الأليفة أشواكًا، والذئاب والثعالب والأرانب البرية التي فرت أمام الإنسان عادت ثانية مظفرة. تنفست الأرض والأشجار والوحوش الصعداء، فقد استعادت حريتها، ولن يتهددها بعد الآن خطر الوحش العابر الذي يمشي على قدمين، ظهر لهم لحظة من الزمان فغير ناموس الأشياء الخالدة، ثم ولى عنهم واختفى.

ولكن آه، انظر، ها هو ذلك الحيوان المهتاج دائمًا أبدًا يعود أدراجه. وتوارت الوحوش الكاسرة وراء الصخور العالية ترصده. لم تكد الشمس تبزغ من مشرقها حتى خرج بعض بني البشر من الكهوف، رجال ونساء وأطفال، وقصدوا الماء حيث يقطر من بين الصخور، وانحنوا فوقه. ورصفوا بعض الحجارة، وأوقدوا

نارًا... وشبوا على أطراف أصابعهم، وسرحوا الطرف إلى الأفق البعيد، تحت أقدامهم تمتد سهول ليكوفريسي الفيحاء، وحولهم بحر من التلال تغطيه أشجار الزيتون والتين والكرم، وعلى البعد يطالعهم جبل العذراء ساكنًا في وداعة، أخضر غنيًا في خضرته، تغطيه قطعان كثيرة من الأغنام والماعز. ووراء هذا كله عند الأفق البعيد ترتفع إلى عنان السماء جبال تعددت ألوانها بين الأزرق والأرجواني والأحمر.

رسم الأب فوتيس علامة الصليب وقال:

- طلع الفجر، يا أطفالي. أماننا أعمال كثيرة اليوم. تعالوا، التفوا حوالي، وهيا ندعو الله معًا لعله يستجيب لدعائنا.

اعتلى القسيس فوتيس صخرة، وجر الشيوخ من الرجال والنساء أنفسهم ليشكلوا دائرة حوله. هرولت النسوة يحملن أطفالهن، ومن ورائهن الرجال، تقدموا بخطى وثيدة حزينة، ورؤوس مطرقة أثقلتها الهموم... عصبية مهلهلة الثياب، حافية الأقدام، غائرة الوجنت من أثر الإجهاد والجوع، عزلاً وسط أحجار وعرة موحشة وأشجار متناثرة بغير ثمار... قد لا ينتظر المرء منهم غير ضراعات وعبرات. وأكف ترتفع إلى السماء تستجدي الرحمات... ولكن حدث ما هو نقيض ذلك. فقد علت الحناجر، تشد بصوت قوي طروب، نشيد النصر للكنيسة البيزنطية. وترددت أصداؤه بين جنبات الجبل:

- «انقذ شعبك يا إلهي، بارك ورثتك.

امنحنا النصر على البرابرة».

وقاد القسيس الإنشاد بحركات إيقاعية من ذراعه. كان صوته غلابًا. سباقًا، عميقًا، جسورًا.

وارتفعت الرؤوس المطرقة، وفتحت النسوة صدرياتهن، وألقمن أئداءهن لأطفالهن بينما ربضت أخريات على الأرض يطعمن النار بفروع الشجر، ويضعن الجرار فوقها.

وصاح الأب فوتيس:

- يا أطفالي، هنا وعلى سفح هذا الجبل الوعر، وبعون الله تعالى سنتخذ لنا

سكنًا. قضينا شهرًا ثلاثة نضرب في الأرض، ونال الإرهاق من النساء والأطفال، وأحس الرجال بالعار من ذل السؤال. الإنسان كالشجرة يحتاج إلى أرض. وفي هذه الأرض سنضرب بجذورنا. في الليلة الماضية رأيت في منامي القديس جورج، سيدنا وحامينا، وتماثًا بنفس الصورة التي رسم بها على رايتنا. شابًا أشقر الشعر، جميلًا كالربيع، يمتطي صهوة جواد أبيض، وخلفه الأميرة الفاتنة التي أنقذها القديس جورج من الوحوش المروعة التي كانت تعيش حول النبع. ومدت يدها إليه ممسكة بإبريق من الذهب تصب له منه الماء ليشرب... هل تعلمون يا أطفال! من هي هذه الأميرة الفاتنة؟ إنها روح اليونان، روحنا نحن. أخذنا القديس جورج معه فوق صهوة جواده، وأتى بنا إلى هنا فوق هذا الجبل القفر حيث نحن الآن. زارني بالأمس في منامي، وبسط إليّ ذراعه، ووضع في يدي بذرة قرية جديدة- صغيرة، صغيرة جدًا، فوق راحتي، لها كنيستها، ومدرستها، وبيوتها؛ وحدائقها- وقال لي: «ابنها».

وصدر عن الحشد همهمة وحفيف كحفيف الشجر بين عيدان القصب. وعندما فتح القسيس فوتيس يده، رأت نسوة كثيرة قرية صغيرة، صغيرة جدًا، فوق راحته، تشبه بيضة وضعت تحت أشعة الشمس لتفرخ.

بسط القديس فوتيس ذراعيه، وبحركة منهما كأنه يحتضن الجبل قال:

- إنها هنا. هنا سنزرع البذرة التي ائتمني عليها القديس جورج الفارس. هنا بين الحجارة والكهوف والمياه الشحيحة، وتحت هذه الأشجار البرية العجفاء. تشجعوا يا أطفال!، انهضوا واتبعوني. يومنا يوم عظيم، سنزرع فيه قريتنا الجديدة. انهض يا أب باناجوس، ارفع جوال العظام على كاهلك ثانية وتقدم.

رفع المعمر رأسه اليابس، واتقدت عيناه وسط جفنين تساقطت عنهما الرموش. وقال:

- يا أطفال!، ثلاث مرات أشهد قرى تزرع وتقتلع. الأولى أبادها الطاعون، والثانية دمرها زلزال، والثالثة، هذه المرة؛ دكها الأتراك. بيد أنني شهدت في المرات الثلاثة أيضًا بذرة الإنسان تنبت، حينًا في نفس المكان، وحينًا في مكان آخر بعيد. قسيس منح بركاته، والبناء شرعوا في البناء، كل إنسان انحنى على

الأرض يحفر، واتخذ الرجال لهن زوجات.. ثم ما أعظم البهجة التي عمت يا
أبنائي خلال عام واحد. شقت سنابل القمح الأرض وتساعد الدخان في المنازل،
وعلا صراخ الأطفال أثناء الولادة- وأصبحت القرية شيئاً ينمو ويكبر. تشجعوا يا
أطفال إن بذرة الإنسان ستنبث ثانية.

وصاح الرجال في بشاشة:

- برافو يا أب باناجوس. لقد قهرت ملاك الموت نفسه، يا جدنا. أنت التنين
الذي قهر الموت. ألسنت كذلك؟

ورد الشيخ المعمر:

- هو ذا أنا بكل تأكيد. هو ذا أنا، فأنا ذاك التنين.

ارتدى القسيس فوتيس، في هذه الأثناء، رداءه الكهنوتي، وجمع بعض أعشاب
السعر والنعناع، وصنع منها مرشة للماء المقدس، وملاً قرعة بالماء، ونادى بعض
الغلمان، وجمعهم حوله وعلمهم ترتيب المزامير، وترنيم الصلوات.
وقف الحشد عن بكرة أبيه، واصطف خلف رائده وقسيسه، الرجال عن يمين،
والنساء عن يسار. ومن فوقهم الشمس قوية عنيدة لا تعرف الكلل. ترتقي السماء
مع كل صباح لتؤدي دورها الفذ المتجدد أبداً.
وقال القسيس فوتيس:

- باسم المسيح يا أبنائي، باسم المسيح وباسم وطننا. لقد اجتثت قريتنا من
فوق الأرض، وها هي قريتنا تشيد من جديد. إن جذر سلالتنا أبدي خالد. ماذا
عساي أقول لكم يا إخوتي؟ إني إنسان كغيري من البشر، أبتهج إذا ما صادفني
حدث سعيد. بيد أنني أبتهج أكثر عندما تواجهني الشدائد والساعات العصيبة.
فهنا أقول لنفسي: «الآن يا أب فوتيس ستكشف عن معدنك الحقيقي. أرجل أنت
حقاً أم لك شجاعة الأرانب!».

وقهقه الرجال والنساء. وإذ بهذه الكلمات المفعمة بقوة الرجولة، المشبعة
بخفة الظل، قد خففت عنهم بعض ما يثقل قلوبهم في هذه اللحظة المهيبة. وهب
في صدر كل منهم روح محارب مغوار من سالف الأيام، تطلع إلى الحجارة
والأشجار المجذبة، والأفواه الجائعة، وشمر عن ساعديه.

غمس القسيس مرشة الماء المقدس في الماء الذي باركه وصاح:
- اتبعوني جميعاً يا أطفالى. سأرسم لكم حدود قريتنا، باسم المسيح وباسم
اليونان.

رفع العملاق علم القديس جورج. وأمسك الرجال بعدتهم، المجارف
والمعاول والفئوس. وحمل الشيوخ من الرجال الأيقونات في أيديهم. وتصدر
الجد المعمر قومه حاملاً على ظهره جوال العظام. وتبعهم كذلك كلبان أو ثلاثة
صاحبتهم في مسيرة الخروج، وشرعت تنبح في سرور. وحدثت جلبة عظيمة.
وفي هذه اللحظة تردد عند أسفل الجبل صوت نفير ولكن لم يسمعه أحد.
غمس القسيس مرشة الماء المقدس في الماء الذي باركه، وبحركة من يده
على امتداد الذراع نثر الماء على الحجارة والآجام وأشجار الخروب وكأنه يرسم
في الهواء حدود القرية. كانت هذه أول مرة يؤسس فيها قرية جديدة، وارتجل
الصلوات عن قلب يفيض تقوى وإيماناً.

- يا إلهي، يا إلهي، إني أحد بالماء المقدس حدود قريتنا. نسألك اللهم ألا
تطأها أقدام الأتراك، وألا يدهمها وباء، وألا يدمرها زلزال. سنصنع لها بوابات
أربع منيعة، نسألك يا إلهي أن تضع عندها أربعة من الملائكة يحرسونها.
وصمت هنيهة. ونثر الماء المقدس على هيئة صليب فوق صخرة كبيرة ثم
التفت إلى رفاقه وقال:

- هنا ناحية الشرق سنشيد إحدى بوابات القرية، بوابة المسيح.
ورفع يديه إلى السماء وقال:

- إلهي هذه بوابتك. من هنا ستدخل سبحانك حين تتلطف بنا لتسمع صوتنا،
وحين تنزل على الأرض في ساعة الخطر. تعرف يا إلهي أننا بشر، لذلك فإن لنا
روحاً وصوتاً سندعوك به. وإذا ألحفنا في الدعاء فلا تغضب علينا. نحن بشر،
مخلوقات معذبة، أثقلتنا الهموم، وثمة لحظات تلم بنا، ينوء فيها القلب بحمله
ولا يطيق المزيد، فينفطر، ويلفظ بما يعيب ويفرج عن كربته. الحياة يا إلهي عبء
ثقيل. ولولاك لأمسك كل منا بيد الآخر، رجالاً ونساء، وذهبنا لنلقي بأنفسنا في
هوة سحيقة ما لها من قرار لتخلص من الحياة. ولكنك موجود، وأنت يا ربنا

الفرحة والعزاء وحامي المقهورين. ها هي ذي بوابتك. فادخل.
وتحرك القوم صوب الجنوب. ومرة أخرى رسمت الحدود في الهواء. ورتل
القسيس مزموراً، وحفت بصوته العميق أصوات الأطفال الواهنة كأنها شقشقة
العصافير.

وتوقف القسيس هنيهة أمام صخرة مجوفة مملوءة ماء قراحاً وقال:
- هنا سنبنى بوابة العذراء حامية السلالة البشرية. ضعوا علامة هنا.
ويسط ذراعيه وقال:

- يا أمنا العذراء. يا زهرة نضرة أبداً، تزهّر نبات العنبر الذي يحفّ بشجر
السنديان البري... يا سيدتنا... نحن شعب بار مغلوب على أمره، اسمعي دعاءنا.
اخترنا لك مقاماً هنا على الأرض قريباً منا. وحجرك عش حنون يحتمي به البشر.
أنت أم تعرفين معنى الحشرات والطوى والموت. وأنت امرأة تعرفين معنى الصبر
والحب. يا سيدتنا، أطلي من عليائك على قريتنا، وامنحي نساءها الصبر والحب،
عسى أن تثبت أقدامهن في هذا الصراع اليومي، وأن يحتملن بغير شكوى، مع
آبائهن وأزواجهن، عناء الأطفال وعذابات البيت. امنحي الرجال القوة على
العمل، والأمل المتجدد دائماً، والانتصار على الموت بأن يملأوا الفناء بالأبناء
والأحفاد. يا سيدتنا امنحي شيوخنا من النساء والرجال خاتمة مطمئنة مسيحية
لحياتهم. ها هنا بوابتك. أنت حاميتها يا سيدتنا، فادخلي.

في هذه اللحظة ظهر خلف الموكب حمار يحمل على ظهره أحماً، ولكن
لم يلحظه أحد. وقف الحمار فجأة مأخوذاً، وأدار عينيه الواسعتين المخمليتين إلى
صاحبه يسأله عما يفعل. وظهر ياناكوس بدوره خلف الحمار، لاهث الأنفاس،
غارقاً في عرقه، لاعناً الشمس والحجارة.

وتوقف هو الآخر مذهولاً كصديقه يوسوفاكي. سمع تراتيل القسيس وكلماته
الأخيرة. وتلفت حوله حائراً. إنه يقول: «ها هنا البوابة»... أين... أين هذه البوابة؟
ما هي تلك القرية التي سيشتدونها؟ بأي شيء؟ من الهواء؟ أم في الهواء؟ عليهم
اللعة. ما بالهم يقتلهم الجوع ومع ذلك يتحدثون عن بناء قرية؟ أقدامهم لا تقوى
على حملهم، ومع ذلك يرتلون مزامير الحرب: «هب لنا النصر على البرابرة»..

«رحمك يا رب فإن بهم جنة».

ربط حماره إلى شجرة سندان، جدعاء. واتخذ لنفسه مكاناً بين الموكب في صمت وخفية. وأخذ يتطلع إلى ما حوله بعينين واسعتين، وأذنين مرهفتين، وهو لا يستبين من أمره شيئاً... أيضاً لك ذلك أم يكي. اقتفى أثر الآخرين، يرقب القسيس يمشي وثباً، ومرشة الماء المقدس في يده، وهو يخط الحدود في يقين يأخذ بالألباب، وكأنه كان يبصر حقاً في الهواء شوارع المستقبل، والبيوت والكنيسة ومساكن الأعيان.

وتوقف القسيس للمرة الثالثة عند الجانب المقابل لبوابة المسيح. فمد بصره صوب الغرب ثم اعتلى صخرة شماء شقتها شجرة كمثرى برية مزهرة. وقال:

- هنا سنبنى بوابة القديس جورج العامل الكادح. إنه مثلنا نحن الرجال ينحني على الأرض يفلحها. ويسوق الماعز والأغنام إلى المرعى، ويقود الثيران، ويشذب الأشجار ويطعمها. لم يكن القديس جورج محارباً مغواراً فحسب بل كان أيضاً كادحاً عظيماً. إننا نضع ثقتنا في تأييدك لنا يا حامي قريتنا. نسألك أن تمنح الخصب لما نملك من ماعز وحملان، حتى تفيض ضروعها لبناً طعماً لأطفالنا، وتسخو علينا بصوفها حتى لا يقهرنا ثلج الشتاء. أيها القديس جورج، نسألك أن تبارك كل المخلوقات التي تأنس إلى الإنسان وتعيش لخدمته - الثيران والحمير والكلاب، والدجاج والأرانب... نسألك أن تنحني على الأرض وتباركها أيضاً. سنلقي ببذرة النبات بين أحشائك وسوف تسوق لها المطر عند الحاجة عسى أن تنمو وتثمر... الأرض والناس والقديسون، كلهم جيش واحد مع الرب أمامنا في المقدمة يهدوننا إلى الطريق. أيها القديس جورج، ها هي ذي قريتك، وها هي ذي بوابتك. أردناها لك عالية حتى تدخل منها وأنت على صهوة جوادك. فادخل.

ظل ياناكوس ينصت فاغراً فاه، وفرك عينيه بأصابعه وتلفت حوله. لا شيء غير الصخور ونباتات التوت الشوكي والسمار والسعتر... وغرايين فوق شجرة خروب تملكهما خوف فحلقا في الفضاء يدفان بأجنحتيهما وينعبان في حزن. وتساءل في فرع:

- ما هذه المخلوقات؟ هل هم من البشر؟ أم حيوانات برية؟ أم قديسون؟

تطلع إلى الرجال بشواربهم المتهدلة، وإلى النساء بضفائرهن الغزيرة،
وأردافهن الثقيلة..

- «عونك يا إلهي، لقد أصابتهم جنة أذهبت عقولهم تمامًا».
واتجه القسيس شمالاً صوب مكان مقابل لبوابة العذراء ووقف ثانية أمام
جدار متهدم غطته الأعشاب. لوح بمرشة الماء المقدس، وبارك الحجارة ثلاثاً،
ثم استدار إلى رفاقه وقال لهم بصوت متهرج:

- هنا... هنا يا إختوتي سنبنى بوابة آخر ملك لنا من ملوك بيزنطة... قسطنطين
باليولوجوس، وإني على يقين يا أحبائي أنه سيدخل من هنا يوماً ما رسول يتصبب
عرقاً يعلننا: «يا إختوتي، عادت إلينا القسطنطينية من جديد».

لم يتمالك الحاضرون أنفسهم. وتعالى صيحات مهتاجة. واستداروا في
ذهول ناحية الشمال، يحدقون بأبصارهم إلى الأفق البعيد صوب القسطنطينية
مدينتهم المقدسة.. إنهم يرون الرسول رأى العين قادماً تحمله إليهم الرياح.
ونادى القسيس:

- يا أب باناجوس. تقدم وحط عن كاهلك جوالك، عند عتبة بوابة الملك
باليولوجوس.

ثم قال مخاطباً الرجال الذين يحملون العدة:
- احفروا.

وفعلوا ما أمروا به. ضربوا بمعاولهم ضربات قوية، وحفروا قبراً واسعاً، عميقاً،
يسع إنساناً على امتداد قامته. ونزل فيه الرجل المعمر. ومد يده إلى الجوال يخرج
منه العظام واحدة بعد أخرى: جماجم وعظام فك وضلوع، وكومها في الحفرة
في صمت وخشوع. ونثر القسيس فوتيس على العظام ما بقي في المرشة من ماء
مقدس، ثم ألقى بها في الحفرة وصاح:

- يا آباءنا.. صبراً قليلاً. لا تتحللوا وتصبحوا تراباً.. انظروا، ها هو الرسول
قادم.

ومسح ياناكوس عينيه. وأحس بجفاف في حلقه.
وأصدر القسيس أمره:

- هيا اخرج الآن يا أب باناجوس . اخرج فإننا سنردم الحفرة .
وأسرع فتیان يمدان إليه أيديهما ليعيناه على الخروج .
وقال لهما الشيخ في ضراعة:
- اتركوني يا أبناي . إني راض بمقامي هنا . لماذا تريدون مني ان أكل خبزاً لا
حق لي فيه ؟ لم أعد قادراً على العمل ، ولم أعد قادراً على الإنجاب ، اتركوني فلا
نفع لي .
وقال القسيس بنبرة قاسية:
- يا أب باناجوس ، لم تحن ساعتك بعد ، فلا تتعجل .
ورد عليه الجدد متوسلاً:
- اتركني يا أبانا . فأنا حيث ينبغي أن أكون . سمعت فيما يقال لو لم يدفن
إنسان تحت أساس القرية فإنها سرعان ما تنقض . ومن أين لي بميتة أفضل من
هذه ؟ ادفنوني .
وقال القسيس محتجاً:
- هذا لا يمكن أن يكون . وهيك الرب حياة ، وهو القادر وحده على أن ينتزعها
منك . ليس هذا من حقنا يا أب باناجوس ... أخرجوه يا أبناي .
وانحنى الفتیان ، ومدوا أذرعهما ليخرجاه ... ولكن المعمر كان قد رقد فوق
العظام وهو يبكي:
- اتركوني يا أبناي ، اتركوني ، فأنا حيث ينبغي أن أكون .
لم يعد ياناكوس قادراً على كبح جماح نفسه . انحنى فوق الحفرة وشاهد
الرجل الكهل . كان مستلقياً على ظهره ، ساكناً بغير حراك ، متجهاً بوجهه ناحية
الضوء ، مبتسماً في سعادة ، عاقداً ذراعيه إلى صدره ، لا يفتأ يغمغم بكلمات:
- أنا راض بمقامي هنا ... أنا راض بمقامي هنا ...
لان حلق ياناكوس بعد جفاف ، وتردد صوت نشيج .
التفت القسيس ، ورأى ياناكوس ، وتعرف عليه . وصاح:
- أفسحوا يا أبناي . هاكم رجل بار من أهل ليكوفريسي . أتى ليرانا ويشد من
أزرنا في بلوانا . رحبوا به يا إخوتي . إنه أحد الأربعة الذين أحسنوا إلينا بالسلال .

تذكر القسيس اسمه، وأمسك بيده يهزها بانفعال وقال له:
- مرحبًا بك يا ياناكوس. لن يحرق الله ليكوفوسي بناره بفضل حبك أنت وأصدقائك.

لم يعد ياناكوس قادرًا على كبج جماح عواطفه، وأجهش بالبكاء.
عانقه القسيس وقال له:

- ماذا يبكيك يا أخي؟
- اقترفت خطيئة يا أبانا. اقترفت خطيئة.
- تعال معي.

- ماذا يبكيك يا أخي؟
- اقترفت خطيئة يا أبانا. اقترفت خطيئة.
- تعال معي.

أمسك بذراعه وانتحي به جانبًا.
- ماذا يبكيك؟ أي خطيئة؟ حدثني يا بني عما يثقل قلبك.
ثم أردف قائلاً وهو يبسط ذراعيه يشير بهما إلى قرية المستقبل:
- أنت أحد مؤسسي قريتنا.
ولكن ياناكوس خائنه قدماه وسقط على الأرض فوق صخرة ووقف القسيس
يحملق فيه ببصره مهمومًا. وسأله:

- هل أنت بحاجة إلى شيء؟ هل اعترفت إنمًا؟ لا تبك.
- اعترفت خطيئة يا أبانا. أريد أن أعترف لك بكل شيء حتى يذهب عني
الحزن.

تساقطت الكلمات من فيه متعثرة الواحدة فوق الأخرى، وتلاحقت أنفاسه،
قصيرة لاهثة. وبدأ يقص عليه سبب ارتقائه جبل ساراكيئا، واتفاقه مع الأب
لاداس، والجنيهاات الذهبية الثلاث التي قبلها منه تحت الحساب.
أصغى إليه القسيس بانتباه شديد دون أن ينبس ببنت شفة. وتطلع إليه ياناكوس
في فرع.

وأخيرًا قال بصوت مرتجف:

- ماذا ترى يا أبانا؟
- أرى أن الإنسان وحش، وحش كاسر.. لا تبك. فإني أرى أيضًا أن الله كبير.
وغمغم ياناكوس قائلاً:
- بل إن الإنسان أكثر شرًا من الوحش.
وبصق على الأرض كأنه أحس بدوار. واستطرد يقول:
- الإنسان دودة تعيش في الطين.. دودة قذرة، حقيرة، دنسة... لا تلمسني يا
أبانا. ألا تشمئز مني؟
لم ينبس القسيس ببنت شفة، وسحب يده من ذراع ياناكوس، وغض من
طرفه، وتأوه في حسرة.
وثب ياناكوس من فوق الصخرة التي سقط فوقها، ودس أصابعه في جيب
سترته وأخرج الجنيحات الذهبية الثلاثة.
- يا أبانا، هل لي أن أطمع في كرمك، فتقبل مني هذه الجنيحات الذهبية الثلاثة
وتشتري بها بعض الأغنام للقرية.. من أجل الأطفال، فهم بحاجة إلى اللبن.. وإذا
تفضلت عليّ، فضع يدك على رأسي واصفح عني.
ظل القسيس جامدًا في مكانه بغير حراك.
- إذا لم تقبلها مني، فلن تعرف روحي معنى السكينة أبدًا.
وبعد لحظة صمت قال:
- قلت لي إن الإنسان وحش كاسر، فهل لك أن تروضه يا أبانا، كلمة طيبة
منك تكفي. خلاصي في هذه اللحظة معلق بين شفتيك.
ألقى القسيس بنفسه بين ذراعي ياناكوس وانخرط بدوره في البكاء.
وصاح ياناكوس:
- هل هذا من أجلي؟ هل تبكي من أجلي؟
غمغم القسيس فوتيس وهو يمسح دموعه:
- من أجلك، ومن أجلي، ومن أجل العالم أجمع، يا بني.
وقبل ياناكوس بين حاجبيه، وربت بيده على شعره الأشيب الكث.
- مغفورة لك خطاياك يا ياناكوس. إن بطرس أنكروا هو الآخر المسيح ثلاث

مرات، وأنقذته الدموع في المرات الثلاثة. الدموع يا بني أشرف ماء للتعميد..
أقبل منك ذهب الخطيئة الذي تقدمه لي. ستتحوّل خطيئتك إلى لبن لأطفالنا
الجوعى. إني أباركك يا ياناكوس.

خر ياناكوس راكمًا أمام القسيس، وحاول أن يقبل قدميه، ولكن سرعان ما
انحنى عليه القسيس وأنهضه. وقال:

- لا. لا. إنا على مرأى منهم، وها هم قادمون.

وتعالّت صيحات هلوعة:

- يا أبانا، يا أبانا..

وقال القسيس فوتيس منزعجًا:

- ماذا حدث يا أبنائي:

- يا أبانا، الشيخ باناجوس أسلم الروح. حاولنا أن نخرجه من القبر.. ألفيناه
ميتًا.

رسم القسيس فوتيس علامة الصليب. وقال:

- أدعو الله أن يغفر له مات سعيدًا، وها هو أصبح لبنة في أساس قريتنا.. ندعو
الله يا أبنائي أن يحسن ختامنا مثله.. سأتي لأمنحه بركاتي.

ثم قال مخاطبًا ياناكوس:

- انصرف يا بني ولا تخش شيئًا. المسيح معك.

وانحنى ياناكوس على يد القسيس وقبلها، وانطلق ليحضر حماره.

وأحس بالفرحة كأنها جناحان يحملانه، وأخذ يعدو وثبًا من صخرة إلى أخرى
مثل فتى في العشرين من عمره. وشعر بخفقان عند ظهره كأن جناحين نبتا فيه.

وغمغم:

- ليذهب العجوز لاداس إلى الشيطان. إلى الجحيم بذهبه. إني أشعر بنفسي
خفيفًا كأنني أطيّر.

وربت على حماره الذي كان ينتظره في قلق تحت ظل شجرة سنديان، وفك
وثاقه وهو يترنم بلحن.

وقال:

- سننصرف يا يوسف افاكي . انتهى عملنا نهاية طيبة . حمداً لله .
واستدار ، فوق بصره على الصخور الوعرة ، والكهوف المعتمة ، والرجال
وانحنوا فوق قبر الجد تحت بوابة المستقبل التي ستبني باسم الملك باليولوجوس .
ينصتون لقداس الدفن . ويرسمون علامة الصليب .

وتتم:

- أدعو الله أن يجعل من قريرتكم حقيقة واقعة . أسهمت في تأسيسها بثلاث
جنيهاً ذهباً .

وبدا ينزل المنحدر وهو يتغنى .

وقال لنفسه :

- حقاً ما قلت «الإنسان وحش كاسر» .. نعم ، إنه يفعل ما يختار ، إنه يسلك
الطريق الذي يختاره لنفسه . أمامه بوابة الجحيم وبوابة الفردوس متلاصقين ،
وهو يدخل أيهما يختار .. الشيطان لا يدخل سوى النار ، والملاك لا يدخل سوى
الفردوس ، أما الإنسان فإنه يدخل أيّاً منهما حسب اختياره .
وضحك وأردف قائلاً :

- سلاماً أيها الوحش المقدس يا ابن آدم .

ثم ترنم بلحن أغنية قديمة معروفة منذ زمان لا يعلم إلا الله مداه . وها هي الآن
تتردد على شفثيه ثانية :

أنا ابن البرق ، وحفيد الرعد .

بمشيئتي يومض البرق ، ويدمدم الرعد ، ويسقط الثلج .

- إني جائع . سأخذ شيئاً أكله . ويوسف افاكي جوعان أيضاً . سأذهب لآتيه
ببعض العشب الأخضر ، حتى لا يغار مني إذا ما رأياني أكل . لنجلس أنا وهو جنباً
إلى جنب كأخوين ، ولنأكل لقمة سوياً .

وسار بضع خطوات ، وجمع بعض الحسك ، ووثب فوق سور ، وقطع بعض
أوراق الكرنب ، وربط هذا وذاك في حزمة واحدة وقدمها لرفيقه :
- خذ . كل يا حبيبي يوسف افاكي . سأكل أنا أيضاً . غداً هنيئاً .

فتح خرجه ، وأخرج منه خبزاً وزيتوناً وبصلة ، وبدأ يلوك طعامه على مهل وفي

اطمئنان على نحو ما يفعل الأرنب.

وتمتم قائلاً:

- جميل جداً هذا الخبز. أخال أنني أطعمه لأول مرة في حياتي. بيد أنه ليس بخبز، إنه كسرات منه، ولكنه يسري إلى العظام تَوًّا ويمنحها قوة.
وأخرج من الخرج زجاجة نبىذ نقش عليها صورة صقر له رأسان. ومال بطرفها إلى فمه، وتردد صوت كركعة طروب.
وقال:

- ها أنذا أشعر كأنني أشرب النبيذ أيضاً لأول مرة. ياله من شراب عريبد، يشق طريقه تَوًّا إلى القلب، ويشيع فيه نشوة. خلق الله الكرم والنبيذ لحكمة بالغة، وبورك من فكر في هرس الكرم لنخرج منه النبيذ... هاتها... جرعة أخرى.
وضع الزجاجة على فمه ثانية وأغمض عينيه.

وقال صوت بادى الانتعاش:

- في صحتك يا ياناكوس.

فتح ياناكوس عينيه، فأبصر كاترينا، وعلى كتفها صرة ثقيلة، ومن ورائها نعبتها والتف شريط حول رقبتها.
وصاح:

- إيه يا كاترينا، ماذا وراءك؟ ماذا أتى بك إلى هنا؟ إلى أين بنعجتك هذه؟ هل تبيعينها؟

وابتسمت الأرملة وهي تقول:

- نعم.

- تعالى. اجلسي لحظة وكلّي واشربي. القسيس فوتيس كان يرغب في شراء نعجة تدر للأطفال لبنًا.. إن الله هو الذي أرسلك إلى هنا.
جلست الأرملة على الأرض. ومسحت بمنديلها الأسود العرق من فوق وجهها وعنقها. وكانت عيناها تفيضان سعادة.
وقالت:

- ما أشد حرارة الجو. حل الصيف يا ياناكوس.

أخذ ياناكوس كسرة خبز وحفنة زيتون وناولهما للأرملة وهو يقول:

- كلي شيئاً. هل يروقك البصل؟

أخذت الأرملة منه الخبز والزيتون وقالت:

- لا. فأنا لا أطعم البصل أبداً.

وقال ياناكوس ضاحكاً:

- حتى لا يفسد رائحة فمك يا خبيثة؟

- نعم.

قالتها وتغير صوتها بغتة. إذ بدت فيه رنة حزن. ثم واصلت حديثها:

- تعرف يا جاري أننا نفضل أن تفوح منا رائحة الصابون المعطر واللافندر.

وأزاحت الخبز والزيتون جانباً.

وقالت:

- آسفة. فلست أشعر بالجوع.

وخجل ياناكوس من نفسه. وابتلع ما في فمه،

وتتمتم:

- بل أنا يا كاترينا أحق بأن أكون أسفاً. أنا حمار.

التقطت الأرملة ورقة عشب ووضعتها في فمها تستحلبها دون أن تنبس بكلمة.

وخيم عليهما الصمت لحظة، وأحس ياناكوس بعزوف عن الأكل. فأغلق

خارجة.

وشاء ياناكوس أن يقطع الصمت الذي أثقله. فسألها:

- ما الذي جئت به في صرتك يا كاترينا؟

- بعض ملابس للأطفال، لا حاجة لي بها.

- هل كنت ذاهبة لتصدقني بها عليهم؟

- نعم.

- والنعجة؟

- والنعجة أيضاً، لتدر لهم لبناً.

وأطرق ياناكوس خجلاً. وأردفت الأرملة بعد لحظة كأنها تلمس لنفسها

المعاذير:

- تعرف يا جاري أنني لم أنجب أطفالاً، وأشعر كأن كل أطفال الدنيا أطفالي أنا.

وأحس ياناكوس بجفاف في حلقه، وقال بصوت مخنوق:

- كاترينا.. أود أن ألقى بنفسي عند قدميك أقبليهما.

- استدعاني بطريراكاس، هذا الفاسق العجوز، قبل أول أمس لزيارته. وأنبأني بقرار مجلس الأعيان، بأنني سأقوم بدور مريم المجدلية في العام القادم. وكنت سمعت بعض ما يروى عن مريم المجدلية. وهذا هو ما أصبحت أنا- مريم المجدلية لهذه القرية.. وعندما أنبأني بذلك أحسست بالخجل. أما الآن يا ياناكوس فإنني ما عدت أشعر بالخجل. فلو أنني التقيت بالمسيح، ومعني زجاجة عطر، لأرقيتها على قدميه أغسلهما بالعطر وأمسحهما بشعري.. أظن أن هذا ما سأفعله، وسألازم مريم العذراء دون أن أنس في نفسي خجلاً. وهي بدورها لن تخجل من مصاحبتني لها.. ترى هل فهمت بعض ما قلته لك الآن يا ياناكوس؟

أجاب ياناكوس والدموع في مآقيه:

- أفهمك يا كاترينا.. أفهمك.. بدأت أفهم اليوم فقط، ومنذ هذا الصباح يا كاترينا.

ثم أردف يقول بعد صمت قصير:

- أنا أثم كبير، خطاياي تفوق خطاياك يا كاترينا. ولهذا السبب أفهمك.. قبل اليوم كنت سارقاً كذوباً إلى حد ما، وكل هذه لم تكن كبائر بل صغائر.. ومع هذا الصباح كنت مجرمًا أثيمًا.. أما الآن.

ولاذ بالصمت. وطار قلبه من بين جوانحه. أمسك بزجاجة النبيذ وقال:

- في صحتك يا كاترينا. أسأت إليك الآن فاعفري لي. الحمار لا يفعل غير ما تفعله الحمير.

بعد أن شرب، مسح عنق زجاجته بعناية.

- اشربي أنت أيضًا يا كاترينا حتى أطمئن إلى أنك غفرت لي.

وقالت الأرملة بعد أن مالت بجيدها إلى الوراء.

- في صحتك.
ومسحت فمها ونهضت واقفة.
وقالت:
- سأنصرف. النعجة قلقة، وها هي تشغو كأنها لا تحس بالسعادة. لم أحلبها
هذه المسكينة. أريد أن يحلبوها هم هناك فوق الجبل.
- هل لن تفتقيديها يا كاترينا؟ فأنا أعرف مدى حبك لها.
- ترى لو أنك تصدقت عليهم بحمارك هل كنت تفتقده؟
اقتشع بدن ياناكوس لسماعه ذلك وقال:
- لا تقولي هذا يا جارتني فإن كلامك يمزق قلبي.
- ويمزق قلبي أيضًا يا ياناكوس. وداعًا. أتمنى لك حظًا سعيدًا.
وترددت لحظة، ثم تجاسرت على القول:
- هل سترى مانولي؟
- سأبدأ جولتي بين القرى.. وأحسب أنني عند عودتي قد أعرج عليه وأذهب
لآراه.. هل تريدني أن أقول له شيئًا؟
كانت الأرملة رفعت صرتها فوق كاهلها ثانية وبدأت تشد بقوة النعجة
الحرون.
وردت عليه قائلة:
- لا... لا شيء.
وأخذت سبيلها صاعدة.

في هذه الأثناء كان مانولي قد بلغ الجبل. وشمّت الكلاب رائحته عن بعد
فأخذت تعدو نحوه، تهز ذنبها ووراءها نيكوليو. ونيكوليو راع صغير السن، لوحته
الشمس، وله أذنان مدببتان. خف إلى مانولي، يشب من صخرة إلى أخرى كأنه
جدي. نما وترعرع بين الجبال مع الماعز والأغنام. وهو أسمر شديد السمرة،
شرس قليل الكلام، فحياته كلها ثغاء مع الأغنام والكباش. وشعره المموج، الذي
خالطه الراتنج والروث، مجدول على شكل ضفيرتين، بدتا كأنهما قرنان صغيران

مدبان. إنه يناهز الآن الخامسة عشرة من عمره، ينظر إلى الأغنام بوجه عابس كوجه الكباش.

عندما بلغا ساحة المرعى. وضع نيكوليو فوق الدكة الحجرية خبزًا وجبنًا وقديداً، وقال:

- كل.

- لست جوعاً أنا أيها الهمام نيكوليو. كل أنت.

- ولماذا لا تشعر بالجوع؟

- لا أرغب.

- هل آذوك هناك تحت؟

- نعم.

- ولم ذهبت إليهم؟

لم يجب مانولي واستلقى على مخدعه المصنوع من القش. وأغمض عينيه. حقاً: لماذا ذهب إليهم؟ اعتاد قبل ذلك أن ينزل إلى القرية صباح كل أحد، يسمع القداس، ويتناول القربان. ثم يعود من فوره إلى الجبل. كان يحس بالاختناق هناك في السهل. يضيق صدره إذا أبصر النساء، وتعتصر حلقه رائحة التبغ والنارجيلة كلما مر بالمقهى ورأى الرجال مقبلين على الشراب ولعب الورق، لذلك كان يمر بهم سريعاً، يحث الخطى عائداً إلى الجبل حيث الهواء النقي. والآن...

تذكر لينو، ونظراتها الماجنة، وابتسامتها الساخرة، وصوتها الساحر، ثم، وقبل هذا كله، ثدييها النافرين يدفعان صدريتها الوردية إلى الأمام حتى تكاد تتمزق. ونهض جالساً على الحصير. أحس بسخونة شديدة. فنزع عنه قميصه الذي بلله العرق.

وقال لنفسه:

- يجب أن أتجلد وأحافظ على نقائي ولا أ لمس امرأة. سأقدم الحساب من الآن فصاعداً فإن هذا الجسد ليس ملكاً لي، إنه ملك المسيح.

وطافت بمخيلته صورة المسيح كما رآها يوم وصوله إلى الدير مرسومة على أبواب الكنيسة المحلاة بالأيقونات: إزار أزرق طويل، وقدمان عاريتان تمسان

الأرض برقة متناهية حتى تكاد أوراق العشب ألا تميل من تحتها. نحيلًا، شفافًا، رقيقًا كالضباب. ومن يديه المقدستين، وقدميه وصدره المكشوف، يسيل خيط رقيق قان من الدم.. وامرأة في ريعان الشباب، يهفهف شعرها الذهبي حول كتفيها، تهوّل نحوه، تحاول أن تلمسه، ولكنه يرفع إليها يده في حزم ليقفها. ومن فمه المقدس تخرج باقة من الكلمات كأنها كتاب منشور. قرأها مانولي دون أن يتبين معناها. وسأل رئيس الدير: «يا أبانا ماذا يقول المسيح هناك؟» وأجابه بقوله: «يا امرأة، لا تلمسيني». ومن هي المرأة يا أبانا؟ «مريم المجدلية».

«يا امرأة لا تلمسيني». وأغمض مانولي عينيه. وفجأة رأى الأرملة كاترينا تهز رأسها، وتطوح عنها مندليها الأسود. انحل شعرها الأشقر، وتهدل إلى ركبتيها وستر ما بان من سوائها. وإذا بهبة ريح تطوح شعرها، فتكشف عن ثديين مدورين مكتنزين.

وهب واقفًا فوق مخدعه وصاح:

– النجدة.

كان نيكوليو، الراعي الصغير، لا يزال جالسًا إلى طعامه، يأكل بنهم لا يشبع. فالتفت إليه في هدوء وفمه ملآن، وقال له:

– هل تحلم يا سيدي؟ هل هناك من يتعقبك؟ أنا أيضًا يتراءى لي في أحلامي أناس يتعقبونني. لا عليك، فالأحلام كذاب. نم ولا تكن أبله.

– أوقد النار يا نيكوليو، إني مقرور.

كان الراعي الصغير عاجزًا عن أن ينأى بنفسه عن الخبز واللحم، فرد عليه معترضًا:

– ولكن القيط خانق..

عاود مانولي كلامه وأسنانه تصطك:

– إني مقرور..

نهض الراعي الصغير وهو لا يكف عن المضغ. واتجه بادي التذمر إلى ركن في الحجرة، وأخذ بعض الخشب والأغصان ووضعها في المدفأة وأشعل فيها النار. واقترب من مانولي، ونظر إليه مليًا، وهز رأسه:

- حسدوك يا سيدي.

قال ذلك، وعاد أدراجه ليأكل في نهم.

جر مانولي جسمه إلى أحد أركان الكوخ، وتدثر بأسمال بالية، وتكوم حول نفسه. أخذ يرقب النار وهي تأتي على الخشب. وتراءت له لينيو ومريم المجدلية والمسيح يتراقصون مع ألسنة اللهب، يقتربون ثم يفترقون ليقربوا ثانية.. وتراقصت ألسنة اللهب، واحتجبت النسوة وراء الدخان المتصاعد ولم يبق غير المسيح مصلوبًا فوق الشرر. رآه واضحًا جليًا بوجهه الشاحب مائلًا على صدره، ويده مسمرتان فوق الخشب.. وتراقص اللهب وبعثت الحياة في المسيح وخرج من بين الرماد.. أخذ يتضاءل شيئًا فشيئًا، وانحنى على نفسه، وبعدها شب واقفًا، ثم اختفى وتوارى في الدخان.

نال الإنهاك من مانولي كل منال، ولم يعد قادرًا على متابعة الخيالات التي تراءى له، وسقط رأسه بين ركبتيه، واحتواه النوم.

كان نومًا ثقيلًا لزجًا. حاول مانولي جاهدًا طوال الليل أن يتخلص منه. أحس كأن أعشاب البحر وطحالب الماء تحيط به من كل جانب وتتعلق به.. وتراءى له عند الفجر شلال من صفائر شقراء، تتدفق عليه، تشب نحوه، وتتناثر وتغطيه من كل ناحية. ويصرخ بصوت مخنوق «النجدة». ولكنه لا يزال غارقًا في سباته عاجزًا عن أن يفلت من النوم. وها هو ذا الآن يطفو على ظهره فوق ماء نهر، يئن ويتوجع. استيقظ الراعي الصغير مرتين أو ثلاثًا على صرخات مانولي الحادة. وعند سماعه لها يغمغم:

- «لا يزال يحلم بأنهم يتعقبونه، ياله من مسكين». ثم يتقلب على جنبه ويستسلم للنوم ثانية.

عند مطلع الفجر فتح مانولي عينيه، وطالعه من فتحة النافذة سماء صافية. فرسم علامة الصليب. وقال بصوت نصف مسموع:

- حمدًا لله أن انقضى الليل ونعمت بالخلاص.

كان يشعر بالألم في مفاصله، والتهاب في عينيه، ورجفة في جسده. خمدت النار، وأحس بالعطش. كان يتوق إلى بعض اللبن الساخن. ولكن نيكوليو كان قد

خرج ليرعى الماشية، وهو لا يشعر برغبة في النهوض. وتطلع حوله كأنه يرى لأول مرة عدة مهنته: الأواني وأسطال اللبن، وملاعق خشبية معلقة على الجدار شكلتها وحفرتها يده بحذق ومهارة. فهو منذ صباه كان إذا وقعت يده على قطعة خشب أمسك بسكين وأعمل يده حفراً ونقشاً فيها ليشكل منها طيوراً وأشجار سرو. ثم بدأ يشكل منها بعد ذلك تماثيل نساء، وبعدها رجالاً على صهوة جيادهم، وأخيراً، وبعد أن ذهب إلى الدير، قديسين ورجالاً على الصليب.

و ذات يوم مر به راهب في المرعى وقال له: «يا بني كان أحرى بك ألا تعمل راعياً. خير لك أن تكون راهباً. نعطيك الخشب وتصنع لنا أيقونات». تسلمت الشمس من النافذة. خرج إليها مانولي، وجلس تحت أشعتها ليذيب ما ببدنه من تصلب. وبعد أن استعاد الدفء عاودته أحلام ليلة البارحة.. نهر من الشعر الذهبي، واقشعر بدنه. وغمغم:

- يسوع ربي.. لا تدعني أستسلم للغواية.

أحس ببعض السكينة، ونهض من مكانه، وأوقد ناراً، ثم اغترف قليلاً من اللبن من الدلو ووضعه على النار وشربه. استرد بعض قوته. وخرج بعدها وجلس فوق مقعد حجري في فناء الحظيرة. كانت الشمس على بعد ذراع من الأفق، وبدأ العالم يصحو من نومه، وتألق الجبل تحت ضوء الشمس. وتناهى إليه على البعد صوت نيكوليو يسوق الأغنام. وتمتم:

- ها أنذا على ما يرام الآن. والغواية تأتي ليلاً، وها هي الشمس أشرقت والحمد لله.

وتلفت حوله، ووقع بصره على كتلة خشب عند الباب مقطوعة من ساق شجرة وخفق لها قلبه فرحاً. وانحنى عليها وأخذها بين يديه وأسندها إلى ركبتيه، ومسح عليها بيده. كانت كبيرة مستديرة وكأنها رأس. وبدت أليافها معوجة ومتشعبة كأنها العروق في هذا الرأس. أحس مانولي بأكلة تدغدغ أطراف أصابعه. ونهض فجأة، ودلف إلى الكوخ..

وأحضر منشارًا صغيرًا وأزميلًا ومبردًا. ورسم علامة الصليب في عجلة، وقبل قطعة الخشب وبدأ يعمل فيها يده.

اقتربت الشمس من سمتها، ولا يزال مانولي منصرفًا إلى عمله، منكبًا على قطعة الخشب التي احتضنها إلى صدره. نسي تمامًا ما يعانیه من إرهاق. والهواء الطلق نقى الأرض تمامًا، وحأكت في نقائها السماء. وولت الغواية الأدبار. كانت لينيو بعيدة عنه، بعيدة جدًا إلى ما وراء الشمس. وكذلك الأرملة ولت عنه. انتحت ركنًا قصيًّا مظلمًا في أرض المرعى على هيئة نسج العنكبوت.

كان مانولي يحفر هائمًا بوجدانه مع قطعة الخشب، عيناه تبصران إلى مكنون ذاته. وأضحت روحه كلها عينًا يبصر بها.. يتأمل في سويداء قلبه وجهًا هادئًا، كله رقة وسكون وأسى. حاول مانولي أن يصور بصدق وأمانة ما يراه بعين بصيرته.. الوجنات الغائرة، والنظرات الحزينة المتألّمة، والجبين العريض وانعقدت عليه قطرات غليظة من الدم.. وجرحًا بين الحاجبين، لا تراه في الأيقونات وإنما يبصره مانولي وحده.

كان العرق يتصبب من جبهته. جرح إصبعه بالأزميل، وصيغ دمه الخشب بلون أحمر. ولكن لم تفر همته. كان متلهفًا على محاكاة الوجه المقدس وتثبيته على الخشب قبل أن يتوارى من أمامه.

بينما كان يعمل في الخشب حفرةً بصورة محمومة، ظهرت عند أول الطريق امرأتان.. فتاة يانعة الصبا تتبعها عجوز لفت وجهها بمنديل أبيض، عندما أبصرت الفتاة مانولي، استدارت إلى العجوز ووضعت إصبعها على شفيتها. وتقدمت الاثنتان خلسة وعلى حذر، شغوفتين بمعرفة ما الذي يفعله مانولي واستولى على لبه. ولكن حدث أن تعثرت قدم المرأة العجوز، فتدحرج حجر، بيد أن مانولي كان غارقًا في عمله حتى أنه لم يسمع شيئًا.

لم تستطع الفتاة أن تكبح جماح مشاعرها، فأسرعت الخطو ولمست كتف مانولي وصاحت:

- أهلاً بك يا مانولي.

وثب في مكانه. وفارقه الصورة المقدسة. أحس بنفسه خائر القوى متهاكاً فاستند إلى الجدار، ورأسه ملقى إلى ظهره.

- ماذا بك يا مانولي؟ لماذا تنظر إليّ هكذا بعينين زائغتين كأنك تبصر عفريتاً؟
إنني أنا يا مانولي.. أنا لينيو خطيبك، وها هي خالتك الأم ماندالينا. أتت لترقيك.
وتقدمت العجوز لاهثة الأنفاس. وقالت:

- مؤكدا يا طفلي أن شيطاناً أو ما شابه ذلك مسك بأذى.

تطلع إليها مانولي فزعاً.

وأخيراً سألهما وهو يقلب كتلة الخشب ليدير وجهها إلى أسفل:

- ماذا تريدان؟

كانت العجوز على وشك أن تجيب، إلا أن لينيو دفعتهما جانباً، وقالت:

- اتركينا قليلاً يا أم ماندالينا. اذهبي أنت واجمعي ما تحتاجين إليه من العشب ودعينا وحدنا. أريد أن أفضي إليه بكلمة على انفراد.

وانصرفت العجوز بادية التأفف، تبحث عن نباتها. وانزلقت لينيو بجسدها فوق المقعد الحجري وجلست ملاصقة لخطيبها.

أمسكت بيده وقالت بصوت رقيق:

- مانولي. أدر لي وجهك وانظر إلي. ألم تعد تهواني؟ ألم تعد تحبني؟

وأجاب مانولي بصوت هادئ:

- أحبك.

- متى ستتزوج؟

لاذ مانولي بالصمت. فما أبعد الشقة بين زواجه وأفكاره التي كانت تشغله في

تلك اللحظة، الإله القوي القدير.

- لماذا لا تجيب؟ أنبأني السيد بكل شيء.

قال مانولي وهو يشب واقفاً:

- وددت لو أنك لم تأت إلي هنا.

وصاحت لينيو وتوقدت وجنتاهما:

- أحسب أن الأفضل أن أستاذذك أنا أولاً. فلم تعد زوجي بعد. ولا زلت خلية.

ونهضت من مكانها ووقفت قبالة. وبسطت ذراعيها، وقالت: له بصيغة أمرة:
- لا تنصرف.

استند مانولي إلى الجدار وانتظر. وأخذت لينو ترقبه، وبين جوانحها حب
وكرامية يتصارعان. وأخيراً قالت بصوت مخنوق:

- لم تكن أُمي سوى خادم.. أما أبي فكان نبيلًا. لن أفرض نفسي على أي
إنسان. أملك صداقي، وأملك شبابي، وسوف أجد من هو خير منك.

ضم مانولي كتلة الخشب المحفورة إلى صدره بقوة حتى ألمته.
- كما تشائين يا لينو.

قالها مانولي بهدوء ظاهر، بينما قلبه يدق بشدة وكأنه يوشك أن ينفجر. ولم
يكذب يلفظ بكلماته القاسية حتى أحس بالأسى لما قاله، ووهنت عزمته.
ونكس رأسه وعاد يقول:

- لينو.. دعيني وحدي هنا لأيام قلائل حتى أحسم أمري. إن كن حبك لي
صادقًا فافعلي ذلك من أجلي.

- آه... هل تحب غيري؟ من؟ أبني لي ثم أنصرف.

- لا. لا يا لينو. أقسم لك أنني لا أحب سواك.

- حسن جدًا.. وإذا ما حسمت أمرك فأبني بما انتهيت إليه. سأنتظر.. ولكن
من الخير أن تعرف- ربما أحبك ما حييت، وربما أكرهك ما حييت.. وهذا
يتوقف على كلمة منك.. إن نعم أم لا.. ولك أن تختار.

واستدارت ناحية المرأة العجوز ونادت عليها:

- هيا يا أم ماندالينا، فإننا سننصرف.

وانطلقتا، سارت لينو في المقدمة مهتاجة لم تحاول أن تلقي وراءها بنظرة
واحدة. وثار في عروقها دم الكبرياء الذي ورثته عن أبيها.

تهاوى مانولي فوق المقعد الحجري. وأخذ يتطلع إلى كتلة الخشب التي
أمسك بها بين يديه. لم تعد به أدنى رغبة في معاودة الحفر. خبت النار في نفسه
واختفت من مخيلته الصورة المقدسة.

وعاد إلى الكوخ، ولف كتلة الخشب بخرقة بالية متأنياً كأنما يوارى جذوة

برماد يخشى أن تنطفئ. لم يعد يطيق البقاء وحيداً، إذ بدأ يشعر بالاختناق. فتناول على عجل عصا الرعي، وأخذ طريقه إلى حيث يلحق نيكوليو والماشية.

كانت الشمس تصب أشعتها عمودية على الجبل. همدت الأنفاس، وتوارت الظلال فزعة تحت أقدام الأشجار، وقبعت الطيور في أوكارها خرساء تنتظر زوال الهلع.

وأحس نيكوليو فجأة بأنه يفيض قوة وعنفواناً. تلفت حوله بحثاً عن إنسان أو شيء بنفس معه عن هذا العنفوان الطامي. لا شيء، ولا أحد. لا رجل يعاركه، ولا امرأة يطرحها على ظهرها فوق العشب. والماشية دوخها القيظ فلاذت بظل شجرة سنديان، وعار عليه أن ينازلها. ولكن ها هو آت زعيمها الكباش داسوس بقرنيه الطويلين الملفوفين، وإليته الثقيلة الشحيمة، وجرس الزعامة الكبير حول رقبته. ألقى نظرة جامدة إلى أغنامه الغافية تحت الظل، وثغا راضياً، ثم انصرف عنها متثاقلاً في مشيته، ملكاً متأنياً متغطرساً في خطوته. وعقب الجو برائحة الذكورة. وانقض عليه نيكوليو كنما فقد صوابه فجأة، وضربه ضربة مغيظة بعصاه على قرنيه وظهره وبطنه.

وفي كبرياء وتعال، استدار له الذكر المستهين. بداله خصمه جرواً - لا قرون، ولا إلية ثقيلة، ولا شيء سوى قدمين يمشي عليهما. يكفيه نطحة خفيفة تطرحه أرضاً. لذا فقد أثر، مترفعاً أن يواصل تطوافه بين الأغنام.

تبعه نيكوليو، وأمسك بقرنيه، ومال على ظهره. وهنا ضاق به داسوس، وهز رأسه، وألقى بالراعي الصغير على الأرض.

صاح نيكوليو، وهو يحاول أن يشب واقفاً، والدم ينزف من مرفقيه:

- يا خنزير.. ويل لك.

ثنى رقبته بين كتفيه، وأحنى رأسه، وانقض عليه لينطحه. وكذلك فعل داسوس. وداخ نيكوليو من أثر الصدمة. دار حول نفسه وبدأ الجبل يدور معه أيضاً. بيد أنه استطاع أن يحفظ توازنه، والتقط عصاه. واندفع حائقاً نحو الحيوان، وضربه كأنما يريد أن يحطم قرنيه.

وفي هذه اللحظة ظهر مانولي. وضع إصبعيه في فمه وصفر. استدار نيكوليو وأبصره، بيد أنه كان ثائرًا مهتاجًا، ولم يستطع أن يكبح جماح نفسه ويقف، فانقض ثانية على الكبش. التقط مانولي حجرًا وقذفه به.

وصاح:

- إيه يا نيكوليو. هل أنت في مصارعة مع الكبش؟ تعال هنا.
جاءه نيكوليو، متدمرًا متوعدًا متصبيًا عرقًا. أسند الاثنان ظهريهما إلى صخرة، وكان الراعي الصغير يصعد زفرات الغضب وتفوح منه رائحة الكبش. وبين الحين والحين يصفر بفمه أو يقذف بحجر، في محاولة منه لكي يخفي غضبه الذي يحتدم أواره في أعماق نفسه: انتصر عليه داسوس وأذله.

كانت نظرات مانولي تائهة في السماء، يحاول جاهدًا أن يستعيد لنفسه هدوءها وطمأنيتها ويسترد لقلبه الصورة المقدسة التي كان يحفرها على الخشب. سحر هذا الصباح. نسيان آلامه.. غياب وجدانه عن العالم.. كانا وحدهما بين السماء والأرض. هو وكتلة الخشب، ثم سمع فجأة صوت امرأة وشفتان مكتنزان.

- «إيه يا نيكوليو.. انزع الناي من حزامك واعزف لنا شيئًا.. فأني لست على ما يرام يا صديقي. روحي تائهة، أضناها الهم. اعزف لنا شيئًا، لعل في ذلك شفاء لروحي».

وضحك الراعي الصغير وقال:

- وأنا مثلك يا مانولي، روحي تائهة أضناها الهم أيضًا. تلم بي لحظات أشعر معها بأني على وشك الانفجار. ألجأ إلى نايمي، أعزف عليه، فلا تجد روحي شفاء في ذلك. ولهذا صارعت الكبش.

- وماذا يظنك حتى تكون روحك تائهة؟ أنت لا تزال حدثًا لم يسود فوداك.

وأجاب الغلام بحماسة ملتبهة:

- لياخذني الشيطان إن كنت أعرف. ولكن عندما أكون وحيدًا يا مانولي.. آه

يلم بي الحزن.

ونزع الناي، ووضع أطراف أصابعه البرونزية فوق ثقبه.

- هل يحضر لك لحن يا نيكوليو؟

- أنا؟ أبداً. إني أعزف اللحن كما يواتيني.

وضع طرف الناي بين شفثيه وبدأ يعزف.

غطت الماعز والأغنام المنحدرات، وتردد بين جنباتها رنين الأجراس: خرج الجبل إلى المرمى. دبت الحركة بين أهل القرية، وانسابت ماء الجداول صداحة، تشب من حجر إلى حجر. ورويداً ورويداً خفتت أصوات الجداول وأجراس الماشية والجبل، لا، لم تخفت أصواتها، بل كان يعتمل بداخلها ضحك حلو طروب منعش.. فعلى مرمى البصر يمتد بحر متناغم الأمواج، وشاطئ تناثرت فوقه الأصداغ.. وثمة نساء باسمات الشجر يستحمن.. السيقان والأذرع على امتدادها متباعدات. ألقين بأنفسهن في الماء، وعكرن صفو الأمواج، فطوحت بهن فوق الشاطئ، وندت صيحات قصيرة، والشاطئ دغدغته فرحة، وشاركهن الضحك.

أرهف مانولي السمع منظوياً على ذات نفسه مبهوراً. ترددت أصداغ ضحكات النساء مجنونة على طول الشاطئ، تعلو وتهبط ثم تتناهى إلى سمعه ثانية ممزوجة بأصوات الموج. وأخيراً سكت كل شيء، وخرجت كاترينا من البحر عارية.

وصاح مانولي وهو يشب في مكانه:

- «حسبك. كفى هذا».

أدار نيكوليو رأسه ينظر إليه، ولكنه واصل العزف. هامت روحه هو الآخر مع الموسيقى. كان يمسك بالناي بقوة، يضغط عليه بين شفثيه.

وعاود مانولي كلامه:

- قلت لك كفى.

رفع نيكوليو الناي عن شفثيه وأراحه على ركبتيه وقال:

- قطعت عليّ سباق اللحن في أحسن لحظاته.

وفاضت عينا مانولي بالدمع.

- ارتد الراعي الصغير إلى الوراء وصرخ:

- ماذا يا مانولي؟ أتبكي؟ تعال. لا تحزن، إنه الناي ولا شيء آخر، كل هذا

ليس من الحقيقة في شيء، إنه مجرد هواء.

أراد مانولي أن يخطو بضع خطوات ولكن خائنه ركبته.
وغمغم قائلاً:
- أشعر بأنني لست على ما يرام.
وسأله الراعي الصغير مبتسماً:
- هل سمعت صوت المياه؟
- أي مياه؟
- سرح خاطري إلى الماء أثناء العزف.. مياه كثيرة، ذلك لأنني كنت ظمآنًا.
ثم في وثبة واحدة كان عند أسفل شجرة السنديان، حيث علق عليها محجمته.
كان مانولي أهداها له، ونقش عليها صورة جدي.
وقال مانولي لنفسه:
- سأذهب حيث أنام فإني أرتجف..
ونادى نيكوليو:
- تنبه للماشية فإني ذاهب لأصنع الجبن.
وأجاب نيكوليو وهو يمسح عن شفتيه صدره الماء الذي تساقط عليهما.
- أعددت النار. اغل اللبن، وسوف آتيك الآن.
تطلع إليه وهو يسير مترنحاً فوق الحجارة، وأحس بالأسى عليه.
وصاح ثانية:
- إذا كنت على غير ما يرام فنم، ودع لي الجبن أصنعه أنا.
- لماذا تقول لي هذا الكلام؟
- ذلك لأن قدماك يا سيدي تدوران حول بعضهما، وتبدو شاحبًا.
وأخذ يرقب مانولي وهو يسير في طريقه مترنحاً حتى غاب عن ناظره وراء
أشجار السنديان. وأنس في نفسه تعاطفًا معه وتمتم قائلاً:
- مسكين.. أبصرت لينيو قادمة على البعد.. عليها اللعنة. ستمتصك حتى
النخاع يا صديقي العجوز.
والتقط حجرًا وقذفه بعيدًا في غضب. وصاح بأعلى صوته.
- اللعنة على الإناث.

أبصر داسوس يمشي أمامه بخطوات استفزته. أمسك بقرنيه، ولوى رأسه الضخم بعيداً عنه، ثم ألقي بنفسه فوق ظهره.

عندما وصل مانولي إلى أرض الحظيرة، أضرم النار ليصنع الجبن، ولكنه كان متهاكاً. جلس على المقعد الحجري تحت الشمس ليستعيد الدفء، إذ كان يرتجف. كانت الشمس تميل ناحية الأفق. وبعد دقائق سمع أصوات أجراس تقترب وصيحات نيكوليو وصفيره وهو يحوط حول البهائم يسوقها إلى الحظيرة ويقذفها بالحجارة.

حلقت أفكار مانولي بعيداً، وهبطت إلى القرية.. طافت بالبيوت والمقهى والميدان، ثم أخذت طريقها إلى المنحدر، وانسلت داخل بيت القسيس، ورأى الأعيان يوزعون الأدوار - من يقوم بدور بطرس، ومن يهوذا، ومن المسيح.. ثم رأى ثانياً القسيس فوتيس والمسيحيين الذين انتزعوا من ديارهم، ومبارزته الكلامية الأليمة مع القسيس الآخر، والمرأة التي صرخت ثم أسلمت الروح.. ورنّت في سمعه من جديد كلمات ياناكوس الساخرة القاسية «ها أنت ستمثل دور المسيح وفي نفس الوقت تنهياً للزواج وتدنيس نفسك.. يا للرياء». وارتقى السلم إلى حجرة سيده ورآه. ثم نزل إلى الفناء، تعلقت به لينيو، ثدياها يرتكزان على صدره، تسأله بصوت كله زلفى وإلحاح: «مانولي.. متى نتزوج؟ متى؟ متى؟» ثم بعد أن غادرها في طريقه إلى الجبل توقف لحظة يلتقط أنفاسه عند البئر.. وذاب قلبه. وغمغم:

- أشعر بالأسى عليها.. آسف لها.. سلكت طريق الشيطان، إنها هالكة...
أشرفت صورتها في ذاكرته - وشاح أسود، جيد مرمرى، شفتان رقيقتان عنيت بدهانهما بأوراق شجر الجوز.. وسمع من جديد صوتها يستعطفه في يأس:

- لا تذهب يا مانولي.. لا تذهب.

كأنها تظن خلاصها رهناً به وحده.

وفي ومضة خاطفة تذكر حلمها، وخيل إليه أن تأويله بات واضحاً. نعم، نعم، كانت على حق هذه المرأة التعسة. إنه وحده القادر على خلاصها. هتف لها الله

بنفسه في منامها بذلك. مانولي يمسك بالقمر بين يديه كأنه تفاحة، يقطعه شرائح ويقدمها لها لتأكلها.. وفجأة وضع له المعنى الخفي للحلم، وارتجف. القمر هو النور الخالص، كلمة الرب التي تنير ظلمة الليل... إنه إرادة الرب، وأمر من لدن الله أن يشاركها مانولي فيه. إنه هو الذي قدر له أن يخلص مريم المجدلية الآثمة. وغمغم:

- يجب أن أراها.. نعم، يجب ذلك سريعاً. فكل دقيقة تمر قد تدفعها أكثر إلى هاوية الخطيئة.. يجب، يجب.. هذا واجبي.

إنه يستطيع أن يرى الدرب الضيق الذي تسكن فيه، ومدخل البيت المبني على هيئة قوس، وطلاء الأخضر، والطوق الحديدي.. ويستطيع أن يرى عتبة الباب الحجرية نظيفة لامعة.. لم يسبق له أن اجتاز هذه العتبة، ولكنه تذكر أنه ذات يوم، من أيام الأحاد، مر بالباب وكان مفتوحاً، واسترق نظرة إلى الداخل.. لحظ فناء صغيراً رصفت جوانبه بقطع من الحجارة مغسولة، وبعض أصص الورد- ريحان جميل- رصت على الجدار الواطئ الذي يحيط بالفناء، ومجموعتين كبيرتين من القرنفل الأحمر قرب البئر..

اتخذ فكر مانولي طريق الجبل هابطاً، وبلغ القرية، وسار عبر الدرب الضيق، واجتاز العتبة ودخل..

طبق يردد بينه وبين نفسه:

- «يجب أن أراها، يجب أن أراها.. هذا واجبي».

استشعر نشوة غريبة.. عرف الآن أن رؤيته لها أمر لازم، إنه أمر من لدن الله وليس من ذاته، وارتاحت نفسه. أدرك الآن لماذا كانت تحاصره وتلح عليه ليل نهار الرغبة في الذهاب إليها ورؤيتها.. كان يستشعر الخجل ويقاوم وقتما كان يعتقد أن الشيطان هو الذي يحضه على ذلك، أما الآن..

هب واقفاً.. لم يعد يشعر بالبرد. وكفت ركبتاه عن الارتجاف، أوقد النار ووضع عليها القدر، وغلى اللبن.. وقال لنفسه:

- ما أعجب السبل التي يتخذها الرب لينير روح الإنسان. تدبر.. استحالت

إرادته هذه المرة إلى حلم وتنزل على وسادة الأرملة..

أقبل نيكوليو. وبدأت الأغنام تدخل حظيرتها، وامتأل الجو بشغائها. كانت الشمس تأذن بالمغيب راضية مطمئنة، أنهت يومها، وها هي عائدة إلى خدرها..

صاح مانولي من داخل الباب بصوت صاف:

- أهلا نيكوليو. اذهب واحلب النعاج ثم جهز لنا الطعام. إني جوعان.

لم يأكل شيئاً سحابة نهاره، إذ كان حلقه منقبضاً لا يستطيع أن يمر خلاله طعام. أما الآن، وقد تراخى، عادت إليه شهيته.

نظر إليه نيكوليو وقهقهه عالياً:

- عادت إليك الحياة يا سيدي. هل من أخبار سارة؟

- إني جائع. عجل. سأعاونك.

أحضرا الدلاء النحاسية، وأقعيا جنباً إلى جنب، وشرعا يحلبان النعاج، الواحدة بعد الأخرى. وقفت النعاج هادئة مسرورة إذ تتخفف من حملها الوفير.

وخالت الأصابع الماهرة شفاها حبيبة ترضعها.

واغتسلا بعد أن فرغا من عملهما. ورشما علامة الصليب، والجوع بعضهما، ثم انقضا على الخبز واللحم والجبين الأبيض. ولا زال نيكوليو مهموماً يفكر في الكبش القوي ولينيو. كلاهما معاً موضع حفيظته، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، زعيم القطيع، والفتاة اللحيمة. أصبحا الآن شيئاً واحداً. أحياناً يرى لينيو وهو فوقها، ركبها وباعد بين ساقيه، وأحياناً مستلقية تحته وهو يبتسم..

وغمغم متأففاً:

- عليها اللعنة.. عليها اللعنة..

والتقط حجراً وطوح به بعيداً في الهواء.

وسأله مانولي مبتسماً:

- إيه يا نيكوليو، علام الغممة؟ من الذي تقذفه بالحجارة؟

وأجاب الراعي الصغير مبتسماً هو الآخر:

- الشيطان يحوم حولي، وأنا أرحمه بالحجارة.

- هل رأته يا نيكوليو؟

- نعم، رأيته رؤيا وهمية.

- ما شكله؟

- هذا سر.

واندفع الراعي الصغير إلى دلو الماء وغمس فيه وجهه الذي تدافع إليه الدم.

بعد أن فرغ مانولي من طعامه رسم علامة الصليب ونهض من مكانه. قال:

- نيكوليو. سأنزل إلى القرية هذا المساء. أتمنى لك حظًا سعيدًا.

وصاح نيكوليو غاضبًا:

- القرية ثانية، ماذا ستفعل هناك الآن؟ أعتقد يا سيدي أن الشيطان كان يحوم

حولك أنت أيضًا.

- ليس الشيطان يا عزيزي نيكوليو، لتحفظنا السماء، إنه الرب.

وأخرج امرأة صغيرة من جيبه، وبلل شعره ومشطه. ثم ارتدى أحسن لباسه،

ثياب يوم الأحد.

ودس مرآته الصغيرة ومشطه ومنديله في حزامه. لماذا؟ ما حاجته إليهما؟ هل

يعلم؟ كل ما حدث أنه أخذهما، بلا سبب، وأخفاهما في حزامه.

وعاود الغلام كلامه غاضبًا، وهو يرقب مانولي يحمل نفسه:

- إنه الشيطان كما أقول لك.

وردد مانولي ما قاله:

- إنه الرب. الرب.

ورشم علامة الصليب ورحل عنه.

وغمغم نيكوليو:

- مؤكد أنه ذاهب إلى لينيو.. ليأخذ الشيطان كليهما.

وبصق في اشمئزاز.

الشيطان وقناع المسيح

كان الليل يرخي أستاره. وطيور الليل تصدح.. لا تدري جوعًا أم عشقًا.
وبواكير نجوم المساء تسطع في السماء.

سار مانولي الهويني، هابطًا الطريق الملتوية، وقال لنفسه:

- يحسن أن أنتظر حتى تشتد ظلمة الليل إذ يجب ألا يراني من في القرية.
وبينما كان سائرًا في طريقه أخذ يعيد علي سمعه ماذا عساه أن يقول حتى تبلغ
كلمة الرب فؤاد الأرملة. كان يخمن قائلًا: «سأطرق الباب، وتأتي لتفتح لي..
ستبتهت لمرآي، وتغلق الباب بالرتاج، وندخل سويًا..» سبق له أن رأى الفناء،
وأزهار القرنفل والريحان، وحافة البئر - ولكن ماذا بالداخل؟ وتملك الخوف
مانولي. فوقف يلتقط أنفاسه. وسرت قشعريرة في بدنه. وقال لنفسه: «هناك
بالداخل.. سيكون المخدع..».

وتشوش فكره. لم يعد يعرف ماذا ينبغي أن يقول، ولا حتى لماذا يهبط من
الجبل في مثل هذه الساعة ليترك بابها عند منتصف الليل. ستراه وعلت وجهه
حمرة الخجل، وتغيرت سحته، فضحك لذلك. ربما تقول له «ها أنت ذا يا
مانولي. ولعلك أنت نفسك لا تعرف ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ترى هل رأيت
حلمًا في منامك أنت أيضًا؟ هل تراءى لك الشرير في منامك يا مانولي؟ أم ترى
كانت مريم العذراء؟ أو ربما كلاهما معًا.. فإن مثل هذا يحدث أحيانًا يا مانولي.
ولكن ها أنت أتيت، وستبدأ كلامك معي بالحديث عن الرب والفردوس، ثم بعد

ذلك، رويداً رويداً، دون أن ألحظ أنا أو أنت ذلك، سنجد أنفسنا يا مانولي وجمعنا مخدع واحد، والتصقنا ببعضنا.. فأنت رجل، أليس كذلك؟ وأنا امرأة. هكذا خلقنا الله، وهكذا أراد لنا. فهل يكون خطؤنا نحن إذا ما حدث، ونحن ملتصقان، أن دارت رؤوسنا، وطاش صوابنا، ففتحنا ذراعينا وساقينا وأصبحنا جسداً وحداً.. أحس مانولي بالدم يتدافع إلى رأسه. رنت هذه الكلمات الفاجرة في رأسه، وسمع الأرملة تنفوه بها بوضوح كامل، وهي تبتسم وتقترب منه حتى تلتصق به.. ها هو يتنسم أنفاسها عبقة بعطر المسك والقرنفل. وتفوح من صدريتها المفتوحة رائحة جسدها الدافئ. ممزوجة برائحة العرق وجوز الطيب..

وفجأة أحس بالإعياء، وخانته ركبته، فخر منهوك القوى فوق صخرة. وسأل نفسه في هلع «من ذا الذي كان يتحدث إليّ بداخلي؟ من ذا الذي كان يضحك؟ ركة من تلك التي لامستني فجعلت ركبتي تدوران حول بعضهما؟» سمع حقاً تلك الكلمات، ورنّت في أذنه ضحكات الأرملة، ولا زالت رائحتها تزكم أنفه.

وصاح وهو يرفع عينيه إلى السماء مبتهلاً:
- عونك يا إلهي.

ولكن بدت له السماء هذا المساء عالية شاهقة، تفصلها عن الإنسان مسافة بعيدة غاية البعد، خرساء، غير مبالية، لا هي بالصديق ولا هي بالعدو. واستبد به الهلع. النجوم ترقبه. وتجمد قلب مانولي. كان في بعض أمسيات الشتاء يبصر حول الحظيرة وبين الأغصان التي غطاها الثلج عيون الذئاب جامدة ساهرة يقظى في حذر، وبدت له النجوم هذا المساء وكأنها عيون الذئاب.

عاودته ذكرى الأرملة من جديد، تسري في دمه حلوة كأنها العسل. وجد فيها عزاء جميلاً إزاء ما يعانیه من إحساس بالكآبة وعداء العالم له. صمتت الآن عن الكلام أو الضحك. واستلقت فوق مخدعها جذلة تهدل كورقاء تذكر الجميل.

سد مانولي أذنيه. كانت رأسه تطن وشرابين رقبته تبرز وتنتفخ. إنه يكاد يشعر بالدم يتصاعد حاراً ملتهباً إلى رأسه. صدغاه يختلجان في عنف، جفناه يثقلان، وأحس بوخز يغطي صفحة وجهه وكأن آلافاً من النمل تعض وجنتيه وذقنه

وجبهته، وتنهش لحمه.

وتصبب عرق بارد غطى جسده كله. وتحسس وجهه براحتة، وهب واقفاً:
- «يا إلهي».

حاول الصراخ فلم يستطع. عاد ثانية يتحسس وجنتيه وشفتيه وذقنه، بدت له
منتفخة متورمة، شفتاه ممطوطتان حتى إنه عجز عن أن يفتح فمه.
- «ماذا دهاني؟ لماذا تورمت؟».

كان يسأل نفسه، ويتحسس في يأس صفحة وجهه من أعلى إلى أسفل نازلاً
إلى عنقه. أصبح وجهه كله كأنه طبلة، ولكنه لم يكن يشعر بألم. كل ما شعر به أن
عينيه التهبتا وبدأ يفيض منهما الدمع.
وأخذ يلهث.

- «يجب أن أرى، يجب أن أرى.. أريد أن أعرف».
أخرج المرأة من حزامه، وانحنى عليها، وأشعل غصناً، ونظر إلى نفسه..
لمح وجهه على ضوء اللهب المتراقص وصرخ، ألفاه منتفخاً كله، عيناه خرزتان
صغيرتان، وفمه ثقب، وأنفه ضاعت ملامحه وسط وجنتيه المنتفختين كالبالونة.
لم يكن وجهه بشر، بل قناعاً منفراً قد من لحم بهيمة. لا. لم يعد وجهه، إنه وجه
غريب التصق فوق وجهه.

وخطرت بذهنه فكرة مباغته.

- «يا إلهي هل هذا هو الجذام؟».

وهوى إلى الأرض.

وأمسك بالمرأة، وأشاح بوجهه على الفور في فزع. «ماذا؟ أهذا بشر؟ لا، إنه
شيطان». ونهض. «لا أستطيع الذهاب الآن.. كيف يمكنها أن تنظر إلى وجهي؟
كيف يمكنني أن أتحدث إليها؟ شكلي مروع. سأعود من حيث أتيت».
واستدار، وارتقى الطريق عدواً كأن ثمة من يطارده.

وتوقف عند الحظيرة ودخل خلصة، يرتعد فرقا كلما ظن أن نيكوليو قد يستيقظ
ويضيء المكان ويراه.. «غداً صباحاً، ربما أبرأ مما أنا فيه بعون الله..» واطمأنت
نفسه قليلاً لهذا الخاطر.

وافترش الحصير، ورشم علامة الصليب، وتضرع إلى الرب أن يرأف به وقال:
«إلهي اقتلني إن كانت هذه مشيئتك، فالموت عندي خير ألف مرة من حياة الذل
أمام الناس.. لماذا شئت قدرتك أن تلتصق هذا اللحم على وجهي؟ انزعه عني
يا إلهي، اطرحه عني بعيداً. أسألك أن تعيد وجهي مع الصباح إلى سيرته الأولى،
نظيفاً إنسانياً».

بعد أن وضع ثقبته في الله، استشعر بعض العزاء، أغمض عينيه، ورأى فيما يرى
النائم امرأة متشحة بالسواد- لا بد أنها العذراء المقدسة- انحنت عليه، وربت
على وجهه بيدها في رفق وحنان. وسرعان ما أحس به غصاً خفيفاً، ومد مانولي
ذراعيه وأمسك باليد المقدسة وقبلها. ولكن رنت ضحكة ساخرة حلوة، وسقط
النقاب الأسود، واستيقظ مانولي من نومه صارخاً. لم تكن العذراء بل الأرملة.
وفي الركن المقابل، سمع نيكوليو الصرخة واستيقظ عليها. قعد فأبصر سيده
ووجهه إلى الحائط. وبدأ يضحك. وقال متبرماً:

- لماذا عدت يا مانولي؟ هل فرغت من مهمتك؟

ولكن مانولي أخذ يتحسس وجهه الذي اتجه به إلى الحائط. أحس باليأس.
لم يزيله الورم أبداً، بل لا بد أن ثمة جروحاً ظهرت عليه، إذ إن أطراف أنامله قد
بللها سائل لزج كثيف القوام.

واستلقى على بطنه، ودس وجهه في الوسادة.

ولكن نيكوليو تهادى في سؤاله:

- هل استمتعت يا سيدي؟ هل سارت أمورك على خير ما تحب؟. نعم،
بالطبع نال منك التعب أيها الصديق المسكين.. نم.

وغمغم مانولي:

- هلكت.. هلكت.. لا بد أنه الجذام.

شقق الصباح. وهب نيكوليو من نومه على الفور ليسوق الأغنام إلى
المرعى. كان الراعي الصغير على وشك الخروج من الباب حين استدار ورآه.
كانت شعاعات النهار الأولى انسلت من النافذة وأضاءت الكوخ. قال له:
- مانولي.. إلى اللقاء هذا المساء.

استدار مانولي ليجيب، وكان قد غفل تمامًا عن الحالة التي كان عليها. أبصره نيكوليو وقفز إلى الفناء. ثم عاد إليه وهو يصرح:
- يا سيدتنا العذراء.

كان وجه مانولي يطفح بالقدارة. تكسوه غضون يسيل منها الصديد. حاول أن يتكلم ليهدئ من روع الراعي الصغير، ولكنه عجز عن أن يتفوه بحرف واحد. كل ما استطاع أن يفعله هو أن لوح بيده ليطمئنه.

أسند نيكوليو وجنته إلى قائمة الباب، وجسمه إلى الخارج مستعداً للهروب. أحس بأنه عاجز عن أن يصرف نظراته الفزعة عن ذلك الوجه، ورويداً ورويداً، استعاد جرأته، واطمأنت نفسه. وقال:

- هل أنت مانولي بحق السماء؟ أوشم علامة الصليب حتى أكون على يقين من أمرك.

وشم مانولي علامة الصليب. استجمع نيكوليو شجاعته من جديد وأخذ يشم علامة الصليب على العتبة، مرة بعد أخرى، ولكن دون أن يقترب.
وسأله في حنان:

- ماذا دهاك يا رفيقي المسكين؟ لا بد أن الشيطان تلبسك وترك عليك هذا القناع. اللهم احفظنا. إنه الشيطان كما أقول لك. هذا مؤكد. حدث نفسي الشيء لجدي.

هز مانولي رأسه واستدار ناحية الحائط حتى لا يخيف رفيقه الصغير. وأوماً إليه بأن ينصرف.

وعاد نيكوليو يقول في وجل:

- إلى اللقاء هذا المساء.

وهول خارجاً كأن ثمة من يتعقبه.

تأوه مانولي بعد أن أصبح وحيداً ثم نهض من فراشه. أحس بقوة في بدنه، وزايله الألم. فارقه الرعشة، ولكن الأغرب من ذلك، أنه آنس في نفسه بهجة غامرة لا يجد لها تفسيراً.. عاد وأمسك بمرآته الصغيرة واقترب من النافذة ونظر إلى صورته: تشقق الجلد المتورم، وسال منه سائل أصفر لزج، تجلطت بعض

قطرات منه على شاربه ولحيته. كان وجهه كله أحمر في لون الدم كأنه قطعة لحم. وشم علامة الصليب، وقال بصوت خفيض كأنه مناجاة:

- يسوع ربي، إن كان هذا من عند الشيطان فأني أسألك أن تطهرني منه، وإن كان من عند الله فمرحبا به، فأني على يقين أنه لا يضمّر لي شرًا. لا بد أن لبلوأي حكمة لا أعلمها. سأتجمل بالصبر حتى يمس ييده سبحانه وجهي.

استشعر السكينة بعد أن أعطى لبلوأي هذا المعنى. أوقد نارًا، ووضع عليها القدر، وصب فيها اللبن الذي احتلباه البارحة. كان يشعر بالجوع فملاً منه ملعقة. لم يستطع فتح فمه. لذلك أمسك بوصة وغمسها في اللبن وبدأ يمتص بها اللبن ويشربه في سراهة.

ثم خرج وجلس على المقعد الحجري.

كانت الشمس أيقظت الطيور في أوكارها، وملأت حلقها الصغيرة بالنغم. وبعد أن اعتلت قمة الجبل، بدأت تزحف في هدوء وسكينة.. نشرت أشعتها فوق المنحدرات والسهل، وفتحت أبواب القرية وانسلت منها. رأت الأرملة لا تزال في مخدعها بعد ليلة مسهدة، يعلو وجهها الشحوب، وتسالت خلصة إلى شعرها. ورأت ماريوري في فناء بيتها منهمكة في ري زهورها، فطبتعت على جيدها قبلة خاطفة. ثم أخذت طريقها إلى كل نساء القرية تتطلع إليهن بنفس الطريقة، تدلهن كأنها عاشق.

وأخيرًا اتخذت لها مكانًا على المقعد الحجري قبالة الحظيرة، ومد إليها مانولي يديه مرحبًا وتساءل:

- من أين لي هذه البهجة التي أحس بها؟ ما سر هذه الراحة؟ لست أدري.

ومسح بمنديله وجهه المتورم، الذي كان ينز في حرارة الشمس.

- لست أدري.. لست أدري..

طفق يردد ذلك باسطًا منديله المرة بعد الأخرى يعرضه للشمس حتى يجف.

ذات مرة حدثه معلمه في الدير عن ناسك تشقق جلده، وخرجت منه الديدان. وكان كلما سقطت عنه دودة، انحنى عليها، وأمسك بها في رفق وأعادها إلى الجرح. ويقول لها «كلي.. كلي اللحم يا أختاه لعل روحي تتخفف من ثقلها».

مضت أعوام لم يذكر فيها مانولي تلك القصة، ولكن أي عزاء جميل يستشعره اليوم، وأي درس يتعلمه عن التحمل والصبر في أمل.

نهض من مكانه وعاد إلى الكوخ، والتقط بين ذراعيه الخرقة التي لف فيها كتلة الخشب وأخذ المبرد والأزميل، وخرج ثانية حيث كان يجلس تحت الشمس. وفجأة أشرقت بداخله الصورة المقدسة، تملأ قلبه. إنه يتبينها في وضوح، ويتأمل كل قسماتها. واستقر عليها بصره، وعاد من جديد يثبتها على الخشب بانفعال وحماسة.

مرت الساعات خفافاً، وبلغت الشمس للحظة سمتها، ثم بدأت تميل رويداً رويداً.. تناثرت الشظايا على الأرض، وخف معها ثقل الخشب. ووضح وجه المسيح، وديعاً، متألماً، رقيقاً، مستسلماً. حاول مانولي طويلاً أن ينقش فم المسيح المرتجف، ولكن باء بالفشل، حيناً يرى الفم يتسم، وحيناً يتغضن ويبكي، وحيناً يزم شفثيه كأنه يتهياً لعمل فيه جهد وليس للصراخ من الألم.

وقرب الغسق، عاد نيكوليو بقطيعه. ألقى مانولي ما زال جالساً في مكانه فوق المقعد الحجري وأسند إلى ركبتيه وجه المسيح منقوشاً فوق كتلة الخشب. لم يبق أمامه إلا أن يجوف الرأس حتى يتمكن من أن يضعه على وجهه. وبذلك يكون القناع الذي يخلق به أن يضعه على وجهه يوم الصلب.

توقف نيكوليو، واسترق نظرة خاطفة إلى سيده، ثم ولى عنه سريعاً. أحس بأنه لا يطيق النظر إليه، تجلط الصديد الذي غضن وجنتيه فوق وجهه ولحيته وكون قشرة فوقهما. بدا له وكأن الجالس على المقعد الحجري شيطان يحمل فوق ركبتيه وجه المسيح.

وصاح والخوف يملأ قلبه:

- لا داعي لحضورك ومساعدتي، سأحلبها وحدي.

مال مانولي برأسه إلى الخلف وأسنده إلى الجدار، وأغمض عينيه. كان منهك القوى ولكنه مرتاح النفس. وضغط على قطعة الخشب المحفورة بين راحتيه، واستشعر سعادة أن وفق في نقش الوجه الذي أشرق في قلبه بصدق وأمانة. لن يتوارى بعد الآن ليصبح صورة مرتشعة في الهواء. ثبت روحه فوق كتلة الخشب.

أمسك بالوجه المقدس بين يديه، ووازنه في رفق، وأعجبه فم الرب. إذا نظر إليه من أمام رآه مبتسمًا، وإذا نظر إليه عن يمين رآه باكياً، وإذا نظر إليه عن شمال رآه منقبضاً مستسلمًا في كبرياء.. وأغمض مانولي عينيه، وبدأ يربت بأطراف أصابعه على وجه المسيح برفق وحنان مثلما كانت مريم تربت عل الطفل المقدس.

وبحرص لا نهائي طوى الخرقه حول كتلة الخشب المحفورة ولفها بها كأنها طفل وليد في قماطه، وحملها بين ذراعيه.

فرغ نيكوليو في هذه الأثناء من حلب النعاج، وعاج إلى كوخه، وهو يتحاشى النظر إلى مانولي. وبدأ يعد العشاء. قال لنفسه بعد أن آنس فيها سعادة خفية:

- مسكين هذا الرفيق.. عريس جديد بمثل هذا الوجه؟ آه لو تراه لينيو إذن لصرخت فزعًا وولت الأدبار.

وخرج إلى عتبة الباب.

- هل ستأتي يا مانولي لتناول العشاء؟ هل تستطيع أن تفتح فمك للطعام؟ نهض مانولي. كان جوعانا ونسي أن يأكل ساعة الظهر. ملأ قدحًا كبيرًا لبنًا، وأخذ البوصة، وجثا على ركبتيه، وامتص اللبن. ثم عاد وملأ القدح ثانية.

وعندما أظلمت الدنيا لم يشعلا المصباح وهكذا أعفت العتمة نيكوليو من رؤية الوجه المتورم، وزايله الخوف. كان في حالة مزاجية راضية، ولا يدري سببًا لذلك. وما إن فرغ من طعامه حتى اتخذ مجلسه قرب المدفأة وأخذ يقلب جمراتها بعصاه.

وبدأ حديثه سعيًا:

- كنت أقص عليك في الصباح كيف أصبح جدي ناسكًا، بعد أن قتل ونهب واقترف كثيرًا من الموبقات. ولست أدري إن كنت سمعت ما يقال عن الشيطان، إنه إذا ما طعن في السن فإنه يتحول إلى عابد زاهد؟ وهكذا فعل جدي - ليغفر الله لي - اعتزل الدنيا وقصد دير القديس باند ليمون، وهو نفس الدير الذي قصدته أنت أيضًا ناسكًا، وقضى به شهرًا قمرًا.. ولكن، ومن عجب، كانت ثمة قرية بالقرب من الدير، وكانت في القرية نسوة.

ثم أردف قائلاً وهو ييصق في الرماد.

- آه، لا يخلو مكان منهن هؤلاء العاهرات.

واستدار يحاول أن يتبين وجه مانولي على ضوء وهج الذهب، وسأله:

- هل تسمعي؟

هز مانولي رأسه وكأنه يريد أن يقول:

- ها أنذا أسمعك.

- حسن، انظر ذات يوم حدث كما قلت لك أن تقمصه الشيطان فقال لنفسه:

«أين لي بامرأة؟ أين لي بامرأة؟ سأقصد القرية حيث أجد بغيتي. لقد فاض بي الكيل. لتكن متزوجة أو طليقة، عجوزاً أو صبية، عرجاء أو حدباء، فلست أبالي ما دامت امرأة. وهكذا، فذات مساء، وبعد أن استسلم النساك للنوم، تسور صاحبنا جدار الدير وخرج يسرع الخطو لتتلقفه الجحيم. عقد العزم على أن يقضي حاجته، هل تتصور ذلك؟ ثم يعود أدراجه قبل الثانية صباحاً، حتى لا يعلم بأمره أحد... أطلق ساقيه للريح ممسكاً بذيل ثوبه بين أسنانه، يثغو كما يثغو الكباش في فصل الصيف إذا ما أبصر النعاج... ولكن الرب رآه، وأشفق عليه. ومن عجب ففي اللحظة التي وطئت فيها قدماه مشارف القرية، ابتلاه الرب بمرض خبيث... الجذام- لعلك سمعت شيئاً عنه- وغطت جسده دمايل كبيرة كأنها حبات البندق... لا، ماذا أقول؟ بل حبات الجوز أو المشمش العفن.. ثم تشققت ونزت صديدها.. وهل هذا لا تفوح منه رائحة التتن؟ يا له من شيخ مسكين، استبد به الهلع... غفر الله له. وسأل نفسه «إلى أين أذهب الآن؟ هل يمكن أن تمسني امرأة الآن؟ العود أحمد...».

كان مانولي ينصت بكل جوارحه، وفي جسده رجفة. مد يده وربت بها على ركة نيكوليو بحرقة تعني أن «استمر».

وقال نيكوليو ضاحكاً:

- حواديت عجائز النساء. اعتادت أُمي أن تحكيها لي، وفقها الله، رغم أنها كانت تضحك لها. لك أن تتخيل صاحبنا السافل... إنهم نساك حقاً. عاد أدراجه إلى الدير، تسور الجدار ثانية، وتوارى في صومعته... وفي الصباح التالي ألقى النساك وجهه مثل قرية ماء.

وعاود مانولي إلحافه على الراعي الصغير بإشارات من يده.
- أظنك تريد أن تعرف كيف انتهت هذه القصة؟ كيف لي أن أعرف؟ كنت آنذاك طفلاً ولم أكن أهتم... لقد سار إلى لحدّه منذ زمان طويل، هذا الشيخ المسكين. وارتاحت النساء من مشاكله.

وقهقه نيكوليو. ثم شرد بفكره، وبعد لحظات بدأ يتشاءب وقال:
- النعاس يغالبني. سأخرج إلى الفناء حيث أنام هناك. الحر يكاد يقتلني.
لم يكن يشعر بالحر على الإطلاق، وإنما كان يخاف البقاء مع مانولي داخل الكوخ. ونهض من مكانه.

- مهدت لك فراشك. قم لتنام، وغداً ستكون أحسن حالاً.
أخذ البساط البالي وفرشه في الفناء، وتوسد حجرًا، وأغمض عينيه. تذكر لينيو والتهبت حواسه. بيد أنه كان متعباً فاستدار واستغرق في النوم.
ألقي مانوي بحزمة حطب أخرى في النار إذ كان يخشى الوحدة مع الظلام. وأرهف سمعه، ينصت إلى أصوات الليل آتية من الباب المفتوح، البوم ينق، والحشرات تنبش الأرض، والفئران تصر صريراً حاداً... وبداخله الصوت الرخيم الملح، لا يسمعه إلا في الظلام مع سكون الليل والوحدة.
ونهض من مكانه حيث وقف عند عتبة الباب يتطلع إلى النجوم. الطريق اللبني ينساب في هدوء، والمشتري يتأجج ناراً، والسماء المرصعة تتلألأ على البعد في صمت وحبور... أحس مانولي نشوة وسكينة كأنما السماء هبطت عليه واحتوته بينها. وعاد ثانية حيث جلس أمام المدفأة... وعلى حين غرة عاودته كلمات الراعي الصغير وخفق لها قلبه بشدة.

وقال لنفسه:

- يسوع ربي، هل هذه معجزة؟ ألسنت أنت الذي بسطت إليّ يدك لحظة أن اندفعت، مثل الناسك العجوز، لألقي بنفسي إلى التهلكة؟
ووضع راحته على وجهه، ولكن هذه المرة دون خوف أو نفور، وتحسس وجنتيه المتفتختين، ولحمه المشقق، وفي نفسه عرفان بالجميل.
وقال لنفسه وهو يربت بيده على موضع الداء:

- من يدري؟ ... من يدري؟ ربما كنت مدينًا لك بالخلاص ...
وهذا روعه، وأسند ظهره إلى الجدار. كانت تنبعث من المدفأة سخونة لطيفة.
وأحس برغبة في النوم. فقد اعتاد أحيانًا، إذا ما عانت نفسه صراعًا أثناء الليل، أن
يتراءى له حلم يهديه سواء السبيل. ودار بخلده: «ربما يتنزل عليّ الله في منامي
هذه الليلة أيضًا ويجلو لي هذه الغمة».

أغمض جفنيه، وسرعان ما راح في سبات.
خمدت النار. وانقضى الليل. وبدأت الديكة صياحها عندما فتح مانولي عينيه
إثر إحساسه بخدر في جسمه مع برودة الصباح. لم يذكر أن تراءى له حلم وهو
نائم. ولكنه كان مطمئن الفؤاد. وشم علامة الصليب، وتحركت شفتاه، فأذاه ذلك
كأن جرحًا نكأ من جديد. وحاول أن يقول متوخيًا وضوح اللفظ: «المجد لله».

ونهض من مكانه وقصد المقعد الحجري بالخارج ليجلس عليه.
ظهرت الشمس عند الأفق، نضرة متوردة الوجه، مستديرة جذلة. هاهي عائدة
إلى مملكتها الغنية الوفيرة. كل شيء أصبح على حاله كما تركته بالأمس: السهل
الخصب، وجبل العذراء الأخضر، ومنحدرات ساراكيينا الوعرة، وبحيرة فويداماتا
مستديرة مصقولة كالمرآة، وقرية ليكوفريسي، التي أثرتها بحبها، ودروبها الضيقة
تعج بكائنات كالنمل تسمى بشرًا.

تمتم مانولي ثانية: «المجد لله». ومسح بمنديله وجهه المتشقق.

على المرتفعات، كان مانولي يعيش فوق الجبل في نصب ومعاناة، حينًا مع
كتلة من الخشب يحاول تشكيلها وحينًا مع الرب أو الشيطان، وحينًا مع لينيو
والأرملة... وفي نفس الوقت كان القسيس فوتيس يحاول تدبير أموره فوق جبل
ساراكيينا. حدد عملاً لكل واحد من رجاله: البعض يحرق ويذر الحب في رقعة
صغيرة من الأرض بين الحجارة، والبعض يبني ويشيد، وفريق ثالث تولى مهمة
القمص... يصيد الأرانب البرية وطيور الحجل طعامًا للجميع. واشترى ثلاث
نعاج بالجنيهات الذهبية الثلاث عطية ياناكوس وأضافها إلى نعجة الأرملة،
وهكذا حصل الأطفال على حاجتهم من اللبن. وعزم على أن يحمل أيقونة

القديس جورج العتيقة ويطوف بها بين القرى والأديرة، يسأل الناس عونهم. سيقول لهم: «نحن يونانيون مسيحيون، سلالة خالدة، لن نبذل أبداً».

وفي الوهاد: في ليكوفريسي، كان الكابتن فورتوناس ما زال طريق فراشه يئن ويتوجع. رأسه المشجوج بحاجة إلى زمن طويل حتى تلتئم الجراح. والأغا، الذي تملك قلبه الرأفة، لا يفتأ يرسل مع حارسه المراهم الناجعة، ويحمله الرسائل يسأله فيها أن يعجل بالشفاء استعداداً لليلة سكر مترعة. والشيخ بطرياركاس لم يكن أحسن حالاً. تصيبه نوبة سعال يشق معها تنفسه، وتلازمه رعشة، يستوي بعدها جالساً في فراشه، يحشو بطنه كخنزير حتى يقيء. ثم ينكب ثانية على طعامه وشرابه في نهم. لا يفتأ يرسل إلى كاترينا يسألها أن تأتي إليه وتدلّكه. ولكن الأرملة أعرضت عنه في ازدراء، وبعثت إليه من يقول له إنها هي الأخرى مريضة، وهي بحاجة إلى تدليك.

القسيس جريجوريس أمضته هموم ذاتية خطيرة تتعلق بابنته الوحيدة ماريوري. ها هو يراها تذوي وتنحل يوماً بعد يوم كالشمعة. كان يتلهم أن يلقي بها بين ذراعي ميشيل، حتى تنجب له حفيداً بأسرع ما يكون. وباتت هذه هي آخر آمانيات حياته. إذ يرى فيها القسيس سبيله الوحيد للانتصار على الموت.

وبانايوتي، أكل الجبس، يعيش فريسة لحالة من الكآبة الممضة. انقضت ليال ثلاث حتى الآن لم تفتح الأرملة فيها له بابها، فهي لا تريد أحداً من أمثاله بعد الآن. لا بد أنها ترمي بعينها إلى غيره. إنها - هذه المسماة بمريم المجدلية المقدسة - تخرج في كل آونة قاصدة الكنيسة وتضيء الشموع هناك. وأقبل بانايوتي على الشراب يلتمس معه النسيان. وبات يذهب إلى بيته مع كل مساء مخموراً تماماً، ينهال على زوجه وابنتيه ضرباً، ثم يتفرش أرض الفناء وسرعان ما يملؤه بغطيط. يتجمع حوله صبية القرية كلما أبصروه مخموراً، يتعقبون خطاه، ويستفرونه ببذاءاتهم: «يهودا... يهودا!». يحاول أحياناً أن يندفع نحوهم ليمسك بهم، ولكنه يترنح ويتعثر ويسقط على الأرض سطيحاً.

والعجوز لاداس اعتاد كل صباح أن يلقي المحاضرات على مسمع زوجه الجالسة قبالة تغزل الجوارب. لم تكن تجيب عليه أبداً بل لم تكن تسمع ما يقول..

- تأخر يا بنيلوب. تأخر هذا اليناكوس المخادع. ولا زال إيصال الجنيهاات الثلاثة بغير توقيع. حتى الآن لم يأت إلينا حاملاً ولو بعض الأقرط... ماذا ترين يا بنيلوب؟ هل ثمة امرأة مهما بلغ بها الفقر لا تملك ولو قطعة واحدة من الجواهر؟ لا، لا، لا يوجد أبداً. إن الله بواسع رحمته لا يرضى بذلك. وسوف ترين، سيعود إلينا ياناكوس بالجواهر، دعي عنك القلق يا عزيزتي.

كانت أذنا الشيخ لاداس في طنين دائم، يواتيه إحساس مع كل لحظة بأن ثمة طرقاً على الباب، ولا يبارحه الوهم بأنه سمع نهيق حمار. ويهرول حائفاً يفتح الباب ويدقق النظر في الطريق من أوله إلى آخره، ولكن لا أثر ليناكوس.

كان ياناكوس ينجز تطوافه بين القرى.. يتتاع الأمشاط وبكرات الخيط ومرايا الجيب وتراجم القديسين مقابل القمح والصوف والدجاج. انهمك في تجارته رغم أن ثمة أموراً أخرى تشغل فكره هذه المرة. أمور جعلته حريصاً أشد الحرص على أن يكيل الكيل بالقسط ولا ينقص الميزان... فقد سئل شيخ مسلم ذات يوم: «كيف للإنسان أن يتجنب الخطيئة؟» فأجاب الشيخ: «عندما تكون عينه على الجنة ساعة البيع والشراء». وهكذا كانتا عينا ياناكوس على الجنة ساعة البيع والشراء.

وكان بين الحين والحين يذكر الأب لاداس، ويتخيل صراخه ونواحه في انتظار عودته. وتذكر أخته أيضاً، تلك المرأة الناشز التي تسيم قسطندي المسكين سوء العذاب. ومانولي، الذي لا بد أنه عاد إلى مقامه فوق الجبل، وربما تؤرقه مشكلة التوفيق بين المسيح ولينيو- بين الأرنب والثعلب... ولكن كل هذه كانت خطرات عابرة تطوف بفكره. وإنما تركز فكر ياناكوس حول القسيس فوتيس والجبل القاحل الموحش، وتلك الأرواح التي تشبث بالحجارة حتى أن ملاك الموت نفسه يعجز عن أن يفصل بينهم وبينها.

وفي مقهى آخر قرية من القرى التي طوف بها التقى ياناكوس بصديقه كيرو جيورجيس، وهو صاحب المقهى، ويعرف أيضاً باسم كونيلوس. رحب به، وأحسن استقباله، وأعاناه على أن ينزل أحماله، وساق حماره إلى الحظيرة، ثم أسرع بالعودة إلى صديقه يؤانس ويثرثر معه. وتجمع كل أهل القرية الصغيرة في هذه الأثناء، والتفوا حول ياناكوس التاجر الطواف، الذي يتجول من قرية

إلى أخرى، ويأتيهم بالجديد من الأخبار، ويلتمسون عنده جوابًا على كل سؤال. وصاح صاحب المقهى: «اسألوه يا أصدقائي، اسألوه فإنه راحل غدًا صباحًا، ولا تنسوا أن تطلبوا القهوة».

تجمعوا حوله، وشرعوا يمطرونه في لهفة بأسئلتهم عن أحداث العالم - الدول الكبرى، والبلاشفة، والحرب، والزلازل.. وخفضوا من أصواتهم وارتجفوا: «يا سيدي ياناكوس، هل تعرف شيئًا عن فرق اليونان التي جاءت ثم اختفت ثانية كأنها ومض البرق؟ ماذا يحدث هناك على أرض اليونان من حيث أتى إخوتنا أبناء الإغريق؟ ما هي أخبار المذابح والحرائق والكوارث؟ إننا هنا - ليكوفريسي والقرى المجاورة - بعيدون عن كل هذا، ونادرًا ما نسمع شيئًا عنها. إن نواحهم لم يصل إلينا، ولكنك أنت يا ياناكوس تطوف بالقرى، وتستطيع أن تلتقط بعض أخبارهم. أثبتنا بأخبارهم فإننا في لهفة من أمرنا ونتحرق شوقًا لمعرفة هذه الأخبار».

وانقبضت نفس ياناكوس أيضًا. إنه لا يفتأ يفكر في القسيس فوتيس وقريته التي أحرقتها الأتراك انتقامًا، وشردوا أهلها هنا وهناك.. إن قرى بأكملها تمتد من سميرنا حتى فيورو - كارا - ينسار وما بعدها أصبحت خرابًا يبابا، يتصاعد منها الدخان وأصبح اليونانيون مقهورين مطاردين، وباتت اليونان في خطر. ولكن ياناكوس كان يشعر بالأسى لهم ولم يشأ أن يكدر صفوهم. وقال ياناكوس:

- هونوا عليكم يا أصدقائي. اذكروا آلاف السنين الخوالي التي عاشتها اليونان. إنها لا تموت أبدًا. يقولون ستحرق قرى حتمًا حتى تأتي عليها النيران، وسيلقى بعض الناس حتفهم، ولكن سيعود أحفاد الإغريق ثانية، بينون القرى من جديد، وينجبون للعالم أطفالًا جددًا، ويبعث شعب أناتوليا من جديد. هيا نشرب شيئًا على حسابي.

وصاح شيخ جالس في أحد الأركان، مسندًا ذقنه إلى عصاه، منصتًا فاغرًا فاه، مرهفًا السمع لكل كلمة من كلمات التاجر الطواف:

- بورك فيك يا ياناكوس، بورك فيك يا ياناكوس. إنه لأمر محزن لو توقفت

عن زيارتك لقريتنا. إننا نرحب بك دائماً لأنك تأتينا بأخبار عن العالم الواسع. وسكن صوت النارجيلة عندما دخل المقهى أغا سولتزا. كان كبير القرية، تتدلى من منطقته حلقة علق بها مفاتيح البيوت التي يؤجرها. ومقهى كونيوس واحدة منها. علم بقدوم الرحالة الشهير فسرعان ما انتعل خفه الأحمر، واختطف غليون الطويل، وخرج ليتحدث إلى التاجر المعروف. كان ثمة هم ممض يعذبه. ولعل هذا اليوناني اللعين يوضح له جلية الأمر.

نهض ياناكوس ووضع يده على قلبه وشفتيه وجبهته يحييه التحية الرسمية الكاملة. كان أحسن زبائنه، وله عدد كبير من الحريم، وزوجاته وبناته وحفيداته مولعات بالتوابل وأحمر الشفاه والعطور والحلوى. لذلك نهض واقفاً وحياء وطلب له قهوة.

- ثمة هم ثقيل يورق فكري يا عزيزي التاجر.

- أنبئني به يا أغا، وكل ما أستطيع عمله...

- ما هي بالدقة تلك التي يسمونها سويسرا أيها اليوناني الصغير؟

هرش ياناكوس رأسه. لقد سمع هو الآخر شيئاً كهذا ولكنه يلتبس عليه تماماً. أراد أن يعطي نفسه فسحة من الوقت للتفكير فقال:

- ولماذا السؤال؟

- لأن ابني كوزينيس ذهب إلى سويسرا ليدرس هناك ويصبح طبيباً. وأحب أن أرسل إليه قدرًا به أرز وسبانخ وقدرًا به فحم يشعل به نارجيلته، ولكنني لا أدري أين هي سويسرا هذه، ولا كيف أبعث بهما إليه.

وبينما كان الأغا مسترسلًا في كلامه ذهب عن ياناكوس بعض ما التبس عليه، وتذكر:

- آه، سويسرا. سويسرا بلد في آخر الدنيا تصنع اللبن والساعات.

وسأل الأغا في قلق:

- وهل تصنع أطباء أيضًا؟

- طبعًا. وأطباء أيضًا. أحسن أطباء في العالم. إذا ما لمحهم ملاك الموت.. كيف أعبر لك يا أغا دون أن أصدم كل من في المقهى؟.. نعم إنه يلبس بنطلونًا.

- حسن أيها اليوناني الصغير. أنت ابن حلال. ولكن ماذا عن القدرين؟
 - حسن، سأقول لك. سويسرا تمنع دخول الفحم النباتي، ولكنك تستطيع أن تعطيني الأرز والسبانخ وأنا أعرف طريقة...
 كان ياناكوس تدبر أمره بالفعل. سيحمل معه الأرز والسبانخ إلى ساراكيثا، ليعطي الشعب الجائع شيئاً يطعمه إكراماً لخاطر كوزينيس.
 قام الشيخ وقال:
 - سأتيك بها حالاً.
 وتوقف متردداً عند باب المقهى، ثم استدار إلى ياناكوس:
 - وما هي تكاليف إرسالها إلى هنالك؟
 رفع ياناكوس يده وقال له:
 - أترك هذا لي. خدمة مني لعللي أغا.
 وما أن خرج الأغا حتى صاح صاحب المقهى:
 - أرجو ألا تحتجزها لنفسك وتأكّلها أنت.
 ورد عليه ياناكوس محتجاً:
 - هذا ما حرّمه الله. إنها معاملات أمينة يا صديقي.
 ثم استدار إلى الفلاحين وقال:
 - معذرة يا أصدقائي. نال مني التعب بعد رحلتي الطويلة ولي رغبة في أن أنام. لكم أن تسألوني ما شاء لكم السؤال غداً، واعطوني طلباتكم ورسائلكم. ادعوا زوجاتكم وبناتكم أيضاً عند سماعكم صوت البوق حتى يأتين إليّ ويشترين حاجتهن. طبتم مساء.
 وأسند ظهره إلى الحائط، ومد ساقيه وراح في سبات.

حان وقت الظهيرة، وفرغ ياناكوس من تجارته في القرية، وأخذ طريقه إلى ليكوفريسي. كان الحمار يركض مسروراً، فها هو يشم راضياً رائحة حظيرته الدافئة، ومذوده المليء بالعلف ومسقاهه المترعة بالماء القراح. قلبه يخفق كقلب بشر. ورفع ذيله لينهق بكل ما أوتي من قوة.

ولكن صاحبه شد لجامه وخفض من سرعته.
- لا تكن عجولاً هكذا يا يوسف اكي. اتجه ناحية الجبل. سنقصد مانولي أولاً لنراه.

كان ياناكوس عامله بجفاء في ذلك اليوم، وأغلظ له القول، وسلك معه سلوكاً سيئاً، وأسف لذلك. ومن ثم كان راعباً، متلهفاً في رغبته، أن يسأله الصفح. وتمتم قائلاً:

- كنت على حق، ولكن لم يكن من اللائق بي ذلك... مانولي رفيق حساس، من النوع الذي تجرحه لمسة ريشة. كم كنت حماراً إذ تخاصمت معه.
ثم خطر بباله على التوالي القسيس جريجوريس والعجوز لاداس، وميشيل، والأرملة. طاف ذهنه بالقرية كلها ولكنه عاد إلى مانولي ثانية. وتمتم مرة أخرى:
- لم أحسن التصرف معه، جانيني التوفيق تماماً... نسيت أننا نحن الأربعة يجمعنا عمل واحد طوال هذا العام. يمكن أن أقول إننا شركاء، لا ابتغاء جمع المال وإنما ابتغاء الجنة- متاع الآخرة، لا متاع الدنيا.

وضحك لتلاعبه بالألفاظ، ثم غرق في تأملاته وقال لنفسه:
- إلى الشيطان بمتاع الدنيا والآخرة، أليسا شيئاً واحداً تماماً؟ لا، ليس هذا هو المرجح، وإلا لكان الرب والشيطان في هذه الحالة سواء. غفرانك ربي.

وسمع خلفه نهيق حمار، فاستدار ناحيته. كان كريستوفيس الذي أقبل من القرية على ظهر حماره. وكريستوفيس شيخ عنيد، خفيف الظل. تزوج ثلاث زيجات، وأنجب للعالم كثيراً من الأطفال، حتى أنه لا يذكر عددهم. مات بعضهم، واختفى آخرون، وما هو اليوم طليق، يذرع الطرقات يوزع النكات ويملاً الجو بضحكاته.

توقف ياناكوس وانتظره. وقال له:

- طاب يومك يا شيخ كريستوفيس. هل لك أن تصنع لي مكرمة؟ هل تريد أن تعمل عملاً طيباً؟

- قل ما هو وسوف نرى. تعبت من كثرة ما قدمت من الأعمال الطيبة يا ياناكوس.

- قف قليلاً عند ساراكيئا- فهي في طريقك- واعط هذا القدر للقسيس فوتيس. وإذا سألك من أعطاه لك قل:
- رجل آثم... هذا كل ما في الأمر.
- ترجل الشيخ كريستوفيس وقال:
- ماذا بها يا ياناكوس؟ إنها ثقيلة.
- أرز وسبانخ.
- ثم قص عليه القصة كاملة. وقهقه الشيخ كريستوفيس وقال:
- بورك فيك يا ياناكوس. لو كان للرب مواهبك لما كان هناك أطفال جوعى ولا أرامل يائسات. سأذهب من فوري إلى هناك.
- على رسلك.. على رسلك. غبت طويلاً عن القرية، فهل من أخبار جديدة؟
- هل ما زال الشيخ لاداس على قيد الحياة؟
- هذا القدم بهرب من الموت. ألا ترى أن الموت يكلفه كثيراً، إنه لن يجني ربحاً من الجنازة. أما الكابتن فورتوناس اللعين فحالته خطيرة.
- وقال ياناكوس ضاحكاً:
- العرقي أزهد ثمناً.
- ورد الشيخ كريستوفيس:
- آه، ولكن الحلاقين أفلسوا.
- وماذا عن القسيس جريجوريس الناعم؟
- ليأخذه الشيطان. ما زال حيّاً يرزق، يتمتع بالنعيم. اكتشف علاجاً جديداً للعواقب من النساء، يقال إنه طويل مثل السجق، ويبيعه حسب المقاس. لو أخذت منه البقرة العجفاء فإنها سرعان ما تلد.
- وأغرقا في الضحك.
- أطال الله عمرك يا شيخ كريستوفيس. لو مت لمات معك الضحك. مع السلامة. سأذهب لأشتري مائة ذراع من ذلك السجق وأملأ القرية بنينا وبناتاً.
- مع السلامة يا ياناكوس. أتمنى لك التوفيق في تجارتك.
- وافترقا. وعلى بعد خطوات رن صوت الشيخ كريستوفيس كأنه صليل جرس.

الغشاش . اهتدى إلى ذلك السجق منذ عهد آدم .
قال عبارته هذه ورددت المنحدرات أصداء ضحكه .

بينما كان مانولي واقفاً أبصر ياناكوس يرتقي الجبل قادماً إليه، ممسكاً بزمام
حماره يشده وراءه . فاستجمع شجاعته وقال لنفسه : «الآن تبدأ محتتك يا مانولي .
فكن لها» .

خطر بذهنه لحظة أن يدخل الكوخ ويتخذ لنفسه مجلساً في الركن المعتم،
خجلاً من أن يفتضح أمره في ضوء النهار . فعاد يتفحص وجهه هذا الصباح في
المرآة . وغمغم قائلاً :

- الشيطان وحده على مثل هذه الصورة من القبح . كان فمه هو الشيء الوحيد
الذي فُش ورمه قليلاً، وهكذا أصبح أخيراً قادراً على الكلام .

كان ياناكوس يترنم بلحن وهو يرتقي الجبل . إنه متشوق إلى رؤية مانولي
وإصلاح ذات بينهما . فثمة حمل يجب أن يزيحه عن كاهله، وسوف يتخفف
منه... .

وقف مانولي ينتظره بقلب واجف تحت أشعة شمس الأصيل الذهبية . تذكر
شفتي المسيح مزومتين حتى لا يبين ما يعانيه من آلام، فزم شفثيه قدر طاقته . وقال
لنفسه «سأعتاد ذلك، إنه لأمر عسير في مبدئه، ولكن رويداً رويداً... أسألك العون
يا يسوع» .

بدأ اللحن الذي يترنم به ياناكوس يبين ويتضح أكثر فأكثر . وفجأة دوى صوت
النفير جذلاً مزهواً، كان ياناكوس اعتلى صخرة، ووقف ينفخ في نفيره ليعلن
لصديقه عن وصوله .

وقال مانولي لنفسه : «ها هو ذا يقترب ويصبح على مدى البصر . إنه سيبصرني .
تشجع يا قلبي» .

وصاح صوت طروب .

- إيه يا مانولي... أين أنت ؟

خطا مانولي إلى الأمام ورد عليه بجنان ثابت قدر استطاعته .

- ها أنذا.

رفع ياناكوس رأسه، وفتح ذراعيه، ولكن لم تكد عينه تقع عليه حتى تسمر في مكانه فاغراً فاه مأخوذاً. لم يصدق عينيه، مسحهما بيديه، واقترب منه، وصدق فيه، ثم صرخ:

- مانولي... مانولي... ماذا دهاك؟

تظاهر بأنه يريد معانقته، ولكنه توجس خيفة، فترجع عنه وهو يرتجف. وقال مانولي بصوت رقيق:

- ارجع يا ياناكوس إن كان هذا فوق ما تحتمل.

واتجه صوب الحظيرة حتى يعفي ياناكوس من رؤية وجهه.

ربط ياناكوس حماره إلى شجرة سنديان وتبعه. وسمع مانولي صديقه يقترب منه.

عاود حديثه إليه:

- ارجع يا ياناكوس إن كان هذا فوق ما تحتمل.

وأجاب ياناكوس:

- أحتمل... أحتمل... لا تذهب.

رسم مانولي علامة الصليب عند عتبة الكوخ ثم دخل وأغلق النافذة وانحنى على نفسه في ركن معتم. وقال لنفسه:

- حمداً لله أن احتملت المواجهة.

دخل ياناكوس، وجلس القرفصاء عند الباب. خلع قلنسوته، ومسح جبينه. وخيم صمت طويل.

وأخيراً سأله ياناكوس، وعيناه مثبتتان على الأرض:

- ماذا أصابك يا مانولي؟

ورد مانولي:

- لا شيء.

وصاح ياناكوس:

- كيف تقول لا شيء؟ إن شيطاناً استقر على وجهك يا مانولي. إنه شيطان لا

أنت.

وأجاب مانولي في هدوء:

- بل أنا. في حياتي لم أكن صادقاً مثلما أنا الآن.

ولاذ بالصمت لحظة. ثم عاد يقول وهو يمسخ بمنديله وجهه الذي ينز دون انقطاع.

- في حياتي... في حياتي...

وصاح ياناكوس ثانية وهو يقاوم خوفه:

- كما أقول لك، إن شيطاناً استقر على وجهك. عندما أطلع إليك فإنني أخافك... قم واركب الحمار، ولنذهب معاً إلى القرية.

- لماذا القرية؟ أنا راض ها هنا.

- ستذهب إلى القسيس جريجوريس ليرقيك بقداس يذهب به عنك الشيطان.

- لا. لا. لا. لي خدمة واحدة أسألك إياها يا ياناكوس: ألا تبوح بشيء عني لأحد.

- سأنبئ القسيس وحده يا مانولي. إذا كنت تخجل من النزول إلى القرية فإنه سيصعد إليك ويقرأ قداسه هنا.

وثب مانولي مهتاجاً وهو يقول:

- لا. لا. لا. إني راغب فيما أصاب وجهي يا ياناكوس... إني راغب فيه...

ووثب ياناكوس بدوره وصرخ:

- أنا لا أفهم ما تقول. لماذا أنت راغب فيه؟

- ابتغاء خلاصي يا ياناكوس. وإلا فلن أنعم بالخلاص... لا تنظر إلى كلامي على ظاهره، فإنني عاجز عن أن أبين.

- هل هذا سر؟

جلس مانولي ثانية في ركنه، وأحس بمزيد من الهدوء.

وأجاب:

- سر يعلمه الله وحده... الله وحده وأنا... ونحن على وفاق.

وتجاسر ياناكوس على القول:

- هب إنه الشيطان؟

- إنه الشيطان يا ياناكوس. وأنت صادق الحدس. إنه الشيطان الذي تلبسني.
وحمداً لله على ذلك. ولولا هذا لكنت مع الهالكين...

ورد ياناكوس يائساً:

- أنا لا أفهم شيئاً، لا أفهم شيئاً.

- وأنا لم أفهم شيئاً بادئ الأمر. لم أفهم شيئاً يا ياناكوس... ثم فهمت أخيراً.
كنت يائساً أول الأمر، ولكنني الآن هادئ البال. لست هادئ البال فحسب، بل إنني
أرفع يدي إلى السماء أمجد الرب.

أحس ياناكوس فجأة بتوقير لمانولي وتمتم قائلاً:

- أنت قديس...

ورد مانولي محتججاً:

- بل آثم، وآثم كبير... ولكن الله واسع الرحمة.

ولاذ بالصمت. وعلى البعد رنت أجراس القطيع، ونبحت الكلاب. وبدأت
الشمس في المغيب، واقتحمت الكوخ ظلال زرقاء كبيرة. وضاق الحمار بغياب
صاحبه فشرع في نهيق حزين كأنما يستدعيه.

وسأله ياناكوس:

- هل تستطيع أن تأكل؟

- اللبن فقط، أمتصه بالبوصة.

- هل تشعر بألم في أي مكان؟

- لا، لا أشعر بالألم أبداً... انصرف يا ياناكوس. في رعاية السماء. حسبنا هذا.

ولكن عدني بأنك لن تبوح بشيء لأحد. هذا ضروري... هل تفهمني؟ حتى أبقى
هنا وأكابد وحدي.

- ضد الشيطان؟

- ضد الشيطان.

- وإذا انتصر؟

- لن ينتصر. لا تخف. الله معي.

وغمغم ياناكوس:

- أنت قديس... لست بحاجة إلى عون أحد. أتمنى لك صحة طيبة.
سأعودك... ليس عندي ما أقوله خيرًا من ذلك.
- إذا لم يكن هذا فوق ما تحتمل يا ياناكوس؟
- بل أحتمل... سأراك قريبًا.
وشعر للحظة بدافع يدفعه إلى أن يمسك بيد مانولي ويقبلها. ولكنه أحجم.
وخرج حيث فك عقال حماره الذي هز ذيله في سعادة. واتخذ طريقه نازلًا إلى
القرية، شارد الفكر، دون أن يلقي بنظرة إلى الوراء.
وتمتم وهو يهبط المنحدر:
- العالم طلسم... ما أشد غموضه... يعجز المرء فيه عن أن يميز الشيطان من
الرب الرحيم... كثيرًا ما يتشابهان... أستغفرك ربي.

في اليوم التالي قام مانولي قبيل الفجر واتجه إلى حيث كان نيكوليو نائمًا في
فناء الحظيرة، مستلقيًا على ظهره في غبطة وهناء. وركله ليوقظه.
- نيكوليو. قم. أريد منك عمل شيء لي.
ارتفع رأس الراعي الصغير، حلو التقاطيع، وهو لا يزال غافيًا. وانفتح الجفنان،
ولمع بياض العينين كليلاً في غبش السحر.
وهمهم وهو يتثائب:
- ماذا تريد؟
- قم. قم. سأخبرك بعد أن تستيقظ... هيا انهض.
نهض الغلام متأفّفًا. وما إن شب على ساقيه حتى كشف عن بطن عاربرونزي.
وأبان عن ذراعين وفخدين وحماتين يغطيهما شعر أسود لامع. وكانت تفوح منه
رائحة السعتر والماعز.
وقال مانولي:
- ارسم علامة الصليب، حتى وإن كنت لا تفعلها، فيجب عليك أن تفعلها
اليوم.
وقال نيكوليو وهو ما زال يتمطى ويطلق مفاصله:

- دعك من هذه يا سيدي. أي خير فيها؟

فقد عاش حياته فوق الجبل، نشأ وترعرع بين الكباش، ومن ثم لم تواته يومًا الرغبة في رسم علامة الصليب، ناهيك عن الذهاب إلى الكنيسة. إذن ما حاجة نيكوليو إلى هذا كله؟ كل ما كان يبتغيه أن يكون صحيح البدن، ويتزوج وقتما يحين الأوان، وينجب أطفالًا، ويمتلك بعض الماشية، ويتقدم به السن وهو لا يزال قوي العود مثل شجرة سنديان مورقة. أما علامات الصليب، والعدراء المقدسة، فهذه كلها أمور تخص أولئك الذين يسكنون السهل.

جلس مانولي عند عتبة الباب، منتظرًا نيكوليو إلى أن يغتسل ويصحو من نومه تمامًا. اتخذ قرارًا مروعًا أثناء الليل. لم يغمض له جفن طوال الليل، كان الرب والشیطان يتصارعان بداخله. وانتصر الرب عند مطلع الفجر. ونهض مانولي ساعته وواجه إلى الراعي الصغير حيث ركله بقدمه ليوقطه.

قال نيكوليو وهو يسوي شعره براحتيه:

- ها أنذا صحوت. أنبئي الآن بما تريدني أن أفعله.

وقال مانولي بصوت خفيض:

- اسمعني يا نيكوليو واصغ إلى ما أقول. إن كنت تخافني فلا تنظر إليّ، بل تطلع إلى بعيد. ولكن اصغ جيدًا إلى ما سأقول.

وقال نيكوليو وقد أشاح بنظره:

- إني مصغ إليك.

- ستنزل إلّي القرية، وتقصد بيت السيد، ستجد الباب اليوم مفتوحًا، فادخل. ستجتاز الفناء ثم تتجه يمينًا إلى الطابق الأرضي حيث يوجد النول. ستلقى هناك خطيبي لينو.

والتفت نيكوليو نحوه بانفعال، وبرقت عيناه وقال:

- لينو؟

- ستلقى لينو وتقول لها... اصغ إلى كلماتي جيدًا يا نيكوليو، انقشها في رأسك: «إن مانولي يبعث إليك بتحياته، ويسألك أن تكرمي بالصعود إلى الجبل. لديه ما يريد أن يفضي به إليك» هذا كل ما في الأمر. تبلغها هذا وتنصرف بعدها

توّا... هل تفهمني؟

- أفهمك، هذا أمر سهل. سأذهب الآن.
- هم بالانصراف، متعجلاً النزول إلى القرية.
- أمسك مانولي بذراعه وقال له:
- انتظر أيها العنز البري. إذا سألتك عن حالي فقل إنني بخير. أستحلفك بالله
- ألا تفصح عن مرضي. حذار وإلا فالويل لك.
- لا عليك يا سيدي. سأقول لها «إنه على ما يرام» ثم أولي الأدبار.
- اجر من فورك.
- اندفع نيكوليو كالسهم وغاب عن الأنظار.

كانت لينيو نهضت من نومها بالفعل. أعدت شراب التيزان الممزوج بالروم، وارتقت الدرج لتقدمه إلى سيدها الشيخ بطريار كاس. كانت ترتقي الدرج الحجري مشرقة الوجه، مرسلّة الشعر، تغرد كطائر الزمير.

كان السيد العجوز جالساً على حشية يتطلع بناظريه من النافذة إلى سطوح بيوت القرية من تحته. وطاف بخاطره على كل أهل القرية، طرق أبوابهم، ودخل بيوتهم، وألقى إلى كل منهم بكلمة مجاملة تواضعاً ثم ولى عنهم خارجاً. وارتقى الجبل، وألقى نظرة عجلى إلى الماشية حتى التقى بمانولي ففقد صوابه. «هل سمعت مثل هذا؟ هذا الخادم القذريعارضي. يقول: روحه... روحه غير مهيأة... حسن أيها التعس، إذا لم تتزوج بلينيو حتى آخر أبريل فإنك مطرود، سأدفع بك ثانية إلى الدير لتعيش هناك حياة الخصيان. تدوس على النعمة التي أنعمت بها عليك أيها الخنزير الحقيقير. إنك أنت الذي أدت رأس ابني، إنه أنت يا شحاذ الذي تأخذك الرأفة بالفقير... يقول لي إنهم بشر أيضاً مثلنا، إنهم إخوة لنا. هذا كله جميل حين يقال في الكنيسة، وحين ينطق به القسيس من على المنبر في يوم أحد. أما أنت أيها الغر فلا بد وأنتك جننت تماماً إذ تريد أن تطبق هذا الكلام عملياً في دارك.

انفتح الباب، ودخلت لينيو حاملة شراب التيزان. وسرعان ما ولت أفكار

الشيخ بطريار كاس عن ابنه وراعيه لتستقر على الفتاة التي تفيض خفة وغواية، تحمل إليه شرابه المفضل، تخطر في مشيتها فيهتز ردفاها. حلق إليها يتملاها بعينيه وهي تقترب منه، يتمتع ناظريه معجبًا بالثدي النافر، والخصر النحيل، والأطراف البضة. وحدث نفسه قائلاً: «ما حيلتي معك أيتها العاهرة المباركة وأنا أنظر إليك كابنتي؟ ... كانت أمك في صباها تحاكيك خفة ومرحاً... رحمها الله، ففي ذات ليلة»... وتحسس الشيخ شرابه وتنهد.

وقالت لينيو في تملق:

- كيف حالك اليوم يا سيدي؟ علام التنهد؟

- وكيف لا أتند يا عزيزتي لينيو؟ إني معذب بين ابني ومانولي. قيل لي إنك قصدت الجبل أول أمس لمقابلته. ترى ماذا قال لك هذا الأحمق؟

جلست لينيو على حافة السرير عند قدمي الشيخ وتنهدت بدورها، وقالت له:
- ماذا تظن أنه قال لي يا سيدي؟ أخاله مسحوراً... حدثني عن أمور لا أتبين منها شيئاً، أعياء الكلام... وبدلاً من أن ينظر إلى وجهي على نحو ما يفعل الرجال، كان يرخي عينيه إلى الأرض، أو يرفعهما إلى السماء مسبلاً جفنيه... ماذا أقول لك يا سيدي؟ من يدري لو أخذته إلى القسيس جريجوريس لقرأ عليه التعاويذ؟ لا تضحك. إن مانولي مسلوب العقل، يا سيدي.

كان الشيخ الخبيث يرقب لينيو ملولة خجلى. وبدأ يرتشف شرابه بصوت صاخب وسألها:

- هل تحبينه؟

- وماذا تنتظر يا سيدي؟ لقد زوجته بي وهو رجلي. ولو زوجت آخر بي لكان ذلك الآخر رجلي. والرجال عندي سواء كما تعلم.

وسألها سيدها، وهو يغمز لها بإحدى عينيه:

- والعجائز أيضاً يا لينيو؟

وردت الفتاة بطريقة قاطعة رادعة:

- حقيقة لا... الفتيان فقط.

ودل عليها العجوز قائلاً:

- حتى كم من العمر؟

- طالما وأنهم قادرون على الإنجاب.

قالت ردها هذا في غير تردد. بدت وكأنها تدبرت كل هذه المشاكل من قبل وقطعت فيها برأي.

- إن لك عقلاً ماضياً كحد الموسي. تذكرني ما أقوله لك: أنت تعرفين بغيتك. سترحلين عن هنا. ضحكت الفتاة ونهضت من مكانها. أخذت القدح الفارغ وعادت إلى الباب ولكن العجوز أوقفها.
سألها:

- ما هو التاريخ اليوم؟ كم من أبريل؟..

وعدت لينيو على أصابعها الأحد، الإثنين، الثلاثاء...

- السابع والعشرون يا سيدي.

- عليك بالانتظار ثلاثة أيام آخر، حتى يتنازل صاحب السعادة مانولي ويبلغنا إجابته. لو بلغ به السفه إلى الحد الذي يرفض فيه مثل هذه الجوهره، فلا تجزعي يا لينيو، سأجد لك زوجاً خيراً منه، رجلاً بكل معنى الكلمة، ليست له روح ولا ما شابه ذلك من الترهات التي يحدثنا بها... زوجاً يملأ فناء بيتك بالأطفال. هيا اجر. يحسن أن أنهض اليوم وأقصد الكنيسة، ثم أبدأ بعدها جولة في القرية... آتني ملابس نظيفة.

تمتمت لينيو وهي تنزل الدرج، وتعمل بصدرها ضحكة حبيسة كأن ثمة من يدغدغها:

- يا له من شيخ يثير الاشمئزاز.. كان يلتهمني بعينه.. قسمًا بإيماني لو لم يكن هذا الشيخ أبي لعرفت كيف أغريه بالزواج بي، ولا بأس إن عجز عن إنجاب أطفال. وماذا يهم في ذلك فثمة آخرون قادرون. ولكن الشيطان قلب الأوضاع كلها رأساً على عقب. ولكن، لا بأس. إن مانولي ليس سيئاً إلى هذا الحد.

في هذه اللحظة ظهر نيكوليو عند عتبة الباب. نال منه الحر، وتساعد من جسده البخار، وعبق الفناء برائحة الماعز والطين. كان يشبه جدياً واقفاً على قدميه الخلفيتين، أو ربما ملاكاً صغيراً في سورة غضب.

ما إن أبصرته لينيو حتى توقفت، واقتشعر بدنهما وتمتت:
- من هذا؟ ما أطيّب رائحته.

ثم صاحت:

- ماذا تريد؟ هل أنت نيكوليو؟

ورد الراعي الصغير بصوت متكسر كأنه رجع الصدى:
- أنا نيكوليو.

- أنا لا أكاد أصدق، أصبحت الآن رجلاً بمعنى الكلمة، واخضر شاربك. ما
الذي أتى بك إلى هنا؟

- بعث بي مانولي مع الصباح الباكر لأخبرك شيئاً، ولهذا جئت إلى هنا.
اقتربت منه لينيو بقلب واجف. وقالت:

- مانولي؟ لا تصرخ فلست فوق الجبل. تحدث هنا بصوت رقيق. ماذا قال
لك لتخبرني به؟

- قال لي ما يلي «إليك تحيات مانولي. هل لك أن تتكرمي بالصعود إلى
الجبل. لديه ما يقوله لك».

- هل هذا كل شيء؟ حسن، قل له إنني قادمة... انتظر، لا تنصرف. وكيف
حاله؟

- إنه بخير. إنه بخير تماماً.

قال نيكوليو ذلك بصوت عال، ثم ولى عنها مسرعاً تاركاً وراءه عبيراً نفاداً.
في هذه اللحظة خرج ميشيل إلى الفناء، يرفل في ملابس يوم الأحد الناعمة،
حليق الذقن، ممشط الشعر، وتهياً للذهاب إلى الكنيسة يستمع فيها لبعض كلمات
الإنجيل، ويزور ماريوري. توسط الفناء بادي القلق، كأنه ملاك. جمدت لينيو في
مكانها لحظة من الزمان مسلوقة اللب من فرط الإعجاب. وحدثت نفسها «لا بد
وأن أبي كان على هذه الصورة في شبابه، كأنه القديس جورج».

وضع ميشيل على رأسه قلنسوته التي كان يمسك بها في يده، وقال:

- صباح الخير يا لينيو. إنني ذاهب إلى الكنيسة.

أجابت لينيو مداعبة:

- في رعاية الله. اذهب إلى هناك توا يا سيدي. إياك أن تحيد عن الطريق.
ورد عليها ميشيل وكان قد لمح الرسول الذي اختفى سريعاً عن الأنظار.
- يقيناً ستحيدين أنت عن الطريق. ستذهبين تَوًّا إلى مانولي. فما حاجتك إلى الشكوى.

أحست الفتاة كأن كلماته لدغتها، فدفعت عن نفسها الاتهام قائلة:
- لست أشكو - من قال ذلك؟ إننا معشر الخدم بشر أيضاً. إن الله بوسع رحمته يقينا من ذل الشكوى. ولو ارتدى مانولي ملابسك يا سيدي لبدأ هو الآخر سيداً أنيقاً مهندماً.

وأجاب ميشيل وهو يجتاز عتبة الباب:
- أنت على حق يا لينيو. نعم أنت على حق. الملابس هي الشيء الوحيد الذي يفرق بيننا.

وبدأت الأجراس تدق معلنة بدء القداس.
- حسن. إني ذاهب يا لينيو. آتينا بأخبار طيبة من الجبل.
وأجابت لينيو بلسانها السليط:
- وآتينا أنت أيضاً بأخبار طيبة عن بنت القسيس.

عبرت الكنيسة برائحة الشمع والبخور. وتلاّأت الأيقونات في وداعة فوق أعمدتها. وأضاءت صور القديسين والملائكة المجنحة بألوانهم المتعددة على جدران الكنيسة، من أول الدور الأرضي الذي كسته الأعلام حتى القبة. يشعر المرء عند دخوله هذه الكنيسة البيزنطية القديمة كأنما يهيم في رحاب جنة تعج بطيور رائعة الحسن، وأزهار تسامق الإنسان، وملائكة كأنهم نحل عملاق يحلق فوق الأزهار، ينتقل بينها ليحني منها الرحيق. واعتلى الإله القوي القدير القبة متربعا على عرشه، عاتياً، متوعداً، يطل من عليائه على رؤوس البشر.

ومن تحت وقف المؤمنون على البلاط يظنون هم أيضاً، الرجال في الصدارة، والنسوة من ورائهم. وفدوا إلى الكنيسة وانحنوا أمام الأيقونات، وتنسموها بأنوفهم ثم استقاموا هائمين في ملكوت السموات مصغيين إلى الترانيم. وامتدت مقاعد الأعيان وراء النضد الذي صفت عليه شموع وصحاف من فضة. لم يكن

ثمة من يتوقع حضور الشيخ بطريار كاس. أما الكابتن فورتوناس، هذا التعس، فلا زال طريق فراشه يئن ويتوجع. لم يحضر من الأعيان سوى ناظر المدرسة بنظارته وياقته البيضاء، وإلى جانب الأب لاداس قابعا في ركنه يتمتم بشفتيه. كانت الكلمات التي يلوكها بين أسنانه تطبع على شفتيه طعما مرًا. أتاه ياناكوس البارحة بأخبار سيئة. فإن أولئك الناس ذوي الأسمال البالية الذين هاموا على وجوههم زهاء شهور ثلاثة في الطرقات والدروب باعوا، على حد زعمه، آخر ما كان معهم من المجوهرات. ولم يبق لهم سوى أصابع عارية. وأي نفع للأصابع يا أب لاداس؟ إنها لا تفضل الآذان بغير أقراط. ولعن القدر. ووقف وراء النضد يئن بالشكوى «إني تعس، لا حظ لي، ليت القرية المنكوبة كانت قرب ليكوفريسي حتى كنت أبدأ صفقتي في الوقت المناسب.. ما فائدتها الآن بعد أن أصبحت خرابًا؟ ليأخذها الشيطان».

كان المؤمنون ما زالوا يتوافدون، يضعون بعض ما يتصدقون به من مال في الطبق، ويأخذون شمعة ويرسمون علامة الصليب، ثم يتجهون إلى الحجاب. كان الأب لاداس شارد اللب. «من حسن الحظ أن وقع هذا الأبله إيصال الجنيهاات الثلاثة. لو كنت مكانه...».

لم يجد فسحة من الوقت ليتابع سلسلة أفكاره. إذ دخلت جثة ضخمة، حطت بجواره، وأز المقعد تحت ثقلها. واستدار متبرمًا، فأبصر الشيخ بطريار كاس، شاحب الوجه، مترهل الوجنات، جامد النظرات، أصفر الشفتين وفيهما جفاف. وقال لنفسه: «هذا الخنزير الشحيح البدين لن يموت أبدًا» واستدار ناحيته في كياسة وحياه.

وهمس بصوت كليل «أتمنى لك صحة طيبة يا عمدة» ثم استغرق في همومه. أضاءت الكنيسة بنور ميشيل حين أشرق عليها. جاء متأخرًا، حيث عرج على بيت ماريوري التي كانت في انتظاره. كانت وحدها في البيت، فيما عدا المربية العجوز الصماء التي كرست حياتها لخدمتها.

قالت ماريوري التي وقفت وراء الباب مسندة ظهرها إليه:
- غبت عني زمانًا.

ارتدت هي الأخرى أحسن لباسها. تتلأأ حول جيدها قلادة من العملات الذهبية البيزنطية ورثتها عن أمها. ومست وجنتيها في رقة بخضاب الزينة الأحمر الذي اشترته بالأمس من ياناكوس. ولكن عينيها كليتان كأنما كانت تبكي، تحيط بهما دائرة زرقاء شديدة الزرقة. أمسكت بمنديها تضعه على فمها بين الحين والآخر.

وسألها ميشيل الذي ساورته الهموم:
- لماذا بعثت في طلبي؟ ماذا يزعجك يا ماريوري؟
غضت ماريوري من طرفها وأجابت:
- أبي في عجلة من أمره. يريدنا أن نتزوج.
- ألم نتفق على عيد الميلاد يا ماريوري؟ لم يمض عام بعد على وفاة أمي، وهذا لا يليق..

وعاودت الفتاة حديثها بصوت خافت:
- إنه عجل. كل يوم يدور خصام بيني وبينه. يهب من نومه كلما انتصف الليل ويذرع الحجرة جيئةً وذهاباً، ويستعصي عليه النوم.
- لماذا؟ وما سبب تعجله؟
تمتمت ماريوري بصوت مرتجف:
- لا أعرف يا ميشيل.. لا أعرف.
كانت تعرف تماماً سر قلق العجوز ولكنها لا تجرؤ على الإفصاح. وهي تدرك في أعماق نفسها أن أباهما على صواب ويلزم الإسراع.
وقال ميشيل:

- لم يكن أبي يحب أمي، إذ كانت تكبره سنًا، وعاشت حتى تقدمت بها السن، واعتادت أن تزجره.. وسئم حياته معها ولذلك لم يحزن على موتها. وأيًا كان الأمر فإنه لا يجرؤ على الخروج عن التقاليد ولما يمض عام بعد. هذا فضلًا عن أنه عمدة القرية ورئيس أعيانها ويجب عليه أن يضرب المثل.. هل تفهميني يا ماريوري؟

- أفهمك، أفهمك.. ولكن أبي فقد صبره كما أقول لك، ويلومني.. ولم أعد

أحتمل المزيد.

وأحست بالسعال يغالبها، ولكنها كظمتها، ووضعت منديلها على فمها. وبدأت يدها الصغيرة ترتجف بين راحة ميشيل، وبللها العرق. وفجأة تطلع إليها ميشيل منزعجًا. أصابها الهزال بصورة تثير الخوف. ونبأت عظامها من تحت جلدها الناعم. وبات وجهها يشبه الجمجمة. ضغط على يدها، ثم ضمها إلى صدره وغمغم:

- ماريوري.. ماريوري..

خيل إليه كأنها ستفارقه وهو عاجز عن أن يبقها، كأنها ليست سوى حفنة من الرمل في راحته، تنساب حبيباتها من بين أصابعه تودعه.

قالت الفتاة وهي تحاول أن تمسك عبراتها:

- حبيبي ميشيل. يجب أن تنصرف الآن. اذهب إلى الكنيسة. سأتي أنا أيضًا بعد لحظة.. تأخرنا. اذهب. لعل الله يشملنا ببركته.

أمسكت برأسه بين يديها وضمته إلى صدرها فترة من الوقت. كان بدننها كله يرتجف.

وتمتت ثانية «لعل الله يشملنا ببركته». ثم ولت مسرعة إلى الداخل، وألقت بنفسها بين ذراعي مربيتها كأنما غشي عليها.

فتح ميشيل الباب في هدوء، وحث الخطى قاصدًا الكنيسة، منقبض القلب، ضيق الصدر.

ظل واقفًا قرب مقعد أبيه. والتفت إليه الشيخ معجبًا به. وقال لنفسه «هكذا كنت يومًا ما.. هكذا كنت يومًا ما.. أيتها الحياة المضنية، تمضين كأسطورة من أساطير الجان.

في هذه الأثناء كانت لينيو فرغت من تسريح شعرها. ورشت عطر ماء البرتقال على شعرها وداخل صدرها. وسوت حول رأسها منديلها الأصفر ذا الأهداب الحمراء، الذي أهدها لها سيدها في عيد القيامة، ثم خرجت تشق طريقها بين الدروب ميممة شطر الطريق الصاعد إلى جبل العذراء.

انتهى القداس، وتفرق أهل القرية في الميدان، يروحون ويجيئون، عليهم

ملابس يوم الأحد، وبدخلهم تقوى يوم الأحد. أم بعضهم مقهى قسطندي
يشربون ويضحكون.

وكان الأغا كعادته جالساً في شرفته يدخن نارجيلته. عن يمينه حسين يمسك
بالنفير، وعن شماله يوسف فاكى يصب له الشراب ويمضغ اللبان. ضيق الأغا عينيه
الدامعتين يرصد بهما أهل القرية في الميدان من تحته كراع يطل على قطيعه في
حذب ولهفة. كان يؤمن بأنه إنسان ومن عداه أغنام، يأكل اللحم ويأكلون هم
الخضر. وتفضل عليهم الأغا إذ سمح لهم أن يطعموا في سلام حتى يوفروا له
حاجته من الصوف واللبن واللحم.

وكانت لينيو ترتقي الجبل بقلب استخفه الفرح. توهمت ما يريده مانولي.
سيعقد قرانهما هذا الأسبوع. انتهى انتظارها الطويل إلى غير عودة، والحياة الحقة
على وشك أن تبدأ- سيكون نهاري عملاً في البيت والمطبخ وليلي قبلاً وأحضاناً.
وبعد تسعة أشهر.. طفل أهدهه.. لن أكون خادماً بعد اليوم، سأكون زوجاً وأماً..
كانت تحب مانولي، فتى وديع، مجد في عمله، وسيم، أشقر اللحية، أزرق
العينين، رقيق الملامح- صورة صادقة للمسيح.

استخف الفرح قلبها فصار له جناحان، سبقها بهما إليه وارتقى الجبل سريعاً،
حتى بلغ أرض المرعى وحوم حولها، ثم حط على كتف مانولي كطائر حجل
أنيس بدين أحمر المخالب. داعب بمنقاره في هيام عنقه من أمام ومن خلف.
وحدثت نفسها قائلة:

- لا بد وأنه جالس الآن فوق الصخرة الناثئة عند أول الطريق ينتظرني. أحسب
أن قلبه كقلبي طار فرحاً.

وكانت على حق. فقد جلس مانولي فوق الصخرة الناثئة. طفق يمسح وجهه
المتورم، الذي نكأت جروحه وعادت تنز.
وقال لنفسه:

- إنني حزين من أجل هذه المخلوقة التعسة. إنني حزين من أجلها.. ولكن
قضي الأمر.. بات لزاماً علي أن أحرر نفسي من الغواية، وأطهر النفس والبدن
حتى أكون جديراً.

وأرشف السمع، تناهى إلى سمعه وقع خطواتها، خفيفة سريعة، وتنسم
شذا زهر البرتقال الذي تضوع به الهواء، إنه شذاها.. تنسمته أنف على البعد..
وحدث نفسه:

- إنها قادمة.. إنها قادمة.. ها هي ذي، ها هي ذي..
ظهر المنديل الأصفر على البعد. وتوقفت لينيو هنيهة، وأظلت عينيها براحتها.
أبصرت خطيها جالسًا فوق الصخرة النائية ينتظرها، منكس الرأس. وصعدت
بخطوات وثيدة.

عاود مانولي حديثه إلى نفسه:
- ها هي ذي.

رفع رأسه واستوى واقفًا وظل جامدًا في مكانه.
تظاهرت لينيو بأنها لم تبصره، أملًا في أن يشب نحوها كعادته ويمسك بها من
خصرها يعينها على الصعود كما كان يزعم لها.. بيد أن مانولي اليوم لبث مكانه
ولم يبد حراكًا.

لم تطق صبرًا. وصاحت به:
- مانولي.

لم يجب مانولي. ظل واقفًا فوق صخرته واجمًا جامدًا بغير حراك.
بدأت لينيو تعدو حتى اقتربت منه، ورفعت رأسها وأبصرته فصرخت مولولة:
- يا سيدتنا العذراء.
وخرت إلى الأرض.

نزل مانولي انتشلها من على الأرض. غطت عينيها بذراعها الأيسر، ومدت
ذراعها الأيمن تتحاشاه.

وصرخت بصوت أجش:

- إليك عني. إليك عني. إليك عني.

وقال مانولي بصوت رقيق:

- انظري إليّ ثانية يا لينيو. انظري إليّ وبعدها ستعافني نفسك إلى الأبد ويكون
خلاصك مني..

ولولت الفتاة التعسة:

- لا. لا. إليك عني.

تراجع مانولي، وعاد إلى صخرته، وجلس فوقها.
ظلا كلاهما واجمين لفترة غير قصيرة. وكانت لينيو أول من قطع هذا الصمت
حين صاحت:

- ما هذا؟ أنبئني بحق السماء.. ما هذا؟

وأجاب مانولي في هدوء:

- إنه الجذام..

وارتعدت لينيو، وأشاحت بوجهها ناحية القرية. وقالت:

- إني راحلة. ألهذا بعثت في طلبي؟

وأجاب مانولي وهو ما زال محتفظاً بهدوئه:

- نعم، لهذا السبب. هل تستطيعين الزواج مني الآن؟.. لا. لن تستطيعي. هل
تريدين أطفالاً مصابين بالجذام؟ لا. لا تريدين. اتركيني.

مرة أخرى ظلا صامتين. وفجأة أجهشت الفتاة ببيكاء عنيف هز كيائها.

أدار لها مانولي ظهره ليذهب إلى المرعى. وقال لها:

- مع السلامة يا لينيو. وداعاً.

لم تجب لينيو. مسحت عينيها بمنديلها الأصفر الناعم، وتلفتت حولها ووهن
جسمها، لا تدري إلى أين تذهب. واختفى مانولي، وبدت الأرض صحراء قفراً
تدور لغير هدف.

بلغت الشمس سمتها وهمدت الأصوات فيما خلا رنين أجراس الماشية وهي
في طريقها إلى شجرة السنديان ترقد تحتها، تستظل بظلها. وللحظة من الزمان
صاح ناي بلحن شجي في هذه الخلوة، ولكنه خفت فجأة.

ظلت لينيو تردد بين نفسها في هلع:

- الجذام.. الجذام.

وسرت في جسدها رجفة رغم قيظ الظهيرة اللافتح.

ترى كم من الوقت مكثت هناك قابعة في مكانها بين الحجارة مطوية حول

نفسها. إنها لا تدري، تخالها دهرًا وهي لا تعدو دقائق معدودات. ذلك لأنها حين نهضت من مكانها لتنصرف كانت الشمس لا تزال جامدة بغير حراك تعطي كبد السماء.

عاد الناي يردد من جديد لحنًا فيه شجو وطرب ومناجاة.. كأنه روح أخرى لا تطيق الوحدة.

سارت لينيو مسلوقة اللب في غير وعي، واتجهت صوب الناي كأنه يدعوها. خيل إليها كأنها سمعت اسمها يناديها به. سارت مترنحة الخطو، لاهثة الأنفاس، وبعد خطوات قليلة أرهفت السمع. أصبح الناي أكثر قربًا، وأمعن تضرعًا إنه يناديها ويجذبها إليه.. لم تعد قادرة على الممانعة، وواصلت المسير شاردة الحس. وعلى حين غرة طالعته الأغنام، راقدة تحت شجرة سنديان سامقة، نبت داخل تجويف في الجبل. أراحت الأغنام رقابها على الأرض تستمتع ببعض رطوبتها. لم يبق منها غير اثنين كأنهما يتأهبان للطراد والمناطحة. ووقف بالقرب منها الراعي الصغير نصف عارٍ يثب ويرقص معهما، وبين شفثيه ناي طويل.. يرفع طرف الناي من بين شفثيه بين الحين والحين ليصرخ صرخات وحشية ويصفق بيديه، ويصدر عنه صياح كأنه نغاء، ثم يعود إلى العزف ثانية، وينساب اللحن عاليًا أكثر فأكثر.

تقدمت لينيو مسحورة، مترددة الخطو. كان الراعي الصغير يوليها ظهره، ومن ثم لم يبصرها. وها هي لينيو الآن تستطيع أن تتبين كل ما حولها: كبش له إلية ثقيلة وقرنان ملفوفان يلاحق نعجة بيضاء، يحاول أن يعتليها وهي تفلت منه. يشب الكبش على قدميه الخلفيتين مهتاجًا ويعود ليمسك بها من جديد بحافريه الأماميين وي طرح نفسه فوقها ويصدر عنه أنين خافت كأنه يتوسل إليها.. والراعي الصغير يتابع معركة الحب، يثب في مكانه ويصيح صيحات رقيقة يعضد بها الكبش في توسله.

وصرخ:

- هيا يا داسوس.. اقفز عليها يا داسوس..

ثم عاد إلى الناي ثانية يعزف.

وقفت لينيو مبهورة النفس وراء الراعي الصغير مباشرة. كانت تلهث وتدلى لسانها من فمها مثل النعاج. وأحست بألم في يديها.

وفجأة جمدت النعجة في مكانها، منهوكة القوى، وكأنها هي أيضًا لم تعد قادرة على كبح جماح شهوتها. واعتلاها داسوس بوثة واحدة، وغطاها تمامًا. تدلى لسانه وبدأ يلحق رقبتها ويعضها خفيًا في حنان. تصبب الكباش عرقًا حتى ابتل صوفه، وعبق الجو برائحة الذكورة.

ألقي نيكوليو بالناي جانبًا، ونزع عن جسده ما بقي من ملابس حتى أضحى عاريًا تمامًا، والعرق يغطي جسده، وبدأ يرقص ويتمايل مقلدًا حركات الكباش.

نفرت العروق في عنق لينيو، وغامت عيناها، وبغته استدار نيكوليو وهو يرقص، أبصرها فانقض عليها، وطحها أرضًا قبالة الكباش والنعجة. وقنعت لينيو بالاستسلام.

الكابتن يهوت

الكابتن فورتوناس المسكين حالته سيئة تمامًا يا أغا. عظام جمجمته لن تلتئم ثانية. حاولنا الكثير! المراهم والدهانات - بل إن القسيس جريجوريس ذهب إليه بنفسه ليقرأ عليه الصلوات. وزارته أيضًا امرأة من نساء الغجر، وقرأت له الطالع. وأشعلوا له شمعة في دير القديس باندليمون صاحب المعجزات في إبراء المرضى. وأكل بعض لحم القطط - إذ يقال إن لها سبعة أرواح. وكل هذا لم يجد فتيلًا فلا الرب الرحيم، ولا الشيطان الرجيم يريد لقبطاننا المرحوم شفاء. أفلتت كلمة «المرحوم» من لسان الأم ماندالينا عن غير وعي منها، فعضت شفيتها. وتمتعت:

- لعل بأذن صاحبنا وقرأ فلم يسمعي.

ثم عادت وانطلق لسانها في غبطة وسرور:

- بعث اليوم في طلب ميشيل ابن عمدة القرية، حتى يمليه وصيته على حد قوله. وأنا الآن يا أغا ذاهبة لآتيه بالقسيس جريجوريس ليقدم له المسحة الأخيرة. رفع القبطان مراسيه وها هو يتأهب للإبحار. دعاني منذ فترة وجيزة وقال لي: «يا خالة ماندالينا، أكرميني واذهبي إلى الأغا، قولي له: تقبل خالص تحيات كابتن فورتوناس جرينهورن. إنه ينشر قلاعه، هكذا قال، ويتأهب للإبحار، فإلى اللقاء» ولهذا أتيتك يا أغا، فأنا الأم ماندالينا.

كان الأغا جالسًا على حشيته غافيًا، منتفخ الجفنين، متهدل الوجنتين، حافي القدمين، أشعث الشعر، لم يغسل وجهه بعد، ويشرب القهوة ليذهب بها عنه أثر

النعاس . كان ينصت إلى الأم مائدالنيا كما ينصت المرء لخرير ماء المطر . وعندما سكتت فتح الأغا فمه في تراخ وكسل وسألها وهو يتثائب :

- وماذا عن مخه ؟

- إنه يعمل على خير وجه يا أغا، ساعة منتظمة .

وصمت ثانية : أحس تراخيًا في جسده فتثائب مرة أخرى وسألها وما زال فاعرًا فاه :

- هل هو خائف ؟

- إنه لا يشعر بذرة من الخوف، هذا العزيز، لا يشعر بذرة منه . يضحك لحديثك عن الله كما يضحك لحديثك عن الشيطان . إنه، أستغفر الله، لا يعبأ بهذا ولا ذاك على السواء .

- هل يشرب ؟

- يشرب ولكن في غير إفراط .

- حسن . قلولي له عندما أصبحو من نومي سأذهب إليه أودعه . قلولي له أيضًا أنني سأتي بحسين حارسي لينفخ في النفير . وسأتي بيوسوفاكي، قلولي له هذا، ليغنيه أغنية أمان المحببة إليه - وهو يعرف أي أغنية أقصد . ها أنذا فرغت من القهوة وسأدخن غليونني وأشرب قليلًا من العرقي، ثم يأتي يوسوفاكي ليدلك ساقِي، وبذلك أكون صحتوت تمامًا . وبعدها أنزل .. انتظري، اسمعي : قلولي له لا تتعجل الرحيل وتموت قبل أن أصل إليه .. قلولي له ذلك ! عليه أن ينتظرني . هيا انصرفي الآن .

رقد الكابتن على فراشه موليًا ظهره للحائط، هادئ النفس، رابط الجأش، ثابت الجنان، شاحبًا أضناه الهزال . نتأت عظامه من بين جلده المدبوغ . وحول رأسه ضمادة محكمة عريضة، حمراء يابسة من أثر الدم الذي تجلط فوقها . وعيناه الضيقتان تلمعان في خبث ونشاط مثل عيني القرد الذي رآه ذات مرة في أوديسا . وعلى منضدة صغيرة بالقرب منه ترى غليونًا وزجاجة العرقي وكذلك تمثالًا نصفيًا صغيرًا من الجبس للملكة فيكتوريا . اشتراه ذات يوم من ميناء بعيد . قال

لنفسه عنها آنذاك: «فحلة، حسناء ربلة، ثدي ناهد ممتلئ.. أحبها».. واشترى التمثال. ومنذ ذلك الوقت وهو يحتفظ به إلى جانبه. كان يقول أحياناً «إنها زوجي، لها شارب ليس لي مثله، ولكن أي باس في هذا؟ إني أحبها». ثم يقهقه بعدها عالياً.

جال بعينه يستطلع محتويات عشه المتواضع. حوائط متسخة، وعوارض خشبية يغطيها العنكبوت، وأرفف خاوية، وصندوق طويل مليء بالملابس القديمة، ونعال بالية، وصداريات من الفانلة، وحبال، وقلة ماء وضعت داخل كوة في الحائط، ودمجانة عرقي في ركن من أركان الحجرة. استقرت عينه فترة على صورة فوتوغرافية قديمة سمرت على الحائط المواجه لسريره. إنها صورة سفينته الغابرة- منشورة القلاع، يرفرف فوق مؤخرتها علم اليونان، ويعلو فوق مقدمها تمثال لامرأة من نساء الأساطير عارية الصدر. ويقف هو هناك بجانبها يمسك بالدقة وبقما كان يناهز الثلاثين من عمره. وتخيل نفسه وقد اعتلى ظهر السفينة التي لوث صورتها براز الذباب. رفع مراسيه واتخذ سبيله في البحر. ولكن ضباباً كثيفاً أحاط بها- واستطاع كابتن فورتوناس، بمشقة كبيرة، أن يميز أمامه جزراً وسواحل وأتراكاً يقفون فوق الرصيف وعلى رؤوسهم الطرايش الحمراء، ونسوة عاريات الصدور، يشبهن التماثيل التي توضع عند مقدم السفينة، وعلى الميناء حانات عبقت بسحابات من دخان السجائر والغلايين والسّمك المقلي.. كل شيء طواه النسيان، أفراحه وأتراحه في الحياة، جراحه التي أصابته في حرب ١٨٩٧ حين تطوع لتهديب المؤن والذخائر على ظهر مركبه إلى داخل اليونان... حبه الذي كاد يسلبه عقله- فتاة ترقية لا يذكر اسمها الآن ولا أين.. في القسطنطينية؟ أم في سмирنا؟ أم في إيفالي؟ أم في الإسكندرية؟ وهل كان اسمها أم كلثوم؟ أم فاطمة؟ أم أمينة؟.. إنه لا يذكر شيئاً من هذا كله، فإن ستاراً كثيفاً من الضباب يحجب كل هذه الأحداث العابرة. ولكن حدثاً واحداً من بين كل أحداث حياته الماضية، ظهر من خلال هذا الضباب الكثيف غارقاً في النور. كان ذلك في باطوم في شهر أبريل، يوم عيد القديس جورج. دخل يومها مع ثلاثة من أصدقائه حديقة غناء ملأى بالأزهار الحمراء الفاقعة الكبيرة. جلسوا فوق الحصباء، وشرعوا في

أكل وشراب وغناء. ولفوا رؤوسهم بعمائم ذات أهذاب. وكانت الشمس ساطعة، والبحر رخاء عطر الأريج، وليس من امرأة تؤنسهم. كلهم رفاق أنس وطرب، أحدهم أشقر الشعر والآخر أسوده، وكان أحدهم ويدعى جورج، كان هذا يوم عيد ميلاده. ومن عجب فبينما هم في أكلهم وشرابهم وغنائهم إذ تساقط الرذاذ رقيقًا حانيًا، يغسل أوراق الشجر العريضة، ويرقش الحصباء المنشورة في الحديقة. وتضوعت الأرض بشذا عطر وحاكت البحر رقة وجمالًا. ودخل الحديقة ثلاثة من الأرمنيين معهم ماندولين ومزمار ورق. وجلسوا القرفصاء تحت الأزهار الحمراء الداكنة وشرعوا يغنون أغنيات أمان..

ما أبهجها تلك اللحظة وما أرقها! كانت الحياة بين راحة الإنسان تغرد كطائر صغير عاشق.. أجهد كابتن فورتوناس فكره، ولكنه لم يستطع أن يتذكر شيئاً آخر. لا شيء آخر. تبددت حياته كلها وسط سحبات الدخان. لم يبق منها سوى ذكراه عن صحاب الأنس والرذاذ الحاني في باطوم. وتمتم قائلاً:

- عجباً! هل هذه هي كل حياتي؟ حياتي كلها ليست سوى ذلك فقط؟ رذاذ رقيق حان، وأصدقاء ثلاثة وبضع زهور حمراء.. عجباً! لا شيء آخر أذكره عن حياتي! أنا يا من ظننت أنني ابتلعت العالم كله..

ومديده ليرفع كوب العرقي من على المنضدة الصغيرة، ولكن في هذه اللحظة فتح الباب ودخل الأغا. كان يرتدي زيه الرسمي الفاخر كأنه ذاهب إلى عرس. السروال الأحمر، والمسدس الفضي، وطزلق جديد زاه، ومنديل حريري يرفرف تحت ذراعه وشاربه مصبوغ. وقدم وراءه يوسفافي، أبيض غصاً كالخبز الطيب، نصف نائم، يمضغ شيئاً في فمه. ووراءه حسين ومعه نفيره، شرساً عبوساً. وقال الأغا في لهفة:

- أتمنى لك رحلة هادئة وريحاً رخاء يا كابتن فورتوناس. أنبأوني أنك اعتليت ظهر السفينة وأزمعت الرحيل.

- الشراع منشورة يا أغا، في انتظار أول ريح قادمة. وداعاً.
قال الأغا ضاحكاً وهو يلقي بجسده في ثقال وصخب فوق الصندوق القديم:

- وإلى أين عقدت العزم بحق الشيطان أيها المقدس جرينهورن؟ هل تنوي الرحيل الآن عن هذه الدنيا؟ تريث قليلاً. أحضروا لي منذ أيام قلائل بعض العرقي.. رائع يا صديقي، ممزوج بنقيع التوت الأسود. هذا كل ما قصدت أن أخبرك به. انتظر قليلاً لتكون نديمي في شرابه ثم لك أن ترحل بعد ذلك.

- وداعاً يا أغا، هذا هو قولي لك، انتهى كل شيء. رفعت مراسي، وأمسكت بالدفة، وما أنذا متأهب للإبحار. لتكون نديم نفسك في شراك.

- وإلى أين عقدت العزم يا صديقي المسكين؟ هل تعرف وجهتك؟

- الشيطان وحده يعلم ذلك. كل ما أعرفه أنني ذاهب إلى حيث تقذف بي الريح.

- وماذا عن ديانتك الرومية؟ ماذا ترى هي في ذلك؟

وأجاب الكابتن وهو يلوح بيده:

- أوه لا لا لا، لو أخذت بما تقوله ديانتي فإنني ذاهب تَوّاً إلى حيث يكون الشيطان.

وضحك الأغا.

- لو أخذت أنا بما تقوله ديانتي فإنني ذاهب تَوّاً إلى الفردوس. إنها غنية بالفطير والخور العين والغلمان من أمثال يوسوفاكي. ولكن أنبئني يا كابتن. ماذا لو كانت ديانة كل منا تسخر بنا؟ إن هذه الدنيا حلم، والحياة خمر، يعب منها المرء ويسكر بها. حار فكرنا: أنت تمثل دور الرومي، وأنا الأغا التركي.. دعنا من هذا. جرينهورن- لا أكتمك القول، إن هذا يحيرني.

والتفت إلى الغلام الوسيم:

- قم يا يوسوفاكي. لمحت عيني دمجانة عرقي هناك في الركن. قم وصب لنا الشراب.

دخلت الأم ماندا لينيا ومالت على الكابتن وهمست في أذنه:

- يا كابتن، سيكون القسيس هنا بعد لحظة ومعه القربان المقدس، لا داعي لشرب العرقي.

- أي قسيس تحدثيني عنه أيتها العجوز الحيزبون؟ اخرسي. خذي الدمجانة

ودوري علينا بالشراب.

وزمجرت العجوز. وملأت الأقداح بيد مرتعشة. وقف الأغا، واقترب من السرير وبادل الكابتن تحية الشراب بأن قرع كأسه.

- رحلة ممتعة يا جرينهورن.

- رحلة ممتعة لك أيضًا يا أغا.

وضحكا. وأحس كل منهما بالرضا.

وقال الأغا وهو يمسح شاربه:

- تدبر يا كابتن وانظر كيف أصبحنا أنا وأنت صديقين.. هه؟ ألم نقض معًا وقتًا طيبًا؟! ألم نأخذ الأمور معًا مأخذًا سهلاً؟

وقال الكابتن الذي بدأ يشعر بدوار في رأسه:

- ها هو القسيس آت ليقدم لنا التناول يا أغا. وداعًا.

- انتظر يا صديقي.. إلى أين؟ لا تتعجل. أتيتك بيوسوفاكي ليغني لك قبل

الرحيل أغنيتك المفضلة أمان. لن ترحل عنا قبل سماعك أغنية يا عزيزي الصديق العجوز.. تعال يا يوسوفاكي، أسمعنا يا صغيري صوتك وغن أمان!.

أخرج يوسوفاكي كرة اللبان من فمه، وألصقها بركبته، ورفع راحته اليمنى في فتور وأسندها إلى خده. وما كاد يفتح فمه حتى مد الأغا ذراعه وقال:

- انتظر يا كنزي. يجب أن ينفخ في النفير أولاً.

ثم التفت إلى حارسه الخاص وأمره:

- افتح الباب وقف عند عتبة وانفخ في النفير لحن التأهب للهجوم.

فتح حسين الباب، ووضع طرف النفير بين شفتيه وبدأ ينفخ بقوة وعنف.

وصاح الأغا:

- كفى. الآن دورك يا يوسوفاكي. أسمعنا أغنيتنا أمان.

ومرة أخرى ارتفع صوت الغلام رخيماً صافياً جياشاً. أنصت الكابتن في صعوبة، وفاضت جوانحه أسى وعذوبة. «دنيا تاير، رؤيا تاير. الدنيا والحلم شيء واحد أمان، أمان».

لم يشعر الكابتن في حياته قط بمثل هذا العمق الشديد كيف أن الدنيا والحلم

شيء واحد.. لا بد وأن سنة من النوم أخذته، وحلم بأنه كان يعمل رباناً يتنقل بين موانئ البحرين الأبيض والأسود، وأنه تطوع في الحرب وأنه كان يونانياً مسيحياً، وأنه الآن يحتضر.. ولكن لا، إنه لم يكن يحتضر وإنما كان يصحو من نومه، فقد انتهى الحلم وطلع النهار.

وبسط يده في رصانة:

- شكرًا لك يا صديقي الأغا، أنت وحدك الذي فهمت آلامي التي تعذبني. وداعًا أيضًا يا يوسف فاك، ليت فمك الصغير الجميل لا يصيبه البلى، ليته يتحول تحت الثرى إلى فص من الياقوت.

هاجت شجون الأغا. ومسح عينيه.

- مع السلامة يا عزيزي الكابتن. وإذا كنت أدعوك أحياناً جرينهورن فأنت تعرف أن هذا كان مني حباً ومودة. يجب أن تصفح عني. إيه.. أتمنى لك رحلة طيبة.

وانحنى عليه وقبله. وفاضت عيونهما بالدمع.

وقال الرجل المسجى على فراش الموت، بنبرات تفيض أسى:

- آه لا أستطيع أن أعبر لك يا عزيزي الأغا عن مدى حبي لك.

وافترقا.. وبعد هنيهة التفت الأغا إلى حارسه وقال له:

- انفخ في النفير ثانية لحن التأهب حتى يسمعه الكابتن ويشد من أزره.. أريد أن يعلم كل من في القرية أن عليه أن يشهد دفنه. إن عماداً من عمد القرية ينقض. وغطت صفحة السماء سحباً صيف رقيقة. وتساقطت قطرات رذاذ.

وصرخ الأغا:

- هيا نسرع يا أولاد، فإني أرتدي ملابس جديدة.

وأسرع ثلاثتهم الخطو.

التقى بهم ميشيل. كان يغذ السير، يحمل معه ورقة ومجبرة.

- كيف حال كابتننا يا أغا؟

- آه يا فتى، إنه بخير، رابط الجأش.. في الحقيقة إنه أسعد حظاً منا نحن الأحياء. يبدو كامل الوعي.

فتحت الأم مائدة الباب على مصراعيه. كانت تتوقع قدوم القسيس حاملاً
القربان المقدس. وبدلاً من القسيس ظهر ميشيل لاهث الأنفاس.

همست له المرأة العجوز:

- لا حاجة بك إلى العجلة يا بني.. ما زال صامداً. إنه كامل الوعي وهو طريح
فراش الموت، له سبعة أرواح كما يقولون... ادخل.
ودخل ميشيل وأغلقت وراءه الباب.

كان الكابتن واهن القوى، مغمض العينين. وعاد الدم يسيل فوق وجنتيه،
تساقط قطراته فوق الفراش. دنت منه المرأة العجوز، ومسحت قطرات الدم
وأسرت في أذنه قائلة:

- كابتن، حضر ميشيل ومعه القلم والمجبرة. تحامل على نفسك قليلاً.

رفع الكابتن رأسه المشجوج وفتح عينيه وقال:

- مرحباً بالفتى صاحب السيادة.

ثم أغمض عينيه ثانية وأغفى. جلس ميشيل فوق الصندوق ووضع الأوراق
بجانبه وانتظر.

وقالت المرأة العجوز بصوت واهن وهي تمسح عينها وأنفها الذي كان
يرشح:

- كان رجلاً طيباً هماً هذا المسكين. كان رجلاً طيباً رغم كل سلوكه
المعوج. زوجي المرحوم أيضاً!! ثم شرعت تحكي بصوت خفيض قصة
النائب التي حلت بها في حياتها. وأحست براحة في هذا. ولف ميشيل سيجارة
وبدأ يدخن، فله كوارث في حياته هو الآخر، ولكنه لم يسر بها إلى أحد... كان
ينصت إلى المرأة العجوز، بينما روحه عنها شاردة...

ونبح كلب بالقرب من البيت نباحاً كثيباً فهبت العجوز من مكانها حانقة:

- ياله من حيوان ملعون! لا بد وأنه رأى ملاك الموت حتى ينبح بهذه الصورة.
وفتحت الباب، والتقطت حجراً قذفته به ثم عادت ثانية.

فتح الكابتن عينيه وقال:

- ميشيل، أين أنت؟ ادن مني. لا أستطيع التحدث الآن بصوت عال. هات

ورقة واكتب!

وقال ميشيل:

- هون عليك يا كابتن. لا داعي للعجلة.

- اكتب، واحتفظ بعزائك لوقت آخر. لي سبعة أرواح استنفدت ستة منها ولم يبق غير واحدة، ها هي على شفتي توشك أن تنتهي هي الأخرى. تنبه جيداً واكتب، فلم يبق لي من حياتي غير أنفاس معدودات.

دنا ميشيل من الوسادة، وبسط ورقته وغمس قلمه في المحبرة.

- ها أنذا أصغي إليك يا كابتن.

- اكتب أولاً أنني في كامل وعيي، وأني مسيحي أرثوذكسي. واسم أبي تيودور كابانديس. ليس لي أطفال، ولا ذوي قربي أو أرحام ولا كلاب. لست متزوجاً، أسعدني الحظ بأن أفلت من هذا والحمد لله. كنت ذا مال وأكلته كله. كنت أملك بعض الحقول وبعثتها جميعها وأكلت ثمنها أيضاً.. لا لم أكلها بل شربتها. كان لي مركب وهذه هي صورته: تحطمت قرب تريبيزوند وغاصت في قاع البحر. ثم أشار إلى بقايا حطام الأثاث الذي يحيط به وقال: «وهذا كل ما بقي لي ولا شيء سواه». أريد أن أقسمها بين الفقراء وأصدقائي حتى يذكروني بها. يا أم ماندالينا اجلسي بجانبني واذكريها لي واحدة واحدة كما ترينها. وكل ما أنساه فهو لك. هيا، اكتب يا ميشيل. هل أنت مستعد؟

- مستعد يا كابتن.

- دمجانة العرقي الموجودة في ركن الحجرة أوصي بها للأغا، دعه يعيها في صحتي. السنّة الذهبية الموجودة في فمي، انزعوها واعطوها للأرملة كاترينا لتصنع منها قرطاً ذهبياً. وغليني ذو الطرف المصنوع من الكهرمان أهبه لمقهى قسطندي، حتى إذا وفد على القرية غريب من ذوي المكانة يدخنها فتنسيه غربته. وثمة عشرة كيلو من الشعر أوصي بها لحمار ياناكوس. يأكلها عشية دخوله أورشليم حاملاً المسيح على ظهره... بعض عملات فضية في حافظة نقوي- ليأخذها القسيس جريجوريس وإلا فإن هذا العجوز ذا اللحية التي تشبه لحية التيس لن يسمح بدفني وسيترك جسدي يتعفن في العراء. هذا كل ما عندي بالنسبة لهذه

الأشياء. أما الصندوق الذي تجلس عليه، فبداخله أسمال بالية وجلد من المشمع وقبعات قديمة، وأحذية ربانية وفانوس معتم وبوصلة، وقطع من الجبال. تصدقوا بها جميعاً على الفقراء الذين يسكنون كهوف سارا كينا. أعطوهم أيضاً ما لدي من جرار وأتية للطبخ والموقد والصحاف والملابس. نعم... وأعطوهم كذلك البن والسكر والبصل وزجاجة الزيت والجبن وقدر الزيتون... كل شيء، كل شيء، فأني حزين لهذا الشعب المسكين!

- هل كتبت كل هذا يا ميشيل؟

- انتظر لحظة حتى ألحق بك. لا تسرع يا كابتن.

- إني عجل يا فتى خشية ألا يسعفني الوقت... أسرع في كتابتك... عندي أيضاً كتاب «ألف ليلة وليلة» اعتدت أن أقرأ منه قصة كل ليلة من ليالي الأحد أسري به عن نفسي وقتما كان الآخرون يقصدون الكنيسة. يمكن لقسطندي صاحب المقهى أن يأخذه، وفي ليالي الأحاد، عندما يؤم أهل القرية مقهاه، بعد سماعهم للإنجيل، يعطيه لأحدهم يقرأ عليهم بعضه بصوت عال - إنه سيفتح عيونكم أيتها النفوس التعسة.. الإنجيل كتاب رائع تماماً، ولا اعتراض لي على ذلك، ولكن «ألف ليلة» كتاب جميل أيضاً. هل كتبت هذا يا ميشيل؟

- كتبت يا كابتن. استمر ولكن لا تشق على نفسك.

- تلفتي حولك يا أم ماندالينا. تلفتي حول البيت. هل ثمة شيء ثمين غفلت عنه؟

- نعلاك يا كابتن.

- لقد بلينا تماماً ولا يصلحاً إلا ليلقى بهما وسط القمامة.. انتظر، أوصي بهما للشيخ لاداس، هذا الشقي التعس. ما من مرة زرته إلا وألفيته حافي القدمين. ليأخذهما هذا البخيل الممسك حتى لا يصيبه البرد بأذى ويلقى منيته، فإنه درة قريتنا! - الق نظرة أخرى يا ماندالينا.

- الصورة الفوتوغرافية.

- آه، هذه سأخذها معي. ضعوها في إطارها على قبري. سأخذ معي أيضاً كأس العرقي. لقد أبلى معي بلاءٌ حسناً، ولا أطيق هجره. آه، وثمة أيضاً هذا

التمثال النصفى الصغير ليأخذه آكل الجبس فهو وحده دون الآخرين قادر على أن يأكل ملكة إنجلترا.

وقال ميشيل:

- ما زال هناك أهم شيء... المنزل.

- المنزل أوصى به للعجوز الموجودة هنا، ماندالينا التي توفرت على خدمتي كأخت لي بمعنى الكلمة. تعرضت لكثير من المضايقات بسببي هذه المرأة المسكينة، وأغلظت لها القول كثيرًا. بل أحسب أنها تحملت بعض ضربات مبرحة بالعصا أيضًا. لا تلوميني يا أم ماندالينا، لا تبكي - ما لم يكن بكاؤك عن فرح وسرور.

حاول أن يضحك ولكنه لم يستطع. فقد اشتد عليه الألم. وبدأ دمه ينزف من جديد.

- هذه كل ثروتى. اختم ما كتبت وناولني الورقة أوقع عليها.

قدم ميشيل الورقة، ورفعت المرأة العجوز الكابتن وأمسك ميشيل بيده يعينه على التوقيع. ووقع بالكلمات التالية:

«كابتن ياكوميس كابانديس بن تيودور».

وترامى إلى سمعهم صوت ترانيم دينية.

وقالت العجوز:

- ها هو القسيس قادم، حاملاً القربان المقدس.

وأسرعت نحو الباب تفتحه على مصراعيه.

وغمغم الكابتن:

- طراز آخر من المضايقات. هيا حتى نفرغ منه أيضًا.

كان قواص الكنيسة العجوز هو أول الداخلين حاملاً مصباحاً مضيئاً، ومن ورائه القسيس جريجوريس مرتدياً رداءه الديني، رافعاً كأس القداس بيده، وغطاه بغطاء من المخمل الأحمر الموشى بالذهب.

رسم القسيس علامة الصليب وهو يجتاز العتبة، وقال بصوت وقور:

- أتى الرب. اتركونا وحدنا.

رسم كل من ميشيل والأم ماندالينا علامة الصليب، وقبل يد القسيس، ثم انسجبا من الحجرة. وخرج القواص ومعه مصباحه. وانتظر الثلاثة بالخارج.

وقال القسيس وهو يدنو من الرجل الذي حضره الموت:

- كابتن فورتوناس... حانت اللحظة الرهيبة التي ستمثل فيها بين يدي الرب.

اعترف بخطاياك، وطهر روحك. تكلم.

وأجاب الكابتن غاضباً:

- كيف لي أن أقص عليك خطاياي يا أبانا؟ أحسبني قادراً على أن أتذكرها؟

للرب الرحيم سجل يثبت فيه أعمالنا. وليس عليه إلا أن يمحو ما أثبتته هناك إن شاء هو ذلك. ولكن ثمة شيئاً أود إن استطعت أن أقدمه إليه، سبحانه. هدية من الأرض. فإني أشك أن نجد مثلها هناك في السماء.

كان القسيس ينصت إليه حائراً، وقد أثارت لهجة الكابتن حنقه.

وعاد الكابتن يؤكد له ما قاله:

- شيء واحد فقط أود لو استطعت أن أتقدم به هدية إلى الرحمن.

وسأله القسيس متجهماً:

- ماذا؟

- إسفنجة.

- ألا تخجل؟ ألا تشعر بالخوف حتى في هذه اللحظة الرهيبة أيها الفاسق؟

واصل الكابتن حديثه رابط الجأش:

- إننا نمل، أكلنا حبة قمح صادفتنا في الطريق، أو ذبابة ميتة أكثر من نصيبنا-

أي بأس في هذا؟ أمحها. ألا تخجل من تأنيينا نحن معشر النمل أنت أيها الفيل البدین؟

وقال القسيس بلهجة جادة:

- كابتن... احترم الله. إنك تقف الآن على عتبة بابه أيها الشقي المسكين، لن

يلبث أن يفتح لك وتشهده سبحانه. ألا تشعر بشيء من الهلع؟

قال الكابتن وقد صم أذنيه:

- إني متعب يا أبانا. جاءني الأغا هنا لمنادمتي، ثم جاء ميشيل يدون وصيتي...

وعلى ذكرها فإني أوصيت لك بكل ما تركت من مال حتى تسمح بدفني ولا تترك جسدي للعفن مثلما فعلت مع آخرين.. وها أنت جئت الآن بصحبة شيطانك الرهيب... أنا لا أستطيع الآن، فإني متعب كما أقول لك، وداعًا. واستدار ناحية الحائط، وأغمض عينيه. وبدأ يتنفس بصعوبة وألم، ثم انتابته فجأة حشرة خسنة.

وتحامل على نفسه وقال في صعوبة:

- طبتم مساء.

وغطى القسيس ثانية كأس القداس بالمخمل الأحمر وقال:

- لا أستطيع أن أناولك جسد المسيح ودمه. ليغفر الله لك.

وغمغم الكابتن ثانية وهو يلفظ آخر أنفاسه:

- طبتم مساء.

ثم انتفض جسده مرتين أو ثلاثًا، وأن أنينًا واهنًا، وكأنه أصيب بغصة، وفتح فمه: وانساب الدم على الوسادة والفراش.

ورسم القسيس فوقه علامة الصليب.

وتمتم قائلاً:

- ليس لي أن أغفر لك، وإنما ليغفر لك الله.

وفتح الباب ونادى العجوز ماندالينا لتتولى مهمتها في تكفين الميت.

وفي اليوم التالي، وبينما كانوا يدفنونه، تساقط رذاذ مثل ذلك الذي تساقط في باطوم يوم عيد القديس جورج، وقتما جلس على الحصباء في الحديقة يتمتع النفس مع أصدقائه. وبدت سحبات شفاقة تبهر تحت أديم السماء، ودق جرس الكنيسة لحن الحداد، وانبعث من الجبانة الصغيرة شذى حلو لنبات الكاموميل. وشهد أهل القرية جميعًا جنازته. سارت الأم ماندالينا في المقدمة تنوح وتولول وتشهد شعرها. وأراد ياناكوس أن يأتي بحماره ليسير مع الركب بعد أن سمع من ميشيل أن الكابتن أوصى له بما يملك من شعر. ولكن ثارت ثائرة القسيس جريجوريس. واحتج ياناكوس على ذلك قائلاً:

- أليس هو أيضاً واحداً من مخلوقات الله؟
ورد عليه القسيس جريجوريس مغيضاً:
- ليس له روح خالدة.
وتمتم ياناكوس:
- لو كنت أنا الله لأدخلت كل الحمير الجنة أيضاً.
ودفع القسيس ياناكوس بعيداً وصاح قائلاً:
- الجنة ليست حظيرة، إنها موطن الرب.
وطفق ياناكوس، وهو يسير مع الركب، يحدث نفسه في عناد، بادى التذمر:
- لو كنت أنا... لأدخلتهم الجنة، لأدخلت عزيزي يوسوفاكي فيها... ولكن بشرط واحد وهو ألا يروث هناك فتتسخ السماء.
وبعد أن تمت إجراءات الدفن، وألقى كل إنسان بحفنة من التراب فوق القبر، انتحى ياناكوس جانباً بصديقيه ميشيل وقسطندي، إذ لم يعد يطيق كتمان سره:
- أريد أن أفضي إليكم بخبر يا إخوتي، ولكن يجب أن تحتفظا به سراً. إذ ليس هناك من يعرف شيئاً عنه بعد... أصيب مانولي في وجهه بمرض خبيث. أشبه بأخطبوط أو قناع اصطبغ بالدم، وكأنما استقر شيطان على وجهه... لا أدري ماذا أقول لكم يا أصدقائي... ترى هل مانولي قديس ونحن وحدنا القادرين الآن على أن نشهد ذلك؟ فقد سمعت أن القديسين والنساك وحدهم تصيبهم أمراض من هذا النوع.
وقال قسطندي:
- لا بد أن هذا أصابه لأنه قديس... إنه قديس، أجل، قديس ولم نكن نعلم عنه هذا طوال الأعوام الماضية.
وقال ميشيل الذي أزعجه الخبر:
- لا تتعجل في أحكامك هكذا يا قسطندي. تريث. يجب أن نفهم الأمر أولاً ونأتي له بطبيب...
اقترح عليهما ياناكوس:
- الرأي عندي أن نذهب ثلاثتنا يوم الأحد لنعود بمانولي... هذا فضلاً عن أن

معي هدية له.

وبينما كان يقول ذلك أخرج من جيب صداره كتابًا صغيرًا طليت حوافه بالذهب.

- الإنجيل. أرسله إليّ مساء أمس القسيس فوتيس مع الشيخ كريستوفيس. قال علينا أن نطالعه نحن الأربعة، رجال السلال... هكذا يسمينا! إنه رمز صداقته لنا كما يقول. ويرسل بركاته إلينا مع الإنجيل.

وخطا خطوات فوق أرض المقابر المغطاة بأزهار الكاموميل حيث يرقد أسلافهم. وتضوعت الأرض برائحة طيبة بعد أن أندأها المطر. وتوقفوا هنيهة يتنسمون الأريج الدافئ الندي، وغشيت رؤوسهم بعطر زهر الكاموميل البليل.

وتنهذ ميشيل. سرح فكره فجأة إلى ماريوري خطيبته، بوجهها الشاحب الذابل، وعينها الواسعتين تحيط بهما دائرتان زرقاوان، ومنديلها الأبيض الصغير تضغط به على فمها... وتذكر يوم أن كان طفلاً صغيراً وأتى إلى هذه الجبانة في صحبة أبيه، كانوا يومها يخرجون من القبر جثة فتاة صغيرة سبق له أن رآها في بيته، جميلة، نضرة، زرقاء العينين، مموجة الشعر، تفيض بشراً... وقف إلى جوار أبيه متردداً عند حافة القبر المفتوح. وكان حفار القبور يحفر الأرض بمعوله، يرفع التراب ويكومه حول القبر بحثاً عن أشلاء الفتاة. ووقف أبوها ممسكاً بصندوق خشبي يجمع فيه أشلاءها. وفجأة دس الحفار كلتا يديه في التراب وأخرج جمجمة. وانخرط ميشيل الطفل في نشيج. هل هذه الجمجمة هي الرأس الجميل ذو الشعر المموج للفتاة الصغيرة؟ كيف حالت عيناها؟ أين شفتاها ووجنتاها المتوردتان الضاحكتان؟

ومنذ ذلك اليوم، وبعد مضي عشرين عاماً، لم يحدث أن وطئت قدم ميشيل أرض الجبانة دون أن يتذكر الفتاة الجميلة وتلك الجمجمة... وسأله ياناكوس:

- علام التنهد يا ميشيل؟

ودون أن يجيب ميشيل دفع البوابة التي يعلوها صليب حديدي.

ثم قال مكتئباً:

- هيا بنا .

واتخذوا طريقهم إلى القرية واجمين . وسمعوا وراءهم وقع خطوات ثقيلة ، فاستداروا .

وقال قسطندي :

- بانايوتي ! حتى هذا الدب شهد الجنازة .

وقال ياناكوس :

- لا بد وأنه سمع بأن الكابتن أوصى له بشيء هو الآخر . إنه يسرع الخطو ناحية بيت المتوفى ليأخذ تمثال ملكة إنجلترا ويأكلها ...

واقترح عليهم ميشيل :

- لنستوقفه ونصطحبه معنا ، فإن هذا يرضيه قليلاً .

وتوقفوا . لم يحiehهم بانايوتي وإنما حث خطاه ليتحاشاهم . فمنذ أن اختاره شيوخ مجلس الأعيان ليقوم بدور يهوذا بسبب لحيته الحمراء ، كما زعموا له ، لم يعد يطيق رؤية أولئك الذين اختيروا ليمثلوا دور الرسل المؤمنين المقدسين . كان لا يفتأ يحدث نفسه قائلاً : « رغم مذهري الفظ ، إلا أنني خير من تلك الوجوه التي اختاروها لتمثل الرسل . ذلك لأنني قاسيت كثيرًا ، قاسيت فعلاً أكثر منهم داخل بيتي وخارجة ، وداخل نفسي ... أبكي إذا ما اختليت بنفسي ، ويكون حينما يراهم الناس جميعاً ... أعرف ما هو الحب ، هذا النوع من الحب الذي يجعل مني أضحوكة القرية جميعاً ، وإذا أحبوا هم إنساناً ابتهجوا لذلك وتندروا به ... إنني أعافهم ، ليتليهم الله بطاعون . أحدهم يملك حمارًا ، وآخر مقهى ، وثالث له أبوه الغني وماريوري ... أما أنا فلا شيء أملكه . كم من مرة راودتني نفسي على أن أضرم النار في دكاني وأطرد زوجي وأطغالي وأقتل المرأة التي أحبها . حسن ، أينما إذن يهوذا ؟ هم الشباع المالكون لكل ما يريدون ، أم أنا ؟ » .

وناداه ياناكوس بصوت عال :

- هيه يا بانايوتي . هل عظم قدرك حتى تزدرينا ؟

وخار أكل الجبس :

- تحياتي إلى الرسل المزيفين . ماذا عن مسيحننا الكذاب ؟

وقال قسطندي:

- ألا زلت متأثراً بذلك حتى الآن؟ ولكن المسألة لا تعدو أن تكون تمثيلاً يا صديقي. ألم تتحقق من هذا بعد؟

وأجاب السروجي:

- تمثيل أم غير تمثيل، فقد غرستم خنجراً في قلبي. زوجي تدعوني يهوذا، والصبيّة في الطرقات يعيرونني، والنسوة تغلق أبوابها في وجهي كلما أبصرتني. ليتليكم الله بطاعون، فإنكم ستجعلون مني يهوذا إلى الأبد.

وقال ميشيل:

- الجميع يحبونك، فلا يحزنك هذا. وكيف لا، وها هو الكابتن تذكرك وهو على فراش الموت وترك لك إرثاً.

- إرث من الجبس لأكله، حتى أكل ملكة إنجلترا أيضاً... أليس كذلك؟ ليحرقه الله في نار جهنم.

وقال ميشيل محتجاً:

- لا تجلب اللعنة على روحك، فما زال جسده دافئاً. اسحب هذه الكلمات. واحمر وجه بانايوتي المجدور وصاح:

- ليحرقه الله في نار جهنم. وأنتم أيضاً هل تريدون مني أن أدعو عليكم بأن يقذف بكم في الجحيم؟

ثم انطلق يعدو بخطوات واسعة وهو يتمتم بكلمات مدغمة.

وقال ياناكوس:

- كيف لك أن تمسك بشوك البحر دون أن يؤذيكَ بوخزه. إننا كنا نحسن صنعاً لو أننا لم نتكلم معه.

وقال ميشيل في حزن:

- أصاب الجرح منه مقتلاً.

وقال قسطندي يفسر سورة غضبه:

- هناك الأرملة أيضاً، والزجاجة. سينطلق الآن إلى زوجته وبناته وينهال عليهن ضرباً. إنه دائم التهديد لهن بأن يلقي بهن إلى قارعة الطريق.

وقال ياناكوس:

- تقمصه يهوذا، وبدأ يأتي أفعاله. ستواجهنا المتاعب. إنني أخاف على مانولي.
أسألك الله أن أخطئ الظن.

وقال ميشيل في قلق:

- بالنسبة لمانولي؟

وأجاب ياناكوس:

- أحسب أن الأرملة تضع عينها عليه؛ منذ أيام قلائل أبصرها شخص ما
تحدث إليه هنالك عند البئر. وشم بانايوتي رائحة ما حدث، وثارَت ثائرتَه. وكلما
سكر يصيح: «سأقتله، سأقتله القدر» ويشحذ سكينه فوق الحجر.

واقترح عليهم ميشيل:

- ماذا لو نذهب لزيارة مانولي هذا المساء؟ فإن ما تقوله يثير قلقي يا ياناكوس.
وقال ياناكوس:

- هيا نذهب إليه تَوًّا. فإني أخشى أن يسبقنا إليه بانايوتي. أحسب أنه كان
قاصدًا جبل العذراء.

وقال قسطندي:

- ليس علينا إلا أن نأخذ طريقنا من هذا المنحنى ونسرع الخطو صاعدين.
فكلما أسرعنا كان ذلك أفضل.

وغيروا طريقهم، وانطلقوا صاعدين. كفوا عن الكلام، وأسرعوا الخطو كأنما
يتوجسون شرًّا.

أبصروا بانايوتي جالسًا فوق صخرة عند سفح الجبل، شارد الفكر، واضعًا
رأسه بين راحتيه. لم يبصرهم، ومروا به دون أن يتحدثوا إليه.

توقف المطر، وتمزقت السحب، وبدت صفحة السماء من خلال قطع الغمام
هنا وهناك زرقاء زاهية. والشمس ما زالت في سمتها متوهجة.

وتردد صليل أجراس، وصدح ناي طروبًا فرحًا. ومروا ببعض الأغنام. ورفع
نيكوليو الناي من على فمه، وحدجهم بنظره.

وصاح ميشيل:

- إيه يا نيكوليو، هل معلمك في الحظيرة؟
- ليس هناك. لم أره. اذهبوا لتروا بأنفسكم.
- كيف حاله يا نيكوليو؟
- وأجاب الراعي الصغير وهو يقهقه:
- كسرطان البحر حين يوضع على الجمر. يغني وهو يحترق.
- وقال ياناكوس:
- إنه صافي المزاج هذا العنز. هيا بنا نحن نواصل طريقنا.
- وبداً ميشيل يضحك وقال:
- عندي سر لكم أيضاً. ذهبت لينيو البارحة لزيارة أبي، إنها شيطان في ثوب أنثى هذه الفتاة. لست أدري كيف علمت بمرض مانولي. فاجأت الشيخ بقولها:
- لا أريد مانولي.
- لماذا؟ هل تحبين غيره؟
- نعم.
- من؟
- نيكوليو، الراعي الصغير.
- هذا؟ ولكنه ما زال غراً، لم يخضر شاربه بعد. هل فيه نفع لك؟ هل يستطيع أن يمنحك أطفالاً؟
- وقالت:
- يستطيع. يستطيع. هو عين من أريد، إنه يستطيع كما أقول لك، هو عين من أريد.
- وبدأت تدلك الشيخ وتملمقه.
- وقال الشيخ:
- لك ما تريد. خذيه وأتمنى لك أن تجدي فيه خيراً كثيراً.
- وقال ياناكوس:
- تلك الفتاة اختارت عنزاً. أستغفر الله.
- وتذكر قسطندي زوجه فقال:

- حمداً لله أن أفلت مانولي من الزواج. فقد أراد الله به خيراً.

ما أن وصلوا إلى الحظيرة حتى دخلوها. لا أحد. طافوا بكل أرجائها، واعتلوا الصخرة الناتئة، ونادوا بأعلى صوتههم ولا مجيب.

وتمتم ياناكوس:

- اللهم احفظنا. ترى هل انتحر؟

وقال ميشيل الذي استبد به القلق:

- ما هذا الذي تتمم به؟

وأجاب:

- لا شيء.

وعادوا إلى الطريق ثانية منكسي الرؤوس. كانت الشمس تميل إلى المغيب، والتحف الجبل بالظلال. ومالوا في طريقهم ليمروا بجانب الكنيسة الصغيرة المقامة فوق الصخور. وهي كنيسة مهجورة، يذكرها الناس مرة واحدة كل عام. في الثامن من نوفمبر، وهو يوم عيد القديس ميشيل. يقام بها في ذلك اليوم بعض الطقوس الدينية المتواضعة احتفالاً بذكرى القديس، ويضيء الوافدون الشموع التي تكشف عن بعض التصاوير الباهتة على الجدران. وترف من جديد أجنحة كبير الملائكة ميشيل بأهدابها الملونة باللونين الأسود والأحمر. وينصرف الحجاج مع الغسق، وتنطفئ الشموع، وتسكن أجنحة الملاك في انتظار العام القادم لتضيء ثانية.

ودخلوها. كانت عبقة برائحة الأرض الندية، تشبه قبراً. وثمة شمعة كبيرة تحترق أمام أيقونة للمسيح كادت تبلي معالمها... وشقوا طريقهم عبر الهيكل، وجالوا بعيونهم: لا أحد.

وقال ياناكوس:

- كان هنا يقيناً، لا بد وأنه هو الذي أشعل هذه الشمعة... ولكن بعد ذلك، بعد ذلك... إلى أين ذهب يا ترى؟

رسم ميشيل علامة الصليب وتمتم قائلاً:

- لعل الله أن يكلاًه بعنايته.

كان مانولي قد مر حقاً بالكنيسة الصغيرة. أضاء الشمعة، وجثى على ركبتيه في ضوءها الكابي، يتأمل المسيح سحابة نهاره، متردداً في الحديث إليه، ولا تواتيه الجرأة. لم يكن يدري كيف يعبر عما يريد أن يفضي به إليه... والمسيح من جانبه يرقبه ولكن في صمت خشية أن يثير في نفسه الفزع. قضى نهاره كله هو والمسيح، وجهاً لوجه، دون أن ينبس أحدهما بكلمة، كعاشقين برحهما الجوى، وعقل الحب لسانهما عن أن يبوحا بما يجيش به قلوبهما.

وعندما حل المساء، قبيل مجيء الرفاق الثلاثة، نهض مانولي وقبّل يد المسيح. استودع كل منهما الآخر مكنون نفسه ولم يبق شيء يُقال. وفتح مانولي الباب الصغير وأخذ طريقه إلى القرية. واستشعر السكينة، وحدث نفسه قائلاً:

- أفضيت إليه بكل ما في نفسي، ونحن على وفاق. منحني بركاته. وليس عليّ الآن إلا أن أنصرف.

أخفى وجهه بمنديله الكبير إلا عينيه. كان الليل يرخي سدوله حين دخل القرية. واختار الدروب المهجورة، يذرعها مسرعاً في خطوه. ومد يده في عزم وتصميم وطرق باب كاترينا.

وعلى الفور كان قبقاب الأرملة يطأ أرض الفناء في خفة. وسأل صوت حلو:

- من بالباب؟

وأجاب مانولي مبهور الفؤاد:

- افتحي.

وعاد الصوت ثانية:

- من بالباب؟

- أنا، أنا مانولي.

وفتح الباب على الفور. ومدت له الأرملة ذراعيها. وصاحت فرحة:
- إنه أنت يا مانولي. أنى لي بهذا الشرف؟ أي ريح طيبة حملتك إليّ؟ ادخل.
دخل. وأغلقت الباب وراءه. توجس خيفة فتوقف هنيهة تطلع فيها إلى أصص
الريحان في غبش الليل، ثم إلى البلاط الأبيض الذي رصفت به أرض الفناء. كان
قلبه يخفق في عنف.
وسألته الأرملة:

- لماذا تضع لثامًا على وجهك؟ هل تخشى أن يراك أحد؟ هل تشعر بالخجل؟
ادخل. ادخل يا مانولي ولا تخف، فلن أكلك.
ووقف مانولي جامدًا وسط الفناء لا ينبس بكلمة. إنه يكاد يميز وجه الأرملة،
وذراعيها المرمرين، وصدرها نصف العاري.
وكانت الأرملة تقول له:

- أفكر فيك ليل نهار يا مانولي. لم يعد يغمض لي جفن. وإذا أغفيت أراك في
منامي... ليل نهار أصرخ أناديك تعال! وها أنت أتيت فمرحبًا بعزيزي مانولي!
وقال مانولي في هدوء:

- أتيتك يا كاترينا حتى تتخلصني مني وإلى الأبد. حتى لا تفكري فيّ أبدًا بعد
اليوم، ولا تتناديني ثانية. أتيت لتتقزز نفسك مني يا أختي كاترينا.
وصاحت الأرملة:

- أنا أتقزز منك؟ أنت ألمي الوحيد في هذه الدنيا. فدون أن تعرف، وعلى غير
إرادة منك،... على غير إرادة منك أصبحت أنت خلاصي... لا تخف يا مانولي،
فليس جسدي هو الذي يتحدث إليك بل روحي. فأنا أيضًا لي روح مثلكم يا
مانولي.

- مصباحك مضاء. لندخل، إذ يجب أن تربطني.
أمسكت الأرملة بذراع مانولي في رقة وحنان وقالت:
- لندخل.

كان سرير الأرملة عريضًا، منسقًا، نظيفًا للغاية، يملأ الحجرة كلها. وتعلوه
أيقونة العذراء المقدسة يضيئها مصباح صغير. وفي أحد الأركان على اليمين

مصباح زيتي موقد.

تقدم مانولي، واتخذ لنفسه مكاناً تحت ضوء المصباح، وقال:

- تشجعي يا كاترينا. اقتربي مني وانظري إليّ.

وبينما كان يقول ذلك بدأ يرفع منديله في هدوء من على وجهه.

وظهرت شفتاه المنتفختان بصورة مقذعة، ثم وجنتاه المتشققتان يسيل منهما سائل أصفر لزجاً. وأخيراً بانت جبهته المشوهة بلونها القرمزي كأنها قطعة من اللحم.

تطلعت إليه الأرملة بعينين واسعتين حائرة. وفجأة أغمضت عينيها، واندفعت نحو مانولي وهي تتحب.

وصاحت:

- مانولي، مانولي، يا حبي.

ودفعها مانولي عنه في رقة.

أخذ يتوسل إليها قائلاً:

- افتحي عينيك وانظري إليّ. لا تبكي لا تأخذيني بين ذراعيك، انظري إلي وجهي يا أختاه.

أحست الأرملة بأنها عاجزة عن أن تخليه من بين ذراعيها، وأخذت تصيح باكية:

- يا حبي! يا حبي!

- ألا تتقرز نفسك مني؟

- كيف أتقرز منك يا أحب الناس إليّ؟

- بل يجب.. يجب يا كاترينا... يا أختاه... يجب حتى تتخلصي مني... وأنجو أنا.

- لا أبتغي الخلاص منك. الانفصال عنك فيه هلاكي.

وفي يأس سقط مانولي فوق كرسي قرب السرير.

تضرع إليها:

- ساعديني يا كاترينا. ساعديني لأجد خلاصي... أنا أيضاً أفكر فيك ولا أريد

ذلك... أعينيني حتى لا تتدنس روحي.

تساندت الأرملة إلى الحائط وامتقع لونها. أخذت تتطلع إلى مانولي بقلب منفطر وكأن طفلها يناديها وسط ظلام الليل وقد أهدق به خطر... وأخيراً غمغمت قائلة:

– ماذا عساي أن أفعل من أجلك يا أعز إنسان لدي؟ ماذا تريد مني أن أفعل؟
كان مانولي واجماً.
وقالت الأرملة:

– هل تريد مني أن أقتل نفسي؟ هل تريد مني أن أقتل نفسي حتى يكون بذلك خلاصك؟
وصاح مانولي فزعاً:

– لا، لا، بهذا ستلقين بنفسك في الجحيم، وهذا ما لا أريده لك.
ثم ران عليهما صمت من جديد. وبعد قليل قال مانولي:
– أريد أن أخلصك. فخلاصي رهن بخلاصك يا أختاه. وأنا مسئول عن روحك كما تعرفين.
وقالت الأرملة وهي ترتجف:

– أنت مسئول عن روحي يا مانولي. خذها وأمسك بزمامها تقودها إلى حيث تشاء، فهي لك، واذكر المسيح، فهكذا كان أيضاً مسئولاً عن روح مريم المجدلية. استشعر مانولي بغتة مزيداً من السكينة، وقال:
– إنه هو من أفكر فيه. هو من أذكره آناء الليل وأطراف النهار يا أختاه.
– اسلك سبيل المسيح يا مانولي، كيف أنقذ مريم المجدلية العاهرة؟ هل تعرف؟ فأنا لا أعرف كيف. افعل بي ما تشاء.
ونفض مانولي.

– إني منصرف. قلت الكلمة التي أعتقتني يا أختاه.
– وأنت يا مانولي قلت الكلمة التي أنقذتني، وأدخلت السكينة إلى نفسي إذ دعوتني أختاً...
عصب مانولي وجهه ثانية، فلم تعد ترى غير عينيه.

وقال:

- وداعاً يا أختاه. سأتيك ثانية.

وأمسكت الأرملة بذراعه مرة أخرى لتقوده عبر الفناء. وفي عتمة الليل مدت يدها وقطفت باقة من زهر الريحان.

وقالت:

- خذ هذه، كان المسيح معك يا مانولي.

ووضعت باقة الريحان في يده. وفي هدأة الليل فتحت الباب وأطلت منه، لا أحد في الطريق.

وقالت الأرملة:

- لن أفتح بابي لأحد بعد الآن. سأنتظر مجيئك إليّ ثانية... باركك الله.

اجتاز مانولي عتبة الباب وتوارى في الظلام.

الرَّبُّ صَانِعُ خَرْفٍ يَصْنَعُ مَخْلُوقَاتِهِ مِنْ طِينٍ

اليوم أول مايو. والصيف على الأبواب. اتخذت الأرض زخرفتها وازينت. فالسهل ما زال أخضر يانعاً. والقمح يصطبغ بلون الذهب. وأشجار الزيتون تتكور حباتها وتكبر. والكرم يتزين بعناقيد صغيرة حمضية المذاق. وحبات التين الخضراء يسري فيها لبن لاذع الطعم ليصبح عما قريب عسلًا مصفى. وأهل ليكوفريسي يأكلون حبات الثوم، ففيه صحة لأبدانهم - وعبقت القرية كلها برائحته. وبدأ البشر يعود إلى الشيخ بطريار كاس من جديد، فامتلاً كرشه، وغلظ الدم في عروقه. زاره صباح أمس أندونيس الحلاق وعمل له كاسات دم لينقذه من مرض السكتة. والعجوز لاداس قابع في ركن بمضغ هو الآخر غصن ثوم، وتحول فكره عنه إلى الداخل والمنصرف: كم ستكون حصيلته هذا العام من الزيت والنبيد والقمح؟ من مدين له بمال، وبكم، وكيف يسترد الدين؟ ويفكر أيضاً في جنیهات ياناكوس الثلاثة، إنه ينوي بيع بضاعته في المزاد ويستولي على حماره.

والخطيبة يضمنها السقم. ففي شهر مايو لا يعقد قران، وفي يونيو يكون الحصاد، والعمل في الحقول لا يحتمل التأجيل. فلا وقت لحفلات الزواج. والشهر الذي يليه موسم الدرس، ثم فيما بعده جنى الكرم. إذن لا مناص من الانتظار حتى عيد الصلب في سبتمبر، وقتما تخف أعباء العمل ويبدأ بيع المحصول، ويومذاك سيحضر القسيس وبارك العروسين اللذين نفضا عن كاهليهما كثيراً من الهموم، وتوافر لذيها طعامهما من الخبز والزيت. وشرابهما من النبيد. وسيمنحهما هذا

كله القدرة على الإخصاب وإنجاب الأطفال.

والقسيس جريجوريس تؤرقه هموم كثيرة. ماريوري لم تتزوج بعد. وميشيل سلك سبلاً سيئة. لم يكن فطناً بالقدر الكافي فتحايل عليه مانولي وأصدقائه، وغرروا به، عثروا فيه على لقمة سائغة، وها هو الآن لا يكف عن توزيع الدقيق والزيت على الفقراء دون علم أبيه. وبين حين وآخر. إذا بحمار ياناكوس - أماته الله شر ميتة - يحمل سلالاً جديدة مملوءة بالأطعمة إلى اللاجئين فوق جبل ساراكيينا... ويهدر القسيس جريجوريس شاكياً «هذا الأبله، إنه بتفكيره المعوج هذا سيأتي على ثروته سريعاً، ثم ماذا سيكون من أمر ابنتي؟».

ولكن شر الأمور كلها قسيس ساراكيينا، ذلك التيس يلقي قداساً كل أحد في كهف فوق الجبل ويحلوه الإغراق في تقديم المواعظ. وبدأ بعض أهالي ليكوفريسي ينصرفون عنه، أي الأب جريجوريس، ليستمعوا إلى هذا القسيس المتشرد الملتاث... ولا يفتأ القسيس جريجوريس يحدث نفسه قائلاً: «كل قرية من القرى أشبه بخلية نحل، والخلية لا تتبع ملكتين، أولى به أن يفارقنا، ويجمع سربه في مكان آخر. فساراكيينا خليتي!».

وأهل شهر مايو أيضاً على جبل ساراكيينا ولكن حيث الأسماك البالية والبطون الخاوية، وقليل من الأزهار البرية المتناثرة هنا وهناك بين الحجارة، وبعض أزهار نبات العليق والعضة، وآلاف السحالي الخضراء والرمادية التي زحفت خارج جحورها لتتعم بدفء شمس مايو الحانية... لا أشجار زيتون هنا، ولا كرم أو بساتين، لا شيء غير صخور موحشة نابية. وعلى مسافات متباعدة، شجرة أحنتها الرياح، التفت حول ساقها معذبة بما تحمله من ثمار لاذعة لا شيء فيها غير البذور - شجرة زيتون بري، أو شجرة خروب أو كمثرى برية - غطتها الأشواك ولا تحمل غير الكراهية للإنسان.

اليوم الأحد: ملأ الضوء الكهف ذا التصاوير الباهتة على الجدران، واستيقظ النساك، البعض له ذقون أو لحى تأكلت بفعل الرطوبة والزمن، وآخرون مبتورة رؤوسهم أو أقدامهم. وعلى الصليب لم يبق سوى وجه المسيح علامة صدأ أزرق وفطر، وبقية من الصليب عليها قدمان زرقاوان يقطر منهما الدم...

غص الكهف طوال الصباح برجال ونساء يترنمون بالتراتيل، وبعد أن فرغوا من ترتيبهم خرجوا ليجلسوا تحت الشمس، ولحق بهم الأب فوتيس. فاعتاد أن يخطب في قومه كل أحد بعد القداس ليثبت أفئدتهم... يبدأهم بالتحية. ويبحث عن كلمة طيبة لكل منهم، ثم يبدأ موعظته ليبلغهم كلمة الرب وكلمته. كان يستهل حديثه إليهم دائماً بصوت هادئ، ثم رويداً رويداً يدب فيه الحماس، وتبدو كلماته وكأنها تهبط عليهم من مكان ما في السموات العلى، من خير مكان تنزل كلماته على أرواح البشر.

كان منشراح الصدر وهو يتحدث إليهم في ذلك اليوم مواسياً. ويعيد على سمعهم ما سبق أن قاله لهم.

- تحياتي يا أطفال. فما زلنا على قيد الحياة، ولم نياس.

كان أحياناً يضرب لهم الأمثال، وأحياناً يحدثهم عن حياته وعن كل ما رآه وعاناه، وأحياناً أخرى يمسك بالإنجيل ويفتحه بطريقة عشوائية، ويقرأ منه بعض آياته فتكون منطلقاً لحديثه إليهم. وتفتح أمام أعين قومه الكلييلة سموات متألفة بنجومها، وتتحوّل أسماهم البالية إلى أجنحة، حتى بطونهم الخاوية تنسى ما تعانيه من الطوى.

بدأ القسيس فوتيس حديثه إليهم في ذلك اليوم بقوله:

- نحن نعبر عن الحقيقة بالأسطورة. وسوف أقص عليكم أسطورة. هيا اقتربوا مني يا أطفال. وأنتن أيتها النسوة اللائي تذرفن الدموع، إن حديثي موجه إليكن فاقتربن.

تجمعت النسوة مع بعضهن ومعهن أطفالهن وربضن على الأرض وأحطن به. وظل الرجال وقوفاً وراءهن. واتكأ الشيوخ على عصيهم وكلهم آذان صاغية. وبدأ القسيس فوتيس كلامه:

- يحكى أنه كان في سالف الأزمان صيادان. تسلقا جبلاً، ونصبا شباكهما. وعادا إليها في اليوم التالي. فماذا رأيا؟ كانت الشباك تعج بحمام مطوق. وكل واحدة من هذه المخلوقات التعسة ترف بجناحيها تحاول في يأس أن تفلت من أسارها، إلا أن عيون الشباك كانت ضيقة - فكيف لها أن تنفذ منها؟ ثم تكومت

حول بعضها في هلع، وانتظرت. وقال صياد: «ما أسوأ هذه الطيور، إنها جلد على عظم. كيف نبيعها في السوق؟» وقال الآخر: «ليس علينا إلا أن نطعمها أيامًا قلائل حتى تسمن». ومن ثم ألقوا إليها بكميات وفيرة من الحب المجروش، وأحضروا لها ماء. وبدأ الحمام المطوق يأكل ويشرب في شهية ونهم، إلا واحدة لم تكثر بذلك ولم تطعم شيئًا، وفي كل يوم يأتي الصيادان بمزيد من الحب المجروش، وهكذا سمن الحمام يومًا بعد يوم، إلا واحدة أضناها النحول، وناضلت في عناد لتنفذ من الشبكة. واستمر الأمر على هذه الحال حتى جاء الصيادان ذات يوم صفيت سماؤه وأخذوا الحمام لبيعه في السوق. ولكن الحمامة المطوقة التي قضت أيامها هذه بغير طعام، كان الهزال نال منها كل منال حتى استطاعت بعد جهد أن تنفذ من بين عيون الشباك وتطير، وهكذا أصبحت طليقة.

تلكم هي القصة يا أطفالي. ولكن لماذا قصصتها عليكم؟ من منكم يدرك مغزاها؟ أنت أيها الشيخ ماذا ترى؟ هل لكم أن تكدوا ذهنكم قليلًا؟ وصمت الشيوخ من الرجال جميعًا. وفجأة وقف العملاق حامل الراية. - يبدو لي يا أبانا أنك تشير بها إلى جوعنا، وأنه سيعيننا على أن نجد حريتنا... تقصد أننا مثل هذه الحمامة التي أبت أن تطعم شيئًا... ولكن ماذا بعد؟ إن الأمر غير واضح لي... آسف فإن فكري قاصر عند هذا الحد. وقال القسيس:

- أدركت جوهر القصة يا لوكاس. إنني أباركك. سأوضح لكم يا أطفالي بقيتها. بدأنا حياتنا في قرينتنا أغنياء، وتجاوزونا كل الحدود. أفرطنا في الطعام، وأثقلنا أرواحنا بالغذاء. كانت حياتنا كلها دعة وأمنًا وسلامًا - وانطلق الجسد حتى استعبد الروح. كنا نحدث أنفسنا: «كل شيء يسير على ما يرام، العدالة تسود العالم، ليس ثمة جائع ولا مقرر، وعالمنا خير العوالم قاطبة. وأشفق علينا الرب - أرسل إلينا الأتراك، فطردونا من ديارنا، وشردونا لنهيم على وجوهنا في الطرقات. اضطهدنا وتعلمنا أن العالم مليء بالمظالم. أصبحنا جوعى ومقرورين، وثمة غيرنا يولمون الولائم ولا تطفأ لهم نار، يضحكون إذا ما وقع بصرهم على شعب مهلهل يتضور جوعًا.

فتحت النازلة عيوننا وفهمنا. بسط الجوع أجنحتنا، وهرينا من شباك الظلم، كما تحررنا من حياة الدعة المفرطة. وها نحن هنا أحرار، والآن نستطيع أن نبدأ حياة جديدة والحمد لله.

وران عليهم صمت، فلم ينبس أحدهم ببنت شفة. هز الشيوخ رؤوسهم، وعاودت النسوة نواحها المكتوم، فيما عدا الرجال وحدهم كانوا يتطلعون إلى عيني القسيس ويستشعرون في أعماق نفوسهم قوة وعناداً لا يقهران. ومرة أخرى كان حامل الراية هو الوحيد الذي رفع صوته:

- حديث طيب يا أبانا. أشفق علينا الرب فابتلانا بهذه النازلة. تمامًا مثلما يفعل الفارس إذا جمع حصانه، فإنه يلهبه بسوطه... ألهمت النازلة دمنا، وفتحت أفئدتنا، وأصبحنا أحرارًا.

ثم صاح وعيناه تفيضان من الدمع، تذكر جورج، طفله الصغير، الذي مات في الطريق.

- ولكن الآن كيف السبيل إلى الخلاص من هذه النازلة؟ هذا ما يجب أن تحدثنا عنه. إما أن نقضي عليها أو تقضي هي علينا. إنها تكاد تجهز علينا. وأجاب القسيس:

- لا تخش شيئاً يا لو كاس، فإننا سنظفر بهذه النازلة. سترى كيف أنها ستعود علينا بالخير. العمل والصبر والحب- تلكم هي أسلحتنا. ثقوا بأنفسكم. إنني إذا أغمضت عيني أبصر بيوتاً من حجر تحيط بي من كل جانب، وكنيسة يعلوها برج الجرس، ومدرسة ذات طابقين وفناء واسع يغص بالأطفال، وحول القرية حدائق وبساتين كرم وحقول قمح... وبدأنا مسيرتنا بالفعل. اهتدينا إلى قطعة أرض صغيرة. وبذرنا فيها الحب. وأسرنّا المياه المتمردة، وصنعنا لها القنوات، وطعمنا الأشجار البرية. بل بدأنا نشيد المباني بالفعل... وفي تلك القرية المتكبرة ليكوفريسي، التي تعني نبع الذئب، ما زال فيها عصابة من الرجال لهم بين جوانحهم أفئدة، وهم يفكرون فينا. ذات يوم أتاني أحدهم بكل ثروته، ثلاثة جنيهات ذهباً، وفي اليوم التالي أرسل لنا آخر سلال طعام، وقدمت لنا امرأة أئمة نعجتها... وآثم غيرها مات قبل أول أمس، تذكرنا لحظة أن حضره الموت، وأوصى لنا بصندوق

مليء ببعض الحاجيات - أسأل الله أن يصفح عن روحه الآثمة! ها نحن يا أطفالني
نضرب بجذورنا في الأرض. ها نحن مرة أخرى نجد لنا مكاناً على الأرض تنبت
فيه بذرتنا من جديد لتنمو وتستوي على عودها وتسمو فروعها. ثقوا بأنفسكم!
وصاح شاب خشن المظهر، صاحب الوجه من أثر الحرمان، متمنطقاً بخرقه
بالية:

- يا أبانا، هل ستعيد حياتنا سيرتها الأولى من جديد؟ نفس الشيء دائماً وأبداً
يا أبانا؟ هل يجب أن نبدأ كما بدأنا أول مرة يا أبانا؟ نذكر جيداً أن لم يكن في
قربتنا أغنياء فقط، بل فقراء أيضاً. ماتت أمي جوعاً وقتما كانت القرية تسبح في
الزيت والنبذ، وأفراخ الجيران جميعهم موقدة، تخبز صفوفاً متراسة من الأرغفة،
وكانت رائحة الخبز الساخن كافية وحدها لتصيب أمي بدوار... وهكذا يا أبانا
عوداً على بدء وتتردد نفس الأغنية القديمة؟ مرة أخرى غني وفقير؟
وأطرق القسيس فوتيس برأسه. وظل غارقاً في فكره فترة طويلة، ثم قال أخيراً:
- أنت واضح وصريح يا بترو، لا توارى في حديثك. وأنا أحب منك هذا. إن
ما تسألني عنه أسأل أنا عنه الله ليل نهار. أتضرع إليه سبحانه أن ينير بصيرتي. أدعوه
قائلاً: «إلهي إننا نبتغي أسساً جديدة نقيم عليها قربتنا الوليدة. حسبنا ما عانينا من
المظالم. إذا شئت سبحانه فليكن كل منا جائعاً مقروراً، أو لينعم الجميع بالطعام
والملبس والدفع. إلهي هل تعجز عن أن تحقق العدالة على الأرض؟»
وتساءل الفتى بطريقة فظة:

- وماذا كانت إجابة الرب الرحيم؟

- حنانك. أمهلني، فإن فكري الكليل يتلقى النور رويداً رويداً وعلى قدر
طاقته. إن النازلة التي أهدقت بنا، ولنكن منصفين في حديثنا عنها، جعلتنا جميعاً
سواسية، أصبحنا جميعاً فقراء ليس فينا من يملك فرناً يخبز فيه خبزه، أو من يجد
فرصة ليقع في الخطيئة حين يمنع الخبز عن جاره الجائع. لنعمل على تحقيق ما
كان عسيراً على النفس فيما مضى - ها هي اللحظة المواتية يا أطفالني ولتتكاتف
سويًا. تحررت الروح من البطون المتخمة، وهي الآن قادرة على الطيران.
والتفت إلى شيخ كان يصغي إليه وقد استظل بشيء فوق رأسه، عاقداً يديه،

متكئاً بهما على عصاه وقال له:

- يا أب كاريلوس، ماذا لو أنك سئلت منذ شهور ثلاثة مضت أن تقسم ما تملك من كرم وأشجار زيتون بينك وبين الفقراء؟ ترى هل كنت تفعل؟

وأجاب الشيخ:

- أبداً وليغفر الله لي، ترى هل كنتم تقبلوا أن تقطعوا أيديكم وأرجلكم وأحشاءكم وتتصدقوا بها على جيرانكم؟ كان زيتوني وكرمي نفس الشيء بالنسبة لي.

- وأنت يا أب بافليس، لعل معاليك ما كنت لتقبل أبداً أن تفتح خزانك لتقسم ما فيها من العملات الذهبية بينك وبين المعوزين.

وتجهم شيخ يقف قبالة القسيس، ولم يجب. واكتفى بأن صعد زفرة عميقة حين تذكر خزائنه.

وصاح القسيس فوتيس في ثورة مفاجئة:

- إن من يملك أرضاً وأشجاراً تصبح الأرض والأشجار هي ذاته، وتفقد روحه صفتها القدسية. ومن يملك الخزائن تصبح الخزائن ذاته، فأنت يا بافليس التعس، لم تكن سوى خزانة مال، وأنت يا كاريلوس البائس لم تكن سوى قطعة أرض وحفنة من تراب حتى قبل أن يوافيك الأجل. ولكن حمداً لله أن كتبت لنا النجاة! ها أنتم أخيراً أيها الأغنياء رأيتم بأعينكم وعرفتم معنى العري والجوع، ولمستم بأنفسكم عذاب الفقير.

وتنهذ الشيخ بافليس وهو يقول:

- حقاً عرفت.

واستطرد القسيس فوتيس قائلاً:

- والآن سنمحو كل ما سبق. سيكون كل شيء قسمة بيننا. لن يكون بعد الآن شيء أقول إنه ملكي أو ملكك، لا حدود ولا أسوار، ولا أقفال ولا خزائن. هنا سنعمل جميعاً، ونأكل جميعاً، وسيعمل كل منا قدر طاقته. سيذهب أحدكم للصيد من بحيرة فويداماتا، ويذهب آخر للقنص، وثالث يفلح الأرض، ورابع يرعى الحيوانات التي سيمن علينا بها الله. نحن إخوة. أليس كذلك؟ إننا أسرة

واحدة، ولنا أب واحد هو الله.

وبسط القسيس فوتيس ذراعيه لهم جميعاً وصاح:

- لنرسي أسساً جديدة في قريتنا الوليدة، وكذلك في روحنا. إنها مهمة شاقة على النفس عسيرة، ولكن أعينوني على ذلك يا إخوتي. العمل والصبر والحب- والإيمان بالله... ماذا فعل المسيحيون الأوائل؟ كانوا يلتقون في المقابر تحت الأرض وأرسوا دعائم جديدة للعالم. وهذه الكهوف من حولنا في باطن الأرض هي المقابر التي سنلتقي فيها، ونحن أيضاً معنا المسيح. عرفنا الظلم وسوف نعيد الأمور إلى نصابها. أي بترو، لا تخشى شيئاً يا بني، انس الماضي وامح آثاره من نفسك. لتتعاون كلنا يد واحدة من أجل بناء عالم جديد.

هبوا جميعاً واقفين، العزم والإصرار يملأ نفوسهم، وتدافعوا حول قسيسهم. وصاح القسيس ثانية:

- كلنا يد واحدة... كلنا يد واحدة! تلك هي كلمة السر الجديدة وفيها خلاصنا.

وصاح الرجال والنساء ورفعوا أيديهم كأنهم يرددون القسم:
- كلنا يد واحدة.

ورشم الشيخ كاريلاوس علامة الصليب، واغرورقت عيناه بالدموع وقال:
- جعل الفقر مني إنساناً ذا قلب كبير. اللهم أسألك أن تقيني شر الثراء، فإني سأرتد شيئاً كما كنت.
وصاح بترو ضاحكاً:

- لا تخف يا أب كاريلاوس. اعتمد علينا في ذلك فلن نسمح لك بالثراء!
وخلع القسيس رداءه الديني، وطواه، ثم ناوله لامرأة عجوز ضامرة عهد إليها بمهمة الخدمة في كنيستهم.
وقال:

- اليوم الأحد، وهو يوم الراحة يا أطفال، وغداً نبدأ العمل من جديد. دعوا الصبية يلعبون الكرة، وليجتمع الرجال، يعقدون فيما بينهم مجالس يتبادلون فيها الرأي، وتلتقي النسوة ببعضهن يثرثن، وتواسي كل منهن الأخرى. أما أنا فيجب

أن أصدع الجبل المقابل حيث ينتظرنى هناك أصدقائنا أصحاب السلال. إلى اللقاء يا أطفالي في المساء، كان الله معنا.
وبعد أن فرغ من كلماته هذه، تلقف عصاه وانصرف.

التف حول مانولي الرسل الثلاثة بطرس ويعقوب ويوحنا. فتحوا أمامهم الإنجيل الصغير الذي أحضره لهم ياناكوس في ذلك الصباح، وكانوا يتهيأون للقراءة.

ألفوا وجه مانولي المنتفخ، وزايلهم ما كانوا يحسون به من فزع في بادئ الأمر، وواتتهم الجرأة على أن ينظروا إليه مباشرة، دون شعور باشمئزاز أو خوف. كان ياناكوس طلب من القسيس فوتيس، على غير علم من مانولي، أن يأتيهم ويرى الغمة التي حلت بصديقهم، ويبيدي لهم رأيه فيها. رأى القسيس الكثير، كما عانى الكثير في حياته، وعرف كل آلام الجسد والروح، ومن يدري ربما يعرف دواء؟... ربما يحتاج مانولي إلى شيء آخر غير المراهم والعقاقير. وربما كانت هذه الغمة المفاجئة راجعة لأسباب أخرى، إذ قد تكون من عمل الشيطان، فيطرد القسيس بتعاويذه الروح النجسة.

وهكذا صعد ثلاثتهم في ذلك اليوم إلى الجبل، كل يحمل هدية إلى صديقه المريض: ياناكوس الإنجيل الصغير، وقسطندي صندوقاً من الحلوى التركية، وميشيل أيقونة صغيرة تمثل الصليب، وهي أيقونة عتيقة جداً ورثها عن أمه، ترى فيها المسيح على الصليب، وقد رسم حوله عدد لا يحصى من عصافير الجنة- لم تكن ملائكة وإنما عصافير جائمة فوق ذراعي الصليب ورأسه، فاغرة حلوقها الصغيرة كأنها تشدو... وأزهر الصليب، إذ تحف به أزهار قرنفل صغيرة بدا معها كأنه شجرة لوز مزهرة، والمسيح المصلوب يتسم وسط الزهور والطيور. وتحت قدمي الصليب مريم المجدلية العاهرة، وحدها، حلت شعرها وهي تمسح الدم الذي يسيل من قدمي المسيح.

جلس مانولي فوق المقعد الحجري أمام فناء الحظيرة ينتظرهم. غسل شعره، وارتنى ملابس يوم الأحد. كان يمسك بقناع المسيح الذي حفره، ينظر إليه حيناً

من أمام وحيناً من يمين وحيناً ثالثاً من يسار، ويتأمل عينيه الباكيتين، والفم المتألم، والابتسامة الحزينة.

أخذ مانولي الهدايا. قبل الإنجيل، ونظر طويلاً إلى أيقونة الصليب. وتمتم قائلاً:
- ليس هذا هو الصليب وإنما الربيع.

ورنا إلى المرأة الجاثية أسفل الصليب وشعرها الذهبي المتفرق، وتأوه.
وضع شفتيه عند قدمي المسيح، ولكنه جفل بغتة في هلع. خيل إليه أنه قبل
شعر العاهرة الأشقر وجيدها العاري.

وأخذ ياناكوس الأيقونة من يدي مانولي وقال:

- تعال يا مانولي! افتح الإنجيل واقرأ.

- ماذا سنقرأ يا ياناكوس؟

- افتحه كيفما اتفق. وما استغلق علينا مناقشه حتى يبين.

أخذ مانولي الإنجيل، وانحنى عليه يقبله ثم فتحه.
وقال:

- باسم الآب والابن والروح القدس.

وبدأ يقرأ على مهل يحاول أن يفصل المقاطع.

- «ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل. فلما جلس تقدم إليه تلاميذه. ففتح فاه
وعلمهم قائلاً: طوبى للمساكين بالروح؛ لأن لهم ملكوت السماوات».

وقال ياناكوس مسروراً:

- هذا سهل. الحمد لله أنني أفهمه. وأنت يا قسطندي؟

كان قسطندي في ريب من أمره. فسأل:

- ماذا تعني «المساكين بالروح»؟

وفسر له ياناكوس:

- كل أولئك الذين لم يتعلموا. كل أولئك الذين لم يذهبوا إلى المدارس العليا
ليجلبوا أفكارهم.

وقال مانولي مصححاً:

- لا، ليس المقصود أولئك الذين لم يتعلموا. يمكنك أن تكون متعلماً مثل

الأب فوتيس وتدخل ملكوت السماوات. ويمكن أن تكون جاهلاً مثل العجوز لاداس ولا تدخل. إنها تعني شيئاً آخر يا ياناكوس. ماذا ترى يا ميشيل؟ وعرض ميشيل رأيه:

– أولئك الذين لا يضمرون السوء، والذين يتحلون بعقول بسيطة نقية، لا يتحذلقون وإنما يؤمنون، ونفوسهم مفعمة بالبراءة والثقة... هذا ما أراه أنا. سنسأل القسيس فوتيس.

وقال ياناكوس في ضجر:

– ما بعدها، فإنها ستوضح ما سبقها. ماذا بعد.

واصل مانولي قراءته:

– «طوبى للحراني لأنهم يتعزون».

وقال ياناكوس وهو يهرش رأسه:

– آه، هذه أصعب من سابقتها. ما معنى «يتعزون»؟

وقال قسطندي مفسراً:

– إنه سيعزيهم... ولكن لمن العزاء؟ ومن - من؟ أنا لا أفهم.

وقال مانولي:

– أخالها واضحة لي إلى حد ما: «الحراني» هم البؤساء الذين يعانون في

حياتهم، وأولى بهؤلاء ألا يضنيهم الهم، فإن الله سيعزيهم ويواسيهم.

وقال ياناكوس الذي كان في عجلة لمتابعة القراءة:

– وهذه أيضاً يجب أن نسأل عنها القسيس فوتيس... ما بعدها.

وقرأ مانولي:

– «طوبى للودعاء. لأنهم يرثون الأرض».

وصاح ياناكوس مزهواً:

– هذه على أي حال واضحة تماماً! لبيتجج الودعاء، أي ذوو النفوس الطيبة

الرحيمة المسالمة. فهؤلاء هم الذين سيفوزون في نهاية الأمر وتكون الأرض

لهم. أي لا يكون ذلك عن طريق الحرب وإنما ستكون لهم السيادة على العالم

بالحب. لتسقط الحرب. لتسقط الحرب! كلنا إخوة!

وتردد قسطندي في قبوله لهذا التفسير وتساءل:

- وماذا عن الأتراك؟

ورد ياناكوس في حماس:

- والأتراك بالمثل، والأغا، ويوسوفاكي وحسين والكل جميعاً!

وسأل قسطندي في عناد:

- وأولئك الذين دمروا قرية الأب فوتيس!

وهرش ياناكوس رأسه ثم قال:

- لا علم لي بهذا. سأسأل الأب فوتيس... اقرأ ما بعد ذلك!

- «طوبى للجياع والعطاش إلى البر. لأنهم يشبعون».

وصاحوا جميعاً:

- آه، لعل هذه هي إرادة الله، فإننا سنشبع بالبر.

ووقف ياناكوس مهتاجاً وصاح:

- طوبى للجياع والعطاش إلى البر! هؤلاء هم نحن. كأن المسيح يتحدث

إلينا نحن يا أصدقاء. نحن الأربعة يا إخوتي جياع عطاش إلى البر. قلبي يكاد يطير

فرحاً، كأنما المسيح التفت إليّ بوجهه وكلمني... تشجعوا يا أصدقاء!... اقرأ ما

بعدها يا مانولي!

- «طوبى للرحماء. لأنهم يرحمون».

وقفز ياناكوس ثانية وهو يصيح:

- اسمع هذه يا أب بطرياركاس. اسمعها أيها الأكل الشريب، يا من ترفض

أن تحيينا في الطريق. لأننا رحماء تصدقنا بأربع سلال من الطعام على الفقراء!

اسمع هذه يا أب جريجوريس أيها الدنيء المسعور، يا من تطرد الجياع بعيداً عن

مائدتك الحافلة بأطيب الأطعمة واللحوم! تملأ كرشك حتى تتخمه، ولو انفجر

لأغرق القرية كلها بما فيه من تنن. اسمع هذه يا أب لاداس أيها البخيل العجوز.

يا من تأبى أن تقدم كوب ماء لعطشان حتى ولو كان ملاكك الحارس! برافو يا

ميشيل إذ لم تشابه أباك. ستدخل ملكوت السماوات، مع السلال الأربعة. كان

الطعام طعامك أنت لا طعامنا نحن!... ما بعدها.

- «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله».

وقال قسطندي:

- أنا أفهم معنى هذه الآية جملة، وإن كنت لا أفهمها تفصيلاً. فبعض كلماتها غامضة، أو بالأحرى فإن كلمة «يعاينون» هذه يستعصى عليّ فهمها... ما المقصود بها؟

وقال ياناكوس:

- معناها يشهدون الله. أولئك الذين لهم قلوب نقية سيشهدون الله... هذا كل ما فيها.

وقال قسطندي في حيرة:

- أنى لك علمك بتفسير كل هذا يا ياناكوس؟ أحسب أنك أوتيت حكمة سليمان!

ورد ياناكوس:

- أنا لا أفسرها بعقلي أيها العجوز بل أفسرها بقلبي. قلبي هو الملك سليمان! استمر يا مانولي... اقرأ ما بعدها!

- «طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا؛ لأن أجركم عظيم في السماوات. فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم».

وقال ياناكوس:

- أعد يا مانولي، ولا تسرع من فضلك. إذ تبدو لي هذه الآية، استغفر الله، غامضة إلى حد ما.

أعاد مانولي قراءة الآيات ثانية وقال:

- أخالها واضحة تمامًا. كل أعيان القرية وأغنيائها وكاذبيها وحونها سيقطفون أثرنا يومًا ما نحن الأربعة، ويطاردوننا لأننا نقول كلمة الحق. سيحرضون أتباعهم على الشهادة ضدنا. قد يقذفوننا بالحجارة، بل قد يقتلوننا. ألم يفعلوا نفسي الشيء مع الأنبياء؟ ولكن يجب أن نسر لذلك غاية السرور يا إخوتي؛ لأننا بذلك نهب حياتنا محبة للمسيح. ألم يهب حياته محبة لنا؟ هذا هو معناها.

وقال ياناكوس وعينه تتقد شرراً:

- أنت على صواب يا مانولي. أخال القسيس جريجوريس يسير في المقدمة مثل قيافا، ومن ورائه لاداس يصيح: اقتلوهم! اقتلوهم! فتحوا خزائنا عنوة وقسموا ذهبنا بينهم! وأكاد أرى الشيخ بطريار كاس - لا تضيق بكلامي يا ميشيل - يقوم بدور بيلاطس ويقول: «أغسل يدي من هذا، إذ لا حيلة لي، اقتلوهم!» ولكنه في أعماق قلبه مسروراً لأننا تسببنا في إزعاجهم. لم نتركه في سلام يلتهم لحم خنازيره الرضع، وينشب أظافره في خادميه ويدعو الأرملة كاترينا إلى بيته لتدلكه لأنه - كما يزعم - أصيب بالآلام البرد... إيه أيها الفجرة، أيها البؤساء، أيها الباحثون عن المتعة، إن عدالة الرب آتية، إنها آتية لا ريب فيها، ها هي ماثلة حقاً! أسكرته الكلمات. فأطل على القرية، وبسط إليها ذراعيه متوعداً، واستدار، وفجأة رأى أمامه القسيس فوتيس فابتلع الكلمات في حلقه.

وقال في ارتباك:

- عفوك يا أبانا، ولكننا كنا نقرأ الإنجيل والتهب قلبي حماساً. كان القسيس فوتيس اقترب منهم وهو يسير على أطراف أصابعه، ولم يلحظه أحد من الأصدقاء الأربعة إذ كانوا هائمين مع كلمات الإنجيل. وقف على مقربة منهم بعض الوقت ينصت لهم وعلى شفثيه ابتسامة.

قال وهو يدنو منهم:

- سلاماً يا أبنائي. كان الله معكم.

نهضوا جميعاً متهللين، وأفسحوا له مكاناً فوق المقعد الحجري. ولكن ما إن وقع بصر القسيس على مانولي حتى صاح:

- ما هذا يا طفلي؟ ماذا أصابك؟

وأجاب مانولي منكس الرأس:

- عاقبني الرب يا أبانا. لا تنظر إليّ. انظر إلى الإنجيل وفسره لنا. كنا في انتظار قداسكم لتبصرونا به. كيف نفهم ولسنا أهل علم وثقافة؟

وأضاف قسطندي:

- إن عقلنا أشبه بجهاز قياس معوج. هيا يا أبانا لتقومه.

فقال القسيس فوتيس:

- أنا الذي أساعدكم؟ أولى بحكماء العالم جميعاً أن يأتوا إلى هنا، يقفوا وينصتوا لكم حتى يتسنى لهذه المخلوقات التعسة أن تفقه أخيراً كلمات المسيح. أنت على صواب يا ياناكوس. الإنجيل ليس كتاباً نقرأه بعقولنا، فالعقل قاصر عن إدراك المعاني الشريفة السامية. الإنجيل كتاب نقرأه بقلوبنا. والقلب يعي كل شيء. في يوم من أيام الأحد يا ياناكوس ستأتي إلى كنيستنا، وسط المقابر التي نسكنها، وتفسر لنا كلمة الرب. لا تضحك فإنني أعني ما أقول.

والتفت إلى مانولي:

- كل الأوجاع يا بني مصدرها الروح، فهي التي تسوس البدن. روحك مريضة يا مانولي، وشفاء الروح هو دواؤك، ثم يكون شفاء البدن حتمًا.. ولكن لتحدث سويًا أولاً. لماذا بعثتم في طلبي؟ كيف لي أن أعينكم؟ اطلبوا ما تشاؤون وأنا في خدمتكم.. وبعد ذلك لي حديث معك على انفراد يا مانولي. وأجاب ميشيل:

- بعثنا في طلبك يا أبانا بسبب مرض مانولي. قلنا لأنفسنا: «ربما استقر على وجهه شيطان، وقد تعرفون قداستكم رقية تطردونه بها..». وأضاف ياناكوس إلى ذلك قوله:

- وثمة أشياء أخرى كثيرة يا أبانا لا أفهمها. أليس كل ما يصيبنا هو من عند الله؟ فلماذا حل ذلك بمانولي دون الأغا،.. ولنقل مثلاً القسيس جريجوريس أو العجوز لاداس؟ أي عدالة هذه؟ أنا لا أفهم. ثم استدار ناحية مانولي:

- لماذا لا تعترض أنت أيضًا؟ لماذا لا ترفع صوتك إلى الله تسأله؟ أقانع أنت ببقائك هنالك عاقداً ذراعيك، منكساً رأسك، قائلاً «الرب يعاقبني». ماذا اقترفت؟ لماذا يعاقبك؟ تكلم واحتج فلست بسائمة، وإنما أنت إنسان فاسأله. فهكذا يكون الإنسان.. كائن حي يتكلم ويعترض ويسائل.

وقف القسيس فوتيس ومد ذراعيه ووضع راحته على فم ياناكوس. وقال:

- تجاوزت الحد في أسئلتك. إنك ترفع صوتك عاليًا جدًا يا ياناكوس. تسأل

الله أن يهبط إلى الأرض، ويمثل أمامك، ليقدم لك الحساب. من أنت حتى تطلب من الله أن ينزل إلى الأرض؟

وأجاب ياناكوس في هلع:

- أنا.. ولكني أريد أن أفهم.

وقال القسيس فوتيس فزعًا:

- تريد أن تفهم حكمة الله يا ياناكوس؟ ولكن الإنسان ليس إلا دودة أرض عمياء عند قدمي الله؟ وهي لا شيء بالقياس إلى عظمة الله سبحانه. ماذا تستطيع أنت أن تبلغ من حكمته؟ أنا أيضًا اعتدت في شبابي أن أحتج وأتساءل مثلك. ولم أفهم. وذات يوم تحدث إليّ معلمي الشيخ في دير مونت أثوس وضرب لي مثالًا. كان كثيرًا ما يضرب الأمثال ليعبر بها عما في نفسه. طيب الله ثراه.

قال لي:

- يحكى أنه كان في سالف الأزمان قرية صغيرة تائهة في الصحراء، كان أهلها كلهم من العميان. ومر بهذه القرية ملك عظيم على رأس جيشه. كان الملك راكبًا فيلاً ضخماً. سمع به أهل القرية العميان. وكان قد سبق لهم أن سمعوا الكثير عن الفيلة وتحرق نفوسهم رغبة في أن يلمسوا هذا الحيوان الخرافي حتى تتكون لديهم فكرة عنه. وخرج عشرة من رجالهم، ولنقل إنهم أعيان القرية. توسلوا إلى الملك أن يأذن لهم بلمس الفيل - وقال الملك: «أذنت لكم فالمسوه» لمس أحدهم خرطوم، وآخر قدمه، وثالث بطنه، وشب أحدهم على قدميه حتى يمس أذنه، واعتلى آخر ظهره. وعاد العميان إلى قريتهم مسحورين. وتزاحم حولهم بقية العميان من أهل القرية، يسألونهم في لهفة عن حقيقة هذا الحيوان الخرافي الذي يسمى بالفيل. فقال أولهم: «إنه أنبوبة ضخمة ترفع نفسها بقوة وجبروت وتلتف حول نفسها والويل لمن تمسك به». وقال آخر: «إنه جدار أشبه بجدار الحصن يغطيه الشعر». وقال من لمس أذنه: «لا. لا إنه ليس جدارًا على الإطلاق، إنه سجادة من صوف سميك نسجت بطريقة فجأة، تتحرك كلما لمستها». وصاح آخرهم: «ما هذا الهراء الذي تنطقون به؟ إنه جبل شامخ متحرك». وقهقهه الرفاق الأربعة:

وقال ياناكوس:

- نحن العميان. أنت على حق يا أبانا. أسالك الصفح. إننا نكتشف ظفر إصبع صغير من أصابع قدمه المقدسة ونقول: «الله قاس كالحجارة» لماذا؟ لأننا عاجزون عن أن نتجاوز هذا الحد».

وقال ميشيل:

- ليس لنا أن نسأل. لا بد وأن لله حكمة لا نعلمها حين ابتلى مانولي. إننا فقط لا نراها لأننا عميان.

وقال مانولي وهو يرفع رأسه:

- ثمة رباط يجمع بيننا نحن الأربعة هذا العام. وليس لأحدنا أن ينفصل عن الآخرين. ومن ثم أرى أن من الملائم تمامًا لي أن أعترف أمام الجميع، حتى نحاول معًا أن نتبين لماذا يعاقبني الله، وأعرف كيف أبرأ مما أصابني.. أنا نفسي أعتقد بأنه طالما ظل هذا الشيطان مستقرًا على وجهي، فمعنى هذا أنني لم أتب بعد توبة نصوحًا، وأن الله لن يقبلني.

وقال القسيس:

- أي مانولي، أنت على حق يا بني. هكذا كان المسيحيون الأوائل. اعترفوا بخطاياهم قبل أن تربطهم رابطة الأخوة. حاولوا معًا الاهتداء إلى طريق الخلاص.. وها نحن باسم المسيح ننصت لك يا مانولي. لا تنس إننا جميعًا خطاة، وأن الرب الآن في السماء يرانا ويسمعنا.

جلس مانولي فترة طويلة يستجمع شتات فكره. مرت أمام عينيه حياته كلها- فقير معدم في البيت، ثم يتركه أبوه يتيمًا وتتولى خالته ماندالينا تربيته وذاق معها الأمرين، وأخيرًا عرف طعم الحلاوة والدعة في الدير، معلمه ماناس بصوته الوقور الحنون يقص عليه قصص القديسين في صومعته هنالك في تيبيد، ويحدثه عن حياة الرسل على شاطئ بحيرة جنيسارت، وأخيرًا المسيح المصلوب.. أي بهجة كان يستشعرها آنذاك كأن ملكوت السماوات تنزل إلى الأرض. ثم ذات صباح أقبل الشيخ بطرياركاس عمدة القرية ومعه بطانته يملأون فناء الدير بغلاً وسجاجيد حمراء وصيحات متهللة..

رفع مانولي رأسه وقال:

- لست أدري كيف أبدأ يا أبانا. طافت حياتي كلها بخاطري.. عونك يا أبانا، سلني وأنا أجيب. اسألوني أنتم أيضاً يا إخوتي.
وأجاب الأب فوتيس:

- لا تبحث عن بداية يا مانولي. ليس ثمة بداية ولا نهاية! تكلم. قل كل ما يرد على خاطرك. أغمض عينيك يا مانولي، ماذا ترى؟ أجب دون تفكير: ماذا ترى؟
- في بيت القسيس جريجوريس. اجتمع الأعيان بكامل هيئتهم واتخذوا قراراً. حددوا الكل منادوره في أسبوع الآلام في العام القادم.. لتمثيل السر الرهيب تحت سقف رواق الكنيسة.. يقترب مني القسيس جريجوريس، يضع راحته على رأسي ويباركني، يقول لي: «اصطفاك الرب يا مانولي لتحمل ثقل الصليب...»
وتناثر على قلبي شعاعاً.

فتح مانولي عينيه، كان جفناه يرفان وعادت أفكاره إلى رفاقه.

ثم عاود حديثه قائلاً:

- حقاً ما أقول، ففي تلك اللحظة تناثر قلبي شعاعاً مثلما تناثرت زجاجة العطر التي كانت تمسك بها مريم المجدلية العاهرة وكسرتها عند قدمي المسيح..
«وعندما كنت صبياً كانت تناوشني خيالات كثيرة، إذ اعتدت قراءة حياة القديسين وكانت نفسي مولعة بهم. تمنيت أن أكون قديساً.. وعندما ذهبت إلى الدير لم يكن يشغلني هناك سوى شيء واحد: النساك.. كنت تواقاً إلى أن أذهب بنفسني إلى تبيد، زاهداً يا إخوتي ترون أنني منذ طفولتي وأنا أدين نفسي، الشيطان يحاول أن يضرم النار في قلبي وأنا أحترق بها. تجرأت نفسي إذ رغبت في أن تحدث المعجزات على يدي، أنا أيضاً! أستغفرك يا ربي!».

«وبعد أن غادرت بيت القسيس جريجوريس أحسست برأسي يطن. بدت لي القرية شيئاً ضئيلاً جداً، لم تعد شيئاً أقنع به، وأنني لم أعد مانولي: الراعي الوضع عند الشيخ بطريار كاس، الجاهل البائس، بل غدوت إنساناً اصطفاه الله ليحمل رسالة عظيمة: عليه أن يقتفي آثار المسيح، وأن يتشبه به!».
وغمغم قسطندي:

- يا للجرأة المروعة. أنت يا مانولي يا من اتصفت بالركة والتواضع.
وقال القسيس:

- قسطندي، يا بني، إن قلب مانولي يفيض بمكنونه، دعه يفرغ ما فيه، ثم لك
أن تحكم بعد ذلك.
وتمتم مانولي:

- أسألكم الصبح يا إخوتي. تملك فؤادي إبليس. شيطان الغرور.. إني خجل
إذ أقول هذا، ولكنني أعتز، موطداً العزم على أن أفصح عن كل شيء في وضوح
النهار، والله على ما أقول شهيد.
وقال القسيس:

- تكلم، تكلم يا مانولي. لا تخجل. إن فؤاد المرء برزخ يعج بالأفاعي،
والضفادع والخنازير. أفرغ قلبك حتى يتخفف مما فيه.
واستجمع مانولي شجاعته ثانية وقال:

- وانتفخت أوداجي وتكبرت كتركي، أحدث النفس في روحاتي وغدواتي
مزهوًا: «اصطفاك الله يا مانولي، أنت من اصطفاك الله! حسنًا، وذات يوم -
والفضل لك يا ياناكوس وإني أشكرك...».

وأمسك بيد صديقه وكاد يقبلها، لولا أن سحبها منه ياناكوس فرعًا:
- ما هذا يا مانولي؟ تقبل يدي؟ يدي أنا؟

وقال مانولي:

- نعم يدك أنت يا ياناكوس. لأنك أنت الذي فتحت عيني.. وتبينت أنني مرائي
كذوب. وقلت لي، باركك الله: «كذوب كذوب! تريد أن تشبه بالمسيح وأنت
تتهيا للزواج.. بعد أن نكون على الصليب ستأتيك لينيو بالماء الدافئ لتغتسل به،
وتحضر لك ملابس نظيفة تغير بها ملابسك ثم تأوي إلى فراشك معها بعد أن كنت
على الصليب!».

ألقي ياناكوس بنفسه بين ذراعي صديقه وهو يبكي:

- اغفر لي يا مانولي. أنت لا تعرف أي شيطان كان يحرضني يومذاك.. في يوم
ما سأعرف أنا أيضًا، وسترى كم كنت مقززًا.. القسيس يعرف.

أجلس القسيس ياناكوس وعاد يقول من جديد:

- دعوه يا إخوتي يفرغ كل ما في جعبته عساه أن يتخفف. تكلم يا مانولي.
لا بد وأنتك تستشعر الآن بعض الراحة.
- وأنا أتحدث يا أبانا، أشعر بأن الكلام يخفف عني.. إن الاعتراف سر، سر عظيم! الآن استعدت شجاعتي، سأكشف عن كل شيء، كل شيء!
وضع القسيس راحته على كتف مانولي كأنما يريد أن يمدده ببعض القوة وقال له:

- إننا نصغي إليك يا بني، تكلم يا ولدي!
- ثبت إلى رشدي منذ تلك اللحظة التي فضح فيها ياناكوس حقيقة مشاعري عارية. أبصرت الهاوية، وتوقفت. حدثت نفسي: «ألا تخجل يا مانولي؟ أتحسب الصלב لهوًا ولعبًا؟ أتوهم أنك قادر على أن تخادع الله والناس على هذا النحو؟ تحب لينيو، وتهوى مضاجعتها ثم تريد أن تصدق أنك المسيح؟ عار عليك أيها الدعي. تدبر أمرك أيها المرائي واختر أيهما! ووطدت العزم منذ تلك اللحظة، لن أتزوج! لن ألمس امرأة! سأظل طاهر الذيل!..
مرة أخرى لم يتمالك ياناكوس نفسه وصاح قائلاً:
- قديس أنت يا مانولي، هذا ما كنت أعتقد، وصرحت به يا مانولي.
وقال مانولي:

- انتظر انتظر. سترى ما يقف له شعر رأسك، لم أفرغ بعد من سرد كل خطاياي.. اتخذت قراري بالنسبة للينيو، وحدث نزاع بيني وبين سيدي، وقصدت الجبل أنشد الخلوة بعيداً عن الغواية. قلت لنفسي: «هنالك فوق الجبل حيث الهواء نقيًا، سأندّر نفسي للمسيح... ثم في اللحظة التي تهبأت فيها لأتخذ طريقي صاعداً وكنت قاب قوسين أو أدنى من الخلاص.. آه ويا للعجب... هنالك عند بئر القديس بازل، عند مشارف القرية كان الشيطان ينتظرنى»..
وتنهّد مانولي، بدأ وجهه ينز ثانية، ومسحه بمنديله. ظل واجماً لفترة طويلة، ويدها ترتجفان كأن بهما حمى.
وقال القسيس:

- تشجع يا مانولي فإني آثم كبير، خطاياي تفوق خطاياك. سأعترف لكم يوماً ما، وسوف تقشعر أبدانكم فرقا. أنا، هذا القسيس المائل أمامكم، لطخت يدي بدم إنسان. تملكني الشيطان ذات يوم: كنت ما زلت في ريعان شبابي، وحرارة الشباب تسري في دمي. كنت راعياً، ونزلت إلى القرية لأحتفل بعيد القيامة مع بعض أصدقائي. وأخذت معي حملاً لنشويه على السفود، كان الوقت ظهراً، والأشجار مزهرة، والأرض تتضوع عطراً. واتخذنا مجلسنا مع أهل القرية فوق العشب. أوقدنا النيران، ونهياً لكى نشوي حملان عيد القيامة على السفود. وبدأنا كما هي العادة بوضع سقطها فوق الجمرات حتى نأكلها أولاً إلى حين يتم الشواء. وأكلنا الكبد والأعضاء مزرة مع كؤوس النبيذ، ومع الشراب اشتدت حميتنا. وبعد أن نضج الحمل طرناه على ظهره فوق العشب، أمسكت بسكين كبير وشحذته، ثم هممت لأشق البهيمة. وفي هذه اللحظة عينها وسوس إليّ الشيطان بأن أصبح وأنا أفهقه عالياً: «آه، لو أن ثمة قسيس هنا لقطعت رقبتك!» كان الشيطان كما أقول لكم، هو الذي حرضني على أن أقول هذا، وهو الذي تحدث بلساني. ذلك لأنني قسيس. وكنت أجل القسيسين. اعتدت كلما أبصرت أحدهم في الطريق أن أهول نحوه وأقبل يده. ولكنني قلت ذلك وبهذه الصورة على سبيل الدعابة، فقد شربنا وانتشينا. وإذا بفلاح يجلس إلى جوارى مخموراً مثلي، سمعني وصاح بي صاحكاً: «ثمة قسيس وراءك. نفذ كلمتك إن كنت رجلاً!» واستدرت، وأبصرت قسيساً، فانقضضت عليه وقطعت رقبته.

رسم القسيس فونيس علامة الصليب. وظل الجميع صامتين في وجل. غاص كل منهم في أعماق نفسه، يبصر ذاته ويرتجف.. كم من جرائم القتل، وكم من الفضائح، وكم من الأعمال المشينة تضطرم في أعماق نفوسنا! إننا نلتزم الخير خوفاً. تظل شهواتنا طوال حياتنا دفينة مهتاجة محتدمة الأوار تسمم دمننا. ولكننا نكبح جماح النفس، نخدع جيراننا ونموت كرماء فضلاء. لا نقترف إثماً في وضح النهار طوال حياتنا. ندعي الفضيلة خداعاً ولكننا لا نخدع الله فالله خير الماكرين. وأخيراً قال ميشيل بصوت مخنوق تنكره عليه:

- أنا، أنا أكثركم شرّاً يا أبانا، إذا سقط أبي مريضاً أستشعر بهجة شيطانية، يهب

شيطان بداخلي ويرقص طرباً، ذلك لأنني ضيق بأبي، أراه عقبة في طريقي، وأتمنى له الموت. ليمت - هذا الرجل الذي أتى بي إلى العالم والذي أحبه! لست أدري كيف تكون نفس الشرير، ولكن نفس الرجل الأمين، الرجل الصالح هي الجحيم! جحيم تسكنه الشياطين. إن كل من يخفي الشياطين داخل ذاته، ويحول دونها والقفز إلى خارجها لتتترف أفعالا منكرة، أن تسرق أو تقتل، كل هؤلاء نسبيهم أناساً أبراراً، ومسيحيين مخلصين.. ولكننا جميعاً في أعماق نفوسنا، أستغفر الله، مجرمون وقتلة ولصوص!

وأجهش ياناكوس بالبكاء. نظر هو الآخر إلى أعماق ذاته فارتاع من هول ما رأى. ومد القسيس يده وقال:

- يا أطفال، سيأتي دور كل منا ليعترف.. الآن دور مانولي. لقد فتح لنا قلبه، فأغلقوا قلوبكم. دعوه ينهي ما بدأ.. تكلم يا مانولي. هل رأيت الآن؟ هل فهمت؟ كلنا أسوأ منك. أنا القسيس، وميشيل الرجل البار المحسن، وفخر قريبتكم! مسح مانولي عينيه اللتين أغرورقتا بالدموع. واستجمع شجاعته، وواصل حديثه:

- كان الشيطان جالساً يا إخوتي عند حافة البئر يتسم لي، كاترينا الأرملة، عاهرة قريتنا. زينت شفيتها بالخضاب، وفتحت بعض صدرتها، وامتد بصري حتى لمح حلمتي ثديها، وتدافع الدم إلى رأسي، وأصابني دوار. تحدثت إليّ في ضراعة، ولم تكن في نفسي رغبة إلا في شيء واحد فقط، أن أهم بها وألقي بنفسي فوقها. لولا خوفاً من الناس، وخوفاً من الله.. ففررت هارباً.. هربت من أمامها ولكنني أخذتها معي في فكري ودمي. ولم يفارق طيفها أحلامي ليل نهار. وتظاهرت بأنني أفكر في المسيح، كذب وبهتان، إنها هي من كانت تشغل فكري. وذات مساء أحسست بأنني لم أعد أطيع صبراً، واغتسلت، وتمشطت، وأخذت طريقي إلى القرية.. كنت قاصداً الأرملة. حدثت نفسي قائلاً: «إنني ذاهب إليها لأنقذ روحها. سأحدث إليها وأهديها إلى طريق الرب.. «كذب! كذب! كنت ذاهباً إليها متلهفاً على مضاجعتها. ثم.....».

وتوقف مانولي ثانية عن الحديث، كان يلهث. التفتوا كلهم نحوه وتطلعوا إليه

في حنان. تغير مانولي أمام عيونهم. إذ كان يسيل من لحم وجهه المنتفخ سائل
عكرا يتجمع ويتجلط قطرة قطرة فوق شاربته ولحيته.

أمسك القسيس بيد مانولي بين راحتيه، يربت عليها، وقال لينهي كلامه:

- ثم جاء الخلاص.. أفهم الآن يا مانولي. أدركت الآن الطريق الخفي الذي
سلكه الرب لخلاصك. إنها لمعجزة عظيمة يا إخوتي! من ذا الذي يستطيع أن
يرجم بالغيب ويظن بنفسه القدرة على معرفة السبل الخفية الغريبة التي يأتي منها
الخلاص لأرواحنا..؟

ثم فجأة، أكمل حديثك يا مانولي، فقد نال منك التعب - ثم فجأة أحسست
بوجهك ينتفخ، يكسوه لحم مقرز، ويصير جرحاً كريهاً.. ليس بشيطان يا مانولي
هذا الذي استقر على وجهك. إن الله هو الذي ألصق هذا القناع على وجهك
لينجيك. إنه كان بك رءوفاً رحيماً.

وتمتم قسطندي:

- أنا لا أفهم شيئاً. لا أفهم شيئاً.

وتمتم كل من الصديقين الآخرين:

- ولا أنا.. ولا أنا.

أما مانولي فظل وحده صامتاً يتنهد.

وربت القسيس فوتيس على يد مانولي، كأنه يود لو استطاع أن يشاركه آلامه.
- كنت في طريقك إلى الهاوية يا مانولي، كنت على شفا هوة وتوشك أن
تتردى فيها فثبت الله هذا اللحم على وجهك ليوقفك. كنت في طريقك لتقترف
إنمّا، تدخل مخدع الأرملة، ولكنك الآن كيف لك أن تتطلع إليها بوجه كهذا؟
وكيف لها أن تتطلع هي إليك؟ أحسست بالخجل ففقلت عائداً من حيث أتيت.
وتحققت لك النجاة لحظة أن عدت أدراجك.

أخفى مانولي وجهه في منديله الكبير. ولاذ بالصمت. كان صدره يهتز من أثر
النشيج. وغمغم قائلاً:

- الحمد لله.

ثم لاذ بالصمت ثانية.

نكس الأصدقاء الثلاثة رؤوسهم أيضاً والهلح يقتلهم. اقشعرت أبدانهم، إذ أحسوا بأن الله يسد علينا السبل كليث يحاصرنا. تحس أحياناً بأنفاسه، وتسمع زئيره، وترى عينيه الثابتين تخترقان الظلام.

ويبدو أن القسيس خمن ما يدور بخاطرهم. فقال لهم:

- يا أطفال، ثمة عين بداخلنا مفتوحة ليل نهار ترقبنا. وثمة أذن مفتوحة في سويداء قلوبنا تسمعنا: هي الله.

وصاح ميشيل:

- كيف يتركنا الله نعيش على ظهر الأرض؟ لماذا لا يقضي علينا ويظهر الخلق؟

وأجاب القسيس:

- لأن الله يا ميشيل صانع خزف، يصنع مخلوقاته من طين.

ولكن ياناكوس أحس بصبره ينفد.

- جميل جداً حديثك يا أبانا. ولكن معنا الآن رجل مريض. ألا نستطيع أن نضع يدك عليه وتصلي من أجله؟ ألا نستطيع نحن جميعاً أن نصلي معاً وندعو الله الرحيم أن يشملهم برحمته؟
وأجاب القسيس فوتيس:

- مانولي ليس بحاجة إلى صلاة مثل ما هو ليس بحاجة إلى تعاويذ أو تمائم. إن صلوات الآخرين لن تجدي معه. فالخلاص يعمل بداخله ليل نهار، في بطء ودأب. ألم تروا يا إخوتي كيف تدخل الدودة شرنقتها محكمة الغلق وتختفي بداخلها إذا حل فصل الشتاء؟ يتشوه رأسها وتصير فظة المظهر، وتلبث في مكانها جامدة، ويتم خلاصها رويداً رويداً وسط الظلام وفي داخل أحشائها. إذ يختفي وراء كل هذا القبح وبر خفيف، وعينان براقتان، وجناحان. وفي صبيحة يوم من أيام الربيع الجميلة تثقب الشرنقة وتخرج منها فراشة. وهكذا يعمل الخلاص بداخلنا وسط الظلام.. تشجع يا مانولي، سر على دربك، فوراء وجهك يكمن الخلاص. تشجع وكن على ثقة!

ورفع مانولي عينين ضارعتين تطلع بهما إلى القسيس وسأله:

- وإلى متى أنتظر يا أبانا؟

- هل تتعجل يا مانولي؟

وأجاب مانولي في خجل:

- لا، لا، وبقما يشاء الله.

وقال القسيس:

- إن الله لا يتعجل أبداً. إنه ساكن، يرى المستقبل كأنه ماضٍ، إذ إنه يعمل في نطاق الأبدية. المخلوقات الزائلة التي لا تدري ماذا سيحدث غداً هي وحدها التي تتعجل بدافع من الخوف والقلق. دع الله يعمل في صمت، ولتكن مشيئته. لا ترفع رأسك ولا تسأل. فكل سؤال خطية.

كانت الشمس في منتصف طريقها، تسقط أشعتها عمودية قطرة قطرة فوق الرؤوس الخمسة المتدانية، إذ اقتربوا من بعضهم البعض في مودة صامتة. وفجأة صاح ناي نيكوليو فوق المنحدر الآخر للجبل، طروباً، دفاً، شجياً. وقال ميشيل وعلى شفثيه ابتسامة:

- نيكوليو.. هو الآخر يقاسي ويحاول أن يخفف عن قلبه.

أرهفوا جميعاً السمع وأنصتوا. كان لحن الراعي يتكلم ويضحك ويرقص وسط هذا الهجير. وإذا بفراشة مرقشة بلون برتقالي ترف بجناحيها لحظة حول الرؤوس الخمسة ثم تهبط فوق شعر القسيس فوتيس. خفقت بجناحيها، ودست خرطومها بين الشعر الأشيب إذ حسبته توتاً شو كياً مزهراً. ثم طارت عنه وحلقت عالياً جداً واختفت في ضوء الشمس.

وبعد لحظات ارتفع صوت مانولي:

- يا أبانا، يا إخوتي، أسألكم الصفح، وعسى الله أن يغفر لي! إني آنس راحة الآن وكأن ثقلًا عظيمًا انزاح عن قلبي. ها أنذا بفضلك يا أبانا أرى وأفهم وأرضى! أخال أوجاعي الآن كأنها صليب أحمله، وأصعد به راضياً مستسلماً. وأعرف أن الصلب بعده القيام. ترى هل ستكون لدي القدرة على حمل صليبي؟ أعينوني يا أصدقائي حتى لا أسقط!.

ونهض الأب فوتيس وهو يقول:

- كلنا يد واحدة. كنت أتحدث هذا الصباح إلى عشيرتي فوق الجبل؛ لأننا أيضاً نصعد الجبل راضين مستسلمين وعلى كتفنا صليتنا الثقيل، نتعثر ونشكو ونمل.. تحدثت إليهم وصحت بهم قائلاً: «كلنا يد واحدة، فبذلك يكون خلاصنا!».

وقال ياناكوس:

- ولكن في هذه الحالة فإن الألم والمرض والخطيئة....

فقال القسيس:

- وهكذا تستطيع الديدان داخل شرنقتها أن تتحول إلى فراشات.

وتذكر ما كان يقرأه الأصدقاء الأربعة فقال لهم:

- «طوبى للحزاني لأنهم يتعزون».

- أولئك الذين سيجدون السلوى. سيجدون دواء لأسباب معاناتهم.. أي طوبى لكل من يعانون لأنهم سينعمون برحمة الله الواسعة. أما أولئك الذين لا يعرفون المعاناة فلن يتمتعوا بتلك البهجة السماوية. انظروا أي خير قدسي في المعاناة.. هل تعي ذلك يا مانولي!

ولكن مانولي اشتد به الإعياء فترك نفسه يسقط فوق كتف ميشيل. أغمض عينيه واسترخى ثم أغفى واستسلم في وداعة للنوم.

رفعه رفيقه في حنان وأرقدوه على حصير ثم خرجوا في هدوء.

وقال القسيس:

- تنزل العناية الإلهية على مانولي في صورة نوم. لتتركه وحده يا أبنائي في رعاية الله.

وأخذوا طريقهم الواحد وراء الآخر ونزلوا صامتين، القسيس يتقدمهم، حاسر الرأس، وشعره الأشيب يرفرف فوق كتفيه.

قبل المساء فتح مانولي عينيه فأبصر رجلاً جالساً بجوار فراشه يرقبه في الضوء الكابي، يحدق فيه بعينين ضاربتين مسجورتين متفرستين في حذر واستغراب. وكانت تفوح من فمه رائحة الخمر نفاذة قوية.

ابتسم له مانولي وقال:

- مرحبًا بالأخ بانايوتي.

لم يجب بانايوتي. وإنما مال برأسه الضخم الأشقر فوق مانولي يحدق فيه بعينه، ويمط شفته السفلى. فتكشف عن أسنان كبيرة صفراء حادة.

وسأله مانولي وهو يرتجف، إذ حسب نفسه فريسة حلم كئيب.

- هل تريد مني شيئًا؟

فتح بانايوتي فمه بصعوبة. وخرجت كلماته مدغومة متعثرة:

- أنا هنا منذ ساعة منحنيًا فوقك أرقبك.

وأعاد مانولي سؤاله:

- هل ثمة ما تريده مني يا أخي؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

وخار بانايوتي في غضب:

- لا أستطيع أن أنظر إليك إلا هكذا... لا أستطيع.

ثم قال على الفور:

- سيكون موتي على يدك يا مانولي!

جلس مانولي على حصيرة وقال:

- أنا؟ أنا؟ ماذا فعلت لك؟

- فعلت أسوأ ما يمكن أن يفعله بي إنسان، عليك اللعنة. قتلت في نفسي كل بهجة عرفتها في حياتي، أنا الإنسان التمس. لم أعد أطيع احتمالاً. أتيتك بهدية.

انتظرتك حتى تصحو من نومك ثم أقدمها لك - خذها.

ودس يده في قميصه واستل سكينًا كبيرًا، ووضعها على ركبتي مانولي.

وغمغم قائلاً:

- خذها، خذها عليك اللعنة واقتلني. ضع خاتمة لفعلتك التي بدأتها، إنك ستعمل عملاً طيباً. اقتلني!

وصاح مانولي:

- بانايوتي، أخي، ماذا فعلت بك؟ لماذا تتحدث إليّ هكذا؟ أنا أقتلك؟.

وحاول أن يمسك بيده، ولكن بانايوتي دفع ذراع مانولي بعيداً في هياج، وزأر:

- لا تلمسني. دع كلماتك الرقيقة فإنها تشير اشمزازي، اقتلني. قلت لك ضع

خاتمة لفعلتك التي بدأتها. ماذا أفعل بحياتي الآن اقتلني!.

وأجهش مانولي بالبكاء.

وتمتم ثانية:

- بانايوتي، ماذا فعلت، ماذا فعلت لك يا أخي؟

وأجاب بانايوتي:

- لي أناس يعملون لحسابي. يتبعون كاترينا حيثما تذهب. ثمة امرأة عجوز تسكن بجوارها أستاذجراها. تتوارى وراء بابها ليل نهار ترصدها. رأيتك في ليلة قريبة تدخل بيتها مثلثماً. مكثت معها ساعة وبضع الساعة. ومنذ تلك الليلة ترفض كاترينا أن تفتح لي بابها، وهي دائمة البكاء، هكذا قالت لي المرأة... تبكي من؟ من أجل من عزفت عن الطعام وبدأت تذوي؟ من أجل من تأبى أن تفتح بابها لي؟ من أجلك أنت، أنت، أيها المسخ، يا من تعافك نفس كل من ينظر إليك، أنت! أنبأوني بحالتك التي صرت إليها، وسررت لسماعي النبأ. حدثت نفسي قائلاً: «الآن تخلصت من هذا الوغد الذي يلعب أمامنا دور القديس، عندما تراه كاترينا ستشمئز لمرآه وتتخلص منه. وهكذا سأخلص منك أنا أيضاً».

«ورغم هذا لم تخجل من ذهابك إليها وأنت على هذه الحال، ومكثت عندها ساعة ونصف. أي سحر هذا الذي سحرتها به، هه؟ ها هي بدلاً من أن تشمئز منك إذا بها لا تستطيع أن تسلك. تلطم وتبكي منادية باسمك أنت أيها المجذوم القدر! لا جدوى من ضرب زوجتي كل يوم، فلم يعد هذا يخفف عني شيئاً. أطأ ابنتي تحت قدمي دون أن أستشعر راحة. أغلقت ورشتي، وأدمنت الشراب، و أصبحت أهيء على وجهي في الطرقات و الصبية في ذيلي يقذفونني بكلمة تحز في قلبي كأنها سكين... وأنت تعرف هذه الكلمة... تعرفها! لعن الله تلك الساعة التي ناداني فيها هذا القسيس، ذو اللحية التي تشبه لحية التيس، بتلك الكلمة هناك في حانوته القدر. فمنذ ذلك اليوم وأنا محطم النفس».

- إنني محطم النفس، لم أعد أطيع احتمالاً، وأتيتك مع المساء بهذا السكين.

قم يا مانولي إن كنت رجلاً واقتلني! إنني أقبل يدك، اقتلني ففي ذلك راحتي.

أحنى مانولي رأسه بين ركبتيه ولم يعد قادراً على أن يكتم نسيجه.

وسأل نفسه:

- ماذا أستطيع أن أفعل. كيف لي أن أنقذ هذه الروح الضارية التي تكابد الحب؟

وصاح بانايوتي وقد جن جنونه:

- دع البكاء أيها الدمية. خذ السكين كما أقول لك ولا تخف. لقد شحذتها جيداً وهاك عنقي فاقطعه.

ومد رقبته الطويلة إلى مانولي.

وسأله مانولي:

- لماذا لا تقتلني أنت؟

وأجاب بانايوتي في قنوط:

- أي خير لي في قتلك؟ ستزداد تعاستي، سأخسر بذلك كاترينا إلى الأبد. قتلك لي فيه وحده خلاصي، وسأخذك معي إلى الجحيم. وانخرط في نحيب.

بكى كثيراً وهو يخور كما يخور العجل، ورقبته ما زالت ممدودة.

وأخذه مانولي بين ذراعيه وهو يبكي مع بكائه وتحدث إليه قائلاً:

- بانايوتي، أسألك الصفح يا أخي، أسألك الصفح، لن أراها بعد اليوم، لن أقف ببابها ثانية لأدخل بيتها، أنا الذي سأموت وتتخلص أنت مني. أنا، أنا، أنا، أقسم لك. أنا الذي سأموت. ألا ترى حالي التي صرت إليها؟ لقد تهرأ جسدي. أنا الذي سأموت يا أخي، لا تبك.

ولكن بانايوتي استمر في خواره. وانتزع رقبته في عنف من بين ذراعي مانولي، وهب واقفاً. وخطا خطوتين ناحية الباب وهو يترنح. حاول أن يجتاز العتبة بيد أنه تعثر وسقط على الأرض سطيحاً.

واندفع مانولي نحوه ليتنشله، ولكنه سبقه واعتدل واقفاً. وسار يترنح مخموراً للغاية حتى بلغ الباب وهو يخور.

وفي هذه اللحظة ظهر نيكوليو مع قطيعه. اندفع بانايوتي نحو الأغنام وأخذ يتعقبها ويقذفها بالحجارة وهي تجري أمامه مذعورة.

وصاح نيكوليو في غضب:

- إيه، إيه! دع أغنامي في سلام!

ولكن بانايوتي أخذ يلتقط الحجارة من على الأرض، يقذف بها الأغنام وهو يسب ويلعن.

واستصرخ الراعي الصغير كلابه.

- عليه.. عضوه، عضوه.

وأخذت الكلاب تعدو وراءه، ولسانها يتدلى من بين فكّيها.

اندفعت الكلاب نحو بانايوتي الذي أسند ظهره إلى صخرة ليلتقط بعض الحجارة الكبيرة ويقذفها بها. أهدت الكلاب ببنايوتي وهي تنبح، وبدأ هو الآخر ينبح، واندفع نحوها، ولكن خائنه قدماءه وخر إلى الأرض. تحامل على نفسه ليقف، بيد أنه سقط ثانية. انقضت عليه الكلاب المهتاجة، نشب كلب أنيابه في ساقه ولم يتركه يفلت من بينها، ووثب آخر فوق رقبتة وعض ذقنه: واصطبغت لحية بانايوتي بلون الدم الأحمر.

وصاح نيكوليو في ثورة:

- عليه... عليه...

سمع مانولي الصياح والنباح، فخف مسرعاً إلى بانايوتي لنجدته. كان الراعي الصغير يتطلع إلى المشهد ضاحكاً.

وصاح بمانولي:

- دعها يا سيدي، دعها تأكله!

نادى مانولي الكلاب وأمسك بعضاً وطردها بعيداً ثم استدار إلى بانايوتي ليأخذ بيده. ولكنه كان قد لاذ بالفرار ينزل المنحدر وهو يصرخ.

اعتلى نيكوليو الصخرة المرتفعة، ووضع راحتيه حول فمه وصاح بأعلى صوته:

- يهوذا... يهوذا...

وردد الجبل صدى صيحته.

وصاح مانولي:

- اسكت. ألا تشعر بالأسى له؟

وعاود نيكوليو صياحه وهو يقذف حجرًا بكل ما أوتي من قوة:

- يهوذا!

كان الليل يزحف، دهم سفح الجبل، وأخذ يتقدم صاعدًا إلى قمته. وبدأت الظلمة تلف الكون. وربضت الكلاب عند قدمي نيكوليو تلحق جراحها. ووقف الكباش الكبير داسوس بإليته الشحيمة عند مدخل المرعى. أخذ يصل بجرسه بطريقة أبوية، ويتنظر القطيع حتى يتجمع ثانية خلفه لبدأ رحلة العودة إلى الحظيرة. عاد مانولي إلى الكوخ. وأخفى السكين المسنونة تحت وسادته، ثم علق أيقونة الصلب على الجدار فوق حشيته.

وتمتم قائلاً:

- يا إلهي، ضع يدك على قلبه وامنحه الشفاء. هو أيضًا يعاني، وأنت صاحب القوة المكين، ارفع عنه العذاب وهبه من لدنك العزاء!

جرية قتل في القرية

انقضت أيام منذ أحد الاعتراف - كما أسموه فيما بعد - وهو اليوم الذي فتح فيه مانولي قلبه، وتخفف مما يثقله.

كانت الشمس في عليائها والأرض من تحتها تعملان معاً في توافق ودأب طوال هذه الفترة على إنضاج الحب. يبست السنابل الممتلئة لبناً. وصبغ الخشخاش الحقول بلونه الأحمر. وجمعت الطيور المغردة شعراً وقشاً وطيناً لبنياً أو كارهها. رقدت الأنثى فوق البيض باسطة عليه جناحيها، وجثم الذكر أمامها فوق غصن شجرة يغني لها مشجعاً. وبين حين وآخر يتساقط الرذاذ، عزيزاً بعد طول انتظار، فينعش الأرض ببعض الرطوبة، ولكن سرعان ما تعود الشمس إلى الظهور، تطارد السحب لتواصل عملها القديم قدم العالم في خدمة الناس والطيور.

أكل الشيخ بطريار كاس وشرب، وتشاجر أيضاً: حيناً مع لينيو التي استبدت بها رغبة مجنونة في الزواج، فأهملت أعمال البيت، لتقضي كل وقتها فوق الجبل، وحيناً آخر مع ابنه الذي أقبل على القراءة كأنه شيخ من فضلاء المجتمع أو راهب فاشل.

كان يزجره قائلاً:

- القراءة جعلت لعامة الناس والمدرسين، أما ابن كبير الأعيان فخلق لحياة الترف والخمر المعتقد وزوجات الآخرين. أنت عار أسرتنا يا ميشيل.

يراه يخرج بين حين وآخر لزيارة ماريو خطيبته، ولكنه يعود كل مرة أكثر حزناً ووجوماً. ويهز الشيخ رأسه في ازدراء. ويحدث نفسه: «اعتاد أبي أن يمتطي

صهوة جواده ويطوف بالقرى حيث يلقي عشيقاته. يعقل دابته في حلقة الباب، وإذا أبصر الزوج مطية أبي فإنه يغير اتجاهه وينتظر حتى ينصرف أبي ثم يعود الزوج إلى بيته. وأنا أيضاً كانت لي عشيقاتي، اعتدت أن أذهب إليهن في هدأة الليل كلص وأستمع بحظي من المجنون. أما هذا الولد فله خطيبة أحسب أنه لم يلمس منها، أستغفر الله، أكثر من أطراف أناملها. كيف لها هذه المخلوقة التعسة أن تحتمل الذبول، وصدرها المريض؟ المرأة ريحانة جميلة: إذا لم تتعهدا بالري، ذبلت.. يقيناً ستنتهي سلالة بطرياركاس إلى مآل سيء، لقد محيت معالمها، إنها على وشك أن تزول!.

والعجوز لاداس لا يرى ياناكوس حتى يستوقفه ويقول له:

- هات يا ياناكوس الجنيهات الثلاثة، هاتها بفوائدها، وإلا فمن الخير لك أن تعرف أيها الصعلوك أنني سأجبرك على بيع حمارك. أنا أيضاً فقير مسكين، فلا تحاول أن تخرب بيتي.

وساءت الأحوال في بيت القسيس جريجوريس. مضت شهور على القرية بغير زواج أو تعميد، ولم يستجب واحد من أهل القرية لداعي الموت. وحفار القبور لا يبرح واقفاً عند مشارف الجبانة يضع راحته فوق عينيه يتطلع إلى القرية، فلا يبصر أحداً، ويرهف السمع: وأجراس الحداد خرساء. وهمهم قائلاً:

- ألن يفكر الشيطان في انتزاع روح واحد أو اثنين. سيقتل الجوع أطفالاً. ولزمت الأرملة بيتها، وأغلقت بابها عليها، فلم تعد تفتحه لأحد. وبانايوتي يطوف ببيتها مخموراً، يلقي بتهديداته عن يمين وعن شمال. وتملكت الفتية شهوة حارقة، وما عاد أمامهم منفذ ينفسون به عن عنفوانهم فبدأوا يتسكعون حول بيوت المحصنات من النساء.

وضج بالشكوى كل من لهم زوجات حسناوات:

- اللعنة على الأرملة! تلعب الآن دور المرأة المحصنة، وليس ثمة من يدفع الناس الآن عن بيوتنا. لم نعد نسمع سوى أغاني التشبيب تحت نوافذنا أثناء الليل وأطراف النهار.. إن شرف القرية في خطر!

وكل يوم يلتقي أهل القرية ساعة الأصيل في مقهى قسطندي، بعد أن يكون التعب قد نال منهم كل منال في نضالهم مع الأرض. ومن أجل رفع الماء لري الحدائق وبساتين الخضر خوفاً من الجفاف. كانوا يدخلون النارجيلة، ويتبادلون بضعة كلمات قليلة في إعياء شديد، ثم سرعان ما يخيم عليهم صمت ثقيل. ولم يشأ الحظ أن يواتي القرية ولو بمجنون يلهو أهلها بمشاكسته، ويضحكهم. بل ولا حتى بغراب أو شحرور يصفر كما يصفر الإنسان ويعينهم على إزجاء وقتهم. لا شيء غير التلاقي كل مساء في المقهى، واليوم كالأسس.

كان بانابوتي أحياناً يمر بهم مخموراً تماماً، بيد أنه لم يكن مصدر راحة لهم؛ وذلك لأنه شرس الطباع. إذا ما أثقلت عليه يلتقط الحجارة ويقذفك بها في وجهك. ألم يحدث بالأسس فقط أن حطم نظارة ناظر المدرسة الذي تصادف وجوده في المقهى، وتلقى منه حجراً أصابه بين حاجبيه.

وكان الأغا بين الحين والحين إذا ما أصابه اكتئاب وألم به حنين غامض يدعو أهل القرية إلى الرقص تحت شجرة السنار. ولكن كيف لهم أن يرقصوا بقلوب فارغة مكرهة؟ ومن ثم كان رقصهم يفتقد البهجة. فسرعان ما يملأ أهل القرية، وينصرفون عنه ليدخلوا النارجيلة ويملأوا المقهى بهمسات كظيمة. وإذا سكر أحدهم أو كسرت ساقه أو وجد لصاً في بستانه، يعلو الضجيج حول هذا الحدث، ولكن للحظة قصيرة. ثم سرعان ما يخفت الضجيج، وترتد القرية إلى صمتها الثقيل.

لكن ويا للهول، فذات صباح جميل، طلع على الناس خبر مروّع، سرعان ما تناقلته الألسن وطرق الأبواب يبذر الهلع: «وجد يوسف اكي مقتولاً في مخدعه عند الفجر».

وعندما أسفر الصباح، انسلت من بيت الأغا مارثا، جاريته العجوز. خرجت وجسمها يرتعد فرقاً، قاصدة صديقة حياتها الخالة ماندالينيا.

وما إن أغلقت الباب وراءها حتى صاحت قائلة:

- هلكت القرية.. هلكت القرية يا عزيزتي ماندالينيا؟ وجد يوسف اكي مقتولاً.

- من ذا الذي جرؤ على قتله؟ إنك أتيتني بخبر كأنه الصاعقة ستحرقنا جميعاً.
من فعل ذلك يا عزيزتي؟

- لم يكن في البيت أحد مساء أمس، لا أحد سوى الأغا ويوسف فاكى وحسين وأنا.. لا أحد سوانا! أسرعى كي تنذري المسيحيين ليأخذ كل منهم حذره، ويهرب كل من يستطيع منهم الهرب لينجو بنفسه.. في نفسي شكوك.. أشك ولكنني لست على يقين، لذا لا داعي للكلام.

وما إن فرغت من كلماتها هذه حتى انسلت عائدة مقوسة الظهر، تسير بمحاذاة الجدران إلى أن دخلت بيت الأغا وأغلقت الباب بالرتاج.

أمسكت العجوز ماندالينا بمنديلها الأسود وخفت إلى أهل القرية، تنتقل من باب إلى باب تبذر الفرع ممزوجةً ببهجة خفية مستترة. هجر الرجال أعمالهم وتجمعوا في المقهى ليروما قد يحدث. كانوا يختلسون النظرات إلى شرفة الأغا. الأبواب والنوافذ كلها موصدة. وبين الحين والحين تتناهى إلى سمعهم أصوات صرخات حادة عاتية أو طلقة مسدس أو قعقة شيء يتحطم تحت الأقدام. ثم يعود الصمت ثانية.

والتقى الأعيان وشيوخ القرية في بيت القسيس جريجوريس، والهلع يتملكهم. وقلب الشيخ بطريار كاس يكاد يتصدع من الروع.
طفق يقول وقد زادت تهتهته:

- إذا لم نعثر على القاتل فإننا هالكون. سيلقي الأغا بنا جميعاً في السجن. وإذا كان مخموراً فربما يرسلنا إلى المشنقة.
وتنهذ العجوز لاداس:

- سيلزم كلاً منا بدفع دية القتل.

وقال ناظر المدرسة:

- سيغلق المدرسة والكنيسة ويضطهد سلاله الإغريق.

وكان القسيس جريجوريس يذرع الفناء جيئةً وذهاباً، ويحرك حبات مسبخته في عصبية. أحس وكأن القرية كلها معلقة برقبته. ظل يحدث نفسه قائلاً:

- أنا مسئول عن هذه القرية. أئتمني الله على أرواح أهلها. أمرني سبحانه

قائلاً: «خذ حملاني وارعها» إذن لا مناص من البحث عن القاتل ومعرفته.
طاف بكل أهل القرية يسألهم الواحد بعد الآخر لعله يهتدي إلى قاتل هذا
الغلام التركي اللعين، ولكن دون جدوى. وتفكر وتدبر ولكن عبثاً.. الشيء
المؤكد أن القاتل مسيحي، فليس ثمة بالقرية سوى ثلاثة من الأتراك - الأغا
وحارسه ويوسوفاكي، ومن عداهم فهم مسيحيون: «الويل لنا لو كان القاتل
مسيحياً، ستضرم النار في القرية كلها وتعمها المذابح».

ووصل قسطندي مقطوع الأنفاس:

- الأغا يجول بناظره بين البيوت، يلوح بمسدسه ويطلق النار على كل ما
تبصره عينه، ويحطم كل ما تصل إليه يده في بيته - المقاعد ودمجانات العرقي
والجرار - ثم يلقي بنفسه فوق جثة يوسوفاكي وينخرط في نواح وعويل. هذا ما
أنبأني به مارثا العجوز.

وانفتح الباب مرة ثانية ودخل ياناكوس.

- خرج حسين إلى الشرفة ونفخ في النفير.

وظهر ثالث:

- أرسل الأغا منادياً يحوس خلال القرية. إنه الآن بالميدان ليعلن شيئاً ما.

- ماذا يقول؟

- لم أع شيئاً مما قال يا أبانا. التقطت أذني بعض أسماء ولكنني لا أذكرها.

وزمجر الشيخ بطريار كاس وانتفخت عروق رقبته حتى تكاد تتمزق:

- اذهب إلى الجحيم.

وقال القسيس جريجوريس أمراً:

- ليذهب أحدهم ويأتنا بالأخبار. اذهب أنت يا ياناكوس.

في هذه اللحظة ترامي إلى سمعهم صوت المنادي يقترب. وهول الجميع
إلى الباب وفتحوه. توقف المنادي عند مفترق الطرق، وتنحنح ليجلو صوته،
وضرب الأرض بعصاه، ثم اشرأب بعنقه. وارتفع صوته متموجاً كمزمارة رتيب.
وفتح الجيران فرجة من أبواب بيوتهم خلصة:

- اسمعوا يا أهل القرية، اسمعوا يا رعايا، افتحوا آذانكم واسمعوا جيداً، أمر

من الأغا: القسيس جريجوريس والأعيان: بطرياركاس، ولاداس، وحاجي نيكولا ناظر المدرسة ومعهم بانايوتي السروجي وشهرته أكل الجبس ويعرف أيضًا باسم يهوذا، عليهم جميعًا أن يمثلوا فورًا أمام الأغا في بيته. يجب على بقية الرعايا أن يلزموا جميعًا بيوتهم. محظور التوجه إلى الحقول، كل منكم يلزم بيته ويتنظر. اسمعوا يا رعايا، اسمعوا يا أهل القرية، ألا قد بلغت فاحذروا! أو شك الشيخ بطرياركاس أن يخر إلى الأرض منهارًا ولكن أسنده قسطندي، وأجلسه على الأريكة الحجرية. وخفت إليه ماريوري تهوي له. وارتمى لاداس على الحائط أصفر الوجه مثل الليمونة، فاغرًا فاه. أشفق عليه ياناكوس فدنا منه وقال له:

— تشجع يا سيدي يا عضو مجلس الأعيان. هل من وصية توصيني بها أنفذها لك؟

نظر إليه العجوز نظرة بلهاء، وسأله واللعب يسيل من فمه:

— هل هو أنت يا ياناكوس؟ من أنت؟

— طبعًا هو أنا، أنا ياناكوس البائع المتجول. كنت أسألك إن كان ثمة ما توصيني به لأعمله من أجلك.

ودبت الحياة في عيني لاداس العجوز ثانية وقال:

— أيها التعس. هات الجنيهات الثلاثة وإلا فالويل لك مني!

دخل القسيس في هذه الأثناء، واضعًا حول رقبته صليبه الفضي الذي نقشته على أحد وجهيه صورة الصلب، وعلى الوجه الآخر صورة القيام. وكان ممسكًا بعصاه الطويلة ذات المقبض المصنوع من الصدف. ووقف أمام أيقونة المسيح، ورسم علامة الصليب. وتمتم قائلاً:

— يسوع ربي، هذه لحظة عصبية، أعني وأعن المسيحيين. أبسط يدك المقدسة فوق القرية. أشدد من أزري وقني شر الهوان.

وخر راكمًا أمام الأيقونة، وأخذ يحرق بعينه في وجه المسيح الهادئ الحالم. وعاد يقول:

— أعوذ بك يا يسوع من شر الهوان.

ثم رسم علامة الصليب ثانية، وخرج إلى الفناء.
وقال بصوت يتصنع الوقار والهدوء:

- هيا يا إخوتي. تقدمنا يا شيخ بطريار كاس، لا تنسى أنك عمدة القرية ورئيس أعيانها. سيد القوم ليس من يأكل ويشرب أكثر من غيره وإنما من يتصدر قومه في ساعة الخطر ليزود عنهم. وهذه هي اللحظة التي تثبت فيها إنك سيد القوم حقًا. تقدم وأنت يا شيخ لاداس لا تجلب العار إلى القرية، كن شجاعًا! لا تتباكى أمام الأغا، تماسك كرجل شجاع. نحن أبرياء، ولكن إذا اقتضى الواجب أن نموت فداء القرية إذن فما أعذب الموت. أنا أيضًا أحب متاع الحياة الدنيا ولكنني أوثر عليه حياة السماوات. نحن على العتبة الآن: الأرض من ورائنا، والسماء أمامنا، ولتكن مشيئة العلي القدير. أما أنت يا حاجي نيكولا فليس عندي ما أقوله لك. أفنيت حياتك تقصص على الأطفال قصص أبطال الإغريق وشهداء المسيحية، وحانت اللحظة التي ينبغي أن تذكر فيها كل ذلك وتثبته عملاً. لا تدع تلاميذك ينظرون إليك فيروك ممتقع الوجه، ترتجف فرقا. واجه الموت كبطل وشهيد! هل نحن مستعدون يا إخوتي؟

قال الشيخ بطريار كاس وهو يتحامل على نفسه لينهض:

- مستعدون. لا تجزع يا أبانا. الجسد في خوف أما الروح.. لا، لن أجلب العار لاسمي.

واستعرض القسيس جريجوريس رفاقه: «الأب لاداس حزامه مفكوك، وسرواله يوشك أن ينزل، تعال يا ياناكوس، اربط حزامه وشده إلى خصره بقوة حتى لا يجعلنا سخرية أمام الناس».

اقترب ياناكوس، وشد الحزام بقوة حول خصر الشيخ لاداس الذي وقف رافعًا يديه إلى أعلى كطفل أسلم نفسه لمن يلبسه ملابسه.

ثم عاد القسيس وأصدر أمره ثانية:

- امسح له فمه أيضًا يا ياناكوس لأنه يريل. إلى اللقاء يا صغيرتي ماريوري متمنيًا لك الصحة.

وقال حاجي نيكولا:

- نحن رؤوس القرية وإن العالم كله لينظر إلينا. هيا بنا باسم المسيح والإسكندر الأكبر!

ورسم كل منهم علامة الصليب قبل أن يجتاز العتبة. القسيس في المقدمة وخلفه الأعيان الثلاثة، وفي المؤخرة ياناكوس وقسطندي.
وقال ياناكوس لقسطندي:

- لماذا بعث الأغا في طلب بانايوتي المسكين هو الآخر؟ ما شأنه هو بالأعيان.
- قيل إن هناك من رآه في منتصف ليلة أمس وهو يطوف بيت الأغا مخموراً ويصرخ متوعداً.

- ولكن ما علاقته هو ببيوسوفاكي؟ إنه يلاحق الأرملة.
- أنى لي أن أعرف يا ياناكوس؟ لقد فقد الأغا صوابه وهو لا يدري ماذا يفعل.
أبلغتني جاريته مارثا أنه يهدد بأنه سيخرج إلى القرية على ظهر جواده ويقطع رأس كل من يلقاه من الكفار. اللهم احفظنا.

كانت الأبواب تفتح خلصة ليشهد الناس أعيان القرية يتقدمون ببطء في طريقهم إلى بيت الأغا. وكان الجميع يرسمون علامة الصليب كأنما يمر بهم موكب جنائزي.

وقال رجل عجوز:

- إني أغفر لهؤلاء الأعيان كل ما أكلوه أو اقترفوه في حياتهم. ها هم الآن يدفعون ثمن كل هذا دفعة واحدة، إنهم يردون الدين.

كانوا يسبرون في تودة وتأن كأنما يودعون. وكان القسيس جريجوريس يتلفت حيناً إلى باب فتح خلصة، وحيناً يرفع رأسه إلى نافذة ويقول:

- لا تخشوا شيئاً أيها المسيحيون. الله أكبر.

وتعلق الأب لاداس التعس بذراع الشيخ بطرياركاس، وكان يقول له وقد أشرق بالدمع:

- يا سيدي الرحيم. كن بجاني حتى تكون سنداً لي.

ورثى لحاله العمدة الشيخ، فقال له:

- أخائف أنت؟

وأجاب الأب لاداس بصوت واهن.

- نعم أنا خائف.

وقال العمدة:

- وأنا خائف مثلك ولكنني أظاهر بعكس ذلك. فهذا ما يقتضيه واجبي.

وهز الشيخ البخيل رأسه دون أن ينبس ببنت شفة.

ها هم الآن يمرون ببيت الأرملة، فتحت كاترينا الباب واستشعرت رغبة في

أن تصرخ قائلة:

- تشجعوا يا سادتي، تشجعوا، ولكنها لم تجسر على ذلك.

لم يعرفها أحد من الأعيان التفاتاً، بل على العكس حثوا الخطى كأنهم يجتازون

درباً دنساً، ووضعوا راحتهم على أنوفهم.

لم يتوقف غير ياناكوس وقسطندي:

وقال قسطندي:

- صباح الخير يا كاترينا. ألم تسمعي المنادي؟ ادخلي، وأغلقي عليك بابك.

وسألها ياناكوس بصوت خافت:

- هل رأيت بانايوتي؟ استدعاه الأغا أيضاً.

وأجابت الأرملة:

- لم أره منذ زمن طويل يا جاري. ولكن لا بد وأنه يتسكع قريباً من هنا. فقد

سمعته يصرخ منذ هنيهة. كان في جدال مع حسين الذي حاول أن يقبض عليه.

وعاود قسطندي كلامه لها:

- ادخلي وأغلقي عليك بابك.

وواصلوا مسيرتهم. وعندما أشرفوا على الميدان ظهر ميشيل يعدو نحوهم، و

اقترب من أبيه.

وقال الشيخ:

- ميشيل، وداعاً يا عزيزي.

وقال الابن وهو ينحني على يد أبيه يقبلها:

- تشجع يا أبت.

واستدار القسيس جريجوريس وقال:

- عد يا ميشيل إلى البيت، وأنتما أيضًا، يا ياناكوس ويا قسطندي، فإنا سندخل عرين الأسد، ولكن الله سيدخل معنا، لا تخافوا.

كان باب بيت الأغا مفتوحًا على مصراعيه. وقال القسيس:

- باسم المسيح!

ثم خطا بقدمه اليمنى ليجتاز العتبة. وتبعه الآخرون. وزلت قدم لاداس العجوز لكن العمدة الشيخ أمسك به.

كان الفناء الواسع مهجورًا يغطيه البلاط والعشب. وبغلة الأغا تطل برأسها من باب الحظيرة وهي تصهل. وكلب طويل الشعر يتمرغ في الروث مد إليهم رقبته ونبح نباحًا عنيفًا لكن دون أن يجشم نفسه عناء النهوض من مكانه.

وظهر حسين الحارس الخاص عند مدخل البيت، ممتقع الوجه، أحول العين، كانت ذقنه ترتجف، وظهرت بشاربه خيوط بيضاء، إذ أنه لم يجد في ذلك اليوم فسحة من الوقت ليصبغه بالصبغة السوداء. كان مرتديًا زيه الرسمي كاملاً كأنما اليوم يوم عيد. وتدلّى سيفه الكبير من حزامه الأحمر العريض.

وتجهّم لمرآهم وعوى:

- اخلعوا أحذيتكم يا كفرّة. الأغا ينتظركم.

وأقبلت مارثا العجوز الحذاء وأعانت الأعيان على خلع أحذيتهم ثم صفتها أمام الباب.

وهمست لهم قائلة:

- تشجعوا يا سادة، تشجعوا.

وتساندوا على بعضهم، وارتقوا سلمًا خشبيًا ضيقًا حتى بلغوا القاعة الكبيرة. كانت النوافذ كلها مغلقة بإحكام. فلم تستطع عيونهم أن تميز شيئًا في بادئ الأمر. ولكنهم استشعروا جميعًا خوفًا كأنما ثمة وحش كاسر يقبع في ركن من الأركان يحرق فيهم بعينه ويتهيا للوثوب عليهم.

وتشبّث الشيخ لاداس وهو يرتجف بذراع الشيخ بطريار كاس. وخطا القسيس جريجوريس خطوة إلى الأمام ثم اتبعها بأخرى، وعيناه تبحثان في الظلام

عن المكمّن الذي يتربص فيه الأغا. كانت القاعة عبقة برائحة العرقي والتبغ،
وتفوح فيها رائحة جسد بشري عفن.

وفجأة دمدّم صوت مروع كأنه الزئير انبعث من ركن قصي على اليمين:
- يا كفرّة!

والتفتوا جميعاً ناحية الصوت، وتبينوا مكان الأغا. كان جالساً فوق حشّية
كبيرة، مسنداً ظهره إلى الحائط، ومسدسه الفضي الكبير معلق بحزامه وأمامه
زجاجة كبيرة من العرقي.

وأجاب القسيس في هدوء:

- طوع أمرك يا أغا.

وزأر الصوت ثانية:

- يا كفرّة! تعال يا حسين.

كان الحارس واقفاً بالباب ينتظر أوامر الأغا. خف إليه، ووقف أمامه يتلقى
أوامره:

- هات سيفك وانتظر!

وبدأ القسيس يتكلم ثانية:

- سيدي الأغا...

ولكن الأغا لم يمهله حتى يتم حديثه:

- يا كفرّة، أحدكم غرس سكينه في قلبي. حبيبي يوسف فاك...

ولكن صوته احتبس. خنقه النشيج. وجفف دموعه بحركة مهتاجة. وملأ كأس
العرقي وأفرغه في جوفه دفعة واحدة. وتنهد، ثم قذف الكأس فارتطم بالحائط
وتهشم وتناثرت شظاياها.

وصرخ:

- من الذي قتله، هه؟ لا يوجد في القرية سوى الكفرة، ومن ثم فإن قاتله كافر
من بينكم.. هل هو أنت يا بانايوتي، أيها البهيمة السكير؟

وانبعث من خلفهم في الركن المقابل صوت كأنه الخوار. فاستداروا
واستطاعت عيونهم أن تميز وسط الغبش بانايوتي الضخم ملقى على الأرض

موثوقاً إلى حلقة مثبتة في الحائط. لا بد أن رأسه شج لأن ناظر المدرسة الذي كان يقف في المؤخرة أبصر الدم يقطر من جبهته ورقبته.

وعاد الأغا يخاطب الأعيان بصوت مثل النباح:

- سألقي بكم جميعاً في السجن. سأشتكم فوق شجرة السنار الواحد بعد الآخر كل صباح حتى أهتدي إلى القاتل. سأبدأ بكم، فالأعيان أولاً ثم أتبعكم بآخرين وآخرين وهكذا.. ثم يأتي دور النساء، سأشتقهن جميعهن حتى أفني القرية عن آخرها.. هذا إذا لم تدلوني على القاتل. هل تسمعي يا صاحب اللحية الشبيهة بلحية التيس؟ هل تسمعوني يا رعايا. ماذا جنى حبيبي يوسف فاكى حتى تقتلوه، هه؟ هل مس أحدكم بأذى؟ هل قال كلمة سيئة في حق أحد؟ كان يقضي وقته جالساً في الشرفة يمضغ اللبان ويغني. هل فعل بكم شرّاً يا كفرة؟ لماذا قتلتموه؟ وعاد القسيس جريجوريس حديثه:

- أقسم لك يا أغا بالعلي القدير..

- اخرس. سأنتف شعر لحيتك شعرة شعرة، أنت لن أشتك، سأضعك على خازوق أيها الخنزير المبطن! ماذا فعل بك حبيبي يوسف فاكى؟ ثم انخرط في البكاء.

وخجل الشيخ بطريار كاس من أن يترك القسيس يواجهه العاصفة وحده فقال:

- يا أغا. تعرف يا أغا أنني كنت دائماً ثابت الولاء لك..

وصرخ الأغا في عويل:

- أغلق فمك يا خنزير. تركت لك الحبل على الغارب أيها الكرش الضخم. سأقطعك إرباً إرباً بسكين صدي. سأتسلى بتقطيعك أسبوعاً كاملاً حتى أمتع منك يدي. أنا واثق تماماً أيها الكافر القذر أنت لست قاتله، ولكن يغيظني أن أراك حياً وحبيبي يوسف فاكى ممداً في الحجرة المجاورة مقتولاً.... سأقوم لأضرم النار في القرية كلها، لن أترك منها شبراً واحداً، سأحرقكم معها يا سفلة.

ووقف الأغا مغيضاً حانقاً:

- من ذاك الذي يقف في المؤخرة يا بطريار كاس؟ دعه يريني نفسه؟

ارتعدت فرائص الأب لاداس حتى كاد يغشى عليه، وتهته بالكلام:

- إنه أنا يا أغا.

وعوى الأغا:

- آه.. آه.. سأقيم جنازاً ملوكياً لحبيبي يوسف فاكى. سأبعث في طلب مقرئين من اسطنبول ليرتلوا له القرآن، وسأشتري له شموعاً من سميرنا، وتابوتاً مصنوعاً من خشب السرو ليكون عطر الرائحة.. وأنا بحاجة إلى مال وفير لأوفي به كل هذه الطلبات.. سأفتح خزانك يا منجم الذهب العتيق، وأفرغ كل ما فيها من الذهب.. هل تعرف لمن كنت تكس الذهب طوال كل هذه السنين، هه؟ لحبيبي يوسف فاكى؟

انهار العجوز لاداس وخر إلى الأرض. وأجهش بالبكاء.

- الرحمة يا أغا. اقتلني أولاً قبل أن أشهد هذا الهلاك المروع.

ولكن الأغا كان يتحدث إلى حاجي نيكولا:

- وأنت يا ناظر المدرسة، تجمع صبية الروم لتفتح أعينهم.. أنت سأقطع لسانك وألقي به إلى كلبى. لماذا تبكون على قيد الحياة؟ لماذا؟ هل تعيشون وحبيبي يوسف فاكى ميت؟ لا، قلبي لا يحتمل ذلك. إن هذا يقتلني كمداً!.. حسين، هات السوط.

وأسرع الحارس وأنزل السوط من على مشجبه وناول له للأغا.

- افتح الشباك حتى أرى وجوههم!

ورفع الأغا السوط في هياج. ومع ضوء النهار الذي انسل من النافذة ظهر وجه الأغا مجعداً، طاعناً في السن، كالحا. ساعات قليلة من الحزن غيرته تماماً. وابتض شاربه وتهدل حتى أخفى شفتيه. وأخذ يقضم أطراف شاربه بين أسنانه ويعوي. وانهال بسوطه على الرعايا الأربعة يجلداهم، حيناً على الوجه، وحيناً على اليدين، وحيناً على الصدر. وسرعان ما ارتمى الشيخ لاداس فوق الأرض يتدحرج. ووطئه الأغا بقدميه، ثم وقف فوقه حيناً يبكي، وحيناً يقهقه، ثم انهال عليه ضرباً مبرحاً دون أن تأخذه به رحمة، وهو يسب ويعوي.

فاضت الدموع من عيني الشيخ بطريار كاس، ولكنه زم شفتيه حتى لا يسمع له صوت. واستند ناظر المدرسة إلى الحائط رافعاً رأسه، والدم يسيل من صدغيه

وذقته. والقسيس في وسطهم عاقداً ذراعيه إلى صدره، يتلقى ضربات السوط ويتمتم:

- يسوع، يسوع، أعوذ بك من الهوان.
وأرغى الأغا وأزبد، وتناثر لعابه فوق وجوههم، وأخذ يضرب هنا وهناك كالمجنون. وأخيراً وبعد أن كلت ذراعه ألقى بالسوط بعيداً.
ثم صاح من جديد:

- إلى السجن.. إلى السجن. وغداً نبدأ الشنق.

ودنا من بانايوتي وبصق على وجهه وقال له:

- سأبدأ بك يا أكل الجبس.

ثم استدار إلى حسين وقال بصوت مخنوق:

- آتني بحبيبي يوسف اكي...

فتح الحارس باباً، ثم سمع بعد قليل وهو يجر السرير المعدني الصغير الذي وجد فيه الغلام عند الفجر غارقاً في دمه.

ارتدى الأغا فوق الجثة وانهاه عليها تقييلاً وهو يئن ويتوجع.

فك الحارس وثاق بانايوتي من الحلقة، والتقط السوط من على الأرض وطرق به في الهواء، ثم صاح:

- إلى السجن يا كفرة.

وساق الخمسة أمامه وهم يتعثرون فوق الدرج.

جثم الرعب فوق القرية، فأصبحت الطرقات مقفرة، والحوانيت مغلقة. ودفن الرعايا نفوسهم داخل بيوتهم، فلم تعد تسمع لهم همساً ولا تكلماً. ينصتون للصمت فتتشعر منهم الأبدان. وبين الحين والحين ينسل شبح من باب إلى باب يهمس بالأخبار: لم يخرج الأعيان بعد.. يقال إن هناك من سمع دوي طلقات مسدس.. وبعد قليل تسري إشاعة أخرى: زج الأغا بالأعيان في السجن.. نزل حسين إلى الميدان وكان معه حبل وقطعة صابون ووضعهما تحت شجرة السنار.. ثم لا يلبث أن يحمل رسول نبأ آخر «الأغا يهدد بإشعال النار في القرية كلها إذا لم

يعثر على القاتل، وسيحرقنا معها».

احتضنت النسوة أطفالهن وصحن:

- لقد هلكنا.. لقد هلكنا.

ونكس الرجال رؤوسهم يلعنون اليوم الذي ولدوا فيه رعايا.

والأم بنيلوب وحدها فقط هي التي ظلت جالسة تحت التكمية تغزل الجورب هادئة غير مكترثة. سمعت من قال لها إن زوجها مقبوض عليه وأن الأغا سيشنقه، أو هكذا قيل، فوق شجرة السنار وأنه سيمحو القرية عن آخرها.. فهزت رأسها لحظة ثم حدثت نفسها في غير مبالاة: «وهذا أيضاً قدر مقدور..» ثم انكبت على عملها تغزل الجورب.

ولاذ ياناكوس بحظيرته يحادث حمارة:

- وأنت يا يوسفافي ماذا ترى في كل ما حدث؟ إننا في ورطة، وأخال أن الأمور ستسوء أكثر وأكثر.. يقال إن الأغا سيحرق القرية، وسيحرقك معها يا يوسفافي.. ما رأيك في هذا؟ ماذا لو انسللنا تحت جناح الظلام نحن الاثنين؟ إننا لا نعمل أحداً، لا أطفال ولا كلاب فما الذي يقعدنا؟ ولكن أليس من العار أن نهجر القرية في لحظة الشدة؟ ما رأيك يا حبيبي يوسفافي؟ ليس لي من سمير غيرك أحادثه. أفضيت إليك بكل ما يدور بخلدي. فما رأيك يا يوسفافي؟
ودس الحمار رأسه حتى أذنيه في مذوده، وبدأ فكاه يعملان في نهم، وصوت سيده يتناهى إلى سمعه كأنه صوت نبع يفيض.. وظن أن ياناكوس لا زال كعادته به يردد على سمعه كلمات التدليل، فهز ذيله في حبور.

ومع المساء بدأت الأبواب تفتح خلسة وتطل من فرجتها بعض الرؤوس. كان ميشيل أول من فتح باب بيته. وصعد على الفور إلى بيت القسيس جريجوريس ليواسي خطيته. وخرج قسطندي ليفتح مقهاه، ولكن لحظة أن وضع المفتاح لمح تحت شجرة السنار كرسياً وفوقه أشياء لم يستطع أن يتبينها على البعد. اقترب منه ثم سرعان ما جفل في هلع: حبل وقطعة صابون! أعاد المفتاح إلى جيب حزامه، وقفل راجعاً يسير بمحاذاة الحائط.

كانت عادة الأغا في مثل هذه الساعة من النهار، عندما يبدأ الليل يرخي أستاره

ويسود الكون سكون حلو وديع، أن يجلس إلى شرفته واضعاً ساقاً فوق ساق وإلى جانبه يوسف اكي يصب العرقي ويشعل له الغليون. أما هذا المساء فالأبواب والنوافذ مغلقة، والشرفة مهجورة. كان الأغا يتن وينوح. آه ما أفسى الأغنية المحببة إلى نفسه وما أشد بطلانها: «الدنيا والحلم شيء واحد...» احتضن بين ذراعيه الجسد الميت الصغير. وحدث نفسه قائلاً: «لا إنه ليس حلمًا، أبدًا ليس حلمًا...» ثم أجهش بالبكاء.

ومسح حسين أيضًا عينيه الحولولين، وأخذ يروح ويجيء وهو يندب وينوح بصوت خفيض: «حبيبي يوسف اكي...» ثم يرتعد خشية أن يسمعه سيده. وكان بين الحين والحين يمسك بالسوط في هياج وينزل إلى البدروم وينهال بسوطه في ثورة وجنون، ويعول على نحو ما يفعل الأغا.

وبعد أن يستشعر بعض الراحة، يصعد ثانية ويطوف حول السرير المعدني الصغير. وأحيانًا يجد الأغا ومال فوق الجسد البارد لغلامه، وراح في إغفاءة من أثر الحزن وشدة السكر. فينحني هو الآخر فوق يوسف اكي ويقبل فمه قبلة حارة شهوانية وبعض بحرقه شفتيه المكتنزتين اللتين علاهما الشحوب وإن كانتا لا تزالان تتضوعان برائحة اللبان، ثم يرتمي على الأرض يتمرغ فوقها.

وجلس القسيس جريجوريس في زنزانته، وهز بانايوتي، وقال له:
- هل أنت الذي قتلت يوسف اكي يا يهوذا اللعين؟ اعترف حتى ننجو وتنجو القرية معنا..

فقال أكل الجبس بصوت كأنه النباح وهو يمسح الدم الذي يسيل من رأسه المشجوج:

- إلى الجحيم جميعًا! ولتذهب القرية إلى الجحيم أيضًا.. كلكم وأنا معكم.. ففي ذلك شفاء نفسي.

وأسند الشيخ بطريار كاس ظهره إلى الحائط وهو يلهث. وتمتم بدوره:

- أنت الذي قتلته يا ملعون، إنه أنت، أنت يا يهوذا.

وعاد السروجي يجأر قائلاً:

- يا وغد. ما شأني أنا به؟

وسكت ولكنه كان يضطرم غيظًا. فصاح ثانية:

- إنها غلطتكم عليكم اللعنة، جميعكم! هذا القسيس القذر وأنتم أعيان القرية وناظر المدرسة. أنتم والأرملة التي تتأبى عليّ الآن ولا تدخلني بيتها. أنتم جميعًا. ولم يلبث أن عاد يصرخ قائلاً:

- أردتم أن تجعلوا مني يهوذا.. وها أنذا أصبحت يهوذا!
وعاود القسيس حديثه متكلفاً الرقة:

- اعترف يا بانايوتي بأنك قاتله وسوف يغفر المسيح لك خطاياك. كنت أنا المسئول حتى هذه اللحظة عن أرواح أهل القرية، أما الآن فإنك أنت يا بانايوتي المسئول عنها. قم واعترف لتنقذهم.
وهنا ضحك أكل الجبس ضحكة عالية ساخرة:

- بحق الشيطان إنها لفكرة رائعة تلك التي أقنعتهموني بها الآن. وددت لو أنني كنت قاتله حتى أشرككم معي في جريمتي! ولكن سبقتي إليها غيري.. بوركت يدها!.. سبقتي غيري! ولكن لا بأس! سيذهب معي إلى الجحيم رؤساء الأعيان والقساوسة ونظار المدارس.

ورفع لاداس العجوز رأسه التي أدمتها ضربات السوط. وصر بصوته:
- اسمع يا بانايوتي. اعترف وسوف أعطيك ثلاثة جنيهاً ذهباً. سأبيع حمار ياناكوس فهو مدين لي بها. سأبيع الحمار وأعطيك الجنيهاً الثلاثة.. هل تسمعني؟

بسط له بانايوتي يده بحركة استهزاء وقد تباعدت أصابعه الخمسة وقال له:
- خذ أيها البخيل العجوز، هاك خمسة جنيهاً.
في هذه اللحظة فتح الباب ودخل الأغا. وصرخ:

- يا كفرة. غداً موعدكم مع المشنقة. أعددت الحبل والصابون والكرسي تحت شجرة السنار. غداً الأربعاء، سأبدأ بأحقركم شأنًا: بانايوتي أكل الجبس. وموعدك أيها البخيل القذر يوم الخميس.. وأنتم أيها الناظر موعدك الجمعة يا أعلم العلماء. والسبت موعدك يا صاحب الفخامة، أيها الوغد بطرياركاس. والأحد موعد القسيس، ساعة قداسك أيها الكلب القذر. وهكذا يكون المجموع

خمس رقاب. وأعددت لكم خمس حبال تنتظركم تحت شجرة السنار. هذه هي الوجبة الأولى، وبعدها سأصطاد خمسة آخرين، أول من تقع عليهم يداي. ثم يأتي بعدهم غيرهم وغيرهم وهكذا.. حتى أعر على القاتل، لن أدفن حبيبي يوسف فاكحي ولن أسبل جفنيه، بل سأضعه تحت شجرة السنار حتى تنعم روحه بمراكم.

وما إن فرغ من كلماته هذه حتى خرج وصفق الباب وراءه بقوة وغضب. وأبصر حسينا ينتظره ممسكا بالسوط. فقال له:

- حسين، أتبكي أنت أيضا يا صديقي المسكين.. كفكف دموعك، فلا يليق بنا أن يرانا الكفرة نبكي. اذهب واثنني بياناكوس البائع المتجول، مره أن يخف إلى المدينة ويشتري لي بخورا من أجود أنواع البخور وأغلاها ثمنا، وشموعا، وقماشاً من الجوخ الأسود، وكعكا. قل له أن يحضر لي كل هذا غدا صباحا مع أول النهار.. آه، وأيضا حزمة من الحبال الغليظة، لأن القسيس التيس ضخم الجثة ثقيل الوزن، وهذا الشيخ بطريار كاس أضخم منه وأثقل وزنا.. اذهب.

وطرق حسين باب ياناكوس بقوة وعنف ولكن عبثا. كان ياناكوس غادر بيته قاصداً الجبل ليحذر مانولي من النزول إلى القرية وإلا قبض عليه.

فرغ مانولي من حلب النعاج، ووضع قدر اللبن فوق النار. وجلس نيكوليو بجواره مسلحا بملعقة خشبية كبيرة، يحرك اللبن، ويدندن بلحن.

كان مانولي يعجب لمساعدته، فهو دائما خفيفا نشطا صافي المزاج، وكثيرا ما كان يسأله: لماذا أراك يا نيكوليو دائم الغناء، تثب هنا وهناك مثل الجدي، لا يطمئن بك مكان كأنما ضاق عليك الجبل؟

ويجب الراعي الصغير:

- هل نسيت يا مانولي أنني في الخامسة عشرة من عمري؟ لماذا لا تتوقع إذن أن يبدو العالم صغير جدا في ناظري، ولا يطمئن بي مكان؟

ولكن لينيو لم تكن في عينيه صغيرة جدا. إذا ما صعدت إليه خلصة لتلتقي به فوق الجبل كان نيكوليو يرتمي بين ذراعيها، وتضمه إليها، ويتمنى لو لم تخله أبدا.

غلى اللبن، وها هو مانولي جالس الآن بجانب الموقد، يقرأ في الإنجيل الصغير، ويقلب صفحاته على ضوء اللهب.. كانت هذه هي متعته الوحيدة، وكثيراً ما كانت تستعصى عليه معاني بعض الكلمات، بيد أن قلبه يهتدي إلى تأويلها، فتفيض معانيها واضحة في يقين، وتسري الكلمة المقدسة في عروقه برداً وسلاماً كأنها ماء يفيض من نبع.

أي إلهام قدسي كان يستشعره، وتهيم معه روحه وجداً. يخال كأنما كشف عنه الحجاب فشهد المسيح لأول مرة وسمع صوته. أحس وكأنه شهد المسيح حقاً، يرنو إليه بعينه، ويتحدث إليه بصوت هادئ حنون يأخذ بالألباب، يقول له: «اتبعني!» ومنذ تلك اللحظة سار مانولي في سكون ونشوة غامرة وراء المسيح، حيناً فوق عشب الجليل الأخضر، وحيناً على الشاطئ الرملي لبحيرة جينسارت وحيناً ثالثاً فوق الطرق الحجرية لليهودية.. ومع الغسق يستلقي عند قدمي المسيح تحت شجرة زيتون. يرقب من خلال أوراقها الفضية النجوم المرتعشة، ما أبدع الوجود في صحبة المسيح، السماء زاهية عميقة، والهواء صافٍ عليل كروح نقية، والأرض تتضوع مسكاً.

وذات يوم ذهباً سوياً لحضور عرس في قرية كنعان. دخل المسيح البيت في لباس عرس. وابتهج الحاضرون لرؤيته، وعلت وجوههم حمرة خجل كعذارى مخطوبات. ونهض العروسان، وتبادلا قسم الزواج، ثم تربع الضيوف فوق الحشايا، وشرعوا يأكلون ويشربون. ورفع المسيح كأسه يبارك العروسين، وتكلم كلمات قليلة بسيطة واضحة، ولكن أحس معها العروسان فجأة بأن زواجهما سر عظيم، وكأن الزوجين، الذكر والأنثى هما العمادان اللذان تقوم عليهما الأرض فيمنعها من السقوط.. كان الحفل بهيجاً صاخباً، وفرغت الكؤوس من خمرها تنشد المزيد. والتفتت أم المسيح إلى ابنها وقالت له: «يا بني لقد نفذ الخمر..» واعتملت في صدر المسيح قوة جبارة، وعلى الفور بسط يده، وأمر الطبيعة أن تغير مسارها. ونهض المسيح من مكانه متأنياً كواحد من فراخ النسور يجرب جناحيه الصغيرين لأول مرة للطيران، ويرف بهما في خوف وحذر، وخرج إلى الفناء، وانحنى فوق جرار الماء الست، وتطلع إلى وجهه فوق صفحة الماء فيها. وما

إن انعكس على صفحتها وجه المسيح حتى استحالت خمراً. ثم استدار المسيح لمانولي الذي تبعه، وابتسم له..

وتذكر مانولي يوماً آخر، خرج فيه مع المسيح. كان القيظ شديداً. وتجمع آلاف البشر على شاطئ البحيرة. وركب المسيح سفينة، وتبعه فيها مانولي. وأودع مانولي قلبه الكلمة الطيبة، واستقرت فيه كحبة قمح.. وأحس مانولي كأن قلبه أرضاً طيبة تبذر فيها الحب فيخرج نبتة، تكون النبتة نصلاً، والنصل سنبله، والسنبله خبزاً محفوراً عليه بخطوط عميقة صليب كبير.

وفي يوم ثالث طافا خلال حقول القمح. كان الوقت ظهراً، وأحسا بالجوع. مد المسيح يده وقطف سنبله. وقطف تلاميذه كل منهم واحدة، وكذلك فعل مانولي. وبدأوا يأكلون ما فيها من قمح حبة بعد أخرى. ما أطعمها هذه الحبات الخضراء التي تفيض لبناً، أشبعت الجسد والروح وفوق رؤوسهم زقزقت العصافير، واقتفت أثر المسيح كأنها بعض تلاميذه. وتحت أقدامهم تناثر النوار بديعاً زاهياً على نحو لم يعرفه سليمان في كل مجده.

ودعاهم أحد الفريسيين إلى بيته. فوقف مانولي عند الباب يرقب ما حوله. لم يستقبل الفريسي المسيح بما هو أهل له من التمجيد. لم يغسل له قدميه، ولم يسكب العطر على يديه وشعره، ولم يقبله قبله السلام.. ويا للعجب، فبينما هم يأكلون في صمت، تضوع الجو عطرًا. دخلت امرأة عارية الصدر، شقراء الشعر، تحمل بين يديها صندوقاً ترى من تكون تلك المرأة؟ سبق له أن رآها في مكان ما، ولكنه لا يذكر أين كان هذا اللقاء. وجثت المرأة على ركبتيها عند قدمي المسيح، وكسرت الصندوق، وسكبت ما فيه من عطر فوق القدمين المقدستين، ثم أرسلت شعرها، ومسحت به قدمي المسيح وهي تنتحب.. ومال عليها المسيح ووضع يده المقدسة فوق الشعر الأشقر، وقال بصوت عذب حنون: «مغفورة لك خطاياك يا أختاه، لأنك أحببت كثيراً».

فاض قلب مانولي، وأغلق الإنجيل الصغير. كانت النار لا تزال موقدة، تتراقص ألسنتها جذلة، والكوخ تسوده عتمة زرقاء ونيكوليو يروح ويحيى يدندن بأغنية وانهمك في إعداد الطعام.

كان قلب مانولي يفيض حباً وحناناً وسعادة. أحس بعواطفه الجياشة تفوق طاقته، ولا بد أن يقاسمه العالم فرحته. واحتدمت في نفسه رغبة عارمة في أن يخرج إلى الدنيا ليلبغ الكلمة الطيبة للناس والحجارة والماشية. فصاح:

- إيه يا نيكوليو. دعك من الغداء وتعال اجلس إلى جانبي. يجب أن تسمع أنت أيضاً كلمة الرب لتكون إنساناً كاملاً. فلست حتى الآن سوى وحش بري.

استدار الراعي الصغير، ونظر إلى مانولي وانفجر ضاحكاً:

- لا حاجة بي إليها يا شيخ مانولي. دعني وشأني فإنني قانع بما أنا فيه.. هل تريد أن تعكر صفو مزاجي؟

- سأقرأ عليك بعض آيات الإنجيل لتلمس بنفسك ما فيها من طلاوة.

- لك ذلك إذا مرضت، أما الآن فلا حاجة بي إليها كما قلت لك.. أعددت الطعام، تعال لتأكل.

- لست جوعاً. كل أنت.

بعد هذه الكلمات فتح مانولي الإنجيل الصغير ثانية، وانحنى عليه قرب النار وبدأ يقرأ.

«إن أراد أحدكم أن يأتي ورائي فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها. ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه.»

أدرك مانولي معنى هذه الآيات بوضوح تام. وأغلق الإنجيل، وأغمض عينيه أيضاً.. آه، النفس في كفة والعالم كله في الكفة الأخرى، لكن النفس أعز قيمة وأكبر وزناً. إذن لماذا الخوف من الموت؟ لماذا نذل أمام سطوة الأرض؟ لماذا تقشعر أبداننا إذا ما خطر ببالنا أننا سنخسر الحياة الدنيا؟ لماذا الخوف ولنا روح خالدة؟ وهي أحق بالخلاص.

كان ياناكوس واقفاً بالباب منذ لحظة يرقبه. لم يلمحه أحد. كان نيكوليو يوليه ظهره منكباً على طعامه، يأكل بنهم لعل الطعام يمنحه القوة إذ ربما تأتي لينو هذا المساء.. من يدري؟ وهو بحاجة إلى القوة لتكون له زاداً في صراعه معها. وكان مانولي مغمض العينين، هائماً في سعادة تجل عن الوصف.

وحدث ياناكوس نفسه قائلاً:

- إن روحه هائمة في الفردوس. إذا لزمتم الصمت فلن يخرج منها. ليس لي إلا أن أتحدث إليه.

واجتاز العتبة وهو يصيح:

- إيه يا مانولي، مانولي. طبت مساء. إني سعيد برؤيتك.

وثب مانولي مذعوراً لسماعه صوت بشر.

فتح عينيه، وحملق بهما وسأل:

- من هناك؟

- هل نسيت صوتي يا مانولي؟ أنا ياناكوس.

- معذرة عزيزي ياناكوس. كنت غائباً عن الوجود. لم أدرك أنه أنت. أي ريح

طيبة ساقطت إليّ هذه الساعة فوق الجبل؟

- بل هي ريح سموم يا مانولي. أنت تعيش في الفردوس، وأنا- أستغفر الله-

أتيك بأخبار من الجحيم.

- عن القرية؟

- نعم، عن القرية. وجد يوسفافي هذا الصباح مقتولاً. وجن جنون الأغا.

ألقى القبض على القسيس جريجوريس والأعيان وبانايوتي. زج بهم في السجن.

وغداً موعدهم للشنق الواحد بعد الآخر. علقت الحبال بشجرة السنار. عقد الأغا

عزمه على أن يبدأ غداً بشنق بانايوتي المسكين، كما هي العادة دائماً.. ويقول

إنه سيتبعهم بآخرين وآخرين وهكذا.. سيبذر الموت في القرية حتى يهتدي إلى

القاتل. حل الدمار بالقرية فلا تسمع فيها غير النواح. الأبواب موصدة. إناها لكون.

أتيك يا مانولي كي أنبئك بالخبر حتى لا تنزل إلى القرية خشية أن يقبض عليك.

أنت هنا بمأمن ولا ريب.

لمع وميض في عيني مانولي. قال لنفسه: «واتتك اللحظة التي تثبت فيها أن

روحك خالدة!» ولكنه حرص على إخفاء سروره. كان يصغي إلى صديقه وهو

يتحدث إليه لاهثاً، بينما لا يفتأ يكرر بينه وبين نفسه: «ها هي ذي اللحظة المواتية،

ها هي! إذا أفلتت مني فقد خسرت خسراناً مبيئاً».

وسأل:

- هل أكلت يا ياناكوس؟
- لا يا مانولي ولكنني لست جوعاً.
- وأنا أيضاً لم أكن أشعر بالجوع. ولكن الشهية تأتي مع الأكل. سنأكل معاً ونحن نتكلم. وسوف تنام الليلة هنا. وغداً عندما يطلع النهار بإذن الله، نرى ما قد يكون.

وتطلع ياناكوس إلى صديقه مشدوهاً:

- كيف تتكلم يا مانولي بمثل هذا الهدوء الشديد؟ ألم تفهم ما أقول؟ قرينا في خطر.

وأجاب مانولي:

- أعرف القاتل. لا تخف فلن تهلك القرية.

وأسقط في يد ياناكوس. وقال:

- تعرف القاتل؟ كيف كان ذلك؟ من هو؟ من؟

وقال مانولي وهو يبتسم:

- لا تتعجل. لماذا العجلة؟ غداً تعرف كل شيء.. اصبر قليلاً. لنأكل الآن ونتحدث سوياً ثم ننام. ستسير الأمور سيراً حسناً بإذن الله.

ثم صاح قائلاً:

- إيه يا نيكوليو. أفسح لنا مكاناً. فنحن جوعى مثلك!

تربعا على الأرض، ورسماً علامة الصليب وأقبلا على الطعام. كان ياناكوس يرفع عينيه بين الفينة والفينة يتطلع بهما إلى مانولي.. إنه يستطيع أن يميز من خلال هذا اللحم المتشقق الذي يغطي وجهه عينين غائرتين تلمعان في هدوء وسعادة. وحدث نفسه:

- لا أفهم شيئاً.. لا أفهم شيئاً.

جثم عليهما صمت ثقيل ضاق به ياناكوس فعزم على الكلام:

- كيف تقضي وقتك وحيداً هنا يا مانولي؟

وأجاب مانولي وهو يشير إلى الإنجيل:

- ولكنني لست وحيداً. المسيح معي.
- وماذا عن مرضك؟
- ارتعد مانولي مأخوذاً، إذ كان نسيه تماماً.
- أي مرض تقصد؟ آه، نعم، ما زلت أئثماً يا ياناكوس فلم يزailني بعد معنى هذا أن روحي لم تبرأ بعد مما فيها من شر. لعل الله يشملني بواسع رحمته.
- وقال نيكوليو وهو يمسح فمه:
- أما أنا فسانصرف. القمر هلال، ولن يغمض لي جفن. سأتجول قليلاً.
- والتقط عصا الرعي ورحل عنهما وهو يصفر.
- وقال مانولي:
- هيا بنا إلى النوم يا ياناكوس، إذ يجب أن نستيقظ غداً في ساعة مبكرة. والنوم يكشف البصيرة. هذا بعض ما علمتني حياة الوحدة هنا. فאלله يتحدث إلى النيام أكثر مما يتحدث إلى الأيقاظ.
- افترشا بساطاً عريضاً في الفناء ليستمتعا ببرودة الجو. كان الهواء عبقاً برائحة السعتر. وارتفع صوت الليل حتى غمر السكون. وبدأ الهلال يعتلي صفحة السماء.
- وقال ياناكوس الذي جفاه النوم:
- أنا دائم التفكير في بانايوتي المسكين.
- وقال مانولي بصوت خفيض:
- وأنا أيضاً. أفكر فيه أكثر من غيره.
- نفسي الشيء بالنسبة لي، هو أكثر من سواه. ولكن لماذا؟
- لأنه أحب كثيراً يا ياناكوس، وحطمه الحب. روحه كبيرة وملعونة كان عبداً لعواطفه وشهوته فتورط في كثير من المشاكل. وأثار هذا حنقه، واندفع ينطح برأسه محاولاً الهرب ولكنه سيئ الحظ، فلم يزد ذلك إلا تورطاً.. التمس إيذاء من حوله، ولأذ بالخمير والسباب لعله يجد في ذلك بعض الراحة لنفسه. ولكنه كان يغوص أكثر فأكثر.. لو أنه أحب قليلاً...
- ثم استطرد مانولي مصححاً ما قال:
- لا. لا. ليس قليلاً، بل أنه أحب أكثر وأكثر ربما كان في ذلك خلاصه...

أحس ياناكوس برغبة في أن يطيل الحديث. فقال:
- أراهن بحياتي أنه ليس هو قاتل يوسف فاكى. أرجوك يا مانولي أن تفصح لي
حتى يهدأ خاطري. هل هو بانايوتي؟
- هيا إلى النوم يا ياناكوس. لا. ليس هو.
وقال ياناكوس:
- الحمد لله.

ثم أغمض عينيه وعأوده الهدوء.
وكان مانولي متلهفًا إلى أن يخلو بنفسه فاستسلم هو الآخر للنوم. كان طوال
الأيام الأخيرة يؤثر أن يبقى مغمض العينين حتى ولو كان ذلك في وضح النهار، إذ
كان يخيل إليه أن هذا خير ما يعينه على أن يستبطن ذاته على نحو أوضح.
فثمة قصة كان سمعها في الدير من معلمه القسيس ماناس، وكثيرًا ما تطوف
بخاطره في هذه الأيام وتلح عليه. إذ زاره ذات يوم راهب وقضى معه سحابة
نهاره. ففتح عينيه للحظة ثم عاد وأغمضهما. فقال له ماناس: «افتح عينيك يا
أبانا. افتحهما لتشهد بديع خلق الله». - فأجاب الراهب: «أنا أغمض عيني فأشهد
الخالق ذاته».

وهكذا كان مانولي يغمض عينيه ليشهد المسيح، ويسمع صوته. يقرأ آية
من الإنجيل ثم يغمض عينيه، ويهيم بروحه معها. وفي هدأة الليل، إذا كان الجو
رطبًا منعشًا، فإنه يستطيع أن يرى بوضوح المسيح في ثياب بيضاء يتقدم تلاميذه.
ويلحق به مانولي خلصة، يمشي وراءهم في صمت وسكون.
وتمتم وهو يغمض عينيه:

- غدًا ينتظرنا عمل كبير، عمل هام وعسير. عونك يا يسوع.
ثم تنهد وعاد يقول: «عونك يا يسوع» كأنما يناجي المسيح يدعوه إليه في
سكون الليل.

وتنزل عليه المسيح. إذ استيقظ مانولي ساعة السحر ورسم علامة الصليب.
كان الحلم ما زال يشغل فكره، ساطعًا متألقًا كنجمة الصباح:
ترأى له أنه يمشي على حافة بحيرة لازوردية. كان في عجلة من أمره وشق

طريقه في لهفة وقلق بين عيدان الغاب وأوراق الصفصاف، مسرعاً في خطوه. وبعد أن تقدم قليلاً إذا بعيدان الغاب وأشجار الصفصاف تستحيل بشراً، آلافاً من الرجال والنساء. ساروا خلفه. وهبت ريح، وصاح معها الجميع: «اقتلوه! اقتلوه!».

حاول الهرب، وإذا بيد تلمس كتفه، وصوت يقول: «هل تؤمن؟» وأجاب مانولي: أومن يا إلهي. وعلى الفور سككت الريح، وعاد الرجال والنساء سيرتهم الأولى، عيدان غاب وأشجار صفصاف. وارتفعت أمامه شجرة سنار تغطيها العصافير، وبدت له الشجرة تصدح وتغرد. وإذا بجثة معلقة على أحد فروعها تتأرجح في الهواء. وتوقف مانولي مبهوراً، ثم قفز في مكانه كأنما يحاول الهرب وإذا بالصوت يناديه من جديد:

- «لا تقف، تقدم».

وصرخ مانولي صرخة أيقظته:

- لا تقف، تقدم... إنه صوت الرب فلاأواصل السير.

وهب واقفاً. اغتسل، ومشط شعره، وارتدى أحسن ثيابه، ودس الإنجيل في صدرته، وهز ياناكوس.

صاح به فرحاً مسروراً:

- إيه يا ياناكوس.. استيقظ أيها الكسول.

فتح ياناكوس عينيه. وتطلع إلى صديقه متعجباً.

وقال له:

- أراك ترتدي لباس عرس يا مانولي، وعيناك تلمعان. أي حلم جميل تراءى لك؟

وقال مانولي:

- هيا بنا. لا نريد أن نضيع الوقت. فكر في الهلع الذي يحيق ببانايتوتي. فكر في الموت الذي يهدد القرية. هيا أسرع!

الفراء

أي نشوة غامرة يستشعرها المرء حين يستيقظ مبكرًا ذات صباح وأضمر في نفسه قرارًا حاسمًا وخطيرًا. اتخذ مانولي طريقه إلى القرية نازلًا من الجبل، خفيًا كأنه ملاك، محلقًا فلا تكاد قدماه تمسان الأرض. أحس فجأة كأن الملائكة باسطة أجنحتها، تحمله فوقها، وتطير من صخرة إلى أخرى. كان أشبه بسحابة تسوقها ربح رخاء.

ووراء ياناكوس يعدو لاهثًا، عاجزًا عن اللحاق به. وصاح قائلاً:
- قل لي يا مانولي، أراك مسرعًا كأن لك أجنحة تطير بها.. تمهل قليلاً حتى ألحق بك!

ولكن مانولي أحس كأن أجنحة تحمل قدميه ولا يقوى على الانتظار. ماذا عساه أن يقول للأجنحة؟ هل يقول لها: «اسكني ولنتظر ياناكوس؟».
وصاح قائلاً:

- أود أن أنتظرك يا ياناكوس، ولكني لا أملك ذلك. لا تبطئ.. أسرع أنت أيضًا.

كانت نفس الأجنحة التي حملته حين تبع المسيح مغمض العينين يطوف خلال الديار يبذر الكلمة الطيبة في الأرض الطيبة وبين الحجارة. كان يتبع المسيح وتلاميذه المؤمنين، طائرًا خفيًا جذلاً، من جنيسارت إلى اليهودية، يحوم فوق القرى الصغيرة الحبيبة: كفر ناحوم، وقانا، والمجدل، والناصرية. ثم انطلق دفعة واحدة إلى السامرة، واجتازها حتى بلغ أرضه الحبيبة حول أورشليم - بيت عينيا،

وبيت صيدا، وأريحا، وعمواس. وها هو اليوم يحلق مثلما كان مع المسيح، كأنه عاد يقتفي أثر المسيح الذي يتقدمه إلى ليكوفريسيز أحس بجسمه خفيفاً، يقل وزنه شيئاً فشيئاً. وبينما هو كذلك شعر بوخز يملأ صفحة وجهه، وقشور تتساقط تباعاً من فوق خديه وفمه. خيل إليه وكأن لحم وجهه يتخلص من أساره كزهرة يتفتق عنها كمها، ليصبح وجهه غصاً مثل الجمار.

توقف مانولي مبهوراً. كان قلبه يخفق بشدة. رأى بعيني رأسه يداً تتصفح وجهه، تربت عليه في هدوء وعلى مهل، يداً حانية كنسيم الصباح فوق الجبل. كان واثقاً من ذلك ولكنه لم يحسر على رفع يده ليلمس وجهه ويطمئن إلى ما رأى. وارتجف، وحدث نفسه قائلاً:

- المعجزة! المعجزة!

لحق به ياناكوس لاهثاً. رفع عينيه إلى مانولي وتطلع إليه، وندت عنه صرخة:

- مانولي! مانولي!

وارتمى بين ذراعيه.

رفع مانولي يده يتحسس صفحة وجهه بأصابع نهمة مشوقة. ذاب عنه اللحم البشع مثلما يذوب الشمع. التأم الجلد المتشقق وعاد وجهها بشرياً أملس من جديد. وتمتم مانولي وهو يرسم علامة الصليب:

- الحمد لله. الحمد لله أن غفر لي خطاياي.

وصاح ياناكوس وفاضت عيناه بالدمع:

- عزيزي مانولي.. دعني أقبل يدك.. انتصرت على الغواية، وتطهرت روحك

وزال عن وجهك أثر الشيطان!

مد ياناكوس يده الخشنة وتحسس براحته وجه صديقه، وظل يربت عليه في صمت فترة طويلة.

وقال مانولي:

- هيا بنا. لا نريد أن نضيع وقتنا.

أشرقت الشمس، وعلا صياح الديكة في الحقول من تحتها. ونبحت كلاب القرية. وتراءت لهما بيوت القرية من خلال غلالة رقيقة من الضباب.

واستدار مانولي لرفيقه وقال له:

- عليك يا ياناكوس أن تسلم دون اعتراض بكل ما أقول أو أفعل هنالك في القرية. اعلم أنني لست أنا الذي أتكلم، وإنما أفعل ما يأمرني به المسيح. امثل لأمره ولا شيء سواه. هل تفهمني يا ياناكوس؟

أحسن ياناكوس فجأة وكأن صديقه يودعه. فسأله في قلق:

- ماذا ستفعل؟ وماذا تنوي أن تقول؟

- قلت لك كل ما يأمرني به المسيح ولا شيء سواه. أنا نفسي لا أعرف تمامًا ما سيكون، بيد أنني على يقين منه. وأنت أيضًا يا ياناكوس كن على يقين من ذلك وأنبيء ميشيل وقسطندي بما أقول حتى يلزما الصمت.

توقف ياناكوس منزعًا. وعاد يسأله من جديد:

- ماذا ستفعل؟ وماذا تنوي أن تقول؟

- لا تقف، تقدم!! هذا ما قاله لي المسيح في منامي البارحة. - لا تقف يا ياناكوس كن مؤمنًا وتقدم. ألم تر تَوًا كيف زال عني خاتم الشيطان؟ هل تعرف لماذا؟ لأنني سمعت نداء المسيح واستجبت له، وهأنذا أتقدم منذ مطلع الفجر. وأنا لا أفعل ذلك عن غير رغبة مني، بل أرقص طربًا. وكنت تناديني: قف، ولكن كيف لي أن أقف يا ياناكوس والمسيح يتقدم أمامي بخطوات واسعة؟

ولكن ياناكوس هز رأسه وقال:

- أنا أثق بك يا مانولي. لمست بيدي المعجزة التي تجلت على صفحة وجهك. ولكنني لا أثق بنفسي. لو فعلت شيئًا خارقًا يفوق طاقة البشر سأصرخ حتمًا.. سأصرخ يا مانولي. إنني بشر، ولو أصابك شيء فلن أتخلي عنك بل سأقاوم.

- وإذا كان هذا هو أمر الله؟

عاد ياناكوس يقول:

- سأعترض وأقاوم. أستغفر الله.

وقال مانولي بصوت آمر:

- ألا تخجل؟ ألا تخاف؟ لنُدع هذا. خير لك أن تصمت. لتتقدم.

أسرعا في خطوهما. وما إن اقتربا من القرية حتى رأيا قسطندي وقد خف إليهما. وصاح بهما حين أبصرهما:

- يا إخوتي، إلى أين؟ عودا من فوركما. كنت صاعداً الجبل في طريقي إليكما أحذركما من النزول إلى القرية. ستحدث اليوم هناك أهوال. وسأله مانولي:

- تقصد بانايوتي؟

- الجبل ينتظره فوق شجرة السنار. نفخ الحارس في النفير ساعة الفجر. أمر أهل القرية، رجالاً ونساء، أن يتجمعوا حول شجرة السنار ليشهدوا بأعينهم حتى يستبد الهلع بقلوبهم.

تملك الخوف من ياناكوس، فاستدار ناحية الجبل وقال:

- هيا بنا نعود من حيث جئنا. تعال معنا أيضاً يا قسطندي.

- أنا.. لي زوج وأطفال لا أقوى على تركهم. أما أنتما فإنني أستحلفكما باسم المسيح أن ترجعا.

وقال مانولي وهو يواصل السير ابتغاء ملكوت السماوات:

- لا. بل باسم المسيح يجب أن نواصل المسير. وسوف نواصل حتماً.. تعال يا ياناكوس ولا تخف. ثمة من يسير أمامنا ويشير إلينا. ألا تستطيع أن تراه؟ إنه المسيح، فلنتبعه.

وفي هذه اللحظة فقط لمح قسطندي وجه مانولي صافياً نقياً. فصاح قائلاً:

- مانولي. كيف حدثت المعجزة؟

وأجاب مانولي مبتسماً:

- مثلما تحدث المعجزات دائماً. في هدوء شديد وبساطة تامة وعلى غير انتظار. لا داعي للتباطؤ يا إخوتي، هيا بنا نسرع.

أمسك بذراع قسطندي وحثا خطواتهما نحو القرية، ومن ورائهما ياناكوس متأثراً.

وقال مانولي:

- لا تخف يا قسطندي فلن تهلك القرية.. فأنا أعرف القاتل، ولهذا أسرع إليها.

توقف قسطندي وتهلل فرحًا:

- من هو؟ من يكون؟ هل أراكه الله في منامك؟ من هو؟

وقال مانولي بصوت آمر حنون:

- لا تسألني عن شيء. لا تقف. تقدم.

واندفعوا ثلاثتهم، وسرعان ما بلغوا القرية كأنهم خيول راكضة.

كان نفير حسين يدوي يستحث أهل القرية بنبرة غاضبة. فتحت الأبواب وخرج أهل القرية رجالها ونساؤها. وشموا جميعًا علامة الصليب وأسرعوا في وجل إلى الميدان.

وصاح بهم ياناكوس:

- تشجعوا يا إخوتي. إن الله كبير.

وهمهم عجوز وهو يجري ممسكًا بيد حفيده:

- إلى الشيطان أيها الأبله المجنون. لو كان الله كبيرًا فهذه هي اللحظة التي يثبت لنا فيها ذلك. سله أن يكشف لنا عن القاتل.

وقال الأب كريستوفيس وهو يعدو:

- أتوا بيوسوفاكي وطرحوه تحت شجرة السنار، وصفوا حوله الشموع والبخور والكعك. ترمل الأغا وطار صوابه.

كان المسيحيون يسرعون إلى الميدان أفواجًا متلاحقة. وأبصر ميشيل على البعد مانولي ورفيقه فخف للقائهم. كان شاحبًا بائسًا. ولكن ما إن رأى وجه مانولي حتى صاح فرحًا وعانقه:

- شفيت يا مانولي، شفيت! «الحمد لله».

وسأله مانولي:

- ماذا عن بانايوتي؟

- سيجيئون به بعد لحظة. أوسعوه ضربًا، هذا المسكين.

اقتربوا من الميدان. كانت الشمس تطل على الأرض من فوق حافة الأفق، والنسيم يهب عليلًا رخيا، والقرية يغمرها نور يحدد الحياة. وشجرة السنار مورقة خضراء يانعة. تسمع لأوراقها حفيفًا جذلًا حين يداعبها النسيم. ورفع الشيوخ

أبصارهم يتطلعون إليها في فزع. كم من مرة كانوا يستيقظون من نومهم مع الصباح يتطلعون إلى فروعها ليروا يونانيًا معلقًا عليها لأنه تجاسر على أن يرفع رأسه مطالبًا بالحرية؟

وارتفع صوت الحارس فظًا قاسيًا:

- أفسحوا.. أفسحوا يا كفر!

وسار في المقدمة بخطوات واسعة يشق الطريق بكل ثقله، ومن ورائه حمالان يحملان السرير المعدني الصغير وتمدد فوقه جثمان الغلام القليل. غطاه الأغا من رأسه حتى أخصص قدميه بالورود والياسمين. لم يظهر منه سوى وجهه الأصفر وشعره المجعد، وشفتيه المشوهتين من أثر العض. ووضع بجانبه حفنة لبان ليمضغها في عالم الأرواح.

وسار في المؤخرة بانايوتي متحاملاً على نفسه، يدها موثقتان من خلاف، ورأسه تغطيه الجروح، وجسده أزرق من أثر ضربات السياط، عيناه وحدهما تدب فيهما الحياة، يحملق بهما في أهل القرية بنظرات ملؤها الكراهية.

وصاح به واحد من أهل القرية:

- أيها الوغد، ألا ترحم نساء القرية وأطفالها؟ اعترف.

توقف بانايوتي ثائرًا مهتاجًا وجار:

- ومن منكم كان يحس بالرحمة نحوي؟

وبلغ شجرة السنار وخارت قواه فأسند ظهره إلى جذعها الغليظ. حاول أن يمسح بكتفه العرق المتصبب من جبهته.

وفي هذه الأثناء وضع الحمالان يوسفًا كي تحت ظل شجرة السنار. وأشعلا شمعتين كبيرتين عند قدميه، وألقوا بحفنة من البخور في مبخرة بها جمرات متوهجة.

أفسح مانولي ورفاقه لأنفسهم طريقًا بين الحشد، واتخذوا مكانًا في الصدارة بجوار جثة الغلام. وسرعان ما لمحهم بانايوتي. نظر إليهم بعينين مسجورتين. وحرك ذراعيه كأنما يريد أن يكسر القيد، وخطا خطوة نحوهم ثم صاح فجأة:

- عليك اللعنة يا مانولي!

ثم عاد وأسند ظهره إلى شجرة السنار خائر القوى.
وأجاب مانولي:

- تشجع يا أخي. ثق بالله!

ولم يكذب مانويوتي يفتح فمه ثانية حتى دوت صيحة مزعجة خرجت من باب
الأغا وتناقلتها الأفواه وكان لها صليل يثير الهلع.
- الأغا!

وتقدم الأغا وحده حاسر الرأس، متورم الجفنين من حرقة البكاء، مرتدياً
سروالاً موشي بالفضة وحول وسطه حزام أحمر عريض، ومسدس فضي، وسيف
عريض له مقبض أسود. كان يمشي بخطوات بطيئة متناقلة، ينقل قدميه بحذر،
خشية السقوط فيكون سخرية القوم. فالروميون جميعهم عيونهم مثبتة عليه، ومن
العار أن يروه مخموراً أو مغتماً، أو متهاكاً في مشيته. صبغ شاربه وحاجبيه بصبغة
سوداء غليظة. كان يرفع يده اليمنى بين آونة وأخرى ينتف بها شعرة من شاربه
ويلقي بها إلى الأرض. كان عابس الوجه متجهماً، مسجور العينين، يحدق بهما
كثور يتهيا للهجوم، ضمخ شعر رأسه وإبطيه بالمسك، وعقب الجو أثناء سيره
برائحة وحش بري هائج.

تحاشى النظر إلى يوسفافي خوفاً من أن تغلبه عباراته على غير إرادة منه.
واتجه مباشرة حيث وقف في مكانه تحت شجرة السنار. واقترب الحارس من
بانايوتي، وأمسك به بكلتا يديه، ودفعه بوحشية إلى الأرض، فتدحرج عند قدمي
الأغا. ووطئ الحارس جسد السروجي الهامد ليثبته على الأرض، وانتظر..
رفع الأغا يده، وأعلن على الملأ بصوت أبج:

- يا كفرة! سأشنتق واحداً منكم كل يوم، حتى تكشفوا لي عن القاتل. كل
القرية ستأخذ طريقها إلى هنا تحت شجرة السنار. حبسبي يوسفافي في كفة،
والعالم كله في الكفة الأخرى. سأشنتق العالم كله، يا كفرة.

احتدم غضبه، وازداد هياجه أثناء الكلام، وضرب الأرض بقدميه على نحو
ما يفعل الحصان. ونفّس القوم رجالاً ونساء بعينين تفصحان عن لهفة لإبادتهم
جميعاً. وفاحت رائحة من فمه وشعره وإبطيه. توقف عن الكلام وبدأ يركل

باناوتي، ويطأه بقدميه. وغطى شفثيه زيد أصفر.

صرخ فيه:

– هل أنت قاتل يوسف اكي أيها الكافر الدنس؟ هل أنت؟ اعترف!

لم ينبس بانايوتي ببنت شفة ووقع بالأنين.

وتصبب الأغا عرقاً، وأحس بالتعب، واستدار ناحية حارسه حسين وصرخ:
– اشنقه.

وفي تلك اللحظة دوى صوت يقول:

– انتظر! انتظر! أنا أعرف القاتل.

رفع الحارس يده عن رقبة بانايوتي. وتدافع الناس، وسرت بينهم صيحات

فرحة، بينما استدار الأغا ناحية الصوت وصاح:

– من المتكلم؟ ليتقدم ويريني نفسه.

تقدم مانولي في هدوء شديد حيث وقف أمام الأغا. ووثب الحارس في مكانه

وأرهمف السمع. كانت ذقنه ترتجف، وحال لونه كليمونة صفراء.

وقال الأغا وأمسك بذراع مانولي وهزه في هياج:

– هل أنت الذي تعرف القاتل؟

– نعم أعرفه.

– من هو؟

– أنا.

وسرت هزة كبيرة بين القوم تنم عن الفرح، انزاح الهم عن قلوبهم. ووشمت

النساء علامة الصليب. وأشرقت الوجوه. واستردت القرية أنفاسها، فقد قدر لها
النجاة.

وصاح الأغا وهو يلوح بالسوط:

– اسكتوا يا كفرة.

لوح ياناكوس بذراعه وهو يصيح:

– غير صحيح! غير صحيح!

وصاح قسطندي وميشيل وهما يحاولان الاقتراب من الأغا. ولكن الجموع

أَلَقْتُ بِنَفْسِهَا فَوْقَهُمْ، وَكَتَمْتُ أَصْوَاتَهُمْ:

- اهدأوا. اهدأوا. إنه هو. إنه هو! لا تقولوا شيئاً حتى ننجو!

وضحك حسين ضحكة مجلجلة اهتز لها كيانه. واندفع ليمسك بمانولي ويضع الحبل حول رقبته. بيد أن الأغا دفعه بعيداً عنه، ودنا من مانولي، وחדق في عينيه.. وزأر:

- هل هو أنت يا كافر؟

- أنا.

- أنت قاتله؟

- أنا كما أقول لك. اشنقني. أطلق سراح بانايوتي فإنه بريء.

وحملق بانايوتي في مانولي بعينين واسعتين. فتح فمه، ثم أغلقه. كان هلعاً، واحتبس صوته. لم يدر شيئاً مما يدور حوله.. هل مانولي هو القاتل حقاً؟
وصاح به صوت في أعماق نفسه: «لا! لا! مستحيل! لو كان يفعل هذا ابتغاء نجاتي إذن فعليه اللعنة. فأنا لا أريد ذلك».

حاول أن يثب ويصرح: «لا أريد» ولكن الحارس أمسك بالسوط وصاح:
- كفى هذا يا كافر.

أفاق الأغا تماماً، وتفرس في مانولي يحاول أن يفهم شيئاً. وقال:

- ولكن لماذا؟ ماذا فعل بك؟

- لم يفعل شيئاً يا أغا، ولكن الشيطان أغواني وحرضني على قتله. إذ بينما كنت غارقاً في نومي أثناء الليل سمعت صوتاً يقول لي «اقتله». نزلت إلى القرية قبل الفجر وقتلته. لا تسألني عن شيء أكثر من ذلك. اشنقني.
اندفع حسين نحوه والحبل في يده. أمسك بذراع مانولي.. وفي هذه اللحظة نددت من بين صفوف النساء صرخة مولولة:

- إنه بريء يا أغا. لا تصغ إلى كلامه. إنه بريء! بريء! بريء!

ودوت صيحات من حول كاترينا:

- اخرسي يا عاهرة.

وتدافعت النساء نحوها يردن كتم أنفاسها.

وصاحت الأرملة:

- إنه يدين نفسه لينقذ القرية! ألا تأخذكم به رحمة؟
ولكن النسوة كن قد طرحنها أرضاً ومضين يطانها بأقدامهن.
وجاهدت الأرملة لتخلص نفسها وهي تصيح:

- مانولي! حبيبي مانولي!.

وصاح الأصدقاء الثلاثة بدورهم بعد أن شقوا لأنفسهم طريقاً ووصلوا أمام
الأغا:

- إنه بريء! بريء! بريء!.

وقال ميشيل:

- يا أغا أراهن برأسي إن كان هذا الفتى هو القاتل. إنه راعي أغنامنا، وهو
قديس بكل معنى الكلمة، فلا تمسسه بسوء.

استبدت الحيرة بالأغا وهو يتفرس في مانولي، بينما الصيحات تفرع أذنيه.
ثم تطلع إلى يوسف فإكي، فاحتدم الغضب في صدره، وفقد صوابه. لم يعد يستبين
شيئاً، وأحس بدوار. وسأل نفسه وهو يحملق في مانولي: «هل هو قاتل؟ أم
مجنون؟ أم قديس كما يقولون؟ ليأخذني الشيطان فلم أعد أدري من أمري شيئاً!».
تملكه الغضب، وجن جنونه، ثم استدار إلى حسين وأصدر إليه أمراً وهو يشير
إلى مانولي:

- إلى السجن. سأخذ قراري غداً.

ثم وجه حديثه إلى الحشد:

- عليكم اللعنة يا كفرة.. اغربوا عن وجهي.

وتفرق الجمع، يتنازعهم شعور بالخوف والسرور. وتلاقى الجيران من النساء
والرجال يتبادلون الرأي فيما شاهدوه من أحداث، ويشكرون الله أن عرفوا القاتل.
كان كل منهم يسأل الآخر:

- هل تظن أنه مانولي؟ ولكنه قديس حقاً..

وأجاب آخر:

- لا تشغل البال بذلك يا جاري. ماذا يهم إن كان هو أم غيره؟ لقد اعترف وهذا

يكفي. سيشق ونجونا نحن، وهذا هو المهم، وما عدا ذلك ليس إلا ترهات لا نأبه لها. ليغفر الله له.

- ولكن لماذا يدين نفسه؟ أنا لا أفهم شيئاً. ليس هو القاتل يقيناً، حتى وإن زعم ذلك..

- آه، مانولي؟ أنت لا تعرفه، إنه ملثاث، هذا المسكين، تتراءى له أحياناً أوهام وخيالات. يزعم بأنه يفعل ذلك لينقذ القرية.. لا، هل تصدق ذلك؟ أيهلك نفسه ليخلص غيره؟.. هل لو كانت لديه ذرة من عقل كان يقدم على مثل هذا؟ أبداً. ولكن دعه وشأنه إن كان هذا هو ما يريد لنفسه. والتقى الأصدقاء الثلاثة في بيت ميشيل. ظل ياناكوس يضرب رأسه بجماع يده.

- إنها غلطتي، غلطتي أنا! كم أنا أبله! كان أولى بي أن أمنعه من النزول إلى القرية. كان أحري بنا لو لم ننبئه بشيء. ولكن هل كنت أتصور ذلك؟ وتمتم ميشيل:

- إنه قديس يهب حياته فداء للقرية لينقذها.

وصاح قسطندي:

- يجب أن ننقذه. يجب... يجب.

وقال ميشيل:

- لو أنني أوتيت القدرة على أن أفعل ما فعله مانولي، لما رغبت في أن ينقذني أحد... ألم تر كيف كانت عيناه تلمعان؟ وكيف كان وجهه مشرقاً؟ كان كمن يسكن الفردوس. فلماذا نرده إلى الأرض ثانية؟ ليتنا نكون معه.

وصاح ياناكوس في حماس:

- إننا نستطيع ذلك. ليس علينا إلا أن نذهب ثلاثتنا إلى الأغا ونقول له إننا تسللنا ليلاً إلى بيته وقتلنا يوسف فاكسي. وليشبقنا جميعاً ويعلقنا على شجرة السنار. هيا بنا نذهب جميعاً إلى الجنة الواحد في إثر الآخر. وهز ميشيل رأسه وقال معترفاً:

- أنا لا أقوى على ذلك يا ياناكوس. كيف لي أن أترك ماريوري؟

وقال قسطندي:

- ولا أنا، فلي زوجة وأطفال.

وتروى ياناكوس وتدبر أمره وقال لنفسه:

- ولا أنا أيضاً، فلي حماري ولا أطيق البعاد عنه!

ولكنه لم يصرح بذات نفسه.

في هذه الأثناء كان الأعيان الأربعة قابعين في السجن، مسندين ظهورهم إلى الحائط في انتظار ما قد يحدث. تكوموا بجوار بعضهم داخل الطابق السفلي، ولم يكن في استطاعتهم وهم في هذا المكان الغائر أن يسمعوا شيئاً مما يدور في الخارج. وانسل شعاع ضوء كابي من طاقة مستديرة في أعلى السقف.

وتأوه الشيخ بطريار كاس:

- إني جائع.

وقال القسيس جريجوريس:

- كلنا جوعى وظمأى ولكن يجب أن تدخل التجربة بصبر وجلد. الله معنا في

عربن السباع. ثقفوا بالله.

ثم استدار إلى من بجواره وقال:

- تشجع يا أب لاداس. ها أنت ترى الآن أنني كنت على حق؟ كم من مرة

قلت لك: «لماذا تكتنز الأموال يا شيخ لاداس؟ لن تأخذ خزائنك معك إلى القبر.

افعل خيراً، فالخير وحده هو الباقي لك حتى يوم الحساب، وهو شفيعك أمام الله.

ما رأيك الآن؟ ألا تأسى على ما فاتك؟».

وتنهّد الشيخ لاداس. وأدار رأساً طويلاً كرأس طائر نتف ريشه، وحدج ناظر

المدرسة بنظرة كلها كراهية، ولكن دون أن ينبس بكلمة.

وقال القسيس جريجوريس:

- موعدك غداً يا شيخ لاداس. ستمثل بين يدي الله غداً. يجب أن تعترف.

اركع وتذكر كل ما اقترفت من آثام، واسأل الله الصفح والغفران. ما زالت أمانك

فسحة من الوقت.

وأجاب الشيخ لاداس الذي بدا عليه الهم:

- لم أقترف إثماً في حق أحد، كما لم أفعل خيراً لأحد، لم أقتل أحداً. أنا بريء.

وصاح الشيخ بطريار كاس:

- ألم تقترف إثماً في حق أحديا شيخ لاداس؟ سأفشي كل أسرارك أيها البخيل العجوز في هذه اللحظة التي تقف فيها على حافة القبر، إذ لم أعد أطيع كتمانها. لم ترتكب إثماً في حق أحد، هه؟ من الذي باع بيت الأرملة كاترينا؟ ومن الذي باع كرمه العجوز أنستي؟ من الذي عرضها في المزاد؟ واليتامى الذين يهيمون على وجوههم الآن يتسولون في الطرقات - من الذي دفعهم إلى هذا السبيل؟ وابنتك أرجيرولا التي هي من دمك ولحمك، من تسبب في موتها؟ أنت، أنت نفسك، بسبب بخلك وسعارك! اذهب اليوم لتمثل بين يدي الله يحاسبك وترد ما عليك من ديون!

جن جنون الشيخ لاداس، ودبت فيه الحياة من جديد، وابتعد بظهره عن الحائط، وقال بصوت كأنه الصرير:

- ترى القشة التي في عين أخيك ولا ترى الخشبة التي في عينك. هل بلغت بسيادتكم الجراءة إلى حد اتهام الآخرين؟ ولكن للأسف، لو سمحت لنفسك أن أنشر غسيلك القدر فلن أنته من ذلك غداً. ماذا فعلت أنت في حياتك على الأرض أيها الخنزير النبيل؟ أكلت على نحو ما يأكل الغول، وشربت كأنك تعب في قربة مثقوبة، واغتصبت النساء، وملأت القرية بأبناء السفاح، وكذلك فعلت في القرى المجاورة.. قضيت حياتك تنبلاً كسولاً، تتعاون مع الأتراك، تداهنهم وتذلّل لهم وتقدم لهم فروض الولاء والطاعة.. الأعيان والقساوسة بل والأساقفة، توددتم كلكم إلى الأتراك وكنتم يداً لهم.. زوجك أنت، وكانت زوجة قديسة، ألسنت أنت الذي قصفت عمرها؟ ضاقت ذرعاً بنزواتك وملاحقتك للنساء. أنت الذي سقتها إلى حتفها، تلك المسكينة.

وهب الشيخ بطريار كاس واقفاً. حاول أن يمسك بتلابيب لاداس، ولكن تدخل زميلاهما وباعدا بينهما.

ثارت ثائرة الشيخ لاداس. اعتاد طوال حياته أن يترك الناس تقول عنه ما تشاء،

ويصمت هو، ويتظاهر بالغباء. فقد ذل هو الآخر للأثراك، وقدم لهم فروض الولاء والطاعة، وتقول على الناس وكذب، كل هذا ليتودد إلى أصحاب السلطان. ولكنه الآن يقف أمام الموت وينفجر. أراد أن يفشي بكل شيء، أن يقيء كل ما ابتلعه في حياته، ويثأر لنفسه، ويبطل دعواهم أنهم خير منه. لذلك قال ما قال واعيًا به عامدًا متعمدًا. إذن ليفضح كل بذائهم، وأي بأس في ذلك؟ هل به حاجة إليهم بعد اليوم؟

واستدار ناحية القسيس جريجوريس وبدأ صوته يصفر:

- وأنت أيها القسيس الدعي، يا من تطالبنا بأن نعترف على يدك. حدثني بأي وجه ستمثل بين يدي الله؟ تروح وتجيء بين القرية مزهواً مختالاً كالديك.. وقد استكم أيضًا تأكلون بنهم كأى شره مسعور، وإذا طرق مسكين بابك وأنت جالس إلى طعامك تحشو كرشك، فإنك تحببه بصوت يذوب حلاوة ووداعة: «حن الله عليك يا أخي، فإنني جائع مثلك». كل ذلك بينما الدسم يقطر فوق شعر لحيتك التي تشبه لحية التيس! الويل كل الويل للمسكين الذي توافيه منيته ولا يملك ما يدفعه أجر دفنه، تتركه في العراء حتى يتعفن. دائماً يدك ممدودة تبيع المسيح بثمن غال: مبلغ وقدره كذا نظير المباركة، ومبلغ وقدره كذا أجر التعميد، مبلغ وقدره كذا لقاء عقد القران، مبلغ وقدره كذا أجر التناول- بل وصل بك الأمر إلى حد أن سلكت سلوك المرابين ووضعت تعريفة لدخول الجنة يا مصاص الدماء: «يا رعايا ادفعوا وإلا فلن تدخلوا» يا للوقاحة حين تطلب الاعتراف من الشيخ لاداس، هذا الرجل القديس الذي عاش حياته جائعاً، محروماً من كأس نبذ يشتهي، مهلهل الثياب، حافي القدمين، خاوي البطن كأنه رسول حقيقي.. هذا هو أنا- هل رأيت؟. ثم تطالبني أنا بأن أعترف لك أنت أيها المبطان.

كان القسيس جريجوريس ينصت له منكساً رأسه في تواضع مسيحي زائف، بينما كان الغضب يضطرم في صدره. كان يود لو استطاع أن يلوي ذلك العنق اليابس. ترى أين كانت تعبئ هذه الجيفة كل ذلك الحقد؟ إذن هذه هي سريرته التي كان يضمهرها طوال تلك الأعوام.. هذا الكريه العجوز. ها هو الآن يقيء ما في نفسه ويفضح دخيلته.

وتصنع الحسرة وقال:

- استمر، استمر يا عزيزي لاداس. عانى المسيح أكثر مما أعانيه أنا الأثم المسكين. سخرُوا به واغتابوه وجلدوه وصلبوه ولم يشك. فهل لي أن أشكو أنا؟ استمر، استمر يا عزيزي لاداس.

لم يكذب الشيخ لاداس يهيم بفتح فمه حتى تدخل ناظر المدرسة صائحًا:
- عار علينا يا إخوتي. لم يبق من عمرنا غير سويغات وإذا بنا نقضيها في الحديث عن شئون الدنيا وآلامها بدلًا من أن نتوجه بأرواحنا إلى الله.. اهدأ يا شيخ لاداس، أفضيت بكل ما في قلبك، وحسبك ما قلت. اهدأوا يا إخوتي وأقلعوا عن المنازعة. إن خطايا البشر بغير حدود.

وضحك الشيخ لاداس تهكمًا وقال:

- أيها الناظر التعس، ماذا عساي أن أقول لك؟ النظافة والقدارة عندك سواء. لست واسع الحيلة راجح العقل، ومن ثم فإنك لا تقوى إلا على عمل النزر اليسير خيرًا كان أم شرًا. أحببت أن تقدم خيرًا كثيرًا يا صديقي المسكين ولكنك عجزت. وأحببت أن تقترب شرًا كبيرًا ولكنك عجزت أيضًا. لا شيء سوى تفاهات لا يؤبه لها. لك روح تاجر وضعيع. تباع بثمان بخس الألواح والطباشير والورق الشفاف والكراسات... ناظر مدرسة وكفى، هذا هو أنت. كنت أيضًا تباع الطباشير كمن يبيع الجبن - كلمات طنانة جوفاء تؤمن بها احتفظ بها لنفسك.

كان يتعجل أن يقول كل شيء ويربح نفسه. فاستدار إلى الباقيين:
وعوى والغضب في عينيه:

- مالي أراك تنظر إليّ عابس الوجه؟ حاق الفعل السيئ بأهله.. وها أنت حاولت أن تسيئ إليّ فارتد السيف إلى نحرِك. ولعل في ذلك عبرة لك.
رفع القسيس جريجوريس عينيه وأومأ إلى الشيخ بطرياركاس وقال:
- لا ترد عليه.

فكظم رئيس الأعيان غيظه ولزم الصمت.

وهب ناظر المدرسة واقفًا إذ سمع وقع خطوات تقترب. جمد الدم في عروقه، وتمتم قائلاً:

- ها هم ..

استدار القسيس جريجوريس إلى الشيخ لاداس وبسط إليه يده يباركه. وقال بصوت وقور:

- ليغفر الله لك يا أخي. ليغفر لك كل ما تفوهت به. أفرغت كل ما في نفسك من قذى وتخلصت منه. وها أنت أيها التعس اعترفت عن غير قصد منك. ليغفر الله لك كل ما تقدم من ذنبك. انهض يا شيخ لاداس. حان دورك، وهذا موعدك. ولكن الشيخ لاداس خر إلى الأرض منهراً وجسده يتنفض. تردد صوت سباب وصياح ووطء بالأقدام. ودفع الحارس الباب بمنكبه ففتح على مصراعيه، وقذف بيانيوتي ومانولي إلى داخل الزنزانة بقوة حتى أنهما ارتطما بالجدار. ثم أغلق الباب.

وصاح بطريار كاس:

- مانولي!!.. ماذا جاء بك إلى هنا؟ لماذا أتوا بك؟

وقال ناظر المدرسة:

- أما زلت حياً يا بانايوتي؟ ألم يشنقوك؟ حمداً لله.

- ما زلت حياً، لعن الله من كان سبباً في ذلك.

ورفع الشيخ لاداس عينيه وحملق بقوة في بانايوتي، ومد يده يتحسسه.

- أما زلت حياً حقاً؟ لماذا لم يشنقوك؟ هل أسف الأغا على ما فعل؟ هل غير

رأيه؟

كان قلبه يخفق بقوة حتى كاد يتصدع وهو يطرح أسئلته.

ولم يجب عليه أحد.

وقال القسيس جريجوريس:

- استلق يا مانولي حتى تسترد أنفاسك.

وطلب منه العمدة بطريار كاس بصيغة أمرة:

- حدثنا يا مانولي، فلم نعد نطيق الانتظار. هل عثروا على القاتل؟

وأجاب مانولي:

- نعم، عثروا عليه.

وصاح الأربعة بصوت واحد، وتدافعوا نحوه:

- من؟ من؟ من؟

وأجاب مانولي:

- أنا.

- أنت؟

وجفل الأربعة، وتراجعوا إلى الورا محملقين في مانولي، فاغرين أفواههم.
وخيم عليهم الصمت لفترة طويلة.

وصاح الشيخ بطريار كاس أخيراً بعد أن استعرض في رأسه حياة مانولي:

- مستحيل! مستحيل! لا، لا، هذه نهاية العالم!

وقال ناظر المدرسة:

- أنا أيضاً لا أصدق. لماذا قتلته؟ هل تستطيع أن تقتل يا مانولي؟ لا، أبداً، أنت
لا تستطيع ذلك.

كان القسيس جريجوريس هو الوحيد الذي ظل يتطلع إلى مانولي دون أن
ينبس بكلمة.

وسأله بطريار كاس:

- لماذا لا تجيب يا مانولي؟

وقال مانولي وهو يمسح العرق الذي تصبب من جبينه:

- أجب عن أي شيء يا سيدي؟ أنا القاتل وليس عندي ما أقوله غير هذا.
أليس في ذلك الكفاية؟

وصاح الشيخ لاداس:

- نعم، حسبنا هذا يا ولدي! عثروا على القاتل ونجوننا نحن.. إن الله موجود.
زحف مانولي حيث جلس تحت شعاع الضوء الذي ينسل من الكوة. وأخرج
الإنجيل من جيب سترته وفتحه كيفما اتفق وبدأ يقرأ. ونسي كل ما حوله.. دخل
السفينة مع المسيح، واندس بين الرسل. وأبحروا فوق بحيرة جينيسارت. ومع
المساء هبت ريح هوجاء.. وكان المسيح متعباً، إذ قضى سحابة نهاره يعلم
الجموع. فاستلقى على الشباك عند مؤخر السفينة ونام.. ولكن ريح الشمال هبت

عنفة عاتية أكثر وأكثر. كانت تهب من فوق جبال جيلاد، ترتطم بماء البحيرة، وهاجت الأمواج، وبدأت تضرب السفينة الصغيرة في ثورة وغضب. وتملك الهلع تلاميذ المسيح. كانوا يتمتعون قائلين:

- إنا هالكون! إنا هالكون! لو كان السيد يستيقظ. ولكن لم يجسر أحدهم على أن يقطع النوم المقدس. واقترب منه بطرس، وانحنى فوقه، وتطلع إليه على ضوء ومض البرق، فإذا وجه المسيح هادئ، سعيد مبتسم.

تجمع التلاميذ خلف بطرس وصاحوا به:
- أيقظه! أيقظه!

استجمع بطرس شجاعته، ومد يده، ومس كتف المسيح في رفق، وقال:
- يا سيد، نجنا فإنا هالكون.

فتح المسيح عينيه، وتطلع إلى تلاميذه وهم يرتعدون فرقا. هز رأسه وقال لهم في مرارة:

- بعد كل هذا الوقت بينكم ومازلتم لا تؤمنون بي.
وتنهذ، ونهض من نومه، ووقف عند مؤخر السفينة، ورفع رأسه، وانتهر الرياح قائلاً:

- اهدي.

وأشار إلى البحيرة الهائجة وقال:

- اسكني.

وصار هدوء عظيم. هدأت الرياح، وسكنت الأمواج، وسطعت النجوم ثانية، وعاد الوجود بسام المحيا.

هز مانولي رأسه وحدث في رفاقه الخمسة. كانت عيناه الزرقاوان براقتين فرحتين هادئتين مثل مياه بحيرة جنيسارت.

بدأت الحياة تدب من جديد في الأب لاداس، ها هو ذا يقف الآن على قدميه، يروح ويغدو، ويفرك يديه ببعضهما سعيداً.

- حمداً لله أن عثروا على القاتل ونجونا نحن. مسكين أنت يا مانولي. أنا حزين عليك ولكن أيا كان الحال فليس الأمر شراً إلى هذا الحد. فأنت فقير معدم

خادم، ثم ما زلت حدثاً. لم تذق حلاوة الحياة بعد. فلا بأس إن لقيت حتفك. إنه لمن حسن الحظ أن اعترفت أنت ونجوت أنا.

وقف في مكانه، ونظر بطرف عينيه إلى رفاقه، وزم شفّتيه، وحدث نفسه قائلاً:
- كيف لي بحق الشيطان أن أصلح ما بيني وبينهم؟ كيف لي وقد نجوت أن أصلح ما بيني وبين هذا القسيس التيس، وبطريار كاس اللعين الذي دعوته بالخنزير النبيل؟ أما عن ناظر المدرسة فأنا لا أعبأ به. ولكن ماذا عن الآخرين لقد تسرعت وسبق السيف العذل، ولكن ما زالت هناك فرصة، ومن حسن الحظ أنني نجوت. كان الشيخ بطريار كاس يحدق في مانولي الذي انكب على قراءة الإنجيل. كان متحيراً من أمره. ومال على القسيس وهمس قائلاً:
- يا أبانا، عندي فكرة.

أدرك القسيس جريجوريس ما يعنيه، وتنحنح ثم قال:
- لا تسأل عن شيء يا عمدة. دع الأمور تجري كما يشاء لها الرب.
- ولكن ماذا لو كان بريئاً؟ ماذا لو كان فعل هذا من أجل خلاص القرية؟ هل نتركه وشأنه؟ أليس هذه خطية؟ هل تتحمل وزر ذلك؟
وقال القسيس:

- إن الله غفور رحيم. سيغفر لي خطاياي.
- قد يغفر لك الله، ولكن ماذا عن الناس؟
قال القسيس وهو ينفخ متأففاً:
- إذا كان ما بيني وبين الله عمار فلا يعنيني أمر البشر.
- ثم....

وتدخل ناظر المدرسة الذي كان قد دنا منهما واستمع إلى حديثهما، فأضاف قوله:

- لا داعي لأن نرهق أنفسنا بالبحث في ذلك، ولندع الأمور للخالق.. فكل شيء بمشيئته.. ثم يجب ألا ننسى أن مانولي يخلص روحه أيضاً. وهذا شيء له قيمته بكل تأكيد.

وزايد القسيس على ناظر المدرسة فقال:

- بل هذا أقيم شيء. سيخسر الحياة الدنيا ويكسب الحياة الآخرة.. مثل ذلك كمثل من يعطي مليماً من النحاس ويجزى عنه مليوناً من الجنيهات ذهباً.. لا تجزع، فإن مانولي يعرف جيداً ما هو مقدم عليه.
وقال ناظر المدرسة وهو ينظر إلى مانولي مبتسماً:
- إنه قرد ذكي حقاً.

رفع مانولي عينيه من على الإنجيل، كان وجهه وضاء مشرقاً. وفي هذه اللحظة دخل الحارس حسين وانقضض عليه، وأمسك بتلابيبه.
وصاح به:

- تعال هنا يا كافر. الأغا يريد أن يراك.

وتمتم مانولي:

- باسم المسيح.

كان الأغا في حجرته متربعا فوق حشية، يدخن غليونيه الطويل، ويوسفواكي مسجى بجواره. الوقت ظهرًا، والحر هجير، وجثة يوسفواكي بدأت تفوح منها رائحة العفن.. دلفت مارثا الحذاء إلى الحجرة في سكون، متأبطة حزمة من الورد والياسمين وزهر العسل. ألقت بحملها كومة واحدة فوق الجثة التي بدأت تتحلل، ثم ولت مسرعة، إذ لم تقو على تحمل الرائحة.

كان الأغا غارقاً في حزنه، فلم يشم الرائحة. يدخن غليونيه شارد الفكر في تأمل عميق، مكدوداً، ساكناً، لا يفتأ يردد منذ الصباح قوله: «قدر مكتوب.. قدر مكتوب..» والتمس في تأمله هذا عزاء هداً من روعه. ألقى بمسئولية خطايا البشر على الله، وارتاح لذلك. وهل لنا أن نعترض على الله؟ هكذا أراد، وهكذا كتب علينا في لوحه المحفوظ. فما من شيء يحدث إلا بإذنه. ليس لنا إلا أن ننكس الرأس خضوعاً، ونصمت إذعائاً.. أليس هو الذي كتب منذ الأزل أن يلتقي أغا ليكوفريسي بيوسفواكي في سميننا؟ أليس هو الذي قدر في سابق علمه من الذي سيقتل يوسفواكي؟ أليس هو الذي كتب في لوحه المحفوظ أن نعثر على القاتل؟.. كل شيء مكتوب علينا..

أبصر مانولي يدخل، فوضع غليونيه على الحصير الذي كان جالساً عليه، ثم

عقد ذراعيه:

وقال في هدوء:

- اصغ جيداً يا مانولي إلى ما سأقوله لك الآن.

ثم التفت إلى حارسه وقال:

- ليس بي حاجة إليك الآن. انتظر خارج الباب.

- رأيت في منامي الليلة أنك لست قاتل حبيبي يوسف فاكسي.. اسكت يا كافر، دعني أتكلم أنا.. أنت أقدمت على ذلك لكي تخلص القرية. لا بد أنك قديس أو محنون.. ولكن هذا شأنك.. ثق أن كل شيء سيتم حسب ما أردت، سأشغلك. ولكن ثمة شيئاً واحداً أريد أن أعرفه يا مانولي: هل حقاً أنت الذي قتلت غلامي يوسف فاكسي؟

استشعر مانولي أسى لحال الأغا. لم يسبق له أن رأى حزناً كهذا. لم يعد الأغا ذلك الوحش الكاسر الهائج. أحاله الحزن إنساناً. وتردد لحظة، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ورفع رأسه وقال:

- يا أغا، إنه الشيطان الذي حرّضني على فعلتي. قدر مكتوب عليّ أن أكون أنا قاتله.

أسند الأغا ظهره إلى الحائط وأغمض عينيه. وغمغم:

- الله.. الله.. العالم حلم، أصبحت يتيماً.

وفتح عينيه، وصفق بيديه، ودخل حسين، فقال له:

- خذه. اشنقه على شجرة السنار ساعة الغروب.

في هذه الأثناء كان الرفاق الثلاثة، ميشيل وقسطندي وياناكوس يطوفون ببيوت القرية، يطرقون أبوابها، ويتوسلون إلى أهلها ألا يدعوا بريئاً يلقي حتفه. ظل ياناكوس يصيح قائلاً:

- مانولي بريء.. بريء! إنه يفعل هذا ابتغاء خلاص القرية..

ورد عليه عجوز من رجال القرية:

- حسن، ماذا تريد منا أن نفعل، اذهب إلى الأغا وقل له إن مانولي ليس هو

القاتل .. ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟ سيبدأ الأغا في شنق أهل القرية الواحد بعد الآخر حتى يفني القرية عن آخرها. ومن ثم يلقي آلاف من الأبرياء حتفهم بدلاً من بريء واحد.. هل هذا عدل؟ وهل في ذلك خير لنا؟ أليس من الخير أن يموت واحد فقط بدلاً من آلاف؟ فضلاً عن أنه هو الذي أراد ذلك لنفسه. دعه يموت لننجو نحن وأطفالنا، ثم نصنع له بعد ذلك أيقونة نضيء حولها الشموع ونمجده كقديس. أما الآن فليلقى منيته أولاً.

وتحدث رب أسرة كبيرة إلى ميشيل، وسأله في ضيق:

– أيها السيد الشاب، هل لك أطفال؟

– لا.

– حسن. إذن ليس لك أن تتكلم ودعنا في سلام.

والتفتت إلى ياناكوس امرأة عجوز تهدد حفيدها فوق ركبتيها، وقالت:

– مالي أراك تلح هكذا يا ياناكوس؟ ليمت ألف مانولي فداء حفيدي.

ومسح ياناكوس عينيه وقال في حسرة:

– إنهم وحوش كواسر، ذئاب وثعالب.

وأجاب ميشيل:

– لا، ليسوا وحوشاً كواسر يا ياناكوس، بل هم بشر وكفى.. هيا بنا لا نريد أن

نضيع وقتنا ولتكن مشيئة الله.

واستاء ياناكوس لذلك فقال:

– أنت تفكر في أبيك، إذ سيفلت الشيخ بهذه الطريقة.

نظر ميشيل إليه بعينين دامعتين.

وصاح ياناكوس:

– آسف يا ميشيل. لم أعد أدري ما أقول.

وما إن بلغا الميدان حتى أبصرا كاترينا في أجمل زيتها. كانت قد غسلت

شعرها من فورها، وارتدت أحسن لباسها. خفت إليهما كأنها يختم ملكي ناشر

شراعه يمزح عباب البحر بأقصى سرعته.

وسألها ياناكوس:

- إلى أين يا كاترينا؟
وصاحت الأرملة مولولة وفاضت عينها بالدمع:
- يا جبناء، هل ستركون مانولي فريسة للموت. أنا لن أفعل مثلكم. سأذهب
لأقابل الأغا.
وصرخ قسطندي:
- الأغا؟ ماذا تريد مني؟ هل تنوين العودة إلى مضاجعتي؟ بدأت تحنين إلى
عشاقك القدامى؟
وقال ياناكوس:
- حتى أنت يا كاترينا، ذهب الحزن بعقلك.. اذهبي إليه وافعلي ما تقدرين
عليه.. رعاك الله.
وقال قسطندي الذي أسف لسخريته بها:
- ولكن قد يقتلك الأغا وهو في ثورة غضبه. ارجعي يا عزيزتي المسكينة
كاترينا..
وردت الأرملة:
- سئمت الحياة. حسبي أن أخلص مانولي.
ثم انسلت الأرملة داخل فناء بيت الأغا وغابت عن الأنظار.
وتمتم ميشيل حين أبصرها تدخل بيت الأغا مرفوعة الرأس، وكان الباب
مفتوحاً على مصراعيه.
- إنها خير منا جميعاً.
كان الجو حاراً، والزمن ثقيلاً، وانبعثت من القاعة الكبيرة رائحة خانقة تفوح
من الزهور والحبشة المتحللة.. أسند الأغا رأسه إلى السرير المعدني الصغير وراح
في سبات. كان يبتسم وهو نائم: لا بد أنه يحلم، تتراءى له مأساته كابوساً عابراً،
وسيجد نفسه في صحوه جالساً في شرفته وبجانبه يوسف فاكي يملأ له كأس
العربي.
وثمة حمامتان تحومان فوق الشرفة، تلتقيان وتقبلان بعضهما بمنقاريهما ثم
تهدلان. يتردد هديلهما في سمع الأغا وهو نائم فيبتسم. وفي الفناء من تحتهما

كان الصنبور مفتوحاً ينساب منه الماء فتسمع لصوته خريراً. والكلب باسط ذراعيه بالوصيد فوق الحجارة يلهث. وقط أسود كبير سمين، لاذ بالظل وعيناه الخضراوان تلمعان في سحر وقلق.

اجتازت كاترينا الفناء بسرعة خاطفة خشية أن يلمحها الحارس أو أن يكشف سرها نباح الكلب. ولكن الحارس لم يلمحها، والكلب شم رائحتها فتعرف عليها، وهز ذنبه راضياً مرحباً. والتقطت الأرملة أنفاسها. وأحست برائحة غريبة مقززة تمسك بخناقها، فالجو عبق برائحة عطرة وكريهة معاً.. كانت كاترينا تعرف مداخل البيت ومخارجه جيداً. فكم من مرة فتحت لها مارثا الباب خلصة أثناء الليل وقتما كان الأغا ما زال وحيداً. كان هذا قبل رحلته إلى سميرنا، تلك الرحلة التي عثر فيها على حبيبته يوسوفاكي في حي تركي. رأى يوسوفاكي جالساً فوق مقعد صغير مطعم بالصدف وسط مقهى ويغني أغاني أمان. وما إن وقعت عليه عينا الأغا حتى فقد صوابه. ومنذ تلك اللحظة نسي كاترينا تماماً، ولم يعد لها مكان في قلبه. وكثيراً ما حاول الحارس أن يذكره بالأرملة، ولكن الأغا كان يضحك من كلامه. وذات يوم قال له: «أيها العجوز الطيب يحكى أن الباشا دعا ذات يوم أحد أصدقائه ليكون له نديماً في شرب العرقي. ولم يقدم له مزة سوى إناء به زيتون وآخر به كافيار. وإذا بالصديق لا يأكل غير الكافيار ولم يقرب الزيتون. فقال له الباشا: «كل زيتوناً أيضاً يا سعادة البك». وأجاب الصديق: «الكافيار لا يدانيه شيء يا سعادة الباشا، وأنا مولع به حباً». هل فهمت يا حسين؟ حبيبي يوسوفاكي هو الكافيار.. وأمسك الحارس عليه لسانه، ولم يذكر له الأرملة منذ ذلك اليوم. كانت كاترينا اجتازت الفناء ودلفت إلى البيت. وتوجست خيفة: المرأة الكبيرة والحشايا والكراسي المبطنة والمدفأة النحاسية الضخمة والأريكة، كلها كانت هدفاً للأغا، نفث فيها عن غضبه وأحالتها إلى شظايا.

وسرت في جسدها رعدة، وحدثت نفسها قائلة:

- هكذا فعل بانايوتي أيضاً من أجلي..

سمعت وقع خطوات، فتوارت خلف حشوية مهشمة. ظهر الحارس عند الباب. أصبح شبحاً حقيقياً- تغضنت وجنتاه، وغارت عيناه في محجريهما، وسال لعباه

من بين شفتيه. توقف هنيهة وتلفت حوله دون أن يعي شيئاً مما يراه، وتنهد ثم خرج إلى الفناء يترنح. قيع بجوار الكلب وأجهش بالبكاء. وشمّت الأرملة علامة الصليب. وتمتمت قائلة:

- «يسوع ربي، أنت وحدك من يفهم المرأة ويغفر لها كل خطاياها. ها أنذا مهياًة لكي أمثل بين يديك». كانت قد استحمت وارتدت أحسن ثيابها وضمخت شعرها بماء الورد.. وعادت تتمتم: «يسوع ربي ها أنذا مهياًة..».

- كاترينا يا عزيزتي، ماذا تفعلين هنا؟ عودي من فورك إلى بيتك. ماذا تريدن يا منكودة الحظ؟.

استدارت الأرملة فرأت مارثا متأبطة حزمة زهور وتهم بالصعود إلى الحجرة. كانت شاحبة الوجه، شعناء الشعر.

فقالّت الأرملة:

- مارثا، أريد أن أرى الأغا.

- أتجسرين على ذلك ودم يوسف اكي لم يحف بعد.. إنه سيقطعك إرباً إرباً أيتها التعسة.

وعادت الأرملة تقول:

- مارثا، أريد أن أرى الأغا.. أريد أن أفضي إليه بسر خطير. فأنا أعرف القاتل.

وضحكت العبدّة العجوز في تهكم وقالت:

- مانولي؟

- لا، إنه شخص آخر سواه.. ستعرفين فيما بعد ما يقشعر له بدنك...

حطت العبدّة العجوز حزمة الزهور فوق الدرج وصعدت إلى حيث تقف

الأرملة، وشبت على قدميها.

وقالّت لها همساً، وعيناها يومض فيهما بريق:

- من؟ من؟ هل شككت فيه أنت أيضاً؟ وأنا أيضاً.. وأنا أيضاً.

وقالّت الأرملة وقد أسقط في يدها:

- من؟

تفرست العجوز في وجهها، وهزت رأسها، وانحنت على الدرج ورفعت

حزمة الزهور، وقالت:

- لا شيء. أنا لم أقل شيئاً.. سأذهب لأضع الزهور فوق هذا الغلام اللعين.
بدأ يتحلل. ليأخذه الشيطان!

وبصقت على الأرض إذ أحست بقرف. وفجأة انفجر ما في نفسها من حقد
وضغينة:

- وأنت أيضاً يا جميلتي ستأكلك الديدان. وأنا مثلك. لك أن تزهي ما شاء لك
ذلك، فكلنا سواء.

وتردد في القاعة صوت دوي عنيف سمعت بعده صيحة غاضبة.

- من هناك تحت؟ مع من تتكلمين أيتها الحدباء العجوز؟ اخبرني.

انكمشت العجوز الحدباء بينما تقدمت الأرملة في جراحة ترتقي الدرج.

- أنا كاترينا يا أغا.

ولول الأغا:

- يا عاهرة. اخرجي من هنا.

ولكن الأرملة أعرضت عن كلامه وارتقت الدرج في هدوء.

ونادتها الحدباء همساً من تحت الدرج:

- يا كلبة ألا تخافين؟

هزت لها كاترينا كتفيها وواصلت سيرها ترتقي الدرج. وفجأة أبصرها الأغا
قبالته.

ألقت الأرملة بنفسها عند قدميه وصاحت به:

- عفوك يا أغا، عفوك!

ركلها الأغا في جنون، فانكفأت على بطنها ثم انقض عليها ليلقي بها من فوق
الدرج. ولكن الأرملة أمسكت بحاجز السلم وبطنها إلى الأرض وأخذت تصرخ:

- اسمعني يا أغا. لم أعد أطيق كتمان السر. أتيت لأرتمي عند قدميك. يا أغا

أنا التي قتلتته!

جأراً الأغا.

- أنت؟ أهو أنت يا عاهرة؟

واستدار، عيناه تطوفان فوق الجدران بحثًا عن سيفه:

- أنا يا أغا، أنا، كم أنا شقية، أنا الذي قتلته بدافع الحب.. والغيرة.. كنت أغار منه. منذ أن وطئت قدماه قصرك وأنت منصرف عني لا تنظر إليّ. لم تعد ترسل مارثا تدعوني إليك.. كنت أبكي.. أضناني السقم.. كنت أقف خلف بابي آناء الليل وأطراف النهار أنتظر.. ولا شيء.. لا شيء البتة. ملأ يوسف فكي عليك حياتك ونسيتني.. قصدت العرافين على اختلاف شاكلتهم ألتمس منهم العون.. وذات ليلة استمنت بشيء من السحر ووضعت عند عتبة بابك وانتظرت.. ولكن عبثًا، يوسف فكي ملأ عليك حياتك ونسيتني.. أنا يا من أحبيتك كثيرًا وأحرقتني نار الوجد، وأكلني جحيم الغيرة حتى أذهبت عقلي.. وعندما انتصف الليل استللت سكينًا..

وزحفت على بطنها حتى دنت من قدمي الأغا، واحتضنتهما، وبدأت تعول:

- يا أغا، اقتلني يا أغا! ما جدوى الحياة لي؟ اقتلني!

كان الأغا ما زال يبحث بعينه فوق الجدران عن سيفه دون جدوى. بدأ البيت يدور أمامه، وغامت عيناه فلم يعد يستبين شيئًا. واستلّت الأرملة سكينًا من داخل صدرتها، واعتدلت لتبحثو على ركبتيها، وقالت:

- ها هي يا أغا السكين التي قتلته بها.. ثم عادت تقول وقد كشفت عن نحرها:

- ها هي، بهذه السكين يا أغا.

تدافع الدم إلى رأس الأغا، واحمرت عيناه، واستدار فوق بصره على يوسف فكي مسجي خلفه فوق السرير، أصفر، مفتوح العينين فاغراً فاه، وذباب ضخم فيه سواد وزرقة حط على شفّته، يدخل ويخرج من فمه ومنخاريه. عاد ينظر أمامه فأبصر الأرملة. فانقض عليها، وأمسك بالسكين التي كانت في يدها تناولها له، ولوح بها في الهواء، ثم بطعنة واحدة غرس نصلها في قلبها حتى مقبضها. ثم ركلها بقدمه فتدحرجت فوق الدرج من أعلاه إلى أسفله.

الطريق الصاعد

أثار دم الأرملة نائرة الأغا من جديد. فقد رأى لوناً أحمر. وتطاير الدم إلى رأسه فخضبه. واستيقظت في نفسه رغبته الأولى في ذبح أهل القرية جميعاً، رجالاً ونساء، حول الجثة التي كان يهيم بصاحبها عشقاً وأردوه قتيلاً. أمسك بالسكين ثانية والدم يغطي ذراعه حتى مرفقه، ونادى حسيناً.

- انزل إلى الزنزانة واقبض على مانولي، سقه أمامك إلى شجرة السنار. وانفخ في النفير وادع الكفرة ليحضرُوا المشهد! أحضر يوسفافي تحت شجرة السنار حتى يعاين المشهد أيضاً.. اشتق هذا السافل سواء أكان هو القاتل أم لا. آتني بالوسط، سأنزل إليهم بنفسي أحطم عظامهم لأشفي غليلي! ربما أشتق الخمسة جميعهم هذا المساء، الواحد بعد الآخر، مذنبين كانوا أم غير مذنبين، ولكن سأشتقهم جميعاً. لماذا يبقون على قيد الحياة وحبيبي يوسفافي ممدد هناك قتيلاً؟ أسرع.

وفاضت عينا الأغا بالدمع ثانية. واستدار، ووضع السكين الملطخة بالدم بين الزهور فوق جثة يوسفافي. وقال:

- خذها معك يا حبيبي يوسفافي. ثم أقمي إلى جانبه، وأنكأ على السرير المعدني الصغير، وبدأ يدخل. أغمض عينيه. وطافت بمخيلته حقول وجبال وقرى. تراءى له أنه اتخذ طريقه من جديد في رحلة من ليكوفريسي إلى سميرنا. حيناً راكباً عربية، وحيناً ممتطياً صهوة بغلته، وحيناً على ظهر تلك الآلة الشيطانية التي أتى إلينا بها الفرنجة، عليهم اللعنة جميعاً. وفجأة حدثت معجزة ذات صباح!

قصور وأسواق وجوامع وبشر يحصون بالآلاف، وموسيقى وحدائق والبحر! ثم اختفى كل شيء. لم يبق سوى مقهى يطل على الشاطئ. أبوابه مفتوحة، والجو حار، والشمس تأذن بالمغيب. كان الأغوات هناك. فرغ كل منهم من حمامه وتزين وصبغ شاربه. جلسوا جميعاً فوق حصير في شكل دائرة، وبدأوا يدخنون النارجيلة. ودخل أغا ليكوفريسي. فماذا رأى وسط القاعة؟ غلاماً متربّعاً على كرسي كأنه العرش، هو يوسففاكي، وكان يغني: «دنيا تاير، روبا تاير.. آمان، آمان!» وفي لمح البصر اختفى كل شيء: المقهى، والأغوات، والحصير، و النارجيلات. لم يبق من سميرنا كلها إلا هو وحيبه يوسففاكي أحدهما جاث على ركبته يتضرع ويتوسل، والآخر يتدلل ويتمنع واللبانة في فمه يلوكها..

دخل حسين والسوط في يده، ووضع على ركبتي الأغا. نكس الأغا رأسه، وحملق بعينه من تحت حاجبين كثيفين ينظر إلى السوط، شارد الفكر. إلى أين يذهب؟ لماذا يترك مكانه حيث هو على شاطئ البحر في صحبة يوسففاكي؟ فأغمض عينيه ثانية وعاد إلى سميرنا.

دوى صوت النفير في الخارج.. قاربت الشمس على المغيب، ولم تختف حرارة الشمس. وسكنت أوراق الشجر. وجمدت القرية عزلاء منكمشة على نفسها تتقلّى فوق حرارة الأرض.

فتحت الأبواب، وخرج أهل القرية على نداء النفير، الواحد إثر الآخر، وتجمعوا حول شجرة السنار. البعض أثقله الهم، فلاذ بالصمت، والبعض مهتاج ضيق الصدر، يروح ويجيء في نقاش دائم: ترى هل قتله مانولي حقاً، أم لا؟ هل هو المجرم أم سواه؟

قال أحدهم وهو يهز رأسه: «لا يخدعك السهو! أنا لم أكن أثق أبداً بمانولي، حيناً مع الأرملة، والآن مع يوسففاكي.. أف! ما أقبحه! ليأخذه الشيطان! ووصل خادم الكنيسة العجوز لاهثاً. كان يحمل إليهم أخبار تثير الهلع، ولكنها تثلج صدره.

- كنت أمر أمام بيت الأغا، هل تعرفون ماذا رأيت؟ الحدباء العجوز تلطم صدرها وتنوح. قلت لها: ماذا بك يا أماء؟ - قتلوا الأرملة. - من هم؟ - الأغا!

نحراها كما تنحر الشاة، ثم قذف بها من فوق الدرج. قل للمسيحيين أن يأتوا ليدفنوها فهي مسيحية أيضاً ولها روح، هذه المسكينة.

وقال عجوز صفراوي في تهكم وسخرية:

- ندفنها؟ وماذا أيضاً يا شماس؟ ليعرقها الله في نار جهنم.

أذنت الشمس بالمغيب. وحومت الأطياف حول شجرة السنار تبحث عن مأوى تسكن إليه لتقضي ليلتها. ولكنها أبصرت تحت الشجرة حشدًا من البشر يدور بينه لغط مزعج. تملكها خوف، فشردت تحلق هنا وهناك في تردد وقلق، تنتظر أن ينفض هذا الحشد اللجب وتأنس إلى أوكارها.

وفجأة دوى صرير الباب الثقيل لبيت الأغا. فتح الباب، واشربأت الأعناق. وندت آهة، سرت بين الجمع كموجة تردد صداها في الهواء. وظهر مانولي فوق عتبة الباب هادئًا، مبتسمًا، موثق اليدين من خلاف، دامي الوجه والذراعين.

توقف لحظة كمن يريد أن يودع أهل القرية. لم يمهل الحارس الذي كان في أثره، وعاجله بضربة موجعة بالسوط. واجتاز مانولي العتبة في صمت، ومن ورائه رجلان يحملان السرير المعدني الصغير يرقد فوقه يوسفافي تحت أكوام من الورد.

تقدم مانولي بخطى ثابتة. كان يجول بعينه في هدوء بين الوجوه التي تحيط به، والمنازل والأشجار، وينظر على البعد إلى حقول القمح وقد انحنت سنابلها تحت ثقل حباتها الناضجة، تلمع في بريق كبريق الذهب تحت أشعة الشمس الغاربة. وحدث نفسه قائلاً: «حمدًا لله الذي من علينا بمحصول طيب هذا العام. سيجد الفقراء حاجتهم من الطعام».

وفجأة وقع بصره على رفاقه الثلاثة تحت شجرة السنار، ينظرون إليه بعيون دامعة. ابتسم لهم مانولي، وأوماً إليهم برأسه مودعًا. وتوقف لحظة، ونظر إلى الناس من حوله وصاح قائلاً:

- وداعًا أيها الأصدقاء، فإني راحل عنكم.

ثم دار بعينه ونظر إلى أصدقائه الثلاثة وقال:

- أيها الإخوة ميشيل وياناكوس وقسطندي إني راحل. وداعًا. وصاح

الأصدقاء الثلاثة بأصوات مخنوقة:

- بريء! بريء! بريء!

وصاح ياناكوس بأهل القرية الذين لزموا الصمت وهم يشهدون ما يدور أمام أعينهم:

- هل ماتت مشاعركم؟ أولى بكم أن تخروا أمامه ركعاً أيها الجاحدون. إنه يموت من أجلنا وابتغاء خلاص القرية. ألا تفهمون؟ إنه يحمل خطايانا جميعاً مثلما فعل المسيح. أيها الإخوة...

لم يمهله الحارس، اندفع نحوه والسوط في يده، والتف السوط حول رقبته. ظهر الأغا عند عتبة الباب، وسرعان ما خيم السكون. أفسح له الجمع طريقاً. وتقدم الأغا، ثقيل الخطوات، مكتئب الوجه، منكس الرأس. توقف عند شجرة السنار. ودون أن يلقي نظرة إلى مانولي أصدر أمره إلى حارسه:

- اشنقه.

وانقض الحارس الضخم فوق مانولي وأطبق بكلتا يديه على رقبته. وفي هذه اللحظة دوت صرخة مولولة:

- يا أغا! يا أغا!

كانت مارثا العجوز تجري نحوه لاهثة الأنفاس، متأبطة صرة من الملابس. وامتقع وجه حسين، وسقط الحبل من يده، وأسند ظهره إلى شجرة السنار وهو يرتجف. وخرت الحديباء العجوز إلى الأرض عند قدمي الأغا وصرخت:

- يا أغا... انظر، انظر!

وفكت الصرة عند قدمي الأغا، وصفت فوق الأرض قميصاً وسروالاً ونعلين، كلها ملطخة بالدماء. انحنى فوقها الأغا وصاح:

- ملابس من كل هذه؟

وأجابت مارثا العجوز:

- ملابس حسين. حارسك يا أغا.

واستدار الأغا، وحدهج حسين بنظرة. كان قد سقط على الأرض تحت شجرة

السنار. وبهت أهل القرية.

وانقض عليه الأغا بوثة واحدة، يهزه في عنف وهو يقول:

- «حسين مختار!».

تكور الحارس على الأرض، وأخفى وجهه بين يديه الضخمتين المشعرتين. وأخذ يخور كما يخور العجل:

- الرحمة.

اقترب الأصدقاء الثلاثة، وقلوبهم تخفق في عنف حتى توشك أن تتصدع. وتحرك الحشد كموج بشري، أحاط بالأغا والحارس ومارثا. ودنا ياناكوس خلصة من مانولي، وفك وثاقه، وأمسك بيده وقبلها.

رفع الأغا رأسه، وتطلع إلى أهل القرية، ورأى وجوههم متهللة فلوح بسوطة وصاح:

- انصرفوا يا كفرة. اغربوا عن وجهي وإلا فالويل لكم.

واندفع نحو الحشد، وانهاled عليهم بسوطة رجالاً ونساء كأعمى لا يميز شيئاً. وبدأ الزبد يغطي فمه.

أقفر الميدان في لمح البصر. تفرق الجمع مذعورين، كل إلى بيته. أما أكثرهم جرأة فقد توارى وراء زوايا الجدران يرقب ما قد يحدث. وانصرف الرفاق الثلاثة ومعهم مانولي، واتخذوا لهم مجلساً بجانب حائط في الطرف المقابل من الميدان حيث يمكنهم أن يشهدوا ويسمعوا كل ما يدور هنالك.

كان الأغا يجأر:

- إنه أنت يا قذر! إنه أنت يا كلب!

كان واقفاً فوق الحارس يطأه بقدميه ويصق عليه. واستل سيفه، ثم أغمدته ثانية. وانحنى على الأرض والتقط بعض الحجارة وأخذ يقذفه بها فوق رأسه. لقد فقد صوابه فلم يعد يدري أي مية يختارها له.

كانت العجوز مارثا تجري هنا وهناك، تقفز، وترقص، فرحة متهللة. تجمع الملابس داخل الصرة، ثم تبسطها على الأرض كاشفة عن بقع الدماء فيها. لا تكف عن ترديد نفس الكلمات وكأنها تتغنى بموال:

- سمعته يا أغا وهو يرتقي السلم عندما انتصف الليل.. وترامت إلى سمعي يا أغا صرخة واهنة كصرخة طير ذبيح.. ولكن كيف لامرأة بائسة مثلي أن تجرؤ على فتح فمها؟ وها أنت ترى بعينيك الآن الملابس والدم!

وعادت تصف الملابس من جديد تعرضها على الأرض كاشفة عن بقع الدم... وفجأة سئم الأغا ترديدها. فرفسها في كليتيها وتدحرجت العجوز فوق الأرض، تصرخ صرخات معولة كقط ذبيح. ثم تحاملت على نفسها هاربة من أمامه إلى بيت سيدها. وقبعت عند عتبة الباب كخفاش، عيناها مثبتتان على الأغا والحارس ترقبهما. وغمغمت قائلة:

- الآن ليفقأ كل منكما عين الآخر أيها التركيان القذران! حسبي أني عثرت على بغيتي وليذهب كل شيء بعد ذلك إلى الجحيم.

جثا الأغا على الأرض، ولكم حارسه بجماع يده لكمة قوية أقعدته أمامه وجهًا لوجه، أنفاهما متلاصقان. وجمدا في مكانهما فترة طويلة بغير حراك. وغابت الشمس، وتجاسرت الطيور، إذ اختفى الحشد عن أنظارهما، وعادت إلى أوكارها فوق شجرة السنار.

ظل الرفاق الأربعة رابضين في مكمنهم قبالة الحائط في وجل. كانوا ينتظرون حدوث مشهد مروع يوشك أن يقع.

وتمتم مانولي:

- إنني أشفق على هذا الحارس المسكين.

وأجاب ياناكوس:

- اسكت. إن الله لا يشفق عليه.

وفجأة هب الأغا واقفًا وزأر كالأسد:

- قف، يا كلب.

قفز الحارس واقفًا على قدميه. استل الأغا سيفه ثم هوى به مرتين وثلاثًا فوق الحارس، يتر أنفه وأذنيه، وطوح بهم الأغا بعيدًا. لم يحرك الحارس ساكنًا. ظل واقفًا في مكانه جامدًا كأنه جذع شجرة يقلمها بستانني. ونزف دمًا، وسال الدم على

الأرض ليصنع بركة من الدماء ممزوجة بالطين.

ولوح الأغا بالسوط وصاح:

- اجر حول الشجرة.

وبدأ حسين يعدو مترنحاً حول شجرة السنار.

وزأر الأغا من جديد:

- قف.

وتوقف الحارس، انقضض عليه الأغا، ومزق عنه سرواله، وأمسك بعضوه وبتره بضربة واحدة من سيفه، وطوح به فوق جثة يوسفافي وسط أزهار الياسمين. وهنا نددت عن الحارس صرخة مروعة خر بعدها إلى الأرض. أمسك الأغا بعنقه، ورفع وأقعده فوق الكرسي، ووضع الحبل حول رقبته، وركل الكرسي، وتأرجح الحارس في الهواء بعد أن تقطعت أشلاؤه في وحشية والدم يغطي جسده.

مسح الأغا العرق الذي تصبب من جبهته بيده الملطخة بالدماء فاصطبغ وجهه كله بلون الدم. وخر إلى الأرض لاهثاً محملاً بعينيه في حارسه فاغراً فاه. وظل الأغا هكذا فترة طويلة. وبعد أن شفى غليله نهض من مكانه. ودون أن يلتقي نظرة إلى الرجل المعلق، أو إلى يوسفافي، عاد إلى بيته يترنح في مشيته. وفتح الباب برفسة من قدمه وخر إلى الأرض سطيحاً مغشياً عليه فوق بلاط الفناء، وكان لسقوطه دويًا.

في هذه الآونة كان الشيخ بطرياركاس يسأل رفاقه:

- ترى ما الذي يحدث الآن فوقنا؟

كانوا جميعاً مستلقين على الأرض، وقد أسندوا ظهورهم إلى الحائط وأداروا رؤوسهم ناحية الباب السفلي منتظرين ما يحدث. وأجاب الشيخ لاداس الذي بدأ يسعى لإصلاح ما بينه وبين ذوي السلطان، يداهنهم ويتزلف إليهم.

- سأقول لك أنا يا عمدة. ما نولي الآن- ليغفر الله له- معلق في الهواء، سواء كان هذا خطأ أم صواباً، ولكن ماذا يعيننا في ذلك. المهم أن نفلت نحن

وننجو بأنفسنا. وبعد لحظة سيأتي الحارس ويصيح: اخرجوا يا كفره، انطلقوا إلى بيوتكم! سيركلنا بقدمه، وسوف نعود إلى النور وإلى أعمالنا. أما فيما يتعلق بما دار بيننا من حديث هنا، فليذهب أدراج الرياح وعفا الله عما سلف. أليس كذلك يا عمدة؟ أأنت معي أنت أيضًا، يا أب جريجوريس؟

وقال القسيس جريجوريس لنفسه:

- قسمًا لأفغان عينك أيها الخنزير القذر.

ولكنه لم يفصح عن سريره. إذ تذكر أنه مسيحي وقيس. فأبدى له البشاشة تكلفًا، وحدثه بصوت معسول:

- لننجو أولاً بعون الله يا شيخ لاداس، وما عدا ذلك سيطويه النسيان. نحن رجال عشنا معًا لحظات عصيبة، وما بدر منا ليس إلا هبات لا يؤبه لها. أنا عن نفسي نسيت كل ما كان.

وقال الشيخ بطريار كاس بادي الغضب:

- لن أنسى لك أبدًا أنك دعوتني «بالخنزير النبيل».

إذ كان هذا النداء طعنة له في الصميم لأنه يصدق عليه تمامًا.

وقال الشيخ لاداس متظاهرًا بالدهشة:

- هل تفوهت بشيء كهذا يا عمدة؟ أنا أسحب هذه الكلمة. ما أتعسني. ذهب الخوف بصوابي فخلطت في الكلام. قصدت أن أقول «السيد النبيل» فقلت «الخنزير النبيل».

ورفع بانايوتي رأسه الضخم المصاب بالرضوض، وصاح:

- اذهبوا إلى الشيطان يا عصابة من الجبناء. كل منكم يخشى الآخر ويشمئز منه، ولكن يخاف البوح بما في نفسه. تتهادون يا حفنة من الكسالى ابتغاء نهب الفقراء من الناس. ولكنني أنا البغيض إلى نفوس الناس جميعًا لا أخافكم. أيها القساوسة والأساقفة والسادة العمدة والأعيان وناظر المدرسة إنني أبصق عليكم جميعًا.

كان ناظر المدرسة على وشك أن يفتح فمه ليهدي من حدة الحديث عندما انفتح الباب. ودخلت مارثا العجوز، ولمعت عيناها في الضوء الكابي تبرق

بنظرات حادة.

وصاح الشيخ بطريار كاس وهو ينهض من مكانه:
- إيه يا مارثا ماذا وراءك من أخبار عن العالم العلوي؟
كشفت العجوز عن أسنانها في ضحكة بلهاء، ومدت يدها على نحو ما يفعل
الشحاذون وأجابت قائلة:

- لن أبوح بشيء حتى تملأوا يدي هذه بالعملات الذهبية.
وقال الشيخ لاداس وهو يتباكى:
- أيتها السليطة العجوز، ألا تأخذك بنا رحمة؟ نحن فقراء معوزون، هل
تريدون أن تمتص دماءنا؟

وسألها القسيس جريجوريس:
- هل تحملين لنا أخباراً طيبة أم سيئة. يجب أن نعرف أولاً، ثم نتفق بعد ذلك.
- قلت لك يا أبانا لن أبوح بشيء. ألا تفعلون قداستكم نفس الشيء، تمدون
يدكم قبل أن تبدأوا ترتيل «كيريل لايسون»؟ لماذا تريد مني أن أكون خيراً منك؟
افتحوا حواظ نقودكم يا سادة باسم ما أنشده لكم من خير.
كان الشيخ بطريار كاس أول من فتح حافظته نقوده، وأخرج منها جنيهاً ذهبياً.
ثم التفت إلى القسيس وقال له:

- هيا يا أبانا، إنهم يدعونك القسيس النبيل فلا تتوانى. وأنت يا شيخ لاداس
افتح جرابك وادفع، يا من دعوتني باسم «الخنزير النبيل»، من الخير لك أن تنزف
بعض دمك حتى يشتد ساعدك للهجوم أيها التعس. وأنت يا ناظر المدرسة تعال و
ادفع شيئاً. حقاً لست ثرياً ولكن ادفع ما تجود به حتى تنتهي مما نحن فيه. إن المرأة
العجوز تحمل إلينا أخباراً طيبة، ألا ترى ذلك في عينيها اللامعتين؟
دس كل من القسيس وناظر المدرسة يده في حافظته ينقب فيها. وتنهد الشيخ
لاداس وقال للمرأة العجوز في توسل وضراعة:

- لو قلت لك أنني مدين لك بهذا المبلغ، ألا تقبلين أيتها الأم الطيبة مارثا؟
سأكتب لك إيصالاً بذلك.

- يا الله؟ حياتك لا تساوي في نظرك عملة ذهبية حقيرة أيها البخيل؟ هيا

تشجع قليلاً وافتح حافظة نقودك..

واستدارت ناحية بانايوتي وقالت له في سخرية:

- أما أنت يا أكل الجبس فلا أنتظر منك مليماً. لا بد أن الأرملة تركتك خاوي الوفاض مفلساً.

وعوى بانايوتي:

- اخرسي أيتها الحمامة العجوز. انتظري حتى أقيس حذبتك لأصنع لك سرجاً يحمي ظهرك، أيتها العجوز الحيزبون.

- لا تغضب يا أكل الجبس المسكين. أيتك بأخبار تعنيك أنت أيضاً: لقد نجوت. نجوت أيها العاشق النعس! وانتقلت كاترينا إلى العالم الآخر.

جحظت عينا بانايوتي، وحاول الكلام فلم يستطع. فبدأ يعوي ويندب. وواصلت العجوز كلامها:

- قتلها الأغا منذ لحظة. غرس سكينه في قلبها وقدمها هدية إلى الشيطان. تمرغ بانايوتي على الأرض، وأخذ يضرب الحائط برأسه. وبدأ يزار كوحش مفترس ينادي الأرملة.

قبع الحدباء عند عتبة الباب تحاول أن تستفزه:

- من قال لها أن تكون جميلة؟ من طلب منها أن تكون عاهرة؟ من طلب منها أن تذهب إلى الأغا؟ نالت ما تستحقه. غرس سكينه في قلبها ثم قذف بها من حالق فسقطت تتدحرج فوق الدرج.

ولكن بانايوتي لم يسمع ما قالته، كان يتلوى، يعض الأرض، وينادي الأرملة بصرخات معولة.

فرغ الشيخ بطرياركاس في هذه الأثناء من جمع الأموال، وملأ بها راحة العجوز الحدباء. وسرعان ما انطلق لسانها تقص عليهم القصة كاملة. كانت تتحدث إليهم وهي تضحك وترقص وتقلد الأغا والحارس، حيناً تعوي، وحيناً تضحك في سخرية.. ورسم القسيس جريجوريس علامة الصليب وقال:

- هيا بنا نخرج. مبارك اسم الرب. دخلنا إلى هنا أناساً بسطاء مكتوب علينا الموت، وها نحن نخرج أبطالاً وشهداء للمسيح.

وقال الشيخ بطريار كاس بدوره:

- هيا بنا. لقد فزنا.

وقال العجوز لاداس:

- كلفتني هذه المشكلة جنيهاً. ولكنني سأستعيد مالي عندما أخرج. ولأبداً بهذا الكلب المدعو ياناكوس.. سأستولى على حماره.

وقف القسيس جريجوريس عند عتبة الباب، ووشم فوقها علامة الصليب ثم التفت إلى رفاقه وقال:

- غداً يا إخوتي يجب أن يختلي كل منا بنفسه ويصلي صلاة الشكر. لقد كنا أبطالاً ومسيحيين في سلوكنا. وخرجنا مظفرين من هذه المحنة المروعة «المجد لله».

وقال ناظر المدرسة:

- أما أنا فسوف أكتب للتلاميذ موضوعاً إنشائياً عن الشهادة والبطولة عند سلاله الإغريق.

خرج القسيس جريجوريس أولاً، شامخ الرأس، مخناً كتيس يتصدر القطيع. وسار من ورائه الشيخ بطريار كاس كالح الوجه جوعان. وفي أثره ناظر المدرسة مزهواً فخوراً بأن أبدى بسالة، ولم يصدر عنه ما يشين أسلافه. وجاء في المؤخرة لاداس العجوز رافعاً بيديه سرواله الذي قطعت تكته.

وصاحت العجوز الحذاء التي كانت تنتظرهم قرب الباب والمفتاح في يدها:
- هيا يا أكل الجبس. اخرج أنت أيضاً. أصبحت أرمل أيها التعس، وكذلك أصبح الأغافكن رفيقاً له.

وجأر السروجي:

- ليخرج كبار الحمير أولاً. سأخرج وحدي.

وقبض على يده ونهض:

- أيها القسيسون والأساقفة والسادة العمدة والأعيان وناظر المدرسة.. إنني أبصق عليكم جميعاً.

لم يستطع القسيس أن يكبح جماح نفسه أكثر من ذلك فرماه بقوله:

- يهوذا.

قال كلمته هذه ثم ولى مسرعاً.

وخف وراءه بانايوتي يريد اللحاق به ويشده من لحيته. ولكن القسيس كان قد سبقه إلى خارج البيت يرسم علامة الصليب في الفناء. وتبعه رفاقه الثلاثة يغذون السير.

أقبل الليل، وأقفرت الطرق، وآوى أهل القرية إلى بيوتهم، وجلسوا إلى مواعدهم يأكلون ويشربون، وازدادوا لأنفسهم هذا المساء كأساً على غير العادة احتفالاً بهذا اليوم المشهود، وتجاذبوا أطراف الحديث، تجري على ألسنتهم أسماء مانولي وحسين والأرملة والأغا ويوسوفاكي ومارثا العجوز. الشيوخ من الرجال يستعيدون ذكريات الماضي، والنساء يثرثن بالقليل والقال، والأطفال يتخذون مما حدث مادة لذكريات المستقبل.

جلس الشيخ بطرياركاس إلى مائدة حافلة بأطيب الطعام. استحم، وغير ملابسه، وتهندم، ولينيو تروح وتجيء في نشاط وبشاشة، متوردة الوجنات. أعدت دجاجة مسلوقة لسيدها، وحساء بالبيض والليمون حتى يسترد قوته. وجلس ميشيل قبالة أبيه يرقبه وقد أقبل على الطعام كذئب نهم، يلتهم ما أمامه في سعار، والعرق يتصبب فوق جبهته، وكله رغبة في أن يستعيد ما خسر من قوته. كان يرقب الشيخ في ذهول، وينصت له وهو يتحدث ويضحك ويمضغ. ثم يقول بينه وبين نفسه:

- ها هو ذا أبي! ها هو ذا أبي!

كان الشيخ يقول والطعام يملأ فمه:

- لقد أفلتتنا. الآن يا ميشيل، بعد أن وقفت وجهاً لوجه أمام ملاك الموت، عرفت ما هي الحياة.. يجب ألا تترك لحظة واحدة من الحياة دون أن تغتنمها يا بني. عليك يا بني أن تغتنم كل لحظة من حياتك، كل واشرب ومتع نفسك قبل فوات الأوان.. تخيل مثلاً أنني لم أنج فماذا كان مصير هذه الدجاجة، كنت سأخسرهما..

وظل ميشيل ينظر إليه صامتاً جزعاً، ويحدث نفسه:

- ها هو ذا أبي! ها هو ذا أبي!

وجلس القسيس جريجوريس في الفناء تحت التكمعية التي تدلت منها عناقيد الكرم. انكب بدوره على الطعام، يأكل ولا يهدأ جوعه. وهبت نسمة صيف عليلة، وتضوع عطر الريحان والياسمين. وأقبل عليه القط، يهر ويتمسح بساقيه. وقفت ماريوري بجانبه ممسكة بزق النبيذ، تملأ الكأس بعد الكأس لأبيها، ودموع الفرح تجري فوق وجنتيها الشاحبتين.

أكل الشيخ المبطان وشرب وتجشأ.

- لم يهن قلبي لحظة واحدة. تصرفت كقائد وممثل حق للرب في ليكوفريسي. تحدثت إلى الأغارب الجأش، ثابت الجنان، ودافعت عن المسيحية، وواجهت الموت في السجن ببسالة.. يحق لك يا عزيزتي ماريوري أن تكوني فخورة بأبيك. واتخذ لاداس العجوز مجلسه فوق الأريكة الحجرية في فناء بيته، حافي القدمين، بغير حزام حول وسطه. أخذ يلوك خبراً بغير إدام، ويمسك بين الحين والحين بزيتونة يمضغها في تأن وعلى مهل، ويتحدث بطلاقة إلى زوجه بنيلوب. قص عليها ما حدث بكل تفاصيله، فعل هو كذا، وفعلوا هم كذا، قال كذا، وقالوا له كذا، وأن المحنة كلفته كثيراً.

تأوه حين تذكر ذلك، وتملكه غضب، وعاد إلى حجرته. فتح خزانته، وأخرج منها دفاتر الحساب، ودنا بها ليقراها تحت ضوء عقب شمعة. بلل إصبعه بلعابه، وبدأ يقلب الصفحات ليرى من مديناً له بمال، وكم يبلغ دينه، وتاريخ السداد، وقيمة الفوائد. وابتسم في رضى.

- غداً صباحاً يا عزيزتي بنيلوب سأسترد كل أموالى. أفلت من بين برائن الموت وهأنذا نجوت، وحسبى ما قدمت من أفضال. أنا مدين لك، إذن لك أن تأكلني، أنت مدين لي، إذن لي أن أكلك.. بسرعة ودون إبطاء قبل أن تمضي بنا الحياة! ما رأيك في هذا يا عزيزتي بنيلوب؟

ولكن عزيزته بنيلوب لم تكثرث بما يقول، عيناها البليدتان نظران في هدوء إلى إبر التريكو وهي تعمل بها. بدت وكأن ملاك الموت يقف قبالتها، وتتعجل الانتهاء من عملها قبل فوات الأوان وتفرغ من الجورب الذي في يدها. لم تستشعرهما لغياب زوجها، مثلما لم تستشعر بهجة لعودته إليها، حين أقدم يطاً

بقدميه أرض الفناء من جديد، ويمسك بسرّواله، يهرش ويتحدث دون توقف.
طال الحديث بالناس في تلك الليلة. ظلت المصاييح مضاءة حتى انتصف
الليل. ثم أطفئت المصاييح الواحد بعد الآخر، وأغمضت القرية عيونها ثم أغفت
واستسلمت للنوم.

بعد أن أطلق سراح الأعيان، ترك ميشيل أصدقاءه وخف للقاء أبيه.
واقترح قسطندي على رفيقه:
- ما رأيكما لو ذهبنا ثلاثتنا لنأكل معاً في بيتي؟ ستكون فرصة نحتفل فيها
بقيامك يا مانولي.

كانت زوج قسطندي معتدلة المزاج ذلك المساء، إذ قضت يوماً من أيامها
الصفائية، فلم تزور عنهم حين أبصرتهم. شمّرت عن ساعديها، وأوقدت الفرن،
وانهمكت في إعداد العشاء. مدت السماط، وأحضرت النبيذ، ووضعت جرة
الماء في الهواء لتبرد.

وهمس قسطندي في اذن ياناكوس:
- أختك لا نظير لها الليلة، إنها تقبل على عملها في البيت كلما كانت صافية
المزاج، وهي لا نظير لها أيضاً إذا ما تكدر مزاجها. حمداً لله أن كان حظنا سعيداً
الليلة.

ثم قال بصوت عال:
- مرحباً بكم وأهلاً يا إخوتي.
وأجاب الضيوف:
- أهلاً بك. تحياتنا لبيتك وزوجك.
ثم أقبل ثلاثتهم، وقد عضهم الجوع، على الأكل والشراب، ووقفت بجانبهم
سيدة البيت تخدمهم.

رفع ياناكوس وقسطندي كأسيهما، وقرع كل منهما كأسه بكأس مانولي.
وقال كل منهما وهو ينظر إلى مانولي نظرة ود وحنان:
- المسيح قام.
ولكن مانولي لزم الصمت، لم يتكلم، ولم يتسّم. كان غارقاً في فكره. لا ريب

أنه كان سعيداً بنجاته، فلا زال على قيد الحياة يشارك أصدقاءه الأكل والشراب، يتجاذب معهم أطراف الحديث، وينعم ببرودة نسيم المساء حين يمس جبهته التي تنصبب منها العرق.. رغم أنه كان يتوقع لنفسه الليلة مكاناً آخر غير هذا المكان، وارتسم على وجهه حزن سماوي.

وقال ياناكوس:

- لا تحزن يا مانولي. الجنة جميلة حقاً، ولكن الأرض لا تخلو من جمال أيضاً..

ثم أضاف ضاحكاً:

- على الأقل لن تجد في الجنة قسطندي وياناكوس. ذلك لأن كلينا يا عزيزي الهمام قسطندي، سنذهب إلى الجحيم كما تشير بذلك كل الدلائل - ولكن لن نكون في الدرك الأسفل منها، وإنما على السطح. وضحك الثلاثة، وعادوا يملأون الكؤوس.

وقال قسطندي بصوت خفيض خشية أن تسمعه زوجته:

- أنا حزين على الأرملة المسكينة. لهفى على مثل هذا الجمال. أي مصير ينتظره.

قال ياناكوس:

- من يدري؟ ربما تسكن كاترينا الجنة مع مريم المجدلية الآن في هذه الساعة التي نتكلم فيها. تتأبط كل منهما ذراع الأخرى، وترتضان فوق العشب الخالد. تطلان على الأرض من عليائهما وتضحكان..

وقال قسطندي:

- بل ربما تتحسران، لأن كليتهما أحبت الحياة الدنيا كثيراً.. ماذا ترى يا مانولي؟

وأجاب مانولي:

- أنا أغبط الأرملة. أغبطها ولا أحزن عليها. لماذا الحزن؟ يقيناً أنها الآن تسير في الجنة تحف بها الملائكة، لا تتحسر على الأرض ولا تبتسم لها. لقد نسيتهما تماماً. ومحي هذا العالم الأرضي من ذاكرتها، مثلما محا الله الجذام من على صفحة وجهي فلم يبق منه أثر.

ترامت هذه الكلمات إلى سمع زوج قسطندي فتطلعت إلى وجه مانولي لأول مرة، كانت قد سمعت أنه تورم وغطاه الجذام، ولكنه الآن نظيفًا وضاء المحيا. كانت على وشك أن تسأله كيف حدثت هذه المعجزة، لكن الرجال استرسلوا في حديثهم، وهي اليوم ذات مزاج معتدل فلم تشأ أن تعكر عليهم صفو الحديث. وقنعت بأن توليهم أذنها تنصت لما يقولون. وما إن تطرق حديثهم إلى الأرملة حتى تململت في مكانها، وكشفت عن أنيابها لتعضهم بأسنانها ولكن ما لبثت أن زمت شفيتها، وأقلعت عن عزمها.

وتساءل قسطندي:

- وماذا عن حسين الحارس المسكين يا مانولي؟ كان كلبًا مسعورًا رغم أنني آسي عليه في أعماق نفسي..

وأجاب مانولي:

- لو كان مسيحياً وتاب وأناب، فمن يدري؟ فإن الله قادر أن يضع يده سبحانه على رأسه ويقول له: «مغفورة لك خطاياك لأنك أحببت كثيراً».

وصاح ياناكوس:

- لو كان الأمر كذلك وعلى نحو ما تقول، إذن سيدخل الجنة في خاتمة المطاف كل الخطاة واللصوص والقتلة.

وتمتم مانولي:

- الجنة للخطاة.

وقال قسطندي الذي بدأ ينتشي:

- إذن لنشرب في صحة حسين الحارس. لنشرب أيضاً في صحة الأغا، هذا الأرملة التعس. ذلك لأنه هو الآخر أحب كثيراً. لنشرب في صحة يوسفافي الذي مات ميتة ظالمة! هل اقترف إثماً هذا المسكين؟ كان يمضغ اللبان ويغني أمان. ماذا فعل غير هذا؟

وقال ياناكوس وهو يقهقه:

- وحتى لو كان فعل ما هو أكثر، فإنه لم يمس غيره بضر، وربما يعود ذلك عليه بالخير العميم.

أوماً إليه قسطندي بإشارة من يده ليسكت، وغمز له بعينه ناحية زوجته التي

كانت تطل من النافذة وتظاھر بأنها تتطلع إلى النجوم. وفھم ياناكوس ما یعنیه، ولزم الصمت.

وقال قسطندي:

- لنشرب نخب من تشاءون فیما عدا ذلك العجوز لاداس أو القسیس جریجوریس، فھذا محال.

وصاح ياناكوس وقد لعبت الخمر برأسه:

- ولم لا؟ إن نبیذك جید یا قسطندي، وسأشرب نخبھما أيضًا.

وعاد یملأ الكأس، وأفرغھ فی جوفه دفعة واحدة وقال:

- فی صحة الأب لاداس، ولیكن الجحیم مثواه.

ثم ملأ الكأس ثانية وتجرعه دفعة واحدة وقال:

- فی صحة القسیس جریجوریس، ولیكن الجحیم مثواه أيضًا.

ثم عاد یقول:

- هل ثمة آثم آخر نحتفی به ونشرب نخبه؟

شربوا نبیذاً بوفرة، وفاضت قلوبھم عاطفة، وامتلاّت جوانحھم حباً.

وتحدث مانولي إلى نفسه قائلاً:

- المسیح مثل النبید، یفتح قلب الإنسان حتی یسع العالم كله. وھكذا یفتح

أبواب الجنة حتی یجد كل الخطاة مكاناً لهم فیھا..

وتطلع إلى رفیقیه فی مودة وحنان، وقد تماسكت أذرعھما ویضحكان فی

صخب.

وقال ياناكوس:

- وبانايتي! نسینا یهوذا. فی صحته یا یعقوب الرسول.

وأجاب قسطندي:

- فی صحته یا بطرس الرسول.

وتجرعا كأسیھما.

استدارت إلیھما زوج قسطندي. فقد أوشكا أن یعبا كل ما لیدیھا من نبید. وبدأ

الغضب یعرف طریقھ إلیھا.

وقالت بلهجة صارمة:

- أفرطت في الشراب يا قسطندي.
وانكمش قسطندي على نفسه وقال:
- حقاً. لا تغضبي يا زوجي. آتنا جرة الماء نتبرد بها.
قصدت المرأة البئر. ووضع قسطندي إصبعه على شفتيه. وقال هامساً:
- حذار يا أصدقائي .. بدأت تغضب.
وقال ياناكوس:
- هيا ننصرف. لننصرف من هنا. لا داعي لأن نورطك في مشكلة.
- لا، لا. أمكثا ولنلزم الهدوء. لنشرب ماء في صحتها ربما تطيب نفسها لهذا
وتهدأ. أنت لا تعرف النساء يا ياناكوس.
وعادت زوج قسطندي تحمل الجرة. أخذت الأكواب وغسلتها ثم ملأتها بماء
بارد. رفع الرجال أكوابهم وشربوا نخبها.
قال ياناكوس:
- في صحتك يا أختي العزيزة. سقاك الله من رحيق الجنة وأثلج صدرك مثلما
سقيتنا الليلة وأثلجت صدورنا. لا يوجد في الدنيا أخت ولا زوجة خير منك،
حيثما ذهب قسطندي فإنه يتغنى بفضائلك.
وقال قسطندي في جبن:
- في صحتك يا زوجي.
ثم غمز بطرف عينه إلى أصدقائه وقال:
- أقسم لك أنني أفضل أن أذهب معك إلى الجحيم ولا أبقى وحدي في الجنة.
وقال مانولي:
- في صحتك يا سيدتي. عفوك. يومنا يوم عظيم إذ نجت قريتنا. سيعوضك
الله خيرًا عن هذا اليوم الذي أزعجناك فيه.
وشربوا وأحسوا بالانتعاش. وخبث النار في عروقهم شيئاً ما. وأخرج
قسطندي كيس التبغ من جيبه ولف سيجارة ثم ناول الكيس لرفيقه. ونهضوا
من مكانهم بعد ذلك وخرجوا إلى الفناء حيث جلسوا فوق الأريكة الحجرية..
وبدأت الزوجة تنظف المائدة وهي تغمغم بكلمات مبهمة.
كان الجو عطراً، تفوح من السهل رائحة القمح الناضج. وفي وسط الفناء تعلو

شجرتان، وتضوع الليل برائحتهما.
ترامى إل سمعهم وقع خطوات تقف عند الباب وإذا بطارق يطرقة. ونهض
قسطندي دهشاً.

- أنا يا قسطندي. افتح. أنا ميشيل.

تهلل قسطندي وفتح الباب وبانت ملامح ميشيل في غبش الليل. وقال:
- تركت أبي الشيخ بعد أن أكل وشرب ونام. تركته وأتيت إليكم من فوري.
واتخذ ميشيل مجلسه في هدوء بجانبهم فوق الأريكة الحجرية. وسرعان ما
أحس بسكون رقيق يحتويه، فآثر الصمت، إذ لم يرغب في أن يعكر صفو هذا
السكون.

أسند مانولي رأسه إلى الجدار. وبدأ يحملق في النجوم، وأصبحت نفسه
كصفحة السماء الساطعة بضوء النجوم، ثم علا صوته رقيقاً وسط سكون الليل:
- العبد في تفكير والرب في تدبير. لم يشأ لي أن أموت هذه الليلة وأرحل
عنكم يا إخوتي. من يدري؟ لله حكمة في ذلك. لعل لنا بقية من حياة على هذه
الأرض، ولا زال مقدوراً علينا أن نجاهد ابتغاء خلاص الروح.. إيه.. اتخذت يا
إخوتي هذا المساء قراراً حاسماً.

فرغ من كلماته هذه ثم رفع نظريه إلى السماء يتطلع إلى الطريق اللبني.
بدأ قسطندي وياناكوس يفيقان. أخذت أبخرة النبيذ تتصاعد إلى رأسيهما
تسري في جسدهما ويشيع معها دفء حلو. لمس ميشيل ركبة مانولي كأنما يريد
أن يقول له:

- وأنا معك أيضاً.

كانوا وحدهم وسط هذا الظلام في عزلة عن العالم كله. النسيم عليل. والنجوم
من فوقهم ينعكس ضوءها الواهن على صفحة وجوههم فيضيئها. والظلام يلفهم
حتى لا يكاد يميز أحدهم الآخر.

استجمع مانولي شجاعته وقطع السكون بصوته:

- في أول عهدي بالدير، وقبل أن يأتي الشيخ بطرياركاس ليخرجني منه إلى
الحياة الدنيا، كنت جالساً ذات يوم إلى جانب معلمي الأب ماناس - أتمنى له حظاً
سعيداً إن كان لا يزال حياً، وأسكنه الله فسيح جناته إن كان ميتاً.. - قص عليّ في

ذلك اليوم مغامرة قال لي إنها حدثت لصديق له من الرهبان. ونسيت هذه القصة طوال الأعوام الماضية، ولكنني هذا المساء أراها تعود إلى ذاكرتي ولا تبرحها، ولعل الله وحده هو الذي يعلم لماذا..

وفجأة قطع مانولي كلامه، إذ ألقى رفاقه صامتين وهو لا يكاد يستبين وجوههم وسط ظلام الليل. فقال:

- هل بكم رغبة في النوم؟
أحس قسطندي كأن في قوله هذا إهانة.
فقال:

- حاشا لله. لماذا تقول لنا ذلك يا مانولي؟
وقال ياناكوس بدوره:

- كلنا آذان صاغية كما لم تكن كذلك من قبل يا مانولي، لا تجرح مشاعرنا.
استمر.

- حسنًا. كأن حلم حياة هذا الراهب - صديق معلمي - أن يمن الله عليه بوسع رحمته ويزور القبر المقدس، ويسجد أمامه. فبدأ يطوف بالقرى يجمع الصدقات. ومضت السنون وهو على هذا الحال حتى أصبح شيخًا، وجمع خلال هذه الفترة ثلاثين جنيهاً، وهو قدر من المال يفي بحاجته للقيام برحلته. واعترف. واستأذن معلمه، فأذن له، وبدأ رحلته.

ولم يكد يخرج من الدير حتى أبصر رجلاً فقيراً، مهلهل الثياب، شاحب الوجه، حزيناً، منحنياً على الأرض يجمع الأعشاب. وما إن سمع الفقير عصا الحاج تدب على الحجارة حتى رفع رأسه وسأله:
- إلى أين يا أبانا؟

- إلى القبر المقدس يا أخي، في أورشليم. سأطوف به ثلاثاً ثم أسجد أمامه.
- كم من المال معك؟
- ثلاثون جنيهاً.

- أعطينيها، فإن لي زوجاً وأطفالاً يتضورون جوعاً. أعطينيها وطف حولي ثلاث مرات، ثم اركع أمامي واسجد، وارجع بعد ذلك إلى الدير.
أخرج الراهب الجنيهاً الثلاثين من حافظته وأعطاهما كلها للفقير، وطاف

حواله ثلاثًا، وركع وسجد أمامه. ثم عاد بعدها إلى الدير.
أطرق مانولي برأسه وصمت. وكان رفاقه الثلاثة لا يزالون يصغون إلى صدى
كلماته داخل نفوسهم، ولزموا الصمت أيضًا، وقلوبهم تفيض وجداً.

رفع مانولي رأسه وقال:

- علمت بعد ذلك أن الراهب الذي عزم على السفر ليحج إلى القبر المقدس
هو معلمي نفسه، الأب ماناس. وأبى، تواضعًا، أن يقول لي ذلك صراحة. وها أنذا
الليلة، وبعد هذه السنين الطويلة، عرفت من هو ذلك الفقير الذي التقى به معلمي
فور مغادرته للدير.

صمت مانولي، إذ بدأ صوته يتهدج. ودنا رفاقه منه وهم جلوس فوق الأريكة
الحجرية. وسألوه في لهفة:

- من هو؟

وتردد مانولي لحظة. وأخيرًا سقطت كلمته من فمه كثمرة ناضجة تسقط في
الحديقة وسط سكون الليل:

- المسيح!

وهب الرفاق الثلاثة وقوفًا. خيل إليهم وكأن المسيح ظهر أمامهم في عتمة
الليل، حزينًا، فقيرًا في لباسه، مضطهدًا من البشر، دامي القدمين من طول المسير،
طريدًا بغير مأوى. وأنسوا في نفوسهم رهبة وفرحًا من هذا الحضور الخفي.
ولبثوا ساعة لا ينبسون ببنت شفة. إذ ماذا يقولون؟ وإلى من ينظرون أو يوجهون
الحديث؟ لم يبصروا أحدًا. ومع ذلك شعروا به يملأ عليهم وجدانهم كأنهم لم
يروا كائنًا واقعيًا محسوسًا مثل ما كان هذا الحضور الخفي الذي جلس بينهم في
شكل إنسان متواضع غاية التواضع.

وكان ياناكوس أول من فتح فاه. وصاح وعيناه تدققان النظر في الظلام.

- من هناك؟.. من هناك؟

قالها وكأن ثمة طارقًا بالبواب. ثم عاد يسأل ثانية ويده ممدودة في الظلام:

- من هناك؟

تحركت أوراق شجرة التين، فسمع لها حفيفًا. وتضوع الليل ثانية بشذى
القمح وزهر العسل والتين وملأوا صدورهم بهذا الأريج. وشعر كل من الرفاق

الأربعة كأن الحضور الخفي يسري في جسدكم من رأسهم حتى أخمص القدم. وتذكروا طفولتهم، يوم كانت القلوب نقية، وكيف كان هذا الحضور الخفي ذاته يسري في نفوسهم ويستحوذ عليهم بعد التناول في يوم الجمعة الحزينة. أحس ميشيل برغبة في أن يعانق صديقه مانولي، ولكنه أمسك عن ذلك وقال له:

- مانولي.. في اللحظة التي رأيتك فيها تخرج من بيت الأغا موثوق اليدين من الخلف تسير هادئاً طروباً، ثابت الجنان لتواجه الموت من أجل خلاص القرية، أحسست بأن هواءً جديداً ونوراً غريباً يحف بك. خلّتك وكأنك أصبحت سامقاً، رقيقاً كاللهب. ووطدت عزمي منذ تلك اللحظة، حيثما تذهب سأتابعك، وحيثما تقودني سأكون وراءك، وبأي شيء تأمرني به سأكون طوعاً أمرك. وصمت لحظة.. وبدا عليه التردد. ثم عاد يقول بنبرة حازمة وبصوت يكاد يكون همساً:

- الآن بعد أن رأيت أبي وهو يأكل ويشرب وينام أحسست بأنني أقرب إليك منه يا مانولي، وأكثر ارتباطاً بك. إني مدين لك من الآن بالطاعة دونه. حاول ياناكوس وقسطندي الكلام، ولكن اختنق صوتهما فانخرط في البكاء. ظهرت زوج قسطندي عند عتبة الباب. سمعت نشيجهم، فهزت رأسها، ودخلت ثانية. وأمسك مانولي بيد ميشيل، وضغط عليها بين راحتيه. وقال:

- يا أخي أنت خير مني، وأكثر نقاء، وأقرب إلى المسيح. لا تزعجك وساوس الشيطان، وتهتدي إلى الصراط المستقيم على نحو أكثر مني بساطة ويقيناً. كان دون ما أبغي مجاهدة نفس ومكابدة لا ينتهيان، ورغم ذلك لم أبلغ الغاية - أما أنت فقد بلغت غايتك بخطوات ثابتة ودون أن تتقطع منك الأنفاس. وتضحيتك عزيزة المنال. لك بيت شريف، وأب هو سيد القرية، ولك جاه وثروة، وحسب ونسب. أما أنا فليس عندي ما أضحي به قرباناً للرب، ومع ذلك فإني أذوق العذاب ألواناً من أجل التضحية بهذا اللاشيء.. وها أنذا مثل معلمي الأب ماناس، أنا الإنسان الحقير الشأن، أضع لنفسي خططاً طموحة تقصر دونها همتي. ضاقت عليّ المرعى، كما ضاقت عليّ القرية. كنت أتحرق شوقاً لكي أركب سفينة ضخمة أبحر بها إلى نهاية العالم بحثاً عن الخلاص. توهمت أن القبر المقدس هناك في

الطرف الآخر من الدنيا، تفصلني عنه بحار وقفار، فاحتقرت هذا الركن من العالم الذي أُنبتني فيه الرب.. أما الآن فأدركت الحقيقة: المسيح موجود في كل مكان، يجوب القرى ويطرق الأبواب، يقف أمام قلب كل منا يسأله الصدقات. إنه فقير جائع شريد، هكذا هو المسيح وهكذا يقف على مشارف قريتنا التي يسكنها وينعم بخيراتها أناس مثل الأغا ولاداس والقسيس جريجوريس. إنه فقير وله أطفال جوعى. يتسول ويطرق الأبواب ويناجي القلوب، فلا يلقى غير الصدود جواباً، يطردونه من باب إلى باب، ومن قلب إلى قلب.

نهض مانولي مشرق الوجه وسط عتمة الليل.

وصاح برفاقه قائلاً:

- يا إخوتي أولى بنا نحن أن نرحب به، ونفتح له أبوابنا وقلوبنا. لم أكن أراه أو أسمعه قبل ذلك. أما الآن فإني أراه وأسمعه. بالأمس حين أتاني ياناكوس يزورني في خلوتي، كنت أسمعه يناديني باسمي واضحاً. ونزلت إلى القرية، حسبته دعاني إلى الموت. ولكن لم تكن لهذا دعوته لي. وعرفت السبب الآن واتخذت لذلك قرارى.

وارتفع صوت وسط الظلام. يبدو أنه كان صوت قسطندي يقول:

- أي قرار هذا يا مانولي؟

وقال مانولي بعد لحظة تأمل:

- أي قرار؟ كيف لي أن أعبر عنه بالكلمات؟ إني عاجز عن ذلك. أحسب أنني لا أستطيع أن أعبر عنه قولاً بل عملاً، إذا ما شاءت إرادة الله ذلك. يا إخوتي، وطدت العزم على أن أغير حياتي تماماً، وأقطع صلتى بالماضي، وأرحب بالمسيح، وألزم صحبته على طول الطريق. سأكون المبشر به، وأمشي أمامه أنفخ في النفير وأصيح بالناس. أما ماذا سأقول فهذا ما أجهله الآن، ولست أعبأ بذلك. فعندما أفتح فمي، سيضع المسيح كلماته الصادقة على لساني. هذا هو قرارى يا إخوتي الذي وطدت العزم عليه.

وسكت. وانقضت فترة طويلة من الزمن لا تسمع فيها نأمة في الفناء سوى حفيف أوراق شجرة التين. ثم عادت الأصوات تعلو والأسئلة تتردد من جديد.

فسأل ياناكوس:

- وماذا عنا نحن؟ أنا وحماري وبضاعتي وتجارتي التي أتكسب منها؟
وقال قسطندي:

- وأنا ماذا عن زوجي وأطفالي ومقهاي؟
وقال ميشيل:

- أنا لا أطرح سؤالاً. فقد اتخذت قراري مقدماً. اتخذته هذا المساء قبل أن
آتيكم: سأترك بيت أبي.

لزم مانولي الصمت. إنه يستطيع أن يميز وجهي ياناكوس وقسطندي على
ضوء النجوم يتفحصان وجهه في تساؤل، ويتلهفان الحصول على الإجابة ولكن
بماذا يجيب؟ كيف يتخذ لهم قراراً بنفسه، ويقلب حياتهم رأساً على عقب؟ فكل
امرئ ساعة موقوتة يجد فيها الخلاص لنفسه. وكل إنسان هو الحكم، وحده دون
سواه، وهو وحده القادر على أن يقرر كيف ومتى يكون الخلاص.
وتكلم أخيراً وقال:

- يا إخواني، قرار الإنسان مثل ثمرة الشجرة. تنضج في صبر وأناة، متأثرة
بأشعة الشمس والمطر والرياح. وتسقط إذا ما حانت ساعتها. تجملوا بالصبر
يا إخواني. لا تسألوا أحداً سوى أنفسكم. ستحين ساعتكم المباركة أيضاً- وهنا
ستشعرون أنكم لستم بحاجة إلى سؤال إنسان، ستجدون أنفسكم في هدوء
وسكينة، تهجرون الزوجة والأطفال والأقارب والتجارة. ستعتقون أنفسكم من
كل هذه الجواهر التافهة وتهتدون إلى الجوهرة العظمى، إلى المسيح.
وقال ياناكوس:

- إنك أنت الذي تهدينا إلى الطريق يا مانولي. أريد أن أتبعك.

وقال مانولي وهو يضغط على يد صديقه المتسرع:

- لا تتعجل يا ياناكوس. دعني أناضل وأكابد وحدي، ولأكن أول من يبدأ.
وبسط قسطندي ذراعه كأنما يريد أن يستوقفه وقال:

- لن تنصرف. لن ترحل عنا!

- وإلى أين أذهب يا قسطندي؟ هل نسيت أين اهتدى معلمي إلى القبر
المقدس؟ إن من يناضل ويكابد فوق قطعة من الأرض فإنه يناضل ويكابد فوق
الأرض كلها. سأكون معكم دائماً. هنا في ليكوفريسي، وفوق الجبل، فوق أرضنا

نحن. اختار لنا الرب بواسع رحمته هذه البقعة من الأرض وأمرنا بأن نكافح هنا ونجاهد. كل بقعة من بقاع الأرض هي أيضاً قبر مقدس.

مرة أخرى خرجت زوج قسطندي، ووقفت عند عتبة الباب، وغمغمت بشيء. وقف مانولي وتطلع إلى النجوم وقال:

- يا إخوتي، انتصف الليل. حان الوقت لكي أعود إلى الجبل. كان المسيح معكم، فإلى اللقاء.

وقال ياناكوس:

- سننصرف نحن أيضاً. أحسب أن أختي تريد أن تنام.

وقالت هي في ضجر:

- تجاوزنا منتصف الليل.

حيا الثلاثة سيدة البيت تحية المساء وحاولوا أن يلاطفوها بكلمات ودود.

وأسفوا إذ سيتركون قسطندي أعزل بين برائتها.

وقال قسطندي وهو يصحبهم حتى باب البيت:

- طيبتم مساء يا أصدقاء. إلى اللقاء. رعاكم الله.

وتمتم ياناكوس بعد أن أغلق الباب:

- مسكين أنت يا قسطندي! لا أتمنى لنفسي أن أكون مكانك.

كانت القرية غارقة في نوم عميق، يلفها ليل الربيع الساجي الأنيس. ونبح كلب

على البعد. وومضت النجوم كنصال السيوف فوق رؤوس الرفاق الثلاثة.

ساروا طريقهم كله في صمت تام. إذ ماذا بقي لهم من كلام؟ لقد قالوا كل

شيء.

وأخيراً سار مانولي وحده، بخطوات خفيفة سريعة، كأنما حملته أجنحة

الملاك ثانية، قاصداً الجبل. واتخذ الطريق الصاعد.

عربة من نار

بينما البعض من بني البشر أضلته الحياة الدنيا وأعمته الشهوات، والبعض الآخر يكابد في نصب ليعلو فوق طبيعته البشرية ابتغاء ملكوت السموات، كانت سنابل القمح تنضج على عودها في هدوء ووداعة وأثقلها الحب فانحنت إلى الأرض تنتظر الحصاد.

ومع مطلع الفجر خرجت الفتيات حاملات مناجل الحصاد، وتفرقن وسط السهل، وعصبن رؤوسهن بمناديل بيضاء لتقيهن حرارة الشمس. وطوى النسيان الخطر الذي أحرق بالقرية وهزها من الأعماق. وبدأت الفتيات يثرثن بأصوات خفيفة وتند عنهن ضحكات عالية، حيناً يذكرن الأرملة، فتحمر وجناتهن لذكرها، وحيناً يذكرن حسيماً وكيف رأيته صباح الخميس معلقاً على شجرة السنار عارياً من أسفل، خصياً بصورة مخجلة، وكانت الجثة المعلقة على الشجرة تهتز مع حركة الريح، فيسمع لها صرير، وعض القتيل على لسانه الذي تدلى من فمه أحمر قائماً.

وتألفت وجوههن عندما جاء ذكر مانولي على ألسنتهن. وتذكرن كيف طارد الأغا أمهاتهن من الميدان وهولن في هلع إلى بيوتهن، وطفقن بعدها يتحدثن عن مانولي وكيف ظهر عند باب الأغا عزيزاً متكبراً، رشيقاً أشقر الشعر كأنه ملاك. وقلن يومها «شنع أهل السوء عليه حين زعموا بأن الجذام شوه وجهه، كذب وبهتان يا عزيزتي، كلها أكاذيب وافتراءات، كان وضاء المحيا كأنه شمس الضحى».

شقت الفتيات طريقهن وسط الحقول وأقبلن على عملهن بالمناجل يحصدن القمح حتى تمتلئ أحضانهن بالحب ثم يكسونه أكواماً عالية خلفهن. لم يتوقن أبداً، رغم العمل، عن الثروة وتبادل النكات الماجنة عن شباب القرية، ويتخذن من نقائصهم مادة للدعابة والمرح.. هذا له حذبة، وذاك مقوس الساقين، وآخر مصاب بتأتأة في الحديث.. ويضحكن من أعماق قلوبهن.

وخرجت زوجة بانايوتي أيضاً ومعها ابنتها بيلافيا وكريسولا لحصاد حقلهن الصغير المتواضع. ترى الزوجة وقد أثقل قلبها الحزن، مترهلة الجسد، زامة شفتيها في مرارة، طاعنة في السن قبل الأوان، مرتدية ثياب الأرملة التي فقدت زوجها فعصبت رأسها بمنديل أسود، سارت في المقدمة كسيّفة البال واجمة. لماذا جاءت إلى الدنيا، وماذا جنت في حياتها حتى يعاقبها الرب الرحيم وبيتليها بما هي فيه من شقاء؟ أي ذنب جناه زوجها حتى يلقي به إلى الحضيض ويصبح الإنسان السكير المحطم أضحوكة القرية؟ كان في شرخ شبابه جديراً بكل خير، مقلداً في كلامه، مجدداً في عمله، حياً لا يجرؤ على أن يرفع عينيه إليها إذا ما تصادف مروره أمام بيتها وهي من يطمع في الزواج بها. كانت الابنة الوحيدة لأسرة واسعة الثراء وهو فقير، وذات يوم أرسل إليه أبوها، الذي رحل عن الدنيا الآن، وقال له: اسمع يا بانايوتي، إنني أحبك، أنت فقير حقاً ولكنك مجد، وفي، أمين. أعرف أنك تحب ابنتي، خذها فهي لك وإنني أبارك زواجكما. وتزوجها، وسارت الأمور على خير وجه، حتى كان ذلك اليوم المشئوم حين اعترضت الأرملة طريقه. وتمتت قائلة:

عليها اللعنة هذه الزانية، هي سبب كل ما حدث.. إلهي هل تسمع دعاء الصالحات المحصنات من النساء؟ إن كان كذلك فاسمع دعائي: «أسألك اللهم أن تلقي بها إلى الجحيم لتحترق مع يهوذا خالدة فيها أبداً».

ولكنها لم تكذبفوه بهذا الاسم حتى اقشعر بدنهما. خيل إليهما وكأنها تدعو الرب أن يجمع بين الأرملة وزوجها الذي يلقبه الناس بيهودا، وأن يكون لقاء خالداً إلى أبد الأبد، حتى ولو كان هذا في الجحيم. وجمدت في مكانها في حيرة وهلع. وخلفها ابتناها، سمراوين، ملفوفتي القوام، غندورتين، يغطي وجناتهما وشفتيهما

العلويتين زغب أسود رقيق، وتفوح منهما رائحة عرق نفاذة، تثرثران وتضحكان.

وقالت كريسولا وهي الأخت الصغرى:

- أُمي عاودتها بعض أفكارها التي تنوشها. انظري إليها كيف جمدت في مكانها.

وقالت بيلافيا ضاحكة:

- أراهن أنها تذكرت الأرملة.

وضحكت الأختان بملء فيهما.

مر بهما الأب لاداس، حافي القدمين، مقوس الظهر، غارقاً في فكره، وحانت منه التفاتة فوق بصره عليهن وهن يطان أرض الحقل الهزيل ومناجل الحصاد في أيديهن.

فسأل الأم:

- هل هذا حقلكم؟ أليس لكم غيره؟

وأجابت الأم وهي تتنهد في حسرة:

- هذا كل ما نملك يا أب لاداس. بعنا كل ما كان لدينا ولم يبق لنا غير هذا.

ألقي الأب لاداس نظرة إلى رقعة الأرض، وقدر مساحتها بعينه، وخمن ما يمكن أن تغله من حبوب، وهز رأسه المعروقة، وسار في طريقه دون أن ينبس بكلمة. كانت إهانات بانايوتي ما زالت تطن في رأسه، تطوف بخاطره كل صباح، ويقسم مع كل صباح أن يستولى على كل ما بقي لديه من أرض أو كرمة عنب: «سألقتك درساً في معنى الأمانة والوفاء أيها الكلب القذر، حتى تعرف من هو لاداس على حقيقته».

سار في طريقه، يقف قليلاً عند كل حقل، ويقدر في ذهنه ثمنه وغلته. إذ اعتاد أن يخرج كل عام مع موسم الحصاد ليقوم بجولة استطلاعية بين الحقول، ويعيد الكرة مع موسم قطف العنب، ويكررها مع موسم جمع الزيتون، وأصبح عقله سجلاً يثبت فيه كمية القمح والنبذ والزيت الذي يجنيه كل واحد من أبناء القرية ليعرف إن كان سيجني ما يكفيه مؤونة عامه أم أنه سيضطر إلى الاقتراض. ويدبر الأب لاداس أمره، ترى هل يقرض هؤلاء؟ وإن كان كذلك فكم وبأي فائدة؟

هكذا كانت عادته كل عام. وخرج الشيخ لاداس اليوم ليبدأ جولته، ولكنه هذه المرة تساوره رغبة محمومة في الاستيلاء على كل شيء، فمنذ اليوم الذي أفلت فيه من بين براثن الموت استبد به جنون التملك، تملك أكبر قدر ممكن من الحقول وبساتين الكرم وأشجار الزيتون، وجمع كل ما تصل إليه يده من عملات ذهبية في خزائنه، ما دامت هناك بقية من حياة له على ظهر الأرض. وشد حزامه حول بطنه أكثر من ذي قبل - وبدأ منذ البارحة بأن اقتطع جزءاً من الزيتون الذي يتناوله كفاتح للشهية - ويكتفي الآن بشرب الماء الذي من به عليه الرب الرحيم. وقر عزمه على أن يصرف النظر عن الملابس حتى لا ينفق ماله بغير وجه حق، وطفق يكرر على مسامع رفيقة حياته التي تجلس قبالة واجمة غير مكترثة بشيء في الحياة «لم يعد هناك وقت يا عزيزتي بنيلوب، قد توافيني المنية، لذا لا بد وأن أتعجل. ماذا ترين في هذا يا عزيزتي بنيلوب؟».

وبينما كان الرعايا وبناتهن مقبلين على العمل في الحقول لحصاد القمح تحت وابل المطر الذي يتساقط هنا وهناك فوق السهل، كان الأغا حبيس داره. لزم القاعة الكبيرة، يهيم على وجهه فيها، يذرع القاعة جيئة وذهاباً مخموراً، حيناً تتعثر قدمه فيسقط على الأرض سطيحاً، وحيناً آخر يتربع فوق حشيشته ويقضي سحابة نهاره عازفاً عن الأكل والشراب، مقبلاً على تدخين غليونه، متأملاً الحياة الدنيا الباطلة وعبثها وهو ينعم النظر إلى سحابات الدخان تتصاعد من غليونه حلقات متتابة ثم تختفي في الهواء.

وذاذ صباح نهض الأغا فجأة، وارتنى ملابسه، ودعا العجوز الحدباء وقال لها:

- اسمعي يا صديقتي، أسرجي الفرس، وضعي زاداً من الخبز واللحم في الخرج، ولا تسي زجاجة العرقي. إني مسافر إلى المدينة، ومن هناك سأستقل الآلة الشيطانية إلى سميرنا. ارعي البيت، ولا تسمح لي لأحد بالدخول، وقبل كل شيء حذار أن تشم قطعة رائحة عن سفري، وإلا فالويل لك أيتها التعسة، سأقطع أنفك وأذنيك وحدتك. هل تسمعين ما أقول؟

وأجابت العجوز مارثا:

- سمعًا وطاعة يا أغا، سافر على بركة الله.

وردت في سريرتها: «مسافر ليأتي بيوسوفاكي آخر من سميرنا، عليه اللعنة».

وبعد أن جن الليل، واطمأن الأغا إلى أن لن يراه أحد، امتطى صهوة فرسه

وسرى خلسة إلى خارج القرية.

وتتمم الأغا بكلمات لطم معها خده:

- ليعلم أنني قضيت أيامًا طويلة قبل أن أفكر فيما أنا ذاهب إليه، إنه يستحق

كل هذا.

بعد أيام انتهى الحصاد، ورفع الفلاحون أكوام القمح إلى حيث آلات الدرس،

وبدأوا درس الحبوب وتذريتها ثم تخزينها، وأخذ بانايوتي كل حصيلته من القمح

إلى الطاحونة وطحنها، وحمل الدقيق إلى بيته، وأمر زوجته وابنتيه أن يبدأن عججن

الطحين وخبزه. وبعد أن تم له ما أراد أخرج مسدسه من مخبأة وتوسط فناء البيت

وشرع يطلق مسدسه في الهواء. عرفت القرية بغياب الأغا، وتجراً بانايوتي ولم

يعد هناك من يخشاه، وكان بين كل طلقة وأخرى يصيح في وجه زوجته وابنتيه.

- بره، اخرجن، اغربن عن وجهي. إلى الشيطان، أريد أن أبقى وحدي.

وتدخلت جاراتهن وجثون عند قدميه يسترحمنه بعائلته، بينما وقفت زوجته

وابنتاه ينتحبن. ولكن كل هذا ضاعف من ثورته وبدأ يصيح في هياج: «بره،

اخرجن وأمسك بهن من شعورهن، وجرهن إلى خارج البيت، وأغلق باب بيته

عليه بالقفل والمزلاج. وبعد أن أصبح وحده أخرج دمجانة العرقي من المخزن

وبعض السجق والجبن، وصف الأرغفة الساخنة حوله في شكل دائرة واستلقى

وسط الفناء تحت ظل شجرة الزيتون.

وبدأ يأكل ويشرب، وبين الحين والآخر يستل مسدسه ويطلق طلقة في الهواء،

يستلقى بعدها على ظهره نصف عاري، ويخرج لسانه إلى السماء ويصيح: خذ

هذه لك، أيها الخنزير. ثم يقبل على الأكل والشراب من جديد.

اعتاد الجيران سماعه أيامًا وليالي متصلة وهو يخور ويطلق الرصاص في

الهواء، وبين الحين والحين يرفع عقيرته بالغناء. وبع صوته مع الأيام وتناقصت طلقات الرصاص. وذات يوم اختلس الجيران النظر إليه من خصاصة الباب فأروه مستلقياً على ظهره، عارياً تماماً، وقد لطح القياء لحيته الحمراء، ويصرخ بصوته الأبح متحدياً السماء: «خذ، هذه لك، أيها الخنزير».

وفي صباح اليوم التالي لم يسمعوا غير طلقة واحدة من المسدس تبعها أنات خرساء وتنهدات مكتومة ثم كان صمت مطبق ثقیل. وتجمع الجيران ونظروا من خصاصة الباب: كان بانايوتي منكفئاً على وجهه، جامداً بغير حراك وحوله القياء والطعام وسط بركة من البول.

وقال أندونيس الحلاق:

- هيا نكسر الباب ونفتحه، إذ لو كان ميتاً فإن جثته سيصيبها البلى والعفن وتشر المرض في كل أنحاء القرية.

وقال الشماس:

- يجب أن نستدعي أولاً القسيس جريجوريس.

وانطلق يعدو في الحال.

كان القسيس جريجوريس ما زال يذكر الإهانات التي وجهها إليه بانايوتي في السجن، فأصدر أمره قائلاً:

- اكسروا الباب وافتحوه عنوة، لا بد وأنه أسلم الروح وأخذها الشيطان.

ادفنه أنتم، فليس عندي ما أقدمه له.

كسرت زوج بانايوتي وابنتها الباب، وانتشلن السروجي من وسط القذر الذي أحاط به، وحملنه إلى داخل البيت، وأرقدنه فوق حشية. كان شاحباً شحوب الموت، هزيراً إذ فقد نصف وزنه. ويبدو أنه تمرغ فوق شظايا من الزجاج المكسور، إذ تغطي جسمه جروح كثيرة. ولكن ما زالت فيه بقية من الحياة. وأقبلت زوجته عليه تغسله كما تغسل حصاناً، وابنتها تحلان دلاء الماء من البئر وتصبانها فوقه. وبدأ فيق رويداً رويداً، وفتح عينيه، ولم يكذبصره يقع على زوجته وابنتيه وهن يحطن به حتى ثارت ثائرتة من جديد وصاح غاضباً:

- اخرجن.. اخرجن..

وهب جالسًا يبحث عن مسدسه، ولكن خائته قواه فهو على الأرض.
واقترح أندونيس عمل كاسات دم له تطوعًا، إلا أن النسوة من جيران بانايوتي
منعنه من ذلك.

- وأين هذا الدم الذي ستأخذه منه يا أندونيس؟ إنه أصفر كالليمونة سندعو
الأم ماندالينا ترقيه وتطرد عنه الشيطان الذي تقمصه.

وأطلق صبي ساقيه للريح ليدعو الطيبة العرافة العجوز.
وبينما كانت النسوة في انتظار قدوم ماندالينا اقترحت إحداهن أن يقدمن له
شراب الليمون بدون سكر، واقترحت أخرى أن يضعن قالب طوب ساخن فوق
بطنه. وأكدت لهن امرأة عجوز أنه إذا ما بصقت كل واحدة منهن ثلاث مرات عليه
فإن العفريت سيتولاه الفزع ويولي الأدبار.

وقبل أن تنتهي النسوة إلى قرار، وصلت الأم ماندالينا تهرول في شغف ومعها
صديقات العمر من عدة التطيب، ثلاث حقائب صغيرة: الأولى بيضاء تحوي كل
أنواع النباتات العطرية، والثانية سوداء وبها أنواع مختلفة من المساحيق وقوارير
صغيرة، والثالثة زرقاء وتحتوي على حبوب سوداء وشظايا زجاج أخضر وبعض
القار، وقطعة من الصليب المقدس، وبعض أزهار أخذتها من الكنيسة يوم الجمعة
الكبيرة، وعظمة خفاش. وانحنى العجوز فوق بانايوتي، وحملت فيه باهتمام
شديد ثم هزت رأسها، وانتحت بزوجته جانبًا في أحد الأركان.
وهمست لها قائلة:

- أنت امرأة تعسة يا ابنتي. قلبي يكاد ينفطر حزنًا عليك.. ليس هذا بإنسان، إنه
شيطان مريد. هو الآن خائر القوى، لذلك تريه هادئًا وديعًا. ولكن ما إن يقف على
قدميه ثانية حتى يعود إلى ما كان عليه من جديد. كان زوجي الراحل مثله تمامًا
ولكن حمدًا لله أن اختطفه الشيطان سريعًا.. سأقول لك كلمتين، ولكن اقسمني
أولاً أن حديثي إليك سيكون سرًا دفينًا لن تبوح به لأحد حتى ولو كان للإله
نفسه.

وقالت المرأة العجوز وهي ترتجف قبل أن تسمع شيئًا:
- أقسم لك على هذا.

وقالت المرأة العجوز وهي تشير إلى الحقيبة السوداء:

- انظري إلى هذه.. بها مسحوق سحري يفعل المعجزات. اعطه جزءاً منه على طرف إصبعك فإنه يسلم الروح بعد أيام قلائل في هدوء وأمان. ما رأيك في هذا؟ وبهذه الطريقة تتخلصين منه يا عزيزتي المسكينة.

وصاحت المرأة البائسة:

- بحق السماء لا تحدثيني عن شيء كهذا.

وأجابت العجوز وهي تهز كتفها:

- كما يحلو لك. لا أبغي غير مساعدتك، ويؤسفني أنك ترفضين ذلك.

وفي غيظ شديد دست الحقيبة السوداء في صدرتها وأخرجت الحقيبة البيضاء التي تحوي الأعشاب وبدأت تعد دواءها. صنعت نقيعاً من الأعشاب وصبته في فم الرجل المريض. وأخذت قطرات من زيت مصباح العذراء وخلطته بحبات من الفلفل الأسود ودلكت جسده. ثم وضعت حجراً ساخناً فوق بطنه. وأخرجت الحقيبة الزرقاء وتناولت منها قطعة من القار وصهرتها ورسمت صليلاً فوق العتبة. وبعد ذلك أخرجت النسوة كلهن خارج البيت وأغلقت الباب، ودنت من الرجل الذي كاد يفارق الحياة وبصقت على وجهه ثلاث مرات. وصاحت في وجهه ثلاث مرات كذلك:

- ليأخذك الشيطان يا يهوذا.

وهرولت إلى خارج الدار.

وقالت للنسوة:

- دعنه في سلام. لقد رقيته، وبعد ثلاثة أيام سيكون صحيحاً معافى.

وجمعت كسرات الخبز التي تركها في الفناء، والسجق الذي بقي معلقاً على شجرة الزيتون، وأخذت كل هذا أجراً على عملها. ثم رسمت علامة الصليب وانصرفت.

سارت في طريقها وهي تتمتم قائلة:

- الرجال كلهم وحوش مفترسة، عليهم اللعنة. آه لو كان الأمر بيدي لأعطيهم جميعاً الواحد بعد الآخر هذا المسحوق الذي أعرف سره ليذهبوا جميعاً إلى

الشيطان.

وبينما كانت تدير المفتاح في القفل لتدخل بيتها، أبصرت ياناكوس يمر أمامها ساخطاً وقد أمسك بزمام حماره. وصاحت به:

- هيه، انتظر لحظة يا ياناكوس عليك اللعنة. ما الذي أصاب ابن أختي؟ ألا تأخذكم به رحمة؟ أدرتم رأسه، وها هو الآن يعيش وحيداً فوق الجبل هناك كطائر الوقواق، وانكب على الإنجيل يقرأه، أو هكذا يقال... هل سمعت بشيء كهذا في حياتك؟.. الإنجيل!.. بدلاً من إنجاب الأطفال من لينيو...

- هل هذا هو عرفانكم بجميل الرجل الذي هم لوجود بروحه من أجل خلاص القرية؟ ظننت أنني سأرى من يختر ساجداً عند قدميه يقبلهما. إلى الجحيم أيها الرجال والنساء الأقدار... حفنة من الكلاب القذرة.

كانت المرأة داخل بيتها قبل أن يتم ياناكوس كلامه، ولكنها قفزت إلى الخارج ثانية وقالت:

- انتظر حتى تسقط مريضاً يوماً ما، وعندئذ سأنشئ مخالبي فيك وأخذ بثأري منك.

ثم صفقت الباب وهي تفهقه.

لم يكن ياناكوس راغباً في المشاجرة مع أحد. إذ كانت روحه معلقة بجبل ساراكيئا. فهو عائد لتوه من هناك ورأى ما تقطعت له نياط قلبه. تم بناء عدد قليل من الأكواخ، ولكن اللاجئين بحاجة إلى الخشب لتسقيفها. والأطفال يجلسون أمام الكهوف، وقد أسقمهم الهزال، وعلا وجوههم الشحوب، وسئموا كل شيء حتى اللعب، وارتسمت على جباههم علامات الهم، وزاغت منهم الأبصار كأنهم شيوخ تقدمت بهم السن. وعلى مرمى البصر منهم، تحت سفح الجبل، سهل أخضر وافر المحصول، أفبلت إليه فتيات بمناديلهن البيضاء لحصاده. وسعت بعض الأمهات من اللاجئات يجمعن الأعشاب وأخريات يشعلن النار، ولكنهن لا يجدن الزيت والزيتون... لا شيء على الإطلاق. قوتهم فوق الجبل أعشاب ينضجونها في الماء. وانطلق الرجال إلى القرى المجاورة بحثاً عن العمل. وحمل القسيس فوتيس الإنجيل، ووضع زكينة على ظهره وخرج يتجول بين القرى

كشحاذ يجمع الصدقات لشعبه.

وأبصر ياناكوس شيخاً مسنّاً يستخرج الماء من تجويف في صخرة ليروي بها رقعة صغيرة من الأرض زرعت خضاراً.

- كيف حالك يا عمي؟ وكيف حال قريبتكم الجديدة؟

وأجاب الشيخ:

- حمداً لله. مازلنا صامدين.

- الأطفال أسقمهم الهزال، واستحالت سيقانهم إلى عصي نحيلة.

- إيه... لا يحزنك هذا، غداً سيقوى عودهم. قد يموت البعض، وهذا شيء محزن حقاً، ولكن الرجال، بارك الله فيهم، سينجبون غيرهم. بذرة الإنسان خالدة كما تعلم. هل لك أطفال؟

- لا.

- لا! ماذا تنتظر إذن؟ أسرع وأنجب بعض الأطفال، نحن لا تنقصنا النساء والحمد لله. خذ دورك وأسهم بنصيبك بوضع لبنة في البناء.

وانتقل ياناكوس إلى مكان آخر. وتعرف عليه بعض أهالي ساراكيينا، فخفوا للقاءه والترحيب به. وأحاطت النسوة بالحمار، يتطلعن في غبطة ونهم للخرجين المليئين.. ومدت فتاة صغيرة يدها وبسطة شريطاً أحمر وحملت فيه ببصرها، وتحسسته بأطراف أناملها، وتنهدت في حسرة، ثم أعادته مكانه في الخرج.. وامرأة سمراء حامل، مدت يدها وأخرجت من الخرج مشطاً أبيض مصنوعاً من العظم وتفرست فيه ولم تستطع أن تحول نظرها عنه، أحست بأنها عاجزة عن أن ترده إلى مكانه ثانية، أخذت عيناها الملهوفتين تنتقلان بين ياناكوس والمشط الذي في يدها. غابت مع أحلامها حيناً من الوقت. تخيلت أنها امتلكت المشط وهربت به دون أن يلحظها أحد، وهي الآن تجلس أمام الكهف تمشط شعرها فرحة جذلة تحت أشعة الشمس.

أخذ ياناكوس في الحديث مع الرجال. وكان بين الحين والحين ينظر بطرف عينه إلى النساء وقد أحنن بحماره، وأيديهن تنقب في شهوة وشغف داخل الخرج ثم ترد فارغة كليله. ولمعت عينا ياناكوس ووثب في مكانه، وأمسك بنفيره ونفخ

فيه، ثم وضع راحتيه حول فمه كمكبر للصوت وبدأ ينادي:
- أمشاط، مرايات، قطن، إبر، مشابك، قماش، أشرطة... خذن ما يحلو لكن
أيتهن النسوة الطيبات. لا أريد نقودًا، ستدفعن لي الثمن في العالم الآخر.
لم تصدق النساء آذانهن. تحفرن أول الأمر لكي يندفعن ناحية الخرج، ولكنهن
أجفلن وتراجعن. وقالت إحداهن:

- إنه يمزح، سنكون سخرية. ارفعن أيديكن.

وقالت المرأة الحامل:

- لا أظنه يمزح.

واختطفن المشط وضمنته إلى صدرها وولت مسرعة.

وأقبلت الفتاة الصغيرة على عجل واختطفن الشريط الأحمر وهي تصيح:

- وأنا أيضًا فزت بهذا.

وقفزت من حجر إلى حجر كأنها عنزة صغيرة.

وضحك ياناكوس وهو يتأمل هذا المشهد. واعتلى صخرة، وقال بصوت

عال:

- تعالوا، خذوا كل ما في الخرج، كونوا شجعانًا يا أحبابي، إني جاد ولا أهزل،

لن أسألكم ثمنًا عليه. سأنقضي الثمن في الآخرة، وإني على ثقة.

وانقضت النسوة على الخرج كأنهن الطير. لم يسعهن الوقت للاختيار، كانت

كل منهن تأخذ أول ما تقع عليه يدها، وتجري بعيدًا بأقصى سرعتها. وتعالن

صيحيات متهللة... وفي لمح البصر اختفى كل شيء.

وصاح به شيخ:

- ترى هل أنت مجنون أم قديس؟ أيهما أنت يا أخ ياناكوس؟

وضحك ياناكوس وقال:

- لا، بل أنا مرابي. سيدفع لي الرب الرحيم ثمن كل هذا مع الفائدة أيضًا.

- سمعت يا بني أن أجدادنا كانوا إذا ما أقرضوا مالا يتسلمون إيصاليًا بذلك

إلى أن يدفع لهم الثمن في العالم الآخر. ولكنهم كانوا أصحاب إيمان وعقيدة.

وأجاب ياناكوس:

- وأنا أيضاً صاحب إيمان وعقيدة.

وشد لجام حماره، وقال لهم:

- طبتم سلاماً، وإلى اللقاء.

وانصرف والغبطة تملأ جوانحه.

وفي طريق عودته، وقبل أن يلتقي بالأم ماندالينا، التقى عند سفح جبل ساراكنيا نيكوليو حاملاً شاة فوق كتفيه متجهاً إلى القرية.

ناداه ياناكوس:

- هيه يا نيكوليو. كيف حال مانولي؟

استدار نيكوليو وهو يضحك وقال:

- إنه دائم القراءة والتأمل، هذا الرفيق المسكين... أما أنا فسوف أتزوج وها أنذا أحمل هذه الشاة إلى سيدي.

ودار على عقبه، فأثار سحابة من الغبار حوله، وبدأ يرقص والشاة حول رقبته. كان وجهه يتألق تحت أشعة الشمس كأنه قطعة من البرونز، وأسنانه بيضاء متلاثلة. وأردف قائلاً:

- سأنزوج لينيو أيها الشيخ، هل سمعت عن لينيو؟

وضحك ضحكة صافية- وقال:

- هل لك في حكمة يا ياناكوس.

- قل يا نيكوليو فأنت عبقرى مبدع.

- الحياة فرص يغتنمها السباقون.

ثم انطلق يعدو صوب القرية.

حقاً ما قال نيكوليو، انقطع مانولي للإنجيل، يقرأ ويتأمله آناء الليل وأطراف النهار. انكب على الكتاب المقدس، وكان في أول أمره يكابد في عناء ويتصبب عرقاً أمام كلماته، يتهجى حروفها في محاولة منه لكي يسبر غور معانيها الخفية. وكم كانت شاقة وعسيرة تلك المهمة. كانت كل كلمة من كلماته أشبه بحبة

اللوز، ودونه والثمرة الحلوة بداخلها جهد وعناء، فلا بد له أولاً أن يكسر القشرة الصلبة التي حولها. ورويداً رويداً مع الأيام ومع عاطفة الحب الغامرة لانت القشرة الصلبة، تصهرها أنفاسه الحارة فتفتق الكلمات وحدها وتكشف عن معانيها في سهولة ويسر. وفجأة وضح أمامه كل شيء. استحال المسيح إلى جسد بشري دافئ، تنزل إلى الأرض يعظ الودعاء والبسطاء من الناس ويبلغهم الكلمة الطيبة. وبدأ مانولي منذ تلك اللحظة يقتفي أثر المسيح، يتبعه خطوة خطوة في غير مشقة أو عناء، منذ أن ولد في بيت لحم وسط الرعاة- ومانولي أحدهم- وهم يرتلون: «أوصانا في الأعالي. مبارك الآتي باسم الرب». واقتفى الأثر القدسي للمسيح حتى يوم الصلب. وشاهد الصليب المخضب بالدماء، وعين القيام المجيد عندما قام المسيح من القبر في يوم سطعت شمس ودخل قلب مانولي.

وكان مانولي يمسك بين الحين والآخر بكتلة الخشب التي نقش عليها وجه المسيح، يجوفها بحيث تصبح قناعاً يلائم وجهه. وذات يوم وبينما كان مقبلاً على عمله هذا، منكباً عليه، طافت بخاطره ذكرى عالم اللاهوت الذي أتى إلى الدير من أسطنبول ليحتفل بعيد القيامة، وكان مانولي آنذاك لا يزال حديث عهد بالدير. ففي صباح يوم سبت النور ارتقى هذا العلامة المنبر متأبطاً أضاير ضخمة. وتحدث إلى الرهبان البسطاء على مدى ساعتين كاملتين، واستخدم في حديثه إليهم ألفاظاً غريبة متقكرة مما يستخدمها المثقفون عادة ليفسروا بها سر القيام. وكان الرهبان حتى ذلك الوقت يرون قيام المسيح حدثاً طبيعياً جداً وبسيطاً للغاية، ولم يسألوا أنفسهم أبداً كيف كان هذا أو لماذا حدث... كان قيام المسيح يبدو لهم بسيطاً مثل انسلاخ النهار من الليل، وشروق الشمس كل يوم بعد الظلام. ولكن إذا بهذا العلامة اللاهوتي الحضيف يخرج عليهم بكل كتبه وعلمه ليشوش أفكارهم... وبعد أن عاد إلى صومعته قال له الأب ماناس:

- ليغفر لي الرب يا مانولي، فهذه أول مرة في حياتي أفتقد فيها الإحساس بقيام المسيح.

وبين الفينة والفينة يضع مانولي القناع على وجهه ليتبين إن كان قد تلاءم مع وجهه أم لا. وذات مرة فاجأه نيكوليو والقناع على وجهه فأغرق في الضحك وقال:

- أخالك يا شيخ مانولي ارتددت إلى طفولتك ثانية. ها أنت تلعب بالأقنعة والعرائس. ماذا دهاك؟

وابتسم مانولي، وقال في هدوء:

- لا. أنا لا ألعب.

كان نيكوليو يحوم حول مانولي منذ أيام عدة، يود أن يفضي إليه بشيء، بيد أن الكلمات كانت تجف على لسانه ويحس بغصة في حلقه. ولكنه حسم أمره اليوم. دنا من مانولي وجلس بجواره وانحنى عليه يتطلع إلى كتلة الخشب المحفورة، بينما كان يفكر في شيء آخر. وأخيراً الكز رتبة مانولي بركبته. وصاح بعدها بأعلى صوته كأنه يناديه من فوق الجبل المقابل:

- مانولي. اسمع يا مانولي.

- تكلم يا نيكوليو فإني أسمعك. ولكن لا تصرخ هكذا. تحدث بصوت خفيض فلست أصم.

- سأقول لك شيئاً، ولكن أسألك ألا تغضب. هل توافق؟

- لن أغضب يا نيكوليو. قل ما تشاء. ولا تلكنني في ركبتني فإن هذا يؤلمني. وصاح نيكوليو، وهو يقبض على عصاة الرعي بقوة، ويتهياً لضرب مانولي إذا ما حاول أن يهجم عليه:

- سأنزول بليينو.

وابتسم مانولي وقال:

- أعرف ذلك.

واتسعت عينا نيكوليو دهشاً، وقال:

- تعرف ذلك؟ تعرف ولا تنقض عليّ تمسك بخناقى؟ قسمًا بهذا الخبز لو أنني مكانك لقتلتك.

- إني أبارك زواجكما. أتمنى لكما الصحة والسعادة، وأتمنى لكما حياة مديدة... أن تمتد بكما الحياة حتى يتقدم بكما السن وتنجبا أطفالاً كثيرة، ويكونوا رجالاً برة أنقياء.

وأطرق نيكوليو لحظة برأسه متأملاً، ثم متمم قائلاً:

- هذا... هذا ما لم أكن أتصوره، إنه فوق طاقتي! إذن أنت لا تريد قتلي؟

بسط مانولي ذراعيه واحتضن الراعي الصغير.

ولكن ساور الراعي الصغير القلق، وعاد يقول:

- هل حقًا لا تريد قتلي؟

وضحك مانولي وهو يقول:

- لا، لا يا عزيزي نيكوليو. لا أريد قتلك.

وهب نيكوليو واقفًا فجأة وقد تملكه الخوف. وألقى نظرة مودعة إلى مانولي

الذي انكب على عمله من جديد يحفر كتلة الخشب.

وحدث نفسه قائلاً:

- مسكين هذا الفتى. إنه ليس على ما يرام. لقد أصابه مس من الجن.

وبدأ يقفز من صخرة إلى أخرى، ويضع إصبعيه في فمه ويصفر. وأقبلت

الكلاب تعدو، وتجمعت الأغنام. واستعاد نيكوليو هدوءه وسط الحيوانات التي

عرفها وألفها، وعرفته وألفته.

وطافت لينيو بخاطر مانولي لحظة من الزمن، ورأى غمازتيها. كانت خفيفة

نضرة يسيل لها اللعاب... وأسند كتلة الخشب إلى ركبتيه، وهام مع أفكاره فترة

طويلة من الزمن.

وأخيراً تمتم قائلاً:

- إنني أباركهما. استنا الطريق الذي رسمه الرب الرحيم للإنسان على الأرض.

أما أنا، فإني أكابد لأشق لنفسي طريقاً آخر - لا زوجة ولا أطفال ولا متع، سأزهد

في الحياة وأنفض الأرض من تحت قدمي... هل أنا على صواب في ذلك؟ كان

يسوع المسيح على صواب، وهو الرب إلهاً، هكذا كان، أما الإنسان؟ أليست هذه

جرأة منه تفوق طاقة البشر حين يحاول أن يقتفي أثر الرب ويتشبه به؟

لم يهتد إلى إجابة في نفسه على سؤاله هذا. واعتاد ألا يسأل نفسه في اللحظات

الخطيرة الحرجة ويؤثر أن يتقدم بخطى ثابتة وفي إيمان، وإن كان في غير هذه

اللحظات يسائل ويتردد ويزن الأمور ويتدبرها. ولكنه لم يشعر في يوم من الأيام

بمثل ما يشعر به اليوم من إيمان يملأ قلبه، وسعادة خالصة تغمره. اللهم إلا يوم أن

خرج يسعى إلى حتفه بظلفه وهو موثق اليدين من خلاف.
ومنذ أيام قصد جبل ساراكيئا، يسأل القسيس فوتيس العون والمساعدة في بعض ما غمض عليه، فربما صادفت القسيس في أيامه الأولى نفس المحنة التي يعاني منها مانولي الآن، وربما استطاع أن يمد له يد المساعدة. ولكنه لم يجد القسيس هناك، إذ كان قد خرج في جولته بين القرى المجاورة يجمع الصدقات. وعاد مانولي إلى خلوته، وأمسك بالإنجيل: فهو ملاذه الذي يلهمه الإجابة عن كل سؤال.

فتح الكتاب الصغير مثلما يفتح الناس أبواب بيوتهم المطلة على البحر على مصراعيها- في يوم قائظ. واستغرق مع الآيات المقدسة، وأحس بالراحة والانتعاش، ونسي الأسئلة التي كانت تلح عليه وتؤرقه. لم تعد أفكاره تنهال عليه بالأسئلة، إذ كان قلبه يفيض بالإجابة عن كل ما يعن له، وأثار الله بصيرته. ونهض واقفاً بعد أن فرغ من اللمسات الأخيرة لقناع المسيح، ووضع على وجهه فكان ملائماً تماماً.

وقال:

- حمداً لله أن فرغت منه.

وقبله، ثم دخل الكوخ، وعلق القناع فوق الجدار بجوار الأيقونة العتيقة التي تمثل الصلب وعصافير الجنة حول الصليب.

لن تذهب كاترينا الأرملة هذا العام للاحتفال بعيد القديس إيليا... كانت قد اعتادت في مثل هذا اليوم من كل عام أن تنهض من نومها، وتضمخ شعرها بزيت الغار، وتدعك أسنانها بورق شجر الجوز، وتقلد عنقها بقلادة من الأحجار الكريمة الزرقاء تقيها عين الحسود. ثم تأخذ الطريق الجبلي الصاعد إلى القديس إيليا، تصعد إليه وحدها دون رفيق- فلا أحد يرضى بالاقتراب منها. وتخر ساجدة، كغيرها من الناس، أمام الأيقونة. وقد يزدريها النبي العاتي المهول، وينظر إليها غاضباً، ولكنه يعجز عن الفكك من الحجر الذي نقش عليه، أو أن يخرج من تحت نذور الفضة التي تكدست فوقه وسجنه تحتها أولياؤه. ولكن الأرملة التي

كانت تعرف عنه ذلك، كانت تواتيها الجرأة على أن تتقدم نحوه وتقبله دون خوف بشفتيها المصبوغتين بالخضاب... ولكن ها هي الآن ترقد تحت الثرى، واختفت معها آثارها- الشعر المضمخ بالعطر، والشفاه المصبوغة بالخضاب، والوجنات المتوردة، والجيد المرمرى اللامع... ربما لم يبق منها غير أسنانها ما زالت تلمع كما يلمع الحصى الأبيض على شاطئ النهر.

وبأنايوتي عاجز هو الآخر عن مشاركة الناس احتفالهم هذا العام. ما زال طريق الفراش، يهدد ويتوعد كمن أصابه مس. ولكن ابتناه فتحتا باب دارهما، وهما الآن تصعدان الجبل مع الصاعدين.. سمران جميلتان، بضتان، يعلو شفتيهما زغب أسود رقيق، ويتصبب من تحت إبطيهما العرق، ومع العرق تفوح رائحة المسك. كانتا أشبه باثنتين من إناث الذئاب، أضناهما موسم التسافد، تطلقان نظرات نهمه متضرعة ميمناً ويساراً تتحرقان شهوة بحثاً عن ذكر. آه لو كانتا بقرتين إذن لخارتا في حزن، أو لبؤتين إذن لزارتا ليلاً وسط الغابة، أو قطنتين إذن لتمرغتا على ظهريهما فوق الرغام وتسلقتا الأسطح وهما تموءان. ولكنهما امرأتان لذلك فإنهما تغضان من طرفهما في خبث إذا مر بهما فتى، حتى إذا ما تجاوزهما غرقتا في ضحك كله دلال، وتتخذان منه مادة للسخرية. «انظري إليه هذا المسكين، إنه مقوس الظهر. هل رأيت ساقيه؟ كأنهما دبوسين... أين لنا بفتى وسيم!» تسخران منه، وتثيران حفيظته، لا لشيء إلا لأنه مر بهما كريماً دون أن يهرول نحوهما ملهوفاً.

وخرج أندونيس الحلاق أيضاً ليشارك في الاحتفال. لحيته طويلة- فقد تزاحم عليه الناس وتضاعف عمله فلم يجد وقتاً ليحلق لحيته. وهو يقدر النبي إيليا ويكبره، فكل رجال القرية يقصدونه للتزين قبل ذهابهم للاحتفال. ويصاب أكثرهم ببعض آلام البرد عند عودتهم، فيلحون في طلبه لعمل كاسات الدم، وهو مصدر دخل مضمون له. إذن لماذا لا ينظر إلى النبي إيليا نظرة إكبار وإجلال؟ وهو خبير في خلع الأسنان، ويعرف الناس عنه ذلك. ولكن الأشقياء من أهل القرية أسنانهم قوية قادرة على تكسير حبات الجوز. وتعلموا طريقة جديدة لخلع الأسنان إذا ما تلخلخت إحداها، فلن يكلفهم ذلك أكثر من خيط يربطون به السنة ويجذبونها بقوة فتتزع من منبتها... ترى أي شيطان هداهم إلى هذه الحيلة؟..

وليس عليهم بعد ذلك إلا أن يشربوا بعض العرقي، وبعد ساعة يعودون إلى تكسير حبات الجوز ويأكلونها مزة مع الشراب.

وسار أصدقاؤنا الهويني في مؤخرة الركب يتجاذبون أطراف الحديث في دعة. كان ميشيل وياناكوس في بداية الأمر يسيران خلف القسيس جريجوريس، أحدهما عيناه على حماره الذي امتطته ماريوري يحثه بين حين وآخر بنداء محبب إليه ليطمئن باله إلى أنه بجانبه... والآخر بجانب ماريوري يرافقها في مسيرتها، ويبادلها نظرات مشوقة لهفي. فميشيل معجب بخطيبته... ببياض بشرتها ورشاقة عودها وحيائها. وهي معجبة به أيضاً، لا تمل النظر إلى محياه الحنون الوديع وشعره الأسود المموج، وهيئته الوقورة المهيبة. وتحت أشعة شمس الأصيل الحانية، وضوئها الخافت الذي يغري بالخطيئة ووسط هذا الحشد اللجب الذي يرتقي الجبل، غاب الحبيبان عن الوجدان، وذاقا في صمت مع الخيال طعم القبل وأحضان المستقبل.

فتحت ماريوري عينها الكليلتين على اتساعهما وثبتت نظراتها في الهواء فأبصرت ماريوري أخرى تحتضن طفلاً وتلقمه ثديها.

وما أن وقع بصرها على قمة الجبل الصلدة حتى تمتمت قائلة:

- يا نينبا إيليا، إني أطمع في رحمتك، وأسألك أن أنجب طفلاً مثلاً.

وأتى قسطندي وراءهم، هو وعائلته، يسير على مسافة غير بعيدة عنهم. زوجته في المقدمة تمتطي صهوة بغل وطفلاها خلفها، وقسطندي يسير على قدميه صامتاً. ماذا عساه أن يقول؟ وعن أي شيء يتحدث؟ لقد قالوا كل شيء وأعادوا قوله مرات ومرات، حيناً حديثاً كله مودة، وحيناً آخر خصاماً وشجاراً. وما زالت الزوجة حتى الآن تثور في وجه زوجها، وتدخل معه في شجار، ولكن قسطندي ألقى السلاح ولاذ بملكوت السموات كما قال من قبل وقنع بالصمت.

ووجد الرفاق الثلاثة أنفسهم، عن غير قصد منهم أو تدبير، وقد انفصلوا عن الركب وساروا في المؤخرة.

وتساءل قسطندي:

- أين مانولي؟ ألم يأت معكما؟ أم ترى أنه تخلف عن الاحتفال؟

وأجاب ميشيل:

- ذهبت لزيارته بالأمس في المرعى، بيد أنني لم أجده هناك، ناديت نيكوليو وسألته عنه فقال لي: «خرج مع مطلع الفجر قاصداً النبي إيليا. حمل معه جرة ماء وحزمة من أغصان شجر الغار ولم يرجع بعد. إنه غريب الأطوار، لم يعد سويًا مثلما كان... وغداً يتبين لك صدق كلامي يا سيدي... سيتهي به الأمر إلى الجنون... بل إنه بدأ يفقد عقله بالفعل. قلت له إنني اغتصبت منه لينيو فلم يقتلني لذلك. وهو اليوم منكب على القراءة والترتيل. وغداً سيكذب الناس بالحجارة». وأغرق الرفاق الثلاثة في الضحك.

وقال ياناكوس:

- حقاً تغير مانولي، فلم يعد كما عهدناه سابقاً. صدقوني إن شئتم يا إخوتي، وربما أرى الأشياء على غير حقيقتها... ولكن حدث ذات ليلة، وكنت معه وقتذاك، أن كان جالساً فوق الأريكة الحجرية، مسنداً رأسه إلى الحائط، فرأيت هالة من النور حول رأسه. كانت إكليلاً من النور مثل هالات النور التي تحيط بالقدسين في أيقوناتهم... هل تصدقون ما أقول؟

وقال ميشيل:

- أنا أصدق ما تقول.

وقال قسطندي:

- وأنا أيضاً.

ثم لفهم الصمت.

أصبحت الكنيسة الصغيرة على مرمى البصر الآن، بيضاء ناصعة، فقد طليت بالجير منذ أيام قلائل، وتحيط بها صخور شماء. وهذه هي الصورة التي يبدو عليها النبي المهول فوق الأيقونات، يظهر بين صخرتين كبيرتين مبسوطتين كأنهما جناحان عن يمين وعن شمال. وبالفعل أصبحت هاتان الصخرتان الوعرتان أشبه بجناحين للنبي إيليا في وحدته فوق قمة الجبل الشاهقة يحملان الكنيسة بعيداً إلى عنان السماء.

وترى بجانب الكنيسة أطلال صومعة كانت في قديم الزمان سكناً لراهب

زاهد لا ذبها ليكفر فيها عن خطايه. وما زال هناك المقعد الذي كان يجلس عليه وقد نخره السوس الآن، وترى مسبحته معلقة بمسمار فوق صخرة كبيرة، وحبالاً متسخاً كان يستخدمه كحزام يشده حول وسطه، وصليلاً صغيراً له شراية سوداء بطرفه. وعلى مسافة غير بعيدة ترى صليلاً معدنياً يشهد على مكان رسمه، وحجراً نقش عليه اسمه الذي محته الأيام.

ومع مطلع الفجر ارتقى الشماس الجبل قاصداً الكنيسة الصغيرة لينظمها استعداداً للاحتفال... يضيء المصابيح، ويزين الكنيسة بأغصان شجر الغار. ولكنه لم يكد يفتح الباب حتى صرخ صرخة عالية، وحمد في مكانه مأخوذاً. وطفق يتمتم: «كيريا لا يسون.. كيريا لا يسون... كيريا لا يسون» ويرسم علامة الصليب المرة بعد الأخرى في لهفة وخوف. كانت الكنيسة الصغيرة نظيفة تماماً، متألقة، أرضها مكنوسة ومغسولة، وجدرانها أزيل عنها الغبار، والشمعدانات نظيفة، والمصابيح ملئت زيتاً، والأيقونات مزينة بأغصان شجر الغار... ونار موقدة أحرقت فيها عيدان البخور، فتضوعت الكنيسة عطرًا.

مسح الشماس جبهته بيديه وألجمه الخوف فلم يجسر على الدخول كان يخشى أن يكون الملاك لا يزال بداخل الكنيسة مختبئاً وراء المذبح. وتذكر ما حدث له ذات صباح في كنيسة القرية حين ذهب لينظمها فوقع بصره على كبير الملائكة ميخائيل بداخل الكنيسة على يسار الحجاب، وبسط الملاك جناحيه في بطء ورف بهما خفيفاً ثم غاب عن الأنظار. ومنذ تلك اللحظة وهو يفزع لرؤية الملائكة والمعجزات.

وجلس عند عتبة الباب. وكان بين الفينة والفينة يختلس نظرة وجلة إلى داخل الكنيسة. ومضت الساعات تباعاً، ولم يظهر الملاك، وبدأ الشماس يسترد شجاعته رويداً رويداً. وشعر بالجوع، ففتح جرابه وأخرج منه كسرة خبز وقطعة جبن. ولكنه أحس انقباضاً في حلقه يعوق مرور الطعام، فتناول زجاجة النبيذ وعب جرعات منها، فانتعش لذلك قليلاً، وانبسطت عضلات حلقه، وأقبل على طعامه. وبعد أن فرغ الشماس العجوز من طعامه وشبع، استجمع شجاعته ورسم علامة الصليب، واجتاز العتبة في جراءة وإقدام، ودخل الكنيسة. وخر ساجداً أمام النبي إيليا، وفي

تواضع ذليل أزاح ستار الحجاب وجال بعينه فلم يجد أحداً.
وقال:

- حمداً لله أن نظم كل شيء وغادر المكان ونجوت منه.
وأراد أن يزجي وقته، فبدأ يكنس ويغسل البلاط وينفض الغبار، ويلمع الشمعدانات ويصف الصحف الفضية فوق النضيد، كان الشماس العجوز مغرماً بهذه الكنيسة الصغيرة، إذ أنها ترتبط بحياته ارتباطاً وثيقاً فهو الابن الوحيد لأبيه الذي توفي منذ زمان طويل. وحدث أن ألم به مرض وهو لا يزال في المهد صبيّاً. وقصد أبوه النبي إيليا، بعد أن يؤس تماماً من شفائه، ونذر له طفله الوليد أن يعمل شماساً في خدمته إذا برئ من مرضه وعاد صحيحاً معافى. وقد كان، شفي الطفل واستعاد صحته، وأوفى أبوه بنذره.

وتذكر الشماس حياته الماضية وتنهّد. ظهرت علامات غريبة يوم ميلاده. ولد منذ خمس وسبعين عاماً، ظهر يوم الجمعة الكبيرة، وفي نفس الساعة التي صلب فيه المسيح. وأعلنت القابلة أن الطفل سيصبح أسقفًا يوماً ما. وكان أبوه مسيحياً تقيّاً ورعاً، سليل أسرة عريقة ذات جاه. لذلك آلى على نفسه منذ تلك اللحظة أن ينذر ابنه الوحيد لدراسة اللاهوت ليحقق هذه النبوءة التي أصبحت أمل حياته. وسارت الأمور وفق ما يحب ويهوى. فقد بز أسقف المستقبل أقرانه، وتميز عليهم في دراسته، وكان ذكياً تقيّاً. وأتم دراسته بمدرسة المدينة، وحاز تقدير «جيد جداً» ونهياً للسفر لدخول معهد اللاهوت العالي في القسطنطينية... ولكن، وبينما كان يتأهب للسفر، حدث ذات مساء أن خرج، وكان الليل ساجياً، وسار في درب مقفر، وفجأة اعترض الشيطان طريقه. كان اسمه كيرياكولا، سمراء، قصيرة، تناهز الثانية عشرة من العمر، نافرة الثديين في امتلاء، يعلو شفيتها خال الحسن والجمال. وفقد أسقف المستقبل صوابه، ودارت رأسه، وتعقب الفتاة. أسره هواها، وسباه خال الحسن والجمال على شفيتها. توسل إليه الأب المسكين ألا يحيد عن طريقه المرسوم الذي اختاره له الرب، وذرف الدمع، ولكن عبثاً. لم يجد كل هذا فتياً مع أسقف المستقبل، وأصر على الزواج بها ولا أحد سواها... هي أو الموت انتحاراً... وتزوج بها.

وكثيرًا ما يعزي نفسه قائلاً:

- حمدًا لله أن أصبحت شماسًا ولم أضل الطريق.

وهكذا مضت الساعات تباغًا وهو غارق حينًا مع ذكرياته عن حياته الماضية، أو مكبًا حينًا آخر على عمله المألوف. وبدأت الشمس تميل ناحية المغيب. وعاد الشماس إلى حيث كان يجلس فوق العتبة يمتع نفسه بالنظر إلى الحجيج وهم في طريقهم صاعدين إلى الكنيسة. ظل في مكانه لا يبرحه كأن اليوم يوم الاحتفال بميلاده هو، وها هم أصدقاؤه يفدون إلى داره يهتفون ويتمنون له عمرًا مديدًا. وترامى إلى سمعه نهيق الحمير، يكاد يسمعه واضحًا. ونهض من مكانه، وأمسك بالحبل، ودق الجرس الصغير لحن العيد.

كان القسيس جريجوريس أول من ظهر من الحجيج، ممتطيًا صهوة بغلته، تخاله متربعا على العرش. وهرول إليه الشماس ليرحب به ويعينه على النزول. وقبل أن تمس قدما القسيس الأرض، سأل الشماس قائلاً:

- هل كنست الكنيسة ونظفتها وطلبت الشمعدانات؟

وفي خضوع وذلة أجاب من كان يود أن يصبح أسقفًا يومًا ما:

- كل شيء على ما يرام يا أبانا.

لم يجروء على أن يقص عليه المعجزة، إذ أراد أن ينسب الفضل إلى نفسه.

- هل وضعت الصحف فوق النضد كما أمرتك؟ قلت لك ثلاث صحاف:

واحدة للبابا، والثانية للقديس والثالثة للشموع...

وأعاد الشماس إجابته الأولى بصوت ذليل:

- كل شيء على ما يرام يا أبانا.

في هذه الأثناء وصل الحجيج، وتوافدوا على الكنيسة، ووضعوا سنابل القمح وعناقيد الكرم فوق النضد، وأخرج كل منهم حافظة نقوده ووضع تقدمته في صحفتي الباب والقديس، ثم اشترى شمعة وذهب في خشوع ليخر ساجدًا أمام النبي المهول. ظهر النبي في أيقونته راكبًا عربة من نار، تشدها أربعة خيول أرجوانية اللون، وتقف به عند حافة هاوية سحيقة، ومرتديًا رداء كهنوتيًا أرجوانيًا أيضًا، وألسنة اللهب تتصاعد من رأسه. تراه مندفعًا بسرعة مروعة فوق الجبل حتى

تخال العربة معلقة في الهواء. وسقط منها ناسك وسط جلاميد الصخر، ووضع راحته فوق عينيه وهو يحملق مذعورًا:

وهمست امرأة شابة استحوذ عليها الإعجاب بالنبي:

- إنها الشمس... إنها الشمس، يا عزيزتي.

وقالت أخرى:

- بل إنها القديس إيليا، لا تخسري تقواك يا عزيزتي ماريوري.

وقالت ثالثة:

- كلاهما سواء.. هيا نركع له وننتهي من ذلك.

غربت الشمس ولم تسطع النجوم بعد، فما زال النهار يقاوم في يأس. تسلق الجبل ولاذ بالقمم المرتفعة، ولكن الليل يقتفي أثره، يتسلق خلفه ويتعقبه من صخرة إلى صخرة حتى بلغ معقله الأخير في الكنيسة البيضاء الصغيرة، كنيسة النبي إيليا. وانهار النهار ولم يعد يقوى على المقاومة فقفز إلى السماء واختفى هناك.

وفي هذه اللحظة وصل لاجئو جبل ساراكيثا ليحتفلوا بدورهم، تعساء يثيرون الرثاء، ثيابهم مهلهلة، وجناتهم غائرة من أثر الجوع. يتقدمهم القسيس فوتيس ممسكًا في يده بعضا الراهب المعدنية الصغيرة. وكانوا آخر من وفد إلى الكنيسة، لا يملكون ما يضعونه في الصحف، فاکتفوا بالتوجه صفر اليدين ناحية القديس وخرّوا أمامه سجدًا خشعًا.

وتفرس الأب فوتيس في القديس وتمتم: «نسألك الصفح والمغفرة أيها النبي المهول. كنت مثلنا فقيرًا مهلهل الثياب. لم تكن تملك غير النار العظيمة. وما زلنا نمسك بقبس منها، نحن معشر اللاجئيين إلى جبل ساراكيثا. يسعدنا أن نحيك يا رفيق».

وسجدوا ثانية، ثم خرجوا وتفرقوا بين الصخور وراء أهل ليكوفريسي ذوي القوة واليسار. وخف إليهم أصدقاؤنا الثلاثة، رحبوا بهم وقبلوا يد القسيس. وقال له ميشيل خجلاً:

- نسألك الصفح عن أهل قريتنا، فإن حقائبهم مليئة.
وقال القسيس فوتيس:

- بل ليغفر الله لهم، إنه هو الغفور لا أنا.
وصمت، ولكن عيناه كانتا تطلقان لهيبًا. إذ عاد من جولته اليوم خاوي الوفاض،
لم يتصدق عليه أحد. وكان يتأمل في غضب، من فوق الصخور العالية، الحقول
التي حصدت حتى تخاله النبي إيليا يخطو وسط اللهب.
وقال القسيس فوتيس:

- الأرض أرضهم، فليتمتعوا بها. وليمنحنا الرب السماء فتكون نصيبنا.
ثم لاذ بالصمت.

وبسط الحجاج سجاجيد مختلفة ألوانها حول الكنيسة الصغيرة، وفتحوا
حقائب مملوءة طعامًا، وبدأت أسنانهم تعمل مضغًا في الطعام. ومالت زجاجات
النبذ على أفواههم، ومالت معها الأعناق. وتردد صوت كركرة النبذ، واستحالت
خلوة النبي الجادة إلى مكان يعج بالضحكات والصخب.

وأضاءت بعض المصابيح بنورها وسط الحجارة، وألقت بضوئها على وجوه
النساء المخضبة بلون أرجواني، ونحور الفتيات الرخصة الرشيقة، وشوارب
الرجال الخشنة. وعلق فانوس كبير فوق حائط الكنيسة فأضاء نوره الوجنات
البضة واللحية المثلثة للعمدة بطريار كاس، وظهرت إلى جواره لحية بيضاء شائكة
مع الفكين وهما يعضغان الطعام. جلس رئيسا القرية وكبيراهما، العمدة والقسيس،
جنبًا إلى جنب. وفي بعض الأحيان كان يسقط شعاع من ضوء المصباح على يدي
ماريوري الواهنتين النحيلتين وهي تشوي اللحم، وتخدم السيدين النهمين اللذين
لا يشبعان أبدًا.

وخبث المصابيح وانطفأ الواحد بعد الآخر. وزحفت الظلال، وغطت
المنطقة المحيطة بالصخور المقدسة، وتاهت كلها في الظلام. ولم تعد تسمع غير
ضحكات غبجة للفتيات وتأوهات ذات دلال، ثم سرعان ما خيم الصمت. وبدأت
كائنات من البشر تزحف كالعقارب بين الصخور مثني مثني لتحفل بنبي النار
على طريقته الخاصة.

ودعا الرب النهار فلبى الدعاء، وظهرت الشمس في عربة من نار كما يظهر النبي إيليا تمامًا. ونهض البشر على أقدامهم وتشاءبوا وتمطوا وسعلوا ومسحوا عيونهم بأيديهم، واحتسوا القهوة ليكمل صحوهم. ودق الناقوس الفضي الصغير دقات سريعة جذلة رن صداها الواهن بين جنبات الجبل، وانتشر الصوت في كل الأرجاء يقطر تباغًا كأنه شلال تتساقط مياهه دفاقًا ثم تنتشر لتغمر السهل. وظهر مانولي وسط الآكام، متكئًا على عصا الرعي، هادئًا، مبتسمًا. ونفرس بعينه فيمن حوله حتى وقع بصره على رفاقه واقفين فوق صخرة شاهقة يجولون بنظراتهم القلقة بحثًا عنه ناحية الجبل حيث يقيم هناك. وأحس بالغبطة لمرآهم، وخف إليهم يقفز فوق أجساد بعض الحجاج الذين تمددوا على الأرض، وفتح ذراعيه وضمهما إلى قلبه. وندت عنهم صيحة عالية. وقال ياناكوس:

– قضينا الليل بطوله ننتظرك. لماذا لم تحضر؟ قلت لنا... وقاطعه مانولي متسائلًا:

– هل كل شيء معد!

لم يصدق الرفاق الثلاثة آذانهم وقالوا:

– معد؟ أي شيء كان ينبغي أن يكون معدًا؟

وقال مانولي مبتسمًا:

– الأرواح لتستيقظ، والظهور لتلقى الضربات، والأفواه لتصرخ!

وأمسك ياناكوس بذراع صديقه وسأله:

– هل ثمة فكرة جاهزة في رأسك؟ إنني معك رهن الموت والحياة.

وأجاب مانولي:

– ليس ثمة فكرة في رأسي. ولكن ربما الرب بواسع رحمته لديه ما يشاء أن يبلغه. لذلك يجب أن نكون على أهبة الاستعداد.

ودارت عيناه فيما حوله، ثم قال:

– أحب قمة الجبل هذه. وأحب هذا النبي الذي اتخذ النار مطية له، وضرب الأرض بقدميه وارتفع عنها بعيدًا إلى عنان السماء... بل أشعر اليوم أنني أحب

أهل القرية، أبدانهم نظيفة، عيونهم لامعة، ثيابهم مهندمة أنيقة، ويبدو أنهم على أهبة الاستعداد، البعض لتشتعل فيه النار، والبعض الآخر ليشعلها، ترى هل نحن على أهبة الاستعداد أيضاً؟

وفي هذه اللحظة دمد صوت كهزيم الرعد عند الهيكل. هو صوت القسيس جريجوريس. بدأ القداس فصمت الرفاق.

وتزاحم الناس داخل الكنيسة حتى لم يبق فيها موضع لقدم. ووقف من لم يسعدهم الحظ، خارج الكنيسة فوق الصخور، وتسلفت التراتيل إلى الخارج من الباب الأمامي ومن النافذة الصغيرة في الخلف. وتردد صوت شجي حنون كان رجع صدى أرواح أسلافنا الأول الذين أبدعوا هذه التراتيل للإله الرب.

انتهى القداس، وخرجت الجموع. واعتلى ناظر المدرسة صخرة كبيرة، كان شاحب الوجه. وشرع يتحدث إلى الناس بصوت أجش يعدد لهم فضائل النبي إيليا ويتغنى بمآثره. وسرعان ما انتقل فجأة ودون مقدمات إلى تعديد مناقب سلالة الإغريق. وبدأ يقارن بين أبوللو والنبي إيليا، ثم قارن بين النبي إيليا ونور الشمس، وأخيراً بينه وبين الروح الخالدة لشعب اليونان التي تعقبت ظلام البرابرة ودحرته تماماً. وفي مهارة فائقة انتقل من حديثه هذا إلى الكلام عن الاحتلال التركي. كان حريصاً غاية الحرص في حديثه أول الأمر، وفجأة أفلت منه الزمام، وأطلق لعواطفه العنان، وفي صراحة متناهية ودون موارد بدأ ينشد النشيد الوطني.

وبهت الحجب أول الأمر، ولكن بدأت تسري حرارة النشيد في دمعهم، وأنشدوا معه في قوة وانفعال وحماس بطولي:

أيتها الحرية، أعرفك من ومضة سيفك البتار...

وفجأة رأت الجموع النبي إيليا وقد تحول إلى فرق من الفدائيين الذين حاربوا الاحتلال التركي الطويل على قمم الجبال الوعرة وارتدت تلك الفرق الزي الوطني الذي يتميز بخفين أحمرين لينين، وتسلمت بالبندق.

ومال مانولي على رفاقه الثلاثة وأعاد سؤاله من جديد:

- هل أنتم على أهبة الاستعداد؟

وأجابوا جميعاً في صوت رجل واحد:

- نعم، نحن على أهبة الاستعداد، تقدم باسم يسوع المسيح.
لم تكن لديهم فكرة واضحة عما ينوي مانولي أن يقوله أو يفعله، أو لأي شيء
ينبغي أن يكونوا على استعداد، ولكنهم شعروا في أعماقهم بأن أرواحهم يقظة
متأهبة لكل شيء.

وفرغ ناظر المدرسة من حديثه، وبدأ ينزل من فوق الصخرة ودمه يغلي في
عروقه من حرارة الحديث. واغرورقت بالدمع عينا الشيخ بطرياركاس، ورفع
القسيس جريجوريس يده ليبارك قطيعه. فالآن وقد انتهوا من أداء فريضتهم تجاه
الرب يحق لهم أن يمرحوا، ويطلقوا لأنفسهم العنان للاحتفال بالعيد.
وفي هذه اللحظة تقدم مانولي وانحنى أمام القسيس وقبل يده واستأذنه في
الحديث إلى الجموع.

وأبصر القرويون مانولي، فخفقت قلوبهم لمرآه. إنهم اليوم أنقياء النفس
يتحلون بخلق يوم الأحد. وتذكروا أن هذا الفتى الأشقر كان من الشجاعة إلى حد
أن وضع روحه على كفه استعداداً ليجود بها من أجل خلاصهم. وصدرت عن
أفواه الناس جميعاً تمتعات مرحة مشرقة تعبر عن ترحيبهم واحتفائهم به.

وتجههم القسيس جريجوريس ومال عليه وسأله:

- ماذا تريد أن تقول؟ هل يمكنك أن تخطب في الناس؟ وعن أي شيء؟
وأجابه مانولي:

- عن المسيح.

وارتد القسيس إلى الوراء مذهولاً وقال:

- المسيح!!! ولكن هذا صميم عملي أنا.

وقال مانولي في إصرار:

- أُمروني المسيح أن أتحدث إلى الناس.

وقال القسيس جريجوريس ساخرًا:

- ألم يحدث بالمناسبة أن أوضح لك المسيح ما تقول؟

- لا، ولكنه سيملي عليّ ما أقول عندما أبدأ الحديث.

وخطا ميشيل خطوة نحو القسيس وقال:

- يا أبانا، يريد مانولي أن يتحدث إلى أهل القرية، ونحن جميعاً نتوسل إليك أن تأذن له. إن من حقه أن يتحدث إلى الناس، فقد تقدم ليهب روحه ابتغاء نجاتنا وقتما كان الخطر يحدق بالقرية كلها.

وقال الشيخ بطريار كاس بدوره:

- إئذن له يا أبانا، إنه ولد طيب همام.

واعترض القسيس بقوله:

- إنه سيتحدث عن أشياء لا علم له بها.

وتدخل ياناكوس:

- هذا لا يهم. قد استكم تعرفون هذه الموضوعات حق المعرفة وسوف توضحونها له.

وصاح قسطندي:

- دعه يتكلم، دعه يتكلم.

وتشجع أهل القرية فهض ديمتري الجزار وأندونيس الحلاق والشيخ كريستوفيس وبدأوا يصفقون ويصيحون:

- دعه يتكلم، دعه يتكلم.

وهز القسيس جريجوريس كتفيه استخفافاً وقال:

- لكم ما تريدون. اسكتوا ولا داعي لهذه الضوضاء.

وفي تأفف واشمئزاز وضع يده على رأس مانولي وقال له:

- أسأل الله أن يلهمك الصواب وينير بصيرتك...

ثم عقد ذراعيه إلى صدره وانتظر لسمع ما عساه أن يقول.

تقدم مانولي بضع خطوات إلى الأمام حتى توسط الجمع. ودحرج ياناكوس وقسطندي حجراً كبيراً ليقف فوقه مانولي. وأحاط به أهل القرية رجالاً ونساء. واقترب منه أيضاً القسيس فوتيس وشعبه. وأوماً هذا برأسه تحية للقسيس جريجوريس فتظاهر بأنه لم يره.

واستدار مانولي ناحية الشرق ورسم علامة الصليب، ثم بدأ حديثه:

- إخوتي، أحب أن أتحدث إليكم عن المسيح. وإني أستمحكم عذراً،

فلست بالمتقف الذي يجيد صياغة العبارات الرشيقة الفصيحة. حدث ذات مساء وبينما كنت جالسًا عند حظيرة الرعي والشمس تأذن بالمغيب أن أتاني المسيح، وجلس إلى جوارى فوق المقعد الحجري. جلس في بساطة وهدوء كأنه جار أنيس. كان يحمل على كاهله زكينة فارغة. وتنهد قبل أن يتركها تسقط عن كاهله إلى الأرض. كانت قدماه متربتين، والجروح الأربع التي أصابت جسده المقدس من المسامير انتكأت من جديد وعاد الدم ينزف منها. وقال لي بصوت حزين: «هل تحبني؟» وأجبت: أجل يا سيدي. مرني أن أموت من أجلك. وهز رأسه المقدس وابتسم. ولم يفعل شيئًا. واحتوانا الصمت لفترة غير قصيرة. وانتابني خوف عقد لساني، فلم أجروء على الكلام. وبعد قليل قلت له: هل أنت متعب يا سيد؟ قدماك علاهما التراب والدم، من أين أتيت؟ وأجابني قائلاً: «فرغت من جولة بين القرى، وزرت ليكوفريسي أيضًا. أطفالى جوعى. أخذت معى هذه الزكينة لأجمع فيها الصدقات. انظر ها أنذا أعود أدراجى والزكينة فارغة تمامًا. إني متعب....».

وصمت ثانية. وشخص كل منا ببصره إلى الشمس الغاربة. وفجأة ارتفع صوته المقدس الذي أثقله الندم:

- لماذا تدعى حبي وترضى بالقعود هنا هادئًا، عاقدًا ذراعيك إلى صدرك؟ هل تطمع في الراحة؟ تنعم بالأكل والشراب وتقرأ كلماتي كما يحلو لك، وتبكي لسماحك قصة صلبى، ثم تذهب بعد ذلك كله إلى السرير لثنام قرير العين هادئ البال. ألا تخجل من هذا؟ أهكذا يكون حبك لى؟ هل هذا هو ما تسميه الحب؟ قم.

وقمت، وألقيت بنفسي عند قدميه المقدستين باكياً وأنا أقول:

- إلهى وقعت فى الخطيئة. أسألك الصفح والغفران. مرنى وأنا عبدك المطيع. فقال لى:

- أمسك بعصا الرعى واذهب إلى الناس. اجمعهم حولك وتحدث إليهم ولا تخف.

- وماذا عساي أن أقول يا سيد؟ لست مثقفًا، كما أننى فقير خجول. عندما أبصر حشود الناس ينتابنى خوف وأعدو هاربًا. والآن ترسلنى لأتحدث إليهم.

ماذا عساي أن أقول لهم؟

- اذهب قل لهم إني جائع أطرق أبوابهم وأمدد إليهم يدي وأصرخ صدقة أيها المسيحيون.

ضاق صدر القسيس جريجوريس، وبدأ يهتاج لهذا الحديث. وتلملم في مكانه. وتثأب الشيخ بطريار كاس، وبدأ يدبر في نفسه وسيلة ينسل بها من وسط هذه الجموع وينأى بعيداً عنها، إذ إنه أحس بالجوع، واقترب الشيخ لاداس من القسيس وأسر إليه بكلمات:

- ستنتهي هذه المسألة نهاية سيئة. مره بالسكوت.

ولكن أهل القرية كانوا يصغون إليه فاغرين أفواههم. تملأ صدورهم انفعالات جياشة، وبدأ يستبد بهم خوف غريب رويداً رويداً. خيل إليهم وكأنهم رأوا المسيح حقاً، ضامراً نحيلاً، شريداً حافي القدمين، يطرق أبوابهم يسألهم الصدقات فيصدونه ويصرخون في وجهه من وراء أبوابهم: «إليك عنا، حن الله عليك». ألم يطردوا القسيس فوتيس على هذا النحو منذ أيام عندما أتى إليهم حافي القدمين يحمل زكية فارغة على كاهله؟

التقط مانولي أنفاسه. وتساقطت حبات من العرق فوق جبينه. جال بعينه بين الجموع، وتفرس وجوههم الواحد بعد الآخر، وارتسمت على وجهه أمارات التأنيب والمرارة، وكذلك سيماء العزة والكبرياء، حتى أن الجموع كانت تشخص إليه في حيرة ودهشة.

ورسمت امرأة عجوز علامة الصليب. وهمست في أذن جارتها:

- رحماك يا رب. هل هذا هو مانولي حقاً، راعي غنم الشيخ بطريار كاس، وابن أخ الأم ماندالينا؟ أبداً، لا يمكن أن يكون هو بأي حال من الأحوال - اغفر لي يا رب خطيئتي هذه - هل تنزل المسيح إلى الأرض ثانية بسبب خطايانا؟ ما رأيك في هذا يا جارتني؟

- اسكتي يا أم بير سيفون. اسكتي فإنه سيتحدث ثانية.

بسط مانولي ذراعيه عن يمين وشمال وصاح:

- إخوتي، أخواتي، يا أهل ليكوفريسي رجالاً ونساء، إنني لم آت إليكم بدافع

من نفسي. إذ كيف لي وأنا الخادم الوضيع، والفقير المعدم، أن أجرؤ على الحديث إليكم، وألقن الدروس لسادة القرية الأثرياء ذوي الحسب والنسب، والأعيان أصحاب المقامات الرفيعة، وإلى من هم أكبر مني سنًا؟ لم آتيكم بدافع من نفسي وإنما أرسلني إليكم المسيح. وكل ما أفعله أنني أردد على سمعكم الكلمات التي أمرني أن أبلغكم إياها. إنه يستصرحكم قائلاً: «صدقة أيها المسيحيون فإنني جائع» إن من يجود بما عنده على الفقير فإنما يقرض الله قرضًا حسنًا. ومنذ أيام ذهب واحد من أبناء قريتنا لزيارة إخوتنا اللاجئين فوق جبل ساراكيينا. كانوا جوعًا لا يجدون ما يسدون به رمقهم، عراة لا يملكون ما يسترون به أجسادهم، بلا مأوى لا يجدون مكانًا يتوسدون به. وحمل إليهم كل ما يملك من حطام هذه الدنيا، ونادى عليهم: «تعالوا يا إخوتي، خذوا ما يحلو لكم، لنقتسم معًا كل ما أملك لا أسألكم عليه ثمنًا، ولا تحسبته منة. وإنما أقرضه الله ليحزبني عنه خيرًا يوم الحساب».

ضاق الشيخ لاداس ولم يعد يحتمل المزيد. وأحس بغصة في حلقه. وأشار إلى القسيس جريجوريس إشارات تعني أن يخرسه، ولكن دون جدوى. وأخيرًا تدخل هو بنفسه. وعوى بأعلى صوته:

- معنى هذا أن سيادتكم تطالبونا بأن نوزع كل ما جمعناه رزقًا حلالًا بعرق الجبين، ونحصل مقابل ذلك على كمبالة تسدد لنا في العالم الآخر؟ يا لله!! أي تفكير هذا؟ ابتغاء العمل الطيب لا غير لنطلي به جدران بيوتنا. سأقول لك كلمة واحدة يا بني ولا تضيق بها: أنت لم تفهم على وجه الدقة ما قاله لك المسيح. عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة، هذا هو رأيي. وقاطعه ياناكوس:

- دعه يواصل حديثه يا أب لاداس. لقد عرفت من الذي أرسله إلينا. المسيح هو الذي يتكلم بلسانه.

وثارت ثائرة الشيخ لاداس وصاح:

- هل هو أنت يا ياناكوس الذي تواتيك الجرأة على أن ترفع صوتك؟ ألا تخجل، انتظر حتى نسوي حسابنا سوياً.

وأراد ناظر المدرسة أن يلقي ببعض الأفاويه التي اعتاد أن يهدئ بها الأمور إذا

استفحلت.

- كل ما تقوله يا مانولي كلام طيب وجميل، ولكن لا يمكن تحقيقه. إنك تحرث في البحر يا صديقي. لسنا آلهة وإنما نحن بشر. ومن ثم ينبغي أن تقومنا حسب مقاييس البشر. وأجاب مانولي:

- وهذا هو عين المقياس الذي اخترته. هذا هو المقياس الذي أقيس به. وإنني أسأل كل من جشم نفسه مشاق الحضور إلى هنا للاحتفال، من منكم المسيحي؟ فالمسيحيون جميعاً يؤمنون بالعالم الآخر. وما معنى الإيمان بالعالم الآخر؟ معناه أن أعمالنا في هذه الدنيا سيزنها الرب إلينا في العالم الآخر ويقدرها حق قدرها. سيعاقب المسيء ويثيب المحسن. إن من يقدم حسنة لإخوته في هذه الحياة الفانية سيجزيه الله عنها خير الجزاء في الحياة الخالدة. ولهذا يا أب لاداس أقول لك إن عشرة عصافير على الشجرة خير من عصفور واحد في اليد. وتمتم الطائر الجراح العجوز: «إنك لأحمق حقاً».

وصاح بعض أهل القرية من ذوي النفوس النقية الطاهرة:

- حسناً، ما الذي يجب علينا أن نعمله؟ بماذا أمرك المسيح؟ تحدث إلينا يا مانولي بوضوح وبساطة حتى نفهمك ونرى إن كان هذا ممكناً أم لا. وقال شيخ ما زال قوي البدن صحيحاً معافى:

- لا تطلب مني أن أجود بكل ما عندي وأتخلى عن كل شيء. فهذا عين المستحيل ودونه خرط القتاد. وقال مانولي:

- ها نحن في موسم الحصاد يا إخوتي، ونحمد الله أن بارك لنا في حصاد هذا العام. وبعد أيام يحين موسم قطاف العنب، وبعده بقليل يكون موسم جمع الزيتون. حسناً، لنستمع معاً إلى صوت المسيح الذي تنقطع له نياط القلوب: «يا أهل ليكوفريسي الأبرار، يقف ببابكم إخوة لنا مضطهدون طردوا من ديارهم، والشتاء على الأبواب وسيلقون حتفهم من أثر الجوع والبرد والحزن... والأب إلينا الرحيم يسط لوحه المحفوظ ويشهد أهل ليكوفريسي، ويثبت في لوحه

أسماءهم جميعاً وتواريخ ميلادهم وكم من الأموال يملكون وبكم من أموالهم جادوا على المساكين. فيكتب على سبيل المثال: أنستاسيوس لاداس بن ميخائيل، في يوم كذا يملك كيت وجاد منها بكذا. وفي يوم القيامة سيرد له الرب ما جاد به بفائدة قدرها كذا.

عاد الشيخ لاداس ينظر إليه وهو يضحك في استخفاف وقال ساخراً:

– إذا اعتمدت على هذا فحصادك الريح...

وواصل مانولي حديثه:

– وهكذا يا حضرة الناظر يتضح لك أننا نستخدم المقياس البشري الذي طالبتنا به. على كل صاحب أرض أن يقرض الله عشر محصوله بعد كل حصاد كما يأمرنا بذلك المسيح، لنساعد إخوتنا فوق جبل ساراكيينا عامّاً أو عامين حتى يقفوا على أقدامهم. وثمة شيء آخر، هناك من يملك أرضاً زراعية مهملة أو أرضاً بوراً أو أرضاً لا يجد متسعاً من الوقت لبذرهما وفلاحتها. أليست هذه خطيئة في نظر الرب؟ لنعطها لهم يتولون بذرها وحرثها ونقتسم غلتها معهم مناصفة، وهذا من شأنه أن يعود بالشراء على القرية، وبالخير على هؤلاء الجوعى ويتوافر لهم طعامهم الذي يحتاجون إليه. تعساً لكل من ارتضى لنفسه من أهل ليكوفريسي أن يطعم حتى يتخمد ولا يفكر في أطفال ساراكيينا. كل إنسان يموت جوعاً فوق أرضنا معلق برقابنا ويشدنا إلى الدرك الأسفل من النار. كم عدد سكان ليكوفريسي؟ ألفان؟ كل من يموت جوعاً في ساراكيينا سيتحول إلى ألفي جثة تتعلق حول رقابنا كأنها عقد يحيط بها. وذات يوم سنمثل أمام الرب إلهنا وحول رقابنا هذا العقد الذي تتألف حياته من جثث الجوعى.

سرت رجفة بين أهل القرية. ورفع البعض يده عن غير وعي منه يتحسس رقبتة. ورأى البعض بعينه ألفين من أهالي ليكوفريسي معلقين في الهواء يساقون زمراً إلى الجحيم يوم الحساب، كل منهم يحمل حول رقبتة مسبحة حياتها من الجثث يتفاوت عددها، بعضها عشرًا أو خمس عشرة أو عشرين. والملائكة صافات من حولهم تسد أنوفها من هول الرائحة النتنة التي تنبعث منها.

وصاح أندونيس الحلاق الذي لا يملك سوى بضع أشجار كرم وحقل صغير:

- لك ما تريد. أمسك أنت أيضًا بكتاب يا مانولي واكتب فيه: أنا أندونيس
يانيديس بن كراسيفولوس، حلاق ليكوفريسي، أتعهد بأن أقدم عشر محصولي
لإخوتي اللاجئين فوق جبل ساراكيئا. وأقدم ذلك قرصًا للرب إلهي. اكتب ذلك
عندك يا مانولي، والرب الرحيم يسجل ذلك في كتابه أيضًا وأنا أؤمن به.

وعلت أصوات كثيرة ولوحت أيدي هنا وهناك.

- وأنا أيضًا، وأنا أيضًا، اكتب يا مانولي.

وأشرقت عيون بالدمع. وفاضت أخرى خوفًا وجزعًا. وحملت عيون في
مانولي حقدًا وكرهية. وانسل الشيخ بطرياركاس خفية وتوارى وراء صخرة كبيرة
ووضع أمامه فوق أوراق الليمون خنزيرًا رضيعًا مشويًا بقي منه بعد عشاء البارحة.
وتمتم وهو يلوك طعامه في نهم:

- لا أمل فيه هذا المسكين مانولي. لن يمضي وقت طويل حتى يطاردونه
ويقذفونه بالطماطم الفاسدة.

وفي هذه اللحظة رفع القسيس جريجوريس يده غاضبًا، وحاجباه يرتعشان
في حركة هستيرية تخال لو أنك لمستهما بطرف إصبعك لتطير منهما الشرر.
وصاح:

- يا أبنائي أهل ليكوفريسي. استمعوا. استمعوا إليّ، لا يخذعنكم كلام هذا
الأفاق فتقعوا في حباله. خذوا حذرکم. تذكرون أن العالم يركز على أربعة
أعمدة، الأعمدة الثلاثة الأولى هي الإيمان والوطن والشرف. والعماد الرابع
العظيم هو الملكية، لا تحاولوا الإخلال بها. الله بوسع حكمته يوزع الثروات
حسب ناموس لا نعلمه نحن لأنه ناموس الرب يعرفه هو وحده. وعدالة الرب
شيء، وعدالة الإنسان شيء آخر. خلق الله الغني والفقير. وتعمًا لكل من يتجرأ
على الإخلال بهذا النظام فإنه بذلك ينتهك إرادة الله. وإني نادم أن أذنت لك
بالكلام يا مانولي، أيها المارق انزل واذهب لترعى غنمك. فهناك مكانك الذي
حدده لك الرب. عليك أن تلتزم مكانك هناك ولا تبرحه. ولا تطمع فيما هو أعلى
من ذلك. لا تحاول أن تنمو في مكان غير المكان الذي وضعت فيه بذرتك. واعلم
أن كل هذه الترهات التي تفوهت بها هي كلام ضد إرادة الله، فهو المدبر صاحب

الأمر والنهي، وكل ما يحدث في العالم يحدث حسب مشيئته.
وبدأ القسيس جريجوريس يخرج عن الموضوع. إذ استدار ناحية القسيس
فوتيس الذي ظل طوال ذلك الوقت يستمع إلى ما يقال مطرقاً برأسه. وصاح:
- اسمعني أيها القسيس فوتيس. كنا نعيش في هدوء وسلام، ننعم بالوفاق
في قريتنا ويسود النظام حتى أتيت بعصابتك، وبعدها عم الشقاق. فلم نعد نسمع
الآن غير الشكوى والفضائح والسرقات. وتجراً الفقراء يحاولون رفع رؤوسهم
والأغنياء لم يعد يهناً لهم نوم. ولكن صبراً سيعود الأغا قريباً، وسيخر مجلس
الأعيان عند قدميه، يتوسل إليه أن يطردك بعيداً حتى يسود السلام ربوع القرية من
جديد. اذهب إلى أي مكان آخر، تصحبك عناية الرب، ولكن ليكن مكانك بعيداً
عنا. وها أنذا أبلغتك كلامي.

ورفع القسيس فوتيس رأسه وقال في هدوء:
- أنت على حق يا أبانا فيما تقول. فكل ما يحدث في العالم إنما يحدث
بمشيئة الرب. وعندما تكلم مانولي إنما كان ينطق بكلمات فاض بها قلبه. وكانت
هذه إرادة الرب. وأثقل الحزن قلوب بعض أهالي ليكوفريسي حين سمعوا قصة
الأمنا، وفاضت عيون بالدمع، وفتحت بعض خزائن الطعام... كل هذا حدث لأن
الرب أراد ذلك. وإذا كنا قد أتينا إلى هنا لننغص عليكم حياتكم الهادئة الوداعة فقد
حدث ذلك أيضاً لأن الرب أراده. لأن المياه التي تظل راكدة زمناً طويلاً لا بد وأن
تفسد، وكذلك الروح، تفسد إذا عاشت في دعة وسكون زمناً طويلاً. وأرسلنا الله
إليكم لنكون الريح التي تثير العاصفة فتحرك صفحة الماء وتبعث فيها الحياة من
جديد، وتدب الحياة في النفوس الميتة من جديد.

والتفت ناحية أهل ليكوفريسي:
- إخوتي، كنا من قبل مثلكم، أصحاب أراضي وأملاك، نعيش حياة رغدة.
واليوم أصبحنا معدمين نمد أيدينا بالسؤال. قمت بجولة بين القرى، طرقت
الأبواب كلها الواحد بعد الآخر، وعدت بعد ذلك إلى شعبي صفر اليدين. لو كان
الأمر يتعلق بي وحدي ما كنت أبالي أيضاً، فقد عاشوا حياتهم، ولكنني حزين من
أجل الأطفال، كل يوم يموت أحدهم جوعاً، ومن بقي منهم حياً لا تقوى ساقاه

على حملة. ترى ما الذي يحتاجون إليه؟ كسرة خبز، وقطرة زيت، وخرقة يتدثرون بها. لو توافرت لهم هذه التوافه التي تلقون بها إلى الكلاب أو بين القمامة فستكتب لهم الحياة من جديد. إن كنت أسأل صدقة فإنني أسألها من أجل هؤلاء الأطفال. من أجلهم أمد يدي وأصيح بأعلى صوتي: «صدقة أيها المسيحيون».

وأطرق الأب فوتيس برأسه ثانية، وعاد إلى صمته، أصفر الوجه في لون الشمع، واسع العينين، عاقداً ذراعيه إلى صدره، ترى ذراعيه تلمعان وقد نتأت عظامهما تحت هذا الجلد الرقيق الشفاف.

وتردد صوت نشيج بين الناس هنا وهناك. انخرطت ماريوري في البكاء وهي تحاول جاهدة أن تكتمه. وإذا بفتاة عروس تخلع عقدها الذهبي من حول جيدها وتواريه في خجل كأنها سرقة. واستمع ديمتري الجزار إلى صوت الرب يتحدث إليه بين جوانحه قائلاً:

- عندي عجل سمين كنت أعده لأذبحه يوم الأحد القادم وأبيعه للقرية، سأذهب به الآن إلى أهل ساراكيانا وأقتسمه معهم هناك. إنك على حق يا مانولي. إني لأستحي أن أرى الطعام أماننا نملاً به البطون بينما إخوة لنا يموتون جوعاً بجوارنا.

وأخذ الحماس بقلب أندونيس:

- سأصعد إلى جبل ساراكيانا مساء السبت وأحلق لهم جميعاً مجاناً. وأخلع لهم أسنانهم مجاناً لمن شاء منهم ذلك.

وجرف التيار ناظر المدرسة، وتغلب على خوفه:

- عندي بعض كتب الهجاء، وغيرها من كتب الأطفال، وعندي بعض الألواح والأقلام، وخريطة لليونان العظمى، سأضعها تحت تصرف أهل ساراكيانا.

وتمتم الشيخ لاداس في حق شديد:

- ليأخذك الشيطان.

وحدج القسيس جريجوريس أخاه بنظرة مغیظة دون أن ينبس بكلمة.

ودنا مانولي من القسيس فوتيس وقبل يده. وقال بصوت عال:

- ها أنت يا أبانا ترى بعينيك. يجب ألا تيأس. ما زال المسيح حيّاً، وما زال

يمشي على الأرض، تفتحت له القلوب تحتفي به، تشجع يا أبانا.
وتقدم الأصدقاء الثلاثة، ومن ورائهم ديمتري الجزار، وأندونيس الحلاق
يسيران في وجل. ثم تقدم من بعدهم القرويون بخطوات مترددة. وأخيرًا حذا
حذوهم ناظر المدرسة وفي نفسه خوف وقلق وتردد.
واستدار القسيس فوتيس إليهم ورسم الصليب وقال:
- لننصرف يا أبنائي، فنحن أيضًا لنا كنيسة صغيرة أقمناها داخل كهف قديم
كان كنيسة في قديم الزمان. لنذهب معًا نمجد الرب. يومنا يوم عظيم، ارتجف له
قلب الإنسان ولان معه.
والتفت إلى الناس الذين تفرقوا وبدأوا يفتحون حقائبهم التي أثقلها الطعام،
يخرجون منها لحمًا ونبيرًا وقال:
- إلى اللقاء يا أهل ليكوفريسي. كلوا واشربوا هناء وصحة وعافية. وامنحنا
بركاتك يا أب جريجوريس.
وزأر القسيس البدين:
- بل لعناتي أيها المتمردون، واللعنة على كل من يتبعك أيها الأثيم.
ورد عليه القسيس المهلهل الجائع بصوت هادئ رقيق وهو يشير بإصبعه
النحيل إلى السماء:
- لعل الرب الذي مايز بين الظلمة والنور أن يكون حكمًا بيننا. فهو وحده من
نثق به!.

لعنة القسيس

كان القسيس فوتيس وأصدقائه الأربعة أمام الكهف الذي تحول الآن إلى كنيسة. جلسوا فوق أرائك حجرية نحتها المسيحيون الأول يوم أن هربوا من اضطهاد عبدة الأوثان، فلاذوا بهذه الكهوف واتخذوا منها مأوى لهم.

وعقب الجو برائحة النعناع والسعتر. وبدأ الليل زحفه، وألقى بظله على الأرض أزرق شفافاً. وساد السكون. غير أنه بين حين وآخر يطرق أسماعهم أنين طائر من طيور الليل برحه الجوي، أو صرخة آخر يجد بحثاً عن دودة أو فراشة أو فأر ينقض عليه ويلتهمه. ودنت النجوم هذا المساء حتى تخالها معلقة بين السماء والأرض. وran الصمت على الرفاق الخمسة فترة طويلة من الزمن.

قضوا نهارهم ينتقلون من كهف إلى كهف، يتحدثون إلى إخوانهم الذين غلبوا على أمرهم، فملاً الإعجاب جوانحهم بهؤلاء الرجال، إذ كيف لاءموا حياتهم مع هذا المكان الموحش، وكيف يعمل القسيس فوتيس في دأب لا يعرف الكلل، يسأل الناس الصدقات، ويشاور قومه في الرأي، ويشد من أزهرهم، ويبتهل إلى المسيح أن يتنزل إلى الأرض فوق ساراكيينا وليكوفريسي ليشهد ويحكم.

وبعد أن أضناهم التعب والأسى، أتوا إلى حيث جلسوا فوق الأرائك الحجرية التي نحتت في الصخر يتأملون الليل وهامت أرواحهم. وجاشت صدورهم هذه الليلة بانفعالات غريبة ترتجف معها أجسادهم. أحسوا كأنهم طردوا من كل الديار، فلاذوا أخيراً بهذا المكان حيث قبعوا أمام الكهف وكأنهم يدبرون مؤامرة.

ما هي مؤامرتهم؟ إنهم هم أنفسهم لا يعرفون، ترى ما الذي ستفعله هذه الأرواح الخمسة؟ ما الذي في استطاعتهم أن يطوحوا به؟ ما هو العالم الجديد الذي يستطيعون بناءه؟ وكان الجو الذي يحيط بهم ما زال يخفق ساخناً. وأحسوا بأن ثمة وجوداً سماوياً قدسياً حاضراً معهم ولا يبصرونه.

وأراد ياناكوس أن يخفي انفعاله فقال:

- ليلتنا ليلة جميلة حقاً.

وارتجفوا فرقاً لسماعهم صوت إنسان؛ إذ كان السكون أشبه بحلم جميل صدعه ذلك الصوت فانتفض مدعوراً يوشك أن يفر هارباً.

وتجرأ قسطندي وقال:

يا أبانا، مضت أربعة شهور منذ أن اختارنا مجلس الأعيان وحدد أدوارنا لتمثيل السر في رواق الكنيسة. إلا أن مشاغلنا ومتاعبنا اليومية أبعدتنا عن الطريق المرسوم طوال هذه المدة، ونسينا هدفنا. وهذا هو الوقت الذي اجتمع فيه شملنا لتدبر أمرنا. ولكن ماذا نحن فاعلون؟ وكيف؟ لا بد وأن قداستكم تعلمون ذلك حق العلم، إننا نسألك العون.

مضت فترة دون أن يجيب القسيس فوتيس. بدا وكأن فكره يحلق بعيداً وتأخر حيناً حتى يعود.

وأخيراً دنا القسيس من أصدقائه، وسمع السؤال وابتسم ثم قال:

- ما الذي ينبغي أن تفعله يا قسطندي؟ استمر فيما أنت عليه، ولا شيء آخر. سلكتم يا أبنائي الطريق السوي، الذي يؤدي إلى الآلام المقدسة وصلب المسيح. وليس ثمة طريق خير منه.

واحتج مانولي في خضوع:

- ولكن ما الذي نفعله؟ نحن لا نفعل شيئاً يا أبانا...

وتنهذ ميشيل في حيرة وقال:

- لا شيء، لا شيء البتة.

وضغط القسيس على يد العمدة الصغير في حنان وأجاب قائلاً:

- هل نسيت السلال يا ميشيل. وهل نسيت يا ياناكوس يوم دعوت المساكين

ليقاسموك بضاعتك ابتغاء أن تدخل على قلوبهم المسرة؟ وأنت يا قسطندي، أنت الإنسان البسيط الذي كان بالأمس صاحب مقهى متواضع، ألم تترك عملك لتصعد إلى الجبل وتقاوم الظلم؟ وها أنت على استعداد لملاقاة الموت من أجل فكرة تؤمن بها؟ ألم يحمل مانولي كل خطايا قومه وسعى راضياً إلى الموت لخلاص قريته؟ حتى بانايوتي، هذا الرفيق التعس - ماذا يفعل سوى أنه يعد نفسه لهذا الدور الرهيب، دور يهوذا؟ إنكم تعدون أنفسكم يا أبنائي، تعدون أنفسكم دون أن تعلموا ذلك. وهذا هو الطريق السوي.

ثم خيم صمت طويل. وتنهذ مانولي، وهو يحملق في نجم يتراقص مبتسماً على صفحة السماء. فصديقنا الراعي يعرف هذا النجم حق المعرفة ويحبه. كثيراً ما كان ينظر إليه وهو راع صغير، يسخر منه النجم ويظنه مانولي نجم الصباح حتى أنه كان يجمع أغنامه ويسوقها إلى المرعى، إنه المشتري. وقال مانولي لنفسه وهو ينظر إلى النجم كأنه رفيق صبا: «أولى بنا أن نسميه النجم الخداع».

أطرق قسطندي برأسه، وغشي قلبه حزن عميق. أحس بأنه هو الوحيد الذي لم يفعل شيئاً، لا شيء على الإطلاق. وآلمه كثيراً أن يكون هو آخرهم جميعاً، حتى يهوذا سبقه في ذلك.

وهز ياناكوس رأسه غير قانع بما قدم. وقال لنفسه: «لم أفعل شيئاً. قدمت بعض النقود، جدت ببعض بضاعتي هدية لهم. ولكن هذا كله شيء لا يستحق الذكر. التضحية الحققة هي أن أجود بحبيبي يوسف اكي. وهذا هو ما أنتظره منك يا ياناكوس. ترى هل تطيق ذلك؟ فكل ما عدا ذلك هباء.

مرة أخرى هامت روح القسيس فوتيس بعيداً. حلقت فوق ربوع وطنه، وتنقلت بين أماكن يأنس إليها ويعرفها حق المعرفة، ثم عادت أدراجها حتى استقرت أخيراً فوق جبل قفر يسمى جبل ساراكيئا. كان الظلام دامساً، وضوء النجوم شاحباً هزياً، فلا يكاد يميز في وضوح الوجوه الأربعة الحبيبة والصخور ترتفع خلفها. وارتفع صوت القسيس عميقاً قوياً مفعماً رقة وحناناً:

- يا أبنائي، يبدو لي أحياناً أن روح الإنسان تشبه زهرة الليل. تظل داخل أكمامها طوال النهار وتفتتح مع ظلام الليل وتملأه بشذاها العطر. وهذا ما يحدث

معنا الليلة، فبرغم عتمة الليل التي تحتوينا حتى لا أكاد أراكم بوضوح أشعر كأن روحي تفتتح. وعدتكم ذات يوم فوق الجبل الذي يعيش عليه مانولي أن أقص عليكم قصة حياتي. ترى هل تذكرون ذلك اليوم؟ أحسست ذلك المساء بالخجل عندما انحنيت أمامي قبلون يدي وأنتم لا تعرفونني من أنا وأي يد تلك التي تقبلونها.

وتأثر مانولي من هذا الكلام وقال:

- ونحن أيضًا تفتحت أرواحنا الليلة يا أبانا. كلنا آذان صاغية.

وبدأ القسيس فوتيس حديثه على نحو ما يبدأ الرواة عادة: بطيئاً في إيقاع وقال:
- قرب بحر مرمرية وعلى الجانب المقابل لمدينة القسطنطينية تقع قرية صغيرة ساحرة الجمال غنية بالحدائق الممتدة على طول الشاطئ. اسمها أرتاكي. وهي مهبط رأسي. كان أبي قسيساً صارماً. صموتاً. فظاً غليظاً.. يشبه وجهه وجوه الزهاد المنقوشة فوق جدران الكنائس القديمة. وكان جدي قسيساً كذلك. ورغباً في أن أصبح قسيساً بدوري. بيد أنني كنت راغباً عن هذا كارهاً له في أعماقي. كنت أحلم بالأسفار والتجارة، وأن أملأ خزائني ذهباً لأشتري به بعد ذلك بنادق أسلح بها رجالي، وأحرر أرتاكي من الأتراك. ولدت ثائراً كما ترون، وامتلاً رأسي بأمانني تقصر دونها الهمم.

لم أكن أخشى أحداً في حياتي غير أبي. كنت أرتعد منه فرقاً، وإذا كنت انتظمت في دراستي بالمدرسة وبرزت أقراني فلم يكن ذلك عن حب للدراسة وإنما عن خوف. وأتممت دراستي بالمدرسة، وحزمت أمني حقائبي (وكانت أمني رحمها الله امرأة تقية ورعة) وضعت في الحقائق ملابس، وأيقونة تعمد المسيح وبعض البسكويت، وجوزاً وعنباً وتيناً جافاً ممزجاً بالسهمسم. وأرسلوا بي إلى القسطنطينية حيث معهد اللاهوت.

ولكن وأسفاه. من أين لي الصبر والتقوى زاداً أتزود بهما فيكونا لي عوناً على مواصلة دراسة اللاهوت؟ كنت ثائراً! متمرداً! لا يهدأ لي بال. قضيت حياتي هناك أذرع القسطنطينية طوياً وعرضاً كمن أصابه مس، مسحوراً بجمالها الذي يخطف بريقه الأبصار. تسلطت عليّ فكرة واحدة: كيف لي أن أحرر

هذه الأراضي والمياه المقدسة من الأتراك.. وذات يوم نشبت حرب ١٨٩٧^(١) وشب معها حريق في رأسي، فمضيت أصرخ: «دقت الساعة لتلقي بالأتراك إلى الجحيم». وقررت أن أنسل سرًا فوق ظهر قارب، ونجحت في ذلك. ورسوت عند ساحل اليونان، وارتديت ملابس الثوار، وتسلمت ببندقية، وتمنقت بحزام من الأعيرة النارية، و انطلقت في طريق مع بعض الثوار إلى حرب الأتراك. وصعد الأب فوتيس زفرة حارة، ثم قال بصوت ساخر يفيض مرارة:

- آه. كانت حربًا غير متكافئة. كنا كمن يضرب في حديد بارد.. لعنة الله على الدولة يا أبنائي، نعم عليها اللعنة. فهي التي ألحقت بسلالتنا الدمار. وأمسك عن الكلام لحظة، وسرح فكره، ثم لوح بيده كمن يلقي بعار الوطن وراء ظهره، وعاد إلى حديثه:

- لنعد إلى حديثنا عن مغامراتي. إن اليونان بلد خالد، بوسعها أن تخاطر بأعمال كثيرة، ولديها الوقت الكافي لإصلاح ما فسد. ولكن هل بوسعي أنا، المخلوق الوضع الزائل، أن أحلق في الفضاء وحدي؟ ولكن باختصار، بعد أن حفيت قدماي، عضني الجوع وترهل بطني حتى أصبح كالبالونة الفارغة، حدث ذات يوم وبينما كنت أنسكع على أرصفة بيريه بحثًا عن قارب يحملني إلى أرتاكي أن وقع بصري على بعض اللاجئين اليهود، رسوا بزورقهم على رصيف الميناء. ونظرًا لأنني ابن قسيس، أبا عن جد كما قلت لكم، فإنني ما كنت أرى يهوديًا حتى أذكر أن اليهود هم الذين صلبوا المسيح، فيغلي الدم في عروقي. وقضيت يومي فوق الرصيف أمتع ناظري برؤية هؤلاء اليهود بأنوفهم الطويلة المقوسة، ولحاهم الحمراء الشعثاء، وعيونهم المتورمة الكدرة، وعباءاتهم الكالحة البالية. قضا وقتهم في صياح وصراخ، يدفع بعضهم بعضًا في سباق من أجل النزول إلى البر. وفجأة ندت صرخة حادة: زلت قدم فتاة يهودية وسقطت في الماء وغاصت في اليم كما يغوص الحجر. ولم يبد واحد منهم حراكًا لإنقاذها، ولم أحتمل ما

(١) سادت اليونان في تلك الفترة حركة فكرية ثورية دفعت الحكومة اليونانية إلى الدخول في حرب ضد الأتراك عام ١٨٩٧ لاستعادة الأراضي اليونانية التي كانت خاضعة آنذاك للإمبراطورية العثمانية. وانتهت تلك الحرب بهزيمة اليونان.... (عن الترجمة الفرنسية).

رأيت. وحدثت نفسي: «إنها بشر مثلنا، فلها روح هي الأخرى. وألقيت بنفسي إلى الماء كما أنا، وأمسكت بها من شعرها وانتشلتها خارج الماء، وصعدت بها إلى الرصيف. وسرعان ما تدافعت النساء لإسعافها وتدليكها حتى تفيق. ووقفت تحت الشمس أجفف ملابسي. وفي هذه الأثناء التفت ناحيتها ورأيتها: شقراء ذات أنف أفني، وجلد غطاء النمش. وفتحت عينيها الزرقاوين ورنّت إليّ كأن هناك من قال لها إنها مدينة لي بحياتها. ورأيت عينيها واستبد بي الفزع، إذ سقطت بدوري في بحر أزرق أغوص في مائه ولا منقذ.

وتهدج صوت القسيس، وهز رأسه. وقال بعد لحظة صمت:

- هذا العالم سر غامض. وعقل الإنسان قاصر عن بلوغ حكمة الله في تدبيره لشئون خلقه، فالخلاص والهلاك يأتيان من حيث لا يتوقع الإنسان، حتى أننا لا نعلم أي الطرق تؤدي إلى الجحيم وأيها إلى الفردوس. خيل إليّ آنذاك أنني أقدمت على عمل طيب، إذ أنقذت نفساً بشرية. ولكن الحقيقة أنني منذ تلك اللحظة وطئت بقدمي الطريق المؤدي إلى الجحيم.

لم أكن حتى ذلك الوقت دنست نفسي بامرأة. أنتم شباب أصغر مني سنًا، وأخجل من الحديث إليكم عن خطيئة شهوة الجسد، ولكنني سأعترف أمامكم في صراحة وبساطة: وقعت في الخطيئة مع هذه الفتاة. ومنذ ذلك الوقت تغير طعم كل شيء على لساني، الماء والنبذ والخبز والنهار والليل، أصبحت كلها ذات مذاق جديد لم أحسه منها قبل ذلك. واختفى الله من أمامي. واختفى مع الرب أبي وأمي والفضيلة والأمل. ورآني رجل من أبناء قريتي وأخبر أبي بكل ما رآه. وأرسل إليّ القسيس الشيخ رسالة أحرق حوافها الأربع علامة على الغضب. قال لي فيها: «إن كنت تقترب من الخطيئة مع هذه اليهودية فقد حقت عليك لعنتي ولا أريد أن أراك ثانية أمام عيني». وقرأت الرسالة مع خليلتي اليهودية وغرقنا في الضحك.

وحدث لي ذات يوم - وسبق لي أن قصص عليك هذا - أن ذهبت إلى قرية صغيرة لي بها بعض الأصدقاء لنحتفل معًا بعيد القيامة. وصحبتي إلى هناك خليلتي اليهودية. وقصدنا حديقة اتخذنا فيها مجلسنا لنأكل ونشرب. وعندما أمسكت بالسكين لأقطع الشاة صحت بأعلى صوتي، على سبيل المزاح لا غير:

«آه لو وقع بصري الآن على قسيس فأني سأقطع رقبتة». وصاح بي جار يجلس مع المجموعة: «ثمة قسيس يجلس خلفك». واستدرت ورأيت القسيس فانقضضت عليه وقطعت رقبتة. لماذا؟ لأن اليهودية كانت معي وخجلت أن أبدو أمامها فشاراً لا يبر بكلمته.

وزج بي إلى السجن. وكانت اليهودية تزورني كل يوم، وتغسل ثيابي، وتحضر لي الطعام والسجائر. وكانت تمد يدها من بين القضبان لترت بها على وجهي وشعري دامعة العينين. كانت تبكي ليل نهار حتى أصابها النحول وأضناها السقم.. وذات يوم لم تحضر كعادتها، وانتظرتها في الغد ولكنها لم تأت. لا في الغد ولا بعده.. ورأيت فيما يرى النائم القديسة العذراء متشحة بالسواد. وخيل إلي أنها تراءى لي عن بعد. صغيرة جداً ثم بدأت تكبر وتكبر رويداً رويداً كلما اقتربت مني. وكانت شفتاها ترتجفان. إذ كانت تتمم بكلمات لم أسمعها لأنها كانت لا تزال بعيدة عني. وأرهفت السمع. واتضح لي صوتها، وارتفع رويداً رويداً، والعذراء تكبر وتكبر أمام عيني كلما دنت مني. وأخيراً وقفت قبالي، وسمعت كلماتها واضحة تقول: «إنها ستموت.. إنها ستموت.. ماتت» وقفزت من نومي فزعاً. وفهمت ما تعني.

كانت ليلة حالكة السواد، والمطر ينهمر مدراراً. وتسلفت إلى فناء السجن. لم أكن أعرف على وجه التحديد ما أنا مقدم عليه. وتلاشت أمامي حدود القدرة البشرية، كنت على ثقة أنني قادر على عمل أي شيء، أستطيع أن أتسلق سور السجن وأهرب، وأمر بالحارس دون أن يراني. وإذا رأيته وأطلق الرصاص فلن يصيبني. أعمانني الحب والحزن، وفقدت معهما صوابي. استعرضت في ذهني موضع السجن واخترت المكان الذي يمكن لمجنون أو يائس أن يختاره ليتسور منه جدار السجن. وتحسست طريقي واهتديت إلى ذلك المكان تحت جناح الظلام. وتعلقت بالحجارة، وبدأت أتسلق كقط مفترس. كنت أخشى ضوء النهار، ولكنني كما قلت لكم نسيت حدود طاقة البشر، تسورت الجدار وهبطت إلى الجانب الآخر. كان المطر يهطل مدراراً كسيل منهمر. ولم يكن هناك من يراني. فأطلقت ساقبي للريح.

تنفس الصباح مع وصولي إلى بيتها. طرقت الباب ولكن كيف يسمعي إنسان وسط هذا الطوفان الطامي؟ فتسورت الجدار، واجتزت الفناء، وانسللت خلصة إلى مكان السلم، وصعدت الدرج، وفتحت باب حرجتها وناديت عليها بصوت هامس خفيض، ولكن لا مجيب.. سكون مطبق. أشعلت عود ثقاب، فألفيت الفتاة اليهودية مسجاة فوق سريرها شاحبة جامدة بغير حراك، ملتوية الشفتين جاحظة العينين في هلع.. تجرعت السم في تلك الليلة ذاتها، لم تعد تقوى على احتمال الفرقة أكثر من ذلك فانتحرت.

ونفض القسيس فوتيس ونظر حوالبه كمن يبحث عن مهر، ثم جلس ثانية خائر القوى كأنه عائد من رحلة طويلة من الطرف الآخر للعالم. ولزم الصمت فترة طويلة.

وسأله الأربعة وهم يلتقطون أنفاسهم بصعوبة:

- ثم ماذا بعد يا أبانا؟

وقال القسيس:

- هذه هي قصتي.

وسأله مانولي:

- ثم ماذا حدث لك؟ كيف عدت إلى طريق الرب؟

- روح الإنسان سر غامض. أضلني الحب وأبعدني عن الرب، أما الحزن، بارك الله فيه، فهو الذي أعادني إليه ثانية. قصدت جبل آثوس. وكانت الخلوة مصدر خير لي أول الأمر وارتحت لها. وهدأت روحي قليلاً. ولكن اليهودية اقتحمت عليّ خلوتي مرة أخرى، وضاع الهدوء، وقضت على وحدتي صيحات الفرح وأناث النشيج. ولم أقو على احتمال ذلك وذهبت إلى سيدي وأعلنت له أنني غيرت رأيي وأريد العودة من جديد إلى الحياة الدنيا. ومنحني بركاته، وغادرت الدير. وطالت بي المسيرة، حتى وصلت إلى قرية صغيرة. وسمعت صوتاً يهتف بداخلي: «ابق ها هنا». وأذعنت لهذا الهاتف. وتزوجت بعد ذلك ورسمت قسيساً هناك. وقررت أن ألقى بنفسي بين أحضان العذاب والآلام في هذا العالم. ألتمس فيهما السلوى والنسيان. وفعلت ذلك. ودهم المرض حياتي، إذ أصاب زوجتي

ووافتها المنية، ومات أطفالي من بعدها، ووجدت نفسي وحيداً من جديد، أقف جريحاً أمام الرب وجهاً لوجه. ثم جاء اليونانيون ومن بعدهم الأتراك.. وتعرفون بقية القصة. حمداً لله على كل مكروه ابتلاني به، وكل خير أنعم به عليّ. وانحنى الأصدقاء الأربعة ليقبلوا يد القسيس المعذب.

وتتم القسيس وهو يتنهد:

- إني متعب، نال مني التعب. عشت حياتي معكم مرة ثانية. إن رحيق هذه الدنيا عقوبة وعزاء مر المذاق. أناجي الرب أحياناً: «إلهي حياة الدنيا جحيم لا يطاق، لولا هذا الأمل العظيم الذي يراودنا طمعاً في ملكوت السماء».

وران عليهم الصمت من جديد. ونهض القسيس فوتيس ورنا بعينه تجاه الشرق، ورسم الصليب فقد تنفس الصباح.

قضى الشيخ بطرياركاس ليلته تلك أرقاً جالساً فوق سريره يصيح السمع للباب الخارجي عسى أن يسمع خطوات ابنه عندما يدخل إلى الفناء.. ظل ينصت طوال ليلته، وكلما سمع وقع أقدام في الطريق نهض واقفاً وأطل من النافذة، ولكن لا أحد. وأشعل سيجارة، وأتبعها بغيرها وغيرها، ثم ألقى بنفسه بكل ثقله فوق السرير ثانية. وعند الفجر غلبه النعاس، ورأى فيما يرى النائم نسرًا ينقض من عليائه إلى الفناء ويختطف ديكه الأبيض، أحب شيء لديه، والذي احتفظ به لنسله. أنشب النسر مخالبه في الديك واختطفه وارتفع به إلى عنان السماء، وبقما كان الديك يصيح ابتهاجاً بمقدم الصباح..

ونفض من نومه مذعوراً، وأحس برعشة تسري في جسده.

ورسم الصليب وتمتم:

- اللهم اجعله خيراً.

وصفق يديه ونادى لينو. أتت إليه والنوم لا يزال يغالبها، مرتدية لباس النوم، فبدت شبه عارية، شعثناء الشعر، لامعة العينين، نافرة الثديين كأنهما يحاولان الفكاك من صدرتها البيضاء. وقال لها:

- اسمعي يا لينو، هل عاد ميشيل؟ أين قضى ليلته؟ أين نام؟

- لم يعد يا سيدي. نظرت داخل حجرته وأنا في طريقي إليك فلم أجد بها أحداً، وفراشه كما هو لم ينم عليه أحد.

وضحكت ضحكة العارف ببواطن الأمور وقالت:

- ماتت الأرملة. الله أعلم أين يذهب الآن شباب القرية الذي يقضي ليلته خارج بيته.

- أخبريه فور وصوله أنني أريد أن أراه.. انتظري.. ما الذي فعلته بالأمس أثناء الاحتفال؟ إذ لم يقع بصري عليك.

واحمر وجه لينيو خجلاً، وضحكت في دلال، ولم تجب على السؤال.

- أيتها العاهرة الفاجرة. ألا تطيقين صبراً لأيام قلائل؟ اتفقنا على أن يتم عقد قرانك يوم الأحد القادم حتى تطمئن نفسك، ثم لا تطيقين صبراً. ستعمين بالهدوء الذي سيفتقده نيكوليو أيتها الابنة التعسة.. هل تسمعين ما أقول؟ أراك شاردة اللب، ترى أين تهيم روحك الآن أيتها الرعناء؟ وضحكت لينيو وهي تميس بقدها في دلال، وأجابت:

- فوق الجبل.

وحقاً ما قالت. إذ شرد فكرها إلى الجبل، هنالك تحت ظل شجرة سنديان خضراء مورقة.. كانت قد عادت من جبل ساراكيينا متصبية عرقاً، متقدة الوجنات. وما إن سمع نيكوليو وقع خطواتها حتى استدار ناحيتها، وثغا كما يثغو التيس، وتعلق بجيدها وطرحها أرضاً في وحشية وصمت.. ودنا منهما الكبش الكبير، وتحسسها بفمه، وشم رائحتها فتعرف عليها، وثغا هو الآخر مثلما فعل سيده، ولبث بالقرب منهما وهو يلحق شفتيه.. وفجأة طرق سمعها الصوت الأجلش لسيدها العجوز، فوثبت في مكانها.

- أين سرح فكرك أيتها العاهرة الصغيرة؟ ألم تسمعي حديثي إليك؟ ألا زال فكرك هائماً هنالك فوق الجبل؟

وأجابت لينيو:

- طوع أمرك يا سيدي.. معذرة فلم أسمع ما قلت.

- طلبت منك قهوة (سكر زيادة).. أشعر بدوار، فلست على ما يرام.. ربما

كان الجوع سبب ذلك..

ولكن لينو كانت خارج الباب قبل أن يكمل الشيخ كلامه، تثب فوق الدرج وهي تقف بقبابها.

وأغمض العجوز عينيه، واستعاد حلمه من جديد: «النسر.. ترى ماذا يعني؟ لا أعرف. أسألك اللهم أن تكلاًنا برحمتك وتقي بيتي الشر».

أشرقت الشمس، وامتلاّت دروب القرية بأصوات الرجال وثغاء الماشية ونهيق الحمير. خرجوا جميعاً بشراً وحيوانات إلى العمل، وكلهم يحيي مطلع اليوم الجديد.

أحضرت لينو القهوة المحلاة بالسكر. وجلس العمدة قرب جريجوريس البارحة وأخبره بأنه بينما كان يستمتع بأكل الخنزير الرضيع في هدوء وغبطة استنفر مانولي الفلاحين، زاعماً أن المسيح يأمر كلاً منا أن يقدم نصيباً معلوماً من دخله إلى شعب ساراكيثا. والأدهى من ذلك أن بعض السذج صدقوا ما قال. وذلك الثعلب العجوز المدعو بالقسيس فوتيس، حقيّة القمل، الذي يمثل دور الناسك، أسهم بدوره في تأليب الناس وبذر الشقاق. وانقسم أهل القرية إلى معسكرين: الحثالة في جانب وأكابر القرية في الجانب الآخر.. «انتظر، انتظر، هناك ما هو أدهى وأمر، وها نحن الآن ابتلينا بهذا الملعون المدعو مانولي، هذا المرائي الحقير، يخرج علينا ويرفع علم الثورة والعصيان، يرى في نفسه الزعامة، ويضم ابنك إلى عصابته. ثم هذا التيس العجوز الذي يعلمهم. هل سمعت ما أقول يا عمدة؟ إذا لم يتولنا الرب ويعيد الأمور إلى نصابها فإننا هالكون.

وتتم العمدة بطريار كاس:

- يا صديقي أنا الذي سأضع للأمر حداً بيدي، فإن الله لا يأبه لمثل هذه التوافه من الأمور. هل تحسبن أن لدى الله متسعاً من الوقت لبحث مشاكل البشر جميعاً فرداً فرداً؟ أنا المسئول هنا عن وضع الأمور في نصابها في قرية ليكوفريسي. وسوف أعرك أذن ابني الآن، وبعد ذلك يأتي دور هذا الأبله مانولي.

في هذه اللحظة انفتح الباب الخارجي وانسل ميشيل خلصة.

هب العجوز من مكانه، وأطل من النافذة وصاح:

- نعمت صباحًا يا بني. هل طاب نومك الليلة؟ لعلك تتفضل بالصعود إلينا لنتمتع برؤياك.

وقال الفتى لنفسه:

- حذار يا ميشيل. أمسك عليك لسانك. لا تنس أنه أبوك.

وأجاب:

- إني قادم يا أبت.

وصعد الدرج الحجري، وحيا الشيخ تحية الصباح. ولكن الشيخ لم يتفضل حتى بالنظر إليه، إذ حاول التظاهر بالغضب. كان حتى تلك اللحظة يتوعد ابنه، ولكن ما إن رآه ينسل خلصة إلى الداخل حتى تذكر الشيخ أيام شبابه. كان ينسل خلصة إلى الداخل وقتما كان في مثل عمره، وهنا في هذا المنزل ذاته، بعد سهرة ممتعة مع خلياته. وما إن تذكر الشيخ هذا حتى رق قلبه لابنه وقال لنفسه: كنت مثله تمامًا، ولكنني اعتدت أن أقضي ليلتي في الخارج مع شهواتي، أما هو فإنه يتبادل القصص عن الرب الرحيم مع أصدقائه المجانين.. يا للسما، من يدري، ربما كان هذا أيضًا نوعًا من شهوات الشباب. إنه شاب وعسى أن يبرأ من ذلك قريبًا.. وبينما كان يفكر في هذا ظل موليًا ظهره لابنه، محاولاً أن يستثير في نفسه الغضب. ولكنه أحس بأن الغضب لا يستجيب لندائه، وإنما يأتيه على مهل فاستدار إلى ابنه فجأة غاضبًا من أنه لم يوفق في استثارة غضبه. وصاح:

- ما هذا الذي أسمعُه الآن. هه؟ ألا تخجل من نفسك؟ ألا تحترم مركزك؟ هل نسيت من أنت، وابن من، ومن جدك؟

وأحس بالسعادة، إذ أنه ما أن بدأ الحديث حتى سرى الغضب في عروقه، وصاح بصوت جهوري:

- أمنعك من أن ترى مانولي بعد ذلك.

وتردد ميشيل في الإجابة، وقال في نفسه:

- صبرًا إنه أبوك. ليس القوي من يثور ويغضب وإنما القوي من يملك نفسه عند الغضب. فاملك زمام نفسك.

- لماذا لا تجيب؟ أين قضيت ليلتك هائمًا على وجهك؟ فوق جبل سارا كينا؟

مع هذا القسيس الصعلوك، ومانولي الخادم باعث النهضة؟ صحبة جميلة حقًا!
هل انحدرت إلى هذا المستوى أيها التعس؟

وأجاب الابن في هدوء:

- أبي، لا تسب أناسًا هم أفضل منا..

وهنا هب العمدة واقفًا وقد احتاج حقًا.

- ماذا تقول؟ هل فقدت صوابك؟ أفضل منا؟ هذا القسيس المهلهل،

وخادمنا!!

- هذا القسيس المهلهل كما تسميه إنما هو قديس. ليس فينا نحن سلالة السيد

بطريار كاس من يستحق أن يفك رباط حدائه.

طوح العجوز بسيجارته بعيدًا، وتدافع الدم إلى رأسه الثقيل.

وواصل ميشيل حديثه في هدوء ودون شفقة:

- أما عن مانولي، فإن شئت أن تعرف فأنت تعلم حق العلم أنه بينما كنتم

جميعًا، أعيانًا وعمدًا وقساوسة ونظرًا تستسلمون في خنوع وترتعد فرائصكم

فرقًا داخل السجن، لا تفكرون في القرية بل في أنفسكم وكيف تغفلون بجلدكم،

فإن هذا الخادم هو الذي هرع لينقذ الناس جميعًا حين قال: «إنه أنا، أنا قاتل

التركي. اشنقوني». من إذن الرجل الذي أثبت عن جدارة في مثل تلك اللحظة

الحرجة، إنه رئيس هذه القرية حقًا؟ هل هو أنت يا صاحب السيادة بطريار كاس،

أو ربما صاحب القداسة القسيس جريجوريس؟ لا، لا، إنه مانولي. ومنذ تلك

اللحظة أصبحنا له أتباعًا فهو رئيسنا وعمدتنا.

وارتمى العجوز على ظهره فوق السرير، وذراعه مبسوطان على امتدادهما،

وفي حلقه غصة.

وأطبق ميشيل شفثيه خجلًا، إذ نسي النصائح التي أسداها إلى نفسه ورد على

أبيه وأغلظ له القول على غير إرادة منه. فاقترب من أبيه الشيخ يسوي له الوسائد.

وسأله:

- هل تريد شيئًا أبْت؟ هل تحب أن تعد لك لينيو عصير ليمون؟

وحملق العجوز في ابنه بعينين دهشتين وتمتم قائلاً:

- أنت مثل أمك تمامًا. نعم، أنت صورة مطابقة لها. ظاهر ك رحيق معسول، وباطنك سم زعاف.

وطرفت عينا ميشيل، وغام الهواء الفاصل بينه وبين أبيه. وفجأة تراءت له أمه، شاحبة، آسية، كلها نبل وتواضع. وشخص ميشيل ببصره إلى ذلك الطيف الذي تراءى له بغتة. وتمتم «أماه». وخفق الهواء، وارتعش الضوء، وسرعان ما توارى الطيف القدسي كأنه ومض البرق.

وسأله الأب:

- فيم تفكر؟

وأجاب الابن:

- أمي، أمي. أسأت معاملتها، يا أبت.

ورد الأب غاضبًا:

- أنا رجل، ويجب أن أعامل النساء بخشونة. هذا هو ما يرضيهن. ولكن عسيرًا عليك أن تفهم ما أقول فما زال لبن أمك بين شفتيك.

- أسأل الله أن يبقى هذا اللبن أبدًا على شفتي.

مرة أخرى ظهر طيف الأم بينهما، غاضبًا متجهًا هذه المرة.. وهزت الأم رأسها وهي تنظر إلى ابنها راضية مؤمنة على ما يقول. ومدت إليه يدها كأنها تباركه. وإذا بصوت هو صوت أمه ينبعث من بين أعماق ميشيل يقول له: «ارفع رأسك يا بني فأنت رجل، وليس لك أن تخشاه مثلما كنت أخشاه أنا. خذ بثأر أمك يا ميشيل وقل له كل ما كنت أخشى أن أقوله له. إني أباركك».

وأحس الابن بالعزم والتصميم يملآن قلبه، وأسند مرفقه إلى الشباك وانتظر.

ونفض الشيخ وهو يتنهد. ودنا هو الآخر من الشباك وقال:

- اسمع.

ورد الابن وعيناه في عيني أبيه:

- ها أنذا أنصت لك.

- اتخذت قرارًا، ولك أن تتخذ قرارًا أيضًا. لك أن تختار بيننا، إما أنا أو مانولي.

إما أن تترك مانولي وعصابتها، أو تترك بيتي.

وأجاب ميشيل:

- بل أترك بيتك.

ودارت عينا العجوز في محجر بهما مذهولاً.

وصاح:

- أنتحب هذا الخادم أكثر من حبك لأبيك؟

- أنا لا أحب مانولي أكثر منك، أبداً، ما شأن مانولي بهذا؟ إنني أختار المسيح.

هذا هو سؤالك لي على حقيقته دون أن تدرك معناه. وها أنذا أجبتك على سؤالك.

صمت العجوز، وأخذ يذرع الحجرة بخطوات واسعة، ثم توقف ثانية أمام

ابنه.

وقال بصوت أثقله الأسى:

- ما اعتراضك عليّ؟

- لا شيء ولكنك أكرهتني على الاختيار، واخترت. ولا أملك غير ذلك.

وتهاوى العجوز بكل ثقله متهاكاً فوق السرير. وأمسك برأسه المحموم بين

يديه. وشعر كأن كبده يحترق.

ثم قال بعد هنيهة بصوت خفيض:

- اذهب، اذهب، لا أريد أن أراك ثانية.

واستدار الابن. فأبصر أباه واهناً، خائر القوى، رأسه بين راحتيه، وأحس

بالأسى نحوه. ولكن صوتاً بداخله يصيح به أمراً في عسف: «اذهب».

ودنا من أبيه، وجثا أمامه على ركبتيه، وقال:

- يا أبت، إني ذاهب، ولكن هل لك أن تباركني؟

وأجاب الشيخ:

- لا.. لا أستطيع.

ونفض ميشيل وذهب ناحية الباب وشعر الأب برغبة في أن يناديه «يا طفلي»

ولكنه خجل من أن يذل نفسه، فأثر الصمت.

وفتح الابن الباب واستدار ناحية أبيه ثانية وقال:

- وداعاً يا أبت.

واجتاز عتبة الباب.

مضت فترة ولينيو لا تسمع شيئاً من الحوار. فصعدت الدرج خلسة، وأسندت أذنها إلى ثقب المفتاح تسترق السمع. سمعت غطيظاً عميقاً، تتخلله تنهدات متقطعة، وصريراً يصدر عن السرير. وتمتمت قائلة:

- انتهى الشجار، ونام الشيخ، وثمة كابوس يعذبه. سينهض من نومه وقت الظهيرة جوعان.. كأنه غول نهم. إذن لأذهب وأذبح له دجاجة.. آه من هذا الكرش الواسع، ضاقت حيلتي معه.. نفل نحشوه ولكن دون جدوى، لا يشبع أبداً، إنه حفرة ما لها من قرار.

ونزلت الدرج، ودخلت عشة الدجاج لتنتقي دجاجة تذبحها. وقع بصرها على الديك الأبيض يختال مزهواً بعرفه القرمزي، والدجاجات من حوله تنقر الأرض وتقاقي. وقت لينيو برهة تتحرق شوقاً لرؤية دجاجة ترقد على الأرض في استسلام ويعتليها الديك الأبيض، ثم ينهض بعدها ويقف إلى جانب الدجاجة مختالاً، ويسط عليها جناحيه ويصيح بصوته في مباهاة. اعتادت أن تمتع ناظرها بهذا المشهد أعواماً طوالاً، وتستشعر معه نشوة غامرة، ويحمر وجهها حتى أذنيها. كانت تسقط مشاعرها على هذا المنظر، فتحس كأنها هي التي طرحت نفسها أرضاً فوقها ثقل لذيذ ممتع مثل ثقل الرجل. ولكن أي رجل؟ أول عهدا بهذا المشاعر وهي صبية صغيرة لم تكن تتبين وجه ذكر واضح المعالم معروفاً لها على وجه التحديد. وبعد ذلك كانت تراه مانولي، وأصبح الآن وجه نيكوليو. ومضت شهور عدة ولم يتبدل هذا الوجه بعد.

بحث بنظرها بين الدجاج، ووقع اختيارها على دجاجة كبيرة رقطاع. لم تكد تمد يدها لتمسك بها حتى جثمت الدجاجة الرقطاع على الأرض، وبسط الديك جناحيه فوقها يحتضن الدجاجة ويخفيها تحتها. ولعلقت لينيو شفيتها اليابستين بلسانها، وتأججت النار في عروقها. وأشفقت على الدجاجة فاخترت غيرها. أعدت المائدة وقت الظهيرة، ووضعت بيضة في الحساء. وانتظرت أن يناديها

سيدها، فقد تأخر عن الموعد المعتاد.

وتمتت:

- أخذ زمانه هذا العجوز الشره، لم يبق إلا أن يرحل إلى العالم الآخر.

وأحست بقلق لهذا الخاطر.

- أسألك اللهم أن تمهله حتى مساء الأحد القادم أو صباح الاثنين على أكثر تقدير. وإلا ماذا يحدث لزواجنا، ومتى يتم؟ لم أعد أطيع الانتظار أكثر من ذلك. وصعدت الدرج ثانية، وفحت الباب في هدوء، ودقت النظر داخل الحجرة. كان العمدة ممدداً فوق السرير، ساكناً بغير حراك، وعيناه مفتوحتان تحمقان في السقف. خمدت حركته كما خمدت أناته. ودخلت لينيو الحجرة مذعورة: ترى هل مات؟ ولكن الشيخ طرف بجفنيه:

وأرادت أن تطمئن نفسها فنادته:

- سيدي، وضعت البيضة في الحساء. حان وقت الغداء.

ودارت عينا الشيخ تنظرها، وزام قائلاً:

- لا أشعر بالجوع. لست على ما يرام يا لينيو. استدعي القسيس جريجوريس. وجلس العجوز، ممتقع الوجه أزرقه، وارتسمت عليه خطوط حمراء. وصرخت لينيو.

- لا تخافي. لم أمت بعد. وإنما أريد فقط أن أتحدث إلى القسيس في موضوع ما. هل ميشيل في الدور الأرضي؟

- لا. دخل حجرته ليغير ملابسه، وارتدى الملابس التي يرتديها كل يوم، ثم خرج من البيت حاملاً صرة.

- ألم يقل شيئاً؟

- لا شيء.

- أرسلني من استدعي مانولي من الجبل، ليأخذه الشيطان. يجب أن يحضر لمقابلتي فوراً، قبل غروب الشمس. هل سمعت ما أقول؟ انصرفي.

- ألن تأكل؟

وتفكر العجوز لحظة ثم قال:

- ماذا أعددت من الطعام؟

- حساء الدجاج المفضل لديك.

- اعصري كثيرًا من الليمون في الحساء. سأنزل الآن.

وأسرعت لينيو بالنزول، تقفز السلالم خفيفة جدلة: «يقينًا إنه سيبقى على قيد الحياة حتى صباح الإثنين. إن وجهه يشير في نفسي القلق. سأذهب إلى أندونيس ليعمل له كاسات دم، حتى لا توافيه المنية سريعًا».

في هذه الأثناء كان ميشيل قد ارتقى الجبل متأبطًا صرته. لم يجد مانولي في الحظيرة، فجلس فوق المقعد الحجري إلى جوار الباب. كانت الظلال تنحسر، إذ اقتربت الظهيرة. وظهرت كنيسة النبي إيليا فوق الجبل المقابل وكأنها ذابت تحت أشعة الشمس العمودية.

وأغمض ميشيل عينيه. كان واهن القوى، فارغ القلب ولكن راضيًا، كمن شفي من مرضه وشيكا. وحدث نفسه قائلا: «إنها نهاية كل شيء، وبداية جديدة لكل شيء. يا يسوع، حددت لنا معالم الطريق، أسألك العون والتأييد حتى أبلغ غايته. أعرف أنك هناك عند نهاية الطريق تنتظرني».

وفتح الصرة وأخرج منها الإنجيل الذي ورثه عن أمه، وهو إنجيل كبير ذو غلاف مفضض مصنوع من جلد الخنزير، وله مشبك على هيئة سلسلة وبداخله ورقة من أوراق شجر الغار يستخدمها كفاصل بين الصفحات. ومال برأسه فوق الكتاب المقدس وقرأ:

- «أعداء الإنسان أهل بيته. من أحب أبًا أو أمًا أكثر مني فلا يستحقني. ومن أحب ابنًا أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني. ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني».

قضى أيامًا عدة مع كلمات المسيح هذه يقرأها ويعيد قراءتها من جديد، يحاول أن يفهمها ويستوعبها. بدت له أول الأمر وكأنها كلمات قاسية غير إنسانية. كان يسائل نفسه: «أليس ثمة سبيل آخر غير هذا السبيل أيسر على الإنسان وأقرب إلى قلبه وعواطفه؟ هل لا بد للإنسان أن يدفع دمه ثمنًا لخلاصه؟ لماذا يكون الأب

والأم عقبة تعترض الطريق؟ ألا يمكن أن نحبهما معاً ونسمو سوياً في طريقنا إلى الرب؟ لماذا كتب علينا أن نقتلع الجذور العميقة في الأرض لنرقى إلى السماء؟». ألحت على ذهنه أسئلة كثيرة جداً، ولكنه عجز عن أن يهتدي إلى إجابة شافية على إحداها. وكم من عجب إذ شعر أن قلبه يتخفف رويداً رويداً من ثقل الأرض، ويسمو شيئاً فشيئاً صوب السماء... حتى أنه أحس في تلك الليلة بأنه معلق بين السماء والأرض...

وبعد الظهر بقليل عاد مانولي من المرعى.. ودهش لرؤية صديقه فوق الجبل في مثل تلك الساعة. وقال له ميشيل موضعاً:
- تركت بيت أبي يا مانولي. طلب مني الشيخ أن أختار، واخترت طريق المسيح.

وقال مانولي وهو شارد اللب:
- ولكنه طريق شاق وعسير يا ميشيل، وأكثر مشقة على الأغنياء. فمرحباً بك. ومد مانولي السماط. ولم يطعم الصديقان غير لقيمات. وقص عليه ميشيل ما حدث بينه وبين أبيه والقرار الذي اتخذه.
- أحسست بأنني لم أعد أقوى على مواصلة طريقي القديم يا مانولي. عشت حياة سهلة رغدة. بدا لي العالم وهماً باطلاً ممعناً في بطلانه، ظالماً ممعناً في ظلمه، وأن سبيلي في الحياة كانت سبيلاً معوجة. ولم أعد أطيع المزيد، وأحسست بالخجل.
وكرر مانولي حفاوته بصديقه:

- مرحباً بك. الطريق وعرة، والمرتقى شديد الانحدار يدمي القدمين في أول المسير يا ميشيل. ولكن ستنتب لك أجنحة مع الأيام، وتحملك الملائكة بين ذراعيها، وترتقي جبل الرب برغم وعورته الشديدة فرحاً طروباً تترنم باسمه.
ثم وقف وأمسك بعصا الرعي.
- أرسل لي أبوك رسالة يستدعيني للمثول أمامه فوراً. أستطيع أن أخمن ماذا يريد. إلى اللقاء هذا المساء.
وقال ميشيل:

- كان الله معك.

جث لينيو على ركبتيها وسط الفناء، متوردة الوجه، وشمرت عن ساعديها وانهمكت في تلميع الأواني النحاسية التي منحها لها سيدها الشيخ كصداق لها، وكان في عطائه كريماً سخياً. كانت لينيو تدعك النحاس بهمة لا تعرف الكلل وهي تتغنى، وصوتها يشق الهواء ويتردد صدها حتى يصل إلى الجبل. بينما وقف نيكوليو تحت ظل شجرة البلوط يصيح السمع وأمسك بالناي الطويل يرد عليها بألحانه. وتلاقى غناؤهما فوق أسطح بيوت القرية، فكانت النسوة العجائز يتأففن، والعرائس يتسمن، والصبايا يتنهذن.

ظهر مانولي عند منحني الطريق. وسمع شدوها وابتسم.

وحدث نفسه:

- إنها فرس حرون. نعم، إنها كذلك حقاً. ولكن طفلاً صغيراً استطاع أن يستأنسها.

رفعت لينيو وجهها يكاد يتقد ناراً، وأبصرت مانولي وهو يجتاز العتبة.

وقال لها من كان خطيبها يوماً ما:

- لك الصحة والبهجة يا لينيو. أراك تنهين. أتمنى لك عرساً سعيداً.

وأجابت لينيو في سخرية:

- لك العقبي. أتمنى أن تختطفك فتاة جميلة. هيا أسرع فإن السيد ينتظرك.

وعادت إلى غنائها وتضاعفت سعادتها، وكأنها تود أن تظهر لفتاها السابق أنها

لا تعبأ به في قليل أو كثير، بعد أن عثرت على خطيب أفضل منه، وكان لسان حالها

يقول: «إن هذا سيقتله كمداً».

كان الشيخ بطريار كاس يشعل السيجارة إثر الأخرى، ينفث دخانها في الهواء

ويهضم الدجاجة التي أكلها وهو جالس في انتظار مجيء مانولي. وارتدى لباس

الرئاسة، وظل حافي القدمين. وأحس بسخونة تسري في جسده. وأربد وجهه

وتلون بلون الباذنجان، ونفرت عروق رقبته وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهاباً، وهو

يرغي ويزيد غضباً. وكلما أنهكه التعب وخارت قواه ألقى بنفسه فوق السرير.

طفق يحدث نفسه قائلاً:

- إنها غلطتي.. غلطتي أنا، أخطأت حين أشفقت عليه وأخرجته من الدير حيث كان يعيش كالخصي، وأردت أن أخلق منه رجلاً بمعنى الكلمة. عملت عملاً خيراً من جانبي ولكن... صدق هذا الأحمق المدعو لاداس. كم من المرات قال لي: من يفعل الشر يتهيبه الناس ويحترمونه، ومن يفعل الخير لن يكون حصاده غير النكران والتحقير. «وكنت أسخر من كلامه هذا، والآن بان لي صدق كلامه، وها هي المشاكل تمسك بخناقِي».

وفجأة أحس بغناء لينيو يسري في دمه.

- لتذهب إلى الشيطان هذه الصبية الفاجرة. لعل الله يعجل بزواجها حتى تهدأ نفساً، وإلا فإنها ستقلب القرية رأساً على عقب.
واندفع ناحية الشباك ليناديها ويأمرها بالسكوت. ولم يكذب يطل من الشباك حتى انفتح باب الحجرة، واستدار فأبصر مانولي أمامه عند عتبة الباب. فقفز في الهواء والغضب يتطاير كالشرر من عينيه. وصاح فيه:
- ادخل... ادخل.

وصفق الباب بعنف وراء مانولي، ودفع به إلى الحائط.

- هل هذا هو عرفانك بالجميل أيها الجحود؟ هه؟ آتي بك إلى منزلي فتجلب له الشر والتعاسة. كنا على ما يرام قبل أن تحل بالقرية، بيتنا بخير وسلام، والقرية هادئة وادعة. وأتيت أنت أيها النبي القذر لتخل بالنظام وتثير الفتن... لماذا؟ بأي حق تطوعت من تلقاء نفسك لإنقاذ القرية؟ هذا عملي أنا. لماذا تتدخل في أمور لا تعنيك؟ هل تريد أن أفصح لك عن السبب؟ أردت أن تظهر أمام الناس كقديس، تحاول أن تغرر بالسذج لكي يؤمنوا بك، وتدعو إلى الثورة يوم الاحتفال بعيد النبي إيليا.

وذهل مانولي عند سماعه الجملة الأخيرة وقال:

- الثورة.

- ماذا كنت تقصد إذن بكل تلك البذاءات التي تفوهت بها فوق الجبل قبل أول أمس؟ لماذا ندفع العشور لحملة القمل؟ كيف نتساوى نحن وهم؟ أن نكون

كلنا إخوة، كلنا حملة قمل؟ أليس كذلك، هه؟ أهذا هو ما تهدف إليه؟ ونعطيهم حقوقنا أيضاً مناصفة!! بأي حق هذا؟ ولكنها ملكنا نحن. إنها مالنا وحقنا ودمنا. ألا ينبغي علينا أيضاً في مثل هذه الحالة أن نقسم معهم لحم أجسادنا ونعطيهم بعضه ليأكلوه؟ إنها نهاية العالم!

واستبد به الذعر عند ذكر هذه الجملة، فحذج مانولي بنظرة مفزعة.

- حدث ذات يوم أن رفع «الكرش» لواء الثورة واحتل مكان الرأس ليصبح صاحب الأمر والنهي. ترى هل لم يقص عليك أحد هذه القصة، أيها القدم ذو الرأس الفارغ؟- وكانت نتيجة هذه الثورة أن بدأ القذر يخرج من الأنف والفم والعينين، فلقى الرجل حتفه. لذلك لا تحاول أن تغير الناموس الذي فرضه الله. ليبق «الكرش» مكانه، والرأس حيث هو يأمر وينهي، وأنا الرأس.

وكان أثناء الكلام يذرع الحجرة كالوحش المفترس داخل القفص، يضرب الجدار بعصاه ويبصق على الأرض، ويتمتم قائلاً:

- إذا لم يكن هناك أغنياء أيها الأبله، فمن الذي سيقدم الصدقات إذن للفقراء؟ ألم تفكر في هذا؟ أي منزل تقصده الخالة ماندالينا لتجد عملاً فيه؟ وأين تجد سيادتكم مكاناً تعمل فيه خادماً؟

وبلغ هياجه غايته وصاح بأعلى صوته:

- أيها الشحاذ المتشرد الذي يرعى في جسمه القمل، لا تملك شبراً واحداً من الأرض وتصيح «نحن إخوة» لماذا؟ ينبغي أن نقسم ما نملك ونعيش إخوة حسب ما تقول، حتى يمكنك أن تلتهم نصف ممتلكاتنا... من الذي ملأ رأسك بهذه الأفكار أيها الأفاق، هه؟

وأجاب مانولي:

- المسيح.

- ليأخذك الشيطان، أي مسيح تقصد، هه؟ مسيحك أنت لا أنا. ابتدعت مسيحاً جديداً، متمرداً على شاكلتك، حقيراً يرعى القمل في جسده، يتضور جوعاً. وتتحدث عن لسانه بكل ما يحلو لك ثم ترفعه عالياً كما ترفع علم الكنيسة وتعوي: «نحن كلنا أبناء لأب واحد كلنا إخوة، لذلك هات الشواء لنأكل سوياً.

لا لن تذوق طعمه».

وألقي بسيجارته من النافذة، وبصق في الفناء، ورجع إلى مانولي، وأمسك بتلابيبه وصاح فيه:

- عليك أن تترك خدمتي فوراً، في هذه الليلة. اذهب والحق بالشحاذين أمثالك. ليقسموا معك القشر الذي يملأ رأسك والقمل الذي يرعى في جسدك، ومملكة السماء التي تدعو إليها.

وانفتح الباب وهو يقذفه بهذه الكلمات وظهر القسيس جريجوريس في أبهة الأساقفة. وقال:

- معذرة يا عمدة إن تأخرت. كان ذلك بسبب مرض ابنتي ماريوري.

والتفت ورأى مانولي فتجههم وجهه.

وقال الشيخ بطرياركاس:

- يا صاحب الغبطة، لم يبق شيء على حاله هنا. انقلب العالم رأساً على عقب. العمدة مانولي الواقف هنا يريد أن يشعل النار في العالم. وابني الرقيق الوديع وقف إلى جانبه ورفع لواء العصيان هو الآخر. أعلنني بذلك هذا الصباح، قائلاً: «سأترك البيت وسوف أفارقك يا شيخ بطرياركاس، اخترت طريق المسيح. كأن طريقي هي طريق العداء للمسيح. إنها نهاية العالم. من حسن الحظ أنك أتيت يا أبانا في الوقت المناسب لنضع الأمور في نصابها.

وقال القسيس جريجوريس وهو يشير بإصبعه إلى مانولي:

- ها هو عدو المسيح. هو الذي يبذر الشقاق بيننا، وهو الذي يفسد عقول الناس بأفكار سخيفة. ما هذه الترهات التي قُتتْها أمامنا يوم الاحتفال: أيها المحتال؟ أقسم لك بشرفي أنها ثورة الذنب ضد الرأس.

وأجاب مانولي:

- كلمات المسيح أن أحسنوا إلى المساكين. ومن يملك ثوبين يعطي واحداً، نحن جميعاً إخوة. وليس عندي ما أقوله لك غير هذا.

وأربد وجه القسيس جريجوريس. وأبى على نفسه أن يحتاج خادماً فوجه حديثه إلى العمدة:

- هذا الأدمي إنسان خطير على المجتمع. يجب أن تطرده من خدمتك بل ويجب أن يطرد خارج القرية حتى لا يلوثنا. فهو الذي أدار رأس ابنك يحاول بدسائسه هذه أن يكتسب أهمية وشأنًا ويجمع الناس وراءه. اطرده. إنه ليس براع ولا حمل، بل ذئب.

ابتعد مانولي عن الحائط وتقدم خطوة إلى الأمام وعقد يديه إلى صدره وقال:
- وداعًا يا سيادة العمدة ويا صاحب الغبطة فإني راحل.

ورفع القسيس يده وزأر:

- اخرج لعنة الله عليك.

ورد مانولي:

- بل لعنة الأعيان والقساوسة. أنتم أيها القساوسة الذين صلبتم المسيح. لو عاد إلى الأرض ثانية ستصلبونه من جديد. وداعًا.

واتجه إلى الباب في صمت، وفتحه، ثم استدار وقال في هدوء:

- وداعًا.

ونزل الدرج وأحس أنه خفيف مرح كأنما تحمله الملائكة.

العميل

أظلمت الدنيا حين أخذ مانولي طريقه إلى الجبل . وتلبدت السماء بالسحب ، وهبت ريح دافئة من الشرق ، وتساقطت قطرات من المطر بللت يديه ووجهه ، كما بللت الأرض العطشى . ونهل جسد مانولي ، إذ كان ظمآنًا مثل السهل والجبل .
وحدث نفسه وهو يصعد الجبل :

- عجبًا لهذا الوجود ! إنه معجزة حقًا ! إذا فتحت عيني أرى الجبال والسحاب والمطر يساقط ، وإذا أغمضت عيني أرى الله خالق الجبال والسحاب والمطر ..
حيثما نولي وجوهنا فثم وجه الله .. في ضوء النهار أو في عتمة الليل .
نسي تمامًا العمد والقساوسة ، وتخلص من كل الاهتمامات الباطلة ، وتعالى فوق المسرات الصغيرة والمكابدات العابرة ، ونعم بالمسرة العظمى والمكابدة الكبرى ، فهو الآن أمام الرب وجهًا لوجه .

فبعد أن طرده سيده الذي تفانى في خدمته أصبح لزامًا عليه أن يودع الجبل الذي أشرب في قلبه حبه . وسيكون وداعه له غدًا مع مطلع الفجر . سيحمل صرته المتواضعة على كاهله ويمسك بعصا الرعي ويرحل وحده ، أعزل مثل يتيم لا عائل له ولا سند ، ويسير في طريق قفر موحش يصعد ويصعد دون أن ينتهي .
وهطل المطر ، واشتد قصف الرعد على البعد قويًا يصك الآذان ، وحث مانولي الخطو . كانت الريح من خلفه تدفعه إلى أمام ، وخيل إليه وكأن للريح يدان وصدر يصعد الزفرات .

ولمَّح على البعد ضوءاً خافتاً. عرف فيه نافذة كوخ المرعى الصغيرة وحدث نفسه قائلاً:

- لا بد وأن نيكوليو استسلم للنوم الآن بعد أن فرغ من حلب اللبن وتناول العشاء. إذن فهذا الضوء يعني أن ميشيل في انتظاري. وخفق قلبه بقوة وعنف عندما تذكر صديقه.
وتمتم قائلاً:

- لا طاقة له بذلك. عاش حياة السادة، واعتاد الطعام الرغد، وألف النوم على الفراش الوثير، وأنس إلى الدفء وأن يكون البيت حماه. خير له أن يعود إلى البيت. عليه أن يتذرع بالصبر، فلم تحن ساعته بعد. سواء أراد ذلك أم لم يرد فإن الثراء يثقل الروح ويعوقها عن الحركة الحرة الطليقة. وهناك ماريوري أيضاً، تربطه هي الأخرى بالأرض رغماً عنه.
وتذكر كلمات المسيح القاطعة القاسية:

«إن مرور جمل من ثقب إبرة أسير من أن يدخل غني إلى ملكوت الله».
ألفى ميشيل جالساً قبالة المدفأة يحملق في النار. وقال بصوت فيه رنة فرح وهو يمسح بيده العرق الذي بلل شعره ووجهه:
- طاب مساء الفتى سيد الجبل. غداً صباحاً سأودع هذا الكوخ العزيز وأرحل بعيداً، فقد طردني أبوك.

وجلس أمام النار، وقص على ميشيل بصوت هادئ رزين كيف ألفى العمدة الشيخ ثائراً يتميز من الغيظ، وكيف استخدم العمدة ألفاظاً قاسية في حديثه إليه وطرده في النهاية، وكيف أنزل القسيس لعنته عليه.
واختتم حديثه قائلاً:

- حدث كل شيء كما كنت أتوقع تماماً، ومثلما كان مقرراً له أن يحدث. لست نادماً على شيء. كان مفروض على أبيك أن يطردني، ومفروض على القسيس أن يلعنني، كما أنه مفروض عليّ أن أرحل.
وأمسك ميشيل بيد صديقه، وضغط عليها في لهفة وشوق وقلق:
- وأين ستذهب الآن؟

- سيدي الليل لي المشورة. يتنزل الرب إلينا عادة على هيئة حلم ونحن نيام ويهديننا إلى الطريق. لم أحسم أمري بعد، والأمر بيده تعالى. سنرى غداً فلا تجزع. وقال ميشيل:

- هل تذكر الليلة التي قضيناها معاً في فناء قسطندي؟ هل تذكر ما قلته لك تلك الليلة؟.. حيثما تذهب يا مانولي سأذهب معك، وها أنذا أعيدها، وأقولها لك الليلة.

- على رسلك يا ميشيل. لا تتسرع. وإن غداً لناظره قريب. ورقد الاثنان ونال منهما التعب. وتضاعف وابل المطر عنيفاً بهيجاً. وانتعشت الأعشاب الجافة فوق الجبل، وتضوع أريجها، وهبت الرياح موجات متتابعة تأتي من بعيد عبقة بعطر شجر الصنوبر. وتنفست الأرض وفاح عبيرها الطيب. وتفتح قلب مانولي أيضاً كأرض هامدة أصابها الطل فاهتزت وربت.

ترى هل هذه هي إجابة الرب؟ ترى هل تنزل الرب الليلة على هيئة مطر غزير يهطل في سخاء؟ احتفى مانولي بالرب، وأحس بالسعادة تغمره من رأسه حتى أخمص قدميه. وكذلك طيور الليل التي آوت إلى أوكارها بين الصخور وفوق الشجر.. أحست بالرب يتنزل فوق أجنتها الندية المبتلة.

وأنصت ميشيل لصوت المطر المتساقط، وتنسم عطر الأرض الندية. وجفاه النوم. تذكر ماريوري وخفق قلبه في ضيق وجزع، وثارث شجونه مع الأرض المبتلة. كانت في آخر لقاء له شاحبة واهنة بغير خضاب. وظلت تسعل ومنديلها فوق فمها، ولكن المنديل هذه المرة لم يكن أبيض كالعادة، بل أحمر حتى لا يظهر عليه لون الدم. وقالت له يومذاك:

- عزيزي ميشيل، إني راحلة. سيصحبني أبي إلى المدينة ليعرضني على الأطباء هناك. فحالي ليست على ما يرام.

وتنسم ميشيل أريج الأرض، وأحس بقلبه يرتجف وتمتم قائلاً:

- ما زال قلبي متعلقاً بالأرض، نعم ما زال.

واحتوى النوم ميشيل ومانولي رويداً رويداً وسط هذه الليلة الممطرة. وعندما أسفر الصباح فتحا أعينهما فأبصرا الجبل الذي اغتسل في تلك الليلة يتسم

لأول شعاع من أشعة الشمس، والسحاب كالقطن المندوف يغطي أديم السماء، وقطرات من الماء ما زالت عالقة بأغصان الشجر تلمع وترتعش.

وأُنزل مانولي من على الحائط أيقونة الصلب وعصافير الجنة التي أهداها له ميشيل. وأخذ قناع المسيح الذي نحته، وجمع بعض الملابس وحزم كل هذه الأشياء في صرة ووضعها فوق المقعد الحجري.

وكان ميشيل يرقبه في صمت. وجلس الاثنان وشربا بعض اللبن دون أن ينبس أحدهما بكلمة. ثم وقف مانولي. كان نظره يتنقل في هدوء ما بين الكوخ والمقعد الحجري والصخور المحيطة والجبل وكأنه يودعها جميعاً وداعاً صامتاً. وأخيراً التقط عصا الرعي.

ووقف ميشيل وقال:

- ترى هل حسمت أمرك يا مانولي؟ هل سترحل؟ وإلى أين أنت ذاهب؟
- وداعاً يا ميشيل. أتمنى لك التوفيق.
- قل لي إلى أين؟
- إلى ساراكيينا. سأذهب لأقاسمهم الجوع.
- ألا تريدني أن أذهب معك؟
- ليس بعد. تجمل بالصبر. عندك أبوك وخطيبتك، أما أنا فليس لي أحد، فالأمر سهل عليّ يسير.
- ولكنه مكتوب: «من أحب أباً أو أمّاً أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني».
- أعرف ذلك يا ميشيل. ولكن هل انقطعت كل صلة تربط بالأرض وبأبيك وزوجتك؟ لا، ليس بعد. لذلك عليك أن تتذرع بالصبر. ستحين ساعتك، فلا تكن عجولاً هكذا. ستأتي ساعتك في هدوء كطائر الحجل، يسير فلا تسمع لخطوه صوتاً.

- ولكنني لا أريد العودة إلى أبي.

- لك ما تريد. لا تعد إليه. ابق هنا، بين ساراكيينا وليكوفريسي وانتظر حتى يأتي طائر الحجل، أعني ساعتك المحددة. إلى اللقاء قريباً.

ومد يده إلى ميشيل الذي أمسك بها في لهفة وقال:
- مانولي.. لن يمضي وقت طويل حتى أراك ثانية وألحق بك. أقسم لك على
هذا. أرجو أن يكون لقاءنا قريباً.

وتأبط مانولي الصرة، ورسم الصليب وانطلق في طريقه. وحملته أجنحة
الملائكة من جديد. وبدأ مانولي يطير من صخرة إلى صخرة. واقتربت منه كنيسة
النبي إيليا رويداً رويداً تتلأأ وسط الآكام فوق قمة الجبل وكستها أشعة شمس
الصباح بلون وردي. وعندما وقع بصره عليها لوح لها بعصاه محيياً، وصاح صيحة
طروب عالية كأنه نسر تعرف على وكره القديم.

قضى الشيخ بطريار كاس سحابة نهاره في انتظار ابنه عسى أن يعود. وانتظر
يوماً، ويومين، وثلاثة ولكن دون جدوى. وتملكه اليأس، وأرسل بعض أقاربه
ليحدثوا إليه، وكان ناظر المدرسة آخرهم. وفي النهاية بعث في طلب ياناكوس
وقال له:

- أسألك معروفاً يا ياناكوس، أن تذهب لزيارة ابني وتحدث إليه فأنت من
خلصائه، عسى أن يستمع إليك.
وهز ياناكوس رأسه وأجاب قائلاً:

- أحسب يا عمدة أن لو سارت الأمور على نحو ما هي عليه الآن فلن يمضي
وقت طويل حتى آخذ سبيلي أنا أيضاً إلى الجبل. فأرسل غيري.
وحضر بانايوتي لمقابلته.

- يا عمدة، حصلت على بعض التفاصيل من مصدر موثوق به. اتخذ مانولي
سارا كينا وكرّأله. يجمع اللاجئين هناك ويتحدث إليهم ويستنفرهم ويعلن عليهم
أن من حق الجائع نهب الشباع. تذكر كل ما أقوله لك- فيوم بعضهم الجوع
سينزلون إلى قريتنا كالذئاب الجائعة ينهبونها.

وتوقف لحظة، وبدأ عليه التردد، وتنهّد، وجال ببصره حواله، ثم مال على أذن
الشيخ وأسر إليه بكلمات:
- في نفسي شكوك يا عمدة.

- قل ما عندك بصراحة يا بانايوتي فإني مصغ لك. وأنت لا تحب أحداً لذلك فإنك ترى الأمور رؤية واضحة. أفصح.

- مانولي اشتراكي.

وهرش العمدة رأسه وقال:

- اشتراكي؟ ماذا يعني هذا؟

- يعني: عليك أن تعمل لتأكل، وإذا أردت شيئاً فاسرقه. إنهم عصابة من قطاع الطرق، ذاع صيتهم في هذه الأيام، ويتشرون في جميع أرجاء الأرض.
- وهل تظن...؟

- أنا واثق من هذا. هؤلاء الناس لهم أتباعهم في كل الأقطار، بل وفي كل قرية مهما كانت صغيرة. إنهم ينثون في كل زوايا الأرض. حيثما ذهب تَجدهم إذا ذهب إلى الصحراء تجدهم هناك، وإذا بحث عنهم وسط العائلات تجدهم، ارفع أي حجر تجدهم تحت ذلك الحجر. ومانولي رسولهم إلى ليكوفريسي.
- أي كلام خطير هذا الذي تحدثني به يا بانايوتي. إن حديثك يقشعر منه بدني هولاً. أفصح.

- نعم، إنها مسألة قاتلة ومفرغة. إنهم شياطين مردة. هل راقبت مانولي؟ إنه يلعب دور القسيس. يزعم أنه لا يأكل اللحم، ولا يكذب أبداً، ولا يشتهي النساء وها أنت تراه أخيراً ممسكاً بإنجيل صغير لا يفارقه - وكلما وقع بصره على أحد سرعان ما يمسه بالإنجيل، يفتحه ويقلب صفحاته ليوهم الناس أنه منكب على قراءته.. نفاق ورياء. ويوم أن كان مساقاً إلى المشنقة، هل تعرف ماذا حدث؟ استمع إلى ما أقول فهو حديث ترتعد منه فرقا. عرف أن العجوز مارثا عثرت على ملابس حسين الملطخة بالدماء، فتواطأ معها على ألا تظهرها إلا في آخر لحظة. لماذا؟ حتى يؤمن الناس بأن مانولي على استعداد لأن يجود بحياته من أجل خلاص القرية - حيلة توسل بها ليذيع صيته كصاحب فضل ومنه، فيقف الناس إلى صفه، ثم إذا ما واثت اللحظة المناسبة يدفعهم وفقاً لأوامر تصدر إليه من الخارج لقطع رقاب العمدة والأعيان.

تهاوى الشيخ بطريار كاس فوق الكرسي، ودفن رأسه بين يديه، وتمتم قائلاً:

- رحماك يا رب. رحماك يا رب. إنها نهاية العالم إذن.
وفجأة هب واقفاً يحملق بعينين متورمتين، والتوت شفتاه، وتلعثم بكلمات:
- ولكن.. ماذا عن ابني..؟

- نصب مانولي شباكه حوله يا عمدة، وغرر به. أصبح ابنك عميلاً دون أن يدري. ألم تر كيف ذهب إلى الجبل ليلحق به بعد ما ترك بيتك؟ ولن يمضي وقت طويل حتى يذهب ياناكوس أيضاً إلى هناك، وقسطندي في أثره.. سيهجر كل منهما بيته وأسرتة ليلحق بهم.. إنه شيء كالمرض المعدي يا عمدة. يصاب به شخص وينقله بالعدوى إلى غيره. ويبدو أن أندونيس الحلاق على وشك أن تصيبه العدوى، وكذلك ديمتري الجزار. وإذا أردت أن تعرف رأيي فإن العدوى سوف تستشري حتى تصيب ناظر المدرسة..

- ما هذا الكلام الذي تقوله يا بانايوتي؟ إنها نهاية العالم.. سأذهب إلى القسيس جريجوريس أشاورة حتى نضع الأمور في نصابها.

- وإذا شئت أن تعرف شيئاً عن القسيس فوتيس والشرذمة المهلهلة التي يجرها وراءه حيثما ذهب، فهم جماعة من العملاء وفدوا إلى ليكوفريسي، يزعمون أن الأتراك طردوهم من ديارهم.. وضحوا بأنفسهم من أجل بلدهم.. هل تصدق هذه الأخبار المختلفة؟ إنهم كما أقول لك فتية بعثت بهم موسكو. أرسل إليهم مانولي رسالة قال فيها: «الناس في ليكوفريسي لا تعاني نقصاً في الخبز، كل شيء موجود بوفرة هنا، تعالوا نستبيح خيراتها. عمدة القرية عجوز مخرف، ولن يقاوم أبداً. وها أنت رأيت بنفسك كيف ظهر مانولي والقسيس فوتيس معاً في وقت واحد كلصوص السوق. لعلك لاحظت الإشارات التي تبادلها بطرف أعينهما. ولهذا السبب خرج مانولي، بعد أن طردته من بيتك - هل تعرف وجهته؟ توجه إلى ساراكيينا مباشرة. المسألة في غاية الوضوح يا عمدة.

كان الشيخ بطرياركاس يستمع إلى هذا الكلام وهو يذرع الحجرة طولاً وعرضاً. وتوقف فجأة يتدبر الأمر:

- اذهب إلى القسيس جريجوريس، قل له إنني في أمس الحاجة إليه. لا بد وأن أراه الليلة.

- سافر القسيس جريجوريس هذا المساء مع ابنته إلى المدينة. سيعود غداً. أخذها معه ليعرضها على الأطباء، إذ إنها تسعل وتبصق دماً. حالتها سيئة تماماً. وصاح العجوز حائقاً بصوت يدمدم كالرعد:

- ليأخذك الشيطان. ألا يوجد عندك اليوم غير المصائب تتحدث عنها منذ مطلع الفجر؟

- أنا أقص عليك ما أعرف يا عمدة. صدق أو لا تصدق، كما يحلو لك، فإن هذا شأنك أنت. ضايقتك مدة طويلة، وإني آسف على ذلك. سأنصرف.

وقال العجوز بينه وبين نفسه:

- إلى الجحيم يا يهوذا الاسخريوطي.

ثم قال بصوت عال:

- إلى اللقاء يا بانايوتي. وإذا وصل إلى سمعك أي شيء...

- اهدأ بالأ يا عمدة، فأنا لا يفوتني شيء.

وانصرف وهو يمشي بخطوات ثقيلة كخطوات الدب وابتسامة شريرة تضيء وجهه المجذور.

وألقي الشيخ بطريار كاس بنفسه فوق السرير. وطفق يجتر حديث بانايوتي إليه. وعبثاً حاول أن يهدئ من روعه.

- أعوذ بالله، يبدو لي أننا سنقع في ورطة لا مخرج منها. وضع الله غشاوة على عيوننا فلم نبصر شيئاً. قسماً ليس في القرية من تنبه إلى هذا- لا القسيس، هذا الثعلب العجوز، ولا ناظر المدرسة بكل ما يحمل من أسفار، ولا أنا.. هل كان يمكن أن يدور بخلدي أن عندي جاسوساً يعمل في خدمتي. أرادوا أن يشعلوا الفتيل من بيتي لتشب الحرائق في كل أنحاء القرية. آه يا شيخ بطريار كاس، رغم أنك رئيس هذه القرية فقد خانتك فطنتك، تنتظر حتى يأتي هذا الدب المفترس ليكشف العصابة عن عينيك. لا بد وأن نطرد هذا الخنزير مانولي بعيداً، ونطرد هؤلاء الشرادمة حملة القمل من وكرهم في ساراكيثا.. هؤلاء الأقدار. لا بد وأن نطهر الأرض التي حولنا، ونعيد للشرف والعدالة سلطانها على القرية من جديد. غداً سأحسم الأمر مع القسيس بعد عودته.

وهدأت هذه الفكرة من روعه. وأغمض عينيه. وحاول أن ينام. وامتنع عليه النوم. وسمع غناء لينيو في الطابق الأرضي تهدل كالحمامة إنها قلقة لا يطمئن بها مكان، تظل تدور وتدور في البيت في انتظار صديقاتها لتعرض عليهن جهاز عرسها، منهمكة في عرض قطع الجهاز بطريقة بارعة وسط الدهليز الطويل، حتى تبدو وكأنها أكثر من حقيقتها. ووضعت إكليل الزواج المصنوع من زهر الليمون بين الشموع البيضاء الكبيرة وحبات البندق المغلفة بالسكر.

ومع المساء سينزل نيكوليو من فوق الجبل، مرتدياً لباس العرس الجديد، الذي أهدها إليه سيده بمناسبة الزفاف، وعاصباً شعره الأسود بالمندبل الحريري الأحمر الذي أهدهت إليه لينيو. وغداً الأحد سيكون الاحتفال بالزواج، والعروس التي سيصبح اسمها بعد ذلك زوج نيكوليو، ستمتطي صهوة بغل مطهم بسرج أحمر، يحملها إلى عش المستقبل.. إلى الجبل والحظيرة.

كان الشيخ مستلقياً فوق سريره ينصت لغناء لينيو، وصيحات صويحباتها المرححة عند وصولهن، وضحكاتهن.. وتذكر زفافه، وقتما كان في الثانية والعشرين من العمر، رشيماً أنيقاً مثل القديس جورج، وانطلق بحصانه الأبيض ليأتي بخطيبته. يستطيع أن يتخيلها الآن، واقفة على عتبة بيت أبيها وغطت وجهها بنقاب أبيض حسب ما تقضي به التقاليد، حتى لا يظهر وجهها. وظل العريس يصرخ في أبويها نافذ الصبر: «ارفع الغمامة حتى تسطع الشمس». وشبت حماته فوق أطراف أصابعها، واغرورقت عيناها بالدمع، ورفعت النقاب. وأضاء كل ما حوله - العروس والعريس، الآباء والأصدقاء، الخيل والبغال، وستائر مختلفة ألوانها - كأن الشمس سطعت بالفعل في التو واللحظة.

رف خيال الشيخ بطريار كاس بجناحيه الكبيرين وعبر الزمان. مضت السنون وأظلمت الشمس. وترهل القديس جورج وتضخم كرشه. ولكن ما زالت الحمية تسري في دمه.. كانت تعمل في خدمته ببيت العمدية فتاة حرون تدعى جارفاليا. يستطيع أن يذكر الآن بوضوح ثدييها الناهدين النافرين، وردفيها الثقيلين ينوء العالم بحملهما، وكعيها كحبتى التفاح. ذات ليلة نزل العمدة الدرج خلسة في هدوء، حذر صرير درجات السلم فسمع زوجته التي

تقدم بها السن قبل الأوان. وانسل إلى الحجرة التي تنام فيها جاروفاليا، وضاجعها فوق سريرها وأنجب لينيو. وها هي لينيو الآن تزف إلى عريسها.

وابتسم العمدة العجوز. ونسي كل ما قاله له بانايوتي. ونسي أن ابنه هجر البيت. دبت الحياة من جديد في الأعوام الماضية التي طواها النسيان، واستيقظت في نفسه كل ملذات أيامه الخوالي، ونزواته والمآدب التي كانت تحفل بالأرانب وطيور الحجل والسمك البوري والدجاج والخنازير الرضيعة، والحملان المشوية على السفود، والفطير باللحم المفروم، والشواء والمحار، والبقاوة والرقاق والقطايف والخمور المعتقة والكافيار - وغيرها من الأصناف التي التهمها في نهم شديد.

وتمتم: الحمد لله، عشت حياة طيبة استمتعت بها.
وسكرت رأسه بهذه الذكريات، فأغمض عينيه واستسلم للنوم.

في هذه الأثناء كان القسيس جريجوريس فوق صهوة بغلته الشهباء، وماريوري ابنته فوق حمار ياناكوس في طريقهما إلى الجبل الذي أوى إليه ميشيل. إذ تضرعت الفتاة إلى أبيها أن يتكرم عليها بهذا الصنيع.

- يجب أن أراه يا أبي، يجب أن أراه، فأنا لا أدري إن كنت سأعود ثانية أم لا..
وصرخ فيها أبوها بصوت متهدج، تقطعه نوبات النشيج:

- لا أحب أن أسمع منك هذا الكلام. ربنا كبير، ستبرأين من علتك وفي عيد الميلاد سنحتفل بزفافك. سأرقص في هذا اليوم حتى أدخل السرور على قلبك.
ولكن الفتاة ألحت عليه متوسلة إليه:

- لتأخذ طريقنا إلى الجبل، حتى أراه مرة أخرى.

- كما تشائين يا طفلي. هل يسعني أن أرفض لك طلباً؟

وبعد هذه الكلمات شد لجام بغلته لتأخذ الطريق المؤدية إلى الجبل.

كان ميشيل جالساً فوق المقعد الحجري وحيداً. بينما ارتدى نيكوليو لباس الزفاف، واعتنى بغسل شعره المموج وعصبه بالمنديل الحريري الأحمر، وأمسك بعصاه وسندها إلى رقبته فوق كتفيه، وظهر عند أول الطريق فوق الجبل وتهياً ليتخذ سبيله إلى بيت العرس.

وصاح بميشيل الذي كان يتأمله في صمت وإعجاب:

- طبت مساء يا سيدي. إني ذاهب لأتزوج. أبلغ تحياتي إلى اليوم.
ورنت ضحكته العالية بين جنبات الجبل.

ومر بجانب القطيع فوضع إصبعيه السابطين في فمه وصفر للقطيع مودعاً. ثم وقع بصره على الكباش داسوس بقرونه الحلزونية، والجلاجل حول رقبتة. ووثب داسوس نحوه، ثم وقف أمامه يحدجه بنظراته. وأحس نيكوليو برغبة عارمة في أن يمسك بالكباش من قرنيه ويصارعه. فخطا نحو الكباش وبدأ مصارعته معه.
وبعد أن أشبع رغبته صاح به:

- إليك عني أيها العجوز ذو القرنين. اذهب إلى نعاجك، أما أنا فذهاب إلى لينيو. إلى اللقاء يوم الإثنين. بركاتك يا صديقي داسوس.
وبدأ يدب بقدميه فوق المنحدر، وكعباه يحدثان قعقة عالية.

وسمع ميشيل أصواتاً تقترب منه، فنهض واقفاً. لمحت عيناه بين الصخور القسيس جريجوريس يتقدم، ومن ورائه حبيبته ماريوري. فخفق قلبه في جزع.
وتتمم قائلاً:

- ترى ما هي وجهتها؟ لماذا أتيا إلى هنا؟ لا بد وأن حدث شيء سيئ. وخف للقاءهما.
وقال القسيس:

- عزيزي ميشيل، يسعدنا لقاؤك في خلوتك، إننا في طريقنا إلى المدينة، وأبت ماريوري أن ترحل دون أن تودعك. حالتها الصحية سيئة إلى حد ما، لذلك سنذهب إلى المدينة لتبين حقيقة مرضها.

ورنت الفتاة إلى حبيبها بعينين تفيضان إعجاباً، واحمر وجهها خجلاً. وقالت بصوت واهن:

- وداعاً يا ميشيل.

أعانهما ميشيل على الترحل، وجلس ثلاثتهم فوق الأريكة الحجرية. واعتلت الشمس صفحة السماء وغرق السهل على البعد في بحر من نور وإن كان يغشاه بعض الضباب. وحوم فوقهم غرابان ينعبان. وتجهم القسيس لمرآهما، ولم ينبس

بنت شفة. ولكن الفتى والفتاة لم يلحظا شيئاً. وأمسك ميشيل بين يديه بأصابع خطيبته النحيلة التي يتألق فيها الخاتم الذهبي.

وقال القسيس:

- سألقي نظرة على قصرِكَ هنا.

ودخل الحظيرة رغبة منه في أن يترك الخطيبين وحدهما.

وسأل ميشيل خطيبته في جزع:

- هل ساءت حالتكَ يا صغيرتي ماريوري؟ إن الله كبير يا عزيزتي، فلتكن ثقتك به سبحانه. لا بأس عليك، سوف تتحسن حالتكَ. تشجعي فالشهور تمضي سراعاً، وعيد الميلاد بات وشيكاً.

وقالت ماريوري في حنان:

- نعم، عيد الميلاد بات وشيكاً.

وبعد لحظة صمت قالت:

- هل تخاصمت مع أبيك؟

- دعك من أبي، فالأمر مؤلم للغاية. دعينا من الحديث في هذا الموضوع يا ماريوري. إني أحبك، ولا أريد أن أفقدك. أنت الشيء الوحيد الذي يربطني بالأرض ولا شيء سواك. أنت فقط، هل تفهمين ما أقول؟

- وإذا قدر لي ألا تمتد بي الحياة، فماذا أنت فاعل؟

وبسط ميشيل ذراعه ووضع راحته على شفيتها وقال:

- اسكتي.

وحانت فرصة لماريوري كي تطيع قبلة على راحة ميشيل.

وفاض الدمع ساخناً من عينيها الجميلتين البائستين. وقالت بصوت هامس:

«حبيبي».

وظهر القسيس جريجوريس عند عتبة الحظيرة. وقال:

- يجب أن نسرع يا ماريوري حتى لا يدهمنا الليل. هيا بنا على بركة الله.

والتفت إلى ميشيل وقال له:

- كنت أود أن أتحدث إليك يا ميشيل، ولكن لنرجع الحديث إلى حين

عودتي. متى ستعود إلى أبيك؟
وانحني ميشيل ليقبل يده وأجاب:
- وقتما يشاء الرب يا أبانا.
وحده القسيس بنظرة قاسية وقال:
- يا ميشيل، إن الرب ينتظر أحياناً أن يلمح إليه قلب الإنسان بإشارة منه.
وأحس برغبة في أن يستطرد في الحديث معه، بيد أنه أحجم عن ذلك.
وقال ميشيل:
- إلى اللقاء. كان الله معكما.
وأمسك بيد ماريوري النحيلة بين يديه للحظة. وقال هامساً:
- أنت وحدك يا ماريوري. لا تنسي ذلك.
وأدار وجهه ليواري دموعه، ثم ارتقى صخرة عالية، وظل يودعهما بنظراته
وهما في طريقهما إلى المدينة.
وحدث نفسه:
- نعم ما زال قلبي متعلقاً بالأرض..
وتجول بين ربوع الجبل، ثم سرح الطرف إلى السهل تحت قدميه. بدأ موسم
قطاف العنب. وترامى إلى سمعه شدة النساء اللاتي أسكرهن أريج العناقيد.
كن يقطفن العناقيد الناضجة ويلقين بها في السلال، وخضب دم الكرم أيديهن.
ويتعقبن بنظراتهن الفتية يحملون السلال بعيداً، فيتنهّد البعض منهم، وتلوح
أخريات في خفة ونشاط، والجميع يروح عن نفسه بترنيمات خافتة.
وتوقف ميشيل وقد أثقل قلبه الحزن، خيل إليه أن ما يسمعه ليست أغاني
قطاف العنب، بل نواح جنائزي.
وجمد في مكانه، وأحس بأن الحياة تدور من حوله دورات متعاقبة لانهاية لها.
دارت عجلة الحياة دورتها الأبدية حتى بلغت الآن موسم قطاف العنب.. وستأتي
قريباً دورة جمع الزيتون، ثم دورة ميلاد المسيح.. وبعد قليل ستزهر أشجار
اللوز، ويبدأ الفلاحون القمح من جديد، وبعده يكون الحصاد.. وشعر ميشيل
بنفسه كأنه يدور مع هذه العجلة، تعلو به وتهبط تحت أشعة الشمس وتحت وابل

المطر. وأحس كأن الليل والنهار موثوقان معه بهذه العجلة، تعلو بهما وتهبط دائماً أبداً وكذلك المسيح، وليداً جديداً ثم شب وترعرع وأصبح رجلاً سوياً، وتقدم بخطوات كلها عزم وتصميم لينشر كلمة الرب، ثم صلب، وقام من جديد، ونزل إلى الأرض مرة أخرى في العام الذي يليه ليصلب ثانية..

أحس ميشيل بخديه يرتجفان ورأسه يدور. تشبث بصخرة إلى جواره كأنما يريد أن يوقف العجلة ويعوقها عن الدوران. ولكنه خر إلى الأرض، وفجأة ودون سبب واضح انخرط في بكاء شديد.

لم يغادر الشيخ بطريار كاس فراشه صباح اليوم التالي، الأحد. قضى ليلته أرقاً مسهداً. وإذا أغفى لحظة دهمه كابوس، وتدافع الدم إلى رأسه، وأحس بالاختناق. بعث إلى ابنه يدعو لحضور زفاف لينيو وكان رد الابن عليه: «إن كانت دعوة لحضور وفاة فنعم، أما زفاف فلا». وتلقى الشيخ هذه الإجابة كأنها طعنة في قلبه. وفاض الدمع في عينيه وتمتم:

- واستعاد الشيخ حياته، وتذكر أباه يوم أن تقدمت به السن، وفي نوبة غضب قرر ألا يفتح فمه بكلمة. وظل دائماً مطبقاً شفثيه، حيناً يمسك بالسوط يلهب به ظهور رعاياه من الرجال والنساء، وحيناً يلتقط الحجارة ويقذف بها الفتيات وهن في طريقهن إلى النبع فيهشم لهن الجرار. وكان يأكل كما يأكل الغول، ويشرب كما يشرب البقر، ولم يعرف المرض في حياته. وكم من عجب أن نبتت له أسنان جديدة، وهذا ما أذهل الناس جميعاً. وفي يوم صحو جميل سقط في هوة فوق الجبل ولقي حتفه. وتملك الشيخ بطريار كاس الفزع عندما تذكر هذه الحادثة وما أعقبها. فعندما بلغه النبأ: «قتل أبوك» غرق في نوبة ضحك مجنونة. وفزعت القرية جميعها من هذا القلب الجاحد لكل عواطف البنوة. ولكنه واصل ضحكه وأحس كأنما يروح عن نفسه بذلك الضحك. إذ بدا له أن صخرة كبيرة كانت تسحقه تحتها انزاحت عنه فجأة. وأخيراً بدأ الابن يتنفس بحرية، وكان عسيراً عليه أن يكتفم فرحته..

وارتعد العمدة الشيخ عندما تذكر ذلك الضحك.

- أليس من المحتمل أن ميشيل يشعر هو الآخر بأن ثمة صخرة تسحقه تحتها وتكتم أنفاسه؟ ترى هل لا بد أن ندفع مقابلًا لكل شيء في هذا العالم؟ - وهل سيضحك ميشيل بدوره؟

ودارت عيناه فزعتين في محجريهما.

- بيد أنني كنت أحب أبي، كنت أحبه يقينًا.. وكذلك ميشيل يحبني دون شك.. ماذا إذن؟ إنني لا أفهم شيئًا. هل مكتوب على الإنسان أن يضيق الأبناء في النهاية بمن أتوا بهم إلى هذا العالم، ويكرهونهم؟ لماذا؟ لماذا؟ لست أدري.

تأمل الشيخ بطريار كاس كل هذا وتنهّد، وتقلب فوق فراشه حتى اهتزت أرض الحجرة لثقله. ومع المساء فتحت أبواب البيت لاستقبال المدعوين. وعندما وصل القسيس جريجوريس بدأت الأغنيات تتردد. ونهض العمدة مرغمًا، واغتسل، وارتدى ملابسه وتزين وهو ينفخ كالشور. وصبغ شاربه وحاجبيه، وضمخ شعره بماء الورد، ونزل الدرج ليحضر زواج ابنته بخادمه.

كان الخطيبان يتألقان نظيفين، اتخذ كل منهما زينتته، وارتدى أحسن ثيابه. وبدأ العرق يتصبب منهما، وتبعث منهما رائحة كرائحة الخيل إثر خروجها من البحر. يخال من ينظرهما أن لو بقي هذان الكائنان وحدهما على ظهر الأرض فسرعان ما يعمران الأرض بنسل جديد من البشر.

واتخذ العمدة مجلسه إلى جانبهما. فهو وكيل العروس وشاهد الزواج ومن ثم عليه أن يقوم باستبدال إكليلي العرس. وبدأ القسيس جريجوريس ترانيمه، بينما وقف الشماس يطوح بالمبخرة الفضية، واصطف المدعوون حولهم، كل منهم يحس بالاعتزاز إذ أتيح له أن يشارك في حفل الزفاف. ووقفت فتاتان صغيرتان تنتظران، وفي يد كل منهما صحيفة مليئة بالحلوى.

وكان القسيس جريجوريس متسرّعًا للغاية حتى أنه كان يتعثر. لم يكن كعادته، إذ خلقت أفكاره بعيدًا مع ابنته التي فحصها الأطباء هذا الصباح وهزوا رؤوسهم. كان يسرع في ترتيبه ويدغم الكلمات وهو يتعجل الانتهاء من مهمته. وكذلك كان العروسان قلقين، يتحرقان شوقًا أن يتركهما الناس وحدهما، ولا يفهمان سببًا لكل هذه الحفاوة. والشيخ بطريار كاس يتعجل هو الآخر انتهاء الحفل، فإن ساقيه

كادتا تخونانه ولا تقويان على حمله. ولكن الكبرياء أرغمه على أن يعرض على النواجذ ويتحامل على نفسه.

وبعد أن انتهت مراسم الزواج قال:

- يا أصدقائي، يحتفل اليوم نيكوليو ولينيو بزفافهما، بمرحبا بكم في منزلنا. كلوا واشربوا ما طاب لكم حتى تملأوا البطون، ذبحنا عدداً وفيراً من الحملان، والنيبذ موجود بوفرة والحمد لله. حان موسم قطاف العنب وسرعان ما نملاً البراميل إلى حافتها من جديد، لذلك أدعوكم أن تفكوا أحزمتكم واشربوا هنيئاً. واستدار ناحية العروسين وقال لهما مهتئاً:

- حياة مديدة يا طفلي. أتمنى أن تمتد بكما الحياة حتى يتقدم بكما السن، وتنجباً أبناء وأحفاداً، وتعمرا الأرض بنسلكما وتخلدا سلالة الإنسان. لا تنكسا رايكما أمام ملاك الموت، لأننا نبذر وهو يحصد وسنرى لمن سيكون النصر. هل سمعت ما أقول يا نيكوليو؟ أطلق قذائفك، وابذر ما استطعت إلى البذر سبيلاً.

- وإني أستمحكم عذراً يا أصدقائي أن أذهب إلى الفراش، فإني أشعر ببعض التعب. أما أنتم فكلوا واشربوا، اليوم عيد فابتهجوا واضحكوا حتى يسفر الصباح. وأنتن أيتها الصبايا وأنتم أيها الصبية الذين لم يسود شاربكم بعد- لكم جميعاً أطيب التمنيات- أتمنى أن يأتي دوركم سريعاً، ونحتفل بزفافكم، وليتني أعود من جديد كما كنت القديس جورج الفتى لأقدم لكم دمجانة النيبذ.

وضحك الحضور. ورفع العمدة يده اليمنى محيياً، وأسرعت فتاة صغيرة تفتح له الباب. وتوقف العمدة عند العتبة، واستدار ناحية القسيس جريجوريس الذي كان يطوي رداءه الديني، وقال له:

- يا أبانا، بعد أن تناول لقمة اصعد إلى الدور العلوي لتحدث سوياً.

ولكن القسيس نهض واقفاً على الفور. وقال:

- سأتي معك يا عمدة. كان الله معكم يا أصدقائي.

والتفت إلى العروسين وقال:

- زواجاً سعيداً يا طفلي.

وانصرف الشيخان، وتنفس الحضور الصعداء، وأقبلوا على الطعام.

ودخل الحجرة زعيما القرية وأخطر رجالها شأناً، وأغلقا الباب عليهما. ومن تحتتهما دارت رؤوس المدعوين، وتحول النيذ واللحم إلى غناء ورقص وضحكات عالية وزفرات شبة. ولم يسمع الشيخان شيئاً وهما في الطابق العلوي، كانا غارقين لأذانهما في هموم خطيرة تعذبهما.

تمدد الشيخ بطريار كاس فوق سريره وأطلق لسانه العنان حتى أنه نسي نفسه. كان يتحدث عن الاشتراكيين كما صورهم له خياله، أنصاف آدميين، أنصاف وحوش، يتدفقون من الشمال، وفي أقدامهم نعال من حديد يقدح منها الشرر حين تدق على الأرض فتشتعل النيران في القرى. ويتصدر مانولي هذه الزمرة وتحول هو الآخر إلى نصف وحش، وتتصاعد ألسنة اللهب من فيه، ويشير بإصبعه إلى ليكوفريسي.

وقال القسيس جريجوريس:

— ومعهم أيضاً فوتيس، هذا القسيس المارق طريد الكنيسة، إنه معهم، وهو زعيمهم.

— نعم القسيس فوتيس أيضاً، وكل عصابته من المهلهلين الذين تجمعوا فوق ساراكيئا. إنهم يتأهبون للانقضاض على قريتنا. كنت على حق عندما قلت «إنها ثورة الذنب ضد الرأس..». ولهذا السبب يا أبانا أردت أن أراك، لتتدارس الأمر معاً، ونتبين أفضل السبل لوضع الأمور في نصابها.

كان القسيس جريجوريس ينصت له. وبين الفينة والفينة يتجدد الغضب في صدره، ولكن سرعان ما عادت أفكاره إلى ماريوري، وغامت الدنيا أمام عينيه، وملاً الطنين أذنيه، فبات لا يسمع شيئاً من كلام الشيخ.

وطال بهما الحديث حتى انتصف الليل، وأضناهما الإرهاق، واكتفيا بما قيل، وضاقا ببعضهما ونظر كل منهما إلى الآخر في كراهية. وقال القسيس جريجوريس في نفسه: «ليته يصاب في لسانه بقرح يخرسه». وقال بطريار كاس في نفسه: «ألن يرحل هذه الليلة؟ هذا الخنزير البدين سيزهق روحى».

مرة أخرى تذكر القسيس جريجوريس ابنته ماريوري، وعاوله التفكير فيها. تركها وحدها هنالك في العيادة، داخل حجرة صغيرة خانقة، لها كوة تطل على

فناء ضيق. وقال له الأطباء: «يجب أن تبقى هنا تحت الملاحظة فترة من الزمن، وسنخبرك فيما بعد بالنتيجة». وسرت رعدة في جسد القسيس التعس وسألهم: «هل حالتها خطيرة؟». «ثمة خطر، وثمة أمل أيضًا يا أبانا، وعلينا أن نتذرع بالصبر. الموت والحياة يتصارعان في دم ابنتك، وسنرى لمن الغلبة في هذا الصراع». وتضرع الأب: «أخبروني بالحقيقة كلها». «أفضينا إليك بالحقيقة يا أبانا. عد إلينا بعد شهر». وقال القسيس: «سأصلي للرب. ابذلوا جهدكم من جانبكم، وسنبذل نحن من جانبنا كل ما نستطيع. وداعًا، كان الله في عوننا». كانوا في عجلة من أمرهم ويريدون التخلص منه سريعًا، حتى يتسنى لهم زيارة مرضى آخرين في انتظارهم.

وفجأة نهض القسيس ومد يده إلى بطرياركاس. وتنهّد وقال:

– طاب مساؤك يا عمدة. سنعاود الحديث في كل هذا غدًا.

– هل لن تبقى معنا قليلًا يا أبانا؟ لماذا العجلة؟ معذرة.. نسيت أن أسألك عن أخبار ماريوري. ماذا قال الأطباء؟

– يبدو أنه ليس ثمة خطر. المسألة غير ذات بال، وإنما هي فتاة كغيرها من الفتيات يصيبها التحول. ويرون أن من الخير لها أن تتزوج سريعًا.

ثم أراد أن يحول الموضوع وجهة أخرى فقال:

– وماذا عن ميشيل؟ إنني قلق عليه يا عمدة.

وأجاب الشيخ بادي الغضب:

– لا داعي للقلق، فإنه شاب صغير طائش وغدًا يثوب إلى رشده. يجب أن نتخلص من مانولي أولاً وبذلك تستقيم الأمور.. طبت مساء يا أبانا.

وبعد أن فرغ من كلماته استدار سريعًا بوجهه ناحية الحائط.

وتناهى إلى سمعه وقع أقدام القسيس وهو ينوء بثقله فوق الدرج.

وهمهم:

– يزعم هذا القسيس العجوز أنه قلق. وأنا أيضًا قلق على ماريوري أيها الشيخ. لو كان لا بد وأن يتزوج ابني بفتاة مصدورة تلوث نسلي فالموت خير لها حتى نعيش في سلام. إنني حزين عليها، حزين على هذه المسكينة، والله على ما

أقول شهيد، ولكن خير لها أن تموت.

بينما كان أعيان ليكوفريسي يدبرون أمرهم للتخلص من مانولي، كان مانولي يجلس مع القسيس فوتيس، يفكران معاً في الشتاء المقبل، وعن وسيلة لإنقاذ اللاجئين في ساراكيئا من الموت جوعاً وبرداً هذا الشتاء. قال القسيس فوتيس:

- العمل هو المنقذ الوحيد. العمل والمحبة.

وجمعا الرجال والنساء القادرين على العمل، وقسماهم جماعات متفرقة - جماعات أخوية - وعينا لكل جماعة أخوية مسؤولاً عنها يقودها، ويكون أكبر الإخوة أو أكبر الأمهات سناً. وبعثنا بهم إلى القرى المجاورة للبحث عن عمل. وانتشروا في الأرض في اتجاهات مختلفة ولم يخلفوا وراءهم فوق جبل ساراكيئا غير الشيوخ من الرجال والنساء لرعاية الأطفال.

ورافقهم القسيس فوتيس في طريقهم بعض الوقت وعبر لهم عن تمنياته الطيبة بقوله:

- اعملوا يا أطفال في حراسة العناية الإلهية. اعملوا واجمعوا كل ما تستطيعون، فاكهة وزيتاً ونبذاً وثياباً. ليكن وطننا الجديد في ذاكرتكم دائماً ولا تنسوه. انظروا إلى النحل حين يترك خلاياه وينتشر فوق السهول والجبال يجمع الرحيق، ألا يعود إلى وطنه محملاً بالرحيق لخلايا الشمع الصغيرة والنحل الرضيع؟ كونوا مثل النحل يا أطفال. اذهبوا وليكلائكم الله بعنايته.

وكثيراً ما كان يصاحبهم مانولي، ويخرج معهم إلى العمل. يبيت فيهم الشجاعة ويشد من أزرهم أثناء الطريق، ويدلهم على القرى المحيطة، ويبين لهم أي الأشياء هم في مسيس الحاجة إليها أكثر من غيرها، وأي الأبواب لهم أن يطرقوها. وبعد أن اطمأن إلى أن كلا منهم وجد عملاً عاد إلى ساراكيئا. وجمع الأطفال حوله هو والقسيس فوتيس واستخدما الألواح التي أعطاها لهم حاجي نيكولا ناظر المدرسة، وبدأ في تعليمهم الحروف الهجائية.

وإذا جن الليل جلس الاثنان معاً، فوق الأريكة الحجرية بجوار الكنيسة

يتجاذبان أطراف الحديث.

وذات مساء قال القسيس فوتيس:

- اسمع يا مانولي، إن الله موجود بكل كيانه في كل شيء حتى في أصغر حصة وأدنى الحيوانات وأكثر النفوس إظلامًا. لنبدل كل ما في وسعنا حتى نرى قريتنا أو خليتنا يشع ضوءها في كل النواحي بالوجود القدسي. ولنكن نموذجًا للجد والنجاح والاتحاد. لا تنس أن العمل الطيب حتى وإن كان وسط صحراء قفر غائرة، له صدهاء الذي يتردد في كل أرجاء العالم.

ورفع مانولي عينيه ونظر إلى القسيس فوتيس. خيل إليه كأن وجهه الضامر الجريء نار متأججة وسط الظلام، وكأن يديه المرفوعتين إلى السماء تلوحان لهيبًا يتراقص.

وأجاب مانولي في حمية:

- نعم، كل إنسان قادر وحده على أن يخلص العالم. كانت هذه الفكرة تراودني دائمًا يا أبانا، وكنت أرتجف منها. هل نتحمل نحن هذه المسؤولية الكبرى؟ ماذا يجب علينا أن نفعل إذن قبل أن نموت؟ ما الذي يجب أن نلتزم به؟ وما هو طريق الخلاص؟

وصمت. كان الظلام دامسًا. أشعلت النساء النار ليعددن الطعام. وجلس الأطفال القرفصاء من حولهن في انتظار الطعام وقد عضهم الجوع. وضع مانولي يده فوق ركة القسيس فوتيس الذي غرق في تأملاته دون أن يجيب عليه.

وسأله هامسًا:

- كيف لنا أن نحب الرب يا أبانا؟

- بأن نحب الناس يا بني.

- وكيف لنا أن نحب الناس؟

- بأن نقودهم إلى الصراط المستقيم.

- وما هو الصراط المستقيم؟

- الطريق الصاعد.

أنت الذي قتلت.. أنت

في اليوم التالي، وبعد أن انتصف النهار تقريباً، عاد الأغا من سميرنا. لم يكن وحده، كان وراءه غلام تركي جديد ممتطياً صهوة مهر كستنائي. كان الغلام خبيث النظرات، فظ الطباع فيه خلق الذكر الصغير. لم يكن يمضغ لبناً، ولم يكن يغني «العالم حلم» بل كان دائماً جوعاناً عطشاناً، ومن ثم تراه دائم الأكل والشراب. يصرخ ويسب ويتوعد، ويتدلّل على الأغا ويأمره. والأغا العاشق المسكين يلتهمه بعينين نهمتين، ويتجاوز عن كل نزواته. كان اسمه إبراهيم ويناديه تدليلاً براهيماكي. يبلغ الخامسة عشرة من عمره، له شفتان مكتنرتان يخطهما زغب كثيف.

نقب الأغا الأرض بحثاً عنه حتى اهتدى إليه في ضاحية سيئة السمعة من ضواحي سميرنا. ترى كل بيت فيها يعلق فانوساً أحمر عند الباب علامة على تميزه. كان الغلام يبيع بذور عباد الشمس بعد تحميصها، وعوازل من المطاط يستخدمها الرجال لمنع الحمل، وأسماكاً مشوية، وزهور ياسمين. يجمع كل هذا مختلطاً يبعضه في سلة واحدة، ويعرض بضاعته على الناس. وترى الضاحية مع الغسق وقد باتت مزاراً تفد إليها مواكب متتابعة من الرجال، شباباً وشيوخاً، يفدون إليها من كل أرجاء المدينة بحثاً عن لحظات يستمتعون فيها باللذة، وينسون معها هموم يومهم. وتقف النسوة على عتبات بيوتهن مخضبات الوجوه بطريقة فاضحة، أنصاف عراة، وعلى شفاههن ابتسامة تستثير الشهوة. عندما وقع نظر الأغا على براهيماكي شغف به حباً، فدنا منه، وراوده عن نفسه، وساوم

الغلام، ثم اتفقا في نهاية الأمر. واشترى الأغا للغلام مهرًا كستنائيًا، وحلة جديدة من فاخر الثياب، وساعة فضية ذات سلسلة، وزجاجة مسك، وكيسًا به باقة من زهور القرنفل والقرفة. وأخذ بعد ذلك إلى الحمام حيث استحجم هناك، ومزج ماء الحمام بزيت عطري. ثم اصطحبه إلى حلاق ليقص له شعره، ويعطره بماء اللافندر. وأخيرًا أسلمه إلى يد واحد من أصدقائه القدامى، وهو شيخ تركي يعمل (خوجة) ليعلمه بعض الحيل.

وبهذه الطريقة حصل الأغا في النهاية على براهيمكي نظيفًا معطرًا مدربًا. واستقبلت مارثا المحظي الجديد بتأفف، وحدجته بنظرة من رأسه إلى أخمص قدميه، ثم ندت عنها ضحكة ساخرة في شماته. وحدثت نفسها:

- ستكون نهايتك على يد هذا اللقيط يا أغا.

وتوسط الأغا الفناء وسألها وهو يترجل عن بلغته:

- ما الأخبار يا مارثا؟ هل من وفيات أو زيجات؟ أما زال الشيخ بطريار كاس والقسيس جريجوريس على قيد الحياة؟ ألم يتضارب الروميون؟ هل لم يفقأ كل منهم عين الآخر؟ أخال أنني غبت أعوامًا طويلاً.

والتفت إلى براهيمكي وقال:

- هذه هي الأم مارثا عادتنا المخلصة. هي امرأة طيبة، وربة بيت ممتازة كنوم أمينة.. تعيها حذبتها الصغيرة ولكنك ستألفها.. افعل بها ما تشاء، اضربها، اقتلها، ضاجعها فهي لك.

وامتعص براهيمكي، ووضع يده فوق حذبة العجوز وأغرق في الضحك. ثم قال:

- ماذا عساي أن أفعل بها؟ إنها ناقة وأنا أهديها إليك.

وتركهما ليتفقد مسكنه الجديد.

وقال الأغا:

- لا تعبأي بكلامه يا مارثا، إنه مهر صغير. لذلك تريته يندفع وبعض، ولكن اهدأي أنت واحتمليه. وأنا أيضًا سأهدأ معه وأحتمله. صبرًا يا مارثا، صبرًا غدًا سيتعلم.

وعاد براهيمكي إلى الفناء. وسأل الأغا:

- ألا توجد حسناوات في قريتكم هذه؟ لا بد أن تدعوهم يومًا للرقص هنا حتى أراهن وأنتقي من بينهن من تروقني.
وقفز الأغا وقال:

- اسمعني: ولا كلمة من هذا. هل تفهم ما أقول؟ كل من في هذه البلدة روميون. ولا أريد مشاكل. الزم مكانك.

وقال المهر الذي لا يعرف معنى الحياء وهو يضحك بصوت عال:
- بل هن اللاتي يلزمن مكانهن فوق حجري. أعدي المائدة أيتها العجوز الحذباء فإني جائع.

وتنهذ الأغا إذ تذكر حبيبته يوسوفاكي. كان له فم ولكن لا يتكلم. تقول له غننا يا يوسوفاكي فيغني. أشعل لي غليونني فيشعله.. هيا إلى الفراش فيذهب طائعا.. أما هذا فهو شيطان في جلد إنسان، ولكن ما العمل؟ بيد أن هذا الحيوان له سحره وفتنته أيضًا.
وقال:

- لك ما شئت يا براهيمكي. كل شيء سيكون معدًا، ولكن صبرًا قليلًا. هيا يا مارثا اذبحي لنا دجاجة.

وبعد ساعة جلس الأغا ومهره إلى المائدة وأكلا وشربا ما شاء لهما من الطعام والشراب، ثم دخلا إلى حجرتهما وأغلقا عليهما الباب. ما الذي حدث داخل الجدران الأربعة، لا أحد يعرف، ولكن مع المساء خرج الأغا من حجرته راضيا، منهك القوى، منتفخ العينين. ونادى مارثا:

- اذهبي إلى بطرياركاس وسليه أن يحضر، فإني أريد أن أتحدث إليه. إذ إن براهيمكي يصبر على رؤية النساء وهن يرقصن أمامه، وهل نستطيع أن نرفض له طلبًا؟ هيا ضعي الخمار على وجهك واذهي من فورك.

ألقت مارثا بيت بطرياركاس مقلوبًا رأسًا على عقب. الكلاب تدخل وتخرج من الباب المؤدي إلى الفناء كأنها امتلكت البيت. وبضع خادومات يجمعن

فضلات الطعام، وينظفن الموائد، ويكنسن... أما لينيو فرحلت مع عريسها إلى الجبل ليسكننا حظيرة مانولي. واليوم أصبحت الكلمة في البيت للأم ماندالينا، فهي التي ترقب الخادومات وتصدر إليهن أوامرها. وأمست بخرج تحشوه بكل ما تصل إليها يداها، أحياناً تدس فيه بعض الأشياء خفية، وأحياناً جهرًا وعلانية. وبين الفينة والفينة تصعد الدرج لتلقي نظرة على سيدها وتطمئن على حالته.

لقد ساءت حالة العمدة الشيخ منذ ذلك اليوم. استيقظ من نومه نصف مشلول، عاجزًا عن تحريك ذراعه أو ساقه اليمنى، والتوى فمه.

وظلت الأم ماندالينا تكرر على سمعه قولها:

- لا شيء البتة، لا شيء، لا تقلق يا عمدة. سأدلك جسمك، وبعدها سيعود كل شيء كما كان. إنها نزلة برد.

ولكن الشيخ كان يحملق في خمول وبلادة إلى النافذة المقابلة للسريـر، لعبه يسيل من فيه.

ولم تكد عين الأم ماندالينا تقع على مارثا العجوز حتى خفت إليها تمنعها، فهي لا تطيق رؤية الحدياء العجوز.

ماذا تريدين يا مارثا؟ هل ثمة شر جديد حل بالقرية؟ هل عاد الأغا؟ تكلمي فإني لا أطيق صبرًا.

- تريثي قليلًا، ما بالك تسدين عليّ الطريق أيتها العرافة القذرة. أريد مقابلة العمدة لأمر هام، ولا مناص من ذلك.

- لن تربه، وأنا أصدقك القول، فلا داعي للإلحاح. لا يمكنك ذلك، فقد ألم به مرض عضال وأصبح مشلولًا. بعث في طلب ابنه، يبدو أنه أصيب بضربة.

استعصى عليه الكلام فبات يتلعثم ويريل دون انقطاع. لا يمكنك مقابله.

- دعيني أدخل حتى أراه بعيني أنا، ابعدي عن طريقي. الأغا هو الذي أرسلني.

- لا، لن أدعك تدخلي.

- بل سأدخل رغمًا عنك.

وتضاربتا، وهرع الخدم إليهما، وبعادا بينهما. وتحاليت الحدياء حتى وصلت إلى السلم وصعدت الدرج مندفعة بأقصى سرعتها، كأنها عنكبوت مزق عنه

نسيجه. فتحت الباب، ودلفت إلى داخل الحجرة. فتح العمدة الشيخ عينيه ورآها، ولكن لم يبد حراكاً.

وقالت العجوز:

- يا عمدة، أنا مارثا. يبعث إليك الأغا بتحياته. يسألك أن تتفضل بالحضور إليه لمقابلته. إذ يود أن يتحدث إليك في موضوع ما.

وهنا حرك الشيخ رأسه في بطاء وأناة. وتحركت شفتاه، وغمغم بكلمات لا تبين، ودنت منه مارثا، بينما دخلت ماندالينيا في تلك اللحظة ثائرة غاضبة، ودفعتها بعيداً عنه وانحنت فوق الشيخ:

- ماذا تقول يا عمدة؟

وحرك الشيخ شفتيه ثانية، وتلعثم بكلمات مدغمة، واستدارت ماندالينيا، وقالت للعجوز الحدياء:

- يقول لك اذهبي إلى الشيطان.

ولكن العجوز أصرت في عناد وقالت:

- ماذا أقول للأغا يا عمدة؟

وتحركت شفتا العجوز ثانية، ودنت منه الأم ماندالينيا للمرة الثانية ثم قالت:

- يقول له ليذهب هو الآخر إلى الشيطان.

وهزت العجوز الحدياء رأسها، ثم دنت من السرير، ومالت برأسها فوق الشيخ المريض وهمست له قائلة:

- يا عمدة، الأغا يعد العدة لكارثة، هل تسمعي؟ أتى بشيطان جديد من سميرنا سيشتعل النار في بلدنا. هذا الوغد يطلب أن تحضر كل بنات القرية أمامه ويرقصن في الميدان تحت شجرة السنار، حتى ينتقي من بينهن من يشاء... كان أجدر بك أن تسقط مريضاً في لحظة أخرى غير هذه يا عمدة.

وفتح الشيخ عينين واسعتين، وتدافع الدم إلى وجهه، واستجمع كل قواه وقال:

- أبداً، لا يمكن.

ثم سقط رأسه ثانية فوق الوسادة.

وصرخت الأم ماندالينيا:

- ستقضين عليه يا حدياء، عليك اللعنة، اذهبي إلى الجحيم.
وأمسكت بمارثا من حديتها وألقت بها بعيداً.
وعادت إلى السرير. وبدأت تدلك جسد الشيخ بزيت الكافور. وخفف هذا
بعض أوجاعه وفتح عينيه.
وخرجت من فيه كلمات متلعثمة في صعوبة ومشقة:
- أرسلني من يستدعي القسيس جريجوريس.
ثم أغمض عينيه ثانية.
في هذه اللحظة انفتح الباب ودخل ميشيل.
وصاح في المرأة العجوز وهو يقترب من السرير.
- ابعدي.
وجمعت العجوز عقايرها واختفت.
وقف ميشيل جامداً يحملق في أبيه والدموع تفيض من عينيه. تورم وجه
الشيخ، وامتعق لونه، وتهددت لحيته وسقطت فوق رقبته. وتدلّى الجانب الأيمن
من فمه.
فتح الشيخ عينيه وابتسم عندما رأى ابنه أمامه. ومد إليه يده اليسرى وتمتم
قائلاً:
- ها أنت.....
ومال عليه ميشيل وقبل اليد الممدودة إليه. وتعلقت عينا الشيخ بابنه ينظر إليه
نظرة عميقة يائسة كأنه يستودعه.
ثم بسط إليه يده ثانية وتمتم قائلاً:
- وداعاً فإني راحل.
واستجمع كل قواه محاولاً التحدث إليه بكلمات واضحة قدر الاستطاعة:
- يا بني، إني راحل عن هذا العالم. سأترك المائدة. ها أنذا أرفع فوطتي بعد أن
انفضت الوليمة.. إن كنت أغلظت لك القول مرة فإني أسألك الصفح والمغفرة.
فأنا أب لك وأحبك. والحب يعمي الإنسان فيقسو حيناً على من يحب. أطلب
منك شيئاً واحداً فقط.

- قل يا أبت ما هو؟
- ماريوري...
وصمت ولم يتكلم. وتصبب العرق فوق جبينه. ومال عليه الابن، ومسح وجهه بمنديلته.
- ماريوري - اسمعني - مصابة بداء وبيل. لا تتخذها زوجة لك، إنها ستلوث دمنا. هل تسمعني؟
- أسمعك يا أبت.
- هل ستفعل ما أطلبه منك؟
لزم ميشيل الصمت.
- هذا هو الصنيع الوحيد الذي أطلبه منك. هل تقرني على ذلك؟ قل نعم حتى ألقى الموت هادئ البال.
ومضت لحظات والشيخ ينظر إلى ابنه في وجل.
وأخيراً اتمتم ميشيل:
- نعم..
وأغمض الشيخ عينيه وقال هامساً:
- هذا كل ما أريده منك، ولا شيء أكثر من ذلك.
وذهب ميشيل إلى الشباك، وأطل منه. كان الليل يرخي سدوله، وبدأ الفلاحون يعودون أدراجهم من بساتين الكرم وقد أضناهم التعب. ومرت فتاتان تتجاذبان أطراف الحديث، تحملان جرتين فوق كتفیهما. واجتاز الشيخ لاداس الطريق، مقوس الظهر، حافي القدمين، مخضب اليدين بعصير العنب.. إذ كان يقطف العنب في كرمته.
وتمللمل الشيخ فوق سريره وتنهّد. واستدار ميشيل ناحيته. وأشار إليه أبوه أن يدنو منه. وقال:
- لا تنصرف. انتظر.
- لن أنصرف. نم يا أبت..
وتناهى إلى سمعه على البعد صوت فتاة تغني بالقرب من بئر القديس بازل.

كانت تغني حبها بموال فيه أنين وشجن، تنفس به عن حزن عميق، كأنها أول من عرف الهوى، وأول من ذاق طعم العناق وما فيه من راحة للنفس. وفكر ميشيل في خطيته. وأحس برغبة في أن ينفس هو الآخر عن نفسه ويث أشجانه في صيحة عالية تلتقي على البعد بنوح الفتاة.

وفجأة لمح القسيس جريجوريس بلحيته البيضاء عند مدخل الفناء. اتجه ميشيل صوب الباب وهو يمشي على أطراف أصابعه، وفتح الباب في هدوء حذرًا أن يوقظ أباه، وانتظر عند أول الدرج.

وأخيرًا وصل القسيس، يمشي بخطوات متهادية وقور. وسأله ميشيل في قلق: - ماذا قال الأطباء يا أبانا؟

- ليس بها داء يا بني. بعد شهر تعود سليمة كآلة الكمان.

ورمق بعينه داخل الباب المفتوح.

- يبدو أن العمدة مريضًا. فقد بعث في طلبي.

- يبدو أن حالته سيئة يا أبانا.. ادخل.. خفف الوطء حتى لا توقظه.

لم يكن العمدة الشيخ نائمًا. فتح عينيه عند سماعه همسًا يدور بالقرب منه. وتمتم قائلاً:

- مرحبًا بك يا أبانا.

- ماذا دهاك يا عمدة؟ أمل ألا يكون شيئًا ذا بال. تشجع.

- لا شيء يا أبانا. حم القضاء. اجلس، أود أن أحدث إليك. اقترب يا ميشيل.

وبدأ يتحدث إليهما بكلمات مدغمة متلعثمة شوهاء. قص عليهما دعوة الأغا له وأن يوسف اكي الجديد يريد كل بنات القرية ليرقصن أمامه حتى ينتقي من بينهن من تحلو له.

وهب القسيس واقفًا وصاح في حدة:

- أبدًا مستحيل، الموت خير لهن من هذا.

وقال الرجل الذي أشرف على الموت:

- افعل ما يميله عليك واجبك. أما أنا فلن أكون معكم بعد الآن. سيحتل

ميشيل مكاني. و أغمض عينيه خائر القوى، ثم أمسك بيد جريجوريس وقال له:

- تعال الليلة لتقدم لي التناول.

وسار القسيس جريجوريس ناحية الباب وتبعه ميشيل.

- لا تترك أباك يا ميشيل، فإن حالته سيئة للغاية. لعل الله أن يكلأه بعنايته.

وتفكر لحظة ثم قال:

- أما الأغا، فإنني سأذهب إليه فوراً، سأحدث إليه في ذلك الموضوع. نسأل

الله أن يقينا شر هذا العار.

وعاد ميشيل وجلس إلى جانب أبيه الشيخ. سهر إلى جواره طوال الليل،

عيناه مثبتتان على الوجه المريض الشاحب، والشفيتين الملتويتين، والوجنتين

المتهدلتين، والشعر الأشيب الذي بلله العرق. وقال في نفسه:

- كان هذا الرجل أبي.. كان العمدة بطريار كاس صاحب الحول والطول،

وكان في شبابه رشيقاً مثلما كان القديس جورج. تخاله فارساً على صهوة جواده،

حتى وإن كان يمشي على قدميه. ذاق أطيب أنواع اللحوم، وشرب أجود أنواع

النبيذ، وضاجع نساء ذوات حسب ونسب، كما ضاجع خادמות وراهبتين ورئيسة

دير. وملأ بيوت الآخرين بأبناء السفاح..

مضت الساعات تباعاً، والقرية تغط في نومها. وعاد القسيس، واعترف العمدة

الشيخ، ومنحه القسيس الغفران، وقدم له التناول، وانصرف وترك ميشيل وحده

مرة أخرى في رفقة الجسد الهامد الذي كان أباه يوماً ما. قضى ميشيل ليلته مسهداً.

وما إن تنفس الصباح حتى نبج كلب أحد الجيران. ونهض ميشيل واتجه ناحية

الشباك. بدأت السماء تصطبغ بلون وردي، ولكن ما زال الناس والأشجار والطير

والماء يلفهم النعاس. كان كل شيء هادئاً تماماً عدا ذلك الكلب الذي كان ينبج

في جزع.

وسمع الشيخ بطريار كاس نباحه وفتح عينيه. وكان كبر الملائكة يرف بجناحيه

السوداوين فوق سريره. وندت عنه آهة أسلم بعدها الروح.

وانفتح الباب، وظهر القسيس جريجوريس عند عتبته. دنا من السرير، ووضع

يده على قلب العمدة الشيخ، كان قد توقف عن الخفقان. واستدار ناحية ميشيل،

ونظر إليه في عبوس وشراسة.

وصاح بصوت مخنوق:

- أنت الذي قتلته.. أنت.

وهب ميشيل مذعورًا، ونظر إلى عيني القسيس، وحاول أن يفتح فمه ولكنه لم يستطع.

انهار عماد من عمد ليكوفريسي. ولم يكد الخبر ينتشر ويطلق الأبواب الواحد بعد الآخر حتى اهتزت له القرية، «مات العمدة الشيخ». حتى الأغا نفسه الذي استيقظ تَوًّا من نومه، وجلس في شرفته بعينين نصف مغمضتين يستعيد كل ما رآه وما فعله في أحلامه تلك الليلة، لم يكد يسمع الخبر حتى نظر في حيرة وارتباك إلى مارثا العجوز وهي تنعي إليه النبأ. وقال:

- هل مات؟ مات دون رجعة؟ هل انهار البرج؟ ستصبح القرية كسيحة من بعده. لا بد أنني كنت غارقًا في نومي حتى أنني لم أسمع جلبة والعماد ينهار. وعادت المرأة العجوز تؤكد له:

- كانت كلاب القرية تنبح طوال الليل يا أغا وعرفت حينذاك ما حدث. قلت لنفسي لا بد أن كبير الملائكة نزل إلى القرية ليختطف روحًا كبيرة. رأته الكلاب وفزعت منه.

وقال الأغا وهو يرتشف قهوته:

- كان رجلًا همامًا. من النوع الذي يدخل الجنة. كان يحب الحياة الرغدة الممتعة. عرف كيف يعربد ويتخذ المحظيات.. لهفى عليه أن لم يكن مسلمًا حتى كان يدخل جنتنا حيث أنهار الخمر والولدان المخلدون والحدور العين. هذا هو خير مكان لك يا عزيزي بطريار كاس المسكين. ولكن سبق السيف العذل وفات الأوان.

وظهر براهيمكي، أشعث الشعر، مثقل العينين من أثر النعاس. عاري الصدر، مطبوع فوق رقبته خال جميل يشد الأنظار. وشردت أفكار الأغا، وبسط يده النهمة، يداعب بها الشعر الأسود المموج والعنق الدافئ، وتهادت راحته فوق الخال الجميل وأحس كأنه دخل الجنة.

وأمسك الغلام الشرس بيد الأغا، وطوح بها بعيداً في غضب وسأله:

- متى سترقص النساء؟

- لا تكن عجولاً هكذا، أرجوك، سأفعل كل ما يروق لك. ولكنني لا أريد أن أثير ثائرة القرية ضدي.. زارني مساء أمس قسيسهم وقال لي: «أعفنا يا أغا من هذا العار، وإلا فإنك ستثير عاصفة هوجاء». صبراً قليلاً سنجد مخرجاً لذلك.. لهذا أسألك الصبر يا حبيبي براهيمائي وثق بأنه سيأتي العيد الذي يرقصن فيه جميعهن بمحض إرادتهن، ودون إكراه.. ووقتئذ ستراهن.

ولكنه أحس بالحماسة وهو يتكلم، وصرخ بصوت غاضب:

- ولكن عليك أن تعلم قبل هذا كله أنني لم آت بك إلى هنا لأزوجك.

في هذه الأثناء فتحت بوابة بيت بطرياركاس على مصراعها، ووضع الميت وسط الفناء. وتوافد أهل القرية جميعاً ليوذعوا الجثمان الوداع الأخير. نسوا كل سيئاته، ولم يذكروا غير حسناته، فترى أهل القرية لا يملون إطراء فضائل المتوفى وتعدد مناقبه. حتى بانايوتي جاء ليقبله قبله الوداع، ولم يستطع أن يحبس دمعة تفرقت في مآقيه. ووضع شفتيه الغليظتين فوق الجبين البارد وتمتم قائلاً:

- اغفر لي وليغفر الله لك.

وحضر الشيخ لاداس كذلك، وقبله بدوره، ثم ألقى نظرة فاحصة إلى منزل العمدة. وطافت بخاطره وسط هذا الموكب الجنائزي المهيّب: بساتين الكرم ومزارع الزيتون والحدائق التي كان يمتلكها المتوفى، وتنهد: «إنني أشفق على كل هذه الثروة!! سيدها ميشيل سريعاً، لا بد أن أفتح عيني.. لا أخشى أحداً غير القسيس».

وأرادت الأم ماندالينا أن تولول وتندب الميت، فنزعت عنها وشاحها وطوحت به وحلت شعرها وأصبح مهوشاً. ولكن ميشيل دفعها جانباً وقال لها:

- لا أريد صراخاً وعويلًا. اسكتي.

ووقف ناظر المدرسة أمام القبر المفتوح، وألقى خطبة عصماء، عاد في حديثه إلى اليونان القديمة، وذكر قاداتها من أمثال ميلتيادس وثيمستوكليس، وتحدث

عن الحروب مع الفرس، ثم انتقل إلى الحديث عن الإسكندر الأكبر والمسيح. وسرد تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وأسهب في الحديث عن القديسة صوفي. وتأجج حماسة وتصبب عرقاً عندما أتى ذكر القسطنطينية واستيلاء الأتراك عليها. وهنا لم يستطع أن يخفي عبراته ونشيجه.. واستبدت الحماسة بالحاضرين عندما رأوه يبكي ويصيح في انفعال شديد:

«مرة أخرى، ومهما طال المدى ستعود القسطنطينية إلينا من جديد، وسنحتفل بتقديم القديس في سانت صوفيا^(١)». والتقط نفساً عميقاً، وجفف عرقه ثم واصل حديثه سريعاً عبر سنوات العبودية وتوقف عند الثورة الوطنية عام ١٨٢١^(٢) ثم قفز قفزة جريئة واحدة وصلت به إلى القبر المفتوح تحت قدميه، ورأى فيه العمدة بطرياركاس.

أضنته رحلته الطويلة عبر القرون، فتوقف لحظة يلتقط أنفاسه ويمسح نظارته التي أغبشت بعد أن خالطها العرق. ثم استجمع قواه، وبدأ تأبينه للميت:

- لن ننسى جورج بطرياركاس المأسوف عليه. كان ممثلاً أصيلاً لسلالة اليونان القدامى، وحفيداً أصيلاً للإمبراطورية البيزنطية العظيمة، وابنًا أصيلاً لأبطال ثورة ١٨٢١. حافظ هذا العمدة النبيل، بإصرار وعزم لا يلين، على رسالة الجنس الهيليني التي هي نضال للإنسان من أجل الحرية!!

كان في ساعة الخطر أول من يعرض صدره له لملاقاته، متأهباً دائماً لوجود بحياته. كان جورج بطرياركاس مثله كمثل الإسكندر الأكبر، حافظ على شعلة اليونان وضياء موقدة دائماً أبداً في هذه القرية الواقعة في قلب آسيا، ولم يسمح للبرابرة أن يطفئوا نور اليونان.

إن موت جورج بطرياركاس خسارة قومية لا تعوز لو لم يترك وراءه خليفة له، ابنًا جديرًا باسمه هو ميشيل. فإنه سيواصل بدوره التراث البطولي الذي استنته أبوه المجيد.

(١) مقطع من أغنية شعبية يونانية. (عن الترجمة الفرنسية).

(٢) بداية حرب التحرير اليونانية. (عن الترجمة الإنجليزية).

وصدق الحضور كل ما قاله ناظر المدرسة. عرفوا لأول مرة أنهم خسروا بطلاً مغواراً فبدأوا يبكونه.. وأمسك ياناكوس وقسطندي بذراعي ميشيل وسارا به بعيداً عن القبر الذي وقف أمامه جامداً يرقب الكفن وهم ينزلون به تحت الأرض. لم يكن يفكر إلا في شيء واحد.. كلمة القسيس: «أنت الذي قتلته.. أنت» سارا به بعيداً، ثم بدأوا ثلاثتهم طريقهم عائدين في صمت.

عادوا إلى البيت الكبير وقد أصبح فارغاً. وأغلقوا الباب خلفهم، وتوسط ميشيل الفناء، وتهاوى إلى الأرض، حيث كانت جثة أبيه مسجاة هذا الصباح. مال برأسه وقبل الأرض. وفجأة هب واقفاً، باسطاً ذراعيه على امتدادهما كأنه يتهيأ للرقص. أحس في أغوار نفسه بنشوة غير إنسانية غامرة. حقاً إنه يملك بين جوانحه قلباً إنسانياً ملاء الحب لأبيه كما ملاء الأسى على وفاته. وله عينان فاضتا بالدمع حزناً عليه، ولكنه مع هذا أحس في أعماقه بفرحة لا إنسانية وبالخلاص.

ونادى ماندا لينيا:

- اعملي لنا قهوة، وأحضري لنا بعض النبيذ، واذبحي الديك الأبيض، وأعدي لنا الطعام. أسرعي.

ونظر إليه أصدقاؤه في دهشة ممزوجة بالقلق. عيناه مغرورتان بالدموع، ولكن صوته صاف طروب. بدأ يذرع البيت هنا وهناك، وكأنه يراه لأول مرة، يدخل خزائن المؤن، يكشف أغطية الجرار ويقرع البراميل ليرى إن كانت مليئة أم لا، وفتح خزائن المال.. ثم عاد وجلس إلى المائدة التي أعدت، وجلس ياناكوس عن يمينه وقسطندي عن يساره، وصب النبيذ في الأقداح، ورفع كأسه وقال:

- كل هذا الكلام الذي تفوه به ناظر المدرسة عن أبي هناك وسط المقابر هو محض هراء. لم يكن أبي بطلاً، ولم يحدث أبداً أن عرض صدره لملاقاة الأخطار. ولم يتخذ في حياته قراراً فيه شهامة وجرأة. كان حقاً صديقاً لطيف المعشر، يحب حياته الوادعة، ويفزع من الموت. هذا كل شيء. ليحفظ الله روحه.

«أما حديث ناظر المدرسة عن سلالة اليونان فهو عين الحق. فكل يوناني في هذا العالم حتى الوضيع منهم والأمي، هو سيد كبير في هذا العالم دون أن يعلم ذلك، إذ إنه يحمل على كاهله مسؤولية كبرى. إن أي يوناني لا يتخذ في حياته،

ولو لمرة واحدة، قرارًا بطوليًا فإنه يخون تقاليد جنسه... وبينما كان يتحدث هذا الدعي الملقب بناظر المدرسة فزعت حين رأيت أنني بصدد أن أشق نفس الطريق الذي سلكه أبي، الطريق السهل اللين المريح، وفجأة أحسست بالخجل من ذلك. وأمام قبر أبي أقسمت لنفسي أن أشق الطريق الوعر النبيل، الطريق الذي سلكته سلالتنا منذ آلاف السنين...

كان ياناكوس يستمع بانفعال لكلمات صديقه وسأله:

- أي طريق هذا؟ أي طريق تعني يا ميشيل؟

- الطريق الصاعد. ولهذا السبب أسألكم أن تقدموا إليّ جميلًا يا أصدقائي ورفاقي، بعد أن يجن الليل نذهب إلى ساراكيثا لنقابل مانولي والقسيس فوتيس. قضيت الليل كله أرقب أبي وهو يعاني سكرات الموت، وأقلب في تردد فكرة في رأسي دون أن أحسم أمري. بيد أنني اتخذت قرارًا حاسمًا وقتما كنت أمام القبر. سأفصح لكم عنه عندما يلتئم شملنا نحن الخمسة هذا المساء. أسألكم العون يا إخوتي.

وأعلن الصديقان:

- نحن معك حتى الموت يا ميشيل.

وشربا في صحته، وأقبلوا على طعامهم في غير شهية.

مال ميزان النهار، وجلس القسيس فوتيس ومانولي أمام الكهف يتجاذبان في هدوء ودعة أطراف الحديث. عادا لتوهما من جولتهما في القرى المجاورة حيث قضيا نهارهما في مساعدة رفاقهم بحثًا عن عمل. قاما برحلتهم مشيًا على الأقدام، وأرهقهما التراب والقيظ. والتقيا أثناء عودتهما بالشيخ كريستوفيس وعلمنا منه نبأ وفاة الشيخ بطريار كاس، وأنه وُري التراب.

وقال كريستوفيس المكاري بسخريته المعهودة:

- أسفي على هذه الآلة التي كانت تخرج الروث واللقطاء إذ تتوقف الآن عن العمل. كم من الأرامل خلفهن وراءه في قرينتنا والقرى المجاورة. أطال الله عمرنا.

- متى حدث هذا؟ وكيف مات يا شيخ كريستوفيس؟

- يقولون إنه أكل خنزيرين رضيعين عشية وفاته، أثناء زفاف ابنته. ويبدو أنه أراد أن يلتهم معهما ديكًا رومياً محشواً ولكن شلت يده اليمنى، وحملوه إلى سريره، ووجدوه في الصباح جثة هامدة. ألقى ناظر المدرسة خطبة عصماء عدد فيها مناقبه. ولكنني أقسم أنني لم أفهم كلمة واحدة مما قال. وبكيت لا لشيء إلا لكي أبكي مع الباكين. وبعد ذلك أخذت حفنة من التراب حثوتها فوق كرشه.. وكانت هذه هي آخر قضمة يأكلها من الخنزير الرضيع. أسأل الله العليّ القدير أن يكأ كرشه بعنايته.

وما إن فرغ من كلامه حتى انطلق في طريقه. وبعد قليل وردت فكرة إلى خاطره أضحكته وصاح:

- سمعت يا أبانا فوتيس أن باب الفردوس ضيق جداً ويبدو أن البدين لا ينفذ منه. ولكن أحسب أن ثلاثتنا سينفذون منه دون جدال. يحيا الفقر. وقال القسيس فوتيس لمانولي:

- الأب كريستوفيس له طريقة لاذعة في عرض الأشياء. لاذعة ولكنها صادقة في نفس الوقت. نعم، عسير على الغني أن ينعم بالخلاص. لا يكفي الإنسان أن يكون حلو السمائل، لطيف المعشر، بينما يعرف أن هناك جوعى ولا يقسم معهم ثروته - قد يغمض عينيه، وتسلبه عاداته السيئة كل مظاهر الشجاعة... لم يبق علينا الآن إلا أن نرى ميشيل ماذا هو فاعل الآن. هذا ما أنتظره لأرى. وقال مانولي:

- إني واثق منه.

- لعل الله يسمع نداءك، ولكنني رأيت كثيرين في حياتي... وقبل أن يتم حديثه رأى الأصدقاء الثلاثة أمام الكهف. ونهض القسيس ومانولي. وقال لميشيل:

- لك منا العزاء يا ميشيل. حفظ الله روحه وأطال عمره.

وجلس الأصدقاء الخمسة ولفهم صمت طويل. وأخيراً تكلم ميشيل:

- يا أبانا، يا إخوتي، بكيت أبي الشيخ، فقد كنت بعض لحمه ودمه. فجعت

في وفاته، بيد أنني في نفس الوقت، وليغفر الرب لي، أحسست بأنني أصبحت طليقًا، كأنما انزاح عني ثقل كبير كان يعثم فوقى. وبدأت أحس منذ اليوم بأننى أنا، وأنا وحدى، المسئول عن كل أعمالى. وأمامى طريقان: طريق سلكها أبى وكان يشدنى إليه، وطريق أخرى شاقة وعرة يشدنى إليه المسيح... فأى الطريقين أختار؟ وحسنت رأيى هذا الصباح وأنا واقف أمام القبر. وأسألك يا أبانا، وأنت يا رفاقى، أن تساعدونى على الوفاء به.

وصمت، وأسند راحته إلى ركبة القسيس فوتيس وكأنه يقول له: «عونك».

أمسك القسيس فوتيس بيد ميشيل، واحتضنها بين راحتيه النحيلتين. وقال:

- نحن معك يا ولدى في هذه الساعة العصية. تكلم وكن واثقًا بنا.

- ورث أبى عن أبى، وورث هذا عن أجداده ضياعًا واسعة وأشجارًا كثيرة.

تمتعوا جميعًا بهذه الثروة ما شاء لهم ذلك. وكانوا بين الحين والآخر يلقون ببعض الفتات للمساكين ثم يموتون وهم راضون بما فعلوا لأنهم أدوا واجبهم على خير وجه، أو هكذا كانوا يظنون. وأنا أيضًا كنت أظن ذلك... حتى أتت اللحظة الموقوتة، والفضل في ذلك لمانولى ولك يا أبانا فوتيس، وكشف الرب الغشاوة عن عيني، وأبصرت كل شيء. أثار الله قلبى، ولهذا بت أعانى... واتخذت قرارى اليوم: سأوزع كل ما أملكه على المساكين. لن أبقي حتى على الفتات الذى كان أجدادى يلقون به لمن يتضورون جوعًا. سأسلمه كله لمجتمعكم، إلى ساراكيينا، فهل تقبل يا أبانا؟

كان الجميع ينصتون له ورؤوسهم مطرقة. ولم يرفع أحدهم رأسه بعد أن فرغ ميشيل من حديثه. ران عليهم صمت طويل وسط حلكة الليل. وفجأة تردد صوت نشيج مكتوم صادر عن القسيس فوتيس. ولم يتمالك ياناكوس نفسه. فاندفع ناحية ميشيل وضمه إلى صدره بقوة وحرارة. وحاول أن يقول شيئًا ولكن عجز لسانه عن الكلام، واختنقت الكلمات في حلقة، وإذا به يضحك ويرقص. وأخيرًا استطاع أن يلفظ بضع كلمات:

- وأنا أيضًا أهب حمارى لمجتمع ساراكيينا. لا أملك شيئًا غيره من حطام الدنيا. فخذها يا أبانا.

ونفض القسيس فوتيس، ووضع راحتيه فوق رأس ميشيل المنكس. وقال:
- يا بني، أكرهتني الحياة على أن أتجرع الكثير من الكؤوس المرة، ولكنك
أنسيتني كل هذا، جازاك الله يا ميشيل عن هذا خير الجزاء في الدنيا والآخرة. إنك
بصنيعك هذا أنقذت آلاف الأرواح من الموت والعار. أنقذت هؤلاء اللاجئين
وأطفالهم وذريتهم من بعدهم. بوركت يا ميشيل.

وأخفى مانولي رأسه بين يديه، وانخرط في نحيب. لم يشعر في حياته بمثل ما
يشعر به اليوم من فرحة غامرة، حتى يوم أن خرج من بيت الأغا ورأى شجرة السنار
التي سيشتق فوقها... فرح لأنه رأى أن كلمة الله في النهاية هي العليا، لها القوة
والسلطان على كل طبقات الحياة الدنيا. ما أيسر على الإنسان المعدم أن يضحي
بهذا العدم أمام الرب، ولكن ما أشق على الإنسان الذي يملك الثروة والجاه أن
يضحي بكل ما يملك.. وها هو ميشيل يضحي بكل ما يملك. وأحس مانولي
بالفرحة والتأثر يغلبانه، فظل مكانه جالساً مطرقاً برأسه عاجزاً عن الكلام... وفجأة
شب واقفاً وعانق ميشيل وقبله، وانخرط في البكاء.

وكان قسطندي ينظر ويسمع منقبض الفؤاد. وقال لنفسه:
- لم أقدم شيئاً، ولم أفعل شيئاً، لم أتخل عن أي شيء باسم محبة المسيح.
حتى أطفالي وزوجتي، لا شيء، لا شيء البتة...

وكان ميشيل يرقب في صمت القمر الذي يلين الجبل تحت أشعته يرتقي كبد
السماء، هادئاً مبتسماً، يسكب رحيقه المسكر فوق ساراكيئا.
كان الليل ساجياً وديعاً ذلك المساء، والقمر يسير الهوينى متهادياً الرقاقة.
وأحس بانقباضة في قلبه، وحدث نفسه قائلاً:

- لست أهلاً لشيء، لا أستحق شيئاً أبداً. إن ما أقدمت عليه لم يكن عن جود
وسخاء، وإنما عن خوف. أخشى أن أكون أنا الذي قتلت أبي بسبب خطأ اقترفته.
ثمة خطيئة كبرى تجثم على صدري وتشير في نفسي الهلع. وهأنذا أتخلي عن كل
شيء ابتغاء سكينة النفس، حتى أنسى وأنام، وأطرد تلك الكلمات المفزعة: «أنت
الذي قتلته... أنت».

وفي اليوم التالي ذاع الخبر بين أهل القرية، وكان لوقعه دوي القنبلة «ستنازل ميشيل عن كل ثروته للاجئين المهلهلين سكان جبل ساراكيينا» ولم يكذ الخبر يبلغ أذان القسيس جريجوريس حتى هرع إلى الشارع متتلاً خفين باليين، أشعث الشعر بغير حزام حول خصره أو قبعة على رأسه. خف لملاقاة ميشيل في بيت أبيه.

ألقى الباب مفتوحاً، فاندفع مهرولاً فوق الدرج. وفاجأ ميشيل وهو منهمك في الكتابة بجوار النافذة. كان يكتب إلى ماريوري، وها هو يقضي فترة طويلة مع عبارة استعصت عليه لا يدري كيف بصوغها لها، يود أن يقول لها إنه يحبها حقاً، مولع بها، ولكنه في ذات الوقت مضطر إلى أن يهجرها. حاول ذلك مرات عديدة. ولكن الكلمات التي يخطها قلمه تبدو له وكأنها كلمات قاسية لا تليق. إنه عاجز عن أن يصوغ عبارة واحدة تعبر في ذات الوقت عن حلاوة الحب ومرارة الانفصال. «دائماً» و «أبداً» كلمتان متمايزتان تماماً، وما يبحث عنه ميشيل هو كلمة واحدة تعبر عن هاتين الهوتين المهورتين: لوعة الحب وجحيم الفراق في قلب الإنسان. في هذه اللحظة انقض عليه القسيس جريجوريس بردائه الكهنوتي كأنه إعصار هائج.

وصاح فيه وقد تقطعت به الأنفاس:

- ما هذه المصيبة الجديدة التي أسمع عنها يا ميشيل؟ يشاع إنك ستنازل عن كل أملاكك لهؤلاء المهلهلين المعدمين الذين يسكنون جبل ساراكيينا. إنها جريمة، هل تسمع ما أقول؟ يا للعار.

مزق ميشيل الرسالة التي كان يكتبها. وحملق بعينه في القسيس الغاضب دون أن يجيب.

- ألا تحترم ذكرى أبيك على الأقل؟ ألا يكفيك أنك قتلتها، وها أنت تقطعه إرباً إرباً وتجود به على هؤلاء الحفاة العراة الفاسقين. ألا تخشى الله؟

- ولكنني يا أبانا أفعل ما أفعل لأنني أخشى الله. يقول يسوع المسيح: «ماذا ينفعك أن تحفظ الوصايا كلها؟ فهذا وحده لا يكفي. إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني».

وفعلت يا أبانا ما أمرني به يسوع المسيح . فلماذا تلومني على ذلك؟
استبد الغضب بالقسيس جريجوريس، وأخذ يذرع الحجرة جيئةً وذهاباً كأنه
وحش كاسر، ويعض أصابعه من الغيظ.

- لماذا لا تجيب يا أبانا؟ ألم أفعل ما أمرني به المسيح؟ نعم أم لا؟... نعم أم
لا؟ أجبني.

- إنك بأفعالك هذه تقوض أركان المجتمع. هذا كل ما أعرفه. إليك خاتم
ابنتي، هذا هو جوابي. لن أقبل هذا الزواج بعد الآن. لن يمضي وقت طويل حتى
أراك هائماً على وجهك في الطرقات، حاملاً زكية على ظهرك تسأل الناس
الصدقات.

وأجاب ميشيل في هدوء:
- وما قيمة هذا كله إن كنت سأفوز بمملكة السماء؟ ما قيمة هذه الحياة يا
أبانا؟

- أنت مجنون. لم تعد تعي ما تقول.
- لا، بل أنا مسيحي يا أبانا، هذا كل ما في الأمر.
- سأحرمك من الكنيسة أنت ومانولي. كلاكما خائن. نعم أنتما خائن، وإن
شئت الحقيقة ثلاثتكم، أنتما وهذا الوجد القسيس فوتيس. نعم، نعم، دعك من
نظراتك هذه، فأنا أعرف سركم.
وقال ميشيل دهشاً:

- سرنا؟ أي سر تعني؟
- أنتم عملاء، تتلقون أوامركم من بلد أجنبي للقضاء على الدين والوطن
والعائلة والملكية، العمد الأربعة التي يقوم عليها العالم. ومانولي عليه اللعنة هو
قائدكم. وأتى القسيس فوتيس من الطرف الآخر للعالم لينفذ أوامر سادته ويزعم
بأنه يحمل إنجيلاً جديداً.

وقال ميشيل معترضاً:
- كأنك تقول إن المسيح اشتراكي.
- أي مسيح؟ المسيح الذي صنعتموه من نسج خيالكم يا قاطعي الطريق!!

ليس هذا بمسيح إنه عدو المسيح.

لم يعد ميشيل قادرًا على أن يمسك بزمام نفسه. هب واقفًا على قدميه وقال:
- أنتم الذين غيرتم المسيح وصورتوه حسب هواكم أيها القساوسة والأساقفة
والأعيان. صنعتم مسيحًا على شاكلة الشيخ لاداس، مرائيًا أكلاً للسحت، كذوبًا،
جبانًا، مراييًا، تمتلئ خزائنه بالجنيهاات الذهبية التركية والإنجليزية... مسيحكم
جعلتم منه شريكًا في الجريمة مع كل قوى البطش على ظهر الأرض ليبقى على
لحمه وماله.

وزأر القسيس، وتناثر اللعاب من فمه على الجدار:

- ترى هل تعلن الحرب علينا يا سيد ميشيل؟

- أنا لا أدعو إلى الحرب بل أدعو إلى العدالة، ولكن حذار، إذا هاجمتمونا
فإننا سندافع عن أنفسنا. المسيح الحق معنا نحن، هو قائدنا، وسترى ذات يوم أهل
ساراكيينا المهلهلين في وضع أفضل منكم أنتم يا أثرياء ليكوفريسي.
ووثب القسيس، وضرب جبهته بيده في عنف كأنما أدرك فجأة:

- إذن لهذا السبب تنازلت عن أراضيكم وديارك لشعب ساراكيينا، حتى
يمكنهم الدخول إلى ليكوفريسي ويفرضون سلطانهم علينا. لا، لا لن يطأوا
قريتنا. لن يكون ذلك أبدًا. ولو أتوا سنطردهم من أرضنا. وفي هذه الأثناء لن
تجد حقولك وبساتينك وأشجار الزيتون من يحرقها أو يسقيها. سيكون مصيرها
الجذب والخراب. إنني أرفع يدي وأقسم: سأقف على المنبر يوم الأحد القادم
وأعلن قرار الحرمان ضدكم جميعًا أيها المرتدون.

وبعد أن أقسم وتوعد اتخذ سبيله إلى الخارج وصفق الباب وراءه. وأطل
ميشيل من النافذة يشيعة بنظرته وهو يجتاز الفناء، يجرجر نعليه الباليين. وملاً
الهواء رداءه فانتفخ حتى ارتطمت أطرافه بقوائم باب الفناء. وغاب القسيس عن
ناظره عند منعرج الطريق. ولم يعد يسمع ميشيل غير نباح الكلاب التي فزعت منه
حين مر بها.

وعاد ميشيل إلى حيث كان يجلس بجوار النافذة، وبدأ من جديد يسطر رسالته
إلى ماريوري. فاضت الكلمات في خاطره هذه المرة كأنها تفيض من نبع، وقصص

عليها كيف أن أباه تركه تواء، نائراً مهتاجاً، بعد أن علم أنه سار حسب تعاليم المسيح، إذ تقاسم أملاكه مع المساكين، ولذلك رد إليه خاتم الخطبة. ثم بدأ يحدثها عن مدى حبه وولعه بها، وكيف تملأ عليه فكره وقلبه ليل نهار، وأن الحياة بدونها طريق حزين قاسية. وبينما كان يبثها حبه في رسالته، أحس بأن هذا الحب ينمو ويكبر مع كلامه، ويملأ قلبه بدفء لا نظير له... بدأ وكأن كل كلمة حب يخطها ليواسي بها ماريوري تخلق معها العاطفة التي لم تكن تجد التعبير عنها من قبل... وفي النهاية رأى الحياة بدون ماريوري استشهاده فوق طاقة البشر... وفاض الدمع من عينيه. وتمتم قائلاً:

- لم أكن أعرف أنني أحبها إلى هذا الحد، أبداً لم أكن أعرف ذلك... وفي هذه الأثناء كان القسيس جريجوريس في طريقه يبحث عن أخيه ناظر المدرسة ثم الشيخ لاداس وغيرهما من أعيان القرية وكبار ملاكها. وبعد أن أوضح لهم القضية، اتفقوا معه على أن الخطر الذي يهدد القرية خطر داهم، وهذا يقتضي تكاتف كل القوى المخلصة لتضرب بقوة أعداء المسيح على أم رأسهم وبأسرع ما يمكن قبل أن يستشري الشر ويلوث كل القرية. وكان ناظر المدرسة هو الوحيد من بين الحضور الذي قدم بعض الاعتراضات التي تتسم بالخنوع. ولم يكده أخوه يرفع عقيرته حتى انكمش وتوارى سريعاً داخل قوقعته. اتفق الحضور على أنه إذا ما ألت أملاك بطرياركاس إلى شعب ساراكيينا فلا بد من طردهم عنوة، وأن القسيس جريجوريس سيعلم قرار الحرمان من الكنيسة يوم الأحد بعد القداس. واتفقوا على أن يكون قرار الحرمان قاصراً بادئ ذي بدء على مانولي زعيمهم. وإذا لم ترعو عصاة حملة القمل فسيأتي دور شركائهم ميشيل وياناكوس وقسطندي والآخرين. وتحدث القسيس جريجوريس بصوت كهزيم الرعد. قال: «لا بد أن نستأصل شأفة كل عوامل الفساد في قريتنا ولا نبقي إلا على البذرة الطيبة».

وهول مسرعاً يكتب لابنته ويحيطها علماً بالأفعال الكريمة التي قام بها خطيبها الغر، وأن من الخير لها أن تطرده من قلبها. وأكد لها أنه قادر على أن

بأتيها بزواج أكثر منه اتزاناً وتقوى بعد أن تعود، بإذن الله، إلى القرية وقد استردت صحتها. والحق يجب أن نشكر السماء على أن ميشيل ألقى بالقناع وكشف عن وجهه قبل أن يتم الزفاف وعرفنا أنه أفاق. ثم أرسل بعد ذلك في طلب بانايوتي وقال له:

- افتح عينيك يا بانايوتي. اذهب إلى ساراكيثا بين الحين والآخر، وارقب ما يحدث هناك، وحاول أن تعرف ما يفعلون وما يقولون، وأحطنا علمًا بكل هذا. عدونا واحد يا بانايوتي، وحيث إنك إنسان قوي الشكيمة فإننا قد نحتاج إليك دائماً.

وأجاب بانايوتي:

- إنني أشمئز منكم جميعاً، ولكنني أشمئز أكثر من هذا الخنزير مانولي والشماسة الذين يلحقون بذيله، يحاولون أن يظهروا لنا في ثوب المسيح والرسول. لهذا السبب وحده أضع جهدي في خدمتك. وليس معنى ذلك أنني لا أشمئز منك أيضاً.

ومد له القسيس يده ليقبلها، ولكن بانايوتي أدار له ظهره، واتجه ناحية الباب. وقال أثناء خروجه:

- لم يسبق لي أن قبلت أيدي قدرة أو أطرافاً دنسة.

وفي صباح يوم الأحد بكر أهل القرية جميعاً، رجالاً ونساء، في الذهاب إلى الكنيسة. البعض استبد به الضيق، والبعض الآخر لا يخفي فرحته. ولم يتخلف أحد عن الحضور حتى المرضى والصبية حضروا جميعاً ليشهدوا المصير الذي ينتظر كل من ينكر المسيح، فيكون ذلك عبرة لهم في مقبل حياتهم.

كانت الكنيسة تطن كخلية نحل هاجمها زنبور. ووقف الشيخ لاداس في مقصورة الأعيان متفتح الأوداج. وشاء أن يحتفي بهذا اليوم المهيب فانتعل حذاءه الذي اشتراه من المدينة يوم أن كان يستعد للزواج، ولا يلبسه غير مرة واحدة كل عام، يوم عيد القيامة. وضاق عليه الحذاء حتى بات يؤذي قدميه مما اضطره إلى أن يحجل ويمشي مشية الغراب. لذلك كان يحمل حذاءه في يده بعد أن يترك بيته،

ولا ينتعله إلا عند باب الكنيسة، ثم يخلعه ثانية بعد القداس ويمسكه بقوة تحت إبطه كأنه كنز ثمين يخاف عليه، ويذهب إلى بيته.

ورأى الناس بانايوتي يقترب من الكنيسة التي لم يدخلها منذ شهور طويلة. كان وجهه المجذور منبسط الأسارير، ووضع سيجارة خلف أذنه ليدخنها بعد صدور قرار الحرمان تعبيراً عن سروره وفرحته.

ووصلت الأم ماندالينا، متشحة بالسواد نائرة. أتت لتشهد سقوط ابن أخيها عدو المسيح والذي جلب العار لبيتها الكريم. لقد تنبأت بذلك وقالت: «هذا الولد سيلحق اللعنة بنفسه، بسبب قراءاته الكثيرة». وها هي الآن منشحة الصدر إذ صدقت نبوءتها، وها هو يخرج من الكنيسة مطروداً ليلقى به في الجحيم.

وأقبل ميشيل شاحباً حزيناً. مرتدياً ملابس الحداد. لم يغمض له جفن ليالي طويلة، وإذا أغفى تراءى له طيف أبيه مع مطلع الفجر، يحدجه بنظراته، وبهز رأسه كأنه يلعنه. اصطحب ميشيل صديقيه ياناكوس وقسطندي، وفي أثرهما أندونيس الحلاق وديم تري الجزار.

وأسر ديم تري إلى صديقه الحلاق بكلمات:

- سأذبح شاة وأحملها إلى أهل ساراكيثا لنحتفل هناك بقرار الحرمان. تعال معي لتأكل نصيبك.

وأعلن الحلاق:

- أما أنا فسوف أذهب إلى هناك لأشذب لحية مانولي وأعطره بأجود أنواع ماء اللافندر. ها هي عدتي والزجاجة في جيبي.

واتخذ ناظر المدرسة مجلسه بجانب الكورس ليرتل الترانيم. كان متجهماً كما هي عادته في أيامه السيئة. فهو غير راض عن هذا الحفل غير الإنساني. ففي رأيه أنه إجراء ظالم - الدافع إليه ضغينة شخصية، ومصالح دينية، ولكنه لا يجرؤ على أن يرفع صوته معترضاً. كان منذ نعومة أظفاره يخاف أخاه الأكبر القسيس جريجوريس الذي اعتاد أن يضربه بقسوة أثناء اللعب وهما في ميعة الصبا. ولم يتمكن من التغلب على هذا الخوف حتى بعد أن أصبح رجلاً أعزب ناهز الستين من عمره.

ظهر القسيس جريجوريس ثائرًا مهتاجًا بلحيته البيضاء التي تحاكي لحية الرسل والأنبياء. فرغ من القداس سريعًا، إذ كان متعجلًا، وكذلك كان أهل القرية. ثم اعتلى المنبر، فاشرأبت الأعناق وشخصت إليه الأبصار في وجل. ودق جرس الكنيسة دقات حداد، فها هي ذي نفس هلكت.

أطل القسيس من عليائه على قطيعه، وجال ببصره بينهم، وعبس وبسر، وأغلظ من صوته: وتحدث بصوت كهزيم الرعد دوى تحت قبة الكنيسة:

- إخواني المسيحيين. الكنيسة حظيرة، خرافها المؤمنون الصديقون، والمسيح راعيها. والقسيس هو ممثل يسوع المسيح على الأرض. وإذا أصاب شاة مرض معدي فإن الراعي يخرجها من حظيرته وقاية لغيرها من العدوى، ويلقي بها بعيدًا في هوة سحيقة فريسة للموت. يشق على نفس القسيس أن يرى نفسًا ملوثة، بيد أن واجبه يملئ عليه أن يكون عنيدًا في غير رحمة ابتغاء خلاص الأرواح السليمة النقية.

وثمة شاة جرباء تضمها حظيرتنا المسيحية. أعني بها أيها الإخوة المسيحيون المدعو مانولي. لقد تمرد على المسيح، ويقضي واجبنا أن نوجه له ضربة قاصمة في الصميم. ثار ضد وطننا، وضد الأسرة والملكية. أعلن لواء الثورة، لواء أحمر ليغرقتنا جميعًا في بحر من الدماء. إنه يتلقى أوامره من بلد أجنبي. يتهدد عقيدتنا ووطننا وشرفنا خطر داهم، ويقتضينا الواجب أن نحرمه من الكنيسة. ومعنى هذا أن نعزله عن الماشية السليمة، ونلقي به بعيدًا إلى هاوية الشيطان؛ حتى يهلك هو ونضمن الخلاص لنا جميعًا. وإني أنزل من فوق المنبر لأطرده بعيدًا.

ونزل من فوق المنبر، وهرع الشماس إليه حاملاً كأس القداس، به ماء مقدس. غمس القسيس مرشة الماء المقدس، ورش الماء في الهواء، وأعلن بصوت كأنه قصف الرعد:

- اخرج من هنا، اخرج من هنا محرومًا.

وتقدم خطوة إلى الأمام ورش الماء في الهواء من جديد وهو يصيح:

- اخرج من هنا، اخرج من هنا محرومًا.

وطفق يردد كلماته هذه وهو يتنقل بين أرجاء الكنيسة، وكأن مانولي يملأ عليه

الهواء، خافيًا عن الأعين، وملاك الرب يتقدم القسيس ليطرده بعيدًا. وظل ينثر الماء في الهواء دون كلل حتى بلغ باب الكنيسة. وتفرق القرويون بعيدًا في فرع كأنهم يخشون أن تمسهم الروح الملعونة التي تتراجع أمام القسيس خطوة فخطوة حتى تخرج من باب الكنيسة.

وما إن بلغ القسيس عتبة الكنيسة حتى لوح بالمرشة في قوة، ونثر بعض ما بقي فيها من ماء في الهواء، ثم استدار ناحية أهل القرية وقال:

- صيخوا أيها الإخوة المسيحيون، صيخوا معًا بأعلى صوتكم: «مانولي محروم من الكنيسة».

وتعال صيحات عالية اهتزت لها الكنيسة. ورفع كل الحاضرين أيديهم وصاحوا ثلاثًا:

«مانولي محروم من الكنيسة».

ولوح القسيس بالمرشة لينثر الماء المقدس للمرة الأخيرة وصاح من جديد:

- اخرج من هنا، اخرج من هنا محرومًا.

وأغلق الباب بعنف. وتنفس الحاضرون الصعداء، كأن الشيطان انصرف عنهم وتطهر الهواء.

وتوسط القسيس الكنيسة وقال:

- أيها الإخوة المسيحيون، من الآن فصاعدًا لا يقترب أحدكم منه، لا يمدن أحدكم إليه يداً ليعطيه كسرة خبز أو كأس نبيذ. لا يفتح أحدكم فمه بتحية له. كل من يقع بصره منكم عليه يبصق على الأرض ثلاث مرات، ويوليه ظهره. لقد أنكر المسيح، ولذلك ينكره المسيح. أنكر الدين والوطن والأسرة والملكية. وهذه كلها تنكره بدورها. ليكون مثواه نار جهنم خالدًا فيها أبدًا. آمين.

وصاح الجميع في حقد وكراهية وارتياح:

- آمين.

ودمدم صوت بانايوتي حتى فاق صوت الجميع «آمين».

وفي هذه اللحظة رن صوت هادئ وسط الكنيسة:

- يا أبانا، مانولي ليس وحده، فأنا معه. أريد أن أحرم معه من الكنيسة - أنا

ميشيل بطريار كاس.

وارتفع على الفور صوت آخر في غضب:

- وأنا ياناكوس البائع الطواف وساعي البريد أعلن أنني معه أيضًا.

- وأنا قسطندي صاحب المقهى.. أنا أيضًا معه.

وسرت هزة بين صفوف الجمع. وابتعد أهل القرية جانبًا، وأصبح الأصدقاء الثلاثة وحدهم وسط صحن الكنيسة.

وجار صوت القسيس جريجوريس:

- سيأتي دوركم يا رسل الشيطان، انتظروا ولكن كنيسة المسيح بدافع من الحلم والرأفة تمهلكم علىكم تتوبون وتندمون. إن صاعقة المسيح معلقة فوق رؤوس الناس تنتظر في قلق. وأنا أفوض أمركم إلى الله إن شاء يغفر لكم ويشملكم بعنايته.

وصاح ياناكوس:

- سيحكم الله بيننا يا أبانا، وهو خير الحاكمين. فهو وحده سبحانه من نثق به دونك أنت.

وتطاير الشرر من عيني القسيس وزأر:

- قضى الله بيننا، وأصدر حكمه على لساني. أنا قسيس ليكوفريسي. أنا لسان الرب.

ورد عليه ميشيل:

- القلب الطاهر هو وحده صوت الرب. وقلبنا طاهر يا أبانا.

ثم توجه بالحديث إلى رفيقيه:

- هيا بنا يا إخوتي. لننفض تراب ليكوفريسي عن أقدامنا. وداعًا يا أهل ليكوفريسي.

ولم يجب عليه أحد. ورسمت النسوة علامة الصليب في فزع، وبصقن في صدورهن، وهن يتمتمن:

كير يالايسون. كير يالايسون.

وعاود ميشيل الكلام:

- وداعاً يا أهل ليكوفريسي. مسيحنا فقير مضطهد. بطرق الأبواب فلا يفتح له أحد. أما مسيحكم فغني من الأعيان، يعيش على وفاق مع الأغا وينعم بالحياة الرغدة. يغلق بابه عليه بالمتاريس حتى يأكل طعامه بعيداً عن أعين الناس. ولا يلقي بأحدهم بالفتات. مسيحكم أكل مبطان، ويعلن رغم ذلك على الملاء: هذا العالم يسوده العدل والأمانة والمحبة. وهو خير العوالم قاطبة. ليكن الحرمان نصيب كل من يحرك إصبعه ليهز أركانه، «ومسحنا فقير، ينظر إلى الأجساد التي أسقمها الجوع، والأرواح التي أضناها الخوف، ويصيح بأعلى صوته: هذا العالم يسوده الظلم والجور والخيانة، أولى به أن يهلك ويبعد».

ورفع القسيس جريجوريس رداءه الكهنوتي واندفع نحوهم مهرولاً وهو يزأر:
- أيها المارقون اخرجوا من بيت الرب.

وهاج أهل القرية وماجوا، وقفز الأب لاداس من المقصورة ولوح بانايوتي بقبضته. وتعال صيحات الغضب:

- اخرجوا من هنا، اخرجوا.

وقفز ياناكوس إلى الأمام ليضرب كل من يعترض طريقه، ولكن ميشيل أمسك بذراعه وقال:

- هيا بنا، وليحكم الله بيننا وهو أعدل الحاكمين.

ورسم علامة الصليب فوق عتبة الكنيسة، ثم خرج. وسار من ورائه ياناكوس وقسطندي. انسلا خفية وسط الحشد، ومن ورائهما بمسافة غير بعيدة أندونيس الحلاق وديم تري الجزار.

وفجأة دوت صيحة قوية خلفهم:

- هل ستهجرنا يا قسطندي؟ هل ستهجر زوجتك وأطفالك وتحرم من الكنيسة؟

واستدار قسطندي، فأبصر زوجته تجري نحوه والهواء يطوح بشعرها. وتوقف لحظة متردداً. ولكن ياناكوس أمسك به وشده بقوة:
- هيا بنا، لا تنظر إلى الوراء.

مناوشات أولية

عاد القسيس جريجوريس إلى بيته مغيطاً حانقاً تضطرم نار الغضب فيه من رأسه حتى أخمص القدمين كأنما مست يده لساعته الصاعقة التي كان يلوح بها متوعداً.

كان يحدث نفسه: «ينبغي أن تكون لكلمة القسيس سطوتها وقوتها، أن تبيد وتقتل إن شاءت». فإذا ما قال القسيس لأحد: عليك اللعنة فلا بد وأن يسقط الملعون لساعته ميتاً. وبذلك يتخلص العالم من كل أعداء الرب، ويسود السلام والعدالة.

ودار بمخيلته موكب من البشر يضم كل من يود أن يردبهم قتلى إن استطاع إلى ذلك سبيلاً. أولهم مانولي، وهو أخطرهم، لا شيء إلا لأنه لا يوجد ما يؤخذ عليه، يعيش بلا خطيئة.. لا يسرق، ولا يكذب ولا يزني ولا يحلف.. لذا يجب أن يكون أولهم. ويأتي بعده مباشرة، إن لم يكن معه في آن واحد، هذا الوغد المدعو بالقسيس فوتيس. إنه يكرهه، يود لو استطاع أن يفقأ عينيه حتى يشفي غليله. كل شيء فيه يثير حنقه وغضبه. طلعت الرهبانية الناسكة، وعيناه اللتان تتأججان ناراً، وصوته العميق. بل وقبل كل هذا أنه مقل في طعامه، لا يذوق الخمر، وليست له سقطات تؤخذ عليه، ويتمتع بحب شعبه له كله عن بكرة أبيه. آه لو استطاع أن يلقي به فوق الرغام ويجبره على أن يعض الأرض بأسنانه، ويمزق لحيته، ويجدع أنفه. وكلما فكر فيه القسيس جريجوريس وأطال التفكير كلما ازدادت ثورته اشتعالاً.

حتى أنه لم يعد يدري على وجه الدقة أيهما - مانولي أم القسيس فوتيس - ينبغي أن يقطع دابره أولاً وقبل غيره.

ويأتي بعدهما دور ياناكوس وقسطندي ليجهز عليهما. اختار كل منهما لنفسه طريق السوء، ويضربان مثلاً سيئاً لأهل القرية ومن الخير أن نقضي عليهما. وماذا عن ميشيل؟ وهنا صمت لحظة يتفكر. وتمتم «لنتنظر إلى حين. ولنمهله قليلاً..» أما عن الأب لاداس فهذا ممكن دون ريب. يجب قتله. لا لأنه شحيح أثيم. ألقى بمئات اليتامى إلى قارعة الطريق، ولكن لأنه دعاه ذات يوم في السجن بصاحب اللحية الشبيهة بلحية التيس.

هؤلاء الخمسة هم الوجبة الأولى. وبعدهم، يوماً بعد يوم، سيودي بكل من يعارضه. وثمة حساب قديم يود أن يسويه مع بعض المطارنة في المدينة بل ومع الأسقف ذاته. لا بد وأن يستأصلهم جميعاً... ويستأصل معهم بعض الرعايا الذين سخرؤا منه وآذوه ببعض حيلهم وقت أن كان طالباً.. هذا إن كان منهم من لا يزال على قيد الحياة.

وتنهذ القسيس جريجوريس وهو يردد بينه وبين نفسه: «نعم، ينبغي أن يكون للقسيس سلطاته وسطوته».

وبعد أن تفرق أهل القرية ذهب بعضهم إلى الميدان، ولبت البعض الآخر في فناء الكنيسة. وانطلقت الألسن في حماسة وانفعال تحكي وتناقش ما حدث. امتلأت حياة أهل القرية بالأحداث وأصبحت ذات معنى، رأوا المشانق، وموت مشاهير الأعيان، ومقتل غلام تركي، ورقبة أرملة تنحر، وها هم اليوم يشهدون بأعينهم حرماناً كنسياً. وأشعل بانايوتي سيجارته، وجلس تحت شجرة السنار يدخنها وينفث الدخان في متعة وتلذذ. ويقول لنفسه: «كل شيء يسير على خير وجه. إنها مناورة موفقة تؤتي ثمارها. نعم سأقطع دابرهم جميعاً. المسيح والرسل، وليلتلفهم الشيطان جميعاً. وجذب الأنفاس الأخيرة في لذة غامرة، ثم نفث الدخان من منخاريه، وبصق على الأرض، ونهض ليتخذ طريقه إلى ساراكيئا يتجسس على أهلها ويرى ما يحدث هناك.

اتخذ لنفسه طريقاً لا يعرفه سواه. ومر في طريقه بشيخ من أهل ساراكيئا يجمع

الحطب وبعض فروع الشجر ليستخدموها وقوداً لهم.

وقال له بانيوتي:

- صباح الخير أيها الشيخ، كيف حال الدنيا معكم؟

- بخير يا بني. ألا تعرف أخبارنا؟ أظن أننا حصلنا على بعض الحقول وبساتين الكرم عطاء وكرماً تقينا الموت جوعاً نحن الفقراء التعساء. نحمد الله على ذلك. وغداً سننزل إلى ليكوفريسي لنقطف الكرم.

- تقصد يا جدي أن بعض رجالكم سيذهبون غداً لقطاف العنب؟

- يقيناً، عندنا بعض الصبية والبنات القادرين على العمل. ستجدون الفرصة سانحة غداً لتمتعوا أنظاركم بهم إعجاباً بعملهم.

وواصل بانيوتي طريقه. وقال لنفسه: «إني سعيد الحظ باكتشافي هذا، سأقصد القسيس العجوز لأبثنه بالخبر».

ووصل إلى صخرة اتخذ منها برج مراقبة سرية. إذ يستطيع أن يرقب من ورائها كل ما يدور بين الكهوف. وانبطح على الأرض ليرقب الأحداث عن كثب.

لا بد وأن القسيس فوتيس فرغ من القداس، فثمة حشد من الشيوخ وعجائز النساء وبعض الأطفال تجمعوا أمام الكهف الذي اتخذوه كنيسة لهم. وها هو ذا القسيس فوتيس ومانولي يتحدثان إليهم. وأرهف بانيوتي السمع. تناهت إلى سمعه كلمات متفرقات بين الحين والحين، ولكنها غامضة مبهمة. حاول أن يجمع هذه الشذرات المهوشة من الألفاظ مع بعضها البعض عسى أن يخرج منها بشيء. وأدرك منها أن مانولي يتحدث إليهم قائلاً: إن من حرمني من الكنيسة هو القسيس جريجوريس وليس الرب إلهنا، وشتان بين الاثنين.

وأبصر بالقرب منهم ناراً موقدة. ورأى ديمتري جاثياً على ركبتيه أمامها يشوي شاة على السفود، بينما وقف إلى جواره ياناكوس ممسكاً بسكين في يده يغرسها في اللحم بين حين وآخر ليتبين إن كانت نضجت أم لا. كانا يتبادلان حديثاً يضحكهما. ووقف أندونيس على بعد خطوات منهما يُصَبِّن لحية شيخ ليحلقها له. وهرع الأطفال إليه ليأخذ كل منهم دوره ويقصوا شعورهم. وها هم يقضون

وقتهم في اللعب حوله إلى أن يحين دور كل منهم. وأقبل قسطندي يحمل بعض الماء، ويعاونه في ذلك بعض النسوة العجائز.

وقال بانايوتي بصوت كأنه الخوار:

- أقسم بشرفي أنهم يقضون هنا وقتًا ممتعًا. ليس ثمة ما ينغص عليهم حياتهم.. تعال يا قسيس جريجوريس إلى هنا وانظر ماذا يحدث- لترى ما سميته بالصاعقة!!! هل هذه هي جهنم التي تحدثت عنها؟ ليأخذك الشيطان! وزحف على بطنه ليقرب منهم قليلاً. وشرأب بعنقه ليطل من فوق الصخرة. وتساءل في نفسه:

- هه.. وأين ميشيل. إني لا أراه بينهم. لا بد وأنه انتحى مكانًا يندب فيه حظه هذا السفیه. فالحياة معه تسير من سيئ إلى أسوأ، فقد أباه، ذلك الخنزير النبيل، وبدد هذا المجنون ثروته، وألقى القسيس بخاتم الزواج في وجهه.. وها هو الآن أصبح يتيمًا فقيرًا أرمل.

وترامت إلى سمعه صيحات وضحكات. يبدو أن أحد اللاجئين حصل على ماندولين وبدأ يعزف عليه. ورفع ياناكوس وديمتري الشاة بعيداً عن النار، ووضعها فوق الحجارة. وهرع حشد الجوعى من أهالي ساراكيثا وأحاطوا بالشواء. وبدأ بعضهم يدق على الآنية القديمة ويرقصون طرباً. واقترب القسيس فوتيس بدوره، ورسم الصليب، وبارك الشاة، وانهمك في تقطيعها شرائح صغيرة، ثم وزعها عليهم، كأنها قربان مقدس. وجلس الجميع على الأرض، وتعالى الضحكات، وصدح الماندولين. وفجأة وقف مانولي ينظر حوله في قلق. ونادى:

- ميشيل.. ميشيل..

ولكن عبثاً، فلم يجد لندائه صدى.

كان القسيس فوتيس يحرك ذراعيه على امتدادهما. كان فرحاً جذلان، ويتحدث بصوت عال. وسمع بانايوتي كلامه بوضوح.

كان يقول: يا أولادي نحن نعيش يوماً مباركاً. كل ما تنبأ به المسيح لتلاميذه ينزل علينا اليوم سلاماً وبركة. قال المسيح: «طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا؛ لأن أجركم

عظيم في السماوات. فإنهم هكذا طردوا الأنبياء من قبلكم». تلك هي كلمات المسيح يا أطفالي وها أنتم ترون اليوم: الناس يوجهون إلينا السباب، يعيروننا ويطردوننا، لا شيء إلا لأننا نحب المسيح. وها هو رفيقنا مانولي حرمة القسيس الأكل المبطان من الكنيسة صباح اليوم. ولكننا نحمد الله على أننا نسلك الطريق السوي. المسيح يسير أمامنا ونحن في أثره. افرحوا وتهللوا يا أطفالي. المسيح قام.

وملأ القسيس كوبًا خزفيًا بالماء وشربه دفعة واحدة.
وخار بانايوتي:

- حقًا هؤلاء ليسوا بشرًا، إنهم وحوش كاسرة. دقت الأجراس لحن الحداد، وصدر قرار حرمانهم، وطردوا من الكنيسة.. وها هم الآن غارقون في الضحك ويسخرون من هذا كله.. من أين لهم بهذه الشوة؟ أقسم بديني! إنهم ممسوسون. حققت عليّ اللعنة إن كنت أفهم شيئًا؟

واشرأب بعنقه ليستمع إلى الحديث بوضوح أكثر. وفجأة شعر بيد تطبق على رقبتة كالكماشة. وهز نفسه في خوف وثورة. ورأى ميشيل ينحني فوقه ويحدجه بنظرة قوية وعلى وجهه ابتسامة.
وسأله في رقة:

- ماذا تفعل هنا يا بانايوتي؟ هل تراقب ما يحدث؟ لماذا لا تأتي معنا وتشاركنا طعامنا؟ هيا تعال معي..

وأمسك بذراعه وجذبه في حنان.

ولكن بانايوتي تكور حول نفسه كالقنفذ؟ وصاح:

- لا، لن آتي معك. لا أريد شيئًا من طعامكم. لا أُرغب في مرافقة أحد منكم أيها المرتد. دعني وحدي.

- ألا تخجل يا بانايوتي؟ رجل طيب مثلك يتصف بالصراحة والأمانة- ثم تعمل لحساب الأوغاد والطفيليين؟ ترى هل هم الذين أرسلوك إلى هنا للتجسس؟
- أنا لا أعمل لحساب أحد. أنا وحدي يا ميشيل، أعيش وحدي داخل جلدي وجثتي هذه كما يعيش الذئب، ألا تدرك هذا؟ إنني ضيق الصدر من الناس جميعًا-

منك ومن الآخرين. اهدأ ولا تتحدث إليّ فإني أعض.

وجلس ميشيل إلى جواره وقال له:

- ماذا دهاك أيها التعس بانايوتي؟ تغيرت تمامًا منذ بضعة شهور وأصبحت إنساناً آخر غير ما كنت. حقاً كنت دائماً فظاً، ولكنك لم تكن شريراً أبداً. هل ثمة من أساء إليك يا بانايوتي؟ من هو؟ ماذا دهاك؟

- ثمة أحداث كثيرة، ليأخذني الشيطان، أشياء كثيرة حدثت لي وأنت تعرف كل شيء. إذن لماذا تسألني؟ أنت تعرف كل شيء. وسأله ميشيل في خجل:

- هل هذا لأنهم اختاروك لتمثل دور يهوذا؟ ولكنها تمثيلية فقط يا أخي، تمثيلية مقدسة، إنها مجرد تمثيل وليست من الحقيقة في شيء.. هل مانولي سيصبح المسيح حقاً ويظل كذلك إلى الأبد؟ هل أنا حقاً يوحنا، تلميذه المفضل؟ كيف وانتك مثل هذه الفكرة؟ إنها خطيئة تركبها. المسألة ببساطة لأن لك لحية حمراء..

وصاح بانايوتي في هياج:

- سأحلقها.. سأحلقها هذه القذرة.

وانفجر ميشيل ضاحكاً وقال:

- هيا تعال معي، فالحلاق معنا هنا.. تعال سأحلقها أنا لك، وسوف يهدئ هذا من روعك.

- سأشعل فيها النار بنفسي. سأشعل فيها النار وأقذف بها إلى الشيطان.

قال بانايوتي هذا ثم وثب كأنما اتخذ قراراً حاسماً.

- هنا، سأفعل ذلك فوراً.

عاد ميشيل يتوسل إليه من جديد بصوت حنون:

- تعال معنا، تعال، وسترى بعينيك كيف سيحتفي بك الناس ويستقبلونك

بالأحضان. لا ينقصنا سواك حتى تكمل سعادتنا.

ولكن بانايوتي هرب من أمامه وتوارى وراء الصخرة ثم اتخذ طريقه نازلاً إلى القرية. والتفت وراءه لحظة فرأى ميشيل يرقبه فوق الربوة حزناً.

وصاح بانايوتي:

- إلى الشيطان جميعاً. أنتم والآخرين.
وأشار بيده الضخمة إلى ساراكيانا من ناحية، وإلى ليكوفريسي من ناحية أخرى.

نام ميشيل في تلك الليلة في نفس الكهف الذي يأوي إليه مانولي. أحضر من بيت أبيه كل ما يستطيع من حشايا وملابس ووزعها على المعدمين حتى أنه لم يبق شيئاً لنفسه، ثم أعلن للقيسيس فوتيس؟
- يا أبانا، من اليوم فصاعداً، سأترك ليكوفريسي وألوز بالمكان الذي يظلك. سأعمل معكم أبداً. وسوف أناضل معكم، أشارككم الهزيمة والانتصار. لم أعد أطيع هواء السهل.
وأجاب عليه القسيس:

- نرحب بك جندياً في جيشنا يا بني. سنتسلق الجبل معاً، وسوف نجد الرب في قمته. اعتدت الحياة الرعدة بيد أنك تضم بين جوانحك روحاً مقدامة وقلباً كبيراً وسوف تكون أفضل رجالنا في المعركة. فمرحباً بك.
وقال مانولي:

- تعال يا ميشيل تشاركني قصري، وهو الكهف القائم بجوار الكنيسة. ستجد هناك أيقونة الصلب التي أهديتها لي، الأيقونة التي تحوم فيها عصافير الجنة.
وحمل ميشيل أمتعته وإنجيله المفضض الكبير، وقصد الكهف. ونام ليلته هناك. ورأى حلمًا أفزعته. رأى ماريوري سحينة داخل برج شاهق الارتفاع، يحرسها كلبان أسودان كبيران يمنعانها من الهرب. وكان ميشيل واقفاً أسفل البرج يغنيها إحدى أغانيه، لتطل عليه إذا ما سمعت صوته. وفجأة رأى أبواب البرج الحديدية تفتح وخرجت ماريوري مرتدية ثوباً في لون اللازورد يجرجر ذيله على الأرض. وكانت تتحلى بثلاث زهور. زهرة فوق مكان القلب، وأخرى عند خصرها والثالثة عند ركبته. ورأى الكلبين الأسودين يعدوان في صمت وتدلى لسانهما، أحدهما أمامها والآخر خلفها، وكانت ماريوري تمسك بمنديلهما

الصغير الأبيض تمسح به فمها. ورأى عند قاعدة البرج زورقاً ضيقاً يشبه التابوت. واستحالت الأرض من حولها إلى بحر. ركبت ماريوري الزورق وانطلق بها. وما إن بدأت مسيرتها بالزورق، حتى استدارت لتلقي إليه نظرة مودعة. ولوحت له بمنديلها الصغير الذي خضبته بقع الدماء الحمراء. وصرخ ميشيل صرخة صاكة استيقظ بعدها من نومه فزعاً.

أيقظت الصرخة مانولي، فسأل ميشيل:

– ماذا بك يا ميشيل؟

– رأيت كابوساً يا مانولي، رأيت كلاباً سوداء وزورقاً ركبته ماريوري وانطلق بها بعيداً.

وارتعد مانولي. ولكن لم ينبس ببنت شفة إذ سمع صوت أجنحة رئيس الملائكة ميخائيل ترف في الهواء.

وانسل ضوء واه ضعيف إلى داخل الكهف ليرت على وجهيهما ويهدد الإنجيل الكبير الذي وضع في كوة داخل صخرة.

وهب مانولي من نومه وقال:

– لدينا أعمال كثيرة اليوم. أبلغنا ما يقرب من عشرين فتى من رفاقنا ممن يعملون في القرى المجاورة لكي يستعدوا للنزول إلى ليكوفريسي لحصاد بساتين الكرم التي تنازلت عنها يا ميشيل لجماعتنا. بارك الله فيك يا عزيزي ميشيل. أنقذت أرواحاً كثيرة.

– لم يكلفني شيئاً أن أجود بما أملك. ولذلك لا أظن أن هذا يكفي لخلاص نفسي يا مانولي. التضحية هي العمل الذي يكلف، وأنا لم أضح بعد. كانت تضحية كبرى من ياناكوس حين قدم حماره.

تأمل مانولي كلام صديقه لحظة. ثم قال:

– أعتقد أنك على حق يا ميشيل.

وصل أمام الكهف ما يقرب من عشرين رجلاً وامرأة، وانخرطوا في الحديث، وعندما رأوا ميشيل يخرج من الكهف هرعوا إليه يشدون على يديه.

قالوا له:

- أصبحنا بفضلك نملك أرضاً من جديد، نحن الشعب المسكين المعدم.
نسأل الرب أن يقدس روح أبيك.

وفي لمح البصر تراءى له وجه أبيه متورداً بديناً مغرورق العينين بالدموع،
وحججه بنظرة فيها تأنيب. وتحركت شفثاه الملتويتان حركات فهم أنها تقول
له: لماذا قتلتنى؟ لماذا؟ ولكنه أشفق عليه وتوارى عن ناظره.
وأطرق ميشيل برأسه وقال:

- فعلت ذلك حتى يتغمد الله روح أبي برحمته.. أسأل الله أن يستجيب
لدعائي..

ثم أردف قائلاً بعد لحظة من التردد:
- كانت هذه هي آخر وصاياه. هو الذي أوصاني أن أوزع كل أملاكه على
الفقراء.

واستدار مانولي ونظر إلى صديقه، ثم دنا منه وأمسك بيديه. وهز ميشيل رأسه
وأدار وجهه ليخفي دموعه.
وأقبل القسيس فوتيس، وقال:

- يا أولادي، ارسموا علامة الصليب، واذهبوا على بركة الله لحصاد بساتين
كرمنا. سيقودكم مانولي. ها نحن يا أطفال في طريقنا لنمتلك حقولاً، ونضرب
بجذورنا في أعماق الأرض. ما كان حلمًا حتى يومنا هذا سيصبح حقيقة من الآن
فصاعداً. نحن نملك الآن أرضاً وأشجاراً سنفلحها معاً، ونستمتع بثمارها معاً.
لن يكون بيننا غني ولا فقير. سنكون أسرة واحدة متماسكة متحابية. نسأل الله أن
يوفقنا لنكون مثلاً يبين كيف يجب أن يعيش البشر معاً في مجتمعاتهم، وكيف
تسود العدالة الأرض. وبفضل عناية الرب والعذراء سيكون يومنا بداية موفقة.
اذهب معهم يا مانولي لتدلهم على الطريق، فأنت تعرف موقع بساتين الكرم.
وسأذهب أنا مع ميشيل إلى المدينة لنوثق العقود التي تؤول بمقتضاها أملاك
العمدة بطرياركاس إلى مجتمعنا.

رسم الرفاق علامة الصليب، وتصدر مانولي فريقه، وانطلقوا في طريقهم.
كانت البهجة تملأ صدورهم، وبدأوا يغنون أغاني قطاف العنب، دون أن يفكروا

فيما يخبئه لهم القدر هناك في ليكوفريسي .

هرول بانايوتي البارحة فور عودته من ساراكيينا إلى بيت القسيس جريجوريس وأبلغه النبأ.

- سيأتي هؤلاء الناس غدًا لقطاف العنب. فاستعد لذلك.

كان القسيس جريجوريس جالسًا إلى مائدة الطعام، فسقطت الشوكة من يده. وصاح:

- لن يطأوا أرض القرية. لن يمسا حبة عنب واحدة أبدًا، لن أسمح لهم بذلك. سأذهب فورًا لمقابلة الأغا.

وارتدى رداءه الديني الذي يلبسه في أيام الأعياد، وعلق حول رقبته صليبه الفضي الثقيل، وأمسك بعصاه ذات المقبض العاجي، واتخذ طريقه إلى بيت الأغا يمشي بخطوات متأنية وقور.

كان الأغا فرغ من طعامه تَوًّا، وبدأ يحتسي قهوته. وجلس إلى جانبه براهيماكي يلف سيجارة لنفسه، موليًا ظهره للأغا. ويبدو عليهما أنهما تشاجرا من جديد، إذ كان الأغا عابس الوجه وهو يحتسي القهوة كأنه يتجرع سمًا.

ظهر القسيس جريجوريس عند الباب، ذليلاً متضائلاً. وانحنى أمام الأغا وقال:

- تحياتي إليك يا أغا.

لم يكلف الأغا نفسه عناء الالتفات إليه. وقال في امتعاض:

- أنا أعرفك من صوتك يا قسيس. ترى أي متاعب جديدة أتيتني بها؟ تعال أمامي حتى أراك. هات كرسيًا واجلس عليه.

وصفق بيديه، وأقبلت المرأة الحذاء. فقال لها أمرًا:

- قهوة للقسيس أفندي.

ثم نظر إلى القسيس وقال:

- تكلم.

وبدأ القسيس كلامه:

- يا أغا، تعلمون سيادتكم، وأنتم خير العارفين، أن العالم معلق بخيط واحد.

إذا قطع هذا الخيط سقط العالم وتفتت.

وقال الأغا في ازدراء:

- وأي جديد في هذا. إن بغلتي نفسها تعرف ما تقول. هيه، استمر.

- ثمة شخص يحاول أن يقطع هذا الخيط يا أغا.

تحسس الأغا مقبض سيفه، وهم بالوقوف كأنما يستعد للانقضاض. وصاح:

- من هو حتى أقطع رأسه؟ قسمًا بالله دلني على هذا الشخص، وسوف ترى ماذا أنا فاعل به.

وأجاب القسيس:

- الاشتراكي!

ترك الأغا سيفه يسقط في غمده.

- كيف تتصور أنني مستعد لأن أغادر ليكوفريسي، وأترك براهيماكي، وأتخلى عن راحتي وهنائي. ثم أذهب إلى الشيطان هكذا ببساطة بحثًا عن العدو في آخر الدنيا بين الثلوج حتى أمسك به وأقطع رقبتة؟

ازدرد القسيس فنجان القهوة دفعة واحدة وتنهد.

- أيها القسيس المبارك، هذا اللعين الذي تحدثني عنه بعيدًا جدًا عن هنا، فدعك من الحديث عنه. إنه بعيد عنا تمامًا فكيف الوصول إليه؟ ليس عليك إلا أن تمثل دور القسيس البريء الطيب - صدقني فأنا أحب لك الخير من قلبي - وأنا سأفعل نفس الشيء حتى نعيش حياتنا في سلام، وبعدنا الطوفان.

- ولكن لا حاجة بك إلى الانتقال من ليكوفريسي يا أغا. أرسل ذلك البلد العدو بالفعل بعض رجاله إلينا. إنهم هنا في ليكوفريسي، وهم يتهاون لقطع الخيط. أدبت واجبي في الكنيسة هذا الصباح، وليس عليك إلا أن تؤدي واجبك بدورك.

- نعم، أسرت الحذباء إليّ بشيء عن هذا، بيد أنني لم أفهم منها كلمة واحدة.

- أصدرت قرار حرمان من الكنيسة لمانولي راعي أغنام بطريار كاس، طرده من حظيرة المسيح.

- لماذا يا قسيس؟ إنه ولد طيب هذا الفتى المسكين. لا يعيبه سوى أن به

بعض الجنون. ألم يكن على استعداد لأن ينقذ القرية؟ وهذا ليس بالأمر السهل يا قسيس، ليس أمراً سهلاً أبداً.

- نفاق ورياء يا أغا، كذب وبهتان. تعلمون أنه فعل هذا لحاجة في نفسه.. أن يخدع أهل القرية.

وهرش الأغا رأسه. وبدأت أعصابه تتوتر. وصاح:

- كفى هذا. اخرس يا قسيس. إنكم أيها الروميون تولدون النملة. كيف يمكن لعاقل أن يستسيغ ما تقول؟ أفعالكم شيء، وأقوالكم شيء وما في رأسكم شيء ثالث لا علاقة له بالاثنتين. كفك أيها القسيس حتى لا تصيب رأسي بدوار. دعني وحدي، فإنني ضيق الصدر ولست اليوم على ما يرام. فضلاً عن أنني تشاجرت اليوم مع هذا الشيطان براهيماكي.

قال العبارة الأخيرة وهو يشير إلى براهيماكي.

كان براهيماكي يدخن سيجارته في صمت، ينفث الدخان ليتصاعد إلى السقف، ويكشف عن أسنانه البيضاء الحادة كأسنان الكلب، ولكنه لم يكذب يسمع اسمه حتى التفت إلى الأغا في غيظ وثورة:

- قل للقسيس ما اتفقنا عليه، وإلا فإنني سأغادر القرية عائداً إلى سميرنا. هذه القرية مقبرة.

وتظاهر بأنه يهمل بالوقوف، ولكن الأغا أمسك به من كتفه.

- اجلس أيها الشيطان. ابق في مكانك. سأقول له.

ثم توجه بالحديث إلى القسيس جريجوريس:

- قسيس أفندي، ماذا تريدني أن أفعل؟ أتيتني تطلب مني خدمة. ما هي؟ أفصح، وسوف نساوم. ولكن تكلم في وضوح وأوجز حتى أستطيع أن أفهمك. لا تعقد الأمور. هل تفهم ما أقول؟ فإن مخي ليس آلة حاسبة، بل هو مخ بسيط. ادخل في الموضوع. وها أنذا أنصت لك.

اقرب القسيس بكرسيه من الأغا وبدأ يحدثه بإيجاز:

- يا أغا، هذا الغر الأبله، ابن المرحوم بطرياركاس تنازل عن ثروته للشحاذين سكان ساراكيينا.

وقاطعه الأغا:

- حسن، هذا حقه، فهي ثروته. أليست ثروته؟ له أن يفعل بها ما يشاء.
- نعم هذا صحيح، ولكن ما يجب أن تعرفه هو أن هؤلاء الأراذل هم أتباع العدو أرسلهم إلى هنا ليقطعوا الخيط.
- هه. ما هذا الكلام الذي تقوله يا قسيس؟ أوضح يا قسيس. قل كل ما عندك.
- سأقول كل شيء. يتزعمهم القسيس فوتيس ومانولي. سيأتون غداً لحصاد بساتين الكرم، إذ يزعمون أنها بساتينهم.. هل تعرف معنى هذا؟ ستكون لهم قدمًا راسخة في قريتنا- في قريتك يا أغا، ثم يستولون عليها شيئاً فشيئاً، ويطردوننا منها وبذلك يقطعون الخيط.
- ماذا تريد إذن؟
- غداً عندما يأتي الاشتراكيون يجب أن تقف بنفسك عند مشارف القرية وتطردهم.
- ولكن لماذا تسألني أن أطردهم يا قسيس؟ أليست بساتين الكرم ملكهم هم؟
- لا.
- كيف لا؟ إن رأسي يكاد يتصدع. ألم يتنازل ميشيل لهم عنها؟ وبذلك آلت إليهم. أليس كذلك؟
- قلت لك لا يا أغا. إننا بصدد أن نعلن أن ميشيل إنسان غير متزن.
- غير متزن؟ وما معنى هذا الآن؟ أوضح.
- أعني أنه ليس بكامل قواه العقلية، لا يعي ما يفعل، وبذلك فإن الهبة غير صحيحة ولا جائزة.
- ولكن هل هو مجنون فعلاً؟ أقسم بديني أنه يتمتع بكامل قواه العقلية.
- الجنون والعقل مرتبطان ببعضهما يا أغا. ولا أحد يعرف أين ينتهي هذا وأين يبدأ ذاك. لذلك فإننا سنبحث عن وسيلة نثبت بها جنون ميشيل.
- أمسك الأغا برأسه بين راحتيه، وفجأة انفجر ضاحكاً. وقال:
- فهمت، فهمت. أنتم أيها الروميون تتمتعون بذكاء القردة وخبثها. سيأتي يوم تضعون فيه العالم داخل حبة وتبتلعونها.

- ماذا ترى يا أغا؟

- اسمعني يا قسيس جريجوريس. أوراق اللعب فوق المنضدة، واللعب خذ وهات. سأقف عند مشارف القرية كما تطلب، وأطرد هؤلاء الشياطين الفقراء أهل ساراكيينا، ولكن عليك من جانبك، أنت.. خذ واعط، هل تعرف مقصدي؟ وأربد وجه القسيس الذي أدرك ما يرمي إليه الأغا.

- هل تفهم؟ سأفعل ما تطلبه مني يا قسيس ولكن عليك أن تفعل أنت من جانبك ما أطلبه منك.

وقال القسيس بطرف شفتيه:

- قل ماذا تريد يا أغا، وإذا كان ذلك في مقدوري.

- إنه مطلب بسيط للغاية. لا تبتئس. ها هو براهيماكي موجود، إنه يطلب بأي ثمن أن ترقص بنات القرية أمامه ذات يوم حتى ينتقي من بينهم من يشاء.
- هذه مسألة خطيرة يا أغا.

- خطيرة أم غير خطيرة، لا بديل سواها. ألا يمكنك أن تفهم ما أقول؟.. انظر إلى هذا الشيطان. إنه غلام شبق في الخامسة عشرة من عمره. من منا يستطيع أن يكبح جماحه؟ أنت؟ أم أنا؟ ولكن عليك أن تحاول. إنه قادر على أن يلتهمنا نحن الاثنين دفعة واحدة. لا يكبح جماحه غير امرأة. لذلك لا بد وأن نهتدي إلى امرأة تروضه. إنه الآن أشبه بمهر شמוש، تحاول أن تركبه فيلقي بك أرضاً. ولكن إذا روضته تستطيع أن تمتطيه ويلتذ بكوكبك ويهز لك ذيله.

كان براهيماكي يضحك وهو يسمع هذا الكلام، كأن هناك من يدغدغه.
وتمتم القسيس:

- من المؤسف حقاً أن ماتت الأرملة.

- لنبحث عن غيرها يا قسيس..

وقفز براهيماكي وصاح:

- أريدها فتاة في ميعة الصبا، بضعة غير حداث، بيضاء كالخبز، ويجب أن تكون امرأة فارك تقاومني وأصارعها ثم ألقى بها تحتي وهي تصرخ وتبكي وتشد شعرها، ففي ذلك متعة كبرى.. هل يمكن الحصول عليها يا قسيس؟

وشرد القسيس بفكره يتأمل ثم قال:

- يجب أن نهتدي إلى فتاة يتيمة ليس لها من يذود عنها في القرية حتى نتجنب الفضيحة. لا أخشى غير الفضيحة يا أغا، ولا شيء سواها... أمهلني يا أغا..

وقاطعه براهيماكي:

- ماذا؟ ماذا يريد؟

- يطلب مهلة قصيرة يبحث لك فيها عن المرأة التي يطلبها يا ابن الزنا. إنه على حق فيما يقول هذا القسيس. أظن أنه يحتفظ بهن عنده في عشة الدجاج، هل تظنهن دجاجاً، وليس عليه إلا أن يمسك بمن تروك منهن؟ ثم هناك شيء آخر، لا أريد أن أراك متجهماً هكذا، أتفهم، وإلا قسماً بالله سأخصيك حتى تستريح وتريح. هل تسمع ما أقول؟ اسكت! وإن كنت متعجلاً إلى هذا الحد فإليك مارثا.

بصق براهيماكي على الأرض وقال:

- أف. أنا لا أريدها!

- اتفقنا يا قسيس. لا تعبأ بكلامه. سأمهلك بضعة أيام.. عرفت أوصاف المرأة التي يطلبها - صغيرة، بضعة، بيضاء، حيية.

وتنهذ القسيس في استسلام ونهض وهو يقول:

- موافق يا أغا، وغداً فور وصول أهل ساراكيينا.

- لك ما أردت، موافق. ومن جانبك.

- سأحاول أن أهتدي.. وليغفر الله لي.

وقال الأغا وهو يضحك:

- لا عليك يا قسيس، فإنه سيغفر لك بكل تأكيد. فالرب يغض الطرف، ويعرف الحياة أيضاً.

غادر القسيس بيت الأغا قلقاً مهموماً. فهذا العمل لا يلتقي هوى في نفسه، ولكنه مكره عليه. إنه على استعداد لأن يقدم على أي شيء إلا أن يترك القرية تسقط بين يدي القسيس فوتيس ليقضي عليها.. فالدين والوطن والشرف والملكية، كلها في خطر..

ودعا أعيان القرية وذوي الأملاك فيها، وتحدث إليهم في هذا الشأن، فقال لهم:

- غداً سيهبط علينا حملة القمل لحصاد بساتين الكرم التي منحها لهم هذا الملعون التعس ميشيل.. وعلينا جميعاً نحن الحاضرين هنا أن نشهد- بل ونقسم على هذه الشهادة إذا اقتضت الضرورة- بأن ميشيل لم يكن طفلاً سويّاً منذ نعومة أظفاره. هل تفهمون ما أعني؟ أنه يرى أشباحاً، أو أنه مجنون، لا أدري ما هي العبارة على وجه الدقة؟ المهم أنه إنسان غير متزن. وأن أي محتال، وليكن القسيس فوتيس على سبيل المثال- يستطيع أن يوقع به في حباله، ويغرر به حتى يوقع على أي أوراق يطلبها منه.. ويترتب على هذا بطلان الهبة، ومن ثم فإن بساتين الكرم لا يحق أن تؤول إلى المتشردين الذين ينزلون بجبل ساراكيئا، وكذلك بالنسبة للحقول والحدائق والمنازل.. وبطريار كاس لم ينجب أطفالاً غيره، ولذلك يتعين أن تؤول هذه الثروة إلى المجتمع، أي إلينا.. هل توافقون؟

وأجاب الأقطاب معجبين بدهاء القسيس:

- موافقون.

- أتيت تَوْاً من بيت الأغا، ووصلت معه إلى اتفاق. وبعد أخذ وعطاء أقتعته بأن يظهر عند مشارف القرية فوق صهوة جواده مدججاً بالسلاح. إنه لن يسمح بدخول الاشتراكيين حملة القمل. وأنتم عليكم أن تتجمعوا كلكم ومعكم خدمكم وكلابكم وعصيكم لكي تعضدوا الأغا.. شيء واحد فقط أحذركم منه.. حذار من إراقة الدماء حتى ولو كان جرماً طفيفاً. لا تنسوا أننا مسيحيون وعلينا أن نحب أعداءنا.

ثم أرسل بعد ذلك في طلب بانايوتي. وجاءه مع المساء، وقد تغيرت صورته حتى لينكره من يعرفه. أحرق لحيته ببعض جمرات الفحم الموقدة، وأصابته الحروق وجنتيه وعنقه حتى غطتهما القروح. وقص شعره بمقص كبير مما يستخدم لجز صوف الماشية.

لم يستطع القسيس أن يمنع نفسه من الضحك رغم كل همومه وقال له:

- هل تعرف ماذا فعلت بنفسك أيها الأبله؟

وجأ بانايوتي:

- هذا شأني أنا. لا تكثر من الأسئلة يا أبانا، وإلا سأغادر المكان وأتركك دون

معين. وأنا أعرف أنك بحاجة إليّ.

- لا تغضب يا بانايوتي. لم أقصد إهانتك. اسمع. إني بحاجة إليك غداً. خذ هراوتك الكبيرة، وإذا أتى مانولي معهم فأوسعهم ضرباً. فهو طريد الكنيسة ودمه مباح، ولن يمنعه أحد عنه. يمكنك أن تقتله إذا شئت. اذهب والله معك.

- دع الله بعيداً عن هذا يا أبانا. لا تشركه في دسائسنا. أنت تفزع من القسيس فوتيس، وأنا أكره مانولي، هذه هي القضية. فلا تشرك الآلهة والعذراء المقدسة في ذلك. فهذا لا يعنيني في شيء ولا علاقة لي به. وأنت من الدهاء بحيث تعرف ما أعنيه. وإلى اللقاء غداً.

واتجه ناحية الباب، وتوقف لحظة عند العتبة، ونظر إلى القسيس وقال:

- كلانا أخ للشيطان. هذا هو الواقع.

نزل أهل ساراكيثا من أعلى الجبل وهم يتغنون، بينما سار مانولي في مقدمتهم غارقاً في تفكير عميق. وظل يردد بينه وبين نفسه:

- أسأل الله أن يقينا شر الصدام وسفك الدماء.

ولم يكد أهل ساراكيثا يقتربون من القرية حتى رأوا جمعاً من الناس حول بئر القديس بازل، البعض يجلس على الأرض، والبعض الآخر يتجول ممسكاً بهراوات غليظة. وتناهت إلى أسماعهم صيحات التهديد والوعيد.

توقف مانولي واستدار إلى رفاقه وقال لهم:

- أعتقد يا أصدقائي أنهم سيقاومونا.. لتبق النساء هنا في انتظارنا، ولنتقدم نحن الرجال، والله خير معين. سنتقدم وكونوا على ثقة من أن الحق إلى جانبنا. ولكن إذا ما أصرروا على القتال بأي ثمن فإننا لن نقاتلهم، فهم إخوة لنا قبل كل شيء، وإنما سنتوجه في هذه الحالة إلى الأغا، فهو حاكم القرية، وسيفصل بيننا. وليس ثمة أدنى شك في أن بساتين الكرم آلت إلينا، وأصبحت ملكاً لنا الآن، ولذلك فإنه سينصفنا.. تقدموا يا أخوتي باسم المسيح!

جلست النساء في دائرة وسط الأكام، وواصل الرجال مسيرتهم. لم يطل بهم المسير أكثر من مائة خطوة حتى رأوا حجرًا يطن في الهواء فوق رأس مانولي.

وتبعه آخر، وغيره كثير. وهكذا أصبح الهجوم وشيكًا. وتحركت مجموعة الرجال التي اجتمعت حول البئر، وساروا تجاههم لملاقاته، وكان على رأسهم بانايوتي بلحيته المحروقة يتقدمهم بخطوات تشبه خطوات الدب.

وزأر لو كاس العملاق حامل العلم:

- ماذا نحن فاعلون؟ لن نتركهم يتخذون منا أهدافًا لحجارتهم دون أن نرد عليهم. اجمعوا حجارة يا أصدقائي وارجموهم.

وقال مانولي معترضًا:

- حسبكم، لا تسفكوا الدماء يا إخوتي.

وتعال صيحات غضب مغيظ من حول بئر القديس بازل:

- ارجعوا، ارجعوا يا حملة القمل. لن يظأ أحدكم أرض قريتنا. ارجعوا.

وتقدم مانولي رافعًا يده إلى أعلى علامة أنه يريد التفاوض معهم.

- إخوتي، إخوتي، اسمعوني.

- يا طريد الكنيسة، يا لص، يا قاتل، يا اشتراكي.

واندفع أهل ليكوفريسي نحوه وقد استشاطوا غضبًا وثورة. وبسط بانايوتي

ذراعيه. وخار كالعجل:

- لن يمسسه أحد. اتركوه لي فأنا المختص به، أنا وحدي الذي سأنازله.

ثم انقض على مانولي.

وسرعان ما أحاط أهل ساراكيينا بقائدهم.

والتقط لو كاس حجرًا كبيرًا في يده وصاح بأعلى صوته:

- لو مس أحدكم مانولي فأني سأهشم رأسه كالبطيخة.

ونفذ الشماس تعليمات القسيس جريجوريس إليه. بدأ يعدو هنا وهناك وهو

يصيح:

- إنه محروم من الكنيسة. اضربه يا بانايوتي، اطرحه أرضًا، فإن يدك ستطهر

من دمه.

وأقبل ناظر المدرسة لاهثًا:

- أخبروني يا أصدقائي باسم المسيح، ماذا حدث؟ كفوا أيديكم.

وصاح الشماس:

- يحاولون غزو قريتنا لاحتلالها.

وصاح أهل ساراكيينا:

- بل نحن نبغي حصاد بساتين كرمننا. فهي ملكنا، أعطاها لنا ميشيل.

وعوى الأب لاداس بصوت كالصرير وهو يتوارى خلف ناظر المدرسة:

- صدر إعلان بأن ميشيل مجنون، ومن ثم فإن الهبة غير صحيحة.

- الهبة غير صحيحة، اخرجوا، اخرجوا يا قطاع الطرق، يا خونة.

في هذه اللحظة انقض بانايوتي برأسه على مانولي مثلما ينقض الثور. ولكن لو كاس اندفع نحوه بكل قوته وهو يحمل حجرًا كبيرًا في يده. وضربه فوق ركبته، وترنح بانايوتي ثم انقض عليه لو كاس وطرحه أرضًا، وجثم فوق ظهره، وأوسعاه ضربًا مغيطًا. واستجمع بانايوتي كل قوته وأفلت من تحته، وأمسك بلو كاس من خصره. وتصارعا كل منهما يخور بصوته ويتدحرج، وكان صراعهما سجالًا بينهما.

والتقط الشماس حجرًا واتخذ مانولي هدفًا له.

وصرخ:

- يا محروم، يا اشتراكي.

وطار الحجر في الهواء ليضرب مانولي في جبهته، وتفجر الدم، وفاض على

صفحة وجهه. وصاح أهل ساراكيينا:

- سيقتلون مانولي، اهجموا عليهم.

وبدأوا هجومهم على أهل ليكوفريسي.

وتقاتل أهل ساراكيينا مع أهل ليكوفريسي. ولاذ الأب لاداس بالفرار. وحاول

ناظر المدرسة أن يتدخل، ولكنه تلقى الضربات من كلا الجانبين.

وهرع صبي إلى القرية وهو يصيح بأعلى صوته في غبطة وفرح:

- قتل مانولي المحروم، قتل مانولي الاشتراكي، افرحوا وتهللوا.

سمع قسطندي صياحه، فاندفع خارجًا من مقهاه، وأمسك بعصاه، وهرول

مسرعًا.

ونادى على الصبي وهو يجري:

- أين؟ أين؟

- عند بئر القديس بازل.

واتجه قسطندي إلى هناك، ونار الثورة تكاد تحرقه. والتقى في طريقه بياناكوس ودون أن يحدث أحدهما الآخر، جرى الاثنان معاً.

تلاحم أهل ساراكيينا مع أهل ليكوفريسي حول بئر القديس بازل حتى أصبحوا كتلة واحدة تتدحرج بين الصخور، يصدر عنها زئير عال. وفقدت نساء ساراكيينا صوابهن ونزلن أرض المعركة وأسهمن بنصيب في القتال بأذرعهن التي اشتدت مع عملهن في وطنهن الجديد، ووجهن اللكمات كما تلقين مثلها كالرجال تماماً. وعلا صوتان فيهما خشوع وجزع:

- مانولي، مانولي..

كان مانولي جالساً فوق صخرة يضمده جرحه، وسمع الصوتين، وتعرف عليهما، فرفع رأسه وشخص ببصره إليهما. وصاح:

- ها أنذا يا إخوتي، لا تجزعا.

وفي هذه اللحظة ذاتها عوى الأب لاداس، فرحاً مغتبطاً، من فوق صخرة ارتقاها:

- ها هو ذا الأغا، ها هو ذا الأغا.

وسمع الناس صهيل الفرس وهي تعدو والشرر يتطاير من تحت سناكبها. وظهر الأغا عند البئر بمسدسه الفضي، وسيفه الطويل، وطربوشه الأحمر، ثملاً تماماً. وشد اللجام بقوة حتى أن الفرس تقهقرت إلى الوراء. وتمالك نفسه فوق السرج خشية الوقوع، وتشبث بمعرفة الفرس. أمسك الأغا بمسدسه وأطلق رصاصة في الهواء ودوى صوته كهزيم الرعد:

- يا كفرة.

وفي لمح البصر تفرق هذا الخليط البشري، وانفصل الجمعان، وأصبح أهل ساراكيينا في جانب وأهل ليكوفريسي في جانب آخر، وتمزقت ثيابهم ولطخها التراب والدم. لم يبق على أرض المعركة سوى ناظر المدرسة وحده، طريقاً على

الأرض بين الفريقين وأصيب إصابات خطيرة، وعبثاً يحاول النهوض على قدميه حتى يحيي الأغا التحية الواجبة.

ونظر الأغا إلى أهل ساراكيينا بعينين تقدحان شرراً، وصرخ من جديد:

- يا كفره.. لماذا أتيت إلى قريتي.. هه؟ ارجعوا، ارجعوا أيها المتشردون.

وتقدم مانولي الصفوف وتكلم:

- يا أغا لنا بساتين كرم في ليكوفريسي، أتينا لحصادها، فهي ملك لنا.

- اذهب إلى الشيطان. منذ متى وهي ملك لكم؟ هه؟ بأي حق آلت إليكم؟ من

أين سرقتهم هذه البساتين يا حملة القمل؟

واشرأب الأب لاداس بعنقه من فوق صخرته وضحك في سخرية.

وأجاب مانولي:

- أعطها لنا ميشيل.

وقال الأغا:

- هذا كله لا قيمة له، أيها الحمقى البؤساء، فإن توقعه لا يعني شيئاً، فهو لم

يبلغ سن الرشد بعد.

وتكلم الأب لاداس من مخبئه، ليصحح كلام الأغا:

- ليس السبب صغر سنه بل جنونه.

- نفسي الشيء أيها الشيخ السفیه. اخرس.

واستل مسدسه وصوبه ناحية الأب لاداس. وتهاوى الشيخ وراء الصخرة وهو

يصيح:

- الرحمة، الرحمة.. حقاً ما تقول.. هو عين الصواب.. لم يبلغ سن الرشد

بعد.

وانفجر الأغا ضاحكاً، وأغمد مسدسه في جرابه. ثم قال موجهاً حديثه إلى

أهل ساراكيينا:

- من منكم المدعو مانولي؟ ثمة ضباب يحجب عني الرؤية الواضحة. ليتقدم

إليّ هنا.

واقترب مانولي من فرس الأغا وقال:

- ها أنذا.

- حسن. أنت ولد طيب. أنت كذلك حقًا يا مانولي رغم كل أقاويلهم عنك. اقترب مني أيها الكافر. اسمع، قل لي بصراحة ما معنى اشتراكي؟ صدعوا رأسي بهذه الكلمة. قل لي هل هو رجل أم حيوان أم وباء عضال مثل الكوليرا؟ فأنا لا أعرف شيئًا عنه.. هل تعرف أنت؟

وأجاب مانولي:

- نعم يا أغا أنا أعرف.

- إذن، أستحلفك بإلهك أن تحدثني عنه حتى أعرف أنا أيضًا.

- الاشتراكيون هم المسيحيون الأول يا أغا...

- دع المسيحيين الأول حيث هم يا كافر، لا تشوش أفكارني. عندي ما يكفي من العرقي لذلك. ما شأني أنا بالمسيحيين الأول؟.. أنا أسألك ما معنى اشتراكي؟ وتحدث الأب لاداس بصوت أخنف:

- سأوضح أنا لك يا أغا. إنهم يطالبون بألا يكون هناك غني أو فقير بعد اليوم، وإنما أن يكون الناس فقراء كلهم، ألا يكون ثمة أغاوات أو رعايا بعد الآن، ويتحول الناس جميعهم إلى رعايا. بل والأكثر من هذا لن تكون هناك امرأة زوجة لك أو زوجة لي بل النساء كلهن مشاع بين الناس جميعًا. وزأر الأغا:

- لا أغاوات ولا رعايا؟ هل معنى ذلك أنهم يريدون أن يقلبوا نظام الله رأسًا على عقب؟ ابتعدوا عن هنا بهذا الوجه النكد. وبسط راحته أمام وجه مانولي وباعد بين أصابعه في حركة استنكار كأنما يلعنه وقال له:

- افتح عينيك وانظر إلى يدي: هل كل أصابعي متماثلة؟ هناك أصابع صغيرة وأخرى كبيرة، الله هو الذي خلقها على هذه الصورة. وهكذا أيضًا خلق الناس جميعًا، بعضهم صغير والآخر كبير، بعضهم سادة وغيرهم عبيد. وكذلك أيضًا خلق الأسماك في أعماق البحار - الكبير منها يأكل الصغير. وبنفس الطريقة وضع الرب الماشية إلى جانب الذئب لتأكل الذئب الماشية. هذا هو نظام الله، ثم

تأتون الآن أيها الاشتراكيون.. عليكم اللعنة.
ثم استل سيفه، بعد أن فرغ من كلامه، ونخس الفرس وهجم على أهل ساراكيئا.

وصرخت النساء صرخات صاكة وهولن في زعر ناحية الجبل، وتراجع الرجال في ذهول وحيرة. ولم يبق غير مانولي الذي ثبت في مكانه راسخاً.
وصاح فيه الأغا:

- أنت يا كافر، ابعد عن هنا وإلا قطعت رأسك. ألا تخاف؟
وقال مانولي:

- بل أخاف، ولكنني أخاف الله وحده، أما البشر فأنا لا أخافهم أبداً.
وأغرق الأغا في الضحك وقال:

- أقسم لك بديني أنك مجنون تماماً.. بيد أنك خفيف الظل. تعال معي إلى بيتي ولتكن سميراً لي. لا فرق عندي بين البلهاء والقديسين، فهما شيء واحد. وأنت مجنون وقديس في آن واحد، أنت دعاية مقدسة، هذا رأيي. تعال معي أقدم لك الطعام والشراب والملبس وأخلق منك رجلاً.. ألا تريد ذلك؟ اذهب إلى الجحيم إذن أيها الأبله. ابعد من هنا، فقد غيرت رأيي فيك ولن أقتلك.
والنفث إلى أهل ليكوفريسي الذين أطربهم سماع الأغا وهو يدافع عنهم وقال لهم:

- وأنتم أيها الكفرة لستم مجانين ولا قديسين، اذهبوا إلى الشيطان. كروش متخمة وصعاليك.. اغربوا عن وجهي.

وسرعان ما ابتعد أهل ليكوفريسي في وجل. وانحنى ياناكوس وقسطندي فوق ناظر المدرسة وانتشلاه من فوق الأرض، وأخذوا بيده وعادوا به إلى داره. كان الرجل البائس يعرج ويعاني ألماً موجعاً في قدميه.
وقال لهما معترفاً:

- نلت جزائي الذي أستحقه. لست حملاً ولا ذنباً، بل لقيطاً تعضني الذئاب وتبول عليّ الماشية. أنا أعرف جيداً طريق الحق والصواب ولكنني أسكت عنه، فالخوف يملأ قلبي. كيف لي أن أرفع رأسي وأنا البائس الفقير. إني أخاف..

والنتيجة ما ترون، وطأني أهل ليكوفريسي وأهل ساراكيثا بأقدامهم دون أن تأخذهم بي رحمة. وهم على حق في ذلك. أقسم بديني أنهم على حق، ونلت جزائي الذي أستحقه.

ونظر إلى رفيقيه اللذين يعينانه على المسير، وسألهما في إعجاب:
- وأنتما، ألا تخافان شيئاً؟
وأجاب ياناكوس:

- بل نخاف، ولكننا نتظاهر بالشجاعة كما ترى. أوضح لك ما اختلط أمره عليّ؟ انظر إليّ: إني أتناظر بالشجاعة، بينما يرتعد بدني فرقاً. ولكن الشيء الغريب أنني مع التعود على التظاهر بالشجاعة أجديني رويداً رويداً شجاعاً حقاً. هل عرفت ما أعني أيها الشيخ؟ ترى ماذا تقول لك كتبك الكثيرة عن هذا؟ أصدقك القول إنني لا أفهم بوضوح، فأنا حمار.

وابتسم ناظر المدرسة رغم ما يعانيه من ألم. وقال:
- أود أن أتنازل عن كل معلوماتي لأصبح مثلك يا ياناكوس.. وماذا عنك يا قسطندي؟

- أنا؟ أنا أسوأ حالاً من ياناكوس. أؤكد لك هذا، أسوأ منه فعلاً. الخوف يملأ قلبي، أرتعد فرقاً وأرتجف، ويهرب الدم من عروقي. ولكنني أشعر بالخجل. ولو حدث أن تخلّيت عن كل شيء في حياتي لأسلك طريق المسيح، فتق أن هذا لن يكون بدافع محبة الخير، أو الشجاعة، ولكن بدافع احترام النفس لا غير. سأرتجف وأرتجف فرقاً، ولكنني لن أراجع هل تفهمني؟
وأضاف ياناكوس:

- أما مانولي فهو أفضلنا جميعاً، إذ إنه لا يتكلف الشجاعة وإنما هو شجاع حقاً.

رحلة بأقدام عارية

في اليوم التالي، ومع مطلع الفجر، اتخذ ميشيل طريقه نازلاً من الجبل. كان يتميز من الغيظ، ويقول لنفسه:

- سأذهب من فوري إلى بيت القسيس أنتف شعر لحيته، وسأذهب إلى الأعيان أصب عليهم لعناتي وأفضح سوءاتهم. سأدق أجراس الكنيسة أدعو القرية جميعها لتشهد وتسمع.

كنت تراه حيناً ثائراً مهتاجاً، وحيناً هادئاً ساكناً يقلب الأمر في رأسه بحثاً عن أقسى الكلمات، ولا يدري من أين يبدأ.. لم يغمض له جفن طوال الليل. وطلع الفجر عليه وعينه مفتوحتان. وتراءى له طيف أبيه. عاد الرجل الميت إلى الظهور من جديد، ووقف إلى جانب فراشه، يهز رأسه وينظر إليه بعينين فيهما تأنيب.. وتحركت شفاته، وسمع ميشيل صوته الضعيف الواهن يأتيه من العالم الآخر: «لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟».. ولم يقل شيئاً آخر.

هب ميشيل من مرقد، وأمسك بعصاه وهرع إلى القرية وهو يرتجف. قصد بيت القسيس لتوه، دفع الباب ودخل. اجتاز الفناء، وألقى القسيس جالساً بجوار النافذة، منحنيًا فوق رسالة يقرأها والدموع تفيض من عينيه.

ولم يكذب ميشيل حتى أسرع بإخفاء الرسالة داخل جلبابه. ولكن ميشيل استطاع أن يلمح الخط الذي سطرت به الرسالة وتعرف عليه وأدرك كل شيء، وزايله الغضب. رأى الموت يرف بجناحيه في الهواء، فانقبض قلبه. تمالك

القسيس نفسه، وكفكف دموعه ونظر إلى ميشيل. وتحدث إليه ساخرًا:

- أي ريح طيبة حملتك إلينا يا فتى؟ سرعان ما ضقت بأهل ساراكيينا؟ حياة الراهب قاسية، لذلك عد إلى بيتك وقريتك و انعم بثروتك أيها البائس...

وأضاف في قلق:

- ترى هل لم توقع أي أوراق بعد؟

- أنا لا أملك شيئًا الآن، لا شيء البتة، أسقطت عن كاهلي كل أحمالي وأصبحت حرًا.

وعاود القسيس سؤاله في انزعاج:

- هل وقعت أوراقًا؟

- نعم.

وضرب القسيس الشباك بقبضته في ثورة وزأر:

- أنت مجنون، مجنون، هلكت أيها التعس. ها أنت الآن أصبحت عبدًا لذلك القسيس الأفاق. لهفى على كل هذا الشراء الضائع.

وأحس ميشيل بالغضب يعتدل في صدره، وعادود كلامه ثانية:

- بل أصبحت حرًا، وإنما أنت العبد يا أبانا. لهفى على هذا الرداء القدسي الذي ترتديه.

وقال القسيس بصوت خافت حزين مفعمًا ضغينة وحقداً:

- واجهت كثيرًا من المشاكل ابتغاء مصلحتك ومصلحة ابنتي.. والآن انتهى كل شيء.

- ماذا قالت في رسالتها؟

أخرج القسيس الرسالة وقال:

- هاك أقرأها.

أمسك ميشيل بالرسالة. بللتها الدموع. ترى هل هي دموع القسيس؟ أم دموع ابنته؟ إنه لا يدري. قرأ ميشيل كلمات الرسالة في تأن وصعوبة، وترقرقت الدموع في عينيه.

- .. ساءت حالتي يا أبت. معذرة إن كنت أثقلك بالهم، لكن المرض اشتد

عليّ.. أذوي يوماً بعد يوم، أوشك أن أودع الحياة. لم يعد يكثرث بي الأطباء، يمرون بفراشي دون أن يتوقف أحدهم ليلقي نظرة عليّ وأسقطوا اسمي من قائمة مرضاهم. وها أنذا أرقد هنا وعيناي مثبتتان على السقف كأنه السماء، فلم يعد لي سماء غيره. ربما أهدأ مع الموت، بل وأسعد به، لولاك أنت يا أبي. ستبقى وحيداً بعد وفاتي، ولن تجد من يسهر على خدمتك أو يقدم لك كوب ماء.. إني حزينه من أجلك ومن أجل خطيبي السابق. ربما يحزنه موتي، ولكنني لا أكف عن البكاء كلما تذكرته.. لماذا؟ لماذا؟ ماذا جنيت؟ لم أكن أطلب في حياتي غير بيت وطفل.. أما الآن...

لم يستطع ميشيل مواصلة القراءة. ووضع الرسالة فوق قاعدة الشباك، واتجه ناحية الباب. وقال:

- حسن، سأصرف.
- لكن ماذا كنت تريد مني؟ لماذا أتيت؟
- لا شيء البتة. لا أريد شيئاً. ماذا عساي أن أطلب منك؟ سلاماً.
- ما أقسى الرب على بني البشر، يضربهم بقوة في غير هوادة أو رحمة.. ترى ماذا اقترفت في حق الله؟
- كان ميشيل قد بلغ عتبة باب الفناء، ولكنه استدار في ثورة وغضب:
- بل أنت أحق بهذه الضربة من لدن الله يا أبانا. أنت الذي تملأ قلبك الشهوات الدينية، أنت دون ابنتك.

وتمتم القسيس والدموع تفيض من عينيه:

- عرف سبحانه أين ينزل ضربته عليّ، وقد فعل..

وتملكه الغضب فجأة، وقفز إلى وسط الفناء حافي القدمين. وصاح بصوت فيه أنين ونواح:

- إنها غلطتك، غلطتكم جميعاً. غلطة مانولي وقيس ساراكيينا صاحب اللحية الشبيهة بلحية التيس، وأنت معهم. أنتم سبب كل ما حدث، بخديعتكم وخيانتكم. كنا نعيش في هناء قبل أن يحدث كل هذا، كانت الأمور تسير حسب سنة الله وتديره لشئون خلقه، ولولا ذلك لشفيت ابنتي من مرضها، ولما قتلت

أباك بسبب سلوكك المشين، ولأصبح لي بعد عام حفيد أحضنه بين ذراعي.. ولكن وا أسفاه.. غرر بك مانولي، هذا الفاسد المتشرد. وجاء من بعده القسيس ذو اللحية الشبيهة بلحية التيس، هذا الثعلب العجوز، عليه اللعنة. والنتيجة أن مات أبوك حزناً وكمدًا، وبددت ثروتك، وألقيت أنا بخاتم الخطبة في وجهك. وساءت حالة ابنتي وتدهورت لسماعها النبأ. والآن، انتهى كل شيء، هلكت وضاع الأمل.. أنت المسئول عن موتها أيضًا أيها الشقي التعس. قتلتها مثلما قتلت أباك. كانت تصارع المرض في شجاعة هذه البائسة، أما الآن.... وأخذ يذرع الفناء بخطوات واسعة، يتوعد ويتنهد، ويتحجب. واستبد به غضب شديد.

- كنت على صواب حين أعلنت على الملائكة إنك إنسان غير متزن، مجنون وتوقعك غير ذي قيمة. سأنزع عنك كل أملاكك وأعطيها للمجتمع. وشعب ساراكينا عليه اللعنة، لن يذوق منها حبة عنب واحدة، ولا حبة زيتون أو حبة قمح.. أبدًا، أبدًا. لن تسير الأمور حسب هواك. أقسم أنني سأنتقم منك لأبيك ولا ابنتي.. وسوف ترى، سترى بعينيك أنني جاد ولا أهزل. لا تضحك، سأذهب إلى الأسقف وأحيطه علمًا بكل شيء، ومعني كل أهل القرية شهود على صدق ما أقول، حتى الأغا نفسه فإنه يقف إلى جانبي. سأحرملك من كل شيء.

وقال ميشيل الذي انفطر قلبه لما يديه القسيس من أسف وكرامية:

- نعم، كل الناس معك ما عدا الله. هل لك قلب يرضى بموت شعب بأكمله جوعًا فوق ساراكينا؟ ألا تخشى الله في ذلك؟

- لو ماتت ماريوري سأتحول إلى وحش كاسر. لن تأخذني رحمة بأي إنسان. لن أخشى الله أو الناس. سأطرح عني ردائي الديني وأحمل سلاحي وأقتل الناس جميعًا. لماذا يقتل الرب قرة عيني ماريوري؟ ماذا فعلت؟ هل يوجد على الأرض من هو خير منها وأكثر براءة ووداعة؟ سأقتل مانولي قبل أي إنسان آخر، ففي قتله دواء لكل الشرور. لم يشنقه الأغا، ولكن سأشنقه أنا. يمثل أماننا دور القديس والشهيد والبطل بينما يبيع نفسه.. الخائن، المرتد، العميل.

وجن جنون القسيس، وأرغى وأزبد، وأخذ يلوح بقبضته فوق رأس ميشيل

وزار:

- ابعد عن هنا، لا أريد أن تقع عيني عليك مرة ثانية، أغرب عن وجهي إن كنت لا تريدني أن أهشم رأسك فوق هذا الجدار.
وتهاوى إلى أرض الفناء فوق الحصباء، فاغراً فاه.
لم يكن في البيت أحد سواهما. وانحنى ميشيل فوق القسيس البدين، واستجمع قواه وانتشله من فوق الأرض. ودخل به المنزل، وطرحه فوق حشية. وذهب إلى المطبخ وملاً كوب ماء، وقدمها له. أمسك القسيس بالكوب، وشرب الماء رشفات صغيرة، وفتح عينيه.
وتمتم:

- ميشيل، أنا رجل بائس محطم. طعني الله في قلبي طعنة نجلاء، ولا أستطيع أن أندم، لا أستطيع ذلك.. لا أستطيع أن أصفح عن أحد، أيا كان هذا الإنسان. أغرب عن وجهي، لا أريد أن تقع عيني عليك مرة أخرى.
ودبت فيه الحياة، واستعاد وقته. نهض واقفاً، واجتاز الفناء، وفتح الباب:
- اخرج ولا تطأ بيتي بقدميك مرة ثانية.
وصفق الباب وراءه.

خرج ميشيل، وهام على وجهه بين دروب القرية. أحس كأنه ضل طريقه في مكان غريب عنه تماماً. خيل إليه أنه يمشي في حلم، يرى البيوت والحانات وشجرة السنار لأول مرة. وعندما مر ببيت أبيه توقف طويلاً يتأمله، كأنما يبذل جهداً كبيراً ليتذكر شيئاً.. وهم باجتياز العتبة ليدخل البيت، ولكنه توجس خيفة. خشي أن يرى وسط الفناء رجلاً طويلاً القامة بدينًا مكفناً بأعشاب اجتثت من الأرض، باسطاً ذراعيه يسد عليه الطريق.. وارتعد فرقاً، وهول بعيداً. وتذكر كلمات الاتهام التي يوجهها إليه القسيس دائماً.. أنت الذي قتلتها، أنت.. وتراءت له هذه الكلمات كأنها جثث موتى، سلسلة طويلة من الموتى، تتعقبه وتجري في أثره.

وتوقف عند طرف القرية. وسأل نفسه: «لماذا أتيت إلى القرية؟ نعم، لماذا؟

كنت غاضبًا وتلاشى غضبي. ولكن لماذا؟» وفجأة طافت بخاطره صورة ماريوري. رآها مسجاة على الأرض أمامه، شاحبة الوجه، شاخصة العينين، وعلى فمها منديل أحمر صغير.. وتمتم قائلاً: «هذه القرية تعج بالموتى والأشباح. لا بد أن أرحل عنها».

تكاثر السحب، واحتجبت الشمس، وأظلمت السماء، وهبت ريح على غير انتظار، وارتعدت الأشجار، وتساقطت أوراق ميتة فرشت الأرض ببقع صفراء كأنها بدن عليل.

ومر به بعض أهل القرية، وتظاهروا بأنهم لم يروه، وحثوا الخطى، وتواروا عن ناظره. وبكى طفل عندما وقع بصره عليه. وظهرت امرأة عجوز عند باب بيتها ورأته، فرسمت علامة الصليب وأغلقت بابها من فورها. وهرعت إلى زوجها الكهل الذي كان يتقب في الفناء بحثًا عن شعاعة شمس يدفئ بها عظامه الواهنة. وهمست له:

- ميشيل ابن عمدتنا الراحل يقف بالخارج. آه لو تلقي عليه نظرة إنه يثير الأسى والرثاء.. لو ترى الحالة التي صار إليها، يا رحمن يا رحيم. أصبح هزيلًا شاحبًا، غائر العينين.

وهز الشيخ رأسه وقال في كراهية:

- نال جزاءه. بدد ثروته هذا الأبله، وها هو الآن يهيم على وجهه في الطرقات.. هل هو حافي القدمين؟
- لا، فلا زال يتتعل حذاء القديم.. يا له من مسكين. صدقوا حين قالوا عنه إنه مجنون.

وقال الشيخ في تهكم:

- هذه هي نهاية سلالة بطرياركاس. أكلوا وشربوا ما طاب لهم الأكل والشراب وجامعو النساء، وها هو مصيرهم الذي آلوا إليه الآن. أقسم بديني أن الرب عادل في قصاصه منهم، رغم كل ما قد يقال. اسمعي يا زوجتي إذا طرق بابك يومًا فأعطه كسرة خبز، حتى يقال إننا تصدقنا على آل بطرياركاس.
ورسم الرجل علامة الصليب، ثم تمتم في رضا.

- الحمد لله.

ودوى على البعد قصف الرعد. واشتدت برودة الريح، وحملت معها نذيرًا
بسقوط المطر. وارتجف ميشيل.

وفجأة اتخذ قرارًا. سأذهب إلى ياناكوس.
وعاد أدراجه إلى القرية.

بدأت تتساقط قطرات غليظة من المطر. وأقفرت دروب القرية. ومر بيت
الأرملة، وتوقف برهة، ثم دفع الباب. كان الفناء مهجورًا، وزهور القرنفل ذاوية.
ودلف إلى داخل البيت: سرت الحشايا والكراسي وخزانة الأرملة. وتهشمت
قوائم السرير الخشبية، وتحطم شيش النوافذ، ولم يبق منه غير واحد معلق على
محوره، تلطمه الريح فيصر صريرًا كأنه نواح ينعي الحياة الغابرة. ألف المارة أن
يرتادوا البيت ليلوثوا جدرانهم وأركانهم.
وتتمم ميشيل:

- آه لك أيتها المسكينة كاترينا.. أمتعت واستمتعت. كل ما شهدته هذه
الحجرة من متع وملذات ذهب وولى. أف لهذه الدنيا، ما أحقرها.
وسمع صوت فأر يقرض الخشب، اتخذ لنفسه وكرًا بين عوارض السقف
الخشبية، وانهمك في القرص دون كلل كأن الله أوكل إليه مهمة التهام سقف
الأرملة.

أغلق ميشيل الباب وراءه، وأخذ طريقه إلى بيت ياناكوس.
وسرح مع أفكاره وهو في طريقه.

- مؤكد أن دخول كاترينا الجنة بكل خطاياها أكثر ضمانًا من دخول القسيس
جريجوريس بكل مسوحي الكنيسة. من يدري، ربما تسكن الجنة الآن، تجلس
إلى جانب مريم المجدلية يتجاذبان معًا أطراف الحديث.
وأحس بقلبه وقد تخفف شيئًا ما من بعض همومه التي أنقلته. وطرق باب
ياناكوس.

كان ياناكوس في الحظيرة منذ أن تنفس الصبح. ذهب إليها ليودع حماره. فقد
وعد أهل ساراكيينا به، ولكنه تلقى بالأمس رسالة من الأب لاداس يقول له فيها:

- إما أن ترد لي الجنيهاات الثلاثة أو أستولى على حمامك. تدبر أمرك جيداً إذا كنت لا ترضى بدخول السجن.

ضم إلى صدره رقبة رفيقه القوية الدافئة، وانخرط في نشيج وهو يبته حديثاً كله حب وحنان.

- حبيبي يوسف فاكى. الناس لثام، يغارون منا، ويسعون من أجل الفرقة بيننا.. ترى من سيزورك بعدى كل صباح، يتحدث إليك، ويربت عليك، ويملاً مسقاتك بالماء القراح ومذودك بالعلف؟ من سيبحث لك عن العشب الغض وسط الحقول ويقدمه لك طعاماً هنيئاً منعشاً؟ ليس لي سواك في هذه الدنيا. لم أكن أعاباً بكل ما أصادفه من متاعب وشرور كنت أضحك من هذا كله؛ لأنني أعرف أنني سأعود إلى بيتي حيث ألتقي بك يا حبيبي يوسف فاكى، فترنو إليّ بعينيك البريثتين، وتهز لي ذيلك. وبعدها نشق طريقنا معاً، أنت أمامي، وأنا خلفك، نطوف بالقرى نبيع بضاعتنا ونشتري غيرها، ونتكسب خبزنا رزقاً حلالاً بعرق الجبين.. أما الآن، ترى ماذا سيكون مصيرك بين يدي هذا العجوز الشحيح الذي يسعى للفرقة بيننا؟ في ذلك هلاكنا نحن الاثنين يا حبيبي يوسف فاكى اللعنة على اللثام من البشر وجنيهااتهم الذهبية، واللعنة على القدر الظالم الذي جعلنا فقراء معوزين.. وداعاً يا حبيبي يوسف فاكى.

وانحنى على حمامه، وقبل عنقه الدافئ اللامع، وربت بيده في رقة وحنان على بطنه وكفله، يداعب بأنامله شعره المخملي الأبيض، وتحسس ذيله والدموع تنساب من عينيه.. كان يوسف فاكى سعيداً بصاحبه يهدده، فhez رأسه بقوة، ومط رقبتة، ورفع ذيله، وبدأ ينهق بصوت خفيض عذب حزين.

وسمع ياناكوس صوت طرقات على الباب، فهب مدعوراً. ولكن ما إن رأى ميشيل يدخل حتى ذهب عنه الخوف.

وابتدر صديقه بالتحية.

- صباح الخير يا ميشيل.

كانتا عينا ياناكوس محتقتين.

- ماذا بك يا ياناكوس، هل تبكي؟

وخجل ياناكوس، وكفكف دموعه. وقال:

- عودة إلى الطفولة من جديد.. كنت أودع حماري.. طلبه الأب لاداس.
ليأخذه الشيطان.

وسأله ميشيل:

- هل عندك ما تقدمه طعاماً لي؟ إنني جوعان. تركت الجبل مع مطلع الفجر
وها هو الوقت قارب الظهيرة. اسمع يا ياناكوس. سأذهب بعد ذلك مباشرة إلى
الأب لاداس. لن يأخذ الحمار لأنه ملك سارا كينا.

وهز ياناكوس رأسه، إذ سمع أن القسيس وصل إلى اتفاق مع الأغا، وأرسل
إلى الأسقف في هذا الشأن، ولن يسمح لميشيل بأن يمسه شيئاً من إرثه حتى يصدر
حكم بشرعية توقيعه. ثم إن القرية على استعداد للإدلاء بشهادة زور وتقول إن ابن
بطريار كاس لا يتمتع بكامل قواه العقلية.

وفجأة قال البائع الطواف:

- أقسم بدينني لو أخذ الحمار مني لأشعل النار في بيته.

ودخل البيت، وأعد بعض البيض المسلوق، وخبزاً وجبناً وعنباً. كان المطر
توقف، فجلسا وسط الفناء ليأكل مع صاحبه أمام الحظيرة ووقف الحمار إلى
جانبهما يأكل هو الآخر قانعاً راضياً.

وتنهذ ياناكوس:

- ما أجمل صحبتنا نحن الثلاثة هنا. وهذا اللص العجوز يريد أن يفرق بيننا..

ونفض ميشيل وهو يمسخ فمه وقال:

- سأذهب إليه الآن. لن يأخذه منك.

- كان الله معك يا ميشيل. ابذل ما في استطاعتك.

ترجع الأب لاداس وزوجه على الأرض أمام الطبلية يتناولان غداءهما. طرحت
بنيلوب الجورب الذي تغزله إلى جانبها فوق الكرسي. وألقت في فمها بضع
لقيمات وكأنها تلقي بها في ثقب ضيق، ومضغتها على مهل، في بلادة وصمت.
أما الشيخ فكان منشراح الصدر، منطلق اللسان، يلقي على سمعها بحديثه الذي

يقوله وحده دون أن تشاركه الكلام.

- الأمور تسير على خير وجه يا عزيزتي. حمدًا لله. قسيسنا شيطان مريد داخل مسوح كنسية. كسب الأغا إلى صفه، وها هو ذا كتب إلى الأسقف أيضًا. وسوف ترين، لن يمضي وقت طويل حتى تقع كل أملاك بطرياركاس في يدي. يقولون إنها ستؤول إلى المجتمع، إيه، لا تصدقي هذا يا عزيزتي بنيلوب. اتفقت على كل شيء مع القسيس ودبرنا أمورنا. ستعرض الممتلكات كلها للبيع في المزاد، سيأخذ القسيس نصيبه، هذا الخنزير كان يحاول أن يبقّي عليها لنفسه، ولكنك تعرفين أنني لا يمكن أن أسمح له بذلك مهما كلفني الأمر. ووصلنا إلى اتفاق بعد مساومة. وخلال أيام قليلة سنستولي على حمار ياناكوس طريد الكنيسة. سيكون لك يا عزيزتي بنيلوب. تركيبته لتسري عن نفسك، وتنزهين به حول حقولنا. إنه حمار وديع طيع، وله برذعة.. هل رأيته؟ كلها مغطاة بالوبر - تجلسين فوقها كأنك ملكة. ولما كنا وحدنا - لا أطفال لنا ولا كلاب - لا نحمل همومًا أو متاعب تشغلنا فإننا بالفعل يا عزيزتي بنيلوب ملك وملكة. آه يا عزيزتي، لو أعيش مائة عام أخرى أو مائتين لوقعت كل ليكوفريسي بين براثني. هل تعرفين لماذا؟ لأن الناس جميعًا أذعيا بلهاء، ينفقون أموالهم على شراء الملابس والأحذية، ناهيك عن إنجاب الأطفال. وكل هذا كلف كثيرًا، وحيث إن النقود مستديرة فإنها تندرج وتفلت منك.. أما نحن.. في صحتك يا عزيزتي بنيلوب.

وملاً كوبه بماء قراح، أفرغه في فمه، وطرق بلسانه في متعة وتلذذ.
وأردف قائلاً:

- ما قيمة النبيذ إذا قورن بالماء الذي أنعم به علينا الرب بواسع رحمته؟
دفع ميشيل الباب وفتحه دون أن يطرقه ودخل. وتجهم الأب لاداس لمرآه.
وحدث نفسه: «لا بد وأنه يبحث عن نزاع. أنا لا أحب نظراته سأمثل عليه دور الغبي».

وقال بصوت عال:

- مرحبًا بسيدي ميشيل. اجلس. أعتقد بأنك أكلت.
ونفضت الأم بنيلوب، ورفعت المائدة، وأخذت جوربها وانتحت ركنًا حيث

انكبت على عملها تغزل.

وقال ميشيل:

- أيها البالوعة، ماذا ستفعل بكل هذه الحقول وبساتين الكرم وحدائق الزيتون، والبيوت والخزائن المكدسة بالذهب عندك؟ هل ستحمل كل هذا معك إلى القبر؟ بينك وبين القبر خطوة واحدة ولم تشبع بعد؟ وتحاول الآن أن تستولي على حمار ياناكوس المسكين.. ألا تخشى الله؟ ألا تخجل أمام الناس؟

هرش الشيخ رأسه الأشهب المخروطي وقال في سريره:

- أقسم بديني أنه فقد صوابه فعلاً. ما زال يقحم الله في شئوني الخاصة سأحدث إليه حديثاً ليناً رقيقاً خشية أن تصيبه نوبة وينقض عليّ بقبضته.

وتصنع الرقة والمسكنة وهو يجيب عليه:

- عزيزي ميشيل، ماذا تريدني أن أفعل؟ الحق حق. إنسان مدين لي بثلاثة جنيهات ذهبية، ماذا أفعل معه؟ أنا فقير محتاج مثل غيري من الناس.

- وإذا كتبت لك إيصالاً بأنني مدين لك بهذا المبلغ ووقعت عليه؟

وسعل الشيخ ثم قال:

- عزيزي ميشيل، يؤسفني أن أقول، مع احترامي لك، إن ألسنة السوء تحاول أن تشكك في توقيعك.. أستحلفك باسم المسيح ألا تغضب من قلبي، أنا لا أصدق كلمة واحدة من كل هذه الأقاويل، ولكننا بشر - مثلنا كمثل الآلات الدقيقة إذا ما سقط منها مسمار.

وثب ميشيل مهتاجاً، وأمسك بالكرسي الذي كان يجلس فوقه ورفع إلى أعلى ثم ألقى به إلى الأرض. وقال لنفسه: «إنهم بهذه الطريقة سيدفعونني إلى الجنون حقاً..» واقترب من الشيخ، وحدجه بنظرة تقدح شرراً.

لاذ الأب لاداس بركن يحتمي به، وتعلق بالشباك، وألقى بنظرة إلى الفناء.. وقال لنفسه «الحمد لله، الباب الخارجي مفتوح، لو ساءت الأمور سأنسل من هنا وأهرع إلى الشارع».

وصاح بصوت متهدج:

- لو استطعت أن تدفع لي المقابل نقدًا...

وصاح ميشيل وهو يحصر الشيخ في الركن ويضيق عليه الخناق:
- سأذهب إلى البيت أبحث لك عن نقود هناك أيها المتشرد السفیه، أيها
المرايبي الخزير.

وقال الشيخ:

- ختم الأغا على بيتك بالشمع الأحمر اليوم. وسرعان ما أمسك الشيخ عن
الكلام، وقال لنفسه: «زل لساني. ما كان ينبغي أن أقول له هذا... فإن ذلك سيثير
ثأثرته. ولكن سبق السيف العذل، هلكت وقضي الأمر».

أمسك ميشيل رأسه بين راحتيه، إذ شعر برأسه يتصدع.

وصاح: «أقسم لكم باسم يسوع المسيح إنكم تدفعونني دفعًا إلى الجنون.
أوضح يا شيخ لاداس. هل تطردونني من بيت أبي؟ أقسم بشرفي أنني سأصب
البترول على القرية كلها وأشعل فيها النار. لا تذهب أيها السفیه، إلى أين؟ تعال
هنا أيها الخزير».

وانقض عليه ليمسك به، إلا أن الشيخ استطاع بقفزة واحدة أن يكون عند
الباب. واندفع ميشيل وراءه كالسهم، وأطبق على رقبته. وجثا العجوز على ركبتيه
وهو يصرخ صريخًا كالصرير.

- من فعل هذا؟ القسيس؟ أم الأغا؟ أم أنت؟

- لا، لست أنا يا ميشيل. لست أنا، وسل الأم بنيلوب تشهد على صدق ما
أقول. كنت داخل بيتي وأغلقت عليّ بابي.. ولكنني سمعت... سل الأم بنيلوب...
أظن أن الأغا ذهب إلى هناك هذا الصباح ومعه أبونا جريجوريس... وقيل لي إن
الأسقف سيأتي هو الآخر من المدينة ومعه بعض الأطباء.

وصاح ميشيل في فزع:

- أي أطباء؟ أي أطباء؟

- اتركني يا ميشيل، أتوسل إليك... لا تطبق على عنقي هكذا فإنني أكاد
أختنق... سأقص عليك كل شيء.. لا تخنقني.

أمسك ميشيل به من قفاه ورفعته إلى أعلى وأوقفه على قدميه.

- تكلم أيها الشيخ القذر. قص عليّ كل شيء دون أن تحذف حرفًا.

- بنيلوب، آتني بكوب ماء... فإني أحس بغصة.
ولكن بنيلوب واصلت غزلها. لم تسمع شيئاً، ولم تبد حراكاً. كانت تغزل وتبتسم هادئة، ساكنة، كأنها في عالم الأموات.
وقال الشيخ:
- دعني أغلق الباب حتى لا يسمعننا الجيران. وقفز الشيخ إلى الطريق، وأطلق ساقيه للريح وهو يصيح:
- النجدة يا أهل القرية، النجدة. ميشيل يحاول أن يخنقني.
واستبد الفرع بالجيران وأغلقوا عليهم الأبواب. وواصل الأب لاداس عدوه وصياحه، يذّر الفرع في القرية حتى وصل إلى بيت القسيس جريجوريس. وظهر القسيس عند عتبة داره.
- النجدة يا أبانا، ميشيل أصابته نوبة، يريد أن يخنقني. أدخلني إلى بيتك.
ولكن القسيس بسط ذراعيه ليسد عليه الباب. وقال له:
- اجر يا شيخ لاداس. اصرخ بأعلى صوتك حتى تهيج أهل القرية جميعاً.
اصرخ بكل ما أوتيت من قوة حتى يسمعك كل من في القرية ويصدقون... هيا انطلق في طريقك واعد.
ثم أغلق بابه في وجهه.
وتساقط المطر ثانية. أدرك الأب لاداس حيلة القسيس وأعجب بها، فواصل عدوه هنا وهناك، يقف عند كل ناصية ويصرخ صرخات مولولة. وعثر على حبل فالتقطه من على الأرض ولوح به كشاهد على صدق ما يقول.
- اقتحم ميشيل عليّ بيتي ليخنقني، وها هو الحبل. النجدة يا إختوتي. ليفتح لي أحدكم بابه ويدخلني. ميشيل يطاردني، يحمل معه البترول ليحرق القرية.
ولا يكاد يرى باباً يفتح حتى يجري بعيداً عنه، ويستمر في صيحاته المولولة.
- أتى معه ببعض البترول ليشعل النار في القرية، النجدة، النجدة.
وسرعان ما ساد القرية هرج ومرج. أمسك البعض ببنادقهم، واحتموا بالأبواب في انتظار ميشيل حين يقتحم عليهم بيوتهم. وخرج الأغا إلى شرفته.
- ليذهب اثنان من الأقوياء الاشداء ويقبضوا عليه. أين بانايوتي؟

وأتى إليه بانايوتي على عجل.

- في خدمتك يا أغا.

ألقي إليه الأغا بحبل وقال له:

- خذ هذا واجر وراءه، أوثق يديه، وائتني به... انتظر واسمعي: سألحقك

ابتداء من اليوم بخدمتي يا بانايوتي لتكون حارسًا لي. أنت إنسان شرس قوي شديد البأس تنبح كالكلب. تتوافر فيك صفات الحارس الذي أحتاج إليه. انتظر حتى ألقى إليك بطربوش حارسي القديم عليه اللعنة. سترتديه من الآن فصاعدًا. اذهب، أتمنى لك حظًا سعيدًا.

واستدار وأخذ الطربوش من فوق المشبك المعلق عليه وألقى به إلى بانايوتي:

- خذه لعل الخير يأتيك معه.

ثم نظر إلى براهيمكي الذي كان يجلس وراءه يدخن في تراخ وينفث سحبات الدخان من أنفه. وقال له:

- يبدو لي يا عزيزي براهيمكي أنهم دفعوه دفعًا إلى الجنون، هذا المسكين. وقال المهر غاضبًا:

- متى سيأتوني بالنساء، أقسم أنني أصبحت على شفا الجنون.

أمسك بانايوتي بالحبل والطربوش، وقصد بيت الأب لاداس.

ولكن ميشيل كان قد غادر البيت. جرى بعيدًا، واختار الدروب والأرقة الجانبية حتى لا يراه الناس. وكان الناس يغلقون أبوابهم إذا مر بهم، والنساء يصرخن فزعًا وخوفًا.

وما إن بلغ الطريق المؤدية إلى الجبل حتى توقف عن الجري بعد أن تقطعت به الأنفاس. وتساقط المطر رقيقًا حانيًا بعد أن كان سيلاً طامياً. وأحاطت بالجبل غلالة رقيقة من الضباب، وغطى الماء السهل. وتوارى ميشيل وراء صخرة ينتظر حتى تنقشع السحب ويصحو الجو. وأحس بجفاف في حلقه.

وحملق في المطر، وأنصت لخريف الماء المتساقط من فوق الصخور كالشلالات. وسبحت أفكاره مع المياه الجارية، وجرفتها معها إلى السهل. كانت أفكاره تجري مع الماء فوق الأرض وتزداد معها وتتضخم، وتأتيها روافد تصب

فيها من كل جانب حتى أصبحت شلالاً قوياً هداراً يفيض على القرية كلها. وانبسط صدر ميشيل. وأخرجت الأرض أحياء وأمواتاً علاهم الطين، ساروا فوق السهل وتحت وابل المطر بخطوات هادئة وقور. وأقبلوا نحوه في موكب طويل. كان يتقدمهم رجل ميت طويل القامة، بدين، مبطن، أزرق اللون في خضرة: إنه العمدة. كان كيوم الحشر، نفخ الملاك في النفير، وخرجت الديدان البشرية من تحت الطين.

كان ميشيل قرأ منذ أيام قلائل رؤيا يوحنا. وازدحم رأسه بالملائكة والنفير والعاهرات والجواري يمخرن عباب البحار ذات الشيطان المائجة، وفرسان يمتطون صهوات جياذ سوداء وخضراء وحمراء وبيضاء، تخوض بأقدامها في بحار من دماء... وحملق ميشيل ببصره في المطر، وأنصت لخرير الماء المتساقط وانتفضت وجنتاه. وشعر كأن الأرض تنفتحت من تحته. وبدأ الظلام يلف الأرض، فقد جن الليل مبكراً، واستمر هطل المطر حزينا، رتيبا، وكأنه يصير في عناد على أن يغرق العالم ويفتت الأرض من تحته. وفاض الدمع من عينيه، وتمتم قائلاً:

- يا إلهي، أنت وحدك الباقي الذي لا يتغير. لولاك يا إلهي لما وجد الإنسان من يأمل فيه ويتعلق به، يوم أن يختفي كل شيء، وتحلل الدنيا وتغيب عن الوجود. وإلا ففيمن يكون أمل الإنسان ورجاؤه؟ هل في المرأة التي يحبها؟ أم في الأب الذي أنجبه؟ أم في البشر؟ كل شيء يزول ويختفي وأنت وحدك يا إلهي الباقي الموجود، فكل شيء هالك إلا وجهك. دعني أركن إليك، أنت دون سواك، وثبت أقدامي يا إلهي فإني أكاد أفقد صوابي.

قضى القسيس فوتيس ومانولي ساعات طويلة داخل الكهف في انتظار ميشيل حتى استبد بهم القلق.

وقال مانولي:

الانتصار في هذه المعركة يا أبانا يتطلب منا نضالاً شاقاً وعسيراً. ترى هل تستحق الحياة الدنيا كل هذا العناء والوقت؟

ومضت عينا القسيس فوتيس وقال في حسم:

- نعم تستحق، وتستحق الكثير. أتى عليّ حين من الزمن اعتدت فيه أن أحدث نفسي قائلاً: «لماذا النضال والعناء من أجل الحياة الدنيا؟ ما قيمة هذا العالم كله؟ أنا طريد منفي من السماء وأتلّهب شوقاً للعودة إلى وطني ومنبتي... ولكنني فهمت أخيراً. لا يدخل السماء إلا من يعقد له لواء النصر أولاً على الأرض، ولن يعقد لواء النصر على الأرض إلا لمن يناضل في حماس وجلد، ودون كلل أو مهادنة. الأرض للإنسان هي المنطقة التي يقفز من فوقها إلى السماء، وكل القساوسة والشيوخ من أمثال جريجوريس ولاداس والأغا، وذوي الأملاك، هم قوى الشر التي تجمعت؛ وكان نضالنا ضدها قدرًا مقدورًا. ولو وضعنا أيدينا إلى جنوبنا دون أن نبدي حراكًا فإننا نلقي بأنفسنا إلى التهلكة، هلاك على الأرض، وهلاك في السماء.

- ميشيل رقيق غاية الرقة، ألف الحياة السهلة الرغدة، ومن ثم فإنه لن يقدر...
- نحن نقدر. ولنتظر ما سيأتينا به من أخبار هذا المساء. فإن كانت أخبارًا سيئة، سأسافر من فوري غدًا إلى الأسقف، وأسأله أن يحكم بيننا بالعدل. الشتاء على الأبواب، ويجب ألا يحل علينا ونحن عراة جياع بلا مأوى.
وتتمم مانولي:

- آه لو استطعت أن أقدم دمي فداء للأرواح المعرضة للهلاك والخطر...
- من اليسير على المرء أن يقدم دمه دفعة واحدة دون أن يبذله قطرة قطرة في النضال اليومي. لو سألتني سائل أي الطرق تؤدي إلى السماء فإنني أجيب: «أشقيها». لذلك عليك بالطريق الشاق العسير يا مانولي. تشجع.

ولزم مانولي الصمت. أحس بأن القسيس على صواب فيما يقوله، ولكنه كان قلقًا. إنه لا يستطيع أن ينسى السعادة القدسية التي غمرته يوم أن تقدم ليجود بحياته. لم يخب هذا اللهيبة بعد، ما زال يتأجج بداخله، بعيدًا عنه في ذات الوقت، كأنه الفردوس. فالنضال اليومي يبدو له شيئًا بطيئًا ملولًا خاملاً، وهو الإنسان العجول. وصمت الاثنان، وأصاها السمع إلى صوت المطر المتساقط، وخيرير الماء فوق الصخور. وبين الحين والآخر تبرق السماء ومضة تمزق عتمة الليل وتدخل

الكهف فتضيء وجهين شاحبين ورقبة وذراعاً، ثم يسود الظلام من جديد.

وفجأة سمعا وقع أقدام مسرعة.

واندفع مانولي إلى الخارج وصاح:

- ميشيل!

وتعانق الصديقان في الظلام، ودلفا إلى الكهف.

وقال القسيس فوتيس:

- مرحباً بعزينا ميشيل. ما وراءك من أخبار عن ليكوفريسي؟

- توقيعي غير ذي قيمة وضع الأغا اختاماً على أبواب بيت أبي، وسيأتي

الأطباء ليعلموا أنني مجنون... وأخيراً فإن ماريوري تلفظ أنفاسها... هذه هي

أخباري، ولا حق لكم في الشكوى، أتيتكم بأخبار لا تقدر بثمان.

وترك نفسه يسقط إلى الأرض، وأسند ظهره إلى الصخرة. وبعد صمت قصير

حاول أن يطلق بعض الدعابات.

- لا حق لكم في الشكوى، فأنا لم آتاكم صفر اليدين.

ونفض القسيس فوتيس وهو يقول:

- نحن لا نشكو، وهكذا يكون الرجال، أن يتحملوا المعاناة والظلم ويناضلون

دون كلل أو استسلام. ونحن لن نستسلم ولن نكل أبداً يا ميشيل. وغداً سأتوجه

إلى المدينة لأناضل.

وهز ميشيل رأسه.

- افعل كل ما يلهمك به الرب يا أبانا. لقد تعبت وسئمت. ولا أستطيع أن أفعل

شيئاً أكثر من ذلك... استبد بي الغضب لحظة وأنا في القرية. وراودني نفسي أن

أخنق الأب لاداس، وأغرق القرية بالبترول، وأشعل فيها النار. ولم أكد أهم بذلك

حتى أحسست بالتعب الذي ثبط همتي، وتولاني خوف لذت بعده بالفرار.

وأمسك مانولي بذراع صديقه في الظلام، وأحس كأنه يتلظى ناراً. وقال له:

- لنواصل نحن النضال يا ميشيل.

توقف المطر عن السقوط، ونفض القسيس فوتيس. وقال:

- طبتما مساء. سأوي إلى مخدعي أدبر أمري لرحلة الغد. سنبدأ رحلتنا مع

مطلع الفجر يا مانولي.

واختفى القسيس في الظلام.

وتنهذ ميشيل، وقال:

- ما أشق الحياة وما أفساها. هل لك أن تسدي إليّ خدمة يا مانولي. غداً عندما تذهب إلى المدينة، أرجوك أن تزور ماريوري وتبلغها تحياتي. هذا كل شيء. واستلقى فوق حشيته، وأغمض عينيه في انتظار وجه أبيه يطالعه في منامه.

وفي الغد سار مانولي والقسيس فوتيس في طريقهما صامتين لم يتبادلا غير كلمات قليلة. كانت السماء ملبدة بالغيوم، وإن كان المطر توقف بعد أن كان بالأمس طوفاناً طامياً. وغطى الوحل الأرض، وها هما يخوضان فيه بأقدام عارية. يشقان طريقهما في صعوبة كبيرة الواحد وراء الآخر.

سارا وسط حقول خصبة مغطاة بالأشجار والكرم، تتسع أمامهم السهول حيناً، وتضيق حيناً آخر. وفجأة انقشعت السحب، وسطعت الشمس، وظهرت قطع زرقاء من السماء صافية وضاءة منعشة. وأطل عليهما من فوق ربوة عالية عمودان أثرين من المرمر يشع منهما بياض ناصع.

وتنهذ مانولي:

- كل هذه الأراضي كانت أرضنا نحن اليونانيين يوماً ما...

وتوقف القسيس فوتيس لحظة، وشخص ببصره إلى العمودين المكسورين، ورسم علامة الصليب كأنه يمر بأطلال كنيسة قديمة. واعتمل في نفسه غضب شديد، ولكنه لم ينبس ببنت شفة.

واصلا طريقهما في صمت، كل منهما يحمل جرابه على كتفه. القسيس في ردائه الديني المرقع، ومانولي في ملابسه الرثة الخشنة.

وكلما مرا بقرية نبحت كلابها، فتفتح أبواب وتطل رؤوس، وتحملق فيهما عيون، وبين الحين والآخر تتراعى إلى سمعهما كلمة ترحيب رقيقة «مرحباً بكما، إلى أين وجهتكما؟ طريق السلامة». ثم تغلق الأبواب ويعود رسولاً الفقر ثانية إلى وحدتهما في طريقهما القفر.

وعند الظهيرة توقفا عن المسير تحت ظل شجرة ليزدردا شيئاً من الطعام يستعيدان به قوتهما. وارتقيا حجرين وجلسا فوقهما، ومن حولهما الأشجار العطرة- أشجار الندغ والسعتر والنعناع والفودنج والسحلب- وهي الأشجار التي أوسعتها الأمطار بالأمس ضرباً بسياطها المنهمرة، فجادت بشذاها العطري. وبزغت الشمس لحظة، وتزينت السماء بقوس قزح. وتأمل القسيس فوتيس سحر السماء والأرض عقب المطر. وانفجرت أسارير وجهه الشاحب الحزين. وقال:

- ذات يوم كنت فوق الجبل المقدس، وقصدت الأب سوفرونيوس الذي كان يعيش في خلوة بعيدة عن الدير، فوق هوة سحيقة. وسألته: «كيف اهتديت إلى طريق الخلاص يا أبانا سوفرونيوس؟» وأجابني: «لست أدري يا بني. اهتديت إليه دون علم مني أو تدبير.. استيقظت من نومي ذات صباح، عقب مطر غزير استمر طوال الليل، وأطللت من النافذة. هذا كل ما حدث». هل هذا هو كل شيء يا أبانا سوفرونيوس؟ وهل تطمع في أكثر من ذلك يا بني؟ رأيت الرب من نافذتي.. ومنذ ذلك الوقت وأنا أستيقظ مبكراً كل صباح لأرى الأرض عقب المطر وأذكر الناسك العجوز، وتفيض نفسي شجوناً. لا بد وأنه أودع روحه لبارئها منذ زمن طويل، وهو الآن يتنزه بين مروج الفردوس. وربما يسقط الله المطر من سماء الفردوس ليدخل السرور على نفس عبده الصالح.

وارتجف مانولي: أحس بأن كلمات القسيس أعطت الأرض المبتلة معنى سامياً رفيعاً انتعش له قلبه.

وبعد ثوان من الصمت قال:

- شكراً لك يا أبانا. اعتدت أن أرى الله في لحظات العسر والشدائد، وأنت تريني الله في كل لحظة تمر بي. أبحث عنه في الموت القاسي العنيف، وأنت تريني الله في نضالنا اليومي المتواضع. وأدركت الآن فقط لماذا نقصد المدينة ومع من سنواصل نضالنا هناك.

- الإنسان يا بني لا يعيش أبداً على ما يجد في أثره بحثاً عنه. سنجد الله حيثما نولي وجوهنا وأينما ذهبنا. ولن نراه على الصورة التي يرسمها له أولئك الذين

لم يروه أبداً- شيخاً متورد الوجنات، يجلس فوق سحاب كالصوف المندوف في غبطة وبلهنية يصدر الأوامر- ولكننا سنجده صوتاً ينبعث من أعماقنا ليعلن حرباً: بالأمس كانت حرباً ضد القسيس جريجوريس ولاداس، واليوم حرباً ضد الأسقف، وسنرى ضد من ستكون حربنا في الغد... لكنها حرب دائماً وأبداً، حرب مقدسة يا بني.

ثم واصلا المسير من جديد، وبلغا مشارف المدينة مع الشفق، ورأوا على البعد قبائلاً ومسجداً ومئذنتين ترتفعان في قوة ورشاقة إلى عنان السماء. وعندما هما باجتياز بوابة حصن المدينة، أذن المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة بصوت آمر ولكنه حلو رقيق.

وامتدت أمام بصرهما المدينة. تسلم بعض الجنود الأتراك نوبة الحراسة عند البوابة ورأيا الطرقات تعج بمن فيها من الأتراك- رجال يدخلون النارجيلة، وبكوات يجلسون القرفصاء فوق حصير، وغلمان سمان لهم صوت واهن رقيق كصوت الصبايا، يعزفون على الطنبور ويغنون أغنيات أمان، ونساء محجبات يمشين الهوينى، ويخطرن في تصنع ظاهر، وأتراكاً حفاة بدائناً، فتحوا عقيرتهم ليعلنوا عن بضائعهم: فطيراً مقلّياً بالسمن، وسحبلاً دسماً معطراً، وفشاراً...

وأوى صديقانا المسافرين إلى منزل مسيحي بعد أن أضناهما طول المسير... كان الطابق الأرضي حظيرة للبالغ والحمير. وصفت في الطابق الأول، وهو حجرة واسعة، حشايا من القش. وكان القسيس فوتيس يعرف صاحب المنزل الشيخ يبراسيموس، وهو شيطان داهية، ذئب بحر، كان يعمل قبطاناً في سالف أيامه ثم ألقى مراسيه أخيراً عند هذه البلدة المغلقة، وتزوج، بعد أن تقدمت به السن، من فتاة هيفاء رشيقة القد، من آسيا الوسطى، وأنجب منها أطفالاً. وفتح هذا المنزل حيث تقوم زوجه بأعمال الطبخ، ويقوم هو بالأعمال التي تتعلق بالرجال والحيوانات، يلقي كلمة هنا ودعابة هناك. أصلع الرأس، ذو كرش كبير، يزعم بأن كرشه يمنعه من الانحناء حتى يرى نفسه بعينه إن كان ذكراً أم أنثى... ولم يكذب بصره على القسيس فوتيس حتى ترك منصة الحساب وهول إليه يستقبله.

وصاح في غبطة:

- أي ربح طيبة حملتك إلينا؟ أنت الإنسان الذي أحتاج إليه يا أبانا. اقترفت
خطيئة كبيرة من جديد. فذات يوم نسي حمال حافظة نقوده هنا، وكانت ملأى
بالقطع الذهبية وردتها إليه. ومنذ ذلك اليوم وأنا أشعر بتأنيب ضمير بسبب هذه
الخطيئة التي اقترفتها نفسي التعسة، واشتد بي الحزن حتى يكاد أن يذهب عقلي.
ولكن القسيس فوتيس لم يكن في حالة مزاجية تسمح له بتقبل الدعابة. وقال
له:

- سنمكث عندك يومين يا شيخ بيراسيموس، هل لنا في بعض الطعام نأكله،
وحشيتين ننام عليهما... نحن لا نملك نقودًا، وسجل علينا إيصالًا بكل ما ننفقه.
سأدفعه لك يومًا ما يا كابتن. ثق من هذا ولا تقلق.

وضحك البحار القديم ضحكة عالية وقال:

- من طالبك بنقود يا أبانا؟ إذا لم يكن معك نقود فإن التجار البدان الأثرياء
الذين ينزلون في نزلنا معهم الكثير. سأطالبهم بضعف ما يتكلفون. وهكذا يعود إليّ
حقي وزيادة. فضلًا عن أنني لو عثرت على حافظة نقود فلن أردّها... أهلاً بكما.
سنتناول عشاءنا الليلة معًا. لستما زبائني بل ضيوف... هيه... يا كروستالينا.
خرجت من المطبخ امرأة فحلة، واسعة العينين وتحمل طاجنًا فوق رأسها.
وأصدر إليها الأب بيراسيموس أمره:

- قبلي يد القسيس. سأتناول معه العشاء الليلة هو وصديقه. هل تفهمين معنى
ذلك؟ كستليتة من لحم الخنزير.

وتقدمت السيدة كروستالينا تتبختر فتهتز أردافها، وقبلت يد القسيس ثم
عادت إلى المطبخ.

ونادى عليها زوجها في مرح:

- إلى أين يا زوجتي؟ لن يأكلك أحد هنا، انتظري قليلاً حتى نمتع ناظرينا
منك.

وغمز بعينه للقسيس وسألها:

- كم عدد الكمثرى التي يتسع لها الكيس؟

وقالت صاحبة المنزل الجميلة، وقد احمر وجهها خجلاً:

- ألا تخجل يا رجل من شيتك!

وضحكت وأسرعت حيث توارت في مطبخها.

وأغرق بيراسيموس في الضحك وقال:

- نعم، نعم، ما أغرب المرأة يا أبانا. أنا لا أعرف رأي الكتاب المقدس فيها، ولكنني واثق تمامًا من شيء واحد أن الرب هو الذي خلق الرجل، أما المرأة فقد خلقها الشيطان. هل تريد دليلاً على ذلك؟ سألت الناس جميعاً: «كم عدد الكمثرى التي يتسع لها الكيس». ولم يعرف أحد إجابة على سؤالتي. أما زوجتي، هذه الداهية، فقد عرفت الإجابة. قالت لي: «اثنتين» هل تصدق؟ «اثنتين». إنها زوجة شيطانة لها عينان مثل عيون المها.

في صباح اليوم التالي رسم القسيس فوتيس علامة الصليب وانطلق حافي القدمين إلى دار الأساقفة. وفتحت له الباب فتاة بدينة من بنات الريف، تفرست القسيس، حدجت بنظرها يديه الفارغتين، وامتعضت وقالت له:

- جئت مبكراً جداً. لم يصح السيد من نومه بعد.

وجلس القسيس فوتيس فوق أريكة حجرية وسط الفناء في انتظار السيد.

وتوافد الزوار بعده: رجالاً ونساء، كل منهم يحمل تقدمته في يده... سلة مملوءة بيضاً أو أرنباً أو كرة من الجبن أو ديكاً... وأخذت الفتاة القروية الهدايا من أصحابها وهي تبتسم لهم، ودخلت بها إلى البيت. وكانت تقدم لكل واحد كرسياً أو مقعداً يتناسب مع هديته.

وهمس شيخ يجلس بجوار القسيس فوتيس:

- هذه ابنة أخته...

وبعد ساعة تناقلت الألسن الخبر من فم إلى فم تعلن أن الأسقف صحا من نومه. سمع أحدهم السرير يئز، وسمع آخر سعاله، وزعم ثالث أنه يسمع صوت غرغرة الماء في فمه.

وهز الجميع رؤوسهم في احترام وإجلال، وشخصوا بأبصار خاشعة إلى

شيش النافذة المغلقة. ودوى صوت سعال قوي، تبعته جلبة شخير ونخير وأخيرًا
قرقة ماء يفرغها من فمه.

وقال الشيخ:

- إنه يغتسل الآن...

وران عليهم سكون عميق ليحفظوا بسماع الوحش المقدس وهو يغتسل.
وبعد ربع ساعة ترامى إلى سمعهم رنين أطباق وأكواب وملاعق وسكاكين،
وصوت كراسي تنقل.

- إنه الآن يحتسي قهوته...

ومضى نصف ساعة، دوت بعده صيحات مولولة وصوت بكاء ونشيج.

- إنه الآن يضرب ابنة أخته...

ولم يمض وقت طويل حتى سمعوا صرير درج السلم، وشخصًا يتمخط بقوة
وعنف.

ونفض الشيخ أخيرًا وقال بصوت هامس:

- إنه الآن ينزل الدرج.

وفعل الحاضرون مثل ما فعل تمامًا، نهضوا وشخصوا بأبصارهم إلى الباب.

ودوى صوت جهوري ينادي:

- أنجيليكا، آتني بأول الزائرين.

انفتح الباب، وأطلت منه الفتاة القروية بعينين حمراوين، وأشارت إلى القسيس
فوتيس الذي تقدم نحوها ودخل. وأغلقت الباب بعده.

كان الأسقف جالسًا إلى مائدة مستديرة، بدينًا مكتنز اللحم قويًا، له لحية بيضاء
قصيرة وبروز في أنفه كأنه الخريتيت. وقال:

- ها أنذا أنصت لك. أوجز. أظن أنني رأيتك قبل ذلك. ألسنت أنت اللاجئ؟

تكلم.

أحس القسيس فوتيس لأول وهلة برغبة في الخروج وأن يصفق الباب وراءه.
هل هذا هو ممثل المسيح؟ هل هذا هو من يعلم الناس المحبة والعدالة؟ هل له
أن يتوقع منه أن يرد له حقوقه؟ ولكنه أثر ضبط النفس، وتفكر في أطفال ساراكيينا

والشئ الذي يوشك أن يدهمهم. وفتح فمه ليتكلم. ولكن الأسقف أوقفه بإشارة من يده.

- إذا أتيت مرة أخرى إلى قصر الأسقفية فيجب أن تتعل حذاءك.
وأجاب القسيس فوتيس:

- ليس عندي حذاء. كان عندي، أما الآن فلا. ثم معذرة يا سيدي إذا قلت إن المسيح كان يمشي حافي القدمين.

وعبس الأسقف وبسر، وهز رأسه توعداً وجار:

- حدثني عنك القسيس جريجوريس. أظنك تحاول أن تمثل أمامنا دور يسوع المسيح. وتدعي أنك ترسي دعائم المساواة والعدالة على الأرض... ألا تخجل؟
تطالب بأن لا يكون ثمة أغنياء وفقراء، وبالطبع لا أساقفة كذلك... أيها المتمرّد.
وانتفضت أوداج القسيس فوتيس، وضغط بأصابعه على راحة يده، ولكنه تذكر من جديد ساراكيينا، فكظم غيظه، وآثر الصمت.

- هل تخرجت من معهد اللاهوت بالقسطنطينية؟

- لا يا سيدي.

- إذن بأي حق تواتيك الجرأة على الحديث معي؟ ليس لي أن أتناقش معك يا أبانا... أتيت تسألني معروفًا؟ فما هو؟ حدثني عنه على عجل، فثمة غيرك كثيرون ينتظرون مقابلي، وتروى فيما تقول.

- لم آت لك لأسألك معروفًا يا سيدي. وإنما أتيتك لأسألك تحقيق العدالة.

- مالي أراك تنظر بعينيك نظرات وقحة هكذا. غض من طرفك عندما تتحدث إليّ.

جال القسيس فوتيس بعينه فيما حوله. رأى خلف الأسقف أيقونة المسيح على الصليب، وخزانة كتب ملأى بكتب مذهبة الحواف. وأمامه صورة أكبر من الأيقونة، صورة صاحب الغبطة الأسقف ذاته، في رداء الأسقفية الموشي بالذهب، وفوق رأسه تاج يتألق، وفي يده صليب مطلي بالذهب. وأبدى الأسقف امتعاضه لسكوت القسيس. فقال:

- يا أبانا، تكلم أو انصرف. ليس عندي وقت أضيعه سدى.

- ولا أنا يا سيدي. إني منصرف. قصدت أن أسألكم العدالة، ولكنني أدركت الآن. سأسأله هو في سماواته.

وأشار بإصبعه إلى المسيح المصلوب.

واستدار الأسقف وقال:

- من؟

- المسيح المصلوب.

جن جنون الأسقف. وضرب المنضدة بقبضته.

- إذن فالقسيس جريجوريس على صواب فيما يقول. أنت اشتراكي.

ورد عليه القسيس وهو يشير إلى المسيح المصلوب:

- نعم، إن كان هو كذلك.

ونادى الأسقف:

- أنجيليكا.

وظهرت ابنة أخته البدينة.

- لو عاد هذا القسيس مرة أخرى - انظري إلى وجهه لتعرفيه جيداً - فلا تدخله.

وقال القسيس فوتيس في هدوء:

- سيحكم الله بيننا يا سيدي الأسقف، فلا تنزعج. سنمثل بين يديه، أنا وأنت، في الآخرة حفاة الأقدام.

وفتح الباب، وخرج دون كلمة وداع.

وهام على وجهه في الطرقات ساعات طويلة، ودخل إلى السوق المغطى بالحصير، وانتظر قليلاً في صحن أحد المساجد، ثم اجتاز قنطرة صغيرة، وتاه وسط بعض الحداثق، ثم انسل إلى حوارى القرية. وتلفت حواليه ولم ير شيئاً.

كان رأسه يغلي حتى غشي بصره. يفكر في الاسقف وأطفال سارا كينا، والشتاء الذي يطرق الأبواب.

وفجأة وجد نفسه أمام نزل الأب بيراسيموس.

وصاح به صاحب النزل:

- طار العصفور مبكراً ليتنزه.

وجلس القسيس فوتيس خائر القوى، كأنه عائد من آخر الدنيا. وأسند ظهره إلى الحائط، وأغمض عينيه وتنهّد.

أوفى مانولي بوعده، وعاد ماريوري في مستشفاه. كانت نائمة، فجلس بجوارها ينظر إليها، وانتظرها ساكناً حتى تستيقظ... وكان كلما رنا إليها بعينه أحس بقلبه ينقبض. أضناها السقم حتى صارت شبيحاً. أحاطت بجفניה دائرتان زرقاوان كبيرتان، وتأت عظام جسدها من تحت جلدها اليابس، وشحب وجهها وغار جلده وبرزت عظامه كأن الموت لعق هذا الوجه وأكل منه... بعثت من رمسها لحظة من الزمان، لعبت وضحكت وبكت وخطبت، أمسكت بين يديها بكأس الحياة ملاً، ولكن لم تمهلها الأرض حتى ترفع الكأس إلى شفيتها فها هي تناديها لتعود إلى مرقدتها...

وفجأة صعدت ماريوري زفرة عميقة، وفتحت عينها، فرأت مانولي.

وقالت له:

- طاب يومك يا مانولي. هل أرسلك إليّ؟

- نعم يا ماريوري، أرسلني إليك ميشيل.

- هل حملك رسالة لي؟

- نعم يا ماريوري، لك تحياته.

- هل هذه كل رسالته؟

- نعم هذه هي.

وابتسمت ماريوري في مرارة. وقالت:

- ماذا أنتظر غير هذا الآن؟ لا شيء غير كلمة تحية، حسبي ذلك.

وأدارت وجهها بعيداً لتخفي عبراتها. ثم تمالكت نفسها وأمسكت دمعها،

واستدارت إلى مانولي وقالت له:

- مانولي، عندي رسالة له أيضاً.

وتحسست بيديها تحت الوسادة حتى عثرت على المقص.

- ساعدني على الجلوس.

ورفعها مانولي بين ذراعيه، ووضع الوسادة خلفها وأسندها إليها في حرص شديد.

وخلعت ماريوري عصابة رأسها، وحلت الشريط الحريري الأسود الذي يربط ضفائرها الكستنائية. أمسكت بالمقص وحاولت أن تقص ضفيريها، ولكن خانتها قواها، فلم تستطع.

وقالت:

- لا أستطيع يا مانولي، خارت قواي، أعني أنت على ذلك.

وقال مانولي جزعاً:

- هل تريدان أن تقصيهما؟

فقالت بصوت واهن:

- قصهما أنت.

وأمسك مانولي بين يديه المرتجفتين بصفيرتي الفتاة الصغيرة الدافئتين.

وعاودت ماريوري طلبها:

- قصهما أنت.

قص مانولي إحداهما، وأتبعها بالثانية. كان يرتعد كأنه يقص لحماً حياً. أمسكت ماريوري بالصفيرتين الطويلتين، وتأملتهما طويلاً. كانتا ملء راحتيهما. وهزت رأسها العاري الذي سلبته شعرها. وفجأة انخرطت في بكاء ونحيب. ومالت عليهما وكفكت دمعها بهما، ثم لفتهما في منديلها كأنها تكفن جثة طفل حبيب وعقدت المنديل وناولته إلى مانولي.

وقالت:

- خذهما واعطهما له وقل له: «ماريوري تبلغك تحياتها» هذا كل ما أريد.

أَمَّا الْجَسَرْ....

«كل شيء على ما يرام، كل شيء على ما يرام...» هكذا كان القسيس فوتيس يحدث نفسه وهو في طريق عودته من رحلته يخوض في الأحوال. «حمدًا لله إن الأمور تسير على خير وجه».

ويمشي وراءه مانولي، محني الظهر، منكس الرأس تحت ثقل الضفيرتين في زكيبته، كأنه يحمل على كاهله جثة امرأة ميتة.

تلبدت السماء بالغيوم، ودوى قصف الرعد، وبدأ المطر بهطل مدرارًا.

وما زال القسيس فوتيس يردد بينه وبين نفسه، وهو يحث الخطى:

- كل شيء يسير على ما يرام، وليس في الإمكان أبدع مما كان.

كانت تلك كلماته التي يرددوها ولا شيء سواها. وواصل سيره حثيثًا حتى كأنه يعدو، والمطر يلطم صفحة وجهه. وحوم فوقه سرب من طيور الكركي، فلم يرفع عينه لينظر إليه. ثم بدأ يعدو بالفعل.

ومع الغسق طالعتهما قمة جبل ساراكيئا الوعرة. والتفت إلى مانولي، وقال له بنبرة تفيض عزمًا وإصرارًا:

- سنناضل يا مانولي، الناس جميعًا في جانب - أساقفة وقسيسين وأعيانًا، وكلهم أناس أعمى الله بصيرتهم، وفي الجانب الآخر، نحن وحدنا، حفنة من الحفاة يسير المسيح في طليعتهم. تشجع يا مانولي فالنصر لنا.

وضاقت خطواته، وهو يخوض في الوحل، وضحك عاليًا:

- يسألني لماذا لم أنتعل حذاء، أراهن بأن قيافا وجهه نفس السؤال إلى المسيح.

قضى ميشيل هذين اليومين كروح هائمة معذبة. بات يفزع من النوم، إذ لا يكاد يغفو حتى يطالعه أبوه، عاريًا تمامًا، يحدجه بنظرة كلها تأنيب. وطفق يقول لنفسه في جزع: «لو بقيت على هذه الحال أيامًا قلائل فسوف أفقد عقلي تمامًا». ولاذ بإنجيله الكبير، أملًا أن تجنبه القراءة هذه الرؤيا المفزعة، لكن الحروف تراقصت أمام عينيه ولم يستطع أن يمسك بها. وأغلق الكتاب، وعاد يذرع الكهف بخطواته من طرفه إلى نهايته.

وفي ذلك اليوم زاره ناظر المدرسة مع غيش الليل. زعم له بأنه جاء لينعم بصحبته. بدأ حديثه إليه عن أبيه وخطيبته والشتاء المقبل، وشعب ساراكيئا التعس، وأبدى دهشته كيف سيتحمل هؤلاء قسوة الشتاء. ثم تطرق إلى موضوعات أكثر خطورة- عن الحياة والموت، وواجب الإنسان... وأجابه ميشيل عن كل هذا، ضجرًا، شارد القلب، قلقًا أن يعود إلى خلوته من جديد. وثبت ناظر المدرسة عينيه على عيني ميشيل. وسرعان ما أدرك ميشيل حقيقة مهمته وهب نائرًا مغيظًا. وقال له:

- يا حضرة الناظر، هل جئت لتحقيق إن كنت مجنونًا أم لا؟

فقال ناظر المدرسة محتجًا وقد احمر وجهه:

- ماذا تعني يا عزيزي ميشيل؟

- أعرف أنك رجل فاضل ذو ضمير يقظ. أتيت الليلة لتتأكد بنفسك إن كان أخوك القسيس كذابًا أشرا أم لا؟ ترى ما هي النتيجة التي وصلت إليها بنفسك يا حاجي نيكولا، أيها الرجل الصادق الأمين؟

لزم ناظر المدرسة الصمت ولم يتكلم.

ونظر ميشيل إلى ناظر المدرسة في إشفاق وتمتم:

- صادق أمين، ولكن روحك جبانة... رغم ما تتحلى به من صدق وأمانة لا تجرؤ على الإجابة يا صاحب الروح الخائفة.

وقال ناظر المدرسة بصوت خفيض:

- لا، لا، لا أجرؤ...

- ترى لو سئلت هل تقول الحقيقة؟

- نعم أعتقد هذا، ولكن من المؤكد أنهم لن يسألوني عن شيء.
- وإذا لم يسألك أحد، هل لن تبادر وتقف لتعلن الحقيقة على الملأ؟
- وسعل ناظر المدرسة دون أن يجيب.
- وفي النهاية استولى عليه الخجل وهو يقول:
- لا.
- وأحس ميشيل بالأسى من أجله، وإن لم يزيله الغضب. وصرخ فيه:
- هل هذا هو ما تعلمه للأطفال؟ هل لم يجدوا غيرك ليربي الجيل الجديد؟
- ونفض ناظر المدرسة وبدا عليه الإعياء التام.
- وقال:
- الروح متأهبة، أما الجسد...
- إن كانت الروح متأهبة، فماذا يهم الجسد؟... إنها تفعل به ما تشاء.
- وأحس ميشيل في أعماقه بأنه ينال من ناظر المدرسة لا شيء إلا لأنه على شاكلته.
- كان يتحدث إليه بهذه القسوة وكأنه ينكل بروحه ويعيرها.
- وواصل ميشيل حديثه:
- لماذا كان اللثام ذوي بأس وقوة في هذه الدنيا؟ ولماذا كان الأخيار ضعافاً؟
- هل لك أن تفسر لي ذلك أيها الحكيم؟
- لا، لست أدري.
- ثم أردف قائلاً بعد لحظة:
- أخجلتني يا ميشيل بكلامك ولك كل الحق في ذلك. ولكن أخي القسيس أقوى مني. وكان دائماً هو الأقوى. اعتاد أن يضربني وقتما كنا صغاراً. وما زلت حتى الآن أشعر أنني عاجزاً عن أن أطاوله.. لو لم يكن موجوداً فربما...
- وتردد ميشيل لحظة ثم قال له دون اكتراث:
- اسمع، ألم تحدثك نفسك في يوم من الأيام يا حاجي نيكولا أن ترتكب جرماً معه - أن تقتله؟
- وقفز ناظر المدرسة فرعاً. وقال هامساً:
- أحياناً... نعم أحياناً. ولكن نادراً، وفي الأحلام فقط...

ولم يكد يلفظ بهذه الكلمات حتى أحس بندم مر لما بدر منه. وضاق لأنه كشف عن سره الخفي. واتجه ناحية فتحة الكهف: ما زال المطر يتساقط، والظلام حالك السواد.

وقال:

- سأنصرف. طبت مساء.

وقال ميشيل بنبرة ساخرة:

- الظلام دامس يا حضرة الناظر، ولن يراك أحد وأنت عائد من ساراينا لتقدم تقريرك إلى أخيك القسيس. صحتك السلامة.

عندما وصل ناظر المدرسة إلى السفح لمح رجلين يصعدان الجبل، وسرعان ما لاذ بصخرة يختفي وراءها. وبعد أن ابتعدا عنه واصل طريقه من جديد عائداً، يترنح في مشيته.

وأحس بالسخط على نفسه وقال:

- ميشيل على صواب. نعم، نعم، أخي كذاب أشر، وأنا امع... صادق أمين حقاً ولكنني جبان. سأستجمع شجاعتي، سأتوجه إلى القسيس لتوي هذا المساء. سأصرخ بالحقيقة في وجهه وليعيني الرب على ذلك.

وقف ميشيل أمام الكهف قلقاً تائهاً، ينتظر عودة القسيس فوتيس ومانولي. ولم يكد يلمحهما حتى تثبت فؤاده. لم يعد وحده، فقد عاد السلام، واختفى الرجل الميت.

- مرحباً بكما. الوحدة قاسية ثقيلة.

وقال القسيس فوتيس:

- وكذلك كانت رحلتنا، قاسية ثقيلة. ولكن كان الله معنا، ومنحنا أجنحة أعاننا بها على مشاق الرحلة.

وقص عليه بكلمات موجزة مقابلته مع الأسقف والحديث الذي دار بينهما.

وتوجس ميشيل خيفة وقال:

- هي الحرب إذن!

وقال له القسيس فوتيس مؤكداً:

- نعم إنها الحرب، وهي حرب مقدسة. في أول الأمر كانت حرباً ضد الأتراك وأغواتهم، والآن مع بني جلدتنا، الأغنياء والأعيان. وهم أكثر ضراوة وشرًا. ولكن المسيح، الفقير الحافي القدمين، معنا.

والتفت إلى مانولي:

- صدقني يا مانولي لم يكن المسيح دائماً وأبداً على تلك الصورة التي نحتها له يوماً فوق الخشب: رقيقاً، وديعاً مسالماً، يدير خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن. بل كان محارباً صلباً عنيداً يسير في المقدمة ومن ورائه كل المعدمين على ظهر الأرض. «لم آت لألقي سلاماً على الأرض، بل سيفاً». كلمات من هذه؟ كلمات المسيح. ومن الآن فصاعداً سيكون هكذا وجه ربنا يسوع المسيح يا مانولي.

وصمت برهة ثم عاود حديثه:

- إني سعيد يا أولادي. سعيد أن لنا مثل هذا القائد. من الخير أن تكون حملاً وديعاً، ولكن إذا ما أحدثت بك الذئاب فخير لك أن تكون أسداً هصوراً. وسمعوا نداء عند باب الكهف، ولمحوا وجهاً ويدين ممدودتين.

وصاح ميشيل منزعجاً:

- من هناك؟

وصاح صوت في عتمة الليل وتحت وابل المطر، كان صوت ياناكوس، مفعماً بالحزن والغضب:

- إنه أنا يا إخوتي.. هجرت القرية القذرة، وأتيت لألوذ بجبلكم.

وبسط الثلاثة أذرعهم مرحبين. وقالوا معاً:

- مرحباً بك يا ياناكوس.

وسأله مانولي:

- ماذا دهاك يا ياناكوس؟ ما الذي أتى بك في مثل هذه الساعة، تحت هذا

السيل المنهمر؟

أمسك ياناكوس بيد القسيس فوتيس وقبلها في رقة وحنان.

- استمعت إلى كلماتك الأخيرة يا أبانا، وأنا أقرك عليها. خير للمرء أن يكون حملاً ولكن إذا أهدقت به الذئب فخير له أن يكون أسداً هصوراً.

وعصر شعره الذي بلله المطر، ووضع صرة ملابسه على الأرض وجلس فوقها. وران صمت عميق.

وأخيراً تكلم ياناكوس:

- أتاني الليلة بانايوتي، حارس الأغا الجديد، يحمل ورقة عليها خاتم الأغا، يعلنني فيها أنه أخذ حماري مقابل دين استدنته من الخنزير لاداس...

وغلبته عبرته، ولكنه سرعان ما تماسك وتجلد، وشب واقفاً على قدميه وصاح:

- سأذهب ذات ليلة إلى بيت هذا الملعون وأشعل فيه النار. نعم وبحق المسيح سأشعل في بيته النار.

وقال القسيس:

- لا، لست وحدك. صبراً يا ياناكوس. سننزل إلى هناك سوياً.

وتساءل ياناكوس في قلق:

- ألم تحن الساعة؟

- اقتربت الساعة، وموعدنا معهم ليس ببعيد. ولهذا السبب أقترح أن يتعلم النساء والأطفال، ابتداء من الغد، كيف يستخدمون المقلاع. يجب أن نستعد.

ثم اتجه ناحية فتحة الكهف وقال:

- حسبنا هذا الليلة يا أبناي. تجرعنا اليوم كل أنواع السموم على يد الناس، وحسبنا هذا. حان وقت النوم. دعوا النوم يشفي جراحنا حتى نستعد للغد ولكل غد يأتي من بعده.. تعال يا ياناكوس شاركني صومعتي البائسة، إني سعيد برؤياك بيننا.

ورفع ياناكوس صرته، واقتفى أثر القسيس.

وأصبح الصديقان وحدهما. والتفت ميشيل إلى مانولي وأمسك بيده. وسأله بصوت خفيض:

- ماذا؟

أخرج مانولي مندبل الفتاة من جرابه.

- مع تحيات ماريوري.

أمسك ميشيل بالمندبل، وحملق بعينه في الهدية الحزينة، وتحسسها بيد مرتعشة، وفهم كل شيء. فك الضفيرتين الطويلتين، ودفن وجهه يهما، وانخرط في بكاء شديد، وانهاال عليهما بقبلاته.

ولبث كذلك فترة طويلة، ثم رفع رأسه وسأل:

- هل حضرها الموت؟

ولم يجب مانولي.

بينما كان الرفيقان يتجاذبان أطراف الحديث على هذا النحو فوق جبل ساراكيئا، كان ناظر المدرسة يحمل قلبه بين راحتيه وهو في طريقه لمقابلة القسيس جريجوريس. أخجلته كلمات ميشيل، وبثت فيه الحماس وها هو لأول مرة في حياته يقرر أن يقاوم أخاه.

ألفى القسيس جالساً إلى مائدته، فرغ من تناول عشائه، وكان العشاء وفيراً، والطهي طيباً، والنبذ رائعاً. وأشعل سيجارة وبدأ يدخنها في متعة وتلذذ. ثمة ورطة سيقع فيها بعد ثلاثة أيام. بعث إليه الأغا برسالة يوم الثلاثاء أبلغه فيها أنه صدق وعده- طرد أهل ساراكيئا، ووضع أختام الشمع على بيت بطرياركاس، وجاء دوره ليبر هو الآخر بوعده، ويلبي طلب براهيمكي. قضى القسيس ثلاثة أيام معذباً، يفكر ليل نهار عله يهتدي إلى فتاة صغيرة يقدمها للأغا دون أن تحدث فضيحة، ولكن بلا جدوى. وأخيراً اهتدى إليها في هذه الليلة ذاتها وهو يدخن سيجارته. وهذا بالاً.

وتمتم وهو يملأ كأس النبذ:

- الحل بين يدي. إنه إلهام من لدن الله. قسماً بديني أن الفتاة ستكون خير من يقوم بهذا الدور، وهي تتحرق شوقاً لذلك، ولن يتحدث عنها أحد بكلمة، كما سيسر بها الأغا، ونضمنه إلى جانبنا. الحمد لله.
وفي هذه اللحظة دخل عليه ناظر المدرسة:

- فقال القسيس دون أن يكلف نفسه عناء الوقوف:
- طب مساء يا نيكولا. من أين أتيت؟ الوحل يغطيكَ تمامًا.
- وأجاب ناظر المدرسة في حماس:
- من ساراكيينا.
- وتململ القسيس فوق كرسيه.
- ماذا كنت تبغي من عش الزنابير اللعين هذا؟ ألا تعرف أن ساراكيينا وليكوفريسي بينهما حرب، كل منهما تشهر سلاحها ضد الأخرى؟
- وقال حاجي نيكولا لنفسه:
- تشجع يا حضرة الناظر، ها هي اللحظة الحاسمة. فاثبت أنك أهل بأن تكون سليل الإسكندر الأكبر.
- وأنس في نفسه المخاطرة وهو يقول:
- ذهبت لأرى ميشيل. أردت أن أثبت بنفسي إن كان مجنونًا حقًا أم لا.
- وجأ القسيس:
- آه، أردت أن تثبت بنفسك، ثم ماذا؟
- تحدثت إليه ساعة بأكملها في شتى الموضوعات، كبيرها وصغيرها..
- حسنًا، ثم ماذا؟
- عاقل تمامًا مثلي ومثلك.
- وهب القسيس لسماعه هذه الكلمات، وصاح:
- ابق فيما يعينك فقط يا حضرة الناظر، لا تتدخل في شئون الآخرين. هل طلبت منك الذهاب إلى هناك؟ أي شيء أجبرك على ذلك؟
- وتمتم ناظر المدرسة:
- أحسست بثقل يثقل ضميري.. كنت أشك أن الأمر ليس صحيحًا.
- حسنًا، أنا لا أقبل هذا قط. هل هو أنت الذي تعلمني ما هو صواب، أنت أيها الأبله؟ ميشيل مجنون، هذا هو الصحيح.
- وجازف ناظر المدرسة بالرد:
- ولكنه ليس كذلك.

- قلت لك إنه مجنون. أنت لا ترى أبعد من أنفك. لا تستطيع أن تتجاوز الأفراد، أما أنا فلا أعبأ بالأفراد، إنما أعبأ بالمجموع.. فأنا قائد هذا الشعب، أنا. هل فهمت أيها الأبله؟

ولم يحر ناظر المدرسة جواباً.
وأردف القسيس قائلاً:

- إذا ما وقع ظلم على شخص، وكان هذا الظلم لصالح المجموع، فهو العدل بعينه. ولكن عقلك قاصر عن فهم الأمور على هذا النحو.
واستوى واقفاً، ويداه إلى خصره، أمام ناظر المدرسة الذي كان يستمع إليه مطأطئ الرأس.

- لو سئلت، فهكذا يجب أن تكون إجابتك. وإذا لم تستطع فالزم الصمت.
ونهض ناظر المدرسة وهو يقول:

- سألزم الصمت. أما في أعماقي...

وانفجر القسيس ضاحكاً في تهكم وسخرية:

- ليكن في أعماقك ما يكون، فأنا لا أعبأ بذلك في قليل أو كثير. لك مطلق الحرية بأعماقك هذه. ولكن حين يمتد الأمر خارج نفسك فيجب عليك أن تفكر مرتين وتدبر أمرك.

ثم تابع حديثه بصوت لا يخلو من رقة:

- أنت أخي الأصغر، نحن أخوان يا حاجي نيكولا، ويجب أن نظهر أمام الناس رأياً واحداً... وهو رأيي أنا. هل تسمعني؟

أحس ناظر المدرسة برغبة في الصراخ «إلى متى؟ فأنا مثلك، لي روح ولي رأي. لست على وفاق معك، ولا يمكن أن أرضى بالظلم، سأذهب إلى ميدان القرية وأصرخ بأعلى صوتي وأعلن الحقيقة على الملأ». ولكنه احتفظ برأيه لنفسه، واتخذ طريقه إلى الباب قانعاً بقوله:

- طبت مساء.

أفرغ القسيس كأسه دفعة واحدة، وغمغم في تأفف:

- يا لبذاءته. أنا لا يمكن أن أقبل ذلك منه. يقول رأيي الخاص، يا للوقاحة.

وطوى منشفته، ورسم الصليب، وحمد الله أن أنعم على الناس بالطعام
والشراب في سخاء ووفرة، ثم آوى إلى فراشه لينام وهو يقول لنفسه:
- غداً مع مطلع الفجر سأبعث في طلب مارثا.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي وصلت مارثا الحذباء تسب وتلعن:
- ترى ماذا يريد مني صاحب لحية التيس حتى يرسل في طلبي مع مطلع
الفجر، وهي الساعة التي يستيقظ فيها ابن الزنا ليصبح بي أريد هذا، أريد ذاك،
دون أن يعرف ماذا يريد. كأني أمٌ لطفل رضيع... افتحي عينيك يا مارثا، لا تنسي
يا منكودة الحظ أن الشيطان يختفي وراء كل كلمة ينطق بها هذا القسيس العجوز،
فحذار أن تقعي في الشرك.

ودخلت مارثا. وكان القسيس متربّعاً فوق الحشية يرتشف القهوة. ما زال
جفناه منتفخين من أثر النعاس.

وانحنى مارثا حتى كادت جبهتها تمس الأرض، وقبلت يد القسيس، ثم
تراجعت إلى زاوية من الحجرة وانتظرت وذراعاها معقودتان إلى صدرها.
وأخذ القسيس يقلب في رأسه الكلام الذي يريد أن يقوله لها، دون أن يعرف
كيف يبدأ معها الحديث.
وأخيراً قال:

- عزيزتي مارثا، ستدخلين الفردوس يوماً ممشوقة القدم مثل غصن البان. ذلك
لأنك رغم السنوات الطوال التي قضيتها في خدمة الأتراك، لم تنس المسيحية.
وعندما تنزل بالمسيحيين نازلة لا نلوذ إلا بك. ولهذا دعوتك اليوم يا عزيزتي مارثا
الطيبة.

وحدثت الحذباء نفسها:

- ها هو ذا القسيس الشيطان ينصب شباكه. يضع الجبن في المصيدة ويفتح
لي بابها... افتحي عينيك يا بائسة ولا تدخلي.
وقالت:

- كلماتك يا أبانا هي كلمات الرب، وأنا طوع بنانك.

- تعرفين أن إبراهيمي يطلب امرأة. وأبدى رغبة في أن ترقص بنات القرية أمامه حتى ينتقي من بينهم من تروقه، هذا الكلب. وإنه لعار كبير. والموت خير لنا منه. أليس كذلك يا مارثا؟

وأمنت الحذباء العجوز على كلامه وقالت:

- الموت خير منه دون ريب.

وواصل القسيس كلامه:

- وفي نفس الوقت يجب ألا ندخل في نزاع مع الأغا، فمن الخير لصالح المجتمع، أن نكسبه إلى صفنا. وأعلن الأغا صراحة: «إذا لم تأت بامرأة لبراهيمي سأعلن الحرب على مجتمعكم. هل تفهميني يا مارثا؟ سنهلك. إذن ما العمل؟ هل نأت بامرأة لبراهيمي أم نعرض المجتمع للهلاك؟ ماذا ترين يا مارثا؟ وأجابت المرأة العجوز وهي على ثقة من أنها تردد رأي القسيس:

- بل ليهلك المجتمع.

- ماذا تقولين يا مارثا؟ وقانا الله كل شر. أيهلك المجتمع؟ هل نعرض المسيحية للهلاك؟ رحماك يا إلهي. لا، لا يا عزيزتي مارثا. تعالي تدبر الأمر.

وردت مارثا على الفور:

- تدبرت أمري، والرأي عندي أن نبحث له عن امرأة.

- حسناً، لا فض فوك. أنت الآن عند حسن ظني بك يا طفلي. هل تعرفين صفات المرأة التي يطلبها؟ بضمة مكتنزة، بيضاء كالخبز، حية...
- بضمة، مكتنزة، بيضاء كالخبز، حية... إيه، ماذا تنتظر مني أن أقول يا أبانا؟ لا أعرف امرأة اجتمعت لها كل هذه الصفات.

- تفكري قليلاً يا ابنتي، إن كنت تبغين إسداء خدمة لي...

- ماذا أقول يا أبانا؟ طفت بذهني على كل بنات القرية، فيهن البضة الحية ولكنها ليست بيضاء... وغيرها بيضاء حية ولكنها ليست بضة...

- هل تعرفين فيمن فكرت أنا؟ بيلافيا، كبرى بنات بانايوتي. أقول لك لماذا اخترتها هي...

- ولكنها ليست بيضاء يا أبانا. ولك أن تعلم أنهم ينادونها بالسمرء، وأحياناً

بالسوداء...

- هذا لا يهم يا عزيزتي مارثا. فهذا عيب يمكن إصلاحه. سأعطيك صندوق بوردرة تدعك بها وجهها صباح مساء وتصبح بعدها بيضاء كالخبز.
- في هذه الحالة يا أبانا سيكون الأمر هيناً.
- ولكنها... هل تعتقدين أنها تقبل ذلك؟
- هي؟ إنها فتاة شبة يا أبانا. إنها براهيمياكي الأنثى. براهيمياكي رجل يكشف صراحة عن نزواته، أما بيلافيا فامرأة تواري نزواتها... لست أدري ما الذي يحدث وقتما يجمعهما الفراش. سينقض المنزل من تحتها فوق رأسي.
- وضحكت الحدباء العجوز وهي تمسح أنفها المنساب بطرف كمها.
- وقال القسيس بجد وصراحة:

- ليكن هذا. لا تقفزي إلى النتائج السيئة. يحسن بنا نحن الاثنين أن نتدبر خير السبل لتحقيق هذا. بانايوتي يعمل الآن حارساً خاصاً للأغا. ومن ثم لن يدهش أحد لذهاب بيلافيا إلى بيت الأغا تحت ستار زيارة أبيها. وتستطيعين أن تدبري الأمر يا مارثا، فأنت خبيرة بهذه الأعمال. وعندما تذهب إلى هناك سيراهما براهيمياكي. ولكن لا بد وأن تعطيهما البوردرة قبل ذهابها.

وقام وفتح خزانة صغيرة وأخرج منها صندوق البوردرة، ووضعه في يد مارثا، وقال:

- خذي. قللي لها يمكنها أن تخلطها بقليل من الدقيق حتى تقتصد.
- هزت العجوز رأسها. وعرفت الطريق الذي يدفعها القسيس إليه، وترددت.
- وتروت في أمرها، ثم ردت عليه أخيراً:
- كل هذا حسن يا أبانا، ولكننا نسينا شيئاً واحداً، وهو الأهم...
- ماذا يا مارثا؟
- نفترض أن بانايوتي اكتشف الأمر، فإنه سيقتلني أنا ثم يقتل براهيمياكي وبعده قد استكم، وأخيراً سيشتعل النار في القرية كلها... خير لك أن تفكر في ذلك.
- وهرش القسيس رأسه، وقال:
- أنت على حق، قد يقتلني أنا أيضاً... ولكن إذا لم يكن ثمة بد من هذا، فماذا

عسانا أن نفعل؟ آه، عندي فكرة، سأطلب من الأغا أن يرسل بانايوتي في جولة بعيدة.
- وإذا حملت منه؟

- من؟

من تظن يا أبانا؟ بيلافيا طبعًا...

وصاح القسيس في ضيق:

- قد يحدث هذا؛ لا تتوقعين غير الشرور أيتها المرأة القذرة. لال لن تحمل منه.

- كيف عرفت هذا؟

ولم يدر القسيس بماذا يجيب فقال:

- الله أكبر.

وقالت الحدياء:

- إيه... هل تظن يا أبانا أن الرب الرحيم يشغل نفسه بهذه الأفعال القذرة؟

- إن كان الأمر كذلك فعليك أن تنهي هذه المسألة مع مانداينيا. فهي تعرف

أعشابًا...

وتمتت الحدياء بطرف فمها:

- أعوذ بالله من الشيطان... ترى هل هذا القسيس المبارك يمثل الرب أم

الشيطان؟

- فيما تفكرين يا طفلي؟

- أنت ممثل الرب يا أبانا، هذا كل ما أود أن أقوله. فافعل ما تراه خيرًا.

- إنني أناضل من أجل خير المسيحية يا أم مارثا، والله أعلم بذلك، وهو ولي

التوفيق.. وسوف يعيننا ويوفقنا... تعالي، تشجعي يا طفلي فألامك لن تضيع هباء

دون جزاء...

وفتحت العجوز عينيها الواسعتين وقالت في سريرتها: «هكذا كان يجب أن

تبدأ أولاً أيها التيس العجوز»...

وختمت كلامها بقولها:

- عظيم جدًا، قد يكلفني هذا حياتي، ولكنني سأبذل قصارى جهدي. ومن

جانبكم أمل أن تبذلوا قداستكم قصارى جهدكم. أنا امرأة فقيرة مسكينة وحيدة...

- لا عليك يا أم، فلن نخسري حياتك بسبب ذلك... اذهبي الآن فوراً، وأتمنى لك حظاً موفقاً. وسوف نتحدث سوياً مرة أخرى. وأنا معك وثقي من ذلك.
- وانحنى المرأة العجوز على يد القسيس وقبلتها. وقالت:
- بركاتك يا أبانا. أنا أفهم ما تريد، وأنت تفهم ما أريد. سأذهب مهما كلفني ذلك وأزور بيلافيا. ستطير فرحاً، هذه العاهرة.
- كان الله معك. أسرعى واثنتي بأخبار سارة.
- وربت على كتفها ثم حديثها في حذر. وقال:
- نخدمك في فرحك يا مارثا. سأنبش الأرض بحثاً عن فتى طيب لك- ولكن لعلاقة طيبة بريئة تنتهي بالزواج، حتى تفلتين من بين أيدي الأتراك... أسرعى.
- وقالت المرأة بانفعال شديد:
- حاول جهدك يا أبانا، وكن رحيماً بي فإنني وحيدة في هذا العالم. إنها خير مكرمة يا أبانا، سيجزيك الله عنها خير الجزاء.
- ثم خرجت وهي تجفف أنفها الذي بدأ ينساب من جديد.
- ولم تكد تغلق الباب حتى تمتم القسيس:
- يا لها من عجوز سفيهة. صدقت ما أقول. ما أغرب المرأة، اللهم احفظنا.
- وانتظر يوماً ويومين قلقاً متوتر الأعصاب. وفي اليوم الثالث انفتح الباب، ودخل بانايوتي وعلى رأسه طربوشه الأحمر الجديد. وفزع القسيس. استوى واقفاً وقال:
- ماذا حدث يا بانايوتي؟
- أرسلني إليك الأغا، يا أبانا.
- أي رسالة حملتها لتبلغني بها.
- شيء يحيرني لا أفهمه. يبلغك تحياته، ويقول لك أصبح براهيمكي هادئاً وديعاً أكثر من الحمل.

الزئاب تبحت عن فريستها

أقبل الشتاء فجأة. وتجهم وجه الطبيعة. وانهمر المطر مدرارًا. وهبت ريح ثلجية من الجبال، وشحبت أوراق الشجر ثم افترشت الأرض وكدستها العواصف الهوج أكوامًا، ثم أصابها البلى وتحللت وعادت إلى الأرض التي منها بدأت. واستحمت البذور في ماء الحقول، وانتفخت وامتلأت عصارة، وتهأت لتشق الأرض وتتفتق براعمها مع الربيع. وكمنت السحالي في جحورها، واعتزل النحل في خلاياه، وتعلقت الخفافيش عناقيد بالسقوف. وتراجع كل الوجود في ترقب وانتظار.

وعاد أهل ليكوفريسي إلى بيوتهم مبكرين، لينعموا بالدفء أمام المدفئة. وأخرجوا من خزائن مؤنهم قمحًا وزيتًا ونبيدًا، من حصاد عامهم إبان الصيف، ليأكلوا منه ويشربوا بوفرة وسخاء طوال فصل الشتاء. وجادت مصابيح الزيت بضوئها على النساء اللائي جلسن حولها يغزلن وينقن القمح، ويزجين الوقت بسماع أساطير قديمة أو أقاصيص خليعة.

وساق نيكوليو أغنامه إلى الحظيرة، ثم جلس إلى المدفأة، مسندًا ركبته إلى ركبة لينيو. غزلت لفافات عديدة من الصوف، وهي الآن منهمكة في نسج ملابس وقلانس للطفل المرتقب. كبرت بطنها وتكور ومضى نيكوليو ينظر إليها كما ينظر الفلاح إلى أرضه الخصبة، أجاد حرثها وبذرها و ينتظر الغيث. وقالت لينيو:

- سنسميه جورج، اقتداء باسم جده الشيخ بطريار كاس.
- وقال نيكوليو معترضاً:
- لا، بل نسّميه هاريديموس اقتداء باسم أبي.
- لا، قلت لك نسّميه جورج.
- الكلمة للزوج دائماً، سنسميه هاريديموس.
- وتخاصما في دلال ومزاح حول هذا الموضوع، وتشابكا وتدحرجا فوق السرير قرب النار، وتعانقا عناقاً حاراً يشفي ظمأ قلوبهما، وأصلح بينهما.
- واعتاد القسيس جريجوريس أن يمتطي بغلته كلما صحا الجو، ويذهب إلى المدينة لزيارة ماريوري. وفي كل مرة يعود أكثر صمتاً ويأساً عن ذي قبل. أظلم وجهه، وقسا قلبه فبات كالحجارة أو أشد قسوة. وذات مرة التقى عند عودته ببيلافيا، تخوض بقدميها العاريتين في الوحل، ووجنتها الممتلئتان متوردتان كزهرة الربيع. وصاح في ثورة على الرب:
- لماذا يا إلهي تقسو عليّ هكذا؟ ماريوري تذبل وتذوي كشمعة تحترق، وتمنح بنات السوء وجنات متوردة.
- وجلس براهيمكي هو الآخر أمام المدفأة يستدفئ بنارها. أصبح أكثر نحولاً وطواعية، يشعل للأغا غليونيه ويملاً كأسه بالعربي، صموتاً لا يتكلم... والأغا يرمقه بطرف عينه، ويتسم في خبث.
- ما رأيك في الحياة هنا يا براهيمكي؟ هل تريد العودة إلى سмирنا؟
- أنا راضي بالحياة في ليكوفريسي. لن أترشح من هنا.
- روضتك المرأة أيها الشيطان التعس. نصحتك حين قلت لك حذار من النساء. ولكنك ألححت في القول - وبئس ما قلت - «أريد امرأة، أريدها فوراً».
- انظر إلى الحال التي صرت إليها الآن. أنت تستحق كل هذا.
- والشيخ لاداس الذي ملأ البخل قلبه بالقسوة، يخرج مع مطلع الشمس ليتجول حافي القدمين وسط حقوله وتتقدمه رفيقة حياته فوق حمار ياناكوس.
- يقول لها:
- ها أنت ترين يا عزيزتي بنيلوب أن الله عادل لا يظلم أحداً. إنه مثلي محب

للخير، يقرض النقود، وهو عليم خبير بشئونه. لم نخسر الجنيهاث الثلاثة كما كنت تخشين. أصبح لنا حمارنا، ويمكنك الآن أن تتألمي العالم من عليك... آه، كنت على صواب حين قلت لك: «لو قدر لي أن أعيش مائتي عام أخرى لجعلت منك ملكة».

وتجمع أهل القرية في مقهى قسطندي، يشربون السحلب، ويدخنون النارجيلة، ويلعبون الطاولة ويلعب الصغار لعبة البجامون. وعقب جو المقهى برائحة التبغ والسحلب. واعتاد ناظر المدرسة أن يأتيهم مساء كل سبت، فيلتفون حوله، ويقص عليهم ملاحم الأجداد. وتلتهب مشاعره رويداً رويداً، فيهب واقفاً يلوح بذراعيه، وتعلو عقيرته. ويصف أحياناً النارجيلات في جانب من القاعة، ومناضد لعبة البجامون في الجانب الآخر ويصيح:

- ها هنا الفرس على اليمين يتأهبون للمعركة، وها هم اليونانيون على اليسار... وأنا ميليتياديس. كم فارسي هناك؟ مليون. وكم عددنا نحن اليونانيين؟ عشرة آلاف. واحد مقابل مائة. انتبهوا، سيبدأ الهجوم.

ويلقي ناظر المدرسة بنفسه فوق الكراسي فيقلبها حتى يكاد يحطم النارجيلات. ويتدخل قسطندي أثناء المعركة لينقذ حاجياته. ويتصبب العرق من وجه ناظر المدرسة ويعلن على الملأ:

- هزموا شر هزيمة ألقينا بهم إلى البحر في الماراتون. تحيا اليونان.

وكان أهل القرية يضحكون ويسخرون كلما بدأ المشهد. ولكن الحماس يجرفهم رويداً رويداً. فلم يكن أحدهم يرضى بالوقوف على اليمين مع الفرس، بل يسرعون جميعاً ليقفوا وراء حاجي نيكولا، أو ميليتياديس. ويصيحون بعد الفوز «برافو ميليتياديس» ويطلبون السحلب للبطل المظفر.

وفي ذات يوم نزل ياناكوس من الجبل إلى القرية. كان الثلج يتساقط، والشوارع مقفرة. تفرس بعينه في المداخن التي يتصاعد منها الدخان، وشم رائحة الطعام تفوح من الأواني التي انهمكت ربات البيوت في إعدادها. واستطاع أن يتعرف على نوع كل طعام من رائحته - هنا بطاطس محمرة، وهناك سجق مشوي على

الفحم، وثمة فطير مدهون بالزبدة.. آه، لا يحرمون أنفسهم أبداً هؤلاء الخنازير، يتخمون كروشهم إلى آخرها. ليأخذهم الشيطان. وسار على بعد خطوات، وتصادت رائحة الخبز الساخن تدغدغ أنفه «خبز... خبز...» قالها وهو يتنهد، ولعابه يسيل على شفثيه.

حث الخطى، حتى بلغ بيت الشيخ لاداس. ودار حوله دورة واحدة، ثم أتبعها بأخرى، يستطلع الجدران، والنوافذ وموقع الحديقة خلف البيت. وتمتم: «الجدار هنا منخفض، حسن...» وتوقف مكانه فجأة، وخفق قلبه خفقات قوية حتى كاد يتصدع، ها هو ذا حبيبته يوسففاكي ينهق في الحديقة، يبدو أنه شم رائحة سيده.

مال ياناكوس بأذنه إلى الحائط يتسمع النهيق في شوق وقلق. لم يسمع في حياته صوتاً أعذب من هذا، ولم ينهق يوسففاكي أبداً نهيقاً حنوناً رقيقاً كعهده به اليوم. وتذكر أيام الصبا، كيف كان يقف تحت نافذة محبوبته يغنيها أغاني العشق والهيام - وهي زوجته الراحلة، ولكن ما يسمعه الآن جد مختلف، إنه يسمع صوتاً حنوناً يثير الشجون والأسى.

وفاضت عيناه بالدمع وهمس: «لا تجزع يا يوسففاكي، لا تجزع يا حبيبي، سأخلصك مما أنت فيه».

وعاد ياناكوس إلى الجبل تحت جناح الظلام، مقروراً جائعاً، وجال بين الكهوف حيث تجمعت النساء وقد ضمن أطفالهن إلى صدورهن ليدفئنهم... وقال لهن كلمة مواساة أثناء مروره بهن: «تشجعوا يا أحباي، عضوا على النواجذ. محنة وتزول». وهمهم الرجال دون أن يرفعوا عيونهم إليه، وهزت النساء رؤوسهن وتنهدن.

- ثقن بالله، يا سيداتي.

- حتى متى، يا ياناكوس؟

لم يدر ياناكوس بماذا يجيب، فتركهن وواصل المسير.

- ماذا يفعلون هناك في ليكوفريسي؟ ألم تكن هناك، يا ياناكوس؟

- يتصاعد الدخان من مداخنهم، ويملأون بطونهم، عليهم اللعنة. جمعوا

كرمنا، ويشربون نبيذنا. وحصدوا زيتونا واملأون بطونهم بزيتنا. ولكن الله بصير

بهم، غير غافل عما يفعلون.

- ومتى يحول عينيه لحظة ليبصرنا نحن أيضاً، يا ياناكوس؟

مرة أخرى واصل ياناكوس سيره، وانصرف عنهم دون أن يجيب.

وجلس ثلاثة رجال داخل كهف يثرثرون في الظلام وقد تكأوا على بعضهم التماساً للدفع. توسطهم لوكاس، هذا المارد الضخم حامل العلم.

وقال أحدهم:

- هل رأيت الأطفال؟ بدأت أجسادهم تنتفخ من أثر الجوع. إن طفلي لم تعد ساقاه تقويان على حمله.

وقال الثاني:

- أملنا في الله وحده حتى الآن، ولكن...

وقال لوكاس:

- إن الله يعين كل من يعين نفسه، إذا قبع في مكانك متواكلاً ولم تتحرك فلن يتحرك الرب كذلك. حانت الساعة التي نضع فيها أملنا بين أيدينا ونسعى. ليس علينا إلا أن نزل إلى القرية ونسلب منها كل ما تصل إليه أيدينا.. من هناك؟ ادخل.

- أنا ياناكوس يا رفاق.

- لك تحياتنا يا أخانا. تعال ودس نفسك بيننا لتستدفع.

وأجاب ياناكوس:

- إنني أعلي، بل أحترق، لا أشعر بالبرد. عدت لتوي من ليكوفريسي.

- متى سننجز ما اتفقنا عليه؟

- ربما يكون ذلك الليلة. هل توافقون، يا رفاق؟

وصاح الثلاثة في صوت واحد:

- نحن على استعداد. اضرب والحديد ساخن.

- وهو كذلك، موعدنا الليلة، وهو وقت مناسب. فالظلام دامس، والمطر ثلج

طام، والأغنياء سيقبعون في بيوتهم يدسون أنفسهم تحت أغطيتهم، وحيث إنهم متخمون فإنهم سيغرقون في سبات عميق. لن يصادفنا أي إنسان في طريقنا...

وعاودوا موافقتهم:

- نحن على استعداد. سننتظرك هنا، حتى تمر بنا لتأخذنا معك.
- حسن أعدوا الزجاجات والزكائب. وأنت يا لوكاس، هات المصباح
المعتم.

- كل شيء جاهز هنا يا ياناكوس. أسرع.
خرج ياناكوس قاصداً كهف مانولي. وبينما كان سائراً في طريقه أبصر ميشيل
ممسكاً بشيء بين ذراعيه، يتأمله بعينه على ضوء خشبة صغيرة مشتعلة.
اتجه إليه ياناكوس سيراً على أطراف أصابعه. تغير ميشيل خلال الأيام القليلة
الماضية. أصبح صموتاً لا يتكلم، غارقاً في تأملات عميقة، يهيم على وجهه
وحده، ينتقل من كهف إلى كهف، ينظر إلى الناس بعينه دون أن يتحدث إليهم
بكلمة واحدة.

مال ياناكوس على كتف ميشيل فرآه ممسكاً بطفل صغير لم يتجاوز عامه
الثالث، جلد على عظم، وبطن متورم، وأطراف نحيلة كالבوص، ونبتت في ذقنه
شعيرات طويلة.

وقال ياناكوس بصوت خفيض، حتى لا يزعج صاحبه:

- ميشيل... لا تنظر إليه.

واستدار ميشيل وتمتم:

- انظر يا ياناكوس، نبتت له لحية... لم يتجاوز عامه الثالث ونبتت له لحية من
أثر الجوع. وجدته ملقى على قارعة الطريق.

وكرر له ياناكوس ما قاله قبلاً:

- لا تنظر إليه.

وقال ميشيل من جديد:

- وجدته ملقى على قارعة الطريق. لم أعد أقوى على احتمال ذلك، لم أعد
أطبق يا ياناكوس. هل تستطيع أنت؟

أمسك ياناكوس بذراعه وقال له:

- تعال معي.

- انتظر... ألا ترى أنه يلفظ أنفاسه. حاول الطفل أن يصبح ولكنه لم يقو على

ذلك. ظل يفتح فمه ويغلقه كسمكة ألقي بها البحر فوق الشاطئ... وحرك يديه الصغيرتين، وفجأة تصلب جسده بين ذراعي ميشيل.

وقال ياناكوس:

- تعال، اتركه هنا، وغداً نحفر له قبرًا....

- لا أحتمل أكثر من هذا يا ياناكوس... هل تحتمل أنت؟

لم يجب ياناكوس، وإنما أمسك بذراع ميشيل بقوة، وجذبه معه.

وجدًا مانولي جالسًا في زاوية من الكهف مطرقًا.

وسأله ياناكوس:

- ما عندك من أخبار يا مانولي؟

- كل ما هو سيئ، يا ياناكوس. رفاقنا الذين يتجولون بين القرى عادوا إلينا بقدر ضئيل من الخبز لا يكفي أبدًا. أرسلنا بعض رجالنا إلى ليكوفريسي وردهم الأب لاداس، قال لهم: «الموت خير لكم». أما القسيس جريجوريس فقال: «سلوا قسيسكم فوتيس أن يأتيكم بمعجزة» وأرسل إلينا ديمتري الجزار بعض اللحم، وأفرغ قسطندي كل ما في مخزنه المتواضع من طعام. وكل هذا لا يكفي لنعطي كل طفل قسمة واحدة ملء الفم.

- أين القسيس فوتيس؟

- ها هو ذا أقبل.

دخل القسيس فوتيس وجلس دون أن ينبس بكلمة واحدة. عاد لتوه بعد أن دفن أخوين صغيرين ماتا جوعًا في وقت واحد، وتشبث كل منهما بذراع أخيه. أحضرهما أبوهما في دلو، وكفنهما ببعض العشب، إذ لم يجد خرقة يكفنهما بها. أخرجهما القسيس في حرص شديد خشية أن يفرق بينهما، ومددهما على الأرض، ثم تلا عليهما صلاة الموتى. وعلى بعد خطوات منه كان أبوهما يحفر لهما قبرًا صغيرًا.

ران صمت عميق. وكان القسيس أول المتكلمين:

- ويل لمن يزن الرب بميزان القلب، فإنه هالك لا محالة. فإن هذا يفضي به إلى الزيف، ويكفر بالرب وينكره...

وصمت ثانية، فزعا من الكلمات التي يوشك أن ينطق بها لسانه. ولكنه لم يستطع أن يتراجع. وهب واقفاً وهو يصيح:

- أي إله هذا الذي يترك الأطفال فريسة للموت؟

وقال ياناكوس:

- يا أبانا، أنا لا أزن الرب، وإنما أزن البشر. ووزنت أهل ليكوفريسي، وحكمت عليهم فأدنتهم. سأنزل إليهم الليلة لأسلبهم ما يمنعونه عنا.

وتفكر القسيس لحظة. وطافت بمخيلته صورة الجثتين الصغيرتين المتعانقتين.

وتتم:

- أبارككم. اذهبوا، وإني أحمل هذه الخطيئة على كاهلي.

وقال ياناكوس محتجاً:

- بل أحملها أنا يا أبانا، لا أتخلى عنها لك.

ونفض ثم قال:

- الرجال في انتظاري، سأنتقل إليهم.

- بارككم الرب. لن يمضي وقت طويل حتى ننزل جميعنا وفي وضح النهار.

وخرج ميشيل عن صمته لأول مرة وقال:

- إني ذاهب معكم.

- تعال يا ميشيل حتى يذهب عنك الوهن.

وأمسك بيده، وتحسسا طريقهما في عتمة الليل حالك السواد. وعاد المرح

إلى نفس ياناكوس.

- بداية طيبة يا ميشيل، سنزيل بها ما علانا من صداً. رضيئنا بالقعود عسى أن

تمطر السماء علينا من طيبات الطعام ما نأكله. ولكن السماء لا تمطر طعاماً، وإنما

نسعى نحن إليه ونأخذُه انتزاعاً. يجب ألا نركن إلى الله في كل شيء، إنه خير

حقاً، ولكن له مشاغله أيضاً. لا بد أن نتحرك نحن قليلاً، كن عوناً لنفسك تعينك

السماء. «أيها الذئب لماذا أراك غليظ العنق؟ لأنني أجذب بحثاً عن فريستي». حسن،

ونحن كذلك علينا أن نجد بحثاً عن فريستنا، الليلة.. هيا أيها الزملاء، لنبدأ».

لمحه رفاقه الذين جلسوا في انتظاره داخل الكهف حول نار خائية، فقفزوا من

فورهم.

وقال ياناكوس:

- إلى الأمام باسم المسيح. باركنا قسيسنا أيضًا. هيا بنا. لا تنتعلوا أحذيتكم الثقيلة وإنما صفوها طابورًا لتأتي وراءنا.

وانفجروا ضاحكين. فمن أين لهم تلك الأحذية؟ إن أقدامهم ملفوفة بخرق.

- هل أتيت معك بالمصباح المعتم يا لوكاس؟

- «لا عليك، ها هو ذا».

نظر إليه ياناكوس مبتسمًا، وقال:

- هدية الكابتن التعس فورتوناس. أظنه الآن يتطلع إليه من مشواه في جهنم ويغرق في الضحك.

سار ياناكوس ولوكاس في المقدمة وتبعهما رفيقاهما. وانطلق ميشيل وحده شارد الفكر.

قال لهم: «أدوا مهمتكم يا رفاق ولا تشغلوا بالكم بشأني، فإني ذاهب لأطوف بالقرية».

كان الليل أسحمر، والمطر غزيرًا، والماء ينساب على الأرض جداولًا، تتجمع وتتساقط كالشلالات من فوق الصخور العالية. وبين حين وآخر يقرع سمعهم صوت طائر من طيور الليل كامن بين شقوق الجبل يصرخ صرخات أليمة شاكية، يشكو الوحدة وينادي الرفيق. وفجأة دوى على البعد، عواء طويل، هنالك فوق قمة جبل النبي إيليا. وتوقف الرجال الأربعة.

وقال ياناكوس:

- ذئب يتضور جوعًا هو الآخر.

وقال لوكاس:

- ربما كان النبي إيليا يعاني الجوع أيضًا.

وقال ياناكوس:

- لعل القديس الذئب يكون في عوننا. هيا يا رفاق، الحملان في انتظارنا.

وواصلوا مسيرتهم. وتأبط لوكاس ذراع ياناكوس.

- هل استقر رأيك على المكان الذي نوجه إليه ضربتنا الأولى؟
- طبعاً، أكثرهم ثراء، وأقذرهم، وأشدّهم بخلًا.. الشيخ لاداس. سنملاً زكائنا وزجاجاتنا عن آخرها. سيجد فقراء سارا كينا شيئاً يتلعونه فيكفون عن العواء.
- ثم أردف قائلاً بعد لحظة صمت:
- وفي ليلة أخرى سننزل إلى القرية ونسرق بعض البترول أيضاً.
- خبز وبترول. حقاً، أنت على صواب يا ياناكوس. الإنسان بحاجة إلى كليهما ليحيا ويثأر. إذ لا يكفيه أن يحيا لمجرد الحياة وحدها.
- توقف ياناكوس عند طرف القرية، والتفت إلى رفاقه وقال لهم:
- سأسير في المقدمة، فأنا أعرف الأرض جيداً، واتبعوني، الواحد وراء الآخر في طابور منفرد. سأتسلق أولاً.
- شقوا طريقهم بين دروب القرية. كانت مقفرة تماماً، فقد انتصف الليل، وغرقت القرية في سبات عميق.
- وقال ياناكوس لنفسه عندما بلغوا بيت الشيخ لاداس:
- شريطة ألا يشم رائحتي حبيبي يوسف اكي فيشرع في النهيق.. أسأل الله أن يكون غارقاً في نومه.
- أسند ظهره إلى الحائط على امتداد قامته، وانتظر رفاقه. وأتوا الواحد بعد الآخر.
- وقال ياناكوس بصوت هامس:
- هيا بنا نسل من وراء الحديقة، فالحدار هناك منخفض عن هنا. هات المصباح يا لوكاس.. اتبعوني. خذوا حذرکم.
- وسأل أحدهم:
- هل عنده كلب؟
- وأجاب ياناكوس:
- كيف يربي كلباً هذا الشيخ البخيل. الكلب يأكل ويتكلف طعاماً.
- ثم تحدث إلى لوكاس:
- وأنت يا حامل المصباح، ستبقى في الخارج لتكون سلفاً لنا، نتسلق فوق كتفيك لنصعد فوق الحائط ثم نقفز إلى الداخل. وإذا أحسست بخطر فانعق

كالبومة.. مستعدون يا رفاق!

- مستعدون.

وأسند الشيطان العملاق ظهره إلى الحائط، وأمسك بياناكوس ورفع فوق كتفيه وقال:

- هيا باسم قديسنا الذئب، اقفز.

وتخطى ياناكوس الحائط، وقفز إلى داخل الحديقة. وانتظر رفاه، الذين قفزوا في أثره واحداً بعد واحد، حاملين فوق ظهورهم الزكائب والزجاجات. - اتبعوني، فأنا أعرف الطريق.. انتبهوا.

واجتازوا الحديقة، وألفوا الباب الخلفي مفتوحاً، وانسلوا داخل البيت. وسمعوا غطيط نوم صاحب البيت يتصاعد في الدور العلوي. وقال ياناكوس:

- إنه نائم، نحن سعداء الحظ.

أشعل المصباح، واهتدوا إلى باب الكرار، ودفعوه ودخلوا. وفاحت رائحة الزيت والنيذ والتين المجفف والسفرجل، وامتد ضوء المصباح إلى كل أرجاء المخزن فكشف عن صفوف متراسة من الجرار الضخمة المملأ وبراميل النيذ. وهمس ياناكوس:

- أسرعوا يا رفاق. خذوا ما تشاءون بسرعة. هيا املاؤا.

وفتح أحدهم صنبور البرميل، وانساب النيذ ليملاً زجاجته. وملاً آخر زكيته قمحاً. ورفع ياناكوس صفيحة زيت وملاً زجاجة معه، ثم حشا زكية أخرى قمحاً. وتلفت حواليه فلمح سلماً مسنداً إلى الحائط. فقال «الحمد لله، يوجد هنا سلم أيضاً، ولولاه لما عرفنا كيف نرفع كل هذه الأحمال فوق الحائط؟ إله اللصوص يساندنا. هيا يا رفاق، لننصرف».

وساروا كصوص يحملون غنيمتهم على كواهلهم، واجتازوا الحديقة عائدين. وأسندوا السلم إلى الحائط، وصعدوا الواحد إثر الآخر، ومعهم أحمالهم الثقيلة، وغنيمتهم الثمينة. وفتح لوكاس ذراعيه ليتلقى الزكائب والزجاجات، ووضعها على الأرض. واتخذوا من كتفي العملاق العريضين متكأ ليقفزوا من

فوقهما إلى الأرض. كان ياناكوس آخرهم، وجلس فوق الحائط وباعد بين ساقيه. لم يطاوعه قلبه على النزول.

- انتظروني يا رفاق دقيقة واحدة حتى أرى حماري ثم أعود إليكم.
واحتج لوكاس:

- دع الحمار في حاله يا ياناكوس، وتعال انزل، لا أحد يعرف ما قد يحدث...
وتمتم ياناكوس:

- لا أحتمل ذلك، لا أحتمل، دقيقة واحدة يا رفاق وأعود إليكم.
ونزل إلى الحديقة ثانية.

وتجههم رفاقه دون أن ينبسوا بكلمة. وأرهفوا السمع وكلهم عيون يقظة خشية أن يمر بهم أحد في الطريق، أو يفتح باب.
وقال لوكاس لرفيقه:

- اسبقانا أنتما الاثنان. فخير لنا أن نفترق. وسأنتظر أنا.

وساعدهما على حمل الزكيتين فوق كتفیهما وانطلقا.

وبقي لوكاس وحده. وجثا متربصاً على الأرض تحت وابل المطر ينتظر صديقه في قلق. وفجأة دوى نهيق مرح مرحب، كأنه نفير يوم الحشر. وتمتم لوكاس:

- ليأخذ الشيطان هذا الحمار، سيوقظ كل الجيران.

وانفتح شباك داخل البيت، وسمع صوت ينادي، هو صوت الأب لاداس:

- يا أم بنيلوب. هل أنت نائمة؟ إيه يا أم بنيلوب، لماذا ينهق الحمار؟

ولكن لم يجب عليه أحد. وتوقف النهيق. وساد السكون ثانية لا يقطعه غير صوت المطر يقرع أرض الفناء. ورفع لوكاس رأسه ورأى شبحاً يخطو فوق الحائط.

وشب واقفاً، وأمسك بقدمي ياناكوس.

- هيا بنا يا لوكاس، لنبعد عن هنا، أظن أن الشيخ استيقظ من نومه.

وحملا الزجاجات على كاهليهما، وانطلقا بأقصى سرعتهما.

وبعد أن خرجا من القرية قال له لوكاس:

- أشبعت رغبتك، ورأيت حمارك.

وتنهذ ياناكوس وهو يقول:

- نعم، آه لو كان في استطاعتي أن أصعد به فوق السلم. أقسم بشرفي لكنت أخذته معي..

وبعد قليل سأل في جزع:

- وأين ميشيل؟

- لا بد أنه فرغ من جولته بين دروب القرية وعاد أدراجه. هيا بنا نسرع خطونا. ولزما الصمت.

قضى القسيس فوتيس ومانولي ليلتهما ساهرين في انتظار عودة الرجال. وتنفس الصباح. ولمع ضوء خافت في السماء ناحية الشرق، وتوقف المطر، ولكن ما زالت السماء تنذر وتتوعد. وفجأة سمعا صفيراً وأصواتاً مرحة.

وهرع مانولي ناحية الصوت. وقال:

- ها هم.

وظهر القراصنة الأربعة مثقلين بأحمالهم. أشعلوا المصباح لينير لهم الطريق، وبدت وجوههم على ضوء الفانوس وضاءة متألقة. ياناكوس في المقدمة وعلى ظهره محجمة النبيذ.

- إليكم تحيات الشيخ لاداس. هذا الشيخ البار المحسن يبعث إليكم بهذا النبيذ لتشربونه في صحته. يقول ليس هذا بالشيء الكثير حقاً ولكن قلبي معه.

وقال لوكاس وهو يضع المحجمة الثانية عند قدمي القسيس:

- وهذا زيت لتشحيم أمعائنا، ويقول إن كنتم بحاجة إلى مزيد فالجرار ملأى.

وقال الآخران وهما يحطان عن كاهلهما زكييتيهما المملوءتين:

- وها هو القمح حتى يجد الأطفال الصغار البؤساء خبزاً يطعمونه لأنه حزين

عليهم.

وضحك القسيس فوتيس وقال:

- نشكره على ذلك. لعل الله يجزيه عن ذلك بالربا. سأكتب إليه من فوري

رسالة أبلغه فيها أن أربعة من الملائكة دخلوا منزله ليلاً وأخذوا هذه الهدايا الثمينة وحملوها إلينا في ساراكيثا على أجنحتهم. وحتى يتم كل شيء على الوجه الأكمل، سأرفق بالخطاب كميالة مقبولة الدفع في الحياة الآخرة.
وقال ياناكوس ضاحكاً:

- واكتب يا أبانا أيضاً أن أحد الملائكة أراد أن يهشم الجرار والبراميل، وإيريق الزيت والنيذ على الأرض، ولكنه أشفق في آخر لحظة، لا عليه، وإنما على النيذ والزيت.

وقال القسيس فوتيس:

- يا مانولي، آتنا بكوب لنقدم الشراب للملائكة. ادخلوا وانفضوا أجنحتكم المبتلة يا سادة.

ودخلوا الكهف، وشرب كل منهم كوباً بدوره، وساد المرح.

ثم قال القسيس:

- في صحة الشيخ لاداس هذا الإنسان البار.

وقال مانولي:

- في صحة الملائكة.

وقال لوكاس:

- في صحة قديسنا الذئب، إذ عندما بدأنا مسيرتنا عوى الذئب فوق قمة ساراكيثا، ومدنا عواؤه بالشجاعة.

وقال ياناكوس في قلق:

- وماذا عن ميشيل؟ لم نره.

وأجاب مانولي:

- عاد، غارقاً في الوحل ولم ينس بكلمة. وهو نائم الآن.

نزل الشيخ لاداس إلى الحديقة في الصباح، وانزعج عندما رأى السلم مسنداً إلى الحائط. ودار على عقبه، ونادى على زوجته التي كانت تجلس بجوار النافذة تطل على الدنيا بعينين بليدتين.

- يا أم بنيلوب، من الذي أسند السلم إلى الجدار؟ هل أنت؟
ولكن الأم بنيلوب أمسكت بالجورب وشرعت تغزل. ولم تعباً حتى بالنظر إليه.

حمل الشيخ السلم على ظهره، وأعادته إلى الكرار. وجال بعينه ورأى كل شيء في مكانه: الجرار والبراميل والتين المجفف والسفرجل. وتمتم:
- الحمد لله، لحسن الحظ لم يدخل لصوص البيت. هذه المرأة التعسة لم تعد تدري ما تفعله. لا بد أن أفتح عيني أنا. سيأتي يوم تشعل النار في البيت. ودخل الحظيرة. كان الحمار في مكانه أيضاً.
وقال له في غضب وهو يرفسه:

- ماذا دهاك الليلة. أيقظتني من النوم بنهيقك؟
ولكن الحمار لم يعبأ به. كانت عيناه الواسعتان هائمتين تحملقان في لا شيء.
خيل إليه أنه رأى في منامه صاحبه الحقيقي، أنه يزوره ليلاً، وربت في رقة وحنان على رقبته وظهره وبطنه مثلما كان يفعل دائماً. ورفع ذيله في سعادة، وأطلق لعقيرته العنان ينهق في بهجة. وأمسك سيده بخطمه بين راحتيه ليسكته. وقبل أذنيه ورقبته، ثم اختفى عن ناظريه من النافذة المستديرة الصغيرة.
وأطرق الحمار برأسه، وأغمض عينيه وصلى لربه.. وهو إله له ذيل ضخمة، كث الشعر، ورأس حمار كبير أبيض ناصع البياض، وسرج من المخمل الموشى بالذهب، ولجام أحمر مطرز بحبات من الفضة والترتر، تلمع كأنها النجوم الساطعة.

وصلى الحمار:

- يا إلهي، أسألك أن تحقق لي حلمي الذي تراءى لي البارحة.

في الصباح الباكر ذاع نبأ المعجزة في كل أنحاء ساراكيينا: نزل أثناء الليل أربعة ملائكة يحملون قمحاً وزيتاً ونبیذاً للجوعى. وصدق السذج منهم النبأ، ورسموا علامة الصليب. أما الخبثاء منهم فنظروا بطرف أعينهم إلى ياناكوس ولوكاس وابتسموا. وانكبت النساء على القمح ينقينه، وهن يتغنين بصوت حنون كأنهن

يهددن طفلاً لينام، أو يداعبن يسوع الطفل . وإذا سقطت حبة قمح على الأرض، انحنين فوقها في لهفة ليلتقطنها، أليست جزءاً نفيساً من جسد الرب، ويجب ألا تلوثها الأرض؟ وفي لمح البصر طحن بعض القمح فوق حجر، وصنعن منه عجينةً، وقطعنه خبزاً، وأنصجنه على الجمر، بعد أن أضفن إليه شيئاً من الزيت ليكسبه طعماً لذيذاً. ثم وزعن منه قزمة ملء الفم على كل الحاضرين كأنه قربان مقدس. وسرعان ما أحسوا بالراحة تسري في لحمهم وعظامهم، كأن الخبز هو جسد المسيح حقاً.

ثم شرب كل منهم جرعة نبيذ، ولم تستطع النساء أن يحبسن عبراتهن. وتنهدن:
- يا إلهي قزمة خبز واحدة ملء الفم، ورشفة نبيذ - هذا كل ما تحتاج إليه الروح لتشعر بأن لها أجنحة تحلق بها.

وبعد الظهيرة حمل رجلان القمح على كاهليهما إلى الطاحونة. وسارت النسوة معهما بعض الطريق يحرسن الحمل الثمين كأنهن يتوجسن خيفة ألا يعود إليهن ثانية.

وصاحت النسوة بالحمالين:

- متى ستعودان إلينا بحملكما؟

وأجابا ضاحكين:

- غداً صباحاً، فلا تجزعن.

وعمل ياناكوس خازناً لطعام شعب ساراكيئا. فهو الذي يحتفظ بالمؤمن ويوزعها على النساء كل صباح، يعطي كلا منهن ما تحتاج إليه لوجبات النهار. كان يقول أحياناً:

- اقتصدوا يا أصدقاء، وشدوا أحزمتكم حتى يمضي الشتاء. فالملائكة مشغولون بأعمال أخرى ولا يمكنهم أن يحملوا إلينا ما نحتاج إليه كل يوم..

كان قليل من الخبز وقليل من الزيت كافيين ليعيدا الحياة إلى الشعلة التي كادت أن تخبو. وبدأ الأطفال يستعيدون صحتهم، ويفش ورمهم. وتتورد وجنائهم. وامتألت أئداء النساء لبناً، ولم يعد الأطفال الرضع يشكون من الجوع ويصرخون طوال الليل. وعادت البهجة إلى الرجال، واشتدت سواعدهم، فشرعوا ينقلون

الحجارة ليتما بناء أكواخهم. وبين الحين والحين تسمع ضحكة أو دعابة. وإذا ابتعدت قليلاً عن الكهوف فقد تقع عينك على اثنين استعداداً شيئاً من القوة تعينهما على التقبيل والعناق.

وقال القسيس فوتيس يومذاك لمانولي:

- كل هذا القمح والزيت والنبذ لا بد أن يصبح دماً، ولا بد أن نستجمع قوتنا لغزوة نشنها. لن نرضى بحال من الأحوال أن نعيش جوعى ونسرق. لا بد أن ننزل إلى القرية ونستولى على أراضيها إن طواعية أو كرهاً. فهي وحدها عوننا على الحياة فوق هذا الجبل القاحل.

وقال مانولي:

- حان موعد تقليم الكرم، وتشذيب شجر الزيتون، وتسميد الأرض. ترى هل نتركها هكذا مهملة؟ معنى هذا ضياع عام بأكمله. ماذا تنتظر يا أبانا؟
- أنتظر الإشارة يا مانولي. أنتظر الصوت الذي ينبعث من باطني ويعطيني الأمر. أنت تعرف أنني لم أتخذ قراراً خطيراً قبل سماعي لهذا الصوت. والقرار الذي تطلبه يا مانولي قرار جد خطير، ستسفك فيه دماء.

- أعرف ذلك يا أبانا، ولكن في عالم كعالمنا هذا، عالم لا يعرف معنى الشرف والعدل، هل يمكن أن يتم شيء بدون سفك دماء؟ كنت أقول لنفسي: «سيرى أهل ليكوفريسي الحال التي صار إليها أطفالنا، سيرون بطونهم المتورمة، ووجناتهم الغائرة، وسيقانونهم النحيلة الضامرة. فتأخذهم بهم الرحمة. ولهذا السبب أرسلت أول أمس بعض الأطفال إلى القرية.. هل تعرف كيف استقبلوهم هناك؟ أمسك بعض الناس بهراواتهم وطاردهم بعيداً عن أبوابهم، والبعض الآخر ألقى إليهم بكسرة خبز جافة، كأنهم يلقون بها إلى الكلاب.. واحد فقط هو الذي أشفق عليهم. هل تعرف من يا أبانا؟ الأغا. رآهم من شرفته، ينبشون الأرض بحثاً عن بعض الحبوب أو قشر بطاطس أو قشر ليمون، وصاح: «ما هذه؟ قرودة صغيرة؟ أم أقزام؟» ونزل من شرفته وفتح لهم باب داره وأدخلهم. ونادى على مارثا: «أعدي لهم المائدة يا مارثا. قدمي لهم بعض الطعام ليأكلوه. إنهم قرودة صغيرة. أعطيتهم شيئاً يتلعون، حتى يصبحوا بشرًا..».

وصاح القسيس ولمعت عيناه من خلال دموعه:

- لم أكن أعرف هذا. لم تقصه عليّ يا مانولي.

- أخفيته عنك يا أبانا، إشفافاً عليك. قلبك مليء بالسم الذي تجرّعته على يد البشر، ولا زالوا يقدمون منه المزيد. فما جدوى أن أضيف المزيد إلى هذا السم؟
- كان حريّاً بك أن تنبئني بذلك يا مانولي. قلبي أثقلته الشجون. ولو لم يفض قلب المرء بعاطفة الحب أو الغضب لماتت الدنيا وأجدبت ولما أقدم الإنسان على شيء.

وصمت، وأحس بإعياء مفاجئ. فجلس فوق صخرة ومال برأسه على صدره، كأنه ينصت لشيء بداخله. وجلس مانولي قبالة، يشخص ببصره إلى السهل. أقلعت السماء، واسودت الأرض التي أّتخمها الماء حتى طفح على السطح. وهبت ريح رخاء، وتراقصت أوراق شجر الزيتون، تعرض حيناً لونها الفضي، وحيناً آخر لونها الأخضر الداكن. وغاصت بساتين الكرم في الماء فبدت سوداء. وهم صقر عند قمة القديس إيليا بالطيران، وبسط جناحيه فوق السهل.

ونفض القسيس فوطيس وقال:

- قلبي أثقلته الشجون، إني منصرف.

ولم ينبس مانولي ببنت شفة. إذ أدرك أن القسيس متوتر، مشدود الأعصاب وحدث نفسه: «من الخير ألا أتكلّم معه».

تسلق القسيس فوطيس الصخور، متخذاً طريقه إلى قمة الجبل. كان القديس إيليا يتألق فوق قمة الجبل، أبيض ناصع البياض.

واصل القسيس صعوده، مشدود القامة كأنه حد الحسام. يتوارى أحياناً وراء الصخور ليظهر ثانية وقد سار بعيداً. خلع غطاء رأسه، وداعبت الريح شعره.

ولم يمض وقت طويل حتى رأى مانولي ظلّه أمام الكنيسة الصغيرة، مرسوماً فوق الجدار الأبيض في حجم الصقر. وسرعان ما انفتح الباب ودخل القسيس وغاب عن الأنظار.

وعاد مانولي على الفور إلى كهفه. وأمسك بكتلة من خشب البلوط. وبدأ ينحت الوجه الجديد للمسيح.

الوجه القاسي للمسيح

بدأ الليل يرخي سدوله ولم يعد القسيس بعد. وهبت ريح صرصر عاتية، وتلبدت السماء بغيوم مندرة. وارتفع عواء الذئب من جديد، بعيداً يمزق سكون الليل.

وقال ميشيل:

- هيا بنا لنرى ماذا حدث له. فربما أصابه شيء..

كانت هذه هي أول كلمات ينطق بها منذ أيام طويلة. فكلما مرت الأيام غاص أكثر وأكثر مع تأملاته السوداء، حيناً يصعد الزفرات، وحيناً يشخص ببصره ناحية الكنيسة الصغيرة فوق الجبل ثم يتسم في هدوء وسكينة. واحتفظ بصفيرتي ماريوري، وربطهما إلى صدره لصق جلده مباشرة، وبين آن وآخر تراه يرتجف، ويتحسس قميصه في جزع ويمسك بهما خوفاً عليهما من الضياع. وإذا جن الليل وأغفى تند عنه صرخة يهب بعدها واقفاً، ثم يعز عليه النوم بعد ذلك.

والتفت إلى مانولي الذي جلس في هدوء داخل الكهف وقال:

- هيا بنا لنرى ماذا حدث له. فربما أصابه شيء..

كان ذلك في منتصف الليل تقريباً.

وأجاب مانولي:

- لا، لم يصبه شيء. أعرف هذا من هيئته حين قام من هنا وشق طريقه إلى الكنيسة حتى خلت للحظة أنه إنسان خالد.

ولم يطمئن ميشيل لكلام صديقه وتمتم:

- مضى وقت طويل.. وقت طويل.. ترى ماذا يفعل هناك؟

- إنهما يتشاوران معًا يا ميشيل. يتحدثان على انفراد، ويعدان الخطة سويًا - هو والقدّيس إيليا.. لا يمكن لأحد أن يدخل بينهما. إنهما يحسمان الأمر.

- ولكن ألن يأكل شيئًا الليلة؟ ألن ينام؟ البرد شديد الليلة حتى تجمدت الدنيا.
- ليست به حاجة إلى أكل أو نوم، كما أنه لا يشعر بالبرد. أؤكد لك أنه لا يحتاج إلى شيء من هذا وهو في الحالة التي هو عليها الآن. فهو أشبه بالميت أو الإنسان الخالد، لست أدري ماذا أقول على وجه الدقة.. إنه ليس بحاجة إلى شيء.
ظهر ياناكوس في هذه اللحظة يتأفف ويسب ويلعن.

وسأله مانولي:

- ما لي أراك منحرف المزاج، يا ياناكوس، ترى ماذا دهاك؟ كيف حال العمل يا أمين مخازن ساراكيثا؟
وأجاب ياناكوس قائلاً:

- يقول المثل كيف حال صغارك يا سيد غراب؟ إنهم يزدادون سوادًا يومًا بعد يوم.

ثم أردف قائلاً:

- بدأنا نجهز على البقية الباقية من الأغذية، وقاربنا النهاية، هذه هي حالنا. بعد قليل سنرى القاع.. ما العمل؟ هل أجمع الصحاب مرة أخرى وننقض على السهل؟ هذه المرة سيكون دور القسيس جريجوريس.

وقال مانولي:

- تمهل، إنه دور ليكوفريسي كلها.

واهترزت جوانح ياناكوس طربًا، وصفق بيديه، وصاح:

- هل دقت الساعة؟ هل قال القسيس ذلك؟

- لم يقل شيئًا بعد، ولكنني أحسب أن الساعة قريب.. قال إن قلبه أثقله الشجون.

ثم بدأ مانولي يقص عليه حديثه مع القسيس.

وتمتم ياناكوس، ورجع عن رأيه فجأة:
- آه لو انتظر قليلاً هذه المرة.. يمهلني حتى أستعد، فإنني لست مستعداً الآن.
والتفت إليه الصديقان يحاولان أن يتبينوا وجهه في الظلام.

وسأله مانولي:

- هل ينقصك شيء يا ياناكوس؟

- إن شئت الحقيقة فنع.

- أي شيء؟

- البترول. أقسمت أن أحرق بيت الشيخ لاداس، وأشهدت الله على قسمي هذا.

وقال ميشيل الذي استجمع شتات فكره ليتكلم:

- أنت قاس..

ورد عليه ياناكوس:

- بل عادل، لو تنزل المسيح اليوم إلى أرض كهذه الأرض التي نعيش فوقها،
فماذا تظن أنه سيعمل فوق كتفه؟ صلياً؟ لا، بل صفيحة بترول.
وثب مانولي، وأسند ظهره إلى جدار الكهف وهو ينصت إليه.
وسأل ياناكوس:

- ما رأيك في هذا يا مانولي؟ أراك صامتاً لا تقول شيئاً.

وتمتم مانولي بصوت متهدج:

- وكيف عرفت ذلك، يا ياناكوس؟

- لست أدري، فأنا لم أتعلمه، ولم ينبئني به أحد، ولكنني واثق منه.

ثم استطرد قائلاً بعد فترة صمت:

- بعد أيام قليلة سيهيم أطفالنا على وجوههم، وينبشون أكوام القمامة بحثاً عن
قشرة بطاطس، أو بعض القاذورات ليطعموها، بينما الخنازير السمينة تنظر إليهم
وتضحك. وهكذا يرى أطفالنا المسيح في أحلامهم، ولهذا يسألونه أن ينزل إلى
الأرض. ولكنهم عندما يستيقظون من نومهم مع الصباح ينسون كل شيء - إنهم
أطفال، أليسوا كذلك؟ - ثم يعودون لينبشوا أكوام القمامة.

أنصت له مانولي مهوّرًا دون أن ينبس بكلمة. أحس بقلبه يخفق في عنف حتى يكاد يشب من بين جوانحه. فهذه هي الصورة التي رأى عليها المسيح ليلة البارحة. ولكن لم تواته الجرأة على أن يقص ذلك على أحد. رآه يتنزل مع شعاع الشمس من فوق قمة جبل قاحل كجبل ساراكينا، حافي القدمين، لا يحمل فوق كتفه صليًا بل صفيحة بترول. وكانت عيناه مثبتتان على ليكوفريسي ينظر إليها بوجه قاس حزين غضوب.

ونظر إلى ياناكوس وقال له:

- أنت على حق، ليس صليًا بل بترولاً.

- سأنتقل لأبحث عن رفاقي من الوحوش الكواسر، لم يعد هناك وقت نضيعه هباء.

وتوقف عند فتحة الكهف وضحك، ثم قال:

- القسيس جريجوريس عنده مصباح غاز، إذن لا بد أن عنده صفيحة بترول في مخزنه، وربما عنده صفيحتان. سأصحب لو كاس معي فهو سلم ممتاز. إلى اللقاء غداً.

وفي رائعة النهار، لمح مانولي القسيس فوتيس عند قمة الجبل وقد أخذ طريقه نازلاً يشب من صخرة إلى أخرى، ورداؤه الكنسي يدف في الهواء كأنه جناحان سوداوان، وشعره منشور فوق كتفيه. إذا رأيته حسبته النبي إيليا، فالسماء من خلفه حمراء ساطعة تتأجج ناراً وقد انعكس عليها نور الشفق. وبدا القسيس كأنه يخطو وسط ألسنة من اللهب.

وأبصرته نسوة كثيرات ممن ذهبن ليمالأن الجرار بالماء، فتولاهن الفزع، وندت عنهن صرخات عالية.

- رحماك يا إلهي، أفلت القديس إيليا من أساره فوق الجبل - وها هو ينزل إلى السفح.

وهرع إليه الرجال من داخل كهوفهم للقائه، وسار مانولي في مقدمتهم. استشعروا فجأة بأن القسيس يحمل إليهم رسالة خطيرة.

وتساءل ياناكوس:

– ماذا يحمل بين يديه، يا رفاق؟

لم ينم البائع الطواف ليلته، فاحمرت عيناه، ولم يجد فسحة من الوقت يغسل يديه اللتين تفوح منهما رائحة البترول.

دقق ميشيل النظر يحاول أن يتبين هذا الشيء. وقال:

– حقًا ماذا يحمل بين يديه؟

وصاح لوكاس الذي وقف في المقدمة ورائحة البترول تفوح منه أيضًا:

– أيقونة، إنها أيقونة.

وقال مانولي في نفسه:

– حمل إلينا القديس إيليا، هذا فأل طيب.

اقترب القسيس، وبانت ملامحه، وجه قاس كظيم. بدا كأنه لم ير الرجال الذين خفوا للقاءه، ولم يسمع نداءاتهم، وكأن روحه ما زالت في خلوتها الرهيبة فوق قمة الجبل مع النبي إيليا.

وقال مانولي:

– أفسحواله الطريق يا أصدقاء، لا يتحدثن أحدكم معه، فإنه ما زال في مناجاته مع الرب.

اصطف الرجال على الجانبين، وكان القسيس ينهب المنحدر بخطوات واسعة، يدفع بقدمه الحجارة فتتدحرج من تحته. ورأى كل منهم ما يحمله بين ذراعيه، أيقونة النبي إيليا ذات المعجزات.

وأسر ياناكوس إلى لوكاس رفيق الليل:

– أشم رائحة البارود. انظر إلى وجهه.

وقال لوكاس:

– من حسن الحظ أننا أنجزنا عملنا في الوقت المناسب. أكثر البيوت من الخشب صفيحتان فيهما الكفاية.

وأقبلت النسوة بدورهن. تسلقن المنحدر وهن يثرثن عن المعجزات والقديسين والأحلام. وشرأت أعناقهن، وشخصن بأبصارهن إلى القسيس

وهو ينزل المنحدر. رآته إحداهن يطير بأجنحة سوداء. وقالت أخرى إنها ليست أجنحة بل رداءه، ولكنها أكدت أن ثمة غرابًا جائمًا على كتفه وأمسك بجمرة بين منقاره يقدمها إليه ليأكلها. وفجأة صمت الجميع: أقبل القسيس.

وصاح بالرجال دون أن يتوقف عن المسير:

- تعالوا معي.

ثم قال للنساء:

- وأنتن أيضًا.

ومرق من أمامهم سريعًا، ممسكًا بالنبي إيليا بين ذراعيه، يضمه إلى صدره. وارتد الجمع إلى الوراء كأن طائرًا كاسرًا مرق بينهم، ولطمهم بجناحيه القويين. وتبع الرجال قسيسهم في دهشة وانفعال، ومن ورائهم النساء وقد أمسكن عن الكلام.

اعتلت الشمس أفق السماء، ترسل نورها الساطع من خلال السحب المتناثرة؛ وبدت كأنها كرة بيضاء ملتهبة. وكأن السهل من تحتهم ما زال غارقًا في ضباب كثيف. وخرجت بعض عجائز النساء اللاتي تأخرن عن اللحاق بالركب، ووقفن أمام الكهوف، ووضعت كل منهن راحتها فوق حاجبيها تستظل بها من ضوء الشمس، وهي تحملق في ذهول في هذا الحشد النازل من قمة الجبل.

توقف القسيس فوتيس عندما بلغ موضع الكهوف. وضع الأيقونة فوق الصخرة، والتف الجميع - رجال ونساء وأطفال - حوله في دائرة.

وبسط ذراعيه وبدأ يتكلم. كان صوته أجش أول الأمر، إذ كان يشعر بجفاف في حلقه. وتزاحمت الكلمات على لسانه تتسابق سريعة تحاول أن تخرج كلها في وقت واحد، فاحتبست جميعها ولم تخرج كلمة منها. ورويدًا رويدًا انبسطت عضلات حنجرتة، وعادت لصوته قوته، وتتابعت الكلمات في انتظام. وقال:

- أيها الرجال اسمعوا وعوا. وأنتم أيتها النساء احتضن أطفالكن بين أذرعكن حتى يسمعنهم أيضًا ما أقول. أتيكم من عربة النار، وسأقودكم إلى حيث قادتنى. وسوف أكشف لكم عن كل ما استأمنتني عليه واستودعني إياه. ليست الحياة ماء راكدًا. الخنوع والاستسلام ليسا خير الفضائل ولا أحبها إلى الرب.

الرجل الصالح لا يحتمل أن يرى الأطفال تتساقط أمام عينيه على الأرض، وتموت جوعاً دون أن يهب ثائراً ويطلب الحساب حتى ولو كان من الرب إلهاً.

- قصدت قمة الجبل لأتحدث إلى سيدنا قديس جيلنا، علنا ننتهي إلى قرار يكون فيه علاج لكل شرورنا ومآسينا. فأطفالنا أطفاله وهو مسئول عنهم.

ثم استدار ناحية الأيقونة يخاطبها وهو باسط إليها ذراعه على امتدادها:
- أنت مسئول عنهم يا نبي النار، ولهذا السبب، إن شئت أن أكون صادقاً في حديثي إليك؛ قصدت عرينك. مثلي كمثّل الفلاح المستأجر الذي يقصد صاحب الأرض ليرد إليه حساب أول العام، محملاً بالهدايا التي أخذها من حدائقه وبساتين كرمه، وأنا أيضاً حملت إليك آلام شعبي وأناته الموجعات ووضعها عند قدميك. «قضيت الليل بطوله يا أطفال، واقفاً أمام ذلك النبي أتحدث إليه. قصصت عليه قصتنا، من نحن، ومن أين أتينا، وكيف حللنا بجلبه لنبحث عن مأوى تحت رعايته. كان يعرف كل هذا، ولكنني رأيت من الخير أن يسمع القصة من جديد. وأنصت لي ولم ينبس بكلمة».

«ثم حدثته عن جيراننا في ليكوفريسي، قصصت عليه كيف عاملونا وكيف طردونا جميعهم دون استثناء، القسيس والأعيان وكل أهل ليكوفريسي، وكيف سلبونا حقنا ولم يسمحوا لنا بأن نفلح أرضنا التي منحها لنا ميشيل المحسن الجواد... أفضيت إليه بكل شيء، وأفرغت مرارتي وأنصت لي دون أن ينبس بكلمة».

«ثم حدثته عن استشهاد شعبنا، وما يعانيه من جوع وبرد ومرض... صحت به قائلاً: «وقاحة الأغنياء تفوق كل الحدود، يا سيدنا أنخمت بطونهم حتى طفحت من البلعوم، وفاض الكيل بنا، هل تسمعنا يا صاحب عربة النار، أيها الجبار؟ قم وأسرج خيلك وانزل معي. وأنصت إليّ دون أن ينبس بكلمة».

«وثارت ثائرتي. وتفرست فيه وأنا أحدث نفسي: «هل لن ينظر قلبه لما أقول؟ كيف يتحمل كل هذه الآلام ويرضى بهذا القدر من الظلم، ويطيق مثل هذه الوقاحة؟ ترى هل لن يترك أيقونته وينطلق معي؟ ترى هل لن يسرج ألسنة اللهب، ويمسك برقبتي ويرفعني ليجلسني إلى جانبه ونزل معاً إلى ليكوفريسي؟».

«وتشبت بالأيقونة، وملت على أذنه، وصحت: «إيليا، إيه أيها الفارس إيليا، اسمع لهذا النداء: أطفالنا لا يجدون ما يقتاتون به، خارت قواهم، سيقانهم تنهار من تحتهم من أثر الجوع، يتوكأون على عصي، وينزلون إلى السهل وهم يحجلون كالغربان ليمدوا أيديهم بالسؤال إلى أهل ليكوفريسي... تعرف هذا يقيناً، لا بد أنك سمعت عنه. رأيته وأنت تنحني من فوق قمتك لتشهد كل شيء، ومست لحيتك أسطح بيوت ليكوفريسي، ورأيت أطفالنا يكون أمام الرب...».

«ظلمت أنفوس فيه، وأحسست بالدفء يسري في جسد النبي، ودبت فيه الحياة، ودبت في نفسي الشجاعة من جديد».

وصحت به:

- نعم تنازلت وملت بعربة النار لتنظر إلى ما تحتك وترى كيف استقبل أهل ليكوفريسي أطفالنا، اسمع: أمسك بعض الأهالي بعصيتهم ليطردوهم بعيداً عن أبوابهم، وآخرون - هل رأيتهم؟ - ضربوهم دون رحمة أو شفقة.

«ولم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى جفلت خوفاً وهلعاً. خيل إليّ وكأن الأيقونة ارتطمت بي، وكأن الحياة دبّت في الخيول الأربعة، وكأن شفاه النبي تتحرك، وكأنني سمعت صيحة كبرى عالية: «دعني أذهب».

«وفي هذه اللحظة قفزت الأيقونة بين ذراعي».

وبهت الجمع. وتقطعت بهم الأنفاس. وجثت النساء باكيات أمام الأيقونة صاحبة المعجزات. ودنا منها الرجال الذي سحرتهم كلمات القسيس، واشربوا بأعناقهم يتطلعون إلى النبي الذي تلفه ألسنة اللهب، ونزل إليهم من فوق الجبل.

وحيته النساء: «أهلاً ومرحباً، أيها النبي إيليا».

وصاح ياناكوس:

- اعط الإشارة، يا أبانا. عجل بها ونحن نملك بعض الطعام نستمد منه قوتنا.

فالمؤمن على وشك النفاد.

واقترب مانولي من القسيس، وقبل يده وقال:

- ارفع ذراعك، يا أبانا. هل دقت الساعة؟ نحن على أهبة الاستعداد.

ورفع القسيس فوتيس ذراعه إلى شعبه وصاح:

- بعد ثلاثة أيام يا أطفالى، أي في الثاني والعشرين من ديسمبر عشية ميلاد النور، يكون ميلاد النبي إيليا. سيكون يومًا عظيمًا. تأهبوا له يا رفاق، رجالًا ونساء. هو موعدنا للنزول إلى القرية.

ومر الجميع في موكب أمام الأيقونة، وخرّوا سجدًا. تراءى لهم النبي حيًا، رداؤه أنون نار تتراقص ألستته مع الريح. ورأت النساء حبات العرق فوق جبينه، وقبل الأطفال الأيقونة وأحسوا بأن النبي يتحرك تحت شفاههم.

وشعر القسيس فوتيس بإعياء شديد، فأوى إلى كهفه، واستلقى على الأرض هناك. أغمض عينيه عسى أن يغلبه النعاس، ويتنزل عليه الرب في منامه ويتحدث إليه. وحمل مانولي أيقونة نبي النار بين ذراعيه ووضعها في صدر الكهف وسط الظلام إلى جانب أيقونة الصلب التي تحوم فيها عصافير الجنة.

بدأت سارا كينا منذ تلك اللحظة تظن كأنها معسكر حرب يتأهب للقتال. من لا يملك عصا انطلق بين ربوع الجبل يبحث عن شجرة بلوط ليقطع أحد فروعها ويتخذ منه عصا له. ومن يجيد استخدام المقلاع بدأ يدرّب النساء والأطفال على استخدامه. ووزع القسيس فوتيس ما وقع تحت يده من أسلحة، وخص بها الشجعان من الرجال، وبدأ يتنقل بينهم، في دأب لا يعرف الكلل، ويلقي بتعليماته إلى كل منهم.

وأقبل قسطندي من القرية مع المساء، وذهل حين سمع جلبة وضوضاء. ورأى الرجال منهمكين في تدريب النساء على قذف الحجارة بالمقلاع، أو تعليمهن كيف يصنعن الهراوات من فروع الشجر، كأنهم يستعدون جميعًا رجالًا ونساء للحرب. وألقى مانولي ينحت في عجلة الوجه الجديد للمسيح. كان هذا هو سلاحه الوحيد، ويود أن يفرغ منه وشيكًا حتى يكون كل شيء على أهبة الاستعداد.

جلس قسطندي إلى جواره بادي القلق وقال له:

- أرجوك يا مانولي، إن كان لديك متسعًا من الوقت، أن ترفع رأسك

وتسمعني. أتيتك بأخبار سيئة.

- مرحباً بها يا قسطندي، فالجبال ألقت تحمل الثلوج، وهي لا تخشاها. تكلم.
- ماتت ماريوري.

وألقى مانولي بقطعة الخشب التي ينحتها، واتسعت عيناه في انزعاج شديد.
وقال في وجوم كأنه يسمع عن الموت لأول مرة:
- ماتت؟

- دهمنا الخبر بالأمس، ساعة الظهر. وصرخ أبوها الشيخ صرخة زلزلت القرية. وامتطى على الفور صهوة بغلته وانطلق ينوح ويتوجع. وعندما بلغ المدينة ألقى ابنته وقد وُريت التراب ولم يتمكن من رؤيتها حتى يسبل لها جفניה. وعاد هذا الصباح، لو رأيته ما عرفته. ذهب الحزن بعقله. رأيته يطرق أبواب القرية، فتوجست خيفة، كما أشفقت عليه. كان يسير حافي القدمين، مشعث الشعر، ينتقل من بيت إلى بيت يدعو أهل القرية لحضور التناول بالكنيسة. ودق الشماس أجراس الحداد. وترك الناس أعمالهم وقصدوا الكنيسة. جمعنا القسيس في رواق الكنيسة، ووقف فوق مقعد حجري. كانت لحيته ترتجف حتى أعياه الكلام. ولكن عينيه المسجورتين كانتا تتقدان لهيباً. واستطاع في النهاية أن يستجمع قواه، وخرج من حلقه صوت جهوري:

- يا أبنائي. سأقول كلمتين اثنتين فحسب، لا أستطيع أن أقول أكثر منهما، فإن قلبي يتمزق: ستقضي علينا ساراكيئا.

وتوقف لحظة يلتقط أنفاسه، ثم عاود الحديث:

- هبوا، احملوا أسلحتكم وأنا في المقدمة. هيا يا أطفال، اطردوا هؤلاء الوحوش الكواسر. إنهم هم الذين بذروا الشر في قريتنا السعيدة. فمنذ تلك الساعة التي وطأوا فيها بأقدامهم قريتنا، والتعاسة والموت تمطرانا بوابل ضرباتهما دون رحمة أو شفقة. وأول من يستحق اللوم فيهم وأخطرهم هو مانولي طريد الكنيسة. أفسد عقل ميشيل بأفكاره التي وسوس بها إليه حتى أصابه الجنون. وهو المسئول عن فسخ خطبته لماريوري. وهو الذي قتل ابنتي وأودى بحياتها.
حاول أن يواصل حديثه ولكن أصابه دوار. ومد ذراعيه ليستند إلى الحائط،

ولكن أظلمت عيناه فلم يعد يبصر شيئاً.. وفقد توازنه، وسقط بكل ثقله فوق الرصيف الحجري.

وصمت قسطندي. وشد مانولي طرف منديله الذي عصب به رأسه كأنه عمامة، وعض عليه حتى يكتم نشيجه. وقال:

- ماتت ماريوري... ماتت... ماتت...

وأخذ يردد لها بغير زيادة.

والتفت إلى قسطندي، وسأله شارد اللب:

- وماذا؟ وماذا؟

أتيت لأخبرك يا مانولي حتى تكونوا على بينة، وتأخذوا حذرکم. أهل القرية جميعاً ناثرون غاضبون بعد كلام القسيس، ويستعدون لمهاجمتكم هنا. وهم يبحثون عن مبرر لذلك. أو عذر ينتحلونه، وها هم عثروا عليه... الأغنياء يخشونكم، لأنهم يعتقدون أنكم اشتراكيون، والفقراء يكرهونكم لأن الأغنياء وضعوا لهم عصا على أعينهم، ولذلك فإنهم سيكيلون إليكم ضربتهم وقتما يستطيعون إلى ذلك سبيلاً... إنهم أكثر منكم عدة وعدداً، والأغنياء يعاضدهم فاحترسوا.

- اسمع يا قسطندي، ابحث عن ميشيل المسكين وانه بالنبأ. فأنا لا أستطيع... فاتحه في الموضوع برقة، ذلك لأن عمدتنا الشاب تغير تماماً في أيامه الأخيرة وأصبح إنساناً آخر. يروح ويجيء مطبقاً شفثيه لا ينبس بكلمة، ينظر إليك بعينيه وعقله شارد في وادي آخر، وتسأله فلا يجيبك... وإذا جن الليل يأوي إلى فراشه وهو يرتجف فرقاً، بات يخشى النوم. سألته ذات يوم: «ماذا يخيفك يا ميشيل؟» وشق عليه أن يفتح فمه، وأحس بالحيرة والارتباك وقال: «الرجل الميت... الرجل الميت». هيا تشجع، يا قسطندي. ابحث عنه، وسأبحث أنا عن القسيس لأتحدث إليه.

أمسك ميشيل بالإنجيل المفضض الذي كان يقرأ فيه وضمه إلى صدره وتمتم:
- انتهى كل شيء. لا أريد شيئاً بعد الآن، يا قسطندي. أمسك الرب بسكين

وبتر حياتي نصفين. ألقى بالنصف الأول في باطن الأرض، وها هو الآن يلقي بالنصف الثاني. وهكذا أصبحت الآن بكل كياني تحت الثرى.

دهش قسطندي لهذا الهدوء الذي استقبل به ميشيل النبأ المروع. وأحس بالوجود ينقض من خلف ذلك الوجه الهادئ الساكن.

مرة أخرى قال الرجل الذي كان يومًا ما عمدة القرية الشاب:

- انتهى كل شيء.

واستوى واقفًا. وأمسك بحبل كان داخل فجوة في الصخرة، وربط به الإنجيل بقوة وكأنه يوثق حيوانًا مفترسًا خشية أن يعض.

ونظر إلى قسطندي، ثم هز رأسه وقال:

- أي طريق أسلك يا قسطندي؟ وأقصد من؟ الإنسان؟ هذا الكائن الدنس الذي يصيبه البلى والعفن. أم الرب؟ الذي يترك الأب لاداس يعيش ويثري ويقتل ماريوري. أم نفسي؟ دودة الأرض التي تتلوى تحت أشعة الشمس، ويسحقها حذاء في الوقت الذي تقول فيه لنفسها: «إنني راضية سعيدة بحياتي تحت أشعة الشمس الدافئة...» هل تفهم شيئًا من هذا، يا قسطندي؟

لكن قسطندي أب لأطفال، فكيف له أن يفهم؟ ونهض واقفًا. وقال:

- إنني ذاهب لمقابلة ياناكوس.

كان ياناكوس في الكهف الذي تحول إلى مخزن للمؤن، يحسب ما بقي من زيت وديق. أما النبيذ فنفد منذ أيام. وقال في نفسه:

- سنجد قوتنا ليومين أو ثلاثة على الأكثر، بعدها ستكون الحرب، وسوف نرى. الحياة مرض يمكن الشفاء منه. سأظل شجاعًا طالما أنا على قيد الحياة، قادر على أن أقول لنفسني إنني حي وحبيبي يوسف اكي مثلي على قيد الحياة. لن أياس، فسوف نلتقي يومًا ما. الموت هو الشيء الوحيد الذي لا شفاء منه.

وصاح صوت من ورائه:

- أهلاً ياناكوس. ماذا دهاك أيها الصديق العجوز؟ ألم تعد تنزل إلى القرية؟

واستدار ياناكوس فأبصر قسطندي. وقال في غبطة:

- أهلاً بصديقي قسطندي. ما زلت أنزل قريتك المباركة، ولكن كيف لك أن

تراني؟ فأنا أنزل إليها في جنح الظلام.

وقص عليه ضاحكاً كيف نزل إلى القرية مرتين كالذئب، وشن فيهما غارة على بيتين. ثم قال في ختام حديثه:

- انظر، الأطعمة التي سلبناها توشك على النفاد. ولكن ها هو البترول في الركن. لم يمسه أحد بعد. ينتظر اللحظة التي يكشف فيها عن معجزاته.

سأله قسطندي في لهفة وقلق:

- أي معجزات؟

- حين يتحول إلى لهيب، يا قسطندي. أليست هذه هي وظيفته؟ وإلا فلماذا خلقه الله؟

وتفكر لحظة ثم ضرب جبهته بيده، وقال:

- حسن إذ أتيت. أرسلتك العناية الإلهية. هل لي أن أسالك مكرمة؟ اليوم الأحد. وبعد غد الثلاثاء... هل يمكنك أن تأخذ حماري من الأب لاداس في هذا اليوم؟ قل له إنك بحاجة إليه. إذا ما دفعت له الثمن سيعطيه لك. واحتفظ به في بيتك طوال هذا اليوم. هل تفهمني، لا أريد أن تمس النار شعرة منه. سيكون في بيتك آمناً.

وقال قسطندي فرعاً:

- إذن أنت تضرر خطة لإشعال النار في بيت الأب لاداس؟

- ومن غيره كنا نتحدث عنه طوال هذا الوقت؟ أليست هذه هي وظيفة البترول؟ إن الرب الرحيم عليم بكل أفعاله.

- احسب يا ياناكوس المكسب والخسارة لهذه العملية، فربما أوقعت ذلك في مشاكل.

- وزنت الأمر مرات ومرات، يا قسطندي. والمسألة في صالحني أنا، كأنني أعددتها لحسابي. وأنبأت بها نبينا إيليا، أو الفارس إيليا كما يحلو لقسيسنا أن يدعوه- وأقرني عليها.

وهرش قسطندي رأسه، وقال:

- لا أفهم شيئاً.

- أنت لا تفهم لأنك صاحب مقهى، ولك زوجة وأطفال. لو كنت جائعاً لأدركت ذلك وقبلته... ولكن كيف لك أن تفهم؟ ولذلك تتصرف تصرفاً آخرق، تقبل يد الأغا القذرة ويد القسيس جريجوريس وغيرهما. هذا هو السر... لا تعبس أيها الصديق العجوز، ستحين ساعتك وتدرك كل شيء، فصبراً.

تنهد قسطندي بعد لحظة صمت وقال:

- أنا معك يا ياناكوس قلباً وقالباً، لذا أسألك ألا تلومني. كثيراً ما تحدثت في هذا مع أندونيس وديميري. ونحن نسأل ماذا يمكننا أن نفعل نحن من جانبنا؟ - اذهب واسأل القسيس فوتيس، فهو الذي سينبئك بكل شيء. أما أنا فلا أطلب منك غير شيء واحد: أن يكون يوسفافي عندك في بيتك يوم الثلاثاء. وحذار أن تنبس بكلمة عن هذا لأحد. هه؟

انقضى يوم الأحد، وأقبل يوم الإثنين، وبدأ الثلج يتساقط عندما انتصف النهار، واكتست قمة الجبل حلة بيضاء. واتشح النبي إيليا بوشاح أبيض، وانقضت الطيور الجارحة على السهول تتضور جوعاً. واصطبغت السماء بلون أحمر برونزي. وانحنى مانولي فوق كتلة خشب البلوط منذ الصباح الباكر. انكب عليها يحفرها بأعصاب مشدودة. وأضحت روحه كأنها أزميل نحات، تقطع وتحز وتحفر في شوق ولهفة لتحرر وجه المسيح السجين داخل الخشب. وانبثق الوجه المقدس في بطنه على الصورة التي رآه بها في حلمه البارحة، وجهاً قاسياً صارماً غضوباً. وثمة جرح غائر يمتد على طول وجنته حتى الذقن وشارب متهدل، وحاجبان كثان.

انكب مانولي على عمله منذ الفجر، يحاول جاهداً أن يخرج الوجه الصارم مطابقاً تماماً للصورة التي في ذهنه. كان يعمل بهمة لا تعرف الكلل فلا بد أن يفرغ منه وشيكاً.. ومع الغسق، أشرقت الطلعة القدسية، وارتسمت فوق كتلة الخشب. وهب مانولي مذعوراً.

ودخل ميشيل في هذه اللحظة، مكدوداً يائساً. ونظر إلى كتلة الخشب المنحوتة، فارتد إلى الوراء فرقاً.

وصاح:

- ما هذا؟ إنها الحرب.

وأجاب مانولي وهو يمسح العرق المتصبب فوق جبهته:

- لا، بل المسيح.

- إذن ما الفارق بينه وبين الحرب؟

وأجاب مانولي:

- لا فارق بينهما.

جن الليل، وتساقط البرد كثيفاً حانئاً في سكون وتواري كل شيء تحته. واختفى السهل من تحت الجبل. وتدانت السماء حتى التقت بالأرض.

أشعل مانولي مصباح الزيت. ورفع من فوق المشبك الوجه القديم للمسيح الذي نحته قبل ذلك، ووضعه إلى جانب الوجه الجديد.

وتتمم ميشيل في وجل:

- شتان ما بين الاثنين. هل هما نفس الوجه؟

- نفس الوجه. كان قبل ذلك صبوراً وديعاً، هادئاً... والآن قاسياً حزيناً. هل

فهمت، يا ميشيل؟

وصمت ميشيل لحظة ثم قال:

- لم أكن أفهم ذلك قبلاً. أما الآن فقد فهمت.

ثم عاد إلى صمته من جديد.

وأقبل الثلاثاء. ولم يكذ يتنفس الصباح حتى كان أهل ساراكيينا على أهبة الاستعداد. كانت قمة الجبل تتألق في حلتها ناصعة البياض. وتواري النبي تحت دثاره السميك. ولكن ما إن سقط عليه أول شعاع لشمس الصباح حتى دبّت فيه الحياة، واستيقظ في وهج وردي.

وجمع القسيس فوتيس شعبه. وخاطبه قائلاً:

- يا أطفال، سيتقرر مصيرنا اليوم. تجملنا بالصبر قدر المستطاع حتى بلغنا حافة الهاوية. ولو انتظرنا قليلاً ستردى فيها لا محالة. الأطفال أولاً وفي أثرهم

الرجال والنساء. وبات لزاماً علينا أن نختار: إما الموت أو النضال من أجل الحياة.
واخترنا النضال. هل توافقون؟

- موافقون يا أبانا، كلنا دون استثناء.

- سألت حارس الجبل الذي يقف هناك فوق رؤوسنا، أعني الفارس إيليا، وأقرني بدوره. ثم استفتيت قلبي، وأقرني أيضاً. نحن لم نلتزم بما نحن بصدده اليوم هكذا خبط عشواء ودون تبصر بل عن تفكير وروية، كأنا س أحرار. سنذهب لنطالب بحقنا، ليس صدقة أو منة، بل حقاً وعدلاً. لنا في السهل حداثق وأعنا ب وحقول، ولنا زيتون وبيوت، فليعطوها لنا. نحن لا نبغي على حق أحد، وإنما نطالب بأن نعمل لأنفسنا، وفي أرضنا، حتى نعيش. لسنا جيش عنف واغتصاب، بل جيش من ضحايا الظلم، تجرع الكأس حتى الثمالة.

- لن نكون أول من يعتدي. ولكن إذا ما اعتدوا فلنا أيدينا التي خلقها الله لنا لنرد بها الضربات. كيف للعدل أن يسود، وكيف له أن يفرض نفسه على عالم يسوده الظلم والغدر إذا لم يكن عدلاً مسلحاً؟ ونحن سنسلح العدل. تولوا هم تسليح الظلم، وكان لهم ما أرادوا. وعلينا أن نثبت اليوم لهم أن للفضيلة رجالها. لم يكن المسيح حملاً فقط، بل كان أسداً هصوراً كذلك. وسيأتي معنا اليوم كأسد هصور.

نحت مانولي وجهه فوق الخشب. وها هو. هذا هو المسيح الذي سيتقدمنا، زعيماً لنا وقائداً.

بعد هذه الكلمات رفع الوجه القاسي عالياً. ومع نسيم الصباح، تمايلت صورة المسيح فوق رؤوس الأَشهاد وكأنها تهدد وتتوعد. استطاع مانولي في اللحظة الأخيرة أن يصبغ الجرح الذي يمتد بطول الوجنة حتى الذقن بلون أحمر. وهكذا بدت صورة المسيح لكل من اعتصرتهم الآلام، مناضلاً مقداماً عظيماً، أنثخته الحروب بالجراح في قديم الزمان. ولكنه يتأهب لينقض، ويواصل المعركة من جديد.

وصاح القسيس:

- ها هو قائدنا، فارفعوا أيديكم تحية له.

ثم التفت إلى لوكاس حامل الراية وقال:

- لوكاس، ثبت هذا الوجه المقدس في رأس الراية، وليتقدمنا ليلهب مسيرتنا حماساً وقوة. والآن ليأخذ كل منكم مكانه. أشرق نهار الرب، فإلى الأمام، ليتقدم لوكاس أولاً حاملاً الراية، ثم الرجال المدججون بالسلاح، ومن ورائهم في المؤخرة النساء والصبية ومعهم المقاليع.

وانتظمت الكتيبة، ورسم كل منهم علامة الصليب. وأمسك القسيس فوتيس بأيقونة النبي إيليا بين ذراعيه، وتقدم مانولي ليكون في طليعة الرجال. واتخذ ياناكوس لنفسه مكاناً وراءه متأبطاً صفيحة البترول. واعتلى ميشيل صخرة يرقب المسيرة. وكان قد قال للقسيس فوتيس: «لن أذهب معكم يا أبانا، فقد وهنت مني الذراعين كما ترى، وخارت قواهما. أتمنى لكم التوفيق».

ظل يرقبهم وهم يتحركون: أنما لهم بالية، ترفرف في الهواء، أقدامهم حافية، إلا القليلين فقد انتعلوا جلد شاة أو خرقاً بالية، وجناتهم غائرة، عظامهم ناتئة، عيونهم ثقوب سوداء؛ جوعى يقرصهم البرد، فشرعوا يحثون الخطى التماساً للدفع.

وحط ياناكوس صفيحة البترول على الأرض لكي يدعك يده في بعضها يدفعهما بعد أن تجمدتا من البرد. وصاح:

- ألن نغني شيئاً يا أصدقاء؟ هل يذهب الناس إلى العيد بأفواه مغلقة؟ هيا بنا، لنغني أغنية حرب أو أغنية أمان أو نرتل مزموراً أو أي شيء يصادف هوى في نفوسكم. لنغني يا رجال، ولنستدفي بأغانينا.

وفجأة انبسطت الجوانح، وانطلقت الأفواه، وأعطى القسيس فوتيس إشارة، وبدأ الجمع ينشد في زهو أغنية الحرب القديمة التي كان يغنيها أسلافهم إذا ما خرجوا إلى الحرب ضد البرابرة:

«يا إلهي أنقذ شعبك، وبارك ورثتك على الأرض».

«يا إلهي، أعنا على سحق البرابرة».

سفك الرماء

بدأت ليكوفريسي في تلك الساعة تتمطى وتنفض الكرى عن جفونها. كان البرد قارساً، والثلج يغطي القرية، والجبال من حولها بيضاء ناصعة. ولزم الناس بيوتهم، وتدثروا فوق سررهم الدافئة الوثيرة، ينفثون كسلهم بعد ليلة نحروا فيها الذبائح وملأوا منها البطون. ففي الليلة الماضية نحروا الخنازير، وشيطوا جلدها على النار، وأفرغوا أحشاءها، ثم ناولوها نظيفة خالصة لزوجاتهم وبناتهم. ولم يبق على هؤلاء إلا أن ينجزن عملهن اليوم: يصنعن الجيلاتين، ويعملن السجق، ويملأن القدور والجرار قديداً وشحماً...

لذلك كانت ربات البيوت هن أول من استيقظ في ذلك اليوم، شمرن عن سواعدهن، ووضعن القدور على النار، وأقبلن على عملهن مع مطلع الفجر: يصحن الفلفل الأسود والكمون لعمل السجق، ويعصرن نارنجاً وليموناً لعمل الجيلاتين. وفوق رأس كل منهن الخنزير السمين معلق داخل المطبخ رأسه إلى أسفل وردي اللون، مغسولاً، نظيفاً، في انتظار الأيدي لتعمل فيه تقطيعاً.

وقال الأغا لخادمتة مارثا في تلك الليلة:

- الويل لك، يا أم مارثا لو دخلت قطعة من ذلك اللحم الدنس إلى بيتي.
ظل يسمع طوال يومه صراخ الخنازير التي تنحر في أفنية البيوت. وطفق يقول بصوت عال:

- أف منكم يا كفرة، تدنسون أنفسكم بلحم الخنزير، وتسممون الجو بما تصنعونه من سجق مشوي.

ولكن الأغا كان مولعاً، في السر، بسجق الخنزير. كان يؤثره على غيره مزة لشراب العرقي. وارتضى أن تقدمه له الحدباء الخبيثة كل عام مدعية أنه مصنوع من لحم الجمال. والأغا يعلم علم اليقين أنه ليس كذلك، ولكنه يخادع نفسه حتى يتظاهر بالبراءة. وكان يقبل عليه في نهم، يأكل منه، ويلق أصابعه بعده، ويصر في أعماقه على أن اللحم الذي يطعمه، وهو الرجل الذواقة الخبير، ليس لحم خنزير أبداً. لذلك كان يدعو الحدباء العجوز كل عام، في اليوم الذي تنحر فيه الخنازير، ويلقي على مسمعها الحديث المعهود:

- ويل لك يا أم مارثا لو دخلت قطعة من ذلك اللحم الدنس إلى بيتي.

وهي العبارة التي تعني عنده:

- اذهبي، واشتري لي كل ما تستطيعين من سجق وادعي أنه لك، وآتني به وأقسمي لي بالآيمان المغلظة أنه لحم جمل.

وتجيب عليه الحدباء دون أن تبسم:

- لا عليك يا أغا، لا تقلق، سأتيك هذا العام بكميات وفيرة من سجق الجمال، ولا تخش شيئاً أبداً وسوف أشتري بعضاً منه لبراهيماكي أيضاً.

في هذه الأثناء كان المهلهلون الجوعى ينزلون بأقصى سرعتهم من فوق الجبل. وذات لحظة قال ياناكوس لمن هم بجواره:

- أحسن القسيس اختيار اليوم الذي ننطلق فيه إلى القرية يا إخواني. فالخنازير المذبوحة معلقة بالكلايب، مهياً لشيها. أوقدت النسوة النار لتعد الخنازير لنا. وها قد حانت الفرصة أخيراً لتشجيم أمعاء الفقراء. ترى هل نحر الشيخ لاداس خنزيراً هو الآخر؟

ولكن رفاقه الذين التهاب حماسهم مع أنشودة الحرب لم يسمعوا شيئاً مما قال.

بلغت الكتيبة السفح، وبدأت تشق طريقها عبر السهل. امتدت القرية أمامهم؟ الثلج يغطي البيوت، والدخان يتصاعد من المداخن. وارتجفت مناخير الجوعى حين سرت فيها رائحة الخنازير التي تسلق لاستخراج الجيلاتين. وتذكرت النسوة

بيوتهن التي دمرت وباتت خرابًا، واستعدن في مخيلتهن كل ما كن يفعلنه في مثل هذا اليوم من كل عام، وتنهدن.

وقبل أن يصل الجمع إلى بئر القديس بازل، توقف القسيس فوتيس وأشار بيده إشارة تعني أنه يرغب في الكلام معهم. وصاح بهم:

- يا أطفالي، خذوا حذركم. ستتوجه أولاً إلى بيت الشيخ بطرياركاس ونتحصن هناك. وإذا كان باب البيت موصداً سنفتحه عنوة، فالبيت بيتنا، ومن حقنا أن ندخله. وسوف نتفرق بعد ذلك وننتشر بين حدائقنا وكرمنا وحقولنا، ونحتلها.. نسأل الله أن يقينا شرهم وأن يمتنعوا عن مهاجمتنا. ولكن إذا ما هوجمنا فسنرد بالمثل. إنها الحرب. فنحن لا نطالب بغير حقنا، وليغفر الله لنا. استيقظت القرية، وإني أرى رجالاً منهم يتجمعون على البعد، وأسمع دق الأجراس، فكونوا على حذر. وإلى الأمام باسم المسيح.

كانت الأجراس حقاً تدق بعنف، والقرية في هرج ومرج. وبانايوتي لم يغمض له جفن طوال الليل، بعد أن شم رائحة لما قد يحدث. خرج إلى شرفة الأغا منذ الصباح الباكر، وثبت عينيه على الجبل. وإن هي إلا لحظة حتى لمح مع غبش الفجر أهل ساراكيثا ينزلون من فوق الجبل.. وهروا فوق درج السلم، وخرج إلى الميدان. وخف إلى الكنيسة، وأمسك بحبل الجرس وشرع يدق الجرس في ثورة وغضب.

وفي نفس اللحظة كانت الأم ماندالينا عند بئر القديس بازل تحمل جرثها على كتفها ورأت على البعد جيش الحفاة المهلهلين مقبلاً في صحب شديد، فأطلقت ساقها للريح عائدة إلى القرية تصرخ وتولول:

- الجوعى قادمون، طريدو الكنيسة مقبلون.. اقبطوا على أسلحتكم يا أهل القرية.

لم يكن أهل القرية نفضوا الكرى عن جفونهم بعد. ولكن ما إن سمعوا دق الأجراس حتى هبوا من فراشهم. وحين قرع آذانهم صراخ الأم ماندالينا، تلفع كل منهم بغطائه وهرع إلى باب داره وفتحه وهروا إلى الكنيسة. وتركت ربات البيوت مطابخهن، وأطللن من الأبواب أو النوافذ وهن يصحن بالرجال أثناء

مرورهم ببيوتهن:

- إيه، ماذا حدث؟ لماذا تدق الأجراس؟

ولكن الرجال واصلوا عدوهم وهم يلهثون دون أن يرد أحدهم جواباً.

سبقهم القسيس جريجوريس إلى الكنيسة، ووقف ببابها يلهث ويصيح:

- احملوا أسلحتكم يا أبنائي. ها هم الاشتراكيون ينزلون إلينا من ساراكيئا.

لا تسمحوا لهم بأن يطأوا أرض القرية. عودوا إلى بيوتكم وتقلدوا أسلحتكم ثم

اقصدوا بئر القديس بازل وتجمعوا هناك جميعكم دون استثناء.

واستدار إلى بانايوتي الذي تشبث بحبل الجرس يشده كالمجنون:

- بانايوتي، اذهب إلى الأغا وأيقظه من نومه. اطلب منه أن يمتطي بغلته ويخف

إلى بئر القديس بازل. قل له إن الاشتراكيين قادمون.

وأقبل ناظر المدرسة مبهوراً، نسي نظارته، فكان يتعثّر في كل ما يصادفه يميناً

وشمالاً.

وصاح بأهل القرية متوسلاً:

- لا تحملوا السلاح يا إخوتي. سأذهب لتفاوض معهم. سنردهم باللين.

إنهم إخوة لنا، فلا تغرقوا القرية في الدماء.

وزأر القسيس مغيظاً:

- ابق فيما يعنيك أيها الأبله. لا مساومة. دقت الساعة لكي نبيدهم. اهجموا

على العدو، يا رجال. السلاح، يا إخوتي. الموت لحملة القمل.

تأججت نار الثورة فيهم، وأسرع أهل القرية إلى بيوتهم، وتسלحوا بالهراوات

والمسدسات والمناجل. وتسلح البعض بالسكاكين التي نحروا بها الخنازير

البارحة. وهرعوا جميعاً، بصرخون ويولولون، في اتجاه بئر القديس بازل.

ولحق بهم بانايوتي عدوّاً، ووقف إلى جانب القسيس. ولوح بمسدسه، وأطلق

الرصاص في الهواء. وصرخ: «إلى الأمام يا أحبائي، ليأخذهم الشيطان».

وانتزعت طلقة الرصاص الأغا من نومه. فضرب الأرض بسوطه، وظهرت

أمامه مارثا:

- اسمعي، ما هذه الطلقة التي سمعتها؟

- الاشتراكيون يغيرون علينا يا أغا.
- أي اشتراكيين أيتها الحذباء الشائهة؟ انطقي. الذين نزحوا إلينا من الشمال؟
- لا يا أغا، الذين نزحوا إلينا من ساراكيينا. اركب بغلتك، فالمسيحيون بحاجة إليك. اركب بغلتك وساعدهم.
وانفجر الأغا ضاحكاً، كان النوم ما زال يغالبه، فانقلب على الجانب الآخر حيث ينام براهيماكي. وقال:
- أيقظيني عندما يأتون من وراء الحدود. أما الآن فاغربي عن وجهي.

رأى القسيس فوتيس أهل ليكوفريسي مقبلين في شراسة للانقضاض عليهم، فانفصل عن شعبه وتقدم وحده إلى الأمام أعزل بغير سلاح وأيقونة النبي إيليا بين ذراعيه، وصاح:
- يا إخوتي، لي كلمة معكم. قفوا واسمعوني باسم محبة المسيح. إياكم وسفك الدماء.
وتوقفت الكتيتان المتنازعتان لحظة، وانتظرتا. وخطا القسيس فوتيس بضع خطوات إلى الأمام. وصاح:
- كلمتي لك أنت يا أب جريجوريس، أخص بها قداستكم يا أبانا، فادن مني قليلاً.

واندفع القسيس جريجوريس ناحيته وقال:
- ماذا تريد مني أيها القسيس التيس؟ ها أنذا.
ووقف القسيسان وجهاً لوجه، بين الكتيتين، أحدهم ضخم الجثة، عريض المنكبين، بدين قوي البنيان، كأنه ثور، والآخر ضامر، جلد على عظم، غائر الوجنت، دامي القدمين العاريتين، كأنه حصان هزيل عجوز أثخته الجراح.
وقال القسيس فوتيس بصوت قوي ليسمعه الجميع:

- يا أبانا، إنها لخطيئة كبرى أن نثير حرباً بين إخوة، الدم المسفوك سيقع وزره على رأسينا.. ولي كلمة إليك يا أبانا أود أن تنصت لها، وكذلك أنتم يا إخوتي. ألقوا السلاح، وكفوا عن الطعان. وانتظروا. نحن القائدين، القسيس جريجوريس

وأنا، كل منا يمثل شعبه، سنتصارع معًا هنا أمامكم أعزّلين بغير سلاح، ونقسم يمينًا، إذا ما طرحني القسيس جريجوريس أرضًا ومس ظهري الرغام، سنعود أدراجنا في سلام إلى ساراكيينا صفر الديدن، وإذا طرحت أنا القسيس جريجوريس أرضًا، ومس ظهري الرغام سنتقدم ونستولي على كل ما أعطاه ميشيل لمجتمعنا، لتكن المعركة بيني وبينه على الأرض، والله من فوقنا في السماء شاهد علينا، وهو أعدل الحاكمين.

تهلل أهل ليكوفريسي لسماعهم كلمات القسيس فوتيس، إذ رأوا وجهه الشاحب الأزرق، وساقيه الهزيلتين، ويديه النحيلتين، وضحكوا في سخرية ضحكات عالية كالزئير:

- إياه يا أب جريجوريس، اهجم عليه، حسبك نفخة واحدة من فيك يسقط في إثرها على الأرض.

وانزعج أهل ساراكيينا. وصاح لوكاس:

- لا، لا يا أبانا. ليتقدم أشجعهم وينازلني. ليتقدم إليّ بانايوتي أكل النار، الذي يزهو بمسدسه وطربوشه الأحمر، هذا التركي القذر. ليحرب نفسه معي إن كانت تواتيه الجرة على ذلك.

وناول الراية لرفيق، يقف بجانبه، وشمر عن ساعديه.

واندفع بانايوتي نحوه وهو يخور:

- إني آت إليك أيها الوغد. ها أنذا أيها الاشتراكي. سأقطع رقبتك أيها الخنزير. واستل مسدسه، ووثب إلى الأمام يلوح به. ولكن القسيس جريجوريس رفع يده وقال:

- قف. دعنا وحدنا. اتركوا المسألة لنا نحن القساوسة، لنا نحن الاثنين. ولتكن النتيجة هي القول الفصل فيما شجر بيننا. أقبل تحديك أيها القسيس القذر. أقسم لك، والله على ما أقول شهيد: لو طرحني أرضًا فلكم ما أردتم، لن أعارض استيلاءكم على الممتلكات التي وهبها لكم ذلك المجنون ميشيل. ولكن إذا ما انتصرت أنا فاذهبوا جميعكم واتركونا في سلام. أسأل الله أن يكون رقيبًا علينا، يشهد المعركة ويحكم بيننا.

رسم الأب فوتيس علامة الصليب وقال:

- باسم الأب والابن والروح القدس.

واستدار، وأشار بيده لرجل عجوز، وناولته أيقونة النبي بين ذراعيه. ثم خلع جلبابه الرث وطواه في عناية وحرص، ووضعه فوق حجر، فكشف عن قميصه الأسود المهلهل. وسرواله الممزق، وقصبتا ساقيه النحيلتين وقد غطتهما الجراح. وقف القسيس جريجوريس في انتظار خصمه، مباعداً ما بين ساقيه، عاقداً ذراعيه إلى صدره، مقطباً ما بين حاجبيه، وفي عينيه البراقتين غضب واحتقار. وضرب الأرض بقدمه كأنه حصان هائج، إذ كان يتعجل النزال. ولكن ما إن رأى القسيس فوتيس واقفاً قبالته، هيكلاً عظمياً، ممزق الثياب، غائر العينين أسودهما كأنهما نبع ماء بعيد الغور، حتى أحس فجأة برعدة تسري في جسده: خيل إليه أنه واقف قبالة شبح الموت.

وقال القسيس فوتيس في هدوء:

- ارسم علامة الصليب يا أبانا، فإنني على استعداد.

ورسم القسيس جريجوريس علامة الصليب بحركة آلية، وثبت في مكانه دون حراك ازدراء منه لخصمه. وجأر بصوت ساخر:

- تعال هنا، أيتها الجراة الوضيعة. تعال لألوي رقبتك وأعتصرها بين يدي.

- ألا ينطق لسانك بغير قبيح الكلام يا أبانا؟ هل ترتل مدائح الرب بهاتين

الشفتين؟ هل هذه هي اليد التي ترفع بها كأس القداس؟

وصرخ القسيس جريجوريس بصوت مجلجل:

- إنها اليد التي تهشم عظام الأوغاد من أمثالك.

ثم مال برأسه ونطح خصمه كأنه ثور. ورفع قبضته ليهوي بها بكل ثقله ويضرب القسيس ضربة قوية، ولكن القسيس فوتيس تحاشاها في خفة فهوت يده في فراغ، وهوى القسيس جريجوريس إلى الأرض تحت ثقل جسمه وثقل ضربته. وجن جنونه، فانقض على القسيس فوتيس ونطحه ثانية، وأمسك بخصلة من شعر لحيته وجذبها في ثورة وغضب. واستجمع القسيس فوتيس بدوره كل قوته وكال للقسيس جريجوريس ضربة قوية في كرشه. وخار العجوز من شدة

الألم، وزاغت عيناه، وامتنع لونه. ولكن سرعان ما أفاق إلى نفسه، وازدادت ثورة غضبه، وتضاعفت قوته، ووثب فوق القسيس فوتيس وبدأ يعض رقبتة وأنفه وأذنيه. وتلاحم الاثنان، ولكن لم يسمع الناس غير صراخ القسيس جريجوريس، يزار كأنه وحش كاسر يلتهم فريسته.

واستبد الفزع بأهل ساراكيينا، وكنتموا أنفاسهم، واثراأت أعناقهم، وأحسوا بأن قسيسهم في خطر.

وتتمم ياناكوس في يأس:

– هلك أبونا، سيخنقه هذا الوحش.

وأجاب مانولي:

– لا تخف يا ياناكوس. ألا ترى الله؟ ها هو ذا فوقهما؟ كن واثقاً به.

لم يكذب مانولي ينهي كلامه حتى رأى القسيس فوتيس يقبض بيد من حديد على لحية القسيس جريجوريس، ثم سدّد بيده الأخرى لكمة قوية في فكه. وخار القسيس جريجوريس من شدة الألم، وتكّوم حول نفسه يبصق من فمه أسنانه ودمه. ولم يمهل القسيس فوتيس حتى يفيق، إذ أمسك به من خصره، وهزه يميناً ويساراً، ثم انقض عليه بكل ثقله، فانكفأ قسيس ليكوفريسي على الأرض يعض التراب.

وهم القسيس فوتيس ليحتم بركبتيه فوق صدر القسيس جريجوريس إلا أن بانايوتي عاجله فانقض عليه يوسعه ضرباً في شراسة وجنون. واندفع لوكاس كالسهم، ومن بعده ياناكوس ومانولي. وفي لمح البصر تلاحم الفريقان، وبدأت المقاتلّيع تصفر في الهواء، والهراوات تهوي على الأجساد. ومضى وقت طويل لا تسمع فيه غير صوت اللكمات والهراوات وطلقات المسدسات، بينما كانت السكاكين تغمد في اللحم في صمت. كنت في أول الأمر تسمح صيحات وسباب، ولكن رويداً رويداً خفت الأصوات فلم تعد تسمع غير أنفاس لاهثة، وتأوهات موجعة، وأنين مكتوم.

وهرع إلى الساحة قسطندي وأندونيس الحلاق وديم تري الجزار البدين وقد تسلّحوا بهراواتهم، وألقوا بأنفسهم في خضم المعركة إلى جانب أهل ساراكيينا.

ورأى ياناكوس أصدقاءه، فتخلص من وسط الحشد المائج ونادى على قسطندي:

- هيه يا قسطندي، هل فعلت ما أوصيتك به؟

وحملق فيه قسطندي فاغراً فاه، ولم يتذكر شيئاً.

- أي وصية؟

- حماري..

- اهدأ بالآ يا ياناكوس، إنه في بيتي.

ورفع ياناكوس صفيحة البترول على كتفه وصاح:

- إذن لنشعل النار.

وجأر لوكاس بصوت كهزيم الرعد وهو يضرب بعصاه يميناً وشمالاً كيّفما

اتفق:

- الشجاعة يا رجال، الشجاعة، انتصرونا عليهم هؤلاء الخنازير.

انهار أهل ليكوفريسي واستسلموا، وبدأوا يتراجعون تدريجياً ليحتموا بالقرية.

ولاذ عدد منهم بمنازلهم. وفي هذه الأثناء رفع أهل ساراكيينا القسيس فوتيس من

على الأرض، حيث استلقى قرب البئر، وغسلوا له جروحته، والدم ينزف من رأسه

المشجوج.

واندفع مانولي وهو يصيح:

- الشجاعة يا إخوتي.

اختطف من بانايوتي أحد مسدسيه وبدأ يطلق الرصاص في الهواء، وهو يطار

أهل القرية أثناء تقهقرهم مذعورين.

مرة أخرى سمع الناس صوت ناظر المدرسة يتحدث في ألم وانزعاج:

- كفوا يا إخوتي، لا يقتل الأخ أخاه، سنصل إلى اتفاق معاً.. كونوا على ثقة

فكلنا إغريقيون مسيحيون يا إخوتي.

ولكن سرعان ما وقع بين المعسكرين، وانقض عليه الأصدقاء والأعداء،

وطرحوه أرضاً، وداسوه بالأقدام في شراسة، وقذفه أحدهم بحجر، وتدحرج

صانع السلام إلى حفرة فاقد الوعي.

تراجع أهل ليكوفريسي جميعهم إلى القرية، وأمسك لوكاس بصفيحة البترول

الثانية وانطلق بها يعدو، وبدأ يصب البترول على الأبواب والنوافذ والجدران.

وصاح بالنسوة وهو يعدو من بيت إلى بيت:

- اهجمن عليهم أيتها النساء، اتبعنني وأشعلن فيهم النار.

وسرعان ما تصاعدت ألسنة اللهب تلعق البيوت. وحاصرت النيران نساء ليكوفريسي اللائي تحصن ببيوتهن وأغلقت عليهن الأبواب، فأخذن يولولن ويصرخن في فزع.

وحمل بعض الرجال القسيس جريجوريس إلى بيت ماندالنيا، إذ كان قريباً من ساحة المعركة. كان القسيس مسجى على الأرض وسط الفناء فاقد الوعي. وأحضرت المرأة العجوز أعشابها ومراهمها، وانحنت عليه تغسل جروحه وتطببها. خسر القسيس المسكين كل كبريائه، وبدأ يئن ويتوجع.

توغل مانولي ورجاله في هذه الأثناء بين دروب القرية حتى بلغوا بيت بطرياركاس الفسيح. وفتحوا الباب عنوة ودخلوا. وقال مانولي:

- سنتحصن هنا أيها الشجعان. ليحضر اثنان منكم قسيسنا إلى هنا، وليدخل الباقون إلى البيت سريعاً فنحن في بيتنا.

وتطوع أندونيس الحلاق. وقسطندي بإحضار القسيس فوتيس. كان أهالي القرية يعدون في الطرقات، يحملون الدلاء المملوءة ماء ويصبونها على النار ليطفئوا الحريق، والقرية كلها تعوي وتولول. وفجأة دوت أصوات فرقة:

- بيت الشيخ لاداس يحترق.

- تهشمت الجرار، وانسكب الزيت جداول في الطرقات.. تحطمت البراميل وسال النبيذ على الأرض كأنه فيضان.

- الشيخ لاداس وزوجه على قارعة الطريق يبكيان.

فقد بانايوتي طربوشه أثناء المعركة. وانتزع مانولي منه أحد مسدسيه. وبدأ السروجي يعدو كالمجنون في الطرقات، يطلق الرصاص بمسدسه الذي بقي معه، متوعداً مانولي، ويدعوه متحدياً للظهور أمامه. ولكن مانولي الذي امتلأ قلبه قلقاً وجزعاً انحنى فوق القسيس فوتيس، الذي أدخلوه إلى البيت ووضعوه فوق سرير بطرياركاس. ضمدت النساء جروحه، وبدأ يفتح عينيه وينظر إلى رفاقه من حوله

ويبتسم.

وتمتم قائلاً:

- حثوا بيمينهم. سيعاقبهم الله على ذلك. إني سعيد لأنني طرحت قسيسهم أرضاً.

- هل يؤلمك شيء يا أبانا؟

- طبعاً يا مانولي. جروحي تؤلمني، ولكنني سعيد كما قلت لك. أصدر الله حكمه وكان النصر لنا.

ودوت صيحات الفرح في الفناء. عاد لوكاس ورفاقه بعد أن أشعلوا النار في البيوت. وأحضروا معهم ثلاثة خنازير مذبوحة نظيفة جاهزة للطهي. دخلوا بها بيت العمدة بطريار كاس بين صيحات الفرح والسرور.

وصاحوا بالنساء:

- أوقدن ناراً كبيرة، فلدينا طعام وفير. افتحن خزائن المؤن، خذن دقيقاً واصنعن خبزاً، اشوين الخنازير فالمعركة فتحت شهيتنا، والرجال عضهم الجوع. واعترضت امرأة عجوز:

- ولكننا الآن في بدء صوم الميلاد واللحم محرم. ألا تخافون الله؟ فقال لوكاس مقترحاً:

- لنستفتي أبانا.

وأجاب القسيس:

- كلوا وسأحمل الخطيئة على كاهلي.

أقبل ياناكوس وقد شاطت لحيته، ورائحة الزيت والنبذ تنبعث من ملابسه. وصاح في زهو:

- شفيت غليلي، يا إخوتي. نفسي راضية الآن. كم من اليتامى والأرامل ألقى بهم الشيخ البخيل إلى قارعة الطريق، وها أنذا ألقيت به بدوره إلى قارعة الطريق، والنار تشتعل في بيته. حمداً لله.

وسمعوا طرقاً على الباب وصوت قسطندي في الخارج يقول:

- افتحوا، افتحوا يا إخوتي. قتل ناظر المدرسة.

فتحوا الباب، ودخل قسطندي والحلاق والجزار، يحملون جثة ناظر المدرسة وقد فارق الحياة. شج رأسه وبرز مخه من عظام الجمجمة، وجمدت عيناه الواسعتان، وتدلّى فكه.

وقال قسطندي:

- عثرنا عليه ملقى في حفرة، داسه أهل القريتين بأقدامهم.
وانحنى الرجال والنساء فوقه في صمت وقبلوه^(١) وجمعوا بعض الأزهار
الذابلة من الفناء، ووضعوها بين يديه.
وقال مانولي وهو يكفكف دموعه:
- أراد أن يوفق بيننا ولكننا قتلناه.

استلقى الأغا فوق حشيشه الناعمة الوثيرة، ينصت إلى طلقات المسدس وهو يدخن غليون، ويربت بيده على براهيماكي يدلله. وحين شم براهيماكي رائحة البارود غلى الدم في عروقه وأراد أن يهرع إلى الطريق ليطلق بدوره بعض الطلقات. أمسك الأغا بإحدى قدميه بقوة، وحاول براهيماكي أن يفلت منه، ولكن دون جدوى.

وقال له الأغا:

- لا تكن أبله يا براهيماكي. دع الروميين يقتل بعضهم بعضاً. لن يقوى أحد على استئصال شأفة هذه السلالة اللعينة. مذ كم من السنين ونحن في حرب معهم كي نبيدهم؟ انظر ماذا كانت النتيجة؟ صفراً. تقتلع رومياً فينبت عشرة.. لا جدوى ما لم يقتل بعضهم بعضاً. ولهذا أدعهم يتقاتلون. وما أن يفقأ كل منهم عين الآخر حتى أخرج إليهم متمطياً صهوة بغلتي وأعيد الأمور إلى نصابها. هل فهمت؟ أقول لك هذا فربما تصبح يوماً أغا لقربة من قرى الروميين فتعرف أي نهج تسلك مع هذا الجنس من البشر.

وصاح براهيماكي:

(١) تقبيل الميت شعيرة من شعائر الجنائز عند اليونان. (عن الترجمة الفرنسية).

- دعني أقتل بعضهم فإني أشعر بأكلة في يدي.

- دعك من هذه الفعلة الحمقاء ما دام سيقتل بعضهم بعضاً، إن تدخلنا سيخلق مشاكل للدولة. ستعود أساطيل الفرنجة مرة أخرى تحاصر سميرنا فتكون الطامة الكبرى. نحن هنا سعداء فوق السرير حيث الدفء يا عزيزي براهيمكي، والبرد قارس في الخارج. لن أدعك تخرج ستأتينا العجوز الحذباء بالعسل والجوز.

وصفق بيديه فأقبلت العجوز على عجل.

- ماذا يحدث بالخارج أيتها العجوز؟

- يقطعون رقاب بعضهم البعض يا أغا. القسيسان، نتف كل منهما لحية الآخر. وفقد بانايوتي طربوشه وجرحت ركبته، واحترق بيت الشيخ لاداس، وانسكب الزيت والنبيد وملأ الطرقات.

قهقه الأغا بصوت عال:

- أحسستم يا كفرة. استمروا يا رجال. ليتليكم الله بطاعون يقضي عليكم.

هات عسلًا وجوزًا.. أسرع ي أيتها العجوز.

والنتفت إلى براهيمكي الذي كان يسب ويلعن يريد الخروج:

- لا تكن أحمق وتحشر نفسك في شئون الروميين. هذه السلالة الملعونة ظهرت على الأرض نتيجة خطأ من الله. اسمع القصة التي اعتاد المرحوم جدي أن يقصها عليّ: أنصت إليها وسوف تفهم كل شيء أيها الأحمق. خلق الله كل شيء على أكمل صورة. وذات مرة أحس الله بضيق إذ كان بلا عمل. فأمسك بجذوة نار وبيعض الروث ومزجهما وصنع منهما عجينة واحدة خلق منها أول رومي.. وما إن وقع بصره على هذا الشيء الذي صنعه يده، حتى أسف على ذلك - هذا المخلوق النافه كانت له عيناً تنفذ في الحديد كأنها مثقاب. وتنهد الرب وتمتم: «هذه غلطة، فكيف لي أن أصححها؟ لنشمر عن ساعدنا ونعجن عجينة التركي فإنه هو الذي سيقتل الرومي فيعود كل شيء إلى ما كان عليه، ويستتب النظام، ويسود السلام. وأمسك ببعض العسل والبارود وعجنهما في حرص وعناية، وصور منهما التركي. وسرعان ما ألقى بالتركي في مواجهة الرومي. ونشبت الحرب بينهما سجلاً صباح مساء، وتتابعت، لا تنتهي حتى تنشب حرب غيرها

دون أن تكون الغلبة لأحدهما. ولكن عندما جن الليل وأظلمت الدنيا، تحايل الرومي الداهية اللئيم، ووضع قدمه بين ساقَي التركي في الظلام، فتعثر التركي وسقط إلى الأرض. وغضب الله وتمتم «ليأخذني الشيطان، إنني في ورطة لا مثيل لها. سيبتلع هؤلاء الروميون العالم الذي خلقته جرعة واحدة. ما العمل إذن؟ لم يغمض له جفن طوال الليل. وحين أسفر الصباح قفز من سريره فرحاً مسروراً يصفق يديه. وصاح: وجدتها، وجدتها. مرة أخرى أمسك بالروث والنار وعجن رومياً آخر، ووضع الاثنين في الصحاف. وبدأت الحرب بينهما على الفور. يقع أحدهما على الأرض، ثم ينهض ليقع الآخر.. أحدهما يضرب الآخر بسكين ثم تدور عليه الدائرة ليتلقى طعنة من أخيه.. واستمر القتال سجالاً بينهما ليل نهار، يسقطان على الأرض لينهضا ثانية، ويتضاربان من جديد ليسقطا على الأرض، وينهضان ليبدأ القتال وهكذا دواليك. وبذلك يا حبيبي براهيمائي ساد السلام على الأرض.

ودخلت مارثا العجوز حاملة العسل والجوز. وقال لها الأغا أمراً:
- افتحي الشباك يا مارثا، افتحيه على مصراعيه، حتى أسمع صراخهم وطلقات المسدس وأدخل البهجة والسرور على قلبي. املائي الزجاجاة بالعربي. انظري بعينيك حتى إذا ما قتلوا جميعاً تعالي وانبئيني بذلك، ففي هذه الحالة سأركب بغلتي لأعيد النظام.

انتهى كل شيء مع المساء، توقفت طلقات الرصاص وسكتت الأصوات، ولزم أهل القرية دورهم، يغسلون جراحهم ويدهنونها بالمرهم، ويعملون كاسات الدم، ويشربون السحلب. أشعلوا مصابيح الزيت، ومر كل منهم بيده على جسده وأطرافه يتحسس إصاباته: أذان قطعت وأسنان كسرت، وأصابع بترت، وعيون فقتت، وأضلاع تهشمت. وجالوا بذهنهم بين أنحاء القرية: كم من نوافذ حرقت، وأبواب تحطمت وخنازير ثلاثة اختفت كانت معلقة بالكلايب، ومنزل الشيخ لاداس، ما زالت تلتهمه النيران، والزيت والنبذ يفيضان في الطريق، والقمح الذي تناثر على أرض الفناء استحال فحماً.

وسألت العجوز ماندالينا:

- وماذا حدث لزوجته المسكينة الأم بنيلوب، هذه المرأة القديسة حقًا؟
- نجت بفضل زوجات الجيران اللائي اقتحمن النيران وأنقذنها. كانت جالسة فوق كرسيها، هذه المخلوقة البائسة، جامدة في مكانها مشلولة تصرخ ولا تحاول الفرار، وقد أمسكت بالجورب في هياج وثورة تضمه إلى صدرها وتهمهم بكلام غير واضح.

- وزوجها الخزير ألم يحاول أن يقتحم النيران لينقذها؟
- ماذا تقولين؟ اقتحم هذا الشيخ السفیه النيران حقًا، ولكن لا لينقذ زوجته، أبدًا، بل لينقذ خزاته التي يحتفظ فيها بالجنّيات الذهبية. اختطفها بين ذراعيه، واندفع بها وسط الشارع، ووضعها على الأرض، وجلس فوقها وبدأ يبكي بصوت متهدج.. وما إن أتوا بالأم بنيلوب إلى جواره- هل تعرفين ماذا فعلت؟ لن تصدقي.. جلست على الأرض وبدأت تغزل جوربها من جديد. أنت على حق فيما تقولين يا عزيزتي ماندالينا، إنها قديسة حقًا هذه المرأة التعسة.

وخرجت الأم ماندالينا وهي تسب الرجال وتلعنهم. وانفتح باب وهي تسير في طريقها، وامتدت يد أمسكت بثوبها:

- إيه يا ماندالينا. هل رأيت زوجي؟ لقد تلبسه الشيطان. قيل إنه كان يطلق رصاص مسدسه هنا وهناك حتى قلب القرية رأسًا على عقب. يبدو أنه قتل قسيس ساراكيئا، هل حقًا ما يقال يا عزيزتي ماندالينا؟

- لم أر زوجك يا جاريفاليا، ولكني رأيت طربوشه يتدحرج على الأرض بجانب بئر القديس بازل، يبدو أن رأسه في مكان وطربوشه في مكان آخر يا عزيزتي المسكينة جاريفاليا.

وقالت جاريفاليا وهي تصفق الباب:

- ليأخذه الشيطان.

وهرعت الطيبة العجوز إلى بيت القسيس جريجوريس لتداوي جروحه. كان بعض أهل القرية حملوه إلى بيته. والتف حوله بعض جيرانه يروحون ويجيئون، يقدمون له القهوة وشراب الليمون والسحلب.

وانحنت فوقه امرأة عجوز مهلهلة الثياب لتهمس في أذنه، والمخاط يتساقط من أنفها المدبب فوق اللحية المقدسة:

- لا خطر عليك يا أبانا، لم يصبك شيء فلا تجزع. لم تذق طعاماً منذ الصباح لذلك تشعر بالجوع. الجوع فقط هو الذي يؤلمك يا غبطة الأب.
وبعد لحظة تنهدت المرأة العجوز البائسة التي قضت حياتها تعاني مرارة الجوع والحرمان وقالت:

- صدقني، الجوع هو علة كل الأمراض، كل وسرعان ما تتحسن صحتك.
وقدموا الطعام- كان طعام صيام حيث إن الوقت يوافق صيام عيد الميلاد المجيد. جلس القسيس وبدأ يلوك طعامه في ألم، ويصر بأسنانه في غيظ وثورة. ذلك القسيس فوتيس اللعين كسر له السنة الأمامية، لذا كان يزدرد طعامه في سرعة دون أن يعضه جيداً، بينما كان الدم يتزف من رأسه المشجوج. كان ينتظر مجيء الأم ماندا لينيا ومعها عقايرها. هدأت قليلاً آلام جسمه ورأسه، ولكن ما زال قلبه تنلظى فيه نار الغضب.

وهمس لجارته ذات الأنف المدبب:

- أخبريني يا ابنتي إذ يجب أن أعرف، هل رأي أحد وقتما طرحني أرضاً ذلك القسيس اللعين طريد الكنيسة؟.. ابعدي قليلاً من فضلك فإن أنفك يرشح.
- ما هذا الكلام الذي تقوله يا أبانا؟ وهل هذا شيء معقول؟ هل يمكن لباعوضة كتلك أن تطرح قداسكم أرضاً؟ وراك الله شر هذا. لا تقل مثل هذا الكلام. لا يا سيدي لم يرك أحد، وأقسم لك على ذلك.
ولكن قلب القسيس لم يهدأ، وقال:

- كل هذا بسبب خطأ مانولي طريد الكنيسة اللعين. كل شيء بسببه فهو الذي غرر بميشيل، وهو الذي قتل ماريوري وهو الذي دفع قطيع ساراكيينا إلى النزول إلى ليكوفريسي وهو الذي حرض ياناكوس على إشعال النار في القرية.. وهو المسئول عن كل هذا.. الخائن الذي باع نفسه. سأسلخ جلده.

واعترضت المرأة العجوز:

- ولكنك مريض يا أبانا، والمرض يعفيك من هذا.

وقال القسيس بصوت رزين وقور:

- أنا قسيس، ممثل الرب، وهذا لا يليق بي. آتني ببعض الخبز والزيتون
وخضراوات بدون سمن. فإني جوعان.
قدموا له صينية حافلة بالطعام، وملأوا له كوبًا نبيذًا.
وبدأ القسيس يأكل ثانية في شراهة ونهم.
وحدث نفسه قائلًا:

- لا بد أن أكل وأشرب كثيرًا حتى أسترد بعض قوتي. يجب أن أصحو من
نومي غداً مبكرًا لمقابلة الأغا. لا بد أن يرسل برقية عاجلة إلى باشا سмирنا،
ويطلب على جناح السرعة جنودًا أترًا مسلمين بالبنادق «غزا الاشتراكيون قرية
ليكوفريسي. لتأت الجنود سريعًا لطردهم. لا بد أن يسود العدل والسلام على
الأرض من جديد».

وانفتح الباب، والتفت القسيس.

أحس براحة، وقال:

- أهلاً بك ومرحباً يا أم ماندالينا. تعالي، ادني مني. سأهمس بكلمة في أذنك.
دنت منه العجوز وانحنت عليه. وهمس في أذنها:
- تخلصني من هؤلاء الجيران واذهب لي دجاجة.

لا جروى يا يسوع لا جروى

في صباح اليوم التالي استيقظ الأغا مبكرًا وأصاخ السمع: لا صراخ، ولا طلقات رصاص، كل شيء هادئ تمامًا. وضاق صدره لذلك. وغمغم قائلاً:
- ترى هل كنت سواعد الكفرة. لماذا بحق الشيطان كفوا عن قتل بعضهم بعضًا؟

ونادى مارثا:

- تعالي أيتها المسيحية الدنسة. هل كفوا عن القتال؟ هل انتهى كل شيء؟
- انتهى كل شيء يا أغا، وكفوا عن القتال. ولكن المتمردين احتلوا بيت الشيخ بطرياركاس، ولا يريدون مبارحته. يقولون: «البيت بيتنا»، وقتل ناظر المدرسة المسكين يا أغا.

وصاح الأغا في غبطة وسرور:

- قتل؟ حسن، هذا هو ما كنت أحب أن أسمعه. واحد على الأقل. وماذا عن القسيسين؟

- ما زالوا على قيد الحياة.

- الاثنان؟

- الاثنان. تعرف أن القساوسة كالمقطط، كل منهم له سبعة أرواح. كل ما حدث خدوش وكدمات في وجهيهما، وتنف بعض شعر لحيتهما، ولكنهما بخير، لم يمت أحد منهما بعد.

وتتم الأغا:

- وا أسفاه، ما زالوا على قيد الحياة. ولكن صبرًا، فمن المؤكد أن سينشب

بينهما قتال جديد بعد قليل . أسرجي بغلتي .
واتجهت الحدباء ناحية الباب ، ولكن الأغا نادى عليها ثانية :
- أين براهيمماكي ؟ انسل من هنا قبيل الفجر .
- العاهرة بيلافيا . لا بد وأنها جاءت إلى هنا قبل الفجر . هي السبب .
- ليأخذها الشيطان . ألم يشبع منها بعد ؟ لتذهب إلى الجحيم معه ، هذا الفاسد
الخليع .. ولكنه ما زال صبيًا هذا البائس ، لا يعرف كيف يمايز الخبيث من الطيب .
اذهبي وأسرجي بغلتي .

واستيقظ القسيس فوتيس مبكرًا هو الآخر . كان لا يزال يتوجع ، ولكنه يعرض
على شفتيه ، يتحمل أوجاعه في صمت .. فكبرياؤه يمنعه من الأئين . ونادى
مانولي ، وقال له :

- عزيزي مانولي . يجب أن نسرع ، فليس لدينا متسع من الوقت نضيعه . أرسل
شعبنا ، رجالا ونساء ، ليستولوا فورًا على حدائقنا وكرمنا وزيتوننا . اطلب منهم أن
يبنوا أكواخًا هناك وقيموا على حراستها حتى لا يأتي من يطردنا منها . سأبقى هنا
مع بعض رفاقنا . اذهب في رعاية الله .
- ألا زلت تشعر بألم يا أبانا ؟

- ماذا يهم إن كنت أتألم أم لا يا عزيزي ؟ ألا زلت تفكر فيّ والخطر يحدق
بمجتمعنا ؟ اذهب وادع رجالنا ، ليتشروا بين أملاكنا . سيتدخل الأغا يقينًا بين
لحظة وأخرى .

نزل مانولي إلى الفناء . كان ناظر المدرسة ما زال مسجي فوق الحجارة وسط
الفناء . جمدت جفونه ، فلم يعد من المستطاع تسبيلهما ، وعيناه اللتان انطفأ نورهما
تشخصان إلى السماء .

وقطعت النساء بعض فروع شجر الغار ، وغطت بها الجثة . وجلست بعض
عجائز النساء القرفصاء من حوله يبيكين في هدوء . ووضعت أم غصن ريحان
في يده ، ليأخذه معه إلى طفلها الذي مات جوعًا . إذ كان ابنها أحد تلاميذ حاجي
نيقولا ، فقد أرسلته إلى مدرسة ليكوفريسي وأعجب به ناظرها .

دعا مانولي رفاقه وقسمهم مجموعات ثلاث. تسلحوا بالهراوات، وتزودوا ببعض الطعام من مخازن البيت وانطلقوا. شقت مجموعة طريقها إلى حقول الشيخ بطريار كاس، والأخرى إلى بساتين الكرم والثالثة إلى مزارع الزيتون. كانت القرية لا تزال غارقة في سباتها، والشوارع مقفرة، والدخان ما زال يتصاعد من بيت الشيخ لاداس. وذاب الثلج الذي كان يغطي السهل. وانقشعت السحب. وصفت السماء. وابتسمت قمة الجبل التي يعتليها النبي إيليا فبدت لألاء غارقة في ضوء الفجر، يغطيها الثلج.

وسمع الشماس وقع أقدام، فأطل من النافذة ورأى أهل ساراكيينا فأدرك على الفور وجهتهم. وارتنى ملابسه على عجل، وفي نفسه فرحة خبيثة، وأسرع لينعي إلى القسيس جريجوريس الأنباء السيئة.

كان يحدث نفسه قائلاً:

- سأضع بعض السم في أذنه. أنا أحق بأن أكون أسقفاً وهو شماساً. ولكن القدر أعمى.

أسرع الخطو على الطريق الصاعد إلى بيت القسيس. وفتحت أبواب في هدوء ووجل أثناء مروره بها، وصاحت الديكة. وبلغ الشماس بيت القسيس، فدفعه ودخل. كان القسيس جالساً فوق سريره، يرقب النهار الجديد منذ مطلعته. تناول بالأمس عشاء طيباً، إذ كانت الدجاجة سميكة لحيمة، وغاص فيها بوجهه حتى أذنيه. ودهنت الأم ماندالينا جروحه ببعض مراهمها، وعصبت رأسه في حرص وعناية، وزايله الألم. ولكن لحيته فقدت بعض شعرها، ونتف الجانب الأيمن لشاربه. لقد خرج القسيس البدين المهندم من المعركة ممزق الثياب، مشوه الأسنان، منتوف الشعر فأصبح كالقطة المسمومة.

بيد أنه لم يعد يشعر بالألم أو خجل. شيء واحد فقط تسلط على فكره، رغبة واحدة فقط لا غير: أن يقضي على مانولي ويقطع دابره. قرار الحرمان الذي ألقى به في وجهه لم يعد كافياً، يريد أن يشرب دمه. استيقظت في نفسه كل نوازع الهمجية البدائية، والغرائز الوحشية. آه، أود أن أصرع مانولي وأطرحه أرضاً وأجثم فوقه وأقضم زمارة رقبتة، وأشرب دمه، عوى في باطنه ذئب من القرون الأولى، هب في

أعماقه، وكسر القشرة التي تغلف روحه وبات ينظر إلى مانولي ويعوي. المحبة المسيحية، و الوداعة المسيحية، الخوف من العذاب والجحيم، والفردوس - كل هذه زابت قلب القسيس جريجوريس، لم يبق في تلك الصحراء القاحلة غير ذئب فحسب.

اقترب الشماس وهو يتلع لعابه. لم يكن يعرف كيف يصوغ الكلمات التي سينطق بها بحيث تؤلم القسيس وتوجهه في قسوة ضارية. وتصنع الخضوع وقال: - يا أبانا، أسألك الصفح والمغفرة.. السفن الضخمة خلقت لتواجه الأعاصير العاتية، والقمم الشم يشعلها البرق. وأنت السفينة الضخمة يا أبانا، والقمة السماء.. وصاح القسيس في ضيق:

- أفصح أيها الثعلب العجوز، ولا تمثل دور الساذج البريء، فأنا أعرفك جيداً. كنت تطمع في أن تكون أسقفًا، وخاب رجائك، وشفثاك تقطران سماء.. دع عنك كل هذه التلميحات، وأفصح. ما الموضوع؟ أحس الشماس بالدم يغلي في عروقه، ولكنه تمالك نفسه، وآلى على نفسه أن ينفث فيه السم قطرة قطرة. وقال بصوت باك:

- خرج القسيس فوتيس من المعركة سليماً معافى، ما زال على قيد الحياة يزهو منتصراً.

- دعك من هذا أيها المتشرد، إنما أتيت لشيء آخر غير هذا. أفرغ كل ما في مرارتك.

- رأيت بعيني رأسي أهل ساراكيينا وقد خرجوا مبكرين، وانتشروا بين ضياع الشيخ بطريار كاس. لا بد أنهم استولوا عليها. لقد هلكنا.

- ليتليك الله بطاعون. حسبك هذا.

- هناك للأسف ما هو أدهى وأمر يا أبانا، اغفر لي..

- تكلم.

- القرية كلها تتندر بالصراع الذي دار بينك وبين القسيس فوتيس وكيف طرحت أرضاً، وجثم فوق صدرك الطاهر..

استشاط القسيس جريجوريس غضبًا، واحمر وجهه.

- ادن مني أيها الحقير. اقترّب.

ولكن الشماس خاف من يد القسيس الثقيلة، وتراجع حيث احتّمى في زاوية من زوايا الحجرة. وواصل كلامه:

- وما هو أشد وأنكى من ذلك كله..

- أشد وأنكى من ذلك؟.. تكلم يا لسان الحية الرقطاء. أفرغ كل ما في جعبتك. هل تريد أن تقتلني كمداً؟

- ما هو أشد وأنكى يا أبانا.. آه، تشجع، فكلنا كما تعلم بشر إلى زوال.. مخلوقات فانية بائسة.. الموت قدر مقدور علينا..

أمسك القسيس بصندوق الشوق المعدني وقذف به الشماس في رأسه، ولكن الشماس عرف كيف يفلت منه، إذ طأطأ رأسه وجثا على الأرض فمر الصندوق من فوقه ليرتطم بالنافذة ويحطم زجاجها.

- تكلم وإلا سأقوم لك أيها المنافق السفهيه وأضربك ضرباً مبرحاً.. ماذا أشد وأنكى مما قلت؟

- ماذا؟ ألا تعرف يا أبانا؟ آه، كيف أنبئك به؟ يكاد يغمى علي.. أخوك..

فقد القسيس أعصابه، وألقى بدثاره بعيداً، وقفز من سريره وانقض فوق الشماس. ولكن الشماس كان حذراً، فوضع المنضدة وكرسيين بينه وبين القسيس واحتّمى وراءهم. وتصنع البكاء وتمتم قائلاً:

- قتل.. أخوك..

وزأر القسيس الذي تدافع الدم في عروق وجهه المنتفخة:

- من؟ متى؟ أين؟

- لا أعرف يا أبانا. كيف لي أن أعرف؟ آه المسكين ألقوه في حفرة مهشم الرأس.. وهو الآن مسجي في فناء بيت بطرياركاس يحيط به قطاع الطرق..

- ألا تشك في أحد يا شماس عليك اللعنة؟.. تعال، تذكر جيداً، وأجب عن سؤالِي.

- ماذا تنتظر مني أن أقول يا أبانا. لا أحد. ولكن أستطيع الآن أن أتذكر ما

حدث.. من يدري؟.. ربما كان..

- ربما كان من؟ تذكر جيداً يا صديقي الطيب.. انطق ولا تخف.. أنت رجل عاقل.. لا بد وأنت تعرف.. حسن، من إذن؟
ونحى المنضدة والكرسيين جانباً، ووضع يداً حنوناً على كتف الشماس، وقال له:

- أنت تعرف بكل تأكيد.. ربما يكون.. من؟
- هم م م م.. كنت هناك.. وخيل إليّ للحظة أنني رأيت.. ولكنني لست واثقاً من شيء، أخشى الخطيئة، أخاف الجحيم يا أبانا..
- اطمئن يا بني ولا تخش الجحيم، فإني سأكون هناك أذود عنك شرها.
تكلم في حرية، فقد ارتبت أنا أيضاً في نفس الشخص ساعة سماعي بالنبأ.. هذا الاشتراكي الملعون. رأيته أنت بعينيك، أليس كذلك يا صديقي؟
ولزم الشماس البائس الصمت. كان يخشى عذاب الجحيم، ولكنه يخاف أبانا أيضاً، وأصيب بدوار.
وهزه القسيس بعنف:

- هل يمكن أن أتخذك شاهداً؟- تعال، أنت تعرف مدى حبي لك وإعجابي بك.. أعني على ارتداء ملابسني. سأذهب لمقابلة الأغا، سأطلب منه القصاص.
إذن أنت رأيته، أليس كذلك؟ رأيته بعينيك هاتين، أي بني العزيز؟
- ماذا أقول يا أبانا؟ خيل إلي أنني رأيت.. ولكنني لا أستطيع أن أذكر على وجه اليقين أنني رأيت..
لوح القسيس بذراعه مهدداً، فتضاءل الشماس وجبن. وصرخ القسيس في وجهه:

- رأيته، نعم رأيته بعينيك. لماذا تنكر؟ هل أنت متواطئ معه، مع هذا الاشتراكي، أيها التعس؟
ورفع الشماس عينيه، ورأى قبضة القسيس معلقة تكاد تهوي على أم رأسه، فتصرع إليه:
- يا أبانا، أمهلني حتى أستجمع شتات فكري إذا كنت تريدني أن أتذكر.

- لك ما طلبت، وإني منتظر.

وتفكر الشماس: «قلت إنني رأيت؟ ولكن رأيت من؟ هذا ما لم أفه. لن أقول ذلك.. وهكذا لن أقع في الخطيئة..» وارتاح لهذا الخاطر. وصاح:

- رأيته يا أبانا، تذكرت الآن. رأيته بعيني رأسي، وأقسم على هذا، ساعة أن طرحك قسيس ساراكيينا أرضاً وبدأ يغرس ركبتيه في صدرك المقدس.

- اخرس، ليس هذا هو ما أطلبه منك. أعني على ارتداء ملابسي. إني سعيد لأنك رأيته، عدو المسيح - وسعيد لأن معي شاهداً.. أنت لا تدري يا صديقي أي خدمة جليلة تسديها إلى المسيحية بصنيعك هذا.

ورفع الشماس سروال القسيس وجوربه وقميصه وجلبابه، وانهمك في ستر ذلك البدن الكهنوتي بالملابس. وألبسه حذاء وحزامه وقلنسوته ثم ساعده على الوصول إلى الباب.

- أعطني ذراعك أتوكأ عليها، لا تنصرف يا شماس، أعني على المسير حتى بيت الأغا... خفف الخطو ولا تسرع، وانظر إن كانوا حملوا الجثة إلى الكنيسة، ولكن أهم شيء ألا تنسى أنك رأيته.

كان الأغا يتهاى ليمتطي صهوة بغلته حين رأى القسيس جريجوريس يدخل بيته، يترنح ويعرج وقد عصب رأسه. وما إن وقع بصره عليه، وهو على تلك الحال، حتى انفجر ضاحكاً، وصاح:

- كيف أصبحت على هذه الحال يا قسيس؟ من الذي هشم وجهك هكذا؟ وبسط القسيس ذراعيه على امتدادهما وصاح:

- العدالة يا أغا، العدالة، القصاص. تسأل من؟ إنه مانولي. هو الذي أثار ثائرة أهل ساراكيينا، وهو الذي أتى بالاشتراكيين إلى قريتنا، وأشعل النار في بيوتنا، وشج راسي، وقتل أخي ناظر المدرسة. عندي شهود. أنت ولي الأمر وممثل الحكومة التركية في ليكوفريسي، ألؤذ بك، وأمد إليك يدي سائلاً: العدالة والقصاص يا أغا. سلمني مانولي أقتص منه أنا، القرية كلها عن بكرة أبيها تتوسل إليك بلساني. - لا ترفع صوتك هكذا أيها القسيس المبارك، كدت تخرق أذني. اجلس. ستصنع لك مارثا فنجان قهوة، لتهدئ من روعك أيها الشيخ البائس. لا شيء

البته. ولا داعي للقلق. أنتم روميون، ولكم رؤوس رومية تتقارع وتخبط في بعضها وتتكسر كالبيض، هذا كل ما في الأمر، لذلك لا داعي للصراخ.

أسند القسيس ظهره إلى الحائط حتى لا يهوي إلى الأرض، وعاود طلبه:

- سلمني مانولي.

أحضرت مارثا كرسيًا على عجل، وساعدته على الجلوس. وكان الأغا في تلك الأثناء يتقلد سيفه ويغمد مسدسه الفضي في حزامه الأحمر العريض، وطوى سوطه تحت إبطه.

وانفتح الباب، ودخل شيخ هزيل، حافي القدمين، مقوس الظهر، احترق نصف شعر لحيته ورأسه، وغطت الحروق وجنتيه. سار وسط الفناء وهو يحجل ثم خر إلى الأرض تحت قدمي الأغا. وصاح باكياً:

- يا أغا، الرحمة.

وقلبه الأغا بطرف قدمه وقال:

- يا للسماء!! ألسنت أنت الشيخ لاداس؟ ما هذا القناع الذي تغطي به وجهك؟

من أين لك به؟

- أشعلوا النار في بيتي يا أغا، وهشموا الجرار والبراميل، وأحرقوا الخزائن والأثاث كما أحرقوا قلبي.

- من؟ من؟ هل رأيته؟

- مانولي. مانولي الاشتراكي.

- معنا شهود يا أغا. رآه بانايوتي، ورآه الشماس... ورأيته أنا أيضاً.

وصدر عن الشيخ البخيل صوت كالثغاء:

- احرقه يا أغا، احرقه كما أحرقني. الرحمة يا أغا. سنجمع الخشب وسط

الميدان، ونلقي عليه قارًا ونشعل نارًا نحرقه فيها.

وهرش الأغا رأسه، وبصق على الأرض في حيرة وارتباك. وهمهم:

- ورطة... ورطة. ليأخذكم الشيطان أيها الروميون.

وذرع الفناء بخطوات متوترة، يضرب الهواء بسوطه، وكلما ضرب الهواء

ازداد غضبه وتضاعف أكثر وأكثر. وزأر:

- قسمًا بحياة النبي محمد، سأقبض عليكم جميعًا، قسيسين وأعيانًا واشتراكيين، وأشنقكم جميعكم الواحد بعد الآخر فوق شجرة السنار. واستدار عند سماعه صرير الباب وهو يفتح ثانية. رأى بانايوتي يحجل في مشيته، حاسر الرأس بدون طربوش، ومعه مسدس واحد في حزامه وتمزقت ملابسه ولطخها الدم والوحل، وتورم وجهه واستحال لونه أحمر قانيًا. ولم يتمالك الأغا نفسه فانفجر ضاحكًا:

- ما هذا الشيطان القره قوز؟ ماذا أسمىك؟ الدب المنتوف، أم الجمل الأجر، أم بانايوتي؟

أسند بانايوتي ظهره إلى الحائط، وهمهم دون أن يجيب. وأحس بألم في ركبتيه، ولم يقو على الوقوف، فهوى إلى الأرض رويدًا رويدًا حتى تدرج فوق الحجارة وسط الفناء.

تفرس الأغا في زائري الصباح الثلاثة الواحد بعد الآخر: القسيس تكوم فوق كرسيه، يئن ويتوجع، ويدها ترتجفان وقد قلب فنجان القهوة فوق ثوبه، والشيخ لاداس سقط على الأرض تحت قدمي الأغا، يحرك رأسه في بقاء، ويفتح فمه ويغلقه في حركة بلهاء، وبانايوتي استحال كومة من الخرق والوحل، يظهر من تحتها قدمان ووجه متورم.

وصاح الأغا في غبطة:

- ها ها ها... لم أر شيئًا كهذا في حياتي قط. سفن محطمة، وأعلام ممزقة، وأمراء بحر تضعضعت حالهم. ولكنها سلالة الروميين تغزو فناء داري وتفسده برائحتها الكريهة. «تعال يا أم مارثا، هات خرقة وامسحيهم لتنظفي الفناء منهم». وأحس القسيس بالإهانة فرفع رأسه:

- لا تنس يا أغا أنك ملزم بتقديم حساب لحكومتك السامية. يوجد بين ظهرانينا في ليكوفريسي مبعوث من قبل بلد عدو، مهمته هي الإطاحة بالإمبراطورية التركية وإحراقها. لا تضحك... ولا تأخذ الأمر مأخذ الهزل. ارفع قبضتك واضرب بقوة، ماذا يفعل المرء إذا تسلسل ذئب داخل حظيرة الماشية؟ يقتله على الفور. سلم لنا مانولي... لا تدنس يدك به، واترك العمل القذر لنا نحن المسيحيين... ستحتشد

القرية كلها اليوم أمام دارك، تصرخ مطالبة بتحقيق العدالة. صوت الشعب هو صوت الله. أنصت لنداء الشعب: «أنت أغا القرية، محقق العدالة». غرق الأغا في تفكير عميق، ودارت رأسه، ودار معها الفناء والقرية. وقال في نفسه:

- أي ضرر في أن أقطع دابر رومي. واحد على الأقل يعد مكسبًا - ودون أن يكون لي يد في ذلك... لتريث قليلًا.

ورفع بانايوتي رأسه، إذ وافته الجرة على الكلام:

- لماذا التردد يا أغا؟ احسم أمرك. رأيت مانولي بعيني رأسي وهو يهشم رأس ناظر المدرسة بحجر ضخمة. رأيت به بعيني هاتين، وهو يعطي صفحية البترول لياناكوس، وسمعته يقول له: «ابدأ أولاً وقبل كل شيء بحرق بيت الأغا، احرق هذا الكلب في بيته حتى تتحرر قريتنا من نير الأتراك».

تطير الشرر من عيني الأغا وزأر:

- هل تقسم على ذلك، يا بانايوتي؟

نظر بانايوتي إلى القسيس الذي أوما إليه برأسه، ثم قال:

- أقسم على ذلك، يا أغا.

وتحامل القسيس على نفسه محاولاً النهوض وقال:

- مانولي اشتراكي خطير، يا أغا. له هدف واحد فقط: الإطاحة بالإمبراطورية العثمانية. ويقف البلد الأجنبي العدو من ورائه يظاها، ويحرضه. لو تركناه حيًا، سيقوى عوده ويشتد بأسه حتى يقضي علينا جميعًا.

ورد الأغا وهو يهرش رأسه:

- دائماً تدور وتدور ثم تعود إلى هذا الموضوع أيها القسيس اللعين.

وبعد لحظات من الصمت تمتم قائلًا:

- لا، أنت تبالغ يا قسيس...

ورغم هذا أحس بالحيرة والارتباك، لا يعرف كيف يستبين الأمر.

ووقف القسيس، واستجمع قواه، وتقدم ناحية الأغا وهمس:

- هل أنا أبالغ؟ هل هذا هو رأيك يا أغا؟ ولكن الأمر واضح وضوح النهار

تماماً. تذكر كيف بدأ مانولي حياته في قرينتا- راعياً حقيراً، تابعاً لبطرياركاس ضمن خدمه، لا يملك شاة واحدة لحسابه، ولا قيراط أرض، بائساً، يملأ القمل جسمه... وانظر إليه الآن كيف أصبح بفضل حيله، ومساعدة العدو: وحشاً كاسراً. رفع راية باسمه، ليشق عصا الطاعة ويتمرد، قتل الناس، وحطم أسراً، وأتى إلينا من آخر الدنيا بهذا الأفق، القسيس فوتيس وعصابته المهلهلة، واحتلوا جميعاً جبل ساراكيئا، وبدأوا يبنون قرية جديدة على بعد خطوة منا، يسكنها الاشتراكيون. أقسم أن يحرق دارك ويقتلك يا أغا، ويجمع خيرات قرينتا ويأتي بالاشتراكيين ليستولوا عليها... وأنت يا أغا لا تدري بما يحدث هنا، انتبه، وحذار، فقد تسلل الذئب إلى حظيرة غنمك، فاقتله.

وصاح معه الآخرون يؤمنان على كلامه:

- اقتله، اقتله.

مرة أخرى هرش الأغا رأسه. كان حتى تلك الساعة يأخذ الأمور مأخذاً سهلاً، ويقول لنفسه:

- هؤلاء روميون مجانيين، دعمهم يصفون حسابهم مع بعضهم بعضاً، وأدخن أنا غليونني، وأشرب الخمر، ولا أعبأ بهم في قليل أو كثير. أما الآن دخلت الإمبراطورية العثمانية في الموضوع، وأتى الاشتراكي العدو، وبدأ زمام الأمور يفلت من بين يدي. نعم... نعم، لو تركت هذه الدودة المسماة مانولي تنعم بالحياة، فمعنى ذلك أنني أترك الخطر يحدق بالإمبراطورية العثمانية ويتهدهدها... ورطت نفسي في مشاكل عويصة. صاحب لحية التيس على حق فيما يقول «تسلل الذئب إلى الحظيرة، وإذا لم أقتله سيقتلني».

وفتح فمه في ضيق:

- اخرجوا جميعاً. اتركوني وحدي. الأمر جد خطير، دعوني أتدبره... اذهبوا إلى الجحيم.

ورفع سوطه ليلهب به رؤوسهم وظهورهم.

واستبد الهلع بالثلاثة، وغاصت رؤوسهم بين أكتافهم، وهرلوا خارج البيت يرتطمون ببعضهم بعضاً، والسوط من ورائهم يصفر في الهواء. وصفق الأغا

الباب برفسة من قدمه، وأصبح وحيداً.

وصاح بمارثا:

- هات زجاجة العرقي، فإنني سأأخذ قراراً.

سار القسيس جريجوريس والشيخ لاداس بين شوارع القرية. وأصدر القسيس أمره إلى الشماس ليدق جرس الحداد. وسرعان ما تجمع أهل القرية في الميدان، يصيحون مطالبين بالقصاص، فهم لا يحتملون العار الذي لحق بهم بعد أن أذلهم الشحاؤون. ووقف القسيس بينهم، واستجمع قوته وصاح بهم:

- يا أولادي، لحقنا العار، ولا بد من أن نثار لأنفسنا. تحدثت مع الأغا في هذا واتفقنا في الرأي. من سبب كل هذه المآسي؟ شخص واحد فقط، هو مانولي طريد الكنيسة. ولكن حانت ساعته الآن. سيسلمه لنا الأغا، لنحاكمه وندينه بكل جرائمه، ونشرب دمه. انقضوا عليه يا أطفال، هبوا واذهبوا جميعاً من فوركم إلى بيت الأغا، تجمعوا أمام بيته، ولوحوا بأيديكم وارفعوا أصواتكم مطالبين: «مانولي، مانولي، أعطنا مانولي» - لا شيء غير هذا النداء، واتركوا الباقي لي.

واتخذ طريقه إلى الكنيسة، وانحنى فوق جسد أخيه، وقبله القبلية الأخيرة، ورتل صلوات الميت على عجل، إذ كان ذهنه مشغولاً بمانولي. ورفع أهل القرية الجثة وحملوها إلى المقبرة. وعندما رأى القسيس الناس وهم ينزلون بأخيه إلى لحدده ليواروه التراب، تذكر أيام الطفولة ففاضت الدموع من عينيه.

وألقي كل واحد من أهل القرية بحفنة من التراب فوق جثة الرجل الميت. وصب الشماس لكل منهم كوباً من العرقي التماساً لرحمة الفقيد، ثم وزع عليهم كسرة خبز وحفنة زيتون. وعاد الجميع من فورهم إلى القرية حيث تجمعوا أمام بيت الأغا.

انتصف النهار، وسكر الأغا حتى لم يعد بحاجة إلى مزيد، واتخذ قراره. نادى بانايوتي الذي قبع عند عتبة الباب ينتظر ككلب أوسعه صاحبه ضرباً.

- تعال هنا يا أكل الجبس الملعون، هل تستطيع المشي أم أصبحت كسيحاً أيها الأبله؟

- لو كان ذلك للقبض على مانولي فإني أستطيع.
- أرى رأسك، ولكنني لا أرى الطربوش. ماذا فعلت بطربوشك يا كافر؟
- نسيته بالأمس يا أغا عند بئر القديس بازل. قيل لي إن الأم ماندالينا عثرت عليه، وسأرسل من يأتيه به.
- البس طربوشك، وانتقي اثنين من الرجال الأشداء من أهل القرية، وآتوني مانولي، هذا إذا لم تستطع أن تأتني به وحدك. انصرف سريعاً.
- حياً أم ميتاً؟
- حياً.
وانصرف بانايوتي فرحاً مسروراً حتى أنسته الفرحة جروحه التي أصابت ركبته، وانطلق يعدو بأقصى سرعته.
وبدأ يفرك يديه وهو يتمتم:
- حانت ساعتك يا مانولي، أحسنت صنعاً يا يهوذا بانايوتي، أحسنت صنعاً أيها الهمام، انتصرت عليه.

أقام مانولي ورجاله خصاً في حديقة بطرياركاس الواسعة التي تقع خارج القرية قرب بحيرة فويداماتا. واختار مانولي من رجاله من عهد إليهم بالحراسة، إذ رأى أن يعود إلى القرية مع المساء ليطمئن على القسيس فوتيس، ويتشاور معه. وسمع، وهو في طريقه، أجراس الحداد فانقبض قلبه.
وبعد الظهر بقليل أقبل قسطندي يعدو. كان يحمل إليه أخباراً.
- القسيس جريجوريس يثير ثائرة القرية من جديد، يطوف في شوارع القرية برأسه المعصوب يهيج أهل القرية، ويحرضهم على التجمع أمام بيت الأغا ليهتفوا: «أعطنا مانولي. أعطنا مانولي. الموت لمانولي» يريدون القبض عليك يا مانولي. يلقون بكل الجرائم على عاتقك، ويتهمونك بالسرقة وإحراق البيوت، والقتل، وقبل هذا كله يتهمونك بأنك اشتراكي.. اختفي في مكان ما، احتم بساراكيينا، أو الجأ إلى مكان بعيد، حياتك في خطر. الجميع يطاردونك.
وأجاب مانولي:

- مكاني هنا مع إخوتي الذين يتهددهم الخطر. الفرار هروب من المعركة يا عزيزي قسطندي. كيف حال إختوتنا الآخرين؟ هل رأيتهم؟

- أخذ ياناكوس حماره من داري، وأخفاه في مزرعة الزيتون الكبيرة ليحتمي هناك هو ورجاله. وتحسنت حالة القسيس فوتيس، ويقول إنه سيذهب غداً لمقابلة الأغا. يقول عنه «إنه وحش حقاً، ولكنه ليس بالكائن الذي يضمخ خبثاً وكرهية في أعماقه. سيقر حقوقنا. وسوف تسير الأمور سيرها الطبيعي، المسيح معنا». ولكن مهما كان الأمر فإني خائف يا عزيزي مانولي. أقسم الجميع على سفك دمك.

- أسأل الله يا قسطندي أن يقع وزر هذه الجرائم كلها على عاتقي ويجهزوا عليّ ويتركوا رفاقي في سلام. سأرد على كل اتهاماتهم بكلمة واحدة، نعم. أنا الذي سرقت، أنا وحدي، وأنا الذي قتلت، وأنا الذي أشعلت الحرائق. سأعترف بكل ما يكيلونه من اتهامات، كلها دون استثناء، إن كان في ذلك خلاص أهلي ومجتمعي.. سأذهب راضياً مختاراً وأسلم نفسي للأغا، والآن فوراً.

وبهت قسطندي، واتسعت حدقتا عينيه، ورأى مانولي أمامه وقد أصبح إنساناً آخر، وجهاً وضاءً يشع نوراً، وقامة مدبدة فارعة، يقف سامقاً وسط الأشجار كأنه منارة من نور. وطرقت عينا قسطندي فقد بهرهما النور. وقال:

- عزيزي مانولي، لست أهلاً لأن أنصحك. فإن روحي لا تساوي أكثر من قسطندي وعائلته، وإذا غاليت في تقديري فلن يتعدى الأمور بضع أصدقاء أيضاً. فهي لا تساوي أكثر من ذلك بأي حال من الأحوال. أما أنت يا مانولي فإن روحك تمتد لتسع الناس جميعاً. إن ما أرتعد أنا منه فرقاً، تهرع أنت إلى ملاقاته خفياً فرحاً. وما أسميه أنا خوفاً، تسميه أنت أملاً. لك الإرادة والقوة على أن تقتفي أثر المسيح، فافعل ما يلهمك به الله، يا مانولي.

واتجه مانولي ناحية بوابة الحديقة وقال:

- هيا.

وتبعه قسطندي مطأطئ الرأس.

وخرجا من الحديقة، وسارا بمحاذاة البحيرة. كانت السماء صافية الأديم رغم الشتاء، والهواء شفافاً نقياً لا أثر للضباب فيه. والبحيرة مرآة مجلوة تنعكس على

مياهما أشعة الشمس خضراء داكنة. وعيدان الغاب وأشجار الصفصاف تطل إلى صورتها المنعكسة على صفحة الماء. وطائر من طيور اللقلق يقف عند الحافة على ساق واحدة يحملق في هدوء وغير اكتراث، وطائران آخران ضما ساقيهما إلى بطنهما وحلقا فوق البحيرة في صمت، يسبران غور الماء بعيون ثابتة، إذ كانا يتضوران جوعاً.

سرح مانولي الطرف فيما حوله، كأنه ينظر نظرة وداع يودع بها البحيرة والأشجار العارية. ورفع بصره إلى جبل ساراكيما الذي غطته ظلال بنفسجية رقيقة. ثم انحدر بصره إلى السهل وتأمل أشجار الزيتون والكرم وأشجار المشملة المزهرة، وحبات الليمون التي تلمع وسط الأوراق الداكنة، وشجرة اللوز التي تنبئ بقرب حلول الربيع، إذ توشك براعمها الممتلئة أن تتفتق وتكشف عما بداخلها. وتمتم مانولي، وعلى شفثيه ابتسامة:

– ما أجمل الدنيا..

وتفكر قسطندي فيما بينه وبين نفسه دون أن يفصح عن سريره:

– ولكن روح الإنسان أجمل، ففي بعض الأحيان...

وسارا في طريقهما إلى القرية. كانت الأجراس ما زالت تدق دقات الحداد. وعلى البعد جلبة وضوء اختلطت بها صيحات مختلفة ونباح كلاب. وصاح ديك.

وقال مانولي:

– يبدو أن الطقس سيتغير، أنصت لصياح الديك.

وزم قسطندي شفثيه. كان يخشى أن ينفجر في نشيج مسموع، وتبع مانولي مطرقاً برأسه صامتاً.

وفجأة، ما إن اقتربا من بئر القديس بازل حتى اندفع بانايوتي من وراء شجرة، ومعه رجلان من ذوي القوة والبأس. خرجوا يلوحون بهراواتهم. كان بانايوتي مرتدياً طربوشه هذه المرة. وامتقع لون قسطندي وتراجع قليلاً إلى الوراء. وقال لنفسه:

– سيلقيان القبض على مانولي.

ورأودته نفسه أول الأمر على الفرار بأقصى سرعته، ولكنه خجل من هذا
الخاطر، وثبت مكانه والخوف يكاد يقتله.

وتقدم بانايوتي أمام رفيقه في عزم وإصرار. ولوح بيديه في وجه مانولي
متوعداً مهدداً. وجأر:

- إلى أين يا طريد الكنيسة؟

- إني ذاهب لمقابلة الأغا يا بانايوتي. لا تغضب، سمعت أنه يبحث عني،
وإني ذاهب لأسلم له نفسي.

وحملق فيه بانايوتي فاعراً فاه:

- ألا تخاف؟ ألا تخشى الأغا أو القسيس أو القرية؟ هل أنت شيطان في ثوب
إنسان؟

- من لا يخاف الموت لا يخاف الناس يا بانايوتي. هذا هو السر. هيا بنا.

- سر أنت أمامي، حتى لا تهرب مني.

والتفت إلى رفيقه:

- انصرفا أنتما لحال سبيلكما، سأتولى بنفسني أمر هذا الأفاق. وانصرف أنت
أيضاً يا قسطندي، أيها الاشتراكي القذر.

وتردد قسطندي. ونظر إلى مانولي.

وقال له مانولي:

- اذهب يا عزيزي قسطندي، عد إلى بيتك حيث زوجك وأطفالك، ودعني

وحدي.

لم يكن قسطندي بحاجة ليكرر عليه مانولي الكلام، فانطلق مسرعاً.

وأصبح مانولي وبانايوتي وحدهما، وسارا صامتين لفترة غير قصيرة.

وأخيراً قال مانولي بصوت هادئ رقيق:

- بانايوتي، هل تكرهني إلى الحد الذي تتمنى لي فيه الموت؟ لماذا؟ ماذا

جنيت في حقك؟

وجأر بانايوتي:

- لا تتحدث إليّ بهذه النبرة، فأنت تعرف أنها تمزق قلبي.

وعادت الأرملة إلى الظهور أمام عينيه، بضحكتها العذبة، وشفتيها المصبوغتين بالخضاب، وأسنانها اللؤلؤية اللامعة، وشعرها الأشقر في لون العسل. وأحس بانايوتي بأحشائه تتمزق.

وجأر:

- بعد أن أقتلك يا مانولي سأقتل نفسي. إنني أبقى على حياتي فقط لكي أفضي عليك. ولكن ما حاجتي إلى الحياة بعدك؟ طلقه رصاص من المسدس أنتقل بعدها إلى الشيطان.

ودخلا القرية، وأجراس الحداد ما زالت تدق، وصخب شديد يدوي في الميدان عند شجرة السنار. فقد تجمع أهل القرية أمام باب الأغا يجأرون بأصوات مجلجلة.

وتوقف مانولي لحظة ينصت للأصوات:

- ماذا يقولون؟

- ستيبين ذلك فيما بعد يا طريد الكنيسة. أسرع.

وعلا الصخب، ووضحت كلماته، والتقط مانولي شذرات من صياحهم وخمن معناها، وابتسم في مرارة، وحث خطاه. وتمتم:

- هأنذا آت.. هأنذا آت. لا داعي للصياح فإني آت إليكم..

ولم يكذ مانولي يظهر في الميدان حتى انقض عليه الحشد في جنون ولكن بانايوتي تقدم وبسط ذراعيه على امتدادهما وجأر بصوت كالعجل:

- لا يمسسه أحدكم، فإنه لي أنا.

وصرخ الناس فيه وهم يهيمون به كي يمزقوه إربًا:

- يا لص، يا قاتل، يا اشتراكي.

ولمحه القسيس جريجوريس من على بعد، فاندفع تجاهه نائراً مهتاجاً:

- اقتلوه يا أطفال، الموت لطريد الكنيسة.

ولكن انفتح باب الأغا، وبرفسة من قدم بانايوتي كان مانولي وسط الفناء. وأغلق الباب على الفور.

تربع الأغا في حجرته فوق حشية من المخمل، يشرب العرقي في بلادة

وخمول، وعيناه مشبتان على الجمرات المتوهجة في المدفأة. وساد الحجرة دفء جميل، وفاحت رائحة العرقي وسجق لحم الخنزير، وهامت عينا الأغا في دنيا الخيال، غرقا في بحر من السعادة. كان ينصت لصيحات أهل القرية الذين تجمعوا أمام داره، يصرخون بأعلى صوتهم:

- مانولي. مانولي. أعطنا مانولي.

كان ينصت ويتسم في رضا، ويقول لنفسه:

- آه من هؤلاء الروميين، إنهم سلالة الشيطان، ثعالب ورعاع وشياطين مردة. الذئب لا تأكل بعضها بعضاً، ولكن الروميين يفعلون ذلك. ها هم يريدون أن يجهزوا على مانولي ويلتهموه مهما كلفهم ذلك من ثمن. لماذا؟ ماذا اقترف في حقهم؟ إنه بريء هذا المسكين، به جنة حقاً ولكنه لم يلحق أذى بأحد على الإطلاق. ورغم ذلك يصيحون: «أعطنا مانولي لنلتهمه». تريد أن تمثل دور القديس، أليس كذلك أيها المتشرد؟ إذن نل جزاءك. لأدعهم يأكلونه، إذا كان هذا يهدئ من روعهم. وماذا يضيرني أنا؟ هل أدفع عنه الأذى؟ ما مصلحتي في ذلك؟ سأقع في مشاكل. إذن ليتروني في سلام. ها هو ذا خذوه أيها الروميون، واستمتعوا بوجبة هنيئة. إني أغسل يدي منه. أنا أشرب العرقي، وأتلفذ بسجق الجمال الممتع.. وفضلاً عن هذا فعندي حبيبي براهيمكي، ثم هناك سوطي.. لدي كل ما أحب وأهوى. الحمد لله.

تردد صوت وقع خطوات في الدهليز، فرفع الأغا رأسه.

انفتح الباب ودخل بانايوتي ثم أغلق الباب وحي الأغا، وتقدم ناحيته، يعرج قليلاً في مشيته، ولكنه كان متألق الوجه.

- قبضت عليه يا أغا. كان يحتمي بالحديقة وسط ما يقرب من عشرين رجلاً من رجاله المدججين بالسلاح. وعندما وقع بصر رفيقي عليهم وليا الأدبار، وقلت لهما أغربا عن وجهي أيها الرعيدان. وتقدمت إليه وحدي، ومسدسي في يدي وصحت به: «ارفع يديك أيها الخنزير فأنا بانايوتي. وما إن سمعوا اسمي حتى هروا ووفروا جميعاً كالجرذان. وبقي مانولي وحده. والحق أقول إنه ظل ثابتاً في مكانه لم يحاول الفرار فأمسكت برقبته وسقته إليك.

وابتسم الأغا ابتسامة أخفاها شاربه الذي صبغه منذ قليل. وقال:

- حسن يا عزيزي أكل النار. يبدو لي أنك تزخرف قصتك. ولكن ماذا يضر في ذلك؟ فأنت رومي، ومعنى هذا أنك كاذب. هيا اثني به، حتى أسري عن نفسي قليلاً.

خرج بانايوتي، وأمسك بذراع مانولي وانهال عليه بقبضته ثم دفعه برفسة من قدمه إلى داخل الحجرة. ووقف مانولي أمام الأغا، هادئاً مطمئناً، عاقداً ذراعيه إلى صدره، منتظراً ما يقوله الأغا.

وأصدر الأغا أمره إلى بانايوتي:

- انتظر بالخارج يا بانايوتي واقفل الباب.

ملاً الأغا كأسه وأفرغه في جوفه دفعة واحدة. ثم حشا فمه ببعض السجق وشرع يمضغ في بطء متلذذاً. وأغمض عينيه نصف إغماضة والسعادة تملأ جوانحه. ونظر إلى مانولي وابتسم ثم قال:

- أيها التعس مانولي، هذه هي المرة الثانية التي تقع فيها بين برائني. أخال أنك لن تفلت هذه المرة. جرائم كثيرة تلقى على عاتقك أيها البائس. يزعمون أنك سرقت وقتلت وأضرمت النار في القرية.. هل حقاً ما يقولون؟
- حقاً ما يقولون يا أغا.

تدافع الدم في وجه الأغا، واهتاج وغضب. وصاح:

- اسمع، حاول أن تمثل ألاعيك الفارغة هذه على غيري. لا تكرر ما فعلته أول مرة. لا تقلد القديسين والشهداء. هل تسمعي؟ وإلا سألقي بك إلى الشيطان يتولى أمرك. هل تفهمني؟ بريء مسكين مثلك يسرق ويقتل ويشعل الحرائق؟ العب هذا على غيري، لن تستغفني يا عزيزي هل تفهم ما أقول؟ حتى لو كان الشيطان بداخلك فلن أصدق أبداً.

- بل أنا يا أغا. أنا حقاً وصدقاً، وكل هذا يحدث رغماً عني. أنا أقلد القديسين، وأمثل دور البريء، وأغض من طرفي، ولا أنظر إلى الناس في وجوههم، وأنظاهر بالتواضع والطيبة، ولكنني شيطان مريد في أعماقي.
وتعال الصيحات أكثر وأكثر في الميدان:

- مانولي، مانولي، الموت لمانولي.

- هل تسمع؟ يطلبون مني أن أسلمك لهم. لن تفلت من بين مخالبهم حيًا.
فكر وتدبر أمرك.

- تدبرت أمري يا أغا. سلمني لهم. لي مطلب واحد فقط أود أن أطلبه منك:
أن تمنعهم من أن يمسوا أحدًا غيري. الحق بجانب أهل ساراكيئا، ولكن الحقوق
لا تثبت لأصحابها في هدوء وسلام. ولذلك حاولت أن أنتزعها بالقوة، وكان أن
فعلت ما فعلت. أنا المسئول عن كل هذه المآسي، ولا أحد غيري. أهل ساراكيئا
أناس طيبون يا أغا: أمناء مسالمون محبوبون للعمل، ذوو دأب ومثابرة.
- اسمعني الآن، يقولون إنهم اشتراكيون يريدون إسقاط الإمبراطورية
العثمانية.

- لا تصدق هذا الكلام يا أغا، هذه كلها افتراءات خبيثة. الحق أنهم فقراء
ينشدون العيش في سلام، وأن تمتد لهم جذور في الأرض أسوة بغيرهم. هذا كل
ما يريدون ولا شيء سواه.

أمسك الأغا برأسه بين راحتيه، وبدأت الحجرة تدور به.

- أكاد أجن بسببكم أيها الروميون الملاعين. أستمع إلى هذا فأصدقه وأستمع
إلى غيره فأصدقه أيضًا. لم أعد أفهم شيئًا. قسمًا بربي سأشتنكم جميعًا ذات يوم،
حتى أعيش في هدوء وسلام.

وتعال الصيحات والصرخات أمام الباب:

- الموت لمانولي. الموت لمانولي.

وتمتم الأغا:

- ليأخذني الشيطان إن كنت أعرف ماذا أنا فاعل بك! إني حزين عليك حقًا،
فأنت بريء تعس، أقولها لك مرة أخرى: أنت مجنون وقديس في آن واحد. تريد
أن تحتضن كل خطايا العالم تحت جناحيك كما تحتضن الدجاجة بيضها. حزين
عليك، ولكن ماذا تنتظر مني؟ لو لم أفعل ما يطلبونه مني سأقع في مشاكل.. وبعد
هذا كله من يدريني أنك لست اشتراكياً؟ وهذا القسيس الشيطان الذي يهيج أهل
القرية ويؤلبهم ليجأروا بأعلى صوتهم أمام بيتي، قادر تمامًا على التوجه إلى باشا

سميرنا ويشكوني إليه، ثم ماذا تكون النتيجة؟ انظر وقدر أنت عاقبة ذلك، هل تفهمني الآن يا مانولي؟ ضع نفسك مكاني، ماذا كنت تفعل؟ أليس من الخير لي أن أسلمك لهم وليفعلوا بك ما يشاءون بدلاً من أن يظل حد السيف مسلطاً على رقبتى. قل لي ماذا ترى في كلامي هذا. أأست على حق؟

- أنت على حق يا أغا. سلمني لهم.

- ولكن أسألك بحق الشياطين كلها ألا تتحدث إليّ بنبرة صوتك هذه فإنك بصوتك هذا تشير جنوني. تعال وقل صراحة إنك اشتراكي حتى أحتاج وأغضب وأسلمك لهم دون أن ينظر قلبي لذلك، وإلا فإنني أخشى أن أسلم حملاً وديعاً لذئاب كاسرة. هل تفهم ما أريد؟ أنشد سلام نفسي، هذا كل شيء، ولذلك قررت أن أتخلص منك ومنهم.. هل تفهمني؟ إذا ما اعترفت بأنك اشتراكي فهذا عين المراد.

وقال مانولي:

- حسن، أنا اشتراكي. والآن هل يرضيك هذا؟ أنا خطر على الإمبراطورية العثمانية، لو استطعت لأطحت بها وقذفتها إلى عنان السماء.

- استمر، استمر، اعترف واقسم بدينك أنك ارتكبت كل هذه الجرائم. افعل كل ما في استطاعتك لتثير ثائرتي وغضبي.

- هذا العالم يا أغا عالم ظالم لئيم. الأخيار فيه جوعى معذبون، والأشرار شباع ينعمون بفاخر الطعام والشراب، ولهم السلطان. يسوسون الأمور بغير وازع من دين أو ضمير أو محبة. عالم كهذا لا بد أن يباد، فالظلم عمره قصير. سأنتقل بكل قوتي أجوب الشوارع وأعتلي الأسطح وأصيح بأعلى صوتي: «تعالوا أيها الجوعى والمقهورون، تعالوا أيها الأبرار الصالحون، تعالوا لتتحد سوياً ونضرم النار في أرجاء الدنيا لعل الأرض تتطهر، وتخلص نفسها من الأساقفة والأعيان والأغوات».

- استمر، استمر يا مانولي عليك اللعنة. هذه هي الطريقة المثلى بدأت نار الغضب تتأجج في صدري.

- أود يا أغا لو استطعت أن أدعو إلى الثورة لتمتد فوق الأرض كلها، وأن أهيج

الشعوب جميعها، الأبيض والأسود والأصفر، وأوحدهم جميعاً في جيش قوي لا يقهر، وأقتحم به القسطنطينية وكل المدن الكبيرة العفنة والقصور الدنسة العاهرة، وأشعل النار فيها جميعاً.

- استمر، استمر و اقس في حديثك أكثر وأكثر. هذه هي الطريقة المثلى.
- ولكنني لست إلا شيطاناً بائساً، لست إلا تابعاً، لا حول لي ولا قوة، ضائعاً وسط قرية في حضيض أناتوليا. وصوتي ضعيف لا يمتد إلى ما وراء ليكوفريسي وساراكيينا. لذلك أفف ما بين القريتين، وأعلن على الملأ: «هبوا أيها الإخوة الجوعى والمقهورون، احملوا سلاحكم. إلى متى نظل عبيداً؟ إلى متى نمد رقابنا في استسلام لسيف الأغا؟ هبوا فقد دقت الساعة. الحرية أو الموت. لن يعطونا حقوقنا طواعية واختياراً، بل سنتزعها بحد السيف. ليجمعكم جيش واحد أيها الإخوة المسحقون تحت الأقدام، ولتنقضوا على القرية المتخمة أهلها. اقتلوا كل من يقاومكم، احرقوا بيت الشيخ لاداس، هذا البخيل القذر. بيت بطرياركاس بيتكم، فادخلوه وتحصنوا فيه. وبعد أن تثبت أقدامكم، ويشدت بأسكم وتظفروا بالأغنياء والأعيان هبوا ثانية وانقضوا على الأغا، وامحوا آثاره من فوق أرضنا اليونانية، ألقوا به إلى الجحيم، ثم..

ولكن مانولي لم يتم جملة، إذ قفز الأغا يرغي ويزبد، وأمسك برقبة مانولي، وهزه في ثورة وعنف، وألقى به إلى الأرض، وفتح الباب ورفسه رفسة طوحته فوق السلم، وهوى يتدحرج فوق الدرج رأسه قبل قدميه. وتعبه الأغا، وأمسك به ثانية من رقبته، وجرجره فوق أرض الفناء، وفتح بقدمه الباب المطل على الميدان. وجفل الحشد فرقاً. كان الأغا يرغي ويزبد، لاهث الأنفاس، ممتقع الوجه، ممسكاً بمانولي يهزه من قفاه. وظهر من خلفه بانايوتي وقد انبسطت أسارير وجهه المتورم الأزرق، وأشار بيده إلى أهل القرية أن اقتربوا. كان القسيس جريجوريس أول من هروا مندفعاً إلى الأمام، وفتح ذراعيه ليهم بالقبض على مانولي.

ودوى صوت الأغا أجش يخنقه الغضب:

- خذوه، اقتلوه، قطعوه إرباً إرباً، ليأخذكم الشيطان جميعاً.

ثم دفع مانولي إلى الخارج، وشفق الباب من خلفه.

وانقض عليه القسيس بكل قوته، مغتبطاً مسروراً. وأمسك بمانولي من أحد كتفيه، وأمسك بانايوتي بالكتف الآخر. وأحاط به الحشد في عواء وصراخ وانهالوا عليه ضرباً وبصقاً. وحملوه إلى الكنيسة.

كان الليل أرخى سدوله، وأظلمت الدنيا، وغابت النجوم عن السماء، وتلبدت قطع من الغمام الأسود الكبيرة، ولمعت على البعد ناحية الغرب ومضات برق حزينة، باهتة، خرساء.

ومروا في طريقهم بشجرة السنار. وأنشب الحشد اللاهث برائنه في مانولي، وكفوا عن الصراخ، وحث الشماس خطاه وتقدم الجمع، وأخرج من جرابه مفتاح الكنيسة الضخم، وفتح بابها على مصراعيه. وتدافع الناس إلى الداخل وراء القسيس ومانولي. كانت المصابيح الفضية الثلاث الكبيرة مضاءة، واحد أمام أيقونة المسيح، والثاني أمام أيقونة العذراء مريم، والثالث أمام القديس يوحنا المعمدان، واحتوى الظلام القديسين والشهداء الآخرين، إلا كبير الملائكة ميشيل، زاهق الأرواح، فقد انعكس عليه ضوء مصباح العذراء. تراه باسطاً جناحيه عند باب المنشدين الصغير، أحمر القدمين كأنهما قدما لطانر الحجل. وعبقت الكنيسة برائحة البخور والشمع.

أطبق القسيس بكلتا يديه على رقبة مانولي. وجره فوق الأرض حتى وصل به إلى مكان المنشدين. ثم طرحه أرضاً، وأوقعه على ركبتيه أمام ملاك الموت. كان مبتهجاً سعيداً أن رأى مانولي تحت رحمته. بات القصاص الآن مؤكداً، حلواً، قريب المنال. وعقدت الفرحة لسانه فلم يستطع أن يفتح فمه ويتكلم. جفت الكلمات في حلقه فلم تخرج من فمه غير صرخات.

وركل بانايوتي بقدمه مانولي الذي شمخ برأسه يتفرس في هدوء في قدمي رئيس الملائكة الذي انتعل حذاء له رباط أحمر. ودفع الشيخ لاداس الحشد جانباً، واقترب مبهور الأنفاس من مانولي وبصق عليه. وتزاحم الناس حول الضحية، ينتظرون في شوق ولهفة اللحظة التي يعطي فيها القسيس جريجوريس إشارة. كانوا يلعبون شفاهم مقدماً، فقد استبد بهم فجأة ظمأ حارق.

دخل القسيس جريجوريس المذبح، وارتدى رداء الموشي بالذهب ووقف

أمام أيقونة المسيح. وألقت المصابيح الثلاثة بضوئها فوق وجهه الذي يتصبب عرقاً. ونكأ الجرح الذي أصاب جبهته، فنزف الدم منه وغطى لحية القسيس بلونه الأحمر.

وأشار إلى بانايوتي بيده، فتأبط مانولي تحت ذراعيه، وجرحه تحت قدمي القسيس. وخطا الحشد خطوة أخرى إلى الأمام مبهور الأنفاس.

وفي رزانة ووقار، قال القسيس بصوت هادر:

- باسم الأب والابن والروح القدس.

ورسم الحشد علامة الصليب وهو يجيب:

- آمين.

وصاح القسيس جريجوريس:

- اركعوا يا إخوتي، ولنصل للرب عسى أن يتنزل من سماواته العلى إلى كنيستنا ويلهمنا العدالة والسداد. يا إلهي، ها هو ذا طريد الكنيسة ملقى تحت قدميك، يرتعد فرقاً في انتظار سيفك البتار ليهوي على رقبتة. سرق، وقتل، وأشعل الحرائق، وبذر الشقاق بين الإخوة، وفرق ما بين الخطييين، وزرع الحقد والكراهية بين الأب والابن، وأثار المهلهلين والخارجين على القانون وحرصهم على التمرد، واقتحم بهم قريتنا، وسرقوا مؤننا وأمتعتنا!

لو بقي هذا الآدمي على قيد الحياة يا إلهي، فالدين والشرف في خطر، ولو ظل هذا الآدمي حياً فإن في وجوده خطراً يهدد المسيحية والجنس اليوناني، هذين الأملين العظيمين الباقيين على ظهر الأرض. استأجره العدو، ابن الشيطان، لكي يمحوا اسمك يا إلهي من على ظهر الأرض. اجتمعنا هذا المساء في بيتك يا إلهي لنصدر حكماً على هذا الأثيم الكافر. تنزل علينا يا صاحب القوة والجبروت من قبة الكنيسة وأصدر حكمك عليه. نسألك أن تسدد خطانا ونحن نمد أيدينا إليه لننفذ فيه حكمك يا إلهي.

ووطأ بقدمه ظهر مانولي ثم عاود الصياح:

- فقدت ابنتي وأخي، وهو المجرم الأثيم. بذر الشقاق والفتن في قريتنا، وهو

المجرم الأثيم. اقتحم عدو المسيح أرض قريتنا، وها هو ذا، من أطأه بقدمي، الذي

فتح له الباب. وأصبحت سارا كينا تعج بأعشاش الزنا بئر، وها هو الذي عرضنا لأسرا بهم السامة.. أيها الإخوة المسيحيون، الحكم لكم، صوت الشعب من صوت الرب، فاحكموا عليه.

لم يكذب ينطق القسيس بعبارة هذه حتى تعالت صيحات الحشد في هياج وغضب، وتحت المصابيح الفضية الثلاثة لمعت عيون تقدر شرًا وكرهية، وتألفت أسنان تصر غيظًا، ولوحت قبضات أيدي، والتوت شفاه. وجلس بانايوتي القرفصاء، يحملق في عيني مانولي، كأنه يخشى أن يفلت منه. إذا تحرك مانولي يمينًا، تحرك معه، وإذا تحرك يسارًا، تحرك معه، متأهبًا لكي ينقض عليه في أي لحظة ويمسك رقبته.

وجلس الشيخ لاداس القرفصاء فوق بلاط الكنيسة، يتذكر بيته المحترق، وزيته ونبيذه المراق، وانخرط في نحيب ونواح.

وانحنى القسيس جريجوريس فوق مانولي الذي جلس هادئًا فوق درج المذبح. صاح فيه:

- قف أيها الملعون، يا طريد الكنيسة. هل سمعت قصة المآسي التي جلبتها إلى قريتنا؟ هل سمعت قصة جرائمك؟ هل لديك ما تدافع به عن نفسك؟
ورد مانولي في هدوء:

- لا، لا شيء.

- هل تعترف بأنك سرقت، وحرقت، وقتلت؟

- أتعترف بأنني اقترفت كل هذا.

- هل تعترف بأنك اشتراكي؟

- إذا كانت كلمة اشتراكي تعني ما أؤمن به في نفسي فنع، أنا اشتراكي يا أبانا.

المسيح وأنا اشتراكيان.

وتعالت صيحات الحشد المولولة، يتردد صداها في كل أرجاء الكنيسة حتى تصل إلى سمع المسيح العلي القدير، وهو في عليائه يرقب المشهد. ووقف الشيخ لاداس يعوي:

- دعنا نقتله. دعنا نقتله. لسنا بحاجة إلى شهود آخرين. فقد اعترف. اتركه لنا

فنقتله.

والتهب حماس الحشد، ولو حوا بقبضاتهم. وجأروا:
- الموت، الموت.

انزع مانولي نفسه من بين ذراعي بانايوتي. ونزل من فوق درج المذبح فجفل الحشد. وخطا مانولي خطوة إلى الأمام، وذراعا معقودتان إلى صدره، وقال:
- اقتلوني...

وما إن أبصره الجمع يتقدم هكذا، أعزل، هادئاً ثابت الجنان، تحت ضوء المصابيح التي كللت رأسه الشقراء بهالة من نور، حتى ارتد الحشد إلى الوراء مبهوراً، وأفسح، عن غير وعي منه، مكاناً لمانولي. وران صمت ووجوم، حتى لو أن مانولي قصد الباب وانطلق هارباً في تلك اللحظة فلن يسد أحد عليه الطريق. ولكن مانولي توسط صحن الكنيسة، ووقف تحت أيقونة الرب ذي القوة والجبروت التي تعتلي القبة، وبسط ذراعيه من جديد، وصاح بهم في ضراعة:
- اقتلوني...

وتقدم القسيس جريجوريس، وأشار إلى بانايوتي أن اتبعني.
وأصدر أمره بصوت مخنوق:

- أغلقوا الباب بالمزلاج، أغلقوا الباب وإلا سيهرب.

واندفع الشماس بأقصى سرعته، وأغلق الباب ثم أسند ظهره إليه.

وسرت رعدة بين الناس عند سماعهم صوت القسيس. وانتابهم خوف فجائي حين خطر بأذهانهم أن الفريسة قد تتمكن من الفرار. وتزاحموا في فزع حول مانولي يحاصرونه، وأحس مانولي بأنفاسهم الحارقة تلفح وجهه.

وأحس مانولي، للحظة، بقلبه يسقط بين جوانحه، واستدار ناحية الباب - كان مغلقاً. ونظر إلى المصابيح الثلاثة المضاءة، والأيقونات من تحتها أثقلتها القرايين: المسيح متورد الوجنت، مشط الشعر في حرص وعناية، والعدراء مريم منحنية فوق طفلها غير عابئة بما يحدث تحت بصرها. والقديس يوحنا المعمدان يكرز في الصحراء.. ورنا ببصره إلى قبة الكنيسة وتأمل في الضوء الخافت وجه الرب ذي القوة والجبروت، يطل من عليائه على البشر، ويرميهم بنظرة قاسية. ثم جال

بعينه بين الحشد الذي يحيط به، وخيل إليه كأنه يرى نصال خناجر تلمع في الظلام من حوله.

وعوى الشيخ لاداس بصوت كأنه صرير:
- هيا نقتله.

وفي نفس اللحظة دقت طرقات عنيفة على باب الكنيسة. فتحولت الرؤوس ناحية الصوت، وران صمت مطبق، وسمعوا صيحات غاضبة مهتاجة:
- افتحوا، افتحوا.

وقال أحدهم:
- هذا صوت القسيس فوتيس.
وقال آخر:

- وهذا صوت ياناكوس.. جاء أهل ساراكيثا ليتزعموه من بين أيدينا.
واهتز الباب في عنف حتى صرت مفاصله. ودوى بالخارج صخب شديد اختلطت فيه أصوات الرجال والنساء.
وأتى صوت القسيس فوتيس واضحًا جليًا:
- افتحوا يا قتلة، ألا تخشون الله؟
ورفع القسيس جريجوريس يده وقال:
- باسم الأب والابن والروح القدس أحمل هذه الخطيئة على كاهلي. اقتله يا بانايوتي.

واستل بانايوتي خنجره، والتفت إلى القسيس جريجوريس وسأله:
- هل أجهز عليه ببركاتك يا أبانا؟
- اطعن فإني أباركك.

وتدافع الحشد، وانقض على مانولي، وتفجر الدم، وتناثر فوق وجوههم. وسقطت بعض قطراته الساخنة الملحة على شفتي القسيس جريجوريس.
وارتفع صوت مانولي واهيًا، رقيقًا، يلفظ معه أنفاسه الأخيرة: «يا إختوتي...
ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه، وهوى إلى الأرض فوق بلاط الكنيسة الحجرية،
يئن في هدوء وذراعه مبسوطتان كأنه المسيح المصلوب.

وأثارت رائحة الدم أهل ليكوفريسي، فانقضوا على الجسد الذي أسلم الروح،
والدم يطفح من بين شفتيه. وعض الشيخ لاداس رقبة مانولي بأسنانه الهتماء
يحاول أن ينهش قطعة من لحمه. ومسح بانايوتي خنجره في شعره الأحمر
وخضب فكه الكاسر بالدم وصاح:

- مزقت قلبي يا مانولي. وها أنذا قتلتك وبذلك ثأر كل منا من أخيه، فلم يعد
لي ولا عليك.

انحنى القسيس جريجوريس وملاً راحتيه دمًا، ورشه فوق رؤوس الحشد وهو
يقول:

- لعل دمه يسقط على رؤوسنا جميعًا.

وتلقى الحشد قطرات الدم وهو يرتجف.

وزارت الأصوات من جديد خارج الكنيسة:

- افتحوا يا قتلة، افتحوا.

وأشار القسيس جريجوريس إلى الشماس الذي تقدم إليه مترنحًا، وأصدر إليه
أمره:

- افتح الباب، ثم تعال ثانية واغسل البلاط سريعًا. لا تنس أننا سنحتفل الليلة
بميلاد المسيح.

ثم التفت إلى قطيعه وقال:

- هيا بنا أيها الأخوة المسيحيون. أدينا واجبنا، والله معنا، وليدخل القسيس
فوتيس الآن ليدفن صاحبه.

فتح الشماس الباب، فطلعت عليهم وجوه رجال ونساء تلمع وسط الظلام،
قلقة، غاضبة، تنذر وتوعد.

وصاح ياناكوس بصوت لاهث:

- أين مانولي؟

وأجاب القسيس جريجوريس:

- اذهبوا وابحثوا عنه. تنحوا جانبًا وافسحوا لنا الطريق.

وجأر القسيس فوتيس:

- إن كنت قتلته فإنني أدعو الله أن يقع دمه فوق رؤوسكم ورؤوس أبنائكم من بعد.

وأعاد القسيس جريجوريس ما قاله:

- اذهبوا وابحثوا عنه.

واندفع ياناكوس إلى داخل الكنيسة وهو يزأر:
- قتلوه.

دقت الأجراس في منتصف الليل تدعو المسيحيين إلى الكنيسة للاحتفال بميلاد المسيح. وفتحت الأبواب، الواحد بعد الآخر، وخرج المؤمنون يحثون الخطي في طريقهم إلى الكنيسة وأجسادهم ترتجف من شدة البرد. كان الليل هادئاً ساجياً، قارس البرد، وصفحة السماء خالية من النجوم. فتحت كل الأبواب ما عدا بيت بطرياركاس، فقد ظل دونها جميعاً، موصداً تصدر من داخله جلبة وضوضاء اختلطت فيها صيحات الرجال بنواح السيدات.

كان جسد مانولي مسجي فوق سرير بطرياركاس، ملفوفاً كطفل وليد في ملاءة من حرير ورثها ميشيل من جهاز عرس أمه. وأحاط به رفاقه يرنون إليه في صمت بوجوه شاحبة. ووضع ياناكوس يده على قدمي مانولي، وانخرط في نحيب كطفل صغير، قضى الليل بطوله يصرخ ويلطم صدره حتى أضناه البكاء، وأعيته اللطمات، فأسند رأسه إلى قدمي صديقه يبكيه بصوت خافت. وذهب قسطندي إلى ساراكيثا ليبحث عن ميشيل. وجلست امرأتان أو ثلاثة القرفصاء في زاوية من زوايا الحجرة، واتجهن إلى الحائط، ينحن ويلطمن صدورهن.

وانحنى القسيس فوتيس فوق صديقه ينظر إليه على ضوء المصباح، ويتأمل وجهه الهادئ الشاحب: طعنة سكين مزقت خده الأيمن بطوله حتى الذقن. وكان القسيس بين حين وآخر يمد يده يسوي بها شعر رفيقه الميت، ثم يغيب عنه ويفرق في تأملاته. فقد أثنى العجوز مارثا منذ لحظات وحذرتة من أن الأغا أوفد رسولاً إلى المدينة يحمل رسالة عاجلة يطلب فيها كتيبة من المشاة والخيالة، ويعلن في رسالته أن الاشتراكيين اقتحموا الكوفريسي، وذكر أيضاً أنهم ينوون قتله.

وتفكر القسيس فوتيس وهو يقبض بجماع يديه:

- سيأتون إلى هنا بأسلحتهم ومدافعهم، كيف لنا أن نقاومهم؟ سيبيدوننا عن آخرنا. مرة أخرى يجب أن نبدأ المسيرة ولا نضيع الوقت. ولكن إلى متى، يا إلهي؟ أأست إلهًا طيبًا خيرًا؟ أأست عادلاً؟ إني عاجز عن الفهم.... ومديده، وربت بها في رقة وحنان على وجه مانولي، وتمتم:

- يا عزيزي مانولي، جدت بحياتك ولكن دون جدوى. قتلوك لأنك حملت خطايانا على كاهلك، وصحت قائلاً: «أنا الذي سرت، أنا الذي قتلت، وأنا الذي أشعلت النار في القرية. أنا ولا أحد سواي». كل هذا التقي علينا حتى نمد جذورنا في الأرض في هدوء وسلام... ولكن دون جدوى يا مانولي. ضحيت بنفسك، وافتديت الناس بروحك، ولكن دون جدوى...

أنصت القسيس فوتيس إلى دقات الجرس المتتابعة في تناغم تدق في فرح لتعلن على الملاء ميلاد المسيح وأنه تنزل إلى الأرض ليخلص العالم... وهز القسيس رأسه، وندت عنه نهيدة عميقة. وتمتم قائلاً:

- لا جدوى يا يسوع، لا جدوى. مضى على صلبك ألفا عام وما زال الناس يصلبونك من جديد. أي يسوع ربي، متى ستولد يا إلهي ولا تصلب ثانية، ولكن تعيش بين ظهرانينا خالداً إلى الأبد؟

قضى القسيس فوتيس الليل بطوله حتى مطلع الفجر مسنداً رأسه إلى حافة السرير الذي تمدد فوقه مانولي. ثم أغمض عينيه وأخذته سنة من النوم. ورأى في إغفائه حلماً. رأى أنه يتعقب عصفوراً أصفر صغيراً، من نوع الكناري، تحت شجرة خضراء مورقة. وتراءى له أنه بدأ الطراد وهو لا يزال طفلاً صغيراً. ومضت به السنون، وشب وترعرع وأصبح شاباً ثم رجلاً أسود الشعر والشارب. وظلت السنون تمضي تباعاً حتى خط المشيب شعره ثم ابيض تماماً، وأصبح الآن شيخاً وما زال يتعقب الطائر الأصفر ولكن دون جدوى. لم يوفق في الإمساك به... يمد يده ليمسك بطائر الكناري الصغير فيفلت من بين يديه ويقفز من غصن إلى غصن، ومن زهرة إلى زهرة، ويصدق كالمجنون...

لم يغف القسيس فوتيس غير طريقة عين، ولكنه عندما استيقظ خيل إليه أنه عاش

آلاف السنين، قضاها وهو يتعقب طائر الكناري الصغير دون أن ينال منه التعب بل كان يشعر بقوة متجددة دائماً ولا يكل أبداً... ترى هل كان ذلك طائراً حقاً؟ شعر القسيس فوتيس في أعماقه بأن ذلك الطائر الأصفر الصغير الذي كان يغرد ويصفر كأنه يسخر منه ورأسه مرفوع إلى السماء ويصدق كالمجنون ليس أبداً طائر كناري في حقيقته... وتمتم قائلاً:

- ليكن هذا العصفور أي شيء، فلن أعبأ بذلك، ولكنني سأظل أتعبه حتى الموت...

وهب واقفاً، وصاح صيحة عالية. ودعا رفاقه، رجالاً ونساء، وجمعهم في الفناء الكبير. واستجاب لندائه كل من قضوا ليلتهم متفرقين بين الحدائق وبساتين الكرم ومزارع الزيتون، خفوا إليه والتأم شملهم في الفناء. وصاح بهم:

- يا أولادي، ضعوا قلوبكم فوق راحتكم فإن ما سأقوله لكم شاق على النفس عسير، ولكننا أولو عزم وقوة تمرسنا على تحمل الصعاب، وسوف نحتمل هذا أيضاً. علمت بالأمس أن جيشاً من الأتراك قوامه فرقتان من الخيالة والمشاة المسلحة بالمدافع، قادم إلى ليكوفريسي ليطرдна من هنا. هبوا يا أطفال خفاً حتى لا تضيع منا دقيقة واحدة. احملوا على ظهوركم كل ما تستطيعون ولننطلق في طريقنا. لنترك ليكوفريسي وساراكيينا. لم نعد الآن غير حفنة من اليونانيين نهيم على وجوهنا في الأرض. يجب أن نوطد العزم، ونعص على النواجذ، ونمضي في طريقنا. لا، لن ينالوا منا شيئاً فنحن ملح الأرض ولن يقضوا علينا. إن جنسنا خالد لا يموت.

وأمسك لوكاس العملاق بعلم القديس جورج وفتح الباب، وقال:

- لا تجزع يا أبانا، فإن جنسنا خالد لن يموت. هيا يا إخوتي اتبعوا القديس جورج، وسوف نرى إلى أين يمضي بنا الطريق.

واندفع الناس جميعاً إلى مخازن بطرياركاس الغنية، وقسم ياناكوس الدقيق والزيت والنبذ. ووزع القسيس فوتيس الملابس والبطاطين والملاءات. وخلعوا الباب من مفصله ووضعوا عليه جثمان مانولي، وحمله أربعة من الفتية الأشداء. وحمل الشيوخ الأيقونات، وسار القسيس فوتيس في مقدمتهم، وسار الجميع

بخطى حثيثة إلى ساراكيينا.

وصاح القسيس فوتيس:

- سنقصد أولاً جبل ساراكيينا حيث نواري جثمان عزيزنا مانولي التراب، ثم نحفر رمس عظام أجدادنا ونحملها معنا ونبدأ المسيرة من جديد. الشجاعة يا أبنائي. لا تخشوا شيئاً، عضوا على النواجذ. فنحن خالدون. وما إن بلغوا بئر القديس بازل حتى توقف القسيس فوتيس وانحنى عليه لحظة ثم قال:

- يا أطفالى، تنزل يسوع المسيح اليوم إلى الأرض، فلنحمله معنا: معنا أمهات سوف يرضعنه. عيد ميلاد سعيد يا أبنائي وبنايى.

وسار ياناكوس في مؤخرة الركب، ووضع أحمالاً ثقلاً على ظهر حماره، وسار إلى جواره مطرقاً برأسه صامتاً. بدا له العالم وكأنه يزداد إظلاماً ساعة بعد ساعة. فمسح ياناكوس عينيه، وسطح العالم بعد ذلك بضوء واهٍ شاحب، ضوء صباح يوم من أيام الشتاء. وربت على كفل حماره في رقة وحنان، فهز الحيوان الحبيب ذيله فرحاً مبتهجاً، واستدار برأسه، ونظر إلى صاحبه ورفيق طريقه، فهو لم يفهم شيئاً على الإطلاق. ماذا أصاب صاحبه؟ لماذا يسير صامتاً لا يتكلم؟ لماذا لم يربت بيده على بطنه ورقبته وأذنيه كعادته كل يوم؟

واتخذوا الطريق الوعر إلى ساراكيينا وبدأوا الصعود. سار في المقدمة مانولي، مسجي فوق الباب، ومن خلفه أصحابه، رجالاً ونساء، يلفهم صمت ثقيل. كان النهار شفافاً رائعاً، وكنيسة النبي إيليا الصغيرة تتألق مع بواكير أشعة الشمس. وسطعت الجبال، بعضها بلون وردي، وأخرى زرقاء شاحبة.

وقف قسطندي أمام الكهوف في انتظارهم، فقد سبقهم إلى هناك لمقابلة القسيس فوتيس. وقال:

- يا أبانا، ميشيل لن يبرح قمة النبي إيليا، سيبقى هناك. أخذ معه صرة ملابس وإنجيله المفضض، وضميرتي ماريوري، ولزم صومعة الراهب القديمة. وقال لي: «إنني سعيد بمقامي هنا، لا أريد أن أرى البشر ثانية، الأخيار منهم والأشرار على السواء، لا أحد منهم على الإطلاق. سأعزل الدنيا زاهداً، وسيكون مقامي هنا حياً وميتاً».

وهز القسيس فوتيس رأسه، غارقاً في تفكير عميق. وقال:
- من يدري يا عزيزي قسطندي، ربما كان على صواب. دعنا لا نفسد عليه
هدوءه. له طريقه ولنا طريقنا، ولنمض نحن في طريقنا.

وسأله قسطندي في قلق:

- وما هو طريقي يا أبانا؟

وضع القسيس راحته على رأس صديقه المؤمن كأنه يباركه، وأجاب:
- بعد أن نفرغ من دفن مانولي عد إلى بيتك تَوّاً يا قسطندي. ارجع إلى زوجك
وأطفالك، فهذا طريقك.

وضعوا مانولي على الأرض أمام الكهف الذي استخدموه كنيسة لهم. وارتدى
القسيس رداءه الديني، وبدأ يرتل طقوس الدفن، ومن حوله رجاله يرددون التراتيل.
وكانت تتردد بين الحين والحين أصوات نشيج ونحيب. وتوقف صوت القسيس
المتهدج فجأة عن الترتيل إذ لم يستطع أن يكتم نشيجه، بينما واصل الجمع
التراتيل...

وانحنى الجميع فوق حبيبهم الراحل، وطبع كل منهم قبلة على جبينه في هدوء
وذرفوا الدمع حزناً عليه. ووقف القسيس فوق حافة القبر المفتوح، وحاول أن
يودع مانولي ببضع كلمات، ولكنه أحس بجفاف في حلقه، فلم تخرج الكلمات
من فيه، وفجأة انفجر القسيس في نشيج مسموع.

واندفعت امرأة عجوز، وألقت بنفسها فوق الجسد الميت، حلت شعرها
الأبيض وصرخت صرخة مولولة، وودعت مانولي قائلة:

- اسم هذا الفتى البار مكتوب على صفحات الثلج.

أشرقت الشمس، وذاب الثلج، وحمل اسمه معه فوق المحيطات.

وبعد لحظات رفع القسيس فوتيس يده، وأعطى إشارة الرحيل.

وصاح:

- باسم يسوع المسيح تبدأ مسيرة الخروج من جديد. تشجعوا يا أطفالي.
ومرة أخرى استأنفوا مسيرتهم التي لا تنتهي، وقد ولوا وجوههم شطر المشرق.

خاتمة

